دوستويفسكي

الأخوة كرامازوف

ترجمة كاملة ومدققة



دار مكتبة الحياة

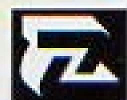


هذا الكتاب

"الإخوة كارامازوف" هي الرواية القمة، مضموناً وأسلوباً، في عطاء الكاتب المبدع دوستويفسكي. وهي تعكس قدراته الفنية والفكرية في إبراز واقعية مجتمعه وحقيقة السلوك الإنساني.

وإذ هي تقتحم ميدان القضايا الكبرى التي تشغل العقل البشري أبداً، فإنها جاءت لتثبت عظمة هذا العقل من خلال عطاءاته المثمرة سموّاً بالإنسان إذا ما تمسك بقيم الحق والخير والجمال، فيجد نفسه، إذ ذاك، في ذات الطريق التي مهدها له الإيمان من أجل بلوغ السعادة الحقيقية.

يعني هذا أنه وجد، ورضي لنفسه، حياة ذات معنى تؤمن له تحقيق توازنه الداخلي كفرد والخارجي كعضو في مجتمع.



دار مكتبة الحياة



دوستويفسكي

الأخوة كارامازوف

ترجمة كاملة ومدققة

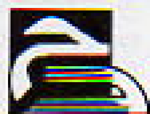
الجزء الأول

ترجمة

د. سامي الدروبي

تقديم ومراجعة

الدكتور محمد الصبّاح



دار مكتبة الحياة

للطباعة والنشر والتوزيع

كلمة الناشر

كان من أهداف «دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر»، منذ بدء انطلاقتها، نشر أعمال كبار أدباء العالم وفلاسفته تمتيناً لجسور التواصل الفكري بين البشر. وهي اليوم تقدم «الأخوة كرامازوف» لكاتب روسيا العبقري دوستويفسكي، التي تعتبر قمة أعماله مضموناً وأسلوباً.

تكتسب «الأخوة كرامازوف» أهمية يتساوى فيها عاملا الفكر والفن، حيث تتجلّى القدرة الفنية على تصوير واقع المجتمع الروسي، ومن خلاله حقيقة السلوك الإنساني فيما يتصل بالفكر والمعاش. وتبقى قيمتها المميزة في أنها تقتحم ميدان القضايا الكبرى التي تشغل العقل البشري أبداً، عنينا بها مسألة وجود الله وما يتفرع عنها كالبعث والحساب والعدل الإلهي، وانعكاس ذلك على تصرف الإنسان كفرد، وكعضو في مجتمع، يتطلّع إلى حياة يكون لها معنى يستوعب ما فيها من ألم وعذاب، فيقبل عليها بإرادة هي وليدة الإيمان وربيبته. ولعل البحث القيّم الذي صدّرنا به الرواية، قد حقق الغرض في الإبانة عمّا فيها من دور للإيمان ـ وقد عالجه الكاتب فلسفياً ـ في أن يكون لحياة الإنسان معنى، فيحقق كبرى قيمه ويدرك نهاية غاياته.

الإيمان... ومعنى الحياة

في الأخوة كرامازوف

بحث تحليلي

بقلم

الدكتور محمد الصباح[*]

في عام ١٨٨١، رحل عن الدنيا الكاتب الروائي فيودور دوستويفسكي مبقياً فيها ما أنتجه فكره من روايات ستبقى ما بقي الإنسان مشغولاً بمسألة وجوده كسِرٍّ من أسرار هذا الكون اللامتناهي، فضلاً عن تطلّعه الدائم إلى تحقيق توازنه الداخلي كفرد، والخارجي كعضو في مجتمع، ليرضى لنفسه حياة ذات معنى.

ولدى التعامل مع مأثرة فكرية لعظيم معطاء في تاريخ الإنسانية، يتقلّص خجلاً حتى الجمود، الجانبُ الماديُّ في الإنسان بكل ما فيه من إقدام وحرص على أسباب الحياة، ويشعر بالظفر زهواً حتى الامتلاء، الجانبُ الآخرُ بكل ما فيه من قيم خالدة ومعايير سامية لتقويم الحياة الحقة. إنه العقل الذي لا ينفك عن محاولات التطويع والتطوير لكل ما يمكن أن يكون في خدمة ترسيخ إنسانيته وإعلائها. ولعلّ أسمى هذه المحاولات ما ينزع منها إلى اختراق جدار الطبيعة، بعد معاينتها وبيان عيوبها ومواطن عللها، توصلاً إلى ما بعدها فيطمئن إلى مستقره الأبدي، الموعود.

في هذا المجال، ثمة مكانة مرموقة لدوستويفسكي في لائحة الإبداع

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية.

التي تنوّه بأسماء أصحاب عقولٍ ساهمت، بعلم أو أدب وفن، في إثبات عظمة العقل البشري من خلال عطاءاته المثمرة سمواً بالإنسان إذا ما تمسّك بقيم الحق والخير والجمال. وإذ ذاك يجد نفسه في ذات الطريق التي مهّدها له الإيمان من أجل بلوغ السعادة الحقيقية.

ومن قبيل التحية للإبداع البشري، أنشأنا هذا البحث في إيجابية ارتباط الحياة بالإيمان، وهو جانب عزيز من جوانب الفكر والفن في أعمال الكاتب المبدع دوستويفسكي.



وإذا كان الكلام في أثر فني يفرض الإستهلال بتقديم صاحبه، من باب الأدب في التعاطي مع نتاج العظماء، فإن الأمر هنا أدعى إلى ذلك نظراً لما بين شخصيات «الأخوة كرامازوف» وكاتبها من وقائع متشابهة، حياتية أو فكرية، ولما تمثّله هذه الشخصيات من محطات بناها المؤلف لتتضح من خلالها الظواهر الإجتماعية في أدبه، والمعالم الفلسفية في فكره. وإذ نلتزم بغاية هذا البحث المحدّد مجاله، سنقصر الحديث على توضيح هذه المعالم دون سواها، بعد أن نورد هذه النبذة عن حياة الروائي الكبير المفعمة أبداً بالألم والشقاء.



ولد فيودور دوستويفسكي عام ١٨٢١[(١)] لأبوين فقيرين معدمين، لكنهما ملتزمان بالتديّن والتعبّد إلى حد الإفراط. ورغم ضيق المسكن والعيش، كانا يحرصان على قراءة كتب راقية فكرياً على مسامع أولادهما الخمسة.

نشأ دوستويفسكي عليلاً رقيق الجسم، خجولاً، ولكنه استطاع أن يتخرج بتفوّق من معهد لدراسة الهندسة في بطرسبورغ، والعمل في الجيش

---

(١) كثيرة هي المراجع التي ترجمت دوستويفسكي. انظر خاصة:

- Geir Kjetsaa, Fyodor Dostoyevsky, A Writer's Life, translated by S. Hustvedt and D. Mc Duff. Viking Penguin Inc. 1987.
- Encyclopaedia Universalis. France 12e Publication France 1978.
- Ernest Simmons, the Crime and Punishment - introduction, modern Library New York 1950.

الذي كان أبوه أيضاً أحد أطبائه.

وبعد وفاة والده، تخلّى عن العمل الوظيفي، وانصرف بكليته إلى الأدب. وكانت باكورة إنتاجه رواية الفقراء (١٨٤٤- ١٨٤٥) التي كتبها وهو بعد على مقاعد دراسة الهندسة. وقد عرفت، فور نشرها، رواجاً عظيماً مما أكسب سريعاً الكاتب الشاب شهرة واسعة. ولكن هذه الانطلاقة الناجحة سرعان ما تلقّت صدمة قوية. فقد قامت شرطة القيصر نقولا الأول باعتقال دوستويفسكي وهو في اجتماع مع رفاق له من الأدباء الثوريين، مع أنه لم يكن يجاريهم في عقيدتهم الثورية. ووجهت إليه تهمة الاشتراك في محادثات تطعن في الرقابة وامتلاك معلومات عن تأسيس مطبعة. وكانت هذه التهمة من الخطورة آنذاك بحيث تؤدي إلى الإعدام. وفعلاً تمت محاكمته وحكم عليه بالموت. واقتيد إلى ساحة الإعدام مع واحد وعشرين رجلاً آخر[٢].

وفي رسالة كتبها دوستويفسكي إلى أخيه ميخائيل، وصف هذه اللحظات بقوله: «لقد جردوا السيوف فوق رؤوسنا، وألبسونا القمصان البيضاء المخصصة للمحكومين بالموت. ثم ربطونا كل ثلاثة إلى عمود من أعمدة الموت. وحيث كنت أنا في الصف الثالث، فقد استنتجت بأني سأظل في قيد الحياة لدقائق قليلة أخرى[٣]. وقد انصرف ذهني في تلك اللحظة إليك وإلى أطفالك الأعزاء. ثم إنني قبلت بليستشيف ودوروف اللذين كانا يشاركانني العمود وودعتهما الوداع الأخير. وفجأة نفخ في الأبواق، ففكوا قيودنا واقتادونا إلى المنصة حيث أبلغونا بأن صاحب الجلالة قد عفا عنا». وقضى هذا العفو بتخفيض العقوبة من الإعدام إلى السجن مع الأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات في سيبيريا.

---

(٢) ذكر دوستويفسكي أن زملاءه في السجن كانوا قسمين: متكلمين وصامتين. وكان اهتمامه بالغاً بالصامتين فلاحظ منهم السعداء والمتشائمين واليائسين. ووجد نفسه صديقاً لتَلِق من السعداء، أحدهم، علي، كان مسلماً. وقد جعله دوستويفسكي يقرأ العهد الجديد، وكان سروره عظيماً إذ علم من علي أنه يعتبر «عيسى» رسولاً مقدساً (Dostoyevsky A Writer's Life P. 99).

(٣) في الأخوة كرامازوف، يصف المدعي العام في مرافعته كيف يشعر المحكوم وهو يساق إلى الإعدام، وكيف يمني نفسه بأنه لدقائق أخرى، قبل الوصول إلى الساحة، يمكنه أن يبقى حياً.

وإذا كانت هذه الواقعة جعلت أحد المحكومين يصاب بلوثة في عقله عندما بادر الجنود إلى حلّ وثاقه، وبقي مخبولاً طيلة عمره، فإنها أحدثت أيضاً في نفس دوستويفسكي أثراً لم يفارقه. فهو دائماً يتطرق إلى هذا الموضوع وصفاً وتأكيداً على قسوته، في كل مؤلفاته، وهو قد أصبح بعد ارتداده نهائياً إلى الأرثوذكسية، مستسلماً إلى مشيئة الله متقبلاً كل الشقاء الذي يصيبه على أنه مباركة إلهية له.

وبعد تنفيذه سنوات السجن الأربع، أُلزم دوستويفسكي بالخدمة العسكرية مدى الحياة. إلا أنه نال في العام ١٨٥٩ عفواً من القيصر الاسكندر الثاني وسمح له بممارسة حياته المدنية.

وزاد في معاناته أن ما كان يبدو عليه في شبابه من أمارات مرض عصبي، قد تطور إلى نوبات صرع لازمته منذ فترة اعتقاله حتى آخر حياته. وكانت تعاوده بمعدل ثلاث أو أربع مرات سنوياً[٤].

ومما يدعو إلى الأسف، أن دوستويفسكي كان يعاني من الفاقة المدقعة، رغم تعدّد رواياته واشتهاره في دنيا الأدب. وكان أصدر صحيفة فمنعت، وأتبعها بأخرى فمنعت أيضاً بعد صدورها بعدة أشهر. وكانت ديونه ترهقه، وزاد في ضائقته أنه فقد زوجته ماريا ديمتريفنا وأخاه ميخائيل في عام واحد (١٨٦٤). وتعهّد بإيفاء ديون أخيه وأتى بعائلته لتعيش في كنفه، فأصبح يصل ليله بنهاره تأليفاً وكتابة دون أن يصحح قطّ ما كان يكتبه، كما قيل. وكان آخر ما كتبه «الأخوة كرامازوف» (١٨٨٠) وقد سبقها إلى الظهور «الجريمة والعقاب» (١٨٦٦) و«الأبله» (١٨٦٨) و«مسكن الموتى» (١٨٦٢) وروايات أخرى كانت جميعها تؤكد قدرته على التحليل النفسي الأخلاقي.

وفي عام ١٨٦٧، تزوج ثانية من آنا غريغوريفنا، وهي فتاة محضته كامل محبتها ورعايتها.

واعتزل دوستويفسكي الأوساط الأدبية، منصرفاً إلى همومه وشقائه،

(٤) ثمة وصف دقيق، في الأخوة كرامازوف، لهذه النوبات من الصرع التي كانت تنتاب الخادم سميردياكوف.

فتراجع في نظر الثوريين إلى حدود الانهزامية والرجعية. ورغم ذلك، فإن الناس كانوا أكثر تعلقاً به وأكثر إقبالاً على مؤلفاته التي ما فتئوا، برأي النقّاد، يجدون فيها الحكمة المنبعثة عن القلب ليهتدوا بها في مسالك الحياة.

ويوم وفاته، في بطرسبورغ، عام ١٨٨١، كان يوم حداد وطني. وقد شيعته الجماهير الغفيرة «إلى مثواه الأخير كما يشيع الملوك». وفي مماته، أصبح الناس ينظرون إلى دوستويفسكي كواحد من كبار أدباء العالم، وكرمز معبّر عن آلامهم وآمالهم. وهو سيبقى مساهماً كبيراً وفاعلاً في نشأة الحركة الفكرية في روسيا المعاصرة.



في الأخوة كرامازوف يتواكب عاملا الفكر والفن، فيحققان للرواية مكانة متقدمة في تاريخ العبقريات البشرية. فثمة فرصة للإطلاع على نمط من التعاطي الفني القدير مع واقع إنساني أبطاله أشخاص يعكسون ملامح المجتمع الروسي ويمثلون حقيقة الإنسان الخالدة. إنها محاولة جادّة في معالجة مشكلات فلسفية، وفي مقدّمها أولى طروحات العقل البشري وكبرى مشاغله، عنيت بها مسألة وجود الله وما يتفرّع عنها كمسائل العدل الإلهي والبعث والحساب، وانعكاس ذلك على تصرف الإنسان، كفرد، وكعضو في مجتمع، يتطلع إلى حياة تخلو من الألم والعذاب النفسي.

ولقد عانى دوستويفسكي من ذينك الألم والعذاب ما لا يقلّ عن معاناة شخصيات «الأخوة كرامازوف»، باستثناء مَن نجا منها بفضل الإيمان الذي، وحده، كان المنقذ لصاحبه من التردي في ظلمات السجون أو الجنون أو القبور. وهذا الأثر للفعل الإيماني لم يتأتّ دوستويفسكي بتسليم ديني من النوع البدائي أو الفطري، بل هو نهاية مطاف فكرٍ كثيراً ما عرف وتقلّب، وكثيراً ما تمرّد وتسبّب(*)، فأودعه هذه الرواية في سنوات عمره الأخيرة. لقد عرض فيها هموم الفكر الإنساني من خلال شخصيات جعلها تتحرك في إطار الحدث الروائي الممتاز بأسلوب شاعري، فأضحت قمة عطائه الفكري والفني.

(*) أي طلب الأسباب.

ولعله من المفيد أن نعرف بشخصيات عائلة كرامازوف قبل التعرض لبحث مضامين الرواية الفكرية التي أكثر ما تتبدّى من خلالها دون غيرها. ثمة عائلة مفككة أصبحت رمزاً لسلوك يتحدّد معه مدى تميّز الإنسان بالقيم، وتأثير هذه القيم، بالتالي، على استمرارية مقوّماته الأساسية، وإمكانية فوزه وسلامته.

● الأب فيودور بافلوفيتش، رجل تنحصر الحياة في نظره بالشهوة واللذة. إنه إنسان تافه، تتجاذبه الأنانية والوقاحة والطفيلية، فغدا مجرّداً من أية قيمة. ولم تُبقِ له تصرفاته العبثية مكاناً في عين أو قلب أحد من عائلته أو مجتمعه، والكل متفق على كونه رمزاً للخسة والانحطاط. وهو لا يتورّع عن إعلان كفره وإلحاده حتى أمام ابنه الراهب الناشيء والطلب إليه بإلحاح أن يترك الدير ويقلع عن الرهبنة. اغتيل على يد خادمه (سمير دياكوف) الذي ربما كان ابنه غير الشرعي.

● الابن الأكبر ديمتري، شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ممتلىء حيوية، بنيته قوية. فيه ميل لا يقاوم إلى المجون. عاطفته متأججة في كل مناسبة. عرف باندفاعه وكرمه مع طيبة غير مستقرة. يمارس جيداً الثرثرة. يتقبّل الألم كوسيلة للتطهر. كره أباه وأعلن مراراً رغبته في قتله، ودافعه، عدا صفات أبيه الكريهة، أنه استبدّ بتصيبه من إرث أمه، ثم نازعه على قلب حبيبته، وسلاحه هنا المال عينه. انتهى إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة في سيبيريا، لاتهامه بقتل أبيه.

● الابن الأوسط إيفان، ثائر متقفق، مميّز بالأخلاقية إلى جانب التحفظ والعقلانية. كان مثقلاً بهموم فكرية يعكسها تساؤله: هل ينبغي أن يحب الإنسان الحياة أكثر من حبه لمعناها؟ تعكس آراؤه قمة الإنكار الذي تمليه وتفرضه أحداث هذا العالم. إنه يحنّ أبداً، كأبيه، إلى الحياة ويتوق إلى متعها وملذاتها. وكم يكون عذابه عظيماً عندما يمنعه عن تحقيق رغبته الدفينة تلك، مانع من ذاته، مانع الالتزام بالفكر ومقتضيات المنطق، والرفض، غير القابل للمساومة، لمظاهر الظلم التي لا مبرر لها ولا تفسير. إنه متمرد على ذاته. وما أشبهه بالساحر الذي انقلب عليه سحره. ينتهي إلى الجنون.

● الابن الأصغر، أليوشا: البطل المحبب[٦] إلى قلب دوستويفسكي الذي حرص على أن يجعله كذلك أيضاً في عيون قرائه. إنه سليل عائلة كرامازوف المصابة بجرثومة الشهوانية والملذات، غير أن النقاوة في تكوينه حصّنته ضد أخطارها المهلكة. فنشأ وديعاً لا ينطق بغير الصدق، وملتزماً بقيم يتوّجها الإيمان ومحبة جميع الناس. هذه المناقب جعلته يتطلع إلى الدير، وكأنه المكان الطبيعي لتنمية مبادئه المستقيمة، والمجال الأنسب لتثميرها. وكان إعجابه عظيماً بالزاهد الأكبر، زوسيما، وتعلّق به كمثلٍ له أعلى، فبدا أقرب إلى أن يكون ابناً روحياً له. وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ بدأ حياته ضابطاً فيه من الفوقية وفورة الشباب ما دفعه إلى أن يتحدّى رجلاً إلى المبارزة لا لسبب غير كونه زوج الفتاة التي كان هو يُمنّي نفسه بها. وفي اللحظة المتاحة له، يمتنع عن إطلاق النار على غريمه ويسعى إلى مرضاته. ثم يتخلى، بانكشاف فجائي على الإيمان والخير، عن كل أسباب الدنيا ويلتحق بالدير ويصبح شيخ الزهاد فيه[٧].

أليوشا، هذا الرمز والأمل، يبدأ معه المستقبل الزاهر الآتي على روسيا من لدن الدين.

ولعلّنا هنا نستطيع، منذ الآن، تلمّس التشابه بين شخصيات الأخوة كرامازوف والمراحل الثلاث التي شهدتها حياة دوستويفسكي: فالمرحلة الأولى انتهت بسجنه في سيبريا (ديمتري)، وفي الثانية وقفة مع محاولته الاستعاضة عن الإيمان بالإشتراكية (إيفان)، والثالثة حيث تكرّس ارتداده إلى الارثوذكسية من جديد وبالتالي تمجيده لروسيا (أليوشا).

وبصورة أعم، لعله يمكننا أيضاً، بعد اطلاعنا على ملامح التكوين النفسي لأفراد عائلة كرامازوف، أن نستشفّ في صفاتهم صورة عن التقاء الأضداد في نوازع النفس البشرية. ففي الذات الواحدة تجاور بين الخير والشر، وتنقّل من

---

(٦) الأخوة كرامازوف: الباب الأول (خاصة)، الفصلان الرابع والخامس. والباب السابع، مطلع الفصل الثاني.

(٧) المرجع السابق: الباب السادس، الفصل الثاني.

الحب إلى الكراهية، ومن الرقة إلى الظلم، وتناوب دائم بين التعالي والتواضع، وتأرجح مستمر بين الإيمان والإلحاد. ومن جهة أخرى، قد تكون هذه العائلة صورة مصغّرة عن العالم بتعدّد طبائع الناس واختلاف توجّهاتهم النفسية والعقلية، وتفاوت تمسّكهم بالقيم الإنسانية والفضائل الدينية.

وبعد تظهير هذه الصورة المقارنة، فلننظر إلى ما انتهى إليه دوستويفسكي عندما بحث في المسائل الإنسانية، من خلال الأبعاد الحقيقية للأفكار التي طرحها عبر شخصياته. فها هو الإنسان ما زال مجالاً لاصطراع الخير والشر في داخله. إنه رغم طيبته، قد يستسلم للشيطان فيتمكن هذا من احتوائه بصورة جزئية أو كلية.

فهذا ميتيا، مثلاً، في لحظة من لحظات عذابه النفسي، يريد أن يفتح قلبه لملاك على الأرض- وأليوشا هو ملاكه المطلوب- «فيعترف» له بشعوره أنه حشرة من الحشرات التي وهبها الله شهوة الجسد. «وعندما أتردّى في مهاوي الرذيلة، أنغمس فيها إلى قمة رأسي وأشعر بنشوة في الانحطاط. وفي أعماق الرذيلة أتلو ترنيمة التمجيد. لأكن ملعوناً، ولأكن دنساً حقيراً، ولكن دعني ألثم طرف الحجاب الذي يخفي عن عيني نور ربي. ومع أنني أتبع خطوات الشيطان فإنني ما زلت ابنك يا إلهي، أحبك وأشعر بالبهجة التي لا استمرار بدونها للحياة»[٨].

إنه يعاني من الشقاء العظيم الكامن للإنسان على الأرض. والمشكلة قائمة لأن كل ما في الأرض لغز. لقد أمعن النظر في الجمال، ذلك الشيء الهائل المخيف كونه لغزاً «لم نفهمه ولن ندركه، لأن الله لا يفتح أبصارنا إلا على الألغاز... آه من الجمال. إن الشيء الذي لا أقوى على احتماله أن يعمد إنسان سامي العقل رفيع القلب إلى جعل مريم العذراء مثالاً له في أول الأمر، ثم يتخذ من سدوم[٩] مثالاً له في نهاية الأمر. وأنكى من هذا أن يجعل

---

(٨) المرجع السابق: الباب الثالث، خاتمة الفصل الثالث.

(٩) سدوم، وعمورة، مدينتان قديمتان على البحر الميت في فلسطين، أمعن أهلها في ارتكاب المعاصي والخطايا فأمطرهما الله ناراً وقلبهما غضباً وانتقاماً (الكتاب المقدس: تكوين ١٣: ١٠ و ١٩: ٢٥، وتثنية الاشتراع ٢٩: ٢٣).

إنسان مثاله سدوم يمزج به روحه ثم يبقى متمسكاً بالعذراء. نعم إن مطامح الإنسان مسرفة في الإتساع، وليته اختصرها، والشيطان وحده يعلم ماذا يكون من أمرها... صدّقني، إن الجمال موجود في سدوم بالنسبة لغالبية البشر. هل أدركت ذلك السر؟ إن الشيء الرهيب هو أن الجمال سرّ غامض بقدر ما هو هائل. وبخصوصه يتصارع الله والشيطان، وساحة الصراع هي قلب الإنسان»[٨].

ولئن كان المجال هنا لا يسمح بتتبع جميع آثار الشيطان في «الأخوة كرامازوف»، فقد تكفينا الإشارة إلى أنه كان يستوعب كثيراً من شخصياتها ويدفعها إلى تصرفات تختلف في شكل الأداء، ومؤدّاها واحد. فهو كتعبير عن الشر الكامن والمتوثّب في النفس الإنسانية، تلمس وجوده في أكثر فصول الرواية، حتى في الفترة الأولى من حياة ناسك الدير الأكبر، الأب زوسيما نفسه[١٠]. وإن كان رمزاً يتعكس من خلاله حكم الإنسان على الشر وأهله، فهو الذي رآه الأب فيرابون بين ظهراني الناسكين من الرهبان وأغلق الباب على ذيله[١١]. أما إذا كان متمثّلاً[١٢] للبشر في صورة إنسان عصري، كما حصل مع إيفان[١٣]. وهو هنا أكثر ما يكون قرباً وأعظم خطراً. فلعلّه يكون تأكيداً على تطوق الإنسان إلى عمق القضية الإيمانية، وعدم وصوله إلى قرار نهائي يحسم تجاذبه بين نزوعه الفطري والإكتسابي، وبين إعماله العقل في مسائل قد لا يكون مؤهلاً أصلاً للبحث في بعضها على الأقل.

وإذا كان الأمر كذلك، فهل يجوز أن يكون ما قصرت عنه عقولنا دافعاً لإنكار وجود الله؟ وفي أيّ حال، تبقى مسألة الجبر والاختيار لتشغل الفكر البشري الذي ما فتيء يصطدم بتلك المقدمات والاستنتاجات التي باتت حجة ترهق العقل لدى مواجهته حلّ إشكال صدور الشر في عالم خلقه الله، رمز

(١٠) الأخوة كرامازوف: الباب السادس، الفصل الثاني.
(١١) الأخوة كرامازوف: الباب الرابع، الفصل الأول.
(١٢) إن سابقة الراهب الألماني مارتن لوثر مع الشيطان معروفة ومشهورة.
(١٣) الأخوة كرامازوف: الباب الحادي عشر، الفصل التاسع.

الخير ومصدره: إذا كانت أفعالنا مقدّرة من الله تعالى، ونكون بالتالي مجبرين على القيام بها، فلا يجب أن يعاقبنا على أفعال الشر منها. وإذا كان عقابنا حاصلاً ولا بدّ، فالعدل يقضي بأن نكون أحراراً، تأتي الخير والشر اختياراً. والعقل لا يقبل أن يعاقب الإنسان على فعل لم يقترفه، فكيف إذا كان القاضي هو الله نفسه الذي خلق فينا مفاهيم العدل والخير والشر؟

وإذ يرافق دوستويفسكي الإنسان في اهتماماته الفكرية والدينية تلك، فلا بدّ لنا من ملاحظة أن الإنسان إذا كان يُقبل على الحياة من منطلق عفويته أو التزامه الديني، فهو يقبلها بريئة، كما هي، براءة العفوية، أو حقيقة من الحقائق التي يفرضها الدين. ومع تجاوز نظرته إلى الحياة هذه العفوية أو هذا الالتزام الديني، تأخذ الحياة تتكشّف له عن كونها **مشكلة**. إنه يريد، إذ ذاك، أن يجد لها معنى ينسجم ومطالبه العقلية والوجدانية في آن. حتى إذا ما فشل في إيجاد هذا المعنى، غدت الحياة نفسها غير ذات قيمة، وبالتالي فإنه سيرفضها رفضاً لا يغيّر فيه اعتبار آخر. ويكون هذا الأمر باعث الألم ومصدر الشقاء في نفس الإنسان.

تلك هي الحالة التي انتهى إليها إيفان، الذي يجسّد الشخصية المركزية المعبّرة، عن جوهر بحثنا هذا. لقد امتثل لحكم عقله الذي رفض الحياة بعد اكتشافه الخلل الفادح في المعادلة التي تقبل ظلم الأبرياء في عالمنا باعتبار أن العدالة ستتحقق فيما بعد فيهتف الجميع مهللين للرب العادل. ولكن هذه العدالة ستكون في اللانهاية مكاناً وزماناً، وليس هنا على هذه الأرض. إنه لا يقوى على الإيمان إلا بما تراه عيناه فقط. لقد أضنى هذا الأمر إيفان فسأل الشيطان سؤالاً محدداً: هل الله موجود، نعم أم لا؟[١٤] ولم يكن سؤاله هذا إلاّ من قبيل دعم الراحة الوجدانية في ذاتٍ تطمح إلى ثبوت حقيقة الموجود المطلق، الله، الذي يؤمن إيفان بوجوده، أو هو يؤمن، على الأقل، بضرورة وجوده في عقل الإنسان، **كقدرة عليا** تمسك بهذا الكون وتديره بحكمة لامتناهية، بحيث يكون هذا الإنسان قد حقق أمراً عجباً إذ يتوصل، رغم

(١٤) يتردد هذا السؤال عينه، بشكل أو بآخر على ألسنة كثير من شخصيات دوستويفسكي.

وحشيته الضارية وفساده، إلى فكرة مقدسة عظيمة كهذه، تكون أيضاً نافعة. أما المشكلة التي شقّت على إيفان، فهي في وجود عالم خلقه الله فيه من الظلم والعذاب ما لا يتفق والحقيقة المنشودة، مما يجعل الإيمان به ينقلب إنكاراً له ولعالمه سواء.

ولم يكن رفض إيفان الصارم ذاك، ليلغي تعلّقه بالحياة رغم تأرجحه بين إيمانه بوجود الله، وبين ما يمليه عقله عليه. لقد استنتج إيفان أن الإنسان، في حال عدم وجود الله، يتحرر من إرادة مطلقة كانت لتقيّده، فتطغى إرادته الشخصية على الكل، ويغدو كل شيء مشروعاً. ولا يخفى أن التسليم بهذه المشروعية المطلقة يفرض إلغاء القيم الإنسانية كلها، وبالتالي انفلات الإنسان من القيود التي كانت لتنتظره بعد الموت. ولكن عاقبة هذا التسليم غير مأمونة، وإيفان نفسه لم يسلم من خطر هذا المنزلق، فأدركت الحمى دماغه وقادته إلى الجنون. وكان سبقه، إلى الانتحار، الخادم سمير دياكوف الذي تلقى منه هذا المبدأ.

الواقع أن إيفان يقبل بوجود الله، كقدرة مطلقة يعجز العقل البشري عن إدراكها، ولكنه يرفض العالم الذي أوجده الله، بسبب ما فيه من متناقضات ومظالم وآلام. ولئن كان ثمة تبريرات، فيما يعني الكبار، لهذه المآسي المنافية للعدالة والحسّ الأخلاقي، فهي معدومة حتماً في معاناة الأطفال الأبرياء عندما يتعرضون للقتل الوحشي على أيدي الأعداء، أو التعذيب المسرف على أيدي أهلهم بالذات[١٥]. وكيف نبرّر، إذا أصاب طفلٌ بحجرٍ، انطلق عفواً من يده، رِجلَ كلب سيّده، أن يجعله السيد هذا درساً نموذجياً للعبيد والخدم بإطلاق كلاب الصيد خلفه فيتمزق جسده العاري نتفاً في أفواهها على مرأى من الجميع تتقدمهم والدته نفسها!

(١٥) لقد وصف إيفان وصفاً دقيقاً تلذّذ الأتراك بقتل أطفال كانوا يرفعونهم على رؤوس حراب بنادقهم، على مرأى من أمهاتهم، وعذاب طفلة بائسة حبستها أمها فعانت من الجوع والبرد القارس والألم. وعبّر عن الأثر العميق الذي تركته في نفسه ضربات يد هذه الطفلة على صدرها، في الليل البهيم، تعبيراً عن الألم القاتل والاحتجاج الصارخ ضد الظالمين للأبرياء. وغدت هذه الضربات مثاله على كل ما لا يمكن غفرانه.

وإذا كانت معرفتنا تقضي بأن هذه الآلام ستزول حتماً مع انتهاء الحياة، فإن إيفان يبقى، مع ذلك، مصراً على رفض الواقع الحياتي على الأرض، لأنه إنما يطلب العدالة على هذه الأرض بالذات وليس في مكان آخر. فضلاً عن أن تحقق العدالة هناك لا يعادل مردودها لحظة عذاب واحدة يعاني منه هنا طفل بريء حتى الموت. وإذا كان لا بد من دفع الثمن الباهظ هذا لشراء السعادة الموعودة للبشر في اللانهاية، فإن العملية تكون خاسرة. بل إن أخلاقنا ترفض مجرد البحث فيها ما دامت هذه السعادة لا تتحقق إلا على آلام الأبرياء، وخصوصاً منهم الأطفال الذين لم يطعموا شيئاً ولا هم جنوا شيئاً.

هكذا حرص دوستويفسكي على أن تكون رفضية إيفان وليدة الحس بألم الإنسانية المتجدّد أبداً على الأرض. ولذا جاءت أعنف وأقسى من كلّ ما سبقها من محاولاتِ إنكارٍ كانت أقرب إلى مجرّد قدرةٍ على التنظير أو ابداعٍ في التعبير منها إلى التفاعل الوجداني مع حقيقة التجربة الإنسانية. ولعلّ نزعة العظماء إلى التعبير عن منجزاتهم الرائدة دفعته إلى القول في إحدى رسائله: «إني لم أجد في أوروبا بأسرها قوة إنكار تماثل تلك القوة التي وضعتها في شفتيّ إيفان في الأخوة كرامازوف[16]».

ولقد شاء إيفان، من خلال تحليله ذاك، أن يحصل من أخيه المؤمن، أليوشا بالذات، على اعترافه برفض هذا الأمر من حيث المبدأ. خاطبه قائلاً: «إنني أتحداك، أجبني عن هذا السؤال: تصوّر أنك تصمّم بناء المصير الإنساني، وهدفك من ذلك أن يصبح الناس سعداء في النهاية، بعد أن تؤمّن لهم السلام والراحة. ووجدتَ أن لا مندوحة عن تعذيب وقتل مخلوق واحد ضئيل، تلك الطفلة، مثلاً، التي تضرب صدرها بقبضة يدها، وأن بناءك هذا لا يمكن أن يقوم إلاّ على دموعها التي لم يُنتقم لها، فهل كنتَ ترضى أن تكون الصانع وفق هذه الشروط؟ أجبني وكن صادقاً في قولك»! وكان جواب أليوشا هادئاً وايجابياً بعدم الموافقة على ذلك. كما أقرّ أيضاً برفضه أن يرضى الناس أنفسهم ـ الذين يفترض أنه يؤسس لهم ذلك البناء ـ بأن تكون سعادتهم قائمة

(١٦) الأخوة كرامازوف، مقدمة طبعة دار اليقظة العربية دمشق، سورية ١٩٥٣، ص ١٤.

على أساس من دم ضحية صغيرة. كذلك رفض الموافقة على أن يظل هؤلاء سعداء إلى الأبد في حال قبولهم.

وإذ وجد أليوشا نفسه، وهو يرفض مثل تلك السعادة العامة ما لم تكن خالصة من نقطة الدم الواحدة، يستبعد وجود مخلوق في الدنيا يملك حق الصفح والقدرة على التصرف به، تألقت عيناه كأنما وقع نظره على مفتاح باب الخلاص، فأنهى جوابه بقوله: «ولكن هنالك إله يستطيع أن يصفح عن كل شيء ويغفر للجميع. لقد وهب دمه البريء للإنسانية جمعاء. إنك نسيته، فعليه تأسس البناء، وإليه يرفعون أصواتهم قائلين: إنك عادل يا رب، لأنك كشفت لنا سرك[١٧]».

ولئن كان الفكر الديني يطرح من خلال أليوشا، في وجه إيفان، حل الخلاص من دوامة التناقض هذه، المتمثل بالإله المبرأ من الخطايا والآتي إلينا ليقيم بيننا بصورة إنسان يجسد البراءة، ولن يلبث أن يهرق دمه فداء عن الجميع وما اقترفوه، فإن إيفان لم يفته هذا الطرح، بل أعرب لأخيه عن تعجّبه من تأخير استشهاده به. وكان فعلاً محتاطاً له وجوابه أسطورة حاكم التفتيش الكبير التي تفتقها عقله كرؤية «عملية» لمعالجة مسألة الخير والشر.

في هذه الأسطورة[١٨]، وهي قصيدة منثورة، أن السيد قد عاد إلى الأرض، وعرفه الناس رغم بساطة شخصيته وغياب المظاهر التي تدلّ على عودته، فأقبلوا عليه وتحلّقوا حوله، فغمر الجميع بمحبته ونوره وبركته. وعلى درجات الكنيسة التقى جمعاً منتحباً كان يهمّ بالدخول وهو يحمل نعش فتاة في السابعة من عمرها، فتوسلت إليه والدتها من تحت قدميه أن يثبت حقيقته فيردّ إلى ابنتها الحياة. فأخذته الرأفة بها، وحدثت المعجزة.

وفيما كان الكاردينال، حاكم التفتيش الكبير - وهو رأس الكنيسة الكاثوليكية وقد بلغ التسعين من عمره - يمر أمام الكنيسة، رآه هناك ورأى منه ما فعل، فاغتاظ وبدت عليه أمارات تنذر بالشر المستطير. وسرعان ما أمر

(١٧) الأخوة كرامازوف: الباب الخامس، خاتمة الفصل الرابع.
(١٨) المرجع السابق: الباب الخامس، الفصل الخامس: رئيس محاكم التفتيش.

حراسه باعتقاله وإيداعه السجن بانتظار حرقه في الغد مع دفعة جديدة من الكفرة والهراطقة. وفي الليل، يأتي الجلاّد يزور سجينه. وهنا ينعقد حوار مطوّل بين النقيضين، ومن طرف واحد إذ يبقى المسيح صامتاً أبداً، فيه من عمق التحليل وبُعد الرؤية ما يثير التقدير والابتهاج بمثل هذه الطواعية التعبيرية المستفيضة عن موضوع غامض ودقيق بقدر ما هو شائك وخطير، الأمر الذي يعيدنا إلى القول: «مع أسطورة حاكم التفتيش بلغ دوستويفسكي قمة عطائه الإبداعي».

إن هذا الحاكم، كإيفان، يرفض المخلّص لا لسبب شخصي أو عقائدي، بل انتصاراً للضعفاء من البشر. أليس المسيح مسؤولاً عن الإثقال على البسطاء من الناس إذ جعلهم أحراراً في اتباعه، مع معرفته بعدم أهليتهم لحمل «نير» حرية الاختيار؟ ثم أليس هو كان نبذ عرضاً يقضي بأن يحيل خبزاً تلك الحجارة المتناثرة في البرية المقفرة الجدباء، فيتبعه الناس مثل قطيع الخراف، طائعين مشكورين؟ ولكنهم يظلون مع ذلك خائفين إلى الأبد لئلا يسترد نعمته فيحرمهم خبزه. لقد رفض هذا العرض كي لا يحرم البشر من الحرية، رغم تفتيه إلى أنها الأكثر بغضاً وثقلاً لدى الناس، لسذاجتهم وتمردهم، وقال: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

إن الملايين، بل آلاف الملايين من الناس لن تقوى على نبذ خبز الدنيا من أجل خبز الآخرة. أفيكون المسيح قد جاء من أجل الفئة القليلة الباقية القادرة على ذلك، وأوقع، بالتالي، الغالبية من البشر، أولئك الضعفاء، في عبودية من نوع آخر؟

ولئن كان الأمر كذلك، فإن فيه طعناً في عدالة المسيح. وها هو يعود اليوم، وهو لا يملك الحق في أن يضيف شيئاً إلى موقفه الأول. وبما أن هذه العودة تشكّل عقبةً تعترض الكنيسة في أداء مهامها على الأرض، وإعاقةً لحياة الناس، فإنها ستكون مرفوضة، بل لا حاجة إليها، خاصة أنه كان فوّض كل سلطاته إلى أهل الكنيسة، وهم ينجزون العمل باسمه. فلذلك هم ينكرون عليه اليوم حق استرداد تفويضه سيّما وأنهم حققوا انتصاراً على الحرية في سبيل السعادة.

إن حاكم التفتيش يجعل من خبز الأرض، الذي يشبع دافع الجوع عند الناس، سبباً لثورة الجائعين وتحولهم عن المخلّص بعد أن فاتهم وعده لهم بالخبز السماوي، وسيكون شعارهم «أطعم الناس أولاً ثم حاسبهم على الفضيلة». وعليه، فإن هؤلاء المعذبين سيعودون إلى حكام التفتيش، بعد بحث وعناء، قائلين: «استعبدونا ولكن أطعمونا». ويجيب المسؤولون الجواب إلى المسيح: «إننا سنطعمهم، باسمك..... سنخدعهم من جديد، لأننا لن نسمح لك بالعودة إلينا... سنضطر إلى الكذب مع كونه مصدر عذابنا».

ثم إذا كان صحيحاً أن توفّر الخبز الأرضي لن يثني الإنسان عن نشدان ضالته الحقيقية بإيجاد معنى لحياته، وإلا فهو يفضل قتل نفسه، فإنّ المسيح، برأي الحاكم، بدلاً من أن يسترد حرية الإنسان منه، حباً به وعطفاً عليه، عزّز هذه الحرية وضاعفها في النفس البشرية، ورفض أن يتبعه الإنسان إلاّ بمحض إرادته وحريته بعد أن يكون أحبه بمحض حريته أيضاً. فبات الإنسان مطلوباً منه أن يميز بنفسه، وبحرية، بين الخير والشر. ولا شك بأن حرية الاختيار هذه في معرفة الخير والشر هي فوق طاقة الإنسان، وهو يؤثر الطمأنينة عليها، بل الموت ذاته.

هكذا ينصّب حاكم التفتيش نفسه مصحّحاً لعمل المسيح. إنه يريد أن يخلّص الناس من أنفسهم أولاً. فهو إذ يقدم لهم الخبز، يسلبهم حريتهم. ذلك أن سعادتهم مرهونة بخضوعهم واستسلامهم. وهم في المستقبل سيتعرضون لتجربة الحرية والعلم، فيواجهون الفوضى والعذاب حتى أن الأشدّاء منهم سيهلكون أنفسهم، أما الضعفاء المتمردون فيأكل بعضهم بعضاً، في حين يزحف الباقون، وهم جمهرة الأشقياء، متهالكين على أقدام حاكم التفتيش يستصرخونه: «نعم، لقد كنتم صادقين، أنتم وحدكم تملكون سرّه. إننا نعود إليكم فانقذونا من أنفسنا». وعندما يتناولون الخبز الذي يعطيهم حاكم التفتيش، سيتبيّن لهم أنه الخبز ذاته الذي كانوا هم أنتجوه وصنعوه. وستكون سعادتهم بأخذهم الخبز «من أيدينا» أعظم من اغتباطهم بالخبز ذاته، الذي كان ينقلب حجارة في أيديهم عندما كانوا يصنعونه «بدون مساعدتنا»، ومعها انقلبت الحجارة في أيديهم خبزاً. وهكذا، يكون الحاكم قد أعاد لهم ما أخذه

منهم بلا أعجوبة.

ويؤكد حاكم التفتيش للمسيح نجاح حركته التصحيحية، فقد «قوّمنا عملك وأنشأناه على أساس المعجزة والسرّ والسلطان» وهي **القوى الوحيدة القادرة** على قهر ضمائر أولئك الضعفاء المتمردين، والتي «رفضتها أنت جميعها، وجعلت الناس يتشكّكون في رفضهم لها». ولكن أنّى لهم ذلك، فهم ليسوا آلهة! إنهم عبيد مفطورون على التمرد، عاجزون «عن الارتفاع إليك» لأنهم في حقيقتهم، أضعف وأحطّ «ممّا كنت تعتقد».

ولا يفوته التأكيد هنا أيضاً على أن محبة الأقوياء الذين يقدرون على الارتفاع إلى المسيح، لا يعيرها هو كبير أهمية، إذ لا فضل ولا بطولة في محبة الكاملين من الناس. أما البطولة الحقة، فإنما هي في محبة أولئك البائسين الذين ضعفت إراداتهم وتدهورت أخلاقهم وساءت طباعهم حتى فقدوا آخر أسباب احترامهم، بل إنهم فرضوا كل أسباب احتقارهم والنفور منهم. ذلك ما دفع بحاكم التفتيش إلى أن يتحدّى المسيح من موقع التكافوء، بل من موقع الشعور بتفوّق الوكيل على المفوّض، قائلاً له: «تقول النبوّة أنك ستعود منتصراً على الشر ومحاطاً بمن تختارهم من المتعالين ولكننا سنجيب بأنهم لم يخلّصوا إلاّ أنفسهم، ونحن خلّصنا الجميع، عندئذ سأقف وأشير إلى الملايين من الأطفال السعداء الذين لم يعرفوا الخطيئة. ونحن معاشر الذين أخذنا ذنوبهم على عواتقنا، بغية إسعادهم، سنقف أمامك ونخاطبك قائلين: أحكم علينا إذا استطعت، إذا جرؤت. ألا فاعلم أنني لا أخافك، واعلم أنني، أنا أيضاً، عشت في البرية أقتات جذور النبات والجراد، وأنا أيضاً خبرت قيمة الحرية التي وهبتها للإنسان، وكافحتُ لكي أكون واحداً من نخبتك، بين الأقوياء وذوي السلطان، وكنتُ متعطشاً إلى أن «أسدّ النقص في العدد». ولكنني أفقت في اللحظة المناسبة، فلن أخدم عقيدة الجنون. فتراجعت وانضممت إلى صفوف «الذين قوّموا عملك». تركت المتكبرين وانضممت إلى المتواضعين حباً في إسعادهم».

إن حاكم التفتيش يطمح إلى أن يصبح سيّد العالم ومصلحه، باسم المسيح نفسه، ولكن ليس بالمبادىء التي وضعها. فهو يعترف، مرة أخرى،

باضطراره إلى الكذب على الناس، باستثناء القلة التي استطاعت معانقة لواء المسيح، توفيراً لسعادتهم مقابل انتزاع حريتهم. وهم سيقبلون كل حلوله التي ستوفر عليهم ما سيعانونه من قلق عظيم وعذاب أليم، إذا ما اتخذوا قراراتهم بأنفسهم وبمحض حريتهم.

هذه الرؤية الحالمة، القائمة على الغشّ، يسمعها منه المسيح: سيكون هنالك آلاف الملايين من الأطفال السعداء، ومئات الألوف من الأشقياء الذين انتكبوا تلك اللعنة، لعنة معرفة الخير والشر. وسيموتون بسلام، وبسلام سينقضي أجلُهم باسمك، وبعد القبر لن يجدوا شيئاً غير العدم. ولكننا سنحرص على السّر، وفي سبيل سعادتهم سنخدعهم بالمكافأة السماوية والخلود. ولو كان من حياة في الدار الآخرة، فإنها لن تكون، بالتأكيد، لأمثالهم.

لذلك كله، لا يرى الحاكم مندوحة عن الفتك بالمسيح لما في عودته من خطر على استمرارية عملية التصحيح الهادفة إلى إسعاد غالبية البشر، فيبلغه خطوته التالية، وهي الأخيرة التي ستضع حداً للعودة، سبب الصراع: «إن ما أقوله لك سيحدث وستقوم مملكتنا. وأعود فأكرر القول بأنك غداً سترى ذلك القطيع الطيّع الذي سيبادر، بإشارة مني، إلى تجديد إضرام النار في كومة الحطب التي سأحرقك فوقها، لأنك أتيت لتعرقل مسيرتنا. فلئن كان هنالك من يستحق نيراننا فهو أنت، غداً سأحرقك أيها الإله»[١٨].

أنهى الحاكم بيانه الاتهامي المطوّل، وأصدر حكمه بالموت، ولم يسمع من المسيح كلمة دفاع واحدة. وبعد طول انتظار، دون جدوى، لردٍ منه، تقدم السجين صامتاً وقبّل الحاكم. وإذ بالحاكم كأن الحقيقة قد واجهته مرة واحدة وفي لحظة واحدة، لكنه لم يشأ أن يستسلم لجميع أحكامها، فاكتفى بنقض حكمه، وسارع إلى فتح الباب مخاطباً المسيح: «امضِ ولا تعد... لا تعد أبداً». وتركه ينطلق في أزقة المدينة[١٩] المظلمة.

هذه النهاية للّقاء تفتح مجالاً لأكثر من احتمال، لعلّ الأصح منها ذلك

---

(١٩) هي اشبيلية في اسبانيا التي اختارها إيفان مكاناً لأحداث أسطورته.

الاستنتاج الذي توصّل إليه اليوشا وجعله يصيح في وجه أخيه، معتبراً أن قصيدته إنما هي تمجيد ليسوع وليس عتاباً كما أراده. فالقبلة تعبير عن الحب، والحب هو طريق النصر. صحيح أن المسيح كان يواجه خصماً حرص على أن تكون حججه منطقية بقدر ما هي إنسانية، ولكنه مرة ثانية، ورغم ذلك، ينتصر بشخصه وبصمته، كما انتصر يوم بقي صامتاً لا يردّ اتهامات اليهود له.

وإذ انتهى حديثه مع إيفان، نهض أليوشا وقبّله بصمت، ولم يكن يتمثل بنهاية أسطورة أخيه الذي كان ردّه بأنها فكرته وقد سرقها منه للتوّ. وطبيعي أن تفسيره ذاك للقبلة قد جاء بصورة عفوية تنسجم والمخزون الإيماني السليم في فؤاده، بحيث بات مندفعاً إلى التغاضي عن الماضي المظلم لكل من وصل إلى دائرة النور من المستقبل، أو على الأقل، قصدَها بعزم ثابت ونية صادقة.

وسمع أليوشا من إيفان عهداً بأنه سيرمي كأسه إذا ما بلغ الثلاثين من عمره، وأنه سيعود للحديث معه مرة أخرى، ولو اضطر إلى أن يقطع القارات. أفيكون هذا هو نزوع الملحد الضّال إلى العودة إلى رحاب الإيمان؟ هذا الترجيح سيغلب غيره، إذ يسمع اليوشا، في لقاء آخر، من أخيه تفاصيل محادثته مع الشيطان حيث ينتهي إيفان، بعد أن أثقل عليه، إلى أن يهذي ويترنّح فيتلقّفه أخوه، وكان متأهباً، ويضعه في فراش ليغرق في نوم عميق. وهناك، قرب الفراش، كان أليوشا يصلّي لأخيه ويفكر في حقيقة علّته التي أدرك أنها «عذاب العزيمة المتعالية والضمير الصادق». إن إيفان، بعد أن كان كافراً بالله، أخذ الإيمان بالله وبحقيقته يستحوذ على فؤاده بالتدريج، ولكنه ما زال يقاوم رافضاً الاستسلام. إنها صعوبة اجتياز المسافة القصيرة، من الإلحاد التام إلى الإيمان التام. وتعبيراً عن هذا الأمر بالذات، حدّث أليوشا نفسه عن مصير أخيه: «إن الله سيظهر الحق. وإيفان إمّا أن ينهض في هالة من نور الحقيقة. وإمّا أن يهلك في الكراهية، إذ ينتقم من نفسه ومن جميع الناس لأنه قد خدَم قضيةً لا يؤمن بها[٢٠]». وفعلاً، كان مصير إيفان الاحتمال الثاني.

---

(٢٠) الأخوة كرامازوف: الباب الحادي عشر، خاتمة الفصل العاشر.

وبفهم أعمق للحدث، يبدو لنا أليوشا، كما شاءه دوستويفسكي أن يكون، رمزاً للأمل بإنسان يولد من جديد، يتجاوز الخطيئة بالتوبة، إنسان يخرجه الإيمان من نفق الشك والشر، ويقترب به من الله بقدر ما يبتعد به عن الشيطان. ولقد كان أليوشا منتصراً أبداً على الشيطان. وكان الإيمان حصنه وسلاحه، وهو الذي ينحدر من عائلة نقلت إليه عدوى النهم في الحياة.

وليس صعباً التوصل إلى فك الرمزية تلك في شخصية أليوشا، فإن دوستويفسكي وضعنا، منذ البدء، أمام حقيقة الفتى الذي ترك الدراسة ليختار مبكراً الطريق المثالية للنجاة بروحه من الظلام إلى النور. ولا يسعنا هنا إلا أن نثبت العبارة الهادفة التي سطرها دوستويفسكي لتكون لبنة أساسية واضحة وعريضة على مستوى البناء كله بعد اكتماله. يقول في أليوشا: «كان شريفاً بطبعه طالباً الحقيقة فيسعى إليها ويؤمن بها ويبغي خدمتها بكل ما في روحه من رغبة عارمة وحزم قوي يضحي من أجلها بكل شيء حتى بحياته ذاتها. نعم... كان كلما فكّر وتدبّر آمن بوجود الله واقتنع بخلود الروح، وسرعان ما يقول في نفسه بعفوية: أريد أن أعيش في سبيل الخلود ولن أرضى بغيره حلاً. إنه من جهة أخرى، لو اقتنع بعدم وجود الله وشكّ بالخلود، لأصبح ملحداً واشتراكياً، لأن الاشتراكية ليست مجرد قضية العمل والعمال فحسب، بل هي قبل كل شيء قضية الإلحاد، وقضية تجسيدٍ حديثٍ للإلحاد في يومنا هذا. إنها مسألة برج بابل الذي شيّد بدون مشيئة الله لا للصعود من الأرض إلى السماء، بل لنقل الفردوس من السماء إلى الأرض. ولو كان ذلك حال أليوشا، لَوَجد استحالة، فضلاً عن الغرابة، في أن يستمر على منوال حياته القديم...»[٢١].

ويصبح الطرح الإيماني عند دوستويفسكي أشمل وأعمق عندما قبّل أليوشا الأرض «وخفق الكون بأسره في قلبه». إنه تعبير يعيد إلى أذهاننا فكرة إيمانية صوفية[٢٢] قوامها اندماج الذات الإنسانية (العالم الأصغر) في الكون

---

(٢١) المرجع السابق: الباب الأول، الفصل الخامس.

(٢٢) قد يفرض هذا الاستنتاج نفسه رغم أن دوستويفسكي أوضح «أن هذا الشاب، أليوشا، لم يكن متعصباً، بل لم يكن، في رأيي على الأقل، صوفياً». (الباب الأول، الفصل الرابع).

(العالم الأكبر)، فينتج مخلوق واحد يبدأ من جديد حياة تتحقق فيها رسالة الإنسان الكبرى، وتصبح إذ ذاك مسؤولية الفرد شاملة الحياة بكاملها. على أن النزعة الصوفية التي تكاد تلازم موقف دوستويفسكي، كأنه قد تخطاها أحياناً إلى ما هو أبعد منها[٢٣].

ولقد حرص دوستويفسكي على أن تكون اللحظات الأخيرة لأحداث روايته عابقة بالإيمان، تؤكد فعله في إسعاد النفس بما هي فيه اليوم، وبما ستؤول إليه غداً. لقد وجه الفتى النابه «كوليا» سؤالاً إلى أليوشا عن صحة ما يعلّمنا الدين عن البعث، فيجيبه: يقيناً سنبعث أحياء، ولا شك في أننا سنرى بعضنا بعضاً، وسنقصّ على بعضنا بعضاً، ونحن سعداء، كل ما حدث لنا في حياتنا.

وكم راعه الجواب. وتنسدل الستارة لتنهي الرواية بالتهليل للأمل المشرق، أليوشا كرامازوف، وكأنها تفتح بالإيمان باب الإنطلاق إلى حياة تتحقق فيها سعادة الإنسان الحقيقية والأبدية.

وليس عبثاً، كما يبدو، أن دوستويفسكي ختم روايته بالتأكيد على حقائق الدين وروعتها. فكأني به يرمز بهذا إلى اختتام حياته بالإيمان الكامل والمطلق. ولا يجب أن ننسى أن إيمانه جدير بالتنويه والاعتبار، فهو ثمرة عقلية ووجدانية لحياة أثقلها الشقاء والشك لسنوات عديدة، وإلاّ لكان أقرب إلى الإيمان يوم نجا من الموت بأعجوبة، قلما تتكرر، في اللحظة ذاتها التي كان مقرراً أن يهوي السيف لينهي حياته. واللافت أن دوستويفسكي بات يؤمن بالله والبعث، ليس على طريقة البسطاء من الناس فحسب، إنّ في تسليم أمره إليه تعالى، أو في تقبّل كل ما يسبّب له الألم في هذه الدنيا، بل فاقهم في اعتبار المصائب لفتة إلهية كريمة نحوه، قد تكون حكمته تعالى ضمّنتها مفاعيل إيجابية خفيت علينا وقصرت أفهامنا عن إدراكها.

إنها ترنيمة الناجي من الشك، ذلك الخطر القاتل، وهي أروع إيقاعاً وأبلغ أثراً في نفوس البشر من تلك التي يطلقها الناجي من موت شاءه

---

(٢٣) في روايته الأبالسة، ينفي دوستويفسكي وجود فرصة واحدة للتنكر لوجه الله اللامتناهي في العظمة، الذي لا يمكننا إلا السجود له، والذي لولاه سيعجز الإنسان عن الحياة ويموت في مهواة اليأس.

المخلوق ولم يشأه الخالق، فلا يتحقق. إنها ترنيمة الخلاص ستبقى تتردد، كنشيد نصر، في هيكل الكيان الإنساني معلنة، بفرح واستبشار، عن الاهتداء إلى الحقيقة الكبرى: هلموا انتصروا بالإيمان، فالإيمان هو الطريق السليم الوحيد إلى حياة ذات رسالة ومعنى.

بيروت ـ تشرين الأول ١٩٩٤

م. ص

الباب الأول

سيرة عائلة صغيرة

فيودوروفيتش كارامازوف

كان ألكسي فيودوروفيتش كرامازوف الابن الثالث لمالك الأطيان فيودور بافلوفيتش كرامازوف[1] المشهور بين أبناء منطقتنا في زمانه. وقد مات منذ ثلاثة عشر عاماً[2] في ظروف مفجعة ما زال الناس يتحدثون عنها إلى اليوم، وسأذكرها لاحقاً. أما هنا، فأكتفي بالقول إن «مالك الأطيان» هذا ـ وهو لقبه الذي عرف به بيننا، رغم أنه لم يقضِ يوماً واحداً من أيام حياته في أطيانه ـ كان إنساناً من طراز شاذ، عجيب يتصف بالوضاعة والرذيلة إلى جانب الحماقة وهو طراز كثيراً ما نجده في الحياة. كان فيودور من أولئك الحمقى المنحطّين الذين يتقنون تصريف أمورهم الدنيوية، ولا يتقنون على ما يبدو، أي شيء آخر. وأذكر على سبيل المثال أن فيودور بافلوفيتش هذا بدأ حياته معدماً، وكانت أطيانه من أصغر الأطيان. وكان طفيلياً يعيش على موائد الآخرين يطوف عليهم مظهراً شتى ضروب التذلل. ومع ذلك فقد ترك بعد وفاته ثروة بلغت مائة ألف روبل نقداً. ومع ذلك، فإنه كان في جميع مراحل حياته من أكثر أبناء منطقتنا حماقة وغرابة أطوار. وأنبه إلى أن ذلك ليس غباوة، فمعظم الذين يتصفون بغرابة الأطوار هم على قدر كاف من الفطنة والذكاء، وإنما الأمر أمر حماقة وسخف.

لقد تزوج فيودور بافلوفيتش مرتين وأنجب ثلاثة أبناء، أكبرهم ديمتري من زواجه الأول والآخران وهما إيفان وألكسي من زواجه الثاني. وكانت زوجته الأولى، أديليدا إيفانوفنا، تنتمي إلى أسرة ميوسوف النبيلة، والثرية إلى

---

(١) كارامازوف: اسم لأسرة نبيلة أصله تتري.

(٢) هذا يعني أن أحداث هذه الرواية وقعت سنة ١٨٦٦ باعتبار أنها نشرت فصولاً بين عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٠.

حد مقبول، فقد كان أبناؤها من الملاّكين في منطقتنا. ولن أفسر كيف أمكن أن تتزوج مثل هذه الوريثة التي كانت تتصف بالجمال، فضلاً عن تمتعها بالذكاء ـ الذكاء الذي نجده كثيراً بين نساء هذا الجيل، كما لم يكن معدوماً في الجيل السابق أيضاً ـ بمثل هذا الإنسان التافه الحقير الضئيل، كما كنا نلقبه. فلقد أتيح لي معرفة سيدة في ميعة الصبا من فتيات الجيل الأخير ـ الروائي ـ استمرت سنوات عديدة تهيم برجل كان في وسعها أن تتزوجه متى شاءت، ولكنها أوجدت لنفسها عقبات كأداء، وانتهى بها الأمر، ذات ليلة عاصفة، إلى أن ألقت بنفسها في نهر عميق جارف، من جُرُف على شاطئه. وهكذا هلكت لا لهدف آخر سوى أنها أرادت التشبّه بأوفيليا بطلة رواية شكسبير. والحقيقة، لو أن الجرف الذي كان من الأمكنة المفضلة لدى الفتاة، لم يكن رائع المنظر، أو كان في مكانه شاطىء عادي منبسط، فالأرجح أن الانتحار ما كان ليقع.

هذه حقيقة، وقد تكون مثيلاتها كثيرة في روسيا منذ جيلين أو ثلاثة أجيال. وقد يكون تصرف أديليدا إيفانوفنا متأثراً بآراء غيرها من الناس، ووليد غيظ سببه انعدام حرية الفكر. ولعلها أرادت أن تظهر استقلالها الأنثوي وأن تتحرر من فروض الامتيازات الطبقية وتعسف أسرتها. وينبغي الافتراض أنّ خيالها المطواع أقنعها في لحظة عابرة بأن فيودور بافلوفيتش، الذي يعرف الناس أنه طفيلي كان واحداً من تلك الفئة الجريئة الساخرة من الناس في تلك المدة التقدمية من الزمن، مع أنه في الواقع لم يكن سوى مهرج سيء الطباع ولا شيء عدا ذلك. ومما أضفى على الأمر مزيداً من الخيال، أن فيودور مهد للزواج باختطاف عروسه، فملك بذلك على أديليدا إيفانوفنا خيالها. وكان مركز فيودور بافلوفيتش الاجتماعي يجعله يتحرق شوقاً إلى أمر كهذا لأنه كان تواقاً لأن يخط لنفسه طريقاً في الحياة بوسيلة من الوسائل. فما بالك وهو أمام فرصة مصاهرة عائلة نبيلة والحصول على بائنة مغرية. والراجح أن الحب المتبادل لم يكن له وجود لا في قلبه ولا في قلب العروس على الرغم من الجمال الواضح الذي كانت تنعم به. ولعل هذه الحادثة كانت فريدة في حياة فيودور بافلوفيتش الذي كان طوال حياته ذا طبيعة شهوانية لا يتوانى عن

ملاحقة أية امرأة يرى منها أدنى تشجيع ويبدو أن أديليدا كانت الوحيدة من بين النساء التي لم تجذبه نحوها أية عاطفة.

وقد أدركت أديليدا إيفانوفنا فور اختطافها أنها لا تكنّ لزوجها سوى الاحتقار. ولم تلبث أن ظهرت حقيقة هذا الزواج بسرعة فائقة. ومع أن أسرة المرأة الهاربة أذعنت للأمر وأقرت لها ببائنتها، فإن الزوجين واجها حياة حافلة بالاضطراب تخللتها المناقشات وحوادث شجار لا نهاية لها. وقيل إن الزوجة أبدت من ضروب النبل والكرامة أضعاف ما أبداه فيودور بافلوفيتش الذي استولى كما هو معروف اليوم، على جميع مالها وقدره خمسة وعشرون ألف روبل بعد أن تسلمته من عائلتها، بحيث فقدت العروس هذه الثروة إلى الأبد. أما ضيعتها الصغيرة ومنزلها الجميل الذي كانت تملكه، في المدينة كجزء من بائنتها، فقد ظل فيودور بافلوفيتش يبذل أقصى جهده لنقلهما إلى ملكيته بموجب صك تخلية. وكاد أن ينجح بذلك نظراً لما أصابها من إعياء معنوي وما سيطر عليها من رغبة في التخلص منه، ونتيجة لما أشعرها به من احتقار له وازدراء بسبب توسلاته ولجاجته الحقيرتين. إلا أن أسرة أديليدا إيفانوفنا تدخلت في الوقت المناسب وأفسدت عليه جشعه. ومن الثابت أن الزوجين كانا دائمي الشجار. ولكن الشائع هو أن فيودور بافلوفيتش لم يكن يقوى على زوجه بل هي التي كانت تضربه، لأنها كانت امرأة ذات طباع حادة وإرادة جريئة كما كانت نافذة الصبر مقطبة الجبين قوية البنية، وأخيراً هجرت البيت هرباً من فيودور بافلوفيتش وعاشت مع طالب معدم من طلاب اللاهوت تاركة ابنها ميتيا الذي كان في الثالثة من عمره بين يدي زوجها.

وما كادت تهجر المنزل حتى استغل فيودور بافلوفيتش الفرصة وجعل منه بيتاً للدعارة وانصرف بكليته إلى معاقرة الخمر. وكان من عادته في فترات صحوه أن يطوف أرجاء المنطقة ويشكو لجميع الناس، ذارفاً الدموع، هجران أديليدا إيفانوفنا ولا يتورع أن يسرد عن حياته الزوجية تفاصيل مخجلة. والغريب أنه كان مما يرضي أنانيته ويشعره باللذة أكثر من أي شيء آخر، تمثيله الدور المضحك للزوج المخدوع وعرضه آلامه وأحزانه بطريقة يضفي عليها من نسج خياله. وكان بعضهم يقول بسخرية: «إن المرء لا يمكنه إلاّ أن

يعتقد أن حالك تحسنت يا فيودور بافلوفيتش؛ فإنك تبدو عظيم السرور رغم ألمك». بل إن كثيرين زعموا أنه كان سعيداً بهذه الفرصة التي أتاحت له تمثيل دور المهرج في فصل هزلي جديد، وإنه إنما كان يتظاهر بجهل وضعه المضحك حباً في زيادة الفصل مرحاً. ولكن من يدري؟ فلعل الأمر كان متعلقاً بالسذاجة أيضاً. وعلى كل حال فقد استطاع أخيراً أن يعثر على مكان زوجه الهاربة. فقد وجدت المسكينة في بطرسبورغ حيث لجأت مع صاحبها طالب اللاهوت وعاشت في حياة تحرر تام.

وقرر فيودور بافلوفيتش على الفور أن يسافر إلى بطرسبورغ دون أن يدرك هو نفسه الهدف من هذا السفر. وكاد أن يسافر فعلاً لولا أنه شعر، بعد أن عزم على الرحيل، أن من حقه أن يسكر سكرة شديدة تشجيعاً لنفسه على هذه الرحلة. وفيما كان يحقق سكره، وصلت إلى أسرة الزوجة أنباء وفاتها في بطرسبورغ. فبعضهم يقول أنها ماتت فجأة بالتيفوس في غرفة حقيرة على سطح إحدى البنايات. وبعضهم يقول أنها ماتت جوعاً. وقد كان فيودور بافلوفيتش ثملاً عندما تناهى إليه نبأ وفاة زوجته. ويقال أنه هرع إلى الشارع وأخذ يهتف في نشوة من الفرح، رافعاً كفيه إلى السماء: «يا رب الآن، حررت عبدك». وفي رواية أخرى أنه أخذ ينتحب كالأطفال، حتى رثى الناس لحاله رغم ما كان يوحيه في النفس من اشمئزاز ونفور. ومن الجائز أن تكون الروايتان صحيحتين، فلعله اغتبط بحريته، وفي الوقت عينه بكى تلك التي أتاحت له هذه الحرية. وعلى وجه العموم فإن في الناس - حتى المجرمين منهم - بساطة وطيبة فوق ما نعتقد، وهذا يصدق علينا نحن أيضاً.

يتخلص من ابنه البكر

ليس صعباً علينا أن نتخيل أي أب يمكن أن يكونه مثل هذا الرجل وكيف يمكن أن يربي أولاده. ولقد كان سلوكه كأب منطبقاً على ما كان متوقعاً منه. فقد أهمل إهمالاً تاماً ولده من زوجه الأولى أديليدا إيفانوفنا لا لكراهية، ولا بدافع ما كان يشكوه من كونه زوجاً مخدوعاً، بل لأنه نسي أن له ولداً. وفيما كان هو يزعج من يحيط به بدموعه وشكاواه ويحول منزله إلى بؤرة للرذيلة والفجور قام غريغوري، وهو خادم أمين من خدام الأسرة، برعاية ميتيا[1] الطفل البالغ من العمر ثلاث سنوات. ولو لم يقيض الله هذا الخادم الأمين للعناية بالطفل لما وجد من يهتم حتى بتبديل قميصه كلما اتسخ.

وفي بدء الأمر كان أقارب الطفل لأمه قد نسوا أمره أيضاً، ذلك أن جده لأمه كان قد فارق الحياة وانتقلت أرملته، جدة ميتيا، إلى موسكو حيث كانت تعاني داءً وبيلاً. أما بناته فكن قد تزوجن، وهكذا بقي ميتيا عاماً كاملاً تقريباً في كنف غريغوري، وعاش معه في كوخه. والمرجح أن الأب لو تذكر ولده، (والواقع أنه لا يمكن أن يكون قد نسي أمره كلياً) لكان طرده إلى الكوخ، لأن الطفل كان سيحول بينه وبين الانغماس في فسقه وفجوره ولكن اتفق أن عاد من باريس في ذلك الوقت بطرس الكسندروفيتش ميوسوف وهو أحد أبناء عمومة أم الطفل وكان بطرس هذا عاش فيما بعد سنين عديدة في بلاد الغربة، ولكنه كان عند عودته في شرخ الشباب. وهو يختلف عن سائر أفراد أسرة ميوسوف بأنه كان رجلاً ذا أفكار نيرة وثقافة أوروبية، عاش في كبريات مدن بلاده وفي بلاد أجنبية. وقد أضحى في أواخر حياته واحداً من

(١) أي ديمتري مصغراً، للتحبب. وسيذكره المؤلف باسمه فيما بعد.

عصبة المتحررين الذي انجبتهم الفترة بين ١٨٤٠ - ١٨٥٠. وكان على صلة بكثيرين من مشاهير الأحرار الذين عاصروه سواء في روسيا أو خارجها. حتى أنه تعرف على برودهون وباكونين شخصياً. وبعد أن حطّ رَحْله كان يحلو له في شيخوخته أن يتذكر مشاعره خلال الأيام الثلاثة لثورة باريس في شباط ١٨٤٨. كما كان يحلو له أيضاً أن يشير من طرف خفي إلى أنه كاد يشترك في تلك الثورة، حتى أنه وجد نفسه يعتلي المتاريس. وكان الرجل يملك ثروة كبيرة تقدر بألف نفس[1] من رقيق الأرض الواقعة في أطراف بلدتنا الصغيرة والمتاخمة لأراضي ديرنا الشهير الذي أقام عليه بطرس ألكسندروفيتش ميوسوف فور عودته إلى أطيانه دعوى حقوقية لا نهاية لها، وهي تتعلق بحقوق الصيد في مياه النهر أو حقوق التحطيب في الغابات، ولم أعد أذكر على وجه الدقة أيهما الأصح.

كان صاحبنا يرى أن من واجبه، كمواطن صالح وكإنسان مثقف أن يشنها حملة على «رجال الدين». ولما علم تفاصيل قصة أديليدا إيفانوفنا، التي كان يذكرها بطبيعة الحال، والتي كان معجباً بها في الماضي، ولما علم بوجود الطفل ميتيا قرّر التدخل في أمره رغم ما كان يكنه من احتقار لفيودور بافلوفيتش واستنكار لتصرفاته، وذهب لتوه فالتقى فيودور وأبلغه، بصراحة وبدون مقدمات، رغبته في أن يتولى تربية الطفل وتعليمه. وبعد انقضاء حقبة طويلة من الزمن على هذا اللقاء، كان يقول على سبيل إيضاح أخلاق فيودور بافلوفيتش أنه عندما شرع يحدثه عن ميتيا بدا عليه أول الأمر كأنه لا يدري من هو الولد المعني بالحديث، بل كادت تبدو عليه أمارات التعجب لسماعه أن له ابناً صغيراً يعيش في المنزل. وإذا كانت هذه الرواية غير خالية من المبالغة فلا بد أنها كانت قريبة من الحقيقة.

والحقيقة أن فيودور بافلوفيتش كان كلفاً طوال حياته بالظهور على غير حقيقته وتمثيل الأدوار المفاجئة من غير داع أو ضرورة. وكثيراً ما كان تمثيل هذه الأدوار غير المبررة أو المتوقعة، يعود عليه بضرر مباشر. هذه القضية

(١) أي أنها أراض شاسعة.

وهذه العادة هي من الصفات التي يتميز بها عدد كبير جداً من الناس، بعضهم على جانب عظيم من الذكاء والمهارة، فليست هي وقفاً على فيودور بافلوفيتش وحده. وقد أتم بطرس ألكسندروفيتش المهمة بحزم واندفاع فعيّن بالاشتراك مع فيودور بافلوفيتش وصياً على الطفل، الذي ورث عن أمه ملكاً صغيراً هو عبارة عن منزل وقطعة أرض صغيرة. وانتقل ميتيا إلى منزل ابن عم أمه، الذي كان قد أمن واردات أطيانه وفكر بالعودة فوراً إلى باريس. وإذ لم يكن له أسرة، فقد ترك الصبي في عهدة سيدة من بنات عمومته تقيم في موسكو. والذي حصل أنه نسي الطفل هو أيضاً بعد أن استقر به المقام في باريس ولا سيما بعد نشوب ثورة شباط التي تركت في ذهنه أثراً لم تقو على محوه الأيام. وماتت السيدة القاطنة في موسكو فتولت أمر العناية بالطفل إحدى بناتها المتزوجات. ثم انتقل الطفل فيما بعد إلى منزل آخر للمرة الرابعة، بيد أني لا أريد الآن أن أورد تفصيلات ذلك لأن ابن فيودور بافلوفيتش البكر سيستأثر فيما بعد بقسط وافر من حديثي. وحسبي أن أورد أهم الحقائق الأساسية عنه التي يستحيل عليّ بدونها أن أبدأ قصتي.

أول هذه الحقائق أن ميتيا أو بالأحرى ديمتري فيودوروفيتش، كان الوحيد بين أبناء فيودور بافلوفيتش الثلاثة الذي شبّ على الاعتقاد بأن له ثروة وأنه سيعيش مستقلاً عندما يبلغ سن الرشد. وقد عاش مراهقته وشبابه حياة مضطربة. ولم ينه دراسته في المدرسة الثانوية والتحق بإحدى المدارس العسكرية، وأرسل فيما بعد إلى القفقاس[1]، ونال ترقية. ثم تورّط في مبارزة وخفضت رتبته إلى جندي بسيط، ثم نال الترقية من جديد وعاش عيشة لهوٍ وعبثٍ، وأنفق مبالغ طائلة من المال. ولم يتلق من والده فيودور بافلوفيتش أي مال إلا حين بلغ سن الرشد. وكان قبل ذلك يعيش على الديون المتراكمة. وقد رأى أباه وتعرف عليه لأول مرة بعد أن بلغ سن الرشد حيث جاء إلى منطقتنا من أجل تسوية أمر ميراثه مع والده. ويبدو أنه اختلف معه فلم يقم عنده طويلاً بل أسرع في المغادرة بعد أن أفلح في الحصول على مبلغ من المال. واتفق مع أبيه أن يرسل إليه في المستقبل دفعات من ريع الأطيان، مع

---

(١) القفقاس caucase: جبال طولها ١٢٠٠ كلم. بين بحر قزوين والبحر الأسود.

أنه أخفق في هذه المناسبة (وهي حقيقة جديرة أن تبقى في أذهاننا) في الحصول على تقدير نهائي من والده لقيمة واردات هذه الأطيان. وقد ألمح فيودور بافلوفيتش آنذاك للمرة الأولى (وهذه أيضاً جديرة بالتسجيل) أن الفكرة التي كان يكوّنها ميتيا عن ثروته كانت فكرة مبالغاً فيها. وقد سرّ فيودور بافلوفيتش سروراً عظيماً بذلك إذ جاء موافقاً لمصالحه. واستنتج أن ابنه الشاب كان طائشاً متمرداً حاد العواطف مندفعاً متعجلاً وأنه يستطيع إرضاءه إذا نقده مبلغاً من المال ولو لفترة غير طويلة بطبيعة الحال. وهكذا شرع فيودور بافلوفيتش يستغل هذا الواقع لمنفعته فيبعث إليه دفعات زهيدة متقطعة من حين إلى آخر. واستمرت هذه الحال أربع سنوات نفذ بعدها صبر ميتيا فعاد ثانية إلى بلدتنا الصغيرة لكي يصفي حساباته مع أبيه تصفية نهائية. ولكن شد ما كانت دهشته حين تبين له أنه لم يعد يملك شيئاً، وأنه كان من الصعب عليه تحديد ما له وما عليه وأنه تسلم ثمن أملاكه كاملاً، مبالغ من أبيه تفوق قيمة الأرض الموروثة ولعله صار مديناً له. ودهش إذ علم أنه بموجب اتفاقيات متعددة أقر بها غير مكره في تواريخ سابقة متعددة لم يعد له حق المطالبة بأي شيء آخر وهكذا دواليك. وقد أسقط في يد الشاب وأحسّ أنه وقع فريسة الخداع والتزوير وكاد يقدم على ما لا تحمد عقباه. ذلك هو الظرف الذي أفضى إلى الكارثة التي تؤلف وقائعها موضوع قصتي التمهيدية الأولى، أو على الأصح مظهرها الخارجي. ومع ذلك ينبغي قبل أن أنتقل إلى تلك القصة، أن أتكلم عن ابني فيودور بافلوفيتش الآخرين ونشأتهما.

أسرة ثانـية من زواج آخر

بعد مضيّ وقت قصير على تخلص فيودور بافلوفيتش من ابنه ميتيا، الذي كان في الرابعة من عمره، إذ به يتزوج من جديد، ودام زواجه هذا ثماني سنوات. وكانت زوجه الثانية، صوفيا إيفانوفنا أيضاً فتاة في ريعان الصبا، جاء بها من مقاطعة مجاورة كان قد زارها مع يهودي صغير لعقد صفقة تجارية. ومع أن فيودور بافلوفيتش كان سكيراً وماجناً شريراً، فإنه لم يقصّر قط باستثمار رأس ماله. وكان يدير أعماله التجارية بحكمة ونجاح وإن لم يكن يتخلى عن الخسة والغش أحياناً كثيرة. وكانت صوفيا إيفانوفنا ابنة شماس مغمور فقدت والديها منذ طفولتها، ونشأت في منزل أرملة أحد الجنرالات وهي عجوز ثرية ذات مركز طيب كانت تحسن وتسيء إليها في آن واحد. ومع جهلي كل التفاصيل فقد سمعت أن هذه الفتاة اليتيمة، وهي مخلوقة وديعة دمثة، حاولت شنق نفسها بحبل كان متدلياً من مسمار في جدار الاصطبل لفرط ما كانت تعاني من عذاب وآلام بسبب السيدة العجوز المتقلبة في معاملتها، والتي كما يبدو كانت طيبة في حقيقتها فأحالها الكسل إلى امرأة مستبدة كثيرة الشكوى لا تطاق.

خطب فيودور بافلوفيتش الفتاة من السيدة العجوز فرفضت طلبه بعد أن سألت عنه. ولكنه اقترح هذه المرة أيضاً على الفتاة اليتيمة أن يختطفها. والأرجح أنها لو عرفت عنه أكثر مما كانت تعرف في حينه، لما رضيت به زوجاً. ولكنها كانت تعيش في منطقة أخرى، فلم يكن متوقعاً من فتاة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها أن تعرف من أحوال الدنيا سوى أنها كانت تفضل الموت غرقاً على البقاء عند السيدة المحسنة إليها. وهكذا استبدلت الفتاة المسكينة محسنة بمحسن، ولم يظفر فيودور بافلوفيتش هذه المرة بقرش

واحد لأن هروب الفتاة أغضب أرملة الجنرال فلم تهبهما شيئاً بل صبت لعناتها على الإثنين. على أنه لم يكن يعول كثيراً على بائنة العروس، وإنما كان الشيء الذي ملك عليه لبه هو جمال الفتاة البريئة الأخاذ، ويضاف إلى ذلك صفاء نظرتها ومظهرها البريء الذي كان ذا جاذبية خاصة في نفس هذا المتهتك الشرير الذي لم تجتذبه في المرأة حتى ذلك الوقت سوى مفاتن الجمال الأنثوي الصارخ.

وكان من عادته أن يقول عنها بعد زواجه: «إن عينيها الصغيرتين البريئتين نفذتا إلى روحي كالسكين». وهذا القول الذي يخرج من فم رجل بلغ به الفسق والإسفاف الخلقي هذا الحد، لا يدل إلا على التهالك على اللذة الجسدية. وقيل أنه لعدم حصوله على بائنة من زوجه «وإنقاذه لها من حبل المشنقة»، فقد استغل وداعتها وإذعانها لكي يدوس أبسط قواعد اللياقة التي يقتضيها الزواج. فقد أتى إلى بيته بالنساء الدواعر وأخذ يرتكب الموبقات على مرأى من زوجته. ولا ضير في أن أذكر إيضاحاً لبعض سمات هذه البيئة أن غريغوري، الخادم المتجهم الغبي العنيد المحب للجدل الذي كان يكره سيدته الأولى أديليدا إيفانوفنا، انحاز الآن إلى صف سيدته الجديدة وأخذ ينافح عنها ويوجه إلى فيودور بافلوفيتش من الإهانات ما لا يقبل به من خادم، واتفق أنه ذات مرة وضع حداً لحفلة خلاعية وطرد بالقوة النسوة الدواعر من البيت. على أن تلك المرأة الشابة التعيسة التي لازمها العذاب والرعب منذ الطفولة أصيبت في نهاية الأمر بذلك النوع من المرض العصبي المنتشر خاصة بين النساء الفلاحات اللواتي يقال أنهن «مسكونات بالأرواح الشريرة»، بل أنها كانت تفقد وعيها بعد كل نوبة من نوبات المرض الهستيرية، ومع ذلك فقد أنجبت ولدين هما إيفان وألكسي، وضعت بكرها في السنة الأولى لزواجها، ووضعت الثاني بعده بثلاث سنوات. وعندما ماتت كان ألكسي الصغير في الرابعة من عمره. وقد بلغني أنه، وهذا يبدو غريباً، ظل يذكر أمه طيلة أيام حياته ويراها كما يرى الطيف في الأحلام. وقد حدث لولديها الصغيرين، بعد وفاتها، ما حدث من قبل لأخيهما الأكبر ميتيا، فقد نسيهما أبوهما وأهملهما إهمالاً تاماً وهجرهما، فتولى الخادم غريغوري رعايتهما وأبقاهما معه في كوخه

إلى أن عثرت عليهما السيدة العجوز الطاغية التي أحسنت لأمهما وربتها. وكانت هذه السيدة لا تزال على قيد الحياة ولم تغتفر الإهانة التي ألحقت بها، على الرغم من مرور ثماني سنوات. وكانت طوال تلك المدة تستقصي أدق المعلومات عن حياة صوفيا، فلما علمت بمرضها وبيئة حياتها أعلنت أمام جميع معارفها مرتين أو أكثر: «لقد لقيت ما تستحق، وعاقبها الله على جحودها النعمة ونكرانها الجميل».

وبعد ثلاثة أشهر بالضبط من وفاة صوفيا إيفانوفنا، وصلت أرملة الجنرال على حين غرة إلى بلدتنا الصغيرة، واتجهت رأساً إلى منزل فيودور بافلوفيتش ولم تقض في بلدتنا سوى نصف ساعة، أنجزت خلالها الشيء الكثير. فقد وصلت في ساعات المساء واستعجل فيودور بافلوفيتش لمقابلتها، بعد تلك السنوات الثماني التي لم يرها قط خلالها، وكان في حالة سكر شديد. ويروى أنه ما كاد نظرها يقع عليه، وبدون أي تردد، حتى صفعته على وجهه صفعتين مسموعتين، وأمسكته بخصلة من شعره وهزته ثلاث مرات إلى أعلى وإلى أسفل. وبدون أن تنطق بكلمة واحدة، ذهبت إلى الكوخ تريد الصبيين. وإذ لاحظت لأول نظرة أن الأقذار تعلو جسديهما وثيابهما، لم تتوان عن صفع غريغوري أيضاً، وبعد أن أعلنت له أنها ستصطحب الصبيين معها، لفّتهما ببساط من الصوف الخشن ووضعتهما في عربتها ثم انطلقت إلى مدينتها.

أما غريغوري فقد رضي بالصفعة صاغراً كشأن الخادم المطيع، ولم ينبس ببنت شفة، بل رافق السيدة العجوز وانحنى أمامها وضرع إلى الله بإيمان قوي وبلهجة مؤثرة «أن يجزيها خيراً عن اليتيمين». وكان ردّ السيدة العجوز على ابتهاله صرخة منها في وجهه: «إنك مع ذلك إنسان غبي». ثم انطلقت بها العربة.

وقد رأى فيودور بافلوفيتش بعد أن أمعن النظر بالأمر، أنه أمام عرض حسن، ولم يتردد في إعطاء أرملة الجنرال موافقته الرسمية على كل اقتراحاتها المتعلقة بتربية الطفلين وتعليمهما. أما الصفعتان اللتان حيته بهما، فقد طاف أنحاء البلدة يقص قصتهما ويتباهى بهما.

وشاءت الأقدار أن تموت الأرملة العجوز، بعد ذلك بوقت قصير، لكنها

أوصت قبل وفاتها بألف روبل لكل واحد من الصبيين «لإنفاقها على تعليمهما دون سواهما من الناس، بشرط أن ينفق المبلغ بحيث يكفيهما حتى بلوغهما سن الحادية والعشرين، لأن فيه الكفاية لمثلهما. أما إذا رأى الناس الآخرون عدم كفاية المبلغ، فليسدوا النقص من أموالهم». ولم يتح لي أن أقرأ الوصية بنفسي، ولكن قيل لي أنها تضمنت أموراً غريبة لا تخلو روايتها من تهاويل الخيال. وعلى أي حال، فقد ظهر أن كبير الورثة، وهو أفيم بتروفيتش بولينوف، سيد نبلاء المقاطعة كان رجلاً شريفاً وأميناً، لقد قرر أن يعنى شخصياً بأمر اليتيمين، بعد أن كتب إلى فيودور بافلوفيتش، وأدرك على الفور أنه لا يستطيع أن يحصل على قرش واحد منه للإنفاق على تربية الطفلين (ولو أن فيودور بافلوفيتش لم يكن قط صريحاً في تمنعه، وإنما كان يسوف ويماطل جرياً على عادته في مثل هذه الحالات، بل كان أحياناً يغدق من العبارات العاطفية).

وقد أولع أفيم بتروفيتش ولعاً خاصاً بالأخ الأصغر، ألكسي فرباه لفترة طويلة من الزمن كأنه فرد من أفراد أسرته. وإنني لأرجو القارىء أن يبقي هذه الملاحظة في ذهنه. والحق أن أفيم بتروفيتش كان رجلاً قل أن يجد المرء مثيلاً له في الطيبة ونبل الشعور، فإليه يعود الفضل في تربية الصبيين وتنشئتهما. ولقد احتفظ بالألفي روبل اللذين تركتهما أرملة الجنرال، ولم يمسهما، حتى إذا ما بلغا سن الرشد كانت حصة كل واحد منهما قد تضاعفت نتيجة الفوائد التي أضيفت إليها. وقد انفق عليهما من جيبه الخاص، ولا ريب في أن ما أنفقه على كل واحد منهما تجاوز بكثير الألف روبل. ولست أريد الإطناب في التفاصيل عن حياة الصبيين في سن الطفولة والشباب، وسأكتفي بتقديم صور عن أهم الأحداث التي وقعت لهما. وحسبي أن أقول عن إيفان، الأخ الأكبر، أنه كان ميالاً للكآبة والانطواء على النفس، ولو أنه كان غير خجول. وقد أدرك، ولما يبلغ العاشرة، أنهما كانا يعيشان في بيت غير بيت أبيهما، وينعمان بالعيش عند أناس غرباء، وإن أباهما كان رجلاً يندى الجبين خجلاً إذا ما طرقت سيرته. وقد بدت أمارات النجابة على هذا الصبي في سن مبكرة ـ في سن الطفولة تقريباً كما يقال ـ وأظهر في هذه

السن ميلاً غير عادي للعلم والتفوق في الدراسة، وقد ترك أسرة أفيم بتروفيتش لأسباب لا أعرفها على وجه الدقة، عندما كان في سن الثالثة عشرة أو دونها، وأقام مع أستاذ واسع الدراية ذائع الصيت، وهو صديق قديم لأفيم بتروفيتش. وكان إيفان لا يفتأ يقول فيما بعد بأن كل ذلك إنما هو عائد إلى ما كان يتحلى به أفيم بتروفيتش من «حماسة لأعمال الخير». وكان أفيم بتروفيتش مؤمناً بفكرة نهائية وهي أن أستاذاً نابغة يجب أن يتولى نبوغ الصبي. ولكنه كان هو والأستاذ قد فارقا الحياة عندما أنهى الشاب المدرسة الثانوية والتحق بالجامعة. وحيث أن أفيم بتروفيتش لم يوص بدفع حصة الشاب من تركة السيدة العجوز المستبدة، والتي كانت تضاعفت إلى ألفي روبل، فقد تأخر الدفع بسبب الرسميات التي لا بد ولا غنى عنها في روسيا. لذلك لقي الشاب نفسه في ضائقة شديدة أثناء السنتين الأولى والثانية من دراسته في الجامعة، إذ كان عليه أن يكسب قوته بنفسه وأن يتابع دروسه في آن واحد. وما يجب ملاحظته أنه لم يحاول قط أن يراسل أباه، إمّا ترفعاً وإباء، أو ازدراء له، أو لعل تفكيره المتزن قاده إلى الاعتقاد بأن أباً مثله لا ترجى منه مساعدة حقيقية، ومهما يكن السبب، فإن القنوط لم يعرف سبيلاً إلى نفس الشاب، بل أوجد لنفسه عملاً يرتزق منه. وكان هذا العمل في أول الأمر عبارة عن دروس يعطيها في المنازل مقابل أجر زهيد، وأخذ فيما بعد ينشر في الصحف مقالات مختصرة عن الحوادث في الشوارع، ويذيلها بتوقيع «شاهد عيان». وقد أكد بعضهم أن هذه المقالات كانت تجعل القارىء يتابعها لما فيها من فكر وفكاهة بحيث كانت الصحف تقبلها بدون تردد. وكان هذا وحده كفيلاً بتأكيد تفوق الشاب عملياً وفكرياً على سائر الطلاب والطالبات المعوزين البؤساء الذين كانوا يداومون على التسكع أمام أبواب الصحف والمجلات، فلا يبتكرون ما هو أفضل من التمادي في التوسل لتكليفهم أعمال النسخ والترجمة عن اللغة الفرنسية؛ وقد أمّن إيفان فيودوروفيتش استمرارية صلاته التي بدأها مع إدارات التحرير وزادها إحكاماً، الأمر الذي أتاح له في السنوات الأخيرة من دراسته الجامعية أن ينشر مقالات نقدية جيدة عن مطالعاته في كتب ذات مواضيع مختلفة في الأندية الأدبية. على أنه أفلح في السنة الأخيرة فقط،

ومصادفةً في اجتذاب انتباه دائرة أوسع من القراء، بحيث صار عدد كبير من الناس يشير إليه بالبنان، وبقي ذكره عالقاً بأذهانهم. وتكاد المناسبة أن تكون فريدة في نوعها، فقد ترك إيفان فيودوروفيتش الجامعة، وإذ هو يستعد للسفر إلى خارج البلاد معتمداً على الألفي روبل التي يملكها، كانت مجلة من أمّات المجلات تنشر له مقالاً غريباً حظي باهتمام لافت، عالج فيه موضوعاً بعيداً جداً عن مجال دراسته كطالب في فرع العلوم الطبيعية. فقد عالج في مقاله موضوعاً كان الجدل حامياً حوله آنئذٍ في كل مكان ألا وهو: أوضاع المحاكم الكنسية[1]. وقد عرض في مستهل مقاله الآراء المتعددة في الموضوع ثم انتهى إلى إبداء رأيه الخاص. وكانت الميزة الرئيسة للمقال لهجته التي لم تكن متوقعة، وإذ أكد كثيرون من أنصار الكنيسة أنه يؤيدهم بشكل نهائي؛ فإن الملحدين فضلاً عن العلمانيين، لم يكونوا أقل من أنصار الكنيسة تأييداً للمقال. وأخيراً تقدم بعض الأذكياء برأيهم فقالوا أن المقال لم يكن أكثر من نقد ساخر ومزح مقذع. وقد نوهت بهذه الحادثة بالذات لأن المقال وصل إلى الدير الشهير الواقع في ناحيتنا. وقد حار أهل الدير في أمره ولم يخرجوا منه برأي، وهم الذين يعنون بأمر المحاكم الكنسية اعتناءً خاصاً. ولما عرفوا اسم كاتبه اشتدت حماستهم لأنه من أبناء بلدتنا، وأنه ابن فيودور بافلوفيتش بالذات. وقد حدث أن وصل الكاتب نفسه إلى بلدتنا في تلك الفترة نفسها.

وما زلت أذكر أنني كنت أسائل نفسي آنئذٍ بشيء من القلق عن سبب زيارة إيفان فيودوروفيتش للمدينة. ولم أشبع رغبتي في معرفة الأسباب الكاملة لهذه الزيارة الحاسمة التي كانت سبباً أولياً لوقوع أحداث كثيرة. ونحن إذا نظرنا إلى ظاهرها، فإنه يبدو غريباً أن يقوم شاب في مثل علمه ومثل كبريائه، وفي مثل كثرة حذره، بزيارة مثل هذا البيت الموبوء ومثل هذا الأب الذي أهمله طوال حياته وكاد ينكره، ولم يذكره البتة، والشاب يعلم جيداً أنه ما كان ليعطيه مالاً في أي حال من الأحوال، بل أن هذا الأب كان دائم الخوف من أن يأتي إليه ذات يوم ولداه إيفان وألكسي ويطلبا منه مالاً، واحداً

(١) كان في مقدمة شؤونها حالات الطلاق.

بعد آخر. ومع ذلك ها هو الشاب يقيم في منزل أبيه، وقد مضى على إقامته معه شهران وهما على أتم ما يكون الوفاق. إن هذه الحقيقة الأخيرة لم تثر استغرابي وحدي، بل أثارت أيضاً استغراب كثيرين غيري.

واتفق أن بطرس الكسندروفيتش ميوسوف، الذي سبق أن تحدثنا عنه، وهو ابن عم زوج فيودور بافلوفيتش، كان آنئذٍ قد عاد إلى أطيانه في منطقتنا آتياً من باريس، التي كان اتخذها مقراً دائماً له. وما زلت أذكر أنه كان أكثر الناس دهشة عندما تعرف إلى إيفان الشاب الذي نال جانباً عظيماً من اهتمامه، وكان يقيم معه من حين إلى آخر مجادلات، فلا يستطيع إهمال الألم الذي يستشعره إذا ما قارن بين درجتي تحصيلهما. وكان كثيراً ما يقول، «أنه عزيز النفس ولن يعوزه كسب المال. ولكنه ما دام يملك الآن من المال ما يكفيه للسفر إلى خارج البلاد، فماذا يبتغي من الإقامة هنا؟ جميعنا يعلم أنه لم يأت سعياً وراء المال لأن أباه لن يعطيه شيئاً، وهو لا يميل إلى معاقرة الخمر أو حياة المجون، ومع ذلك فوالده أصبح لا يستطيع مفارقته. إنهما منسجمان انسجاماً تاماً!».

لقد كان ذلك القول صحيحاً، فالواضح أن الأب وقع تحت تأثير ابنه، وصار سلوكه أكثر احتشاماً من ذي قبل، بل كان أحياناً يبدو مستعداً للامتثال لابنه، رغم أنه كان شريراً إلى حد الإزعاج في كثير من المناسبات.

ولم نعلم إلا فيما بعد أن أحد أسباب قدوم إيفان دعوة تلقاها من أخيه ديمتري من أجل قضاء بعض مصالح هذا الأخ الذي لم يره قبل هذه الزيارة، وإن كان قبل رحيله عن موسكو يراسله بشأن قضية هامة تهم ديمتري أكثر مما تهمه. أما هذه القضية فسأذكرها بتفاصيلها في الوقت المناسب. ومع ذلك فإنني حتى عندما عرفت ذلك الأمر الخاص، لم أزل أدرك بأن إيفان فيودوروفيتش شخصية محيرة وصرت أرى أن زيارته لا تخلو من الغموض.

ويمكنني أن أضيف إلى هذا، أن إيفان كان آنئذٍ أشبه ما يكون بالوسيط بين أبيه وأخيه الأكبر ديمتري الذي ساءت علاقته بوالده إلى درجة الخصومة السافرة، وهو كان يعتزم مقاضاته أمام المحاكم.

وأكرر القول أن الأسرة اجتمع شملها حينئذٍ لأول مرة، وإذ ببعض

أفرادها يلتقون للمرة الأولى في حياتهم. إن الأخ الأصغر ألكسي يقيم في مدينتنا منذ عام كامل، فهو كان وصلها قبل أخويه. وإنني لأجد صعوبة كبيرة في الحديث عن هذا الأخ، ألكسي في هذا التمهيد، ولكن هذا لا يثنيني عن تقديم وصف أولي عنه، ولو لأوضح منذ الآن وقبل أي أمر آخر، حقيقة غريبة ألا وهي أنني سأقدم بطل قصتي للقارىء مرتدياً جلباب راهب مبتدىء. أجل إنه في ديرنا منذ سنة تقريباً وكان يبدو مستعداً للإقامة فيه بقية حياته.





الابن الثالث أليوشا

كان في العشرين من عمره وكان أخوه إيفان عندئذٍ في الرابعة والعشرين أما أخوهما الأكبر ديمتري فناهز الثامنة والعشرين. ويجب أن أقول في بادىء الأمر أن هذا الشاب، أليوشا، لم يكن متعصباً، كذلك لم يكن، في رأيي على الأقل، صوفياً. ولا بأس في أن أوضح رأيي فيه كاملاً منذ البداية. لقد كان شخصاً نمت في قلبه محبة الإنسانية منذ الصغر. أما اعتناقه حياة الرهبنة فلم يكن له من سبب سوى أنها استهوته في تلك الآونة، كأفضل ملاذ لروحه التي كانت تناضل للخلاص من ظلمة الشرور الدنيوية ومن أجل نشر نور المحبة. وأما السبب الذي جعل هذه الحياة تستهويه على هذا الشكل فهو أنه التقى فيها عندئذٍ بإنسان فذ، حسب اعتقاده، وهو ناسكنا الشهير «زوسيما» الذي تعلّق به أليوشا تعلقاً غذته حرارة الحب الأول الذي كان يتدفق من قلبه الظامىء. ولكنني لا أشك أنه كان شاذاً حتى في ذلك الحين كما كان شأنه منذ سن الرضاعة. وأكرر بهذه المناسبة أمراً، سبق لي أن ذكرته، وهو أن ذكرى أمه التي فقدها في الرابعة من عمره لم تبرح مخيلته طيلة أيام حياته، فقد ظل يذكر وجهها ومداعباتها «كما لو كانت تقف الآن حية أمامي». ونعلم جميعاً أن مثل هذه الذكريات قد تلازم الإنسان حتى في سن أصغر، وربما لازمته وهو في سن الثانية، ولكنها لا تكون في حالة كهذه، سوى بقع من نور في ظلمة حالكة، أو كأنها زاوية اقتطعت من لوحة كبيرة الحجم وتلاشت جميعها خلا تلك القطعة منها. تلك هي حاله. فهو ليذكر أمسية من أمسيات الصيف الهادئة فاستعاد في مخيلته صورة نافذة واضحة تنفذ منها أشعة الشمس المائلة نحو الغروب (وتحضره هذه الصورة واضحة أكثر من أي شيء آخر). وفي زاوية من زوايا الغرفة علقت صورة العذراء وأمامها سراج مشتعل.

وأمه راكعة أمام الصورة وهي تنشج نشيجاً متصلاً ثم تأخذه بين ذراعيها وتضمه ضمة قوية إلى صدرها تؤلمه وتبتهل من أجله إلى العذراء، وترفعه على ذراعيها نحو الصورة كأنها تضرع إلى أم الرب أن تحميه وترعاه. وفجأة تدخل الغرفة الخادمة مهرولة وتنتزعه منها جزعة وجلة. تلك هي اللوحة. وإن أليوشا ليذكر وجه أمه في تلك اللحظة، وكان يقول: إن هذه الذكرى مثيرة وجميلة في آن واحد. ولكنه كان يندر أن يتكلم عنها أمام أحد من الناس. لقد كان في طفولته وفي مراهقته مقلاً في الحديث مؤثراً الإيجاز لا بدافع من خجل أو بسبب نفور من المجتمع، بل على العكس لسبب غير هذا السبب، هو هاجس داخلي شخصي محض لا شأن له بالناس، ولكنه كان عظيم الأهمية بالنسبة إليه حتى أنه ينسيه الآخرين. ولكنه كان يحب الناس، وكانت تصرفاته في جميع مراحل حياته تنم عن ثقته بالناس، ومع ذلك فلم يصفه أحد يوماً بالغباوة أو السذاجة. وكان يكتنفه شيء يحمل المرء على الشعور الواضح (وكانت هذه حاله طيلة أيام حياته) بأنه لا يريد أن يجعل من نفسه حكماً على الناس، وأنه لن يسمح لنفسه بانتقاد أحد لأي شأن من الشؤون، ولا أن يصدر حكمه على أحد.

وكان يقبل كل شيء بدون أدنى تذمر ولو بمرارة حزينة في أغلب الأحيان. وقد تأصلت فيه هذه السجية حتى لم يكن باستطاعة أحد أن يحمله على الاندهاش أو إدخال الرعب إلى نفسه، وذلك منذ مستهل شبابه. وعندما حل في بيت أبيه وهو في العشرين من عمره، وألفاه بؤرة للرجس والفحش، آثر، وهو العفيف الطاهر، أن ينسحب بهدوء وسكينة، إذا ما وجد أن ما يراه أمر لا يطاق، دون أن يبدر منه ما يدل على الازدراء أو الاستنكار. أما أبوه الطفيلي القديم الذي كان دقيق الشعور سريع التأثر بالإهانة، فقد استقبله في بدء الأمر بشعور هو مزيج من الريبة والحذر والنفور. وكان لا يفتأ يقول: «إنه قليل الكلام معي، كثير التفكير». ولكنه ما لبث أن تبدل حاله في غضون أسبوعين على الأكثر، وأصبح يعانقه ويقبله في نشوة السكارى، غير أنه كان يشعر نحوه بحب صادق عميق، لم يستطع من قبل أن يكنه لأحد سواه من الناس.

والحقيقة هي أن هذا الشاب كان محبوباً من الجميع حيث سار أو توجه، وهكذا كان شأنه في أول عهد طفولته. فعندما حل في بيت مربيه والمحسن إليه، أفيم بتروفيتش بولينوف، حظي بإعجاب جميع أفراد الأسرة، حتى صاروا يعدونه واحداً من أبنائهم. ولا يخفى أنه حل في هذا البيت وهو في سن لا تؤهله للتصنع والتملق في سبيل اكتساب عطف الآخرين. فلا يبقى إذاً إلا أن نعترف بأن سجية تحبيب الناس به بدون تصنع أو مكر، كانت متأصلة في طبعه بالفطرة، وكان هذا شأنه في المدرسة أيضاً، رغم أنه كان لا يختلف في ظاهره عن سائر الأولاد الذين يرتاب بهم رفاقهم ويسخرون منهم بل يكرهون عشرتهم. كان، على سبيل المثال متأملاً يعشق الوحدة، وكان منذ أول حداثته يهوى الانزواء في ركن يطالع كتاباً من الكتب. ومع ذلك فقد كان الرفيق المفضل لدى سواد الطلاب، طيلة مدة إقامته في المدرسة. وقلما مالت نفسه إلى اللهو أو المرح، ولكن الناظر إليه سرعان ما يدرك أن إحجامه عن المرح واللهو لم يكن مبعثه النفور من الناس فالعكس هو الصحيح، لأنه كان مشرق الوجه حلو المعشر، لم يحاول قط أن يظهر قيمته لأقرانه، ولعله كان لهذا السبب لا يهاب أحداً. ولكن لم يخف على أترابه الصبيان أنه غير فخور بشجاعته، بل كان مظهره يوحي إليهم أنه لا يشعر بجرأته وجسارته. ولم يحقد قط على أحد بسبب إهانة ولا يحتفظ بذكرها، فلا تكاد تمضي ساعة واحدة على إهانته حتى يبادر هو إلى مخاطبة من ألحق به الإهانة، أو يرد على سؤاله بلهجة ملؤها الثقة والصراحة، كأن شيئاً لم يحدث بينهما. ولم يكن ذلك عن تظاهر متعمد بنسيان الإهانة، أو الصفح عنها، بل لأنه لا يعتبر أن ما حدث إهانة، وهذا مما كان يسحر الصبيان ويفتنهم. على أنه كان يتصف بصفة حملت جميع رفاقه، كبارهم وصغارهم على السواء، أن يطمعوا في الهزء منه، لا لسوء نية بل على سبيل التسلية والمرح. ولم تكن هذه الصفة سوى إمعانه في التواضع والخفر والعفة. فكان مثلاً لا يطيق سماع تعابير معينة أو أحاديث معينة عن النساء. ولكن ثمة تعابير وأحاديث «معينة» لا يمكن لسوء الحظ استئصالها من المدارس. فالصبيان الذين ما زالت تغلب عليهم طهارة النفس والقلب، وبراءة الطفولة، كلفون

بالتحدث سراً وجهراً في المدرسة، عن صور ورسوم قد يستحي حتى الجنود من الحديث عنها. وأكثر من هذا، فإن كثيراً مما يجهله الجنود أو مما لا يفهمونه أصبح أمراً مألوفاً بين صغار أبناء طبقاتنا العليا والمثقفة. وليس ذلك انحطاطاً خلقياً، أو ميلاً داخلياً للاستهتار، بل لا يعدو كونه نوعاً من الإباحية الظاهرية السطحية، كثيراً ما يرى فيه الأولاد علامة من علامات التهذيب والفطنة والجرأة تستحق التقليد. وكانوا إذا ما رأوا أليوشا كرامازوف يسارع إلى سدّ أذنيه بأصابعه عندما يردّدون مثل «تلك الأحاديث»، حلا لهم أحياناً أن يلتفوا حوله، ويبعدوا يديه عن أذنيه ويصرخوا بعبارات بذيئة، بينما هو يتخبط بينهم ويلقي بنفسه على الأرض، محاولاً أن يختبىء منهم، ويتحمل إهاناتهم صامتاً، ولا تخرج من بين شفتيه كلمة بذيئة واحدة. وينتهي بهم الأمر إلى أن يتركوه وشأنه، ويكفون عن تعييره «بالأنوثة»، بل إنهم يحولون نظرتهم إليه بالسخرية إلى نظرة عطف وإشفاق. وكان أليوشا دائماً من الطلاب النجباء في صفه ولكنه لم يتفوق قط فيكون أوّلهم.

وعندما توفي أفيم بتروفيتش، كانت سنتان بقيتا أمام أليوشا ليتم دراسته في المدرسة الثانوية الريفية. أما أرملة أفيم بتروفيتش، التي لم تجد عزاء عن فقده، فقد سافرت بعيد وفاته إلى إيطاليا حيث أقامت طويلاً وصحبتها عائلتها المؤلفة من نساء وفتيات. وانتقل أليوشا إلى بيت سيدتين تمتان بصلة قربى بعيدة إلى أفيم بتروفيتش بولينوف، وعاش معهما رغم أنه لم يسبق له أن رآهما من قبل، حتى أنه كان يجهل الشروط التي على أساسها انتقل إلى منزل هاتين السيدتين. فهو لم يكن مهتماً لمعرفة من كان ينفق عليه. وهذه كانت من أبرز صفاته، وهو من هذه الناحية كان على نقيض أخيه الأكبر إيفان، الذي غالب الإملاق خلال السنة الأولى والثانية من دراسته في الجامعة، وأنفق على نفسه مما كان يكسب بجهوده الخاصة، وهو كان يشعر منذ حداثة سنه، وبكثير من الألم والمرارة أنه كان يعيش على نفقة رجل محسن. ولكنني أرى ألا نقسو على أليوشا عندما ننتقد في طبعه هذه الصفة الغريبة، لأن من يعرفه ولو معرفة سطحية، يقتنع أنه أحد أولئك الشبان الذين تمتلىء قلوبهم بالحماسة الدينية، والذين إذا قيض لهم عرضاً أن يمتلكوا ثروة، لا

يترددوا في منحها إلى أول سائل، سواء أكان هذا رجلاً يريد إنفاقها في أوجه الخير، أو وغداً يتقن ابتزاز المال. وكان أليوشا بوجه عام لا يعرف للمال قيمة، وأقصد بذلك طبعاً، المعنى المجازي لا الحقيقي للكلام. ولم يكن من شيمته أن يسأل أحداً مالاً لنفقاته الشخصية. أما إذا حصل على شيء من هذا فسرعان ما يختفي، أو يبقى أسابيع عديدة في جيبه دون أن يجد سبيلاً للإنفاق.

ولقد كان بطرس الكسندروفيتش ميوسوف رجلاً من أكثر الناس اهتماماً بالشؤون المالية وأعراف الطبقية البرجوازية، وبعد أن خبر أليوشا فيما بعد، قال فيه:

«لعل هذا الشاب هو الإنسان الوحيد في العالم، الذي إذا جردته من المال وألقيت به وسط مدينة تعداد سكانها مليون نسمة، ولا يعرفها من قبل، فإنه لا يصاب بأي أذى، ولا يموت قرّاً أو جوعاً، لأنه سيجد من يقدم له الغذاء والمأوى، أو أنه سيدبّر أموره بنفسه، بدون أن يبذل جهداً أو يجد مذلّة في ذلك. وإيواؤه لا يثقل أحداً، وعلى العكس، فقد يجد فيه المرء لذة».

لم يتم أليوشا دراسته في المدرسة الثانوية، وقبل انتهاء المنهاج بعام واحد، فاجأ السيدتين بأنه قرر السفر إلى مسقط رأسه لكي يجتمع بأبيه ويباحثه في مشروع خطر على باله. وقد أسفت السيدتان لسفره وحاولتا منعه. ومع أن الرحلة لم تكن كثيرة التكاليف، فقد كان أليوشا ينوي أن يرهن ساعته، وهي هدية أهدتها له أسرة المحسن إليه، فمانعت السيدتان برهنها، ونقدتاه مبلغاً وافراً من المال، وألبستاه ثياباً جديدة. ولكنه أعاد نصف المال قائلاً إنه سيسافر في الدرجة الثالثة. ولما وصل إلى بلدتنا لم يحر جواباً عندما استوضح أبوه لأول مرة عن سبب قدومه قبل إتمام دراسته. وقيل أنه كان يبدو شارد الذهن بصورة غير طبيعية. وما لبث أهل البلدة أن تبينوا أنه كان يبحث عن مكان قبر أمه. وقد اعترف فعلاً آنئذٍ بأن العثور على القبر كان السبب الأوحد لزيارته. ولكن يصعب على المرء أن يصدق أن هذا هو السبب الوحيد لقدومه إلى البلدة. والأرجح أنه كان هو نفسه لا يستطيع أن يوضح ما تولد في نفسه فجأة ودفعه دفعاً لا سبيل إلى مقاومته في طريق جديد مجهول لا

مفر من سلوكه. وما كان في طاقة فيودور بافلوفيتش أن يدله على المكان الذي دفنت فيه زوجه الثانية، لأنه لم يزر قبرها قط منذ تمّ دفنها فيه، فلم يعد يتذكر، لطول العهد، أين هو.

وبهذه المناسبة أذكر أن فيودور بافلوفيتش تغيب عن بلدتنا مدة طويلة من الزمن قبل قدوم ابنه. فقد سافر بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على وفاة زوجه، إلى جنوب روسيا، واستقر في أوديسا حيث أمضى سنوات عديدة، وتعرف في بدء الأمر، على حد قوله، «على كثيرين من سوقة اليهود، ذكوراً وإناثاً»، ثم صار يستقبله «جميع اليهود»، عليتهم وسوقتهم على السواء». ولا يسعنا إلا أن نعتقد بأنه في هذه الفترة من الزمن تكونت عنده قدرة فذة على جمع المال وتكديسه. ولم يعد أخيراً إلى بلدتنا إلا قبل وصول أليوشا بثلاث سنوات فقط. وقد لاحظ معارفه بعد عودته أنه شاخ كثيراً مع أنه لم يكن مسناً. وكان سلوكه لا ينم تماماً عن المزيد من الوقار، بل عن المزيد من الوقاحة. وقد أظهر هذا المهرج القديم ميلاً مزرياً إلى خفض الآخرين إلى مستواه التهريجي. أما تهتكه مع النساء فلم يعد كما كان من قبل، بل ازداد صفاقة وسلاطة، ولم يلبث أن افتتح عدداً كبيراً من الحانات في قضائنا، واتضح أنه كان يملك مائة ألف روبل أو أقل من ذلك بقليل، وسارع الكثيرون من سكان البلدة والقضاء إلى إدانته أموالاً مقابل ضمانات لا بأس بها. وقد أصبح سلوكه في الآونة الأخيرة على شيء من العجرفة ومزيد من انعدام الشعور بالمسؤولية ومن الشذوذ والتبلد والخبل، فكان يبدأ عملاً ليتركه ويمضي في عمل آخر، كأنه يسير كلياً في طريق الانحطاط. وإلى جانب كل ذلك أخذ يكثر من معاقرة الخمر. ولولا غريغوري ذاته، ذلك الخادم الذي كان قد طعن في السن، والذي تابع رعاية سيده في بعض الأحيان كما يفعل المربي، لوقع فيودور بافلوفيتش في مآزق حرجة. ويبدو أن قدوم أليوشا قد أثر فيه حتى من الناحية الخلقية، كما لو أنه أيقظ في داخل هذا الرجل الذي شاخ قبل الأوان ما أعاد الحياة إلى روحه الميتة منذ عهد بعيد.

وكان كثيراً ما يخاطب ولده أليوشا قائلاً: «أتعلم، إنك تشبهها، تلك المرأة المعتوهة»، وهو لقب اعتاد أن يطلقه على زوجه المتوفاة، والدة أليوشا.

وبفضل غريغوري استطاع أليوشا أخيراً أن يجد ضريح «تلك المرأة المعتوهة»، فقد قاده إلى مقبرة بلدتنا، وأراه في ركن قصي منها شاهد ضريح صنع من الحديد الصب، رخيص الثمن ولكنه في حالة جيدة، نقش عليه اسم المتوفاة وعمرها وتاريخ وفاتها وتحتها أربعة أبيات من الشعر، كما يكتب عادة على أضرحة عامة أفراد الطبقة المتوسطة من الناس. وكانت دهشة أليوشا عظيمة عندما علم أن غريغوري هو الذي بنى الضريح على نفقته، بعد مراجعاته المتكررة لفيودور بافلوفيتش مما أزعجه وكان أن سافر هذا إلى أوديسا مخلفاً وراءه قبر زوجه وجميع ذكرياته. ولم يبد أليوشا تأثراً خاصاً لدى مشاهدة ضريح أمه، واكتفى بالاستماع، خافضاً رأسه، إلى غريغوري الذي كان يحدثه بدقة وحذاقة عن بناء الضريح، ثم انصرف بدون أن ينبس ببنت شفة. ولعله لم يعد إلى زيارة المقبرة قبل انقضاء عام كامل. غير أن هذا الحديث الصغير لم يكن عديم الأثر على فيودور بافلوفيتش - وإنما كان ذا أثر فاعل - فقد جاء فجأة إلى ديرنا حاملاً معه ألف روبل ودفعها لتقام قداديس لراحة نفس زوجه، ولكن ليس على روح زوجه الثانية، والدة أليوشا، المرأة «المعتوهة»، بل زوجه الأولى أديليدا إيفانوفنا التي كانت تضربه. وفي ذلك اليوم بالذات مساءً ثمل وأوسع الرهبان شتماً أمام أليوشا. لقد كان فيودور بافلوفيتش في حقيقته أبعد ما يكون عن التدين، وربما لم يوقد في حياته شمعة زهيدة الثمن أمام صورة قديس. والدوافع الغريبة الناجمة عن المشاعر والأفكار المفاجئة مألوفة في أمثال هذا الرجل.

سبق وتحدثت عن مظهر الرجل، وقلت أنه كان متعجرفاً تحمل ملامحه آثاراً واضحة لحياته السابقة، فإلى جانب الغدتين المتدليتين تحت عينيه الصغيرتين الحذرتين الخبيثتين الساخرتين، وإلى جانب التجاعيد العميقة الكثيرة التي تتقاطع على وجهه الصغير الممتلىء، فهناك تحت ذقنه تبرز جوزة عنقه الدقيقة كغدة متهدلة سميكة تكسبه مظهراً غريباً ينم عن شهوانية منفرة فيه. أضف إلى كل ذلك أن فمه كان محكم الإطباق غليظ الشفتين تبدو فيه جذور أسنان سوداء نخرها السوس. وكان لعابه يتناثر كلما فتح فاه يريد الكلام. وكان يحلو له أن يسخر من وجهه ولو أنه كان حسب اعتقادي راضياً

بهيئته تماماً. وكثيراً ما كان يشير بوجه خاص إلى أنفه الذي لم يكن عظيم الحجم إلا إنه كان دقيقاً متقوساً، يقول مازحاً «إنه أنف روماني متناسق، وبه مع جوزتي تراني كولاة الرومان في عهد الانحطاط». كان فيودور يبدو فخوراً بنفسه.

ولم تمض فترة طويلة على زيارة أليوشا لضريح أمه، حتى فاجأ أباه بأنه يعتزم دخول الدير، وأن الرهبان كانوا يرحبون به كراهب مبتدىء في سلكهم. وأوضح لوالده أن تلك كانت رغبته القوية، وأنه يطلب منه الإذن بالموافقة على ذلك. وكان فيودور العجوز يعلم أن الراهب «زوسيما» الذي كان يقيم في صومعة الدير قد أحدث أثراً عظيماً في نفس الابن اللطيف.

وبعد أن أصغى فيودور بافلوفيتش باهتمام بالغ إلى أقوال ابنه، أجابه بصوت ينم عن دهشة خفيفة «بالطبع أنه لأشرف الرهبان.... إذن فهذا هو المصير الذي ارتضيته لنفسك أيها الابن اللطيف؟».

كانت نشوة الخمر لم تزل آخذة بفيودور بافلوفيتش فافترت شفتاه عن ابتسامة مغتصبة غير خالية من دهاء ومكر، وقال مخاطباً ابنه: «لقد كانت نفسي تحدثني بأن الأمر سينتهي بك إلى مثل هذا المصير، فهل تصدقني؟ إنك تقرر بدون التواء أو موارية، وتأكد أن مالك البالغ ألفي روبل هو لك؛ وهو ذخيرتك. يقيناً لن أتخلى عنك يا ملاكي، وسأتكفّل بدفع ما يطلبون منك في الدير إذا طلبوا منك شيئاً. ولكن بطبيعة الحال إذا لم يطلبوا منك ذلك، فلا أرى أن نزعجهم ونثقل عليهم في هذا الشأن. ما قولك؟ هل تدري أن نفقتك لا تزيد على نفقة طائر الكناري، وأنك لا تحتاج إلى أكثر من درهمين في الأسبوع... وإني أعلم أنه يوجد قرب أحد الأديرة في ظاهر المدينة مكان يعرفه الجميع ولا تسكنه سوى نسوة يدعين «زوجات الرهبان» وأظن أن فيه ثلاثين امرأة، وقد دخلته ذات مرة. إن الأمر ملذ من باب التنويع في الحياة، ولكن أكبر عيوب هذا المكان هو أنه روسي الطابع إلى حد التعصب، فلا توجد فيه امرأة فرنسية واحدة. وبالطبع أنه سهل عليهم استقدام النسوة الفرنسيات إلى هذا المكان بسرعة، فلديهم المال الكثير وهم لو سمعوا بهنّ لسعوا لإحضارهن. أما ديرنا فليس فيه شيء من ذلك فلا مكان فيه

«لزوجات الرهبان» وهو يضم بين جدرانه مائتي راهب، وهم شرفاء يحافظون على صومهم.. أعترف بذلك.. إذن فأنت تريد أن تصبح راهباً؟ هل تعلم يا أليوشا أنني سآسف لفراقك بعد أن تعلقت بك؟ حسناً ربّ ضارة نافعة فإنك ستصلي من أجلنا نحن الخطاة. ولقد أوغلنا في الخطيئة، وأنا طالما أتساءل عمن سيصلي من أجلي وعما إذا كان في هذا الوجود إنسان سيقوم بهذه المهمة. إنني لا أفقه شيئاً من ذلك يا ولدي العزيز، إنني غبي ولن تصدق ذلك، ولكن ها أنت ترى مدى غباوتي عندما أفكر في هذا الأمر الذي يشغل بالي، ويحملني على أن أفكر فيه أحياناً لا دائماً، إن ذلك مستحيل، يجول في خاطري أن الأبالسة ستنسى أن تسحبني بخطاطيفها إلى هاوية الجحيم عندما أموت، ثم إني لأتعجب لأمر هذه الخطاطيف من أين يأتون بها ومم يصنعونها، هل من الحديد؟ وأين يصنعونها؟ وهل لديهم مصنع لصهر المعادن؟ قد يعتقد رهبان الدير بأن لجهنم سقفاً، إنني مستعد لأن أؤمن بوجود جحيم على أن يكون بلا سقف؛ فهذا يهذب الخيال ويلطف الإيمان. ثم ما الفرق أن يكون للجحيم سقف أو لا يكون. ولكن، أتعلم، أن هذا الموضوع يثير في نفسي هذا السؤال: إذا لم يكن للجحيم سقف فلن يكون فيه مكان للخطاطيف. وإذا انعدمت الخطاطيف بطلت الحجة وتداعى كل شيء، وهذا صعب تقديره لأنه عندئذٍ لن يوجد من سيجرني إلى هاوية الجحيم، وإذا لم يكونوا فما هي العدالة في هذه الدنيا؟ إذن يجب ابتداع الخطاطيف على الأقل لي وحدي. أواه لو تدري يا أليوشا أي رجل شرير أنا! فردّ أليوشا جاداً وهو ينظر إلى أبيه نظرة حنان: «ولكن هذه الخطاطيف التي تتحدث عنها لا وجود لها».

فأجاب فيودور بافلوفيتش: «نعم، نعم، إنه لا وجود إلا لأشباح الخطاطيف. إنني أعرف ذلك، أعرفه، وذاك ينطبق على ما قاله أحد الفرنسيين في وصفه للجحيم: «رأيت شبح حوذي يحمل شبح فرجون[1] يمسح به شبح عربة». من أين علمت يا عزيزي أنه لا وجود للخطاطيف؟ إنك بعد أن تعاشر الرهبان ستقول كلاماً آخر. ولكن اذهب على كل حال، وابحث عن الحقيقة

(١) الفِرجَون: المحسّة.

عندهم ثم عد وأخبرني بها، لأنه سيكون سهل على المرء أن ينتقل إلى الدار الآخرة وهو يعلم ما ينتظره فيها، ثم إن الحياة مع الرهبان أحفظ لكرامتك من الحياة مع رجل شيخ سكير وفتيات دواعر... ولو أنك كالملاك لم تتسخ عفّتك، ويقيني أنه لن يمسك سوء في الدير، وهذا ما يجعلني أسمح لك بالالتحاق بالدير فعليه معقود أملي، وأنت لا تنقصك الحكمة والذكاء. إنك ستحترق في نار الدير وتتلاشى، ثم تشفى وتعود إليّ وسأكون بانتظارك. أنت المخلوق الوحيد في هذه الدنيا الذي لم يسخط عليّ يا ولدي العزيز، إنني أشعر هذا الشعور وأنت تعلمه، ولا يمكنني التخلص منه.

ثم أخذ ينتحب وقد استبد به التأثر، لقد كان رجلاً خبيثاً عظيم التأثر في آن.



النساك

قد يتوهم بعض القراء أن الشاب الذي أتحدث عنه شاب مريض شارد ضعيف البنية أصفر اللون ذاهل عما حوله، غير أن أليوشا كان على النقيض من ذلك فهو في التاسعة عشرة من عمره مكتمل النمو أحمر الخدين صافي العينين تبدو في وجهه مهابة قوية. وكان فوق ذلك أنيق المظهر جذاباً معتدل الطول بنيّ الشعر، ووجهه بيضوي مخروط، وعيناه الرماديتان واسعتين متألقتين. وكان متزن التفكير عظيم الرصانة. ورب قائلٍ يعارضني بأن تورد الخدين لا ينفي الإمعان في التدين والميل إلى الصوفية. لكن أليوشا برأيي كان أكثر من غيره واقعية. ولكن مهلاً فصحيح أنه كان في الدير يؤمن إيماناً راسخاً بالأعاجيب والمعجزات. ولكن هذه باعتقادي لا يمكن قط أن تمنع الإنسان عن أن يكون واقعياً. فالمعجزات ليستْ هي التي تحمل الواقعي على الإيمان لأن الواقعي الأصيل إذا كان ملحداً فلن تنقصه الجرأة والقوة على الكفر بالمعجزات، فإذا رأى معجزة تفرض نفسها على العقل، فسوف يميل إلى إنكار حواسه ويقر بوقوع المعجزة. بل إنه إذا أقر بها فإنما يكون إقراره بظاهرة من ظواهر الطبيعة لم يتفق أن رآها من قبل. فالإيمان في الرجل الواقعي لا ينبعث عن المعجزة، بل المعجزة هي التي تنبعث فيه عن الإيمان. وإذا آمن الواقعي مرة، فإن واقعيته ستحمله على الإقرار بالمعجزة أيضاً. ولقد كان الرسول توما يقول إنه لا يؤمن حتى يرى، فلما رأى، هتف قائلاً: «ربي وإلهي!» فهل كانت المعجزة هي التي أدت به إلى الإيمان؟ أغلب الظن أن لا، وإنه آمن لأنه كان راغباً فعلاً في الإيمان، وربما كان في قرارة نفسه مؤمناً كل الإيمان حتى عندما كان يقول: «إنني لن أؤمن حتى أرى».

وقد يقال لي بأن أليوشا كان غبياً محدود الثقافة وما يتبع ذلك من

صفات. فأما أنه لم يتم دراسته فهذا صحيح، ولكن أن يقال إنه غبي أو محدود فذلك الظلم المبين. وسأضطر إلى ترديد ما قلته سابقاً من أنه اختار لنفسه هذه الحياة لأنها في حينه ألهبت خياله واجتذبته كوسيلة مثالية للنجاة بروحه من الظلام إلى النور. أضف إلى ذلك أنه كان إلى حد ما أحد شباب جلنا، أي أنه كان شريفاً بطبعه يريد الحقيقة فيسعى إليها ويؤمن بها ويبغي خدمتها بكل ما في روحه من رغبة عارمة وحزم قوي، يضحي من أجلها بكل شيء حتى بحياته ذاتها. نعم كذلك كان حال الفتى، وكان هو وأضرابه من الشباب لا يعلمون، لسوء الحظ، أن التضحية بالنفس هي، في كثير من الأحيان، أهون التضحيات. ولا يدركون أن واحدهم إذا ضحى مثلاً بخمس أو ست سنوات من شبابه يقضيها في الدرس المضني واستطاع بذلك مضاعفة قواه لخدمة الحقيقة والغاية التي ينشدها، كانت تضحيته هذه أعظم مما تحتمله قوى الكثيرين منهم. والحق أن أليوشا اختار لنفسه طريقاً مضادة، ولكنه اختارها بما لا يقل من رغبة عند الآخرين. وكان كلما فكر وتدبر، آمن بوجود الله واقتنع بخلود الروح وسرعان ما يقول في نفسه بعفوية: «أريد أن أعيش في سبيل الخلود ولن أرضى بغيره حلاً». ومن جهة أخرى، لو أنه اقتنع بعدم وجود الله وشك بالخلود، لأصبح ملحداً واشتراكياً، لأن الاشتراكية ليست مجرد قضية العمل والعمال فحسب، بل هي قبل كل شيء قضية الإلحاد، وتجسيد حديث للإلحاد في يومنا هذا. إنها مسألة برج بابل الذي شيدوه بدون مشيئة الله للصعود من الأرض إلى السماء بل للهبوط من السماء إلى الأرض. ولو كان ذلك حال أليوشا، لوجد من المستحيل والغريب عليه أن يستمر على منوال حياته القديم. فقد قيل في الكتاب المقدس: «بعْ كل ما لك للفقراء والمساكين واتبعني إذا أردت الحصول على النعمة الأبدية».

كان أليوشا يحدث نفسه: «إنني لا أستطيع أن أتصدق بروبلين بدلاً من كل ما معي، ولا يغنيني الذهاب إلى الصلاة عن إتباع المسيح». وربما برزت من بين ذكريات طفولته صورة ديرنا، الذي كانت أمه تحمله إليه معها للصلاة، وقد تكون أشعة الشمس وقت المغيب مقابل الصورة المقدسة التي كانت أمه ترفعه إليها ما زالت عالقة بخياله. وقد تكون كل هذه الأمور في

فكر أليوشا فجاء إلى ديرنا لكي يتثبت من قدرته على التضحية بكل ما يملك أو التضحية بروبلين فقط. وفي الدير اتصل بالناسك. وأرى لزاماً علي أن أنحرف عن سياق قصتي لأشرح وضع «الناسك» في الأديرة الروسية، ويؤسفني أن أشعر بعدم كفايتي التامة لذلك، ولكنني على كل حال سأحاول بإيجاز أن أصطنع لها الأوصاف الخارجية.

يؤكد الثقاة في هذا الموضوع أن نظام النساك هو حديث العهد وأن هؤلاء لم يكونوا موجوذين في أديرتنا قبل مائة عام أو أكثر، رغم أنهم وجدوا قبل أكثر من ألف عام في بلاد الشرق الأرثوذكسية،خاصة في أديرة سيناء وآثوس. ويقال أنهم وجدوا في روسيا أيضاً في الأزمنة القديمة. ولكن أمرهم تلاشى بفعل المآسي التي ألمت بروسيا من غزو التتار ونشوب الحرب الأهلية وانقطاع العلاقات مع الشرق بعد سقوط القسطنطينية. وفي أواخر القرن الماضي بعث نظام النساك بين ظهرانينا على يد بيسي فيليتشكوفسكي، وكانوا يسمونه الناسك، وعلى أيدي تلاميذه، أما الآن فوجود هذه الفئة من النساك ينحصر في عدد قليل من أديرتنا. وقد تعرضت في بعض الأحيان للاضطهاد إذ كانوا في روسيا يعدّون ما جاءت به بدعة. وقد ازدهر عهد النساك بوجه خاص في دير كوزيلسكي أوبتين. أما متى ازدهر في ديرنا وكيف ازدهر فلا أعرف. و قد تعاقب من هذه الفئة ثلاثة كان زوسيما آخرهم، ولكنه كان على وشك أن يموت لشدة ضعفه ومرضه، ولم يكن هنالك أحد يحل محله. وقد كان هذا الأمر مهماً بالنسبة لديرنا لأنه لم يكن مميزاً بشيء قبل مجيء الأب زوسيما، فلا آثار للقديسين، ولا أيقونات للأعاجيب ولا تقاليد مجيدة ولا معجزات تاريخية باهرة. ولكنه ازدهر وذاع صيته في روسيا كلها بسبب نساكه الذين أصبحوا محجّة الناس من آلاف الأميال لسماع أقوالهم ومشاهدتهم.

فمن هو الناسك بالضبط؟ إنه الإنسان الذي يملك روحك وإرادتك ويمزجهما بروحه وإرادته، فإذا سلمت قيادك له، كان معنى ذلك تخليك عن إرادتك والالتزام بالطاعة المطلقة له. واستسلامك التام وخضوعك للتبعية في تلك المدرسة العظيمة التي تدعو إلى نكران الذات، إنما ينساق إليها الإنسان بملء اختياره أملاً في قهر النفس والسيطرة عليها بحيث تكون هذه المعاناة

الطويلة من الطاعة والخضوع سبيلاً إلى الحرية الأكيدة من قيود النفس، وإلى الانعتاق من مصير أولئك الناس الذين يقضون حياتهم دون أن يعرفوا ذواتهم. إن ذلك النظام، نظام الناسك لم يبن على النظريات، بل تأسس في الشرق بعد ممارسة دامت ألف سنة. ليست التعهدات المترتبة على التابع للناسك هي «الطاعة» المألوفة في أديرتنا الروسية، بل إن هذه التعهدات تقضي بأن يعترف المريد للناسك بدخيلة نفسه، وأن يرتبط الإثنان برباط لا تنفصم عراه.

ويروى على سبيل المثال، أنه حدث في فجر المسيحية أن تلميذاً أحجم عن تنفيذ أمر عهد به إليه ناسكه، فهجر صومعته في سوريا وهاجر إلى مصر. وهناك قام بأعمال خارقة أهّلته لأن يموت معذباً شهيد العقيدة، فلما أحضر جثمانه إلى الكنيسة التي عدته قديساً لمزاولة طقوس الدفن وانتهوا من تلاوة الصلوات إذ ارتفع التابوت الذي يضم الجثمان وانطرح خارج الكنيسة وتكرر ذلك ثلاث مرات. وأدرك القساوسة أخيراً أن ذلك القديس قد خرج على طاعة ناسكه وهجره، ولذا فلم ينل الغفران إلا بعد أن حلّه ناسكه، رغم خوارقه، ولم يجر الدفن قبل أن يتم ذلك. إنها طبعاً أسطورة من أساطير التاريخ القديم ولكن هاك حادثة قريبة العهد:

تلقى أحد الرهبان أمراً من ناسكه فجأة أن يترك آثوس، التي كان يعتكف في أحد أديرتها بحيث أحبه وتعلق به واعتبره ملاذه وحرمه الآمن، وأن يتوجه إلى القدس، وبعد أن يحج إلى الأماكن المقدسة يذهب شمالاً إلى سيبيريا. وقال له ناسكه: «إن مكانك ليس هنا بل هناك». واستبد الأسى بالراهب فذهب إلى رئيس البطاركة في القسطنطينية وتوسل إليه أن يحلّه من قيود طاعته. ولكن البطريرك اعتذر له عن ذلك وقال له إنه ليس أعجز من ذلك فحسب، بل إنه ما من قوة على الأرض تستطيع أن تحله إلا الناسك الذي ألزمه بواجبه.

وهكذا فإن النساك كانت سلطتهم في حالات معينة مطلقة لا حدّ لها. وذاك هو السبب في تعرض هذا النظام في بدء الأمر للاضطهاد في كثير من أديرتنا. وما إن رسخت أقدام النساك في الأديرة، حتى أقبل الشعب على احترامهم وإجلالهم، وأخذت جموع الجهلة وأبناء الطبقة العليا يتوافدون على

صوامع النساك في ديرنا للإسرار بشكوكهم وللاعتراف بما اقترفوه من ذنوب، وبما لقوه من آلام، ولطلب النصح والإرشاد. ولما رأى خصوم النساك ذلك، ثارت ثائرتهم وأعلنوا أن سر الاعتراف قد امتهن عمداً، مع أن بوح الراهب المبتدىء، أو غيره من الناس العاديين للناسك لم يكن له وجه شبه بالاعتراف. ورغم ذلك فقد توطدت أخيراً أركان هذه الفئة من النساك بالأديرة الروسية وربما وجب الاعتراف أن هذا الأسلوب الذي صمد للتجربة ألف سنة واعتمد من أجل رفع معنوية الإنسان وإطلاقها من العبودية إلى الحرية والكمال، قد يكون سلاحاً ذا حدّين وإنه قد يفضي ببعضهم لا إلى التواضع والسيطرة على النفس بل إلى الفطرية الشيطانية، وبعبارة أخرى قد يؤدي إلى العبودية بدلاً من الحرية.

وكان الأب زوسيما في الخامسة والستين من عمره وهو ينحدر من أسرة غنية بأملاكها. وقد جند في صدر شبابه وأدى الخدمة العسكرية في القفقاس برتبة ضابط. ولا شك في أنه أثر في أليوشا بما كان ينبع من روحه. فهو عاش معه في صومعته وقد أغرم به واصطفاه لقضاء حاجاته. وتجدر الإشارة إلى أن أليوشا لم يكن مقيداً بأي عهد، بل كان يستطيع الذهاب حيثما شاء ولو تغيب على الدير أياماً. ومع أنه كان يرتدي ثياب الرهبان إلا أن ذلك كان بإرادته وقد اختار هذا الزي كيلا يشذ عن سائر الرهبان من حوله. كما لا شك أن ذلك كان يرضيه. ويمكن أن نقول أن خيالات الصبي قد تحركت بفضل تأثره بهذه السيطرة وتلك الشهرة اللتين كان يتمتع بها الناسك.

ولقد قيل إن عدداً كبيراً من الناس جاؤوا في السنوات الأخيرة إلى الأب زوسيما يعترفون له بخطاياهم ويتوسلون إليه أن يجود عليهم بأقواله التي تبلسم أرواحهم وتشفي أجسادهم. وقد كان يمتاز بقوة الإدراك لدرجة التكهن بما يطلبه الشخص وما يثقل ضميره، وذلك من ملامحه. كما كان في بعض الأحيان يذهل زائريه بل ويرعبهم بمعرفته ما يكنون من أسرار قبل أن تصدر عنهم أية كلمة بخصوصها.

وقد لاحظ أليوشا أن غالبية الزائرين، إن لم يكونوا كلهم، كانوا إذا

دخلوا إلى صومعته لأول مرة إنما يدخلون عليه متجهمين قلقين ولا يلبثوا أن يخرجوا منها وقد أشرقت وجوههم بالسعادة. ومما استرعى اهتمام أليوشا بوجه خاص أن الأب زوسيما لم يكن قط صارم المظهر مقطب المحيا، بل كان على النقيض من ذلك دائم المرح والانشراح. ويقول الرهبان إنه كان أقرب إلى نفوس الخاطئين، وأنه كلما كانت ذنوب الشخص كثيرة كان أقرب إلى قلبه. ومما لا شك فيه أنه لم يسلم طول حياته من كراهية وحسد بعض رهبان الدير، ومنهم أصحاب نفوذ كبير. إلا أنهم كانوا قلة تؤثر الصمت على الكلام، وكان أحدهم، راهب اشتهر بين أقرانه بتمسكه بفروض الصوم ورياضة الصمت. ولكن غالبية الرهبان كانت تناصر زوسيما بصدق ومحبة، بل أن بعض هؤلاء كانوا يبالغون بمحبته ويكادون يعلنون أنه قديس لا شك في قدسيته. ولما قربت نهايته، كانوا يتوقعون قيامه بالمعجزات ويتنبأون بأن الدير سيشتهر بما يتركه فيه من آثار. ولم يكن أليوشا ليشك لحظة في مقدرة الناسك على الإتيان بالأعاجيب، ولا في صحة قصة النعش الطائر من الكنيسة. وقد رأى بأم عينه أناساً كثيرين يأتون إلى صومعة الناسك بأطفال وأقارب لهم يشكون العلل ويطلبون إليه أن يضع يديه عليهم ويتلو عليهم صلواته ثم سرعان ما أن يعودوا، بعد يوم واحد على الأكثر، فيبللوا قدمي الناسك بدموع الشكر على شفائه لمرضاهم.

لم يكن أليوشا مهتماً بمعرفة كيفية حصول الشفاء وما إذا كان الألم يزول ببركة الناسك أو بسبب تعاقب مراحل المرض، لأنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بقوة معلمه الروحية ويغتبط بشهرته ومجده كما لو كان هو نفسه صاحبهما. وقد كان قلب أليوشا يخفق ووجهه يضيء بالفرح وهو يرى الناسك يخرج من باب الصومعة إلى جمهرة الناس من أبناء الطبقة الدنيا الذين جاؤوا إليه بعد أن قطعوا القفار من أقاصي روسيا لينعموا بالنظر إليه وينالوا بركته. وكانوا ينحنون طويلاً أمامه ويبكون ويقبلون قدميه ومواطىء نعليه وينتحبون. وكانت النسوة يرفعن أطفالهم إليه ويدنين منه رجالهم الذين أصابهم مسّ فيخاطبهم الناسك ويتلو عليهم صلواته القصيرة ويباركهم قبل أن يصرفهم. وقد اشتد المرض على الناسك في الآونة الأخيرة، فهزل جسمه ولم يعد في بعض

الأحيان يقوى على مبارحة صومعته، فكان الحجاج يقفون على بابه أياماً عديدة ينتظرون خروجه إليهم. لم يكن أليوشا يعجب لحب الناس للناسك ويعتبر أن ارتماءهم على قدميه وذرفهم الدموع السخينة عند رؤيتهم محياه أمر طبيعي. لقد أدرك أليوشا أن روح الفلاح الروسي المتواضع الذي أرهقه العذاب والألم وحطمه الظلم المتصل وهدته خطاياه ـ فضلاً عن خطايا الناس المتصلة ـ أن هذه الروح تجد كل العزاء في وجود إنسان أو شيء مقدس يركع أمامه ويتعبد في هيكله. وكأن هذا الفلاح يقول في سره: «إذا كانت الخطيئة والظلم والتجارب متغلغلة بيننا، ففي مكان ما على الأرض يوجد إنسان تحيط به القدسية والجلال، بيده الحقيقة وهو عارف بها ملم بأسرارها وما دام هذا موجوداً، فإن الحقيقة لن تضيع من هذه الأرض، وسيأتي يوم نعرف فيه الحقيقة فتسود الأرض كما وعدتنا الكتب السماوية».

نعم كان أليوشا يعلم أن هذا هو شعور أبناء الشعب وتفكيرهم. وانسجاماً منه مع هذا، فإنه لم يكن ليشك في أن الناسك زوسيما كان قديساً وأميناً على الحقيقة، مثله مثل أولئك المنتحبين والنسوة والمريضات اللواتي كن يرفعن أطفالهم إليه. بل إن يقينه بكرامة الناسك وبأنه بعد وفاته سيأتي بمجد خارق للدير كان في نفسه أقوى منه في نفوس أهل الدير. لقد جعلت هذه المشاعر في الآونة الأخيرة نفس أليوشا تتوقد حماسة وبهجة وتزداد نارها في قلبه قوة على قوة. ولم يكن يشعر بالاضطراب عندما يتمثل هذا الناسك أمامه مثلاً فذاً استثنائياً.

لقد كان الحلم الذي يجيش في قلب أليوشا أن الأب زوسيما كان على أي حال رجلاً مقدساً يعرف سر تجدد الأشياء وتلك هي القوة التي ستثبت أخيراً الحقيقة على ظهر الأرض حتى تصيب القدسية جميع الناس فيحبون بعضهم بعضاً، وعندما تنعدم الفروق فلا يعود في الدنيا ثري ومعدم أو ممجد وبائس، بل يصبح جميع الناس أبناء الله وسيسود ملكوت السيد المسيح.

لم يكن أليوشا يعرف أخويه من قبل وكان لوصولهما أثر كبير عليه. وسرعان ما ارتبط مع أخيه لأبيه، ديمتري، برباط الصداقة، (مع أنه لم يكن

السابق في الوصول إلى بيت أبيه) ومال إليه أكثر من شقيقه إيفان الذي كان وصل المدينة منذ شهرين. وبرغم حرصه على الاهتمام بإيفان فإن أواصر المودة لم تتوطد بينهما، مع أنهما كانا كثيراً ما يلتقيان. وكان أليوشا صامتاً بطبعه يبدو عليه كأنه يتوقع حدوث شيء أو كأنه يضمر شيئاً فيه حرج، في حين بدا على شقيقه إيفان أنه لم يعد يهتم به كثيراً، مع أن أليوشا كان قد لاحظ عليه في بدء الأمر أنه كان يطيل النظر إليه ويحدجه بنظرات الاهتمام، ولهذا كان أليوشا يشعر بالحرج إنه كان يعزو انصراف شقيقه عنه في أول الأمر إلى ذلك الفرق الشاسع بينهما في العمر والثقافة، ولكن الظنون كانت تساوره بأن سبباً آخر لا يعلمه هو وراء عدم اهتمام شقيقه إيفان به وعطفه عليه. كان يتخيل أن إيفان كان مستغرقاً في شعور باطني هام، وأنه كان يجاهد في سبيل بلوغ هدف دونه المشقة العظيمة، وأن انشغاله في أمر هذا الهدف هو الذي شغله عنه. بل إن خاطراً راود أليوشا هل أن ذلك الملحد المتعلم ربما كان ينظر إليه باستخفاف وازدراء كراهب مبتدىء أحمق. لقد كان أليوشا واثقاً من إلحاد أخيه، ولم تكن نظرة الاحتقار هذه لتشعره بالمهانة. ولكنه كان مع ذلك، ينتظر، بضيق غامض أن يبدل شقيقه موقفه منه ويتقرب إليه.

أما ديمتري فكان يتحدث عن إيفان باحترام عميق وحماسة غريبة. ومن ديمتري اطلع أليوشا على جميع التفصيلات المتعلقة بالقضية الهامة التي أوجدت بين الأخوين الأكبرين تلك الصلة الوثيقة. وكانت حماسة ديمتري في الحديث عن إيفان هي أقوى ما شدت انتباه أليوشا، لأن ديمتري قياساً إلى إيفان يكاد يكون جاهلاً. بل أن التفاوت في الشخصية والطبع بين الإثنين بلغ درجة يصعب معها وجود رجلين أكثر منهما تفاوتاً في الصفات.

في ذلك الوقت بالذات انعقدت الجلسة، أو بالأحرى التأم عقد تلك الأسرة المتنافرة في غرفة الناسك الذي كان له تأثير كبير في أليوشا. والصحيح أن الحجة لعقد هذا اللقاء كانت كاذبة، إن الخصومة بين ديمتري وأبيه كانت يومها قد بلغت مرحلتها الحرجة وتأزمت العلاقات بينهما بشكل لا يطاق. ويبدو أن فيودور بافلوفيتش كان السباق إلى الاقتراح، ممازحاً، بأن

يجتمع أفراد الأسرة في غرفة الأب زوسيما لكي يتداولوا بمودة وهدوء في أمر الوصول إلى تفاهم يساعد عليه وجود الناسك وتأثيره في الجميع، دون أن تكون ثمة ضرورة إلى تدخله المباشر.

وقد ظن ديمتري الذي لم تكن عينه قد رأت الناسك بعد، أن أباه كان يريد تخويفه به، ولكنه قبل التحدي ووافق على الاجتماع معه في غرفة الأب زوسيما، لأنه كان في سره يلوم نفسه على تلك المواقف من الكلام القارص والازدراء التي واجه بها أباه في الآونة الأخيرة. ومما تجدر ملاحظته أن ديمتري لم يكن يعيش، مثل أخيه إيفان، في منزل والده، بل كان يسكن وحيداً في الطرف الآخر من البلدة. وقد حدث صدفة أن بطرس الكسندروفيتش ميوسوف الذي كان ينزل في المقاطعة استهوته الفكرة وتبناها. ولما كان متحرراً من العقائد على طراز أحرار سنوات ١٨٤٠ - ١٨٥٠، وملحداً، فقد يكون وافق على الاجتماع مع الأسرة في غرفة الناسك، إما لدفع الضجر أو لطلب التسلية. وقد أحس فجأة برغبة جامحة لرؤية الدير ورجله «المقدس». ولما كانت قضيته في المحكمة ضد الدير لم تزل قائمة منذ وقت طويل، فقد اتخذ ذلك حجة للاتصال برئيس الدير ومحاولة تسوية الخلاف بينهما بالطرق الودية. والأرجح أن زائراً هذه صفته وهذه غايته سيكون استقباله على قدر من الاهتمام والاعتبار أكثر ممن يزور الدير بدافع من الفضول وحسب. وهكذا تعرض الناسك لضغط داخلي من رجال الدير، رغم أنه كان قد لزم صومعته لا يكاد يغادرها، واشتد عليه المرض ومنعه من استقبال زواره الاعتياديين، فوافق أخيراً على الاجتماع وحدد موعد عقده.

وقد نظر الناسك إلى أليوشا وقال مبتسماً: من جعلني قاضياً عليهم؟ وبأي حق؟ واضطرب أليوشا اضطراباً شديداً حين علم بأنباء الزيارة المقترحة. وكان يرى أن ديمتري وحده من بين سائر أهله المتخاصمين مؤهل بأن ينظر إلى الاجتماع نظرة جدية. أما الباقون فإن مجيئهم إلى الدير كان بدافع من بواعث تافهة قد تلحق المهانة بالناسك. لقد كان أليوشا مدركاً ذلك تمام الإدراك. أما إيفان وميوسوف فقد وافقا على المجيء بدافع الفضول الرخيص. وليس بعيداً أن يكون أبوه أراد السخرية والتهريج. وهو وإن لم يلمح إلى

ذلك، إلا أن أليوشا كان أدرى بوالده. وهنا لا بد لي من أن أكرر القول أن الفتى لم يكن غبياً كما كان يتخيل إلى الآخرين في أنه كان دائم التمني أن يزول الخلاف بين أفراد الأسرة، بوسيلة ما ولكن ما كان يهمه هو أمر الناسك، وكانت تعتريه هزة وهو يفكر فيه وفيما سيصير إليه مجده، وكانت خشيته عظيمة من إمكانية إهانته، وخاصة من التهكم المهذب الذي قد يلحقه من ميوسوف أو السخرية المبطنة التي قد يدسّها إيفان العالي الثقافة. وقد خطر له أن يغامر فينذر الناسك إلى أمر أفراد الجماعة ويطلعه على بعض صفاتهم، ولكنه عدل عن ذلك بعد تفكير، واكتفى بأنه أرسل إلى أخيه ديمتري قبل الموعد المحدد بيوم، بواسطة أحد أصدقائه، يبلغه حبه له وأنه يعتمد على وعده. وقد استغرب ديمتري هذه الرسالة، فهو لم يستطع أن يذكر شيئاً عن وعد قطعه لأليوشا. ولكنه مع ذلك كتب إلى أخيه يجيبه إنه سيبذل طاقته من أجل سيطرته على نفسه، وإنه مع احترامه العظيم للناسك ولأخيه إيفان إلا إنه مقتنع بأن الاجتماع إما أن يكون شركاً له أو خدعة تافهة. وتضمنت رسالته قوله: «ومع ذلك فإنني أفضل أن أعض لساني على أن أقول ما يسيء إلى ذلك الرجل المبارك الذي يحظى باحترامك وتعظيمك». ولم يكن أليوشا كثير الابتهاج بوصول هذه الرسالة إليه.

الباب الثاني

اجتماع متنافر

الوصول إلى الدير

كان اليوم يوماً دافئاً مشرقاً من أخريات شهر آب. وحدّد موعد الاجتماع بالناسك في منتصف الساعة الثانية عشرة، فور انتهاء القداس الأخير. ولم يشترك الزائرون في هذا القداس، بل وصلوا إلى الدير مع انتهاء الصلاة. وكان أول الوافدين منهم ميوسوف في عربة فاخرة مكشوفة يجرها جوادان مطهمان، مصطحباً معه شاباً يدعى بطرس فوميتش كالغانوف، وهو يقربه قرابة بعيدة. وكان هذا الشاب يستعد لدخول الجامعة، ويعيش في تلك الآونة مع ميوسوف الذي كان يحاول إقناعه بالسفر إلى بلاد أجنبية والالتحاق بجامعة زوريخ أو جينا. وأما الشاب، فلم يكن قد توصل إلى قرار نهائي في هذا الأمر. وكان دائم التفكير شارد الذهن. ومن ينظر إليه كان يرى أمامه شاباً مليح الشكل قوي البنية أقرب أن يكون طويلاً. وفي بعض الأحيان كما هو حال الممعنين في الذهول كانت نظراته حالمة غريبة حتى أنه كثيراً ما يخيل إلى من يراه أنه يحدق في الإنسان دون أن يلاحظ وجوده. كما كان كثير الصمت مضطرب الحركات، ولكنه إذا خلا بأحد من معارفه انطلق لسانه وتحرر من خجله، وقد يضحك لسبب أو لغير سبب. غير أن حيويته كانت سريعة التلاشي كما تبدأ كذلك. وكان هذا الشاب أنيقاً دائماً حسن الزي بفضل ما كان لديه من ثروة حسنة وما كان ينتظره من مواريث أكثر. وكان صديقاً لأليوشا.

وفي أعقاب عربة ميوسوف، وعلى مسافة بعيدة منها، كانت عربة أخرى تقل فيودور بافلوفيتش وابنه إيفان، وهي عربة أجرة قديمة كثيرة الاهتزاز متسعة الجوانب يجرها حصانان هرمان مقصران أصهبان. أما ديمتري فقد تأخر عن الحضور رغم أنه أبلغ موعد الاجتماع ليلة البارحة.

ترجل الزائرون من عربتهم أمام الفندق القريب من جدار الدير الخارجي وساروا نحو الباب. ولم يكن أي واحد منهم قد رأى الدْير قبل الآن سوى فيودور بافلوفيتش. وقد يمكن القول إن ميوسوف لم تطأ قدماه عتبة الكنيسة منذ ثلاثين عاماً. وقد أخذ ينظر حواليه بقليل من الاهتمام والاستطلاع، ولكنه لم ير شيئاً يثير الاهتمام في داخل الدير سوى الكنيسة وبنايات سكن الرهبان الملحقة بها، حتى هذه كانت دون مستوى الفن المعماري. وفي هذه الأثناء كانت فلول المصلين تغادر الكنيسة، وقد حسر كل واحد منهم عن رأسه وضمّ يديه إلى صدره. وكانوا من عامة الناس يتخللهم عدد قليل من الطبقة العليا، وهم سيدتان أو ثلاث سيدات وجنرال هرم، وجميعهم كانوا ينزلون في الفندق. أما أصحابنا الزائرون فما أن بلغوا ساحة الكنيسة، حتى احتشد حولهم المتسولون. ولكن واحداً منهم لم يتصدق على هؤلاء بشيء باستثناء الشاب كالغانوف الذي أخرج من محفظته قطعة نقود من فئة العشرة قوبقات وأسرع فناولها بحركة عصبية فيها بعض اضطراب ـ لسبب لا يعرفه إلا الله ـ إلى امرأة عجوز وقال: «اقتسموا هذه بالتساوي». ولم تصدر عن أي واحد من الآخرين أية ملاحظة على هذا التصرف، حتى يشعر بالحرج، ومع ذلك، فإن ارتباكه ازداد مع صمتهم هذا.

ومما أثار استغرابهم ألا يكون وصولهم إلى الدير متوقعاً، وألا يستقبلوا بحفاوة، خاصة أن واحداً منهم كان قد تبرع للدير في الآونة الأخيرة بألف روبل، وآخر كان ثرياً على قسط وافر من الثقافة، عليه يتوقف إلى حد ما، مصير أهل الدير جميعاً، إذ قد تؤول إليه في أية لحظة حقوق صيد السمك في النهر إذا ما جاء الحكم موافقاً على دعواه. ومع ذلك فما من رجل من رجال الدير الرسميين جاء لاستقبال الزائرين.

أخذ ميوسوف يجيل نظره وهو خالي الذهن، ويحدق في الأضرحة المتناثرة حول الكنيسة، وكاد أن يقول: إن هؤلاء الموتى المدفونين في هذه الأضرحة لا بد أن يكون قد دفع كل واحد منهم مبلغاً من المال لقاء تمتعه بحق الرقاد في هذا المكان المقدس، ولكنه أمسك عن ذلك. وأخذ تهكمه المنطلق بلا رادع يتحول بسرعة إلى غضب.

ثم قال فجأة وكأنه يخاطب نفسه: «بحق الشيطان أليس من إنسان في هذا المكان المليء بالغباء نستطيع أن نتوجه إليه بسؤال؟ هلموا، فالوقت يمر بسرعة».

وسرعان ما اقترب منهم رجل متقدم في السن أصلع الرأس ذو عينين صغيرتين ناعستين، يرتدي معطفاً صيفياً ضافياً. ورفع الرجل قبعته وقدم نفسه إلى الزائرين بلهجة رقيقة قائلاً أنه مكسيموف صاحب أطيان في تولا. ثم قال محاولاً مساعدتهم على الخروج من حيرتهم: «إن الأب زوسيما يعيش في الصومعة وهي تبعد عن الدير مسافة أربعمائة خطوة عند الطرف الآخر من الغابة».

فأجابه فيودور بافلوفيتش قائلاً: «أعرف أن الصومعة عند الطرف الآخر من الغابة، ولكننا نسينا الطريق إليها فإننا لم نأت إلى هذا المكان منذ زمن طويل».

ـ «هذه الطريق القائمة عند المدخل، ثم العبور إلى الغابة.. الغابة.. هلموا معي أرجوكم، وسأرشدكم إلى الطريق.. إن من واجبي الذهاب معكم.. سأذهب بنفسي.. من هنا.. من هنا».

وخرج الجميع من الباب واتجهوا نحو الغابة وأمامهم مكسيموف الذي يبلغ الستين من عمره وكان يعدو عدواً، وهو بين الفينة والفينة يتفرس فيهم مستطلعاً وقد ارتسمت على وجهه تعابير الفضول العظيم وكأن عينيه تكادان أن تخرجا من رأسه.

وقال ميوسوف بلهجة حادة مخاطباً مكسيموف: يجب أن أعلمك أننا جئنا لمقابلة الناسك في شأن من شؤوننا. ولقد ضرب لنا موعداً إذا صح هذا القول، وإذ نشكر لك أنك قمت بإرشادنا إلى الطريق فإننا نطلب إليك أن ترافقنا في الدخول إليه.

ـ لقد كنت في حضرته.. لقد كنت هناك، يا له من فارس شهم. وفرك إصبعيه في الهواء مصفقاً بهما. فسأله ميوسوف: «من هو ذلك الفارس الشهم؟» فأجابه مكسيموف: «إنه الناسك، الناسك العظيم، شرف الدير ومجده، زوسيما، يا له من رجل عظيم».

وفي تلك اللحظة لحق بالزوار راهب شاحب اللون ناحل الجسم متوسط الطول يضع على رأسه قلنسوة الرهبان فتوقف فيودور بافلوفيتش وميوسوف عن المسير وسكت مكسيموف عن كلامه المتنافر. ثم دنا الراهب من الزوار وانحنى أمامهم انحناءة بالغة تنم عن الأدب الجم وقال: «إن رئيس الدير يدعوكم جميعاً، أيها السادة، لتناول طعام الغداء على مائدته، بعد عودتكم من الصومعة في تمام الساعة الواحدة، وأنت أيضاً يا مكسيموف».

لم يتمالك فيودور بافلوفيتش نفسه من القول وهو يشعر ببهجة عظيمة لهذه الدعوة: «إنني حتماً سألبي الدعوة، يقيناً سأحضر. وصدقني لقد قطعنا على أنفسنا عهداً بأن نحسن التصرف في هذا المكان، وأنت يا بطرس الكسندروفيتش هل لك في المجيء؟».

- طبعاً، فلماذا جئت إلى هذا المكان لو لم أكن أريد الاطلاع على جميع عاداتهم؟ إن وجودك برفقتي فقط هو ما يزعجني.

- نعم ولكن ديمتري فيودوروفيتش لم يحضر بعد.

- إنه سيقترف خطأً عظيماً إذا حضر. لعلك تظن أنني أرغب بكل هذه الأمور خاصة إذا كانت برفقتك؟ ثم التفت إلى الراهب وقال: «إننا قبلنا دعوة رئيس الدير فبلغه شكرنا».

فأجاب الراهب: «إنني مكلف أن أدلكم على مكان الناسك».

فقال مكسيموف متلهفاً: «إذا كان الأمر كذلك فسأتوجه تواً إلى رئيس الدير - إلى رئيس الدير..».

وتردد الراهب برهة، وأجاب مكسيموف قائلاً: «إن رئيس الدير مشغول الآن ولكن كما تشاء». فقال ميوسوف بصوت عالٍ: «يا له من عجوز وقح». غير أن مكسيموف استدار وهرول نحو الدير.

وفجأة علّق فيودور بافلوفيتش قائلاً: «ما أشبهه بفون سوهن..» فرد عليه ميوسوف: «أهذا كل ما يمكن أن يتحفك به خيالك؟.. ما هو وجه الشبه بينه وبين فون سوهن؟ وهل رأيت أنت فون سوهن هذا؟

- لقد رأيت صورته، إنه لا يشبهه في الملامح بل في شيء لا يمكن تحديده. إنه فون سوهن الثاني، إنني عليم بفن الفراسة.

ـ آه «إنك دقيق الملاحظة في هذا، ولكن تذكر يا فيودور بافلوفيتش، ألم تقل لتوك أننا قطعنا على أنفسنا عهداً بأن نحسن التصرف؟ أنصحك بالاتزان. فإذا أردت أن تتحامق فلن أشترك معك في حماقتك هنا..». ثم التفت إلى الراهب وأردف يقول: «ها أنت ترى أي نوع من الرجال هذا، إنني أخجل من مرافقته إلى المجالس التي يرتادها الناس المحترمون». لكن الراهب لم يجب على قول ميوسوف، وارتسمت على شفتيه الذاويتين ابتسامة لا تخلو من معنى. وظل صامتاً بدافع من كرامته. وازداد عبوس ميوسوف وقال بينه وبين نفسه: «اذهبوا جميعاً إلى الشيطان فلستم إلا مظهراً خارجياً صنعته القرون، وليس هذا كله سوى ادعاء ودجل».

وفي هذه الأثناء اقترب الزوار من الصومعة فصاح فيودور بافلوفيتش قائلاً: «ها قد وصلنا. إن أبواب الصومعة مغلقة». ثم أخذ يرسم شارة الصليب مرات متعاقبة أمام صور القديسين المرسومة فوق الأبواب وعلى جوانبها، وقال، وهو يلتفت إلى الراهب المرافق لهم: «إذا ذهبت إلى روما فافعل ما يفعله أهلها[1] إن في هذه الصومعة خمسة وعشرين قديساً يسلكون طريق الخلاص ينظرون إلى بعضهم بعضاً ويأكلون الملفوف المخلل ولا يسمح لأية امرأة بالدخول من هذا الباب، إن هذا جديراً بالملاحظة وهو يدعونا إلى العجب والتفكر، إذا قيل لي أن الناسك يستقبل السيدات».

فأجابه الراهب قائلا: «يوجد الآن في ذلك الفناء عدد من النساء الفقيرات ينتظرن الناسك، أما النساء من المجتمع الراقي فقد شيدت لهم غرفتان ملحقتان بالفناء، ولكن مقابل سياج الصومعة، وها هي نوافذهما. وعندما يشعر الناسك بتحسن في صحته، يخرج إليهن من رواق داخلي، ولكنهن جميعاً ينتظرن خارج الصومعة. ومن بين النسوة سيدة من «خاركوف» اسمها مدام خولاكوف وهي تنتظر الآن مع ابنتها العليلة، وربما كان الناسك قد وعد بلقائها رغم أنه في الآونة الأخيرة أخذ يشعر بإعياء عظيم فلا يكاد يخرج».

---

(١) المقصود مراعاة القواعد المتبعة في هذا الدير.

فعاد فيودور بافلوفيتش يقول: «إذن فهنالك سراديب خفية للخروج من الصومعة إلى السيدات، حذار أيها الأب المحترم أن تظن سوءاً في كلامي. فكلامي ليس سيىء النية ولكن هل تعلم أنه لا يكتفى في جبل آثوس بمنع النسوة من زيارة الدير، بل يمنع من دخوله كل ما كان أنثى حتى لو كانت دجاجة أو بقرة».

وهنا صاح ميوسوف قائلاً: «فيودور بافلوفيتش، إنني أنذرك بأنني سأعود أدراجي وأتركك هنا وإذا ما غادرت أنا هذا المكان فإنهم سيطردونك».

فأجاب فيودور بافلوفيتش قائلاً: «ولكنني لا أتدخل في شؤونك يا بطرس الكسندروفيتش» ثم اقترب من حرم الصومعة وصاح قائلاً: «انظر ما أجمل أحواض الورد النامية هنا!».

لم يكن الوقت آنذاك أوان تفتح الورود، فإن مجموعة من أزهار الخريف النادرة الجميلة كانت متناثرة في كل فسحة من الأرض. وكان واضحاً أن يداً ماهرةً تعنى بزراعة الزهور وتنسيقها. وكانت أحواض الأزهار تحيط بالكنيسة وتلامس الأضرحة. وكان البيت الخشبي ذو الطابق الواحد الذي يعيش فيه الناسك أيضاً محاطاً بالأزهار.

وقال فيودور بافلوفيتش وهو يرقى درجات السلم: «هل كان الدير على هذه الحال في أيام الناسك المتوفى فارسونوفي؟ لقد كان كما يقولون غير مهتم بهذه الأمور الرائعة، بل إنه كان يقفز غاضباً حتى إنه يضرب سيداتنا بالعصا».

فأجاب الراهب قائلا: «إن الناسك فارسونوفي كان أحياناً يبدو غريباً ولكن ما قيل في حقه من أكاذيب كان ضرباً من الحماقة، فهو لم يضرب أحداً من الناس. الآن أيها السادة أرجوكم الانتظار دقيقة حتى أعلن عن وصولكم».

وعندها قال ميوسوف هامساً: «فيودور بافلوفيتش، إنني أنذرك للمرة الأخيرة، سيطر على نفسك، أحسن التصرف وإلا جعلتهم يطردونك من هذا المكان».

فقال فيودور بافلوفيتش متهكماً: «لست أدري علة سخطك، هل هي

ذنوبك تعذب ضميرك؟ يقال أنهم هنا يستطيعون من نظرة واحدة في عين الإنسان معرفة ما اقترفه من آثام، إنك تبالغ في تقديرك لآرائهم وأنت الباريسي التقدمي. لشد ما يدهشني أمرك».

ولكن الوقت لم يتسع لميوسوف للرد على سخريته فقد جاء من يدعوهم للدخول، فدخل وهو يشعر بضيق وغيظ. وقال محدثاً نفسه: «إنني أدرك ما سيحدث الآن، إنني أعرف نفسي، فأنا منزعج وسأغضب وسأجادل فأسفّه بذلك نفسي وآرائي في أعين الناس».



المهرج العجوز

دخل الجمع إلى الغرفة في الوقت الذي كان فيه الناسك يتوجه نحوها مغادراً غرفة نومه. وكان في داخل الغرفة اثنان من رهبان الصومعة ينتظرانه أحدهما قيم المكتبة والثاني الأب بيسي، الذي قيل عنه إنه على قدر عظيم من العلم. وكان أصبح مهزولاً برغم عدم تقدمه في السن. وكان في الغرفة أيضاً شاب طويل القامة يبلغ الثانية والعشرين من عمره. وقد ظل واقفاً في إحدى زوايا الغرفة حتى انتهاء الاجتماع. وكان وجهه ممتلئاً تبدو عليه النضارة، عيناه ضيقتان بنيتان ولكنهما حادتان متفرستان تنمان عن ذكاء وتيقظ. ولئن كان يرتدي ملابس عادية، فإنه يعيش في كنف الدير لأنه يدرس اللاهوت وكانت ملامحه تدل على الوقار واحترام الذات من غير فضول. وهو كان يدرك أن منزلته أدنى من أن يجاري الضيوف لاعتماده في الحياة على غيره، لذلك فإنه لم يحيهم بالانحناء عند دخولهم الغرفة.

دخل الأب زوسيما يرافقه أليوشا وأحد الرهبان المبتدئين. فنهض الراهبان من مجلسيهما وحيياه بالانحناء حتى لامست أناملهما الأرض ثم قبّلا يده. وبعد أن باركهما، رد عليهما التحية والاحترام بمثلهما وطلب بركتهما. تمت كل هذه المراسم في جو من الشعور الصادق لا كالطقوس اليومية المألوفة.

ومع ذلك فقد اعتبر ميوسوف، الذي كان يتقدم الجمع أنها لا تخلو من مظاهر التكلف والتصنع. وكان قد قرر بالأمس أنه ينبغي عليه، بدافع من الأدب ومسايرة عادات القوم في الدير، أن يمضي إلى الناسك ملتمساً بركته ولو لم يكن يريد تقبيل يده، ولكنه ما إن رأى ما أقدم عليه الرهبان حتى تراجع عن قراره وأحجم عما كان يعتزم الإقدام عليه. واكتفى، وهو يتثاقل

متصنعاً الوقار، بأن انحنى للناسك الانحناءة البالغة وعاد إلى مقعده. وحذا فيودور بافلوفيتش حذو ميوسوف مقلداً حركاته ساخراً، كالقرد.

وانحنى إيفان برصانة ووقار عظيمين، ولكنه لم يضم يديه إلى صدره بل أبقاهما ممدودتين إلى جنبيه، في حين اضطرب كالغانوف حتى أنه نسي أن يسلّم. ثم خفض الناسك ذراعه التي كان رفعها مباركاً زائريه، وعاد فانحنى لهم ورجاهم جميعاً أن يأخذوا مجالسهم. وصعد الدم إلى وجنتي أليوشا خجلاً فقد صح ما كان يتوقعه.

جلس الأب زوسيما على أريكة قديمة الطراز، من خشب المهوغني، مغطاة بجلد أسود مهترىء. وبقي أحد الراهبين عند الباب، والآخر عند النافذة. وبقي واقفاً كل من طالب اللاهوت والراهب المبتدىء وأليوشا. كانت الغرفة ضيقة وكان لونها حائلاً ولا تحتوي إلا على ما تمليه الحاجة المتواضعة من أثاث مصنوع من أخشن الأنواع وأرخصها. وعند النافذة وضعت آنيتان للزهر، وكدست في الزاوية بعض الأيقونات إحداها للسيدة العذراء، عظيمة، قديمة العهد، وإلى جانبها صورتان مقدستان في إطارين براقين وعندها صور محفورة لأطفال لهم أجنحة وصليب من العاج تعانقه الأم الحزينة وعدد من الصور للوحات مشاهير الفنانين الإيطاليين في القرون الخوالي. وإلى جانب هذه القطع الفنية الغالية الثمن، صور من صنع روسي على غاية البساطة لقديسين شهداء لا تختلف عما يعرض في الأسواق بأبخس الأثمان، وعلى الجدران الأخرى صور مماثلة لهذه، لأساقفة روسيين من أبناء الماضي والحاضر.

ألقى ميوسوف نظرة شزراً إلى كل هذه «التفاهات» ثم حدّق بالناسك. ولقد كان مبالغاً في تقدير فطنته ونفاذ بصيرته، وذلك ضعف يلتمس العذر له، لمن كان على شاكلته ممن بلغوا سن الخمسين وهي السن التي تعود فيها إنسان مثله أوتي حظاً من مهارة ومركز اجتماعي أن ينظر إلى نفسه باحترام كبير. ولم يجد ميوسوف نفسه من النظرة الأولى معجباً بالأب زوسيما. والحق أنه كان في ملامح الناسك شيء لا يروق لميوسوف ولا للكثيرين غيره من الرجال. فلقد كان رجلاً قصير القامة، محدودب الظهر، خائر الساقين. ولم يكن عمره يتجاوز الخامسة والستين ولكنه أكبر من ذلك بعشر سنوات

على الأقل، فقد كان وجهه ناحلاً ضامراً، كثير الغضون لا سيما حول عينيه اللتين كانتا صغيرتين خفيفتي اللون، كثيرتي الحركة والسطوع، براقتين كنقطتين مضيئتين. وعلى صدغيه تناثرت شعرات رمادية، هي كل ما بقي من شعره. وعلى ذقنه نمت لحية صغيرة خفيفة، وكانت شفتاه دقيقتين دقة الخيط، وتبتسمان بدهاء. ولم يكن أنفه طويلاً ولكنه كان حاداً كمنقار الطائر. وحدّث ميوسوف نفسه قائلاً: «إن مظاهر هذا الرجل توحي بأنه شخص حقود، شرس، تمتلىء نفسه بالكبرياء السخيفة». وشعر بالاستياء لوجوده في هذا المجلس. ثم دقت ساعة رخيصة كانت معلّقة على الحائط اثنتي عشرة دقة مؤذنة بحلول الظهر. وعندها قال فيودور بافلوفيتش: «إنه الموعد المحدد ولما يظهر أثر لولدي ديمتري. إنني أستميحك العذر عنه أيها الناسك المقدس!». (وانتابت أليوشا رعشة قوية عمّت جسده، لسماعه تعبير أبيه عن الناسك). وتابع فيودور بافلوفيتش قوله: «إنني حريص على المواعيد لا أتقدم دقيقة ولا أتأخر دقيقة، ولا عجب فقد حفظت أن دقة المواعيد من آداب الملوك».

لم يتمالك ميوسوف نفسه فهمهم بصوت خافت: «ولكنك لست ملكاً على أية حال».

فأجابه فيودور بافلوفيتش قائلا: «نعم صحيح أني لست ملكاً. صدقني يا بطرس الكسندروفيتش إنني أعلم ذلك من نفسي، ولكن رويدك فأنا كثيراً ما يعثر لساني بكلمات لا معنى لها». ثم اندفع يقول وقد تملكه انفعال مفاجىء: «يا صاحب النيافة إن الرجل الذي تراه أمامك ليس إلا مهرجاً عريقاً، وبهذه الصفة أقدم لك نفسي. إنها عادة أصيلة في نفسي ويا للأسف فإذا اشتططت في أقوالي وكذبت عامداً بما لا معنى له أو مبرر، فإنني أقصد من وراء ذلك أن أدخل التسلية في قلوب الناس وأجعل نفسي مقبولاً لديهم. أفلا توافقني الرأي أن الإنسان يجب أن يعمل من أجل إسعاد الآخرين؟ فأنا ذهبت منذ سبع سنوات إلى إحدى المدن الصغرى لإتمام بعض الصفقات، وصادقت في تلك المدينة بعض التجار. وفي ذات يوم زرنا مكتب ضابط الشرطة أملاً بنيل مساعدته ولدعوته إلى الغداء. وكان رجلاً طويلاً بديناً أشقر الشعر شرس الطبع. وهي صفات لا يطمئن الإنسان لصاحبها في مثل هذه الأمور. ذهبنا

إلى مكتب الضابط فمضيت نحوه وخاطبته بلهجة رجل الأعمال المنطلق في حديثه: «أيها السيد أيزبرافنك[١] هل يمكنك أن تكون لنا بمثابة نبرافنك[٢]» فقال الضابط متسائلاً: «وماذا تعني بكلمة نبرافنك؟» وسرعان ما أدركت أنني أخطأت الهدف، فقد كان الضابط مقطب الوجه قاسي النظرة فقلت: «إنما أردت المزاح وإشاعة المرح في الجو فإن نبرافنك هو قائد أوركسترا حاذق في فنه ونحن في حاجة إلى مثله لكي يحقق الانسجام في المشروع الذي جئنا من أجله» لقد شرحت وجه المقارنة شرحاً معقولاً أليس كذلك؟ غير أن الضابط قال: «عفواً فأنا أدعى ايزبرافنك ولست أرضى أن يكون اسمي موضع تلاعب في أفواه الناس». ودار على عقبيه وسار في طريقه. فلحقت به وأنا أصيح: «حقاً إنك ايزبرافنك ولست نبرافنك». ولم يرضه ذلك فأجابني قائلا: «فقد دعوتني باسم نبرافنك وسأكونه». هل تصدقون أن عملنا ضاع بسبب هذه الدعابة. لقد فطرت على هذه الطباع. فأنا ميال دائماً أن أكون كذلك، وقد ظللت طوال حياتي أسيء إلى نفسي بإفراطي في اصطناع اللطف والظرف. واتفق لي ذات مرة قبل سنوات أن قلت لرجل من أصحاب النفوذ «إن زوجك يا سيدي مغناج إذا دغدغت». ولم يجل عندئذ في بالي سوى المعنى المجازي والصفات الحسنة. ولكن الرجل سألني: «وهل دغدغتها؟» فرأيت أن أمعن في الأدب، فلم أملك إلا أن أجبته بنعم، هكذا. فما كان من الرجل إلا أن وكزني وكزة عظيمة. جرت هذه الحادثة قبل مدة طويلة، ولذلك فإنني لا أجد حرجاً في سرد هذه القصة. أنظر كيف أسيء إلى نفسي كثيراً بمثل هذه الأعمال».

فتمتم ميوسوف باحتقار: «وهذا عين ما تفعله الآن في هذا المجلس».

فاندفع فيودور بافلوفيتش قائلا: «أحقاً ما تقول؟ هذا صحيح يا بطرس الكسندروفيتش. وإذا شئت فاعلم أنني كنت أدرك ذلك منذ أن هممت بالكلام، بل تنبأت بأنك ستكون أول من يبدي ملاحظته على حديثي. إنني يا

---

(١) هو رئيس مكتب الشرطة.

(٢) هو ادوار نبرافنك (١٨٣٩- ١٩١٦) قائد اوركسترا دار الاوبرا الشهير بيطرسبرغ.

صاحب النيافة، بمجرد أن ألاحظ أن طرفتي تلقى القبول أشعر بتصلب في خدي يشده إلى فكي الأسفل ويختلج وجهي. كذلك كان حالي منذ أن كنت صغيراً أكسب لقمتي بالتهريج في مجالس الأشراف. أنا مهرج عتيق مفطور على التهريج فلقد جبلت على هذا منذ طفولتي يا صاحب النيافة، حتى لكأن الحياة لا تطيب لي إلا بالهذر والتهريج، وقد يجوز لي أن أقول أن شيطاناً يحركني ولكنه شيطان صغير، ولو كان شيطاناً أعظم لاختار لنفسه غير هيكلي، بل غير هيكلك يا بطرس الكسندروفيتش الذي لا يستحق حتى مثل هذا الشيطان. إلا أنني مؤمن ـ مؤمن بالله ـ برغم الشكوك التي كانت تساورني منذ عهد بعيد. أما الآن فيطيب لي الجلوس لأتعظ وأتحرر. إنني يا صاحب النيافة نظير الفيلسوف ديدرو. هل بلغك أيها الأب المقدس كيف ذهب ديدرو إلى الأسقف أفلاطون[1] في أيام الامبراطورة كاترين؟ فقد دخل عليه وصاح بوضوح و برودة: «إن الله غير موجود» فرفع الأسقف يده وصاح: «إن الأحمق يقول في سرّه إن الله غير موجود». فما كان من ديدرو إلا أن خرّ على قدميه وقال: «آمنت، وأنا أطلب العماد». وتم تعميده فوراً ووقفت الأميرة داشكوف على حوض التعميد، وكان الأمير بوتيومكين عرابه».

وهنا قاطعه ميوسوف وصاح بصوت متهدج: «فيودور بافلوفيتش إن هذا لا يطاق! أنت تعلم أنك تكذب وإن هذه النادرة السخيفة لا صلة لها بالحقيقة. فلم هذه الحماقة؟ فاحتد فيودور بافلوفيتش وقال وهو يرتجف تأثراً: «كنت أشك في صحة هذه النادرة مدى حياتي، وسأقص عليكم الآن الحقيقة كاملة يا سادتي. يا حضرة الناسك العظيم صفحك وحلمك، إن قصة عماد الفيلسوف ديدرو قد اخترعتها من خيالي الآن، ولم تكن خطرت من قبل ببالي. وقد أردت منها أن أبعث الحياة في قصتي. إنني أجعل من نفسي ذلك الأحمق يا بطرس الكسندروفيتش لكي أحظى برضى الناس ولو أنني في بعض الأحيان لا أعلم سر ذلك. أما عن تلك القصة فقد سمعتها في حداثتي على لسان عشرين شخصاً من الطبقة العليا في هذه الناحية، حتى قول الأسقف:

---

(١) افلاطون لفشين، واعظ كبير، رئيس اساقفة موسكو (١٧٣٧- ١٨١٢).

«إن الأحمق يقول في سره إن الله غير موجود». ولقد سمعتها أيضاً من فم عمتك نفسها يا بطرس الكسندروفيتش. وجميع الناس معتقدون حتى يومنا هذا بأن الفيلسوف الكافر ديدرو قصد الأسقف أفلاطون ليجادله في مسألة وجود الله».

وهنا نفد صبر ميوسوف، فنهض من مجلسه وقد فقد سيطرته على نفسه، وظهر عليه الهياج إذ أدرك أنه قد أزري به.

ولقد كان ما جرى في غرفة الناسك أمراً مستحيلاً لا تصدقه العقول. فمنذ أيام النساك القدامى قبل أربعين أو خمسين عاماً كانت حشود الزائرين تتوالى وليس بينهم واحد إلا امتلأت نفسه بآيات الاحترام. وكان كل من سمح له بدخول الصومعة يخرج منها ولسانه يلهج بما ناله من نعمة وحظوة. وكان الكثيرون من الزائرين يأخذ الوقار بمجامع قلوبهم فيلبثون ركعاً طوال فترة الزيارة. وكثيراً ما كان يفد إلى الصومعة في عداد الزائرين من يفخرون بشرف الحسب أو العلم، بل إن من بينهم من كان حر التفكير اجتذبه حب الاستطلاع والنقد، ولكنهم جميعاً بلا استثناء كانوا يتقيدون بكامل واجب الاحترام واللياقة، لأنه لم يكن في الصومعة من يطالب بالمال بل كان فيها الحب والرحمة من ناحية والندم والرغبة المخلصة في حل مشكلة أو معضلة روحية من ناحية ثانية. ولذلك فقد أثار هذا التهريج استغراب ودهشة أولئك الذين شهدوا فصوله أو بعضهم على الأقل. أما الرهبان فقد ظلت ملامحهم هادئة، وأخذوا يترقبون باهتمام، ما ستنفرج عنه شفتا الناسك من رد فعل، ولكن سيماهم كانت تدل على أنهم كانوا على وشك النهوض من مجالسهم. كما كان ميوسوف يتهيأ للنهوض. وأطرق أليوشا خجلاً وغالب نفسه حتى لا تسقط دموعه. وما أدهشه أكثر من سواه أن أخاه إيفان، وهو الوحيد الذي كان ينتظر تدخله بسبب نفوذه عند أبيه وقدرته على إيقافه عند حده، ظل في مجلسه ساكناً وقد خفض بصره إلى الأرض وكأنه ينتظر كراغب بالاستطلاع نهاية القصة، وكأن الأمر لا يعنيه. ولم يجرؤ أليوشا على أن يرفع بصره إلى راكيتين طالب اللاهوت الذي كان يعرفه معرفة وثيقة. فهو الوحيد في الدير الذي يعلم ما يدور في فكر راكيتين من خواطر.

ثم قطع ميوسوف حبل الصمت وقال مخاطباً الأب زوسيما: «أستميحك العذر، فلعلك تعتبرني مساهماً في هذه الحماقة المخجلة، كان ذنبي أنني اعتقدت بأن رجلاً مثل فيودور بافلوفيتش قمين بأن يفهم واجبه وهو في حضرة شخصكم المبجل، ولم يكن في حسابي أنه سيتعيّن عليّ الاعتذار لمجرد مرافقتي إياه...».

ثم صمت بطرس الكسندروفيتش بعد أن بلغ ذروة الاضطراب وكان على وشك مغادرة الغرفة. ولكن الناسك نهض من مجلسه ووقف على ساقيه الناحلتين وقبض على بطرس الكسندروفيتش بكلتا يديه وأجلسه على مقعده وقال له: «رجائي أن تهون عليك، وأرجوك ألا تضطرب، وأنا مغتبط أن تكون ضيفي». ثم انحنى أمام بطرس الكسندروفيتش وعاد إلى مجلسه فوق أريكته الصغيرة.

وهنا تدخل فيودور بافلوفيتش فقال: «أيها الناسك العظيم أنبئني هل أضايقك بمرحي؟» وأمسك بكلتا يديه ذراعي المقعد وكأنه يستعد للنهوض من مكانه إذا اشتم من جواب الناسك أنه يضيق به ذرعاً. فما كان من الأب زوسيما إلا أن أجاب بلهجة مؤثرة: «وأنت كذلك أرجوك مخلصاً أن لا يستبد بك الاضطراب والانزعاج. لا تزعج نفسك واعتبر أنك في بيتك وخاصة لا تخجل من نفسك فالخجل هو أصل تصرفاتك».

فصاح فيودور بافلوفيتش قائلا: «أأعتبر نفسي في بيتي وأكون على سجيتي؟ إن هذا فوق وهمي وتصوري، ولكنني أوافق ممتناً مبتهجاً. ألا فاعلم أيها الأب المبارك أنه من الأفضل لك ألا تجازف وتدعوني لأكون على سجيتي. حذار من هذه الدعوة... ولو أنني لن أستجيب لسليقتي وطبعي، بل أحذرك من إطلاق العنان لي، حرصاً عليك. حسناً، إن بقية الجماعة ما زالت تتخبط في غياهب الجهل، ولو أن هنالك من يسره أن ينعتني أمامك بأقبح النعوت. إنني أقصدك بهذا القول يا بطرس الكسندروفيتش، أما أنت أيها الكائن المقدس فإني أعلمك إن نفسي بلغت غاية البهجة والسرور». ثم نهض من مجلسه ورفع يديه وصاح قائلا: «طوبى للبطن الذي حملك والثدي الذي أرضعك ـ نعم ليبارك الثدي، إنك عندما

قلت لي، «لا تخجل من نفسك فالخجل هو أصل تصرفاتك» نفذت به إلى قرارة نفسي، وأدركت ما احتوته. والحق أنني أشعر دائماً بحقارة كلما قابلت الناس الذين يجدونني مهرجاً أفاقاً، فأقول بيني وبين نفسي: «لأكن ذلك المهرج حقاً؛ ولست أخشى آراءكم فيّ، لأن حالكم جميعاً بلا استثناء أسوأ من حالي» وهذا هو السبب في كوني مهرجاً. إن الخجل من نفسي هو علة هذا الشعور أيها الناسك العظيم، إنه الخجل وشعوري بالمذلة هو السبب في فظاظتي. آه يا إلهي لو تأكدت من أن الناس جميعاً يعدونني أذكى الناس وأعقلهم، إذن لأريتهم نبلي وطيبة نفسي». ثم ركع على ركبتيه فجأة وقال: «أيها المعلم، ماذا أفعل لكي أظفر بالحياة الأبدية؟».

كان يصعب التأكد، حتى في هذه اللحظة، مما إذا كان مازحاً أو جاداً في تأثره.

ورفع الأب زوسيما عينيه ونظر إليه وقال مبتسماً: «لقد أدركت ما الواجب فعله منذ زمن طويل، ففيك من الذكاء ما يكفيك. لا تستسلم للسكر ولا تجعل للإقذاع في القول سلطاناً عليك، ولا تستسلم لشهواتك البهيمية ولا تستسلم خاصة لحب المال واقفل أبواب حاناتك، فإن لم يكن كلها فاثنتين أو ثلاثاً منها، والأهم من كل ذلك ألا تكذب».

ـ أتعني بذلك قصة ديدرو؟

ـ كلا لست أقصد ذلك، بل الأهم ألا تكذب على نفسك، فإن من يكذب على نفسه ويصغي إلى أكاذيب ذاته، يجد نفسه يوماً ما، عاجزاً عن تمييز الحقيقة لا في نفسه ولا فيما حوله، وهكذا يفقد احترامه لنفسه وللآخرين. فإذا تجرد عن الاحترام فقد الحب، وألهى نفسه بالاستسلام لأهوائه وملذاته الخسيسة، وتدنى في رذائله إلى مرتبة الوحوش. وكل ذلك يحدث من جراء كذبه المستمر على الناس وعلى نفسه. إن الرجل الذي يكذب على نفسه عرضة للمهانة أكثر من سواه. إنك تجد لذة فائقة في المهانة أحياناً، أليس هذا صحيحاً؟ إن الرجل قد يدرك أنه لم يتعرض لإهانة أي إنسان، ومع ذلك فهو يتوهم أنه أهين فيكذب على نفسه ويبالغ بجعل كذبته زاهية، فإذا صكت أذنه كلمة عظمها وبالغ فيها. ويكون هذا الرجل أول من يعرف

الحقيقة، ولكنه مع ذلك يكون أول من يشعر بالمهانة فيتهج في سورة غضبه حتى يلتذ بها ثم يفضي به الأمر إلى الكره. أرجوك أن تنهض وتجلس في مكانك، فهذه أيضاً صور للكذب أيضاً....

ـ أيها الرجل المبارك ناولني يدك لأقبلها.

وقفز فيودور بافلوفيتش من مكانه وطبع قبلة سريعة على يد الناسك المعروقة. واندفع يقول: «إنه لشيء مبهج أن يشعر الإنسان بالمهانة. لقد أجدت الكشف عن هذه الحقيقة بطريقة لم أسمع بمثلها في حياتي. نعم لقد قضيت حياتي أتقبل الإهانات لكي أرضي نفسي، إنني أرى في الإهانة جمالاً أيضاً، فإن الإنسان قد لا يشعر أحياناً بالمتعة فقط من الإهانة لقد نسيت ذلك أيها الناسك العظيم وسأسجل ذلك عليك. لقد كنت كاذباً طيلة حياتي، فأنا أكذب في كل يوم وفي كل ساعة من ساعات عمري. وإذا أردت الحقيقة فأنا كاذب، وأبو الأكاذيب لا.. لقد التبس علي الأمر وخانني التعبير. أعتقد أحياناً أنني لست أبا الأكاذيب حسبي أن أقول أنني ابن الأكاذيب وهكذا يكفيني. ولكنني... يا ملاكي... قد أتحدث في بعض الأحيان عن ديدرو: فقصة ديدرو لا تؤذي ولكن هناك أكاذيب تعود بالأذى. أيها الناسك العظيم، ما دمنا في هذا الحديث، لقد نسيت أن أقول لك أنني ما زلت منذ عامين أهم بالمجيء إليك من أجل أمر خاص أريد أن أسألك عنه وأعلمه وأريد أولاً أن تقول لبطرس الكسندروفيتش ألا يقاطع أقوالي. هاك سؤالي: أصحيح أيها الأب العظيم أن في كتاب «حياة القديسين» قصة عن قديس استشهد في سبيل عقيدته، فلما فصلوا رأسه عن بدنه نهض على قدميه وتناول رأسه بين يديه ثم عانقه بأدب وسار مسافة طويلة حاملاً، بعطف وحنان، رأسه بين يديه. أهذا صحيح أم غير صحيح أيها الأب المبجل؟»

فقال الناسك: «كلا إن هذا غير صحيح[1]».

وتساءل الراهب قيم المكتبة قائلاً: «إنني لم أقع على مثل هذه القصة في جميع سير القديسين، أي قديس هذا الذي تتحدث عنه؟»

---

(١) ورد أن هذه القصة تناقلتها الألسن في فرنسا، عن شهيد سان دينيس اسقف باريس.

فقال فيودور بافلوفيتش: «إنني لا أدري أي قديس هو، إنني لا أدري ولا يمكنني أن أذكر اسمه. لقد خدعت، سمعت أحدهم يرويها. لقد سمعتها. أتدرون من تلاها علي؟ إنه بطرس الكسندروفيتش ميوسوف الذي ثار واحتد كل ذلك الاحتداد لسماعه قصة ديدرو. إنه هو الذي قص علي هذه القصة».

- إنني لم أقص عليك هذه القصة أبداً، بل ولا أتحدث إليك.

- حقاً إنك لم تقصها عليّ، ولكنك قصصتها في حضوري قبل ثلاث سنوات. وقد بقيت أتذكرها بوضوح لأنك زعزعت أركان إيماني بهذه القصة المضحكة، نعم، إنك تجهل هذا ولكنني عدت إلى منزلي مزعزع الإيمان وما زالت أركانه تتداعى منذ ذلك اليوم. إنك يا بطرس الكسندروفيتش قد كنت سبب زلتي الأخلاقية الكبرى. إنني لا أكذب في هذه القصة كما كذبت في قصة ديدرو!

لقد كان فيودور بافلوفيتش يتحدث بانفعال وتأثر متدفق، ولكن من الواضح للجميع أنه كان يمثل مهزلة جديدة. ومع ذلك فقد كانت كلماته تؤذي ميوسوف وتؤلمه، فقال متلعثماً: «يا للسخف، إن كل هذا لغو فارغ، قد أكون قلت ذلك في يوم من الأيام... ولكنني لم أحدثك به أنت بالذات. لقد سمعت هذه القصة في باريس من فم رجل فرنسي، وقال لي أنها كانت تتلى عندنا في أوقات الصلاة من كتاب «حياة القديسين»... لقد كان رجلاً مثقفاً، وقد عني عناية خاصة بدراسة الإحصاءات الروسية وعاش فترة طويلة من الزمن في روسيا... إنني شخصياً لم أطالع «حياة القديسين» ولا أنوي، في أي حال، قراءته. إن هذه الأمور يتحدثون بها على موائد الغداء. لقد كنا نتغدى آنذاك».

فأجاب فيودور بافلوفيتش متهكماً: «نعم لقد كنت آنذاك تتغدى، أما أنا فقد كلّفني غداؤك هذا إيماني».

وانفجر ميوسوف قائلا: «وما شأني بإيمانك؟» وكان على وشك أن يصيح ولكنه ضبط نفسه وقال بازدراء: «إنك تدنس كل ما تقع عليه يداك».

وهنا هبّ الناسك واقفاً وقال مخاطباً ضيوفه: «عذراً أيها السادة فسأغيب عنكم بضع دقائق، فهناك زائرون ينتظرونني وقد جاؤوا إليّ قبلكم». ثم التفت إلى فيودور بافلوفيتش وقال مداعباً: «إياك والكذب». ثم خرج من الغرفة.

وأسرع أليوشا وطالب اللاهوت لمرافقته وهو يهبط السلم. وكان أليوشا قد نفد صبره، وأشعره خروجه من الغرفة بالسرور، كما سرّه أن الناسك كان هادىء المزاج ولم يشعر بأية إهانة. أما الأب زوسيما فقد اتجه نحو الفناء ليبارك الناس المتجمعين في انتظاره. ولكن فيودور بافلوفيتش استطاع إيقافه عند باب الغرفة وصاح بصوت يظهر فيه التأثر: «أيها الرجل المبارك دعني أقبل يدك مرة ثانية. نعم، فإنني معك أستطيع التفاهم والاستزادة من الكلام. أتظن أنني دائم الكذب والتحامق على النحو الذي رأيت؟ صدقني إنني كنت أقوم بهذا الدور عمداً لأختبرك. ولقد جربتك طوال هذه الفترة لأرى ما إذا كنت قادراً على مجاراتك. فهل من مجال لإثبات ذاتي إلى جانب كبريائك؟ إنني على استعداد لأن أثبت لك إن الإنسان يستطيع مجاراتك! أما الآن فسأهدأ ولن أتكلم طول الوقت وسأجلس على مقعدي ولن أصدر كلمة أو حركة. الآن جاء دورك للكلام يا بطرس الكسندروفيتش فأنت الآن الشخص الرئيسي وأمامك عشر دقائق».



إيمان الفلاحات

عند الرواق في أسفل الصومعة المتاخم للجدار الخارجي لحرم الدير كانت تحتشد حوالي عشرين امرأة فلاحة. لقد بلغهن أن الناسك قد خرج إليهن، فاحتشدن وأخذن يرقبن مجيئه بلهفة. وانضمت إلى هذا الحشد سيدتان هما مدام خولاكوف وابنتها ولكنهما ظلتا منفردتين في المكان المخصص لذوات النسب والمكانة.

وكانت مدام خولاكوف سيدة ثرية أنيقة الثياب لا تزال شابة جذابة، وكان وجهها قليل الشحوب، أما عيناها فسوداوان تنبعث منهما الحياة. ولم تكن سنها تتجاوز الثالثة والثلاثين ولكنها ترملت منذ خمس سنوات. أما ابنتها، وهي في الرابعة عشرة، فقد كانت مصابة بشلل جزئي. ولم تكن الابنة المسكينة تستطيع الوقوف على قدميها منذ ستة أشهر بل كانت تستعمل مقعداً متحركاً. وكان وجهها فتاناً صغيراً يبدو تأثير المرض على إشراقه ولكنه كان يطفح بالبشاشة. وكان حبها للمرح واضحاً في عينيها السوداوين الكبيرتين ذات الأهداب الطويلة. ولقد كانت أمها تبغي الانتقال بها إلى خارج روسيا منذ حلول فصل الربيع، ولكن بسبب متابعتها لأمور تتعلق بأملاكها اضطرتا للبقاء في روسيا طيلة الصيف.

وهما وصلتا منذ أسبوع إلى بلدتنا التي جاءتاها لا لزيارة الدير، بل لقضاء بعض الأعمال. غير أنهما كانتا قد زارتا الأب زوسيما قبل ثلاثة أيام، ومع أنهما كانتا تعلمان أنه أصبح نادراً ما يستقبل زواراً فقد عادتا إلى الدير والتمستا السعادة مرة أخرى بالنظر إلى هذا الشافي العظيم.

كانت الأم تجلس على كرسي قرب مقعد ابنتها المتحرك وعلى قيد خطوتين منها كان يقف راهب عجوز لم يكن من رهبان الدير بل كان زائراً

ينتمي لبيت مغمور من بيوت الدين النائية في أقاصي الشمال. إن هذا الراهب يسعى هو أيضاً للحصول على بركة الناسك.

غير أن الأب زوسيما الذي دخل الرواق في هذه اللحظة، اتجه باديء ذي بدء نحو الفلاحات اللواتي كن يتدافعن عند أسفل الدرجات الثلاث المؤدية إلى الرواق. ووقف على الدرجة العليا ووضع بطرشينه[1] فوق منكبيه وراح يبارك النسوة اللواتي التففن حوله. واقتيدت إليه امرأة معتوهة فما أن وقع بصرها عليه حتى أخذت ترتعد وتصرخ كمن جاءها المخاض. فوضع الناسك طرف بطرشينه على جبينها وتلا صلاة قصيرة فإذا هي تصمت وتسكن.

لا أستطيع الآن تعليل ما حصل، ولكنني كنت في أيام طفولتي كثيراً ما أرى مثل هذا المرأة من النسوة اللواتي «سكنت الشياطين أجسادهن» في القرى والأديرة. وكن يجلبن للصلاة فيصرخن وينبحن كالكلاب حتى تملأ أصواتهن أرجاء الكنيسة وما أن يباركهن الكاهن رافعاً القربان فوق رؤوسهن حتى تهدأ ثائرتهن ويرتحن فترة من الزمن. لقد أدهشني ذلك وتأثرت به تأثراً عظيماً في أيام طفولتي. ثم سمعت فيما بعد كأجوبة عن أسئلتي من جيراني ومن أساتذتي خاصة أن النسوة كن يتظاهرن بالمرض العقلي لكي يسترحن من العمل، وإن هذا المرض تمكن معالجته دائماً باعتماد القسوة المعقولة. ثم سمعت الكثير من النكات والأخبار لإثبات صحة هذا القول. ولكنني علمت بعد ذلك، من الأخصائيين في شؤون الطب والدهشة تتملكني، أن النسوة لا يتظاهرن بالمرض، بل هن يشكين فعلاً من مرض فظيع يصيب النسوة لا سيما في روسيا، وأن سببه قسوة حياة الفلاحات في أريافنا. كما أنبئت أنه مرض سببه العمل المضني الذي يتم مباشرة في أعقاب ولادة متعسرة أليمة. كما أن من أسبابه الشقاء العظيم الذي ينال النساء نتيجة الضرب وسوء المعاملة وهو مما لا تحتمله بعض النسوة في حين يكون أمراً عادياً عند البعض الآخر. ولقد اتضح لي أن هذا الشفاء العاجل العجيب الذي كان ينقذ النسوة اللواتي كن يقاومن مقاومة اليائس وهن يحملن إلى القربان الطاهر، فيقضي على أدوائهن

(١) البَطْرشين والبَطْرشيل: قماشة طويلة يضعها الكاهن عند الخدمة في عنقه وعلى صدره.

التي قيل لي أنها ناشئة عن التظاهر الكاذب، وخداع رجال الدين المتقن تمثيله هذا الشفاء العاجل كان يحل بالنسوة بصورة طبيعية. فإن المرأة المعتوهة، والنسوة اللواتي كن يحملنها إلى القربان الطاهر، مؤمنات إيماناً عميقاً وراسخاً بأن الروح الشريرة لا يمكن أن تظل في جسم المريضة وهي تنال البركة أمام القربان وتنحني أمام الكاهن. وهكذا كانت تحل بالمرأة المصابة بمرض عقلي أو بمرض عصبي رجفة في كل جسمها عندما تحني هامتها أمام القربان، وهذه الرجفة إنما تحدث بسبب توقع حدوث أعجوبة شفائها من مرضها، وبسبب إيمانها المطلق بحدوث هذه الأعجوبة. ولقد كانت الأعجوبة تحدث ويتم الشفاء ولو لفترة وجيزة. وهذا ما حدث بالفعل للمرأة التي أشرت إليها عندما غطاها الكاهن بيطرشينه.

طفرت دموع الفرح والحماسة في أعين نساء كثيرات بتأثير الحدث، وحاول بعضهن تقبيل طرف ثوبه، وراح بعضهن القليل يرتلن وينتحبن.

بارك الأب زوسيما النساء جميعاً وبادل بعضهن الحديث. أما المرأة المعتوهة فقد كان يعرف أنها من قرية لا تبعد أكثر من ستة فراسخ من الدير وقد أتي بها إليه من قبل.

ورأى الناسك بين النساء امرأة لم تكن كبيرة السن ولكنها نحيلة متداعية ووجهها لم تلوحه الشمس فحسب، بل سودته بوهجها. وكانت المرأة جاثية على ركبتيها تحدق بالناسك والخوف واضح في عينيها. فلما وقع بصره عليها قال: «إن هذه آتية من مكان بعيد». فأخذت المرأة تردد كلامها بصوت يقترب من الغناء، وهي ترنح رأسها بتواتر يميناً وشمالاً، بعد أن أسندته على راحة يدها، «نعم من أقصى الدنيا يا أبتاه جئت إليك، يا أبتاه من أقصى الدنيا، لقد قطعت ثلاث مائة فرسخ، من أقصى الدنيا يا أبتاه، من أقصى الدنيا».

إن كثيراً من الفلاحين تكون قلوبهم مفعمة بالأسى الدائم الصامت. وينطوي هذا الأسى ويظل مكبوتاً. ولكن هناك نوعاً من الأسى الذي ينطلق، ليكون متنفساً لأصحابه عبر الدموع والنحيب. وهذا النوع من الأسى مألوف بين النساء خاصة، ولكنه ليس أخف من أسى الصامتين. فالبكاء والنحيب لا

يواسيان الحزين إلا بما يجددان في القلب من أحزان وآلام تدوم بلا تقطع. ومثل هذا الحزن يتطلب العزاء لأنه يتغذى على الشعور بانقطاع الرجاء. والبكاء والنحيب إنما هما نتيجة للرغبة الملحة في نكأ الجروح.

نظر الأب زوسيما متفرساً في المرأة وقال: «لعلك تسكنين المدينة!».

فأجابت: «إننا من أبناء المدن أيها الأب، نعم من أبناء المدن، ولكننا فلاحون وإن كنا نسكن المدن. أواه يا أبتاه! لقد جئت لأراك. سمعنا الكثير عنك. لقد دفنت ولدي الصغير، وجئت إليك حاجّة. لقد طفت على ثلاثة أديرة فقال لي رهبانها: «اذهبي يا ناستاسيا، اذهبي إليه. وإياك يقصدون. فجئت إليك. ولقد أديت أمس، الاعتراف والمناولة واليوم جئت إليك».

فسألها الأب زوسيما: «لم تبكين؟».

فقالت المرأة: «إنني أبكي طفلي أيها الأب، فلقد كان عمره ثلاث سنوات إلا ثلاثة أشهر. إن طفلي أيها الأب سبب حزني، طفلي الصغير. وقد كان آخر أطفالي. لقد أنجبت وزوجي نيكيتا أربعة أطفال، ولكنهم ماتوا جميعاً، والآن ليس لنا طفل تقر به أعيننا. ولقد دفنت الثلاثة الأول، ولم يكن مستحيلاً أن أجد العزاء، ولكن ذاك، الأخير فلا سبيل إلى نسيانه، فهو يتراءى لي دائماً واقفاً أمامي لا يفارقني. لقد حطم قلبي فجفت عروقه، فما نظرت مرة إلى ملابسه، إلى قميصه الصغير، إلى حذائه إلا وانتحبت، ثم أخرج جميع بقاياه وأشيائه الصغيرة فأعرضها أمامي وأنتحب ثم أقول إلى نيكيتا زوجي: «خل سبيلي ودعني أضرب في الأرض». إن زوجي حوذي ولسنا فقراء أيها الأب. نعم لسنا فقراء فإن زوجي يسوق عربته بنفسه. والحصان والعربة ملك لنا، ولكن ما الفائدة من كل هذا الآن؟ ولقد بدأ زوجي يتعاطى الخمرة بعد أن تركته، إنني واثقة من ذلك، فقد حدث ذلك في السابق، إذ أنني ما إن أغيب عنه حتى يسارع إلى الخمرة. ولكنني الآن لا أحفل به، فقد نسيته منذ مغادرتي البيت قبل ثلاثة أشهر. نسيته ونسيت كل شيء ولا أريد أن أذكر شيئاً، إذ كيف عساني أن أحيا معه منذ الآن. لقد انقضت حياتي معه وزهدت في كل شيء. ولا أتطلع إلى رؤية بيتي، بل ولست أريد شيئاً من هذه الدنيا على الإطلاق».

وإذ فرغت المرأة من كلامها، خاطبها الناسك قائلا: «اصغي إلي أيتها الأم، حدث ذات مرة في العصور القديمة أن قديساً مباركاً رأى في الهيكل أماً حالها مثل حالك، تنتحب لوفاة وليدها الصغير وكان وحيدها، وقد أخذه الله إليه، فجاء إليها وخاطبها قائلا: «هل تعلمين أية جرأة يتحلى بها الأطفال أمام عرش الله؟ حقاً ليس في ملكوت السموات جرأة تفوق جرأتهم، فهم يقولون لله تعالى: «لقد وهبتنا الحياة يا ربنا فما كدنا نسلكها حتى استرددتها منا. ولا يزالون يطلبون ويتوسلون حتى يرفعهم الله إلى رتبة الملائكة. وهكذا أنت أيتها الأم فابتهجي وكفي عن البكاء فإن طفلك في جوار الله مع الملائكة». ذلك هو حديث القديس للمرأة الباكية في العصور القديمة. ولقد كان قديساً عظيماً لا يمكن أن يكذب عليها. ولذلك فأنت أيضاً أيتها الأم اعلمي أن صغيرك قائم عند عرش الله مبتهج سعيد، وهو دائم الصلاة لك، ابتهجي وكفكفي دموعك».

أصغت المرأة إلى أقوال الراهب وهي مطرقة برأسها وقد أسندت رأسها براحة يدها على خدها ثم تنهدت بحرقة وقالت: «إن زوجي نيكيتا حاول أن يدخل على قلبي العزاء بمثل قولك وكان يخاطبني قائلا: «أيتها الحمقاء لم هذه الدموع، إن ابننا ولا شك يشارك الملائكة قربهم من الله». كان يقول ذلك ولكنه كان هو أيضاً ينتحب ويبكي بكاي، فأجبته: «إنني أعرف ذلك يا نيكيتا، فأين عسى ولدي أن يكون إن لم يكن في جوار ربه؟ ليس بيننا كما اعتاد أن يجلس إلى جانبنا قبل وفاته؟ أواه لو أستطيع أن أراه ولو مرة واحدة، أو أختبيء وأراه دون أن أذهب إليه أو أكلمه، فأنعم فقط من بعيد بالتطلع إليه دقيقة واحدة وأراه يلعب في فناء المنزل ويناديني بصوته العذب «أماه أين أنت»؟ ليتني استطيع سماعه مرة واحدة يطأ الأرض بقدميه الصغيرتين، مرة واحدة فقط. إنني ما زلت أذكر كيف كان يأتي إليّ راكضاً ويصيح بصوته العذب، ليتني أصغي إلى وقع أقدامه فأعرف أنه هو. ولكنه ذهب أيها الأب. نعم ذهب ولن أسمع صوته بعد اليوم. هذا وشاحه الصغير، أما هو فلن أراه بشخصه ولن أسمع صوته أبداً». رافقت المرأة كلامها بأن أخرجت من صدرها وشاحاً صغيراً موشى، فما أن وقع بصرها عليه حتى كان جسمها

يختلج من نحيبها، فأخفت عينيها بيديها وأخذت الدموع تسيل من بين أصابعها.

لم يملك الناسك نفسه فقال: «إنها راحيل تبكي صغارها ولم يكن من شيء يعزيها عن فقدهم. إن هذا هو حظكن في هذه الحياة الدنيا أيتها الأمهات فالعزاء ليس مطلبكن. لا تتعزي، وابكي، واطلقي لدموعك العنان. ولكن اذكري أيتها الأم كلما زاد بكاؤك أن صغيرك ملك من ملائكة العرش، وأنه يراك من عل ويبتهج لدموعك ويشير إليها أمام الرب. إن دموع الثكل ستلازمك أمداً طويلاً، ولكنها ستتحول في النهاية إلى سرور هادىء، وستصبح دموع حزنك المرير، دموع عاطفة وديعة تطهر الروح. وسأصلي كي يسبغ الله الراحة على روح ابنك فماذا كان اسمه؟».

ـ ألكسي أيها الأب.

ـ إنه اسم جميل أهو مشتق من اسم ولي الله القديس ألكسي؟.

ـ نعم يا أبتاه.

ـ يا له من قديس. سأظل أذكره في صلواتي وسوف أصلي من أجلك أيتها الأم، كما سأصلي لصحة زوجك، انك اخطأت بهجره. ان طفلك سيرى من عليائه أنك هجرت أباه وسيبكيه هذا، فلماذا تنغصين عليه هناء روحه؟ إنه حي، فالروح خالدة لا تموت وهو وإن غاب عن بيتك، فإنه قريب منك يراك ولا ترينه، فكيف سيأتي إليك وأنت قد كرهت بيتك؟ فإلى من يلجأ إذا لم يجد في البيت أباه وأمه معاً؟ إنه يزورك الآن في الأحلام فتبتئسين، ولكنك إذا عدت إلى بيتك ظهر لك في أحلام هانئة. عودي إلى زوجك أيتها الأم، عودي منذ اليوم.

ـ سأعود أيها الأب، سأعمل بقولك سأعود. فلقد جلت في قلبي.

ثم أخذت المرأة تصيح بصوت تخنقه العبرات: «نيكيتا زوجي نيكيتا عزيزي، إنك بانتظاري وأنا آتية». أما الناسك فقد تحول إلى امرأة عجوز بلغت من العمر أرذله ترتدي ثياب أهل المدن لا ثياب الحجاج. وكانت عيناها تنبئان بأنها جاءت إلى الصومعة لأمر، وهي تريد أن تريح نفسها بالكلام. سألها الناسك عن حاجتها فعلم منها أنها أرملة أحد الضباط وتعيش على مقربة من

مدينتنا. ولها ابن يدعى فاسينكا، موظف في الشرطة، انتدب في مدينة إيركوتسك في سيبيريا. لقد كتب إليها رسالتين من هناك، ولكن عاماً قد انقضى ولم تعد تسمع عنه خبراً. وقد حاولت معرفة مكان وجوده ولكنها لم تهتد إلى من يخبرها خبره. ثم قالت المرأة: «منذ أيام، نصحتني ستيبانيدا إيليينشنا - وهي زوج تاجر غني - قائلة: «اذهبي يا بروخوروفنا إلى الكنيسة واطلبي أن تقام الصلاة من أجل راحة نفس ابنك على أنه مات وعندها تضطرب روحه ويكتب إليك رسالة». لقد أكدت لي ستيبانيدا إيليينشنا نجاح هذه الطريقة وقالت أنها مجربة مرات عدة، ولكن الشك ما زال يساورني حيالها.. فأنبئنا أيها المضيء علينا، هل ذلك صحيح أم أنه غير صحيح، وهل يجوز العمل بنصيحتها؟».

- دعي هذا الأمر من ذهنك، عليك أن تستحي من توجيه هذا السؤال.

فكيف يمكن أن نصلي لروح ابنك وهو حيّ بعد؟ ومن أمه بالذات؟ إنها زلة كبرى تشبه خطيئة الشعوذة. ولكن هذه الزلة ستغفر لك بسبب جهلك. الأهم أن تتوجهي بصلواتك إلى ملكة السموات، أم المعونة والرحمة وتطلبي منها الحماية والشفاعة وتسأليها أن تحفظ ابنك وتغفر لك خطيئتك هذه. واسمعي شيئاً آخر أقوله لك يا بروخوروفنا وهو أن ابنك سيعود إليك سريعاً أو إنه حتماً سيكتب إليك رسالة. فاذهبي بسلام فإن ابنك ما زال حياً، صدقي.

فصاحت المرأة قائلة: أيها الأب العزيز جزاك الله عنا من محسن يصلي لنا جميعاً ويطلب الغفران عن خطايانا.

ولكن الناسك كان يتجه ببصره نحو جميع النساء فوقع بصره على عينين متألقتين شاخصتين إليه. إنها شابة فلاحة منهوكة القوى تحدق النظر إليه، صامتة وكانت عيناها تتوسلان إليه ولكنها تتحرج أن تقترب منه.

- ماذا بك يا بنيتي؟.

فأجابت متمهلة بصوت خافت وهي تجثو على ركبتيها وتنحني تحت قدمي الناسك: «حلني من خطيئتي يا أبتاه، لقد أخطأت وخطيئتي تخيفني».

جلس الناسك على الدرجة السفلى فدنت المرأة منه وهي ما تزال جاثية على ركبتيها وقالت بصوت هو أقرب إلى الهمس وهي ترتعد: «إنني

أرملة منذ ثلاث سنوات، وقد كانت حياتي الزوجية شقاء، فزوجي كان طاعناً في السن، أساء معاملتي وكان يضربني ضرباً مبرحاً. وفي ذات يوم أصابه مرض فنظرت إليه وتصورت حالي معه لو شفي ونهض من جديد وعندها طرأت على ذهني فكرة».

فقاطعها الناسك قائلاً: «اصمتي!» ثم أدنى أذنه من شفتيها، ومضت المرأة تهمس بصوت غير مسموع. فلما أنهت كلامها سألها الناسك: «هل كان ذلك منذ ثلاث سنوات؟» فأجابت المرأة قائلة: نعم منذ ثلاث سنوات. وفي البدء لم أكن لأهتم بالأمر. أما الآن فقد وقعت فريسة المرض، والأفكار البشعة لا تفارقني.

ـ هل جئت إليَّ من مكان بعيد.

ـ من أكثر من ثلاثمائة ميل.

ـ هل اعترفت بخطيئتك؟.

ـ نعم لقد اعترفت بها مرتين.

ـ هل تناولت القربان؟.

ـ نعم، أنا خائفة.. أنا خائفة من الموت.

ـ لا تخشي شيئاً وليطمئن قلبك، ولا تحزني فإذا كنت صادقة الندامة والتوبة، غفر الله لك كل خطاياك. فما من خطيئة على هذه الأرض إلا ويغفرها الله لمن كان صادقاً في توبته! وما من خطيئة يقترفها الإنسان لا تسعها رحمة الله التي لا حدود لها. هل هنالك خطيئة لا تستوعبها محبة الله؟ فكري في التوبة، والتوبة الصادقة. ولكن اطردي من قلبك شبح الخوف. وآمني بأن الله يحبك بما لا يتصوره عقلك، وبأنه يحبك مع خطيئتك وبرغم خطيئتك. ولقد قيل في الزمن القديم، إن فرح السماء بخاطىء تائب يربو على فرحها بعشرة من الصديقين، امضي في سبيلك، ولا تخشي شيئاً، ولا تحقدي على الناس، ولا تغضبي إذا أسيء إليك، وسامحي رجلك الميت من قلبك واغفري له ما بدر منه نحوك، اصفحي عنه صفحاً كريماً، فإذا ندمت فإنك تحبين، وإذا أحببت كنت مع الله. إن كل شيء له فداء، وكل شيء يخلص بالمحبة، فإذا كنت أنا الخاطىء مثلك، قد لحقتني بك رأفة وانعطفت نحوك

فكيف تكون رأفة الله وعطفه؟ إن المحبة كنز عظيم يستطيع افتداء الكون بأسره، ومحو خطايا الناس جميعاً لا خطاياك وحدك».

ولما أنهى الناسك كلامه رسم شارة الصليب على المرأة ثلاث مرات ثم نزع من عنقه أيقونة صغيرة ووضعها في عنقها فانحنت المرأة إلى الأرض صامتة.

ونهض الناسك ونظر نظرة مشرقة إلى فلاحة تفيض بالصحة وتحمل بين ذراعيها طفلاً صغيراً فبادرته قائلة: «لقد جئت إليك من «فيشيغوربي» أيها الأب الطيب». فقال: «لقد سرت إذاً خمسة أميال حاملة هذا الطفل، ماذا تطلبين؟».

- لقد جئت فقط لأراك، لقد زرتك قبل الآن - أو لعلك نسيتني؟ إنك لو نسيتني لكنت ضعيف الذاكرة. لقد تناهى إلينا أنك مريض فأردت أن أعودك بنفسي. وها أنا أراك فلا أراك مريضاً ستعيش عشرين عاماً أخرى! ليباركك الله، كثيرون هم الذين يصلون من أجلك فكيف يمكن أن تمرض؟.

- شكراً لك على هذا.

فعاودت المرأة الكلام: «وبهذه المناسبة لدي مسألة أسألك إياها وهي مسألة صغيرة. هاك خمسين قبقاً تصدق بها أيها الأب العزيز على إنسان أكثر فقراً مني. فلقد حدثت نفسي وأنا منطلقة إليك أن انيبك عني في التصدق بها وقلت أنك أدرى مني بمن يستحق الصدقة».

- شكراً يا عزيزتي شكراً! إنك امرأة طيبة وإنني أحبك، سألبي طلبك بكل تأكيد، هل هذه طفلة؟.

- نعم، إنها طفلتي، واسمها ليزافيتا.

- ليبارككما الله أنت وطفلتك ليزافيتا، لقد أدخلت السرور على قلبي أيتها الأم.. وداعاً يا أطفالي الأعزاء، وداعاً يا أحبائي. ثم بارك الناسك النسوة وحياهن بانحناءة.

سيدة ضعف إيمانها

كانت إحدى الزائرات تنظر إلى الناسك وهو يحادث النسوة الفلاحات ويمنحهن بركته، وتذرف دموعها صامتة وتمسحها بمنديل صغير. وكانت المرأة سيدة مجتمع عاطفية تبدو عليها أمارات الطيبة الصادقة بوضوح تام. ولما صعد الناسك درجات السلم واقترب منها قابلته بحماسة عظيمة وعاطفة جياشة قائلة: «أواه، أي شعور هذا الشعور الذي كان يخالجني وأنا أرقب هذا المشهد المؤثر». ثم اختنق صوتها من فرط التأثر، فلما استعادت روعها قالت: «إنني أفهم سر حب الناس لك، إنني شخصياً أحب الناس؛ وأرغب بمحبتهم. ومن يسعه ألا يحب أفراد شعبنا الروسي، البسطاء في عظمتهم».

فأجابها الناسك قائلا: «كيف حال ابنتك؟ هل ترغبين في التحدث إليّ بأمر آخر؟».

فقالت: «أواه، لقد توسلت بإلحاح لكي أتحدث إليك، وصليت حتى يحقق الله أمنيتي! وكنت مستعدة لأن أبقى جاثية على ركبتي ثلاثة أيام عند نافذتك حتى تأذن لي بالدخول. لقد جئت مع ابنتي أيها الشافي العظيم لكي نعبر لك عن عظيم امتناننا. لقد شفيت ابنتي ليزا وأعدت لها كامل صحتها بمجرد أن صليت لها يوم الخميس الماضي، ووضعت يديك عليها، فأسرعنا إلى هنا لكي نقبل هاتين اليدين ونفصح عن مشاعرنا ونقدم احترامنا».

ـ كيف تقولين إن ابنتك قد شفيت؟ إنها ما زالت مقعدة في محفتها.

فسارعت السيدة للإجابة وبعصبية: «ولكن الحمى التي كانت تعودها قد فارقتها منذ يوم الخميس. وأكثر من هذا فإن قدميها قد اشتدتا، واستيقظت هذا الصباح وهي تشعر بالتحسن بعد أن نامت طوال الليل، انظر إلى خديها المتوردين وعينيها البراقتين! لقد كانت دائمة البكاء وها هي الآن تضحك بمرح

وسعادة. ولقد أصرت هذا الصباح أن أدعها تقف، وتمكنت فعلاً من الوقوف دقيقة كاملة بدون سند. وهي تراهن بأنها ستصبح في مدى أسبوعين قادرة على أن ترقص. لقد دعوت الدكتور «هرتزنشتوبي» لرؤيتها فلما رآها هز كتفيه مستغرباً وقال: «إنني مندهش مما أرى ولا أجد له تفسيراً». وبعد، فكيف تستغرب منا أن نأتي إليك ونزعجك، أو نطير إليك لنشكرك؟ اشكريه يا ليزا، اشكريه!».

وفجأة تبدلت ملامح ليزا وبدا الجد على وجهها الجميل الضاحك، ثم نهضت في محفتها ما استطاعت النهوض، ونظرت إلى الناسك وضمت يديها أمامه ولكنها لم تتمالك نفسها وانفجرت ضاحكة.

وقالت، وهي تشعر بمثل غيظ الأطفال لأنها لم تستطع أن تحبس مرحها مشيرة إلى أليوشا: «إنني أضحك منه، هو السبب».

ولو أن أحداً نظر إلى أليوشا الواقف خلف الناسك، على بعد خطوة واحدة منه، للاحظ تلك الحمرة الخاطفة التي صبغت وجنتيه فجأة في تلك اللحظة وتألقت عيناه وأطرق.

واندفعت الأم تقول، وهي تمد يدها في قفازها الأنيق إلى أليوشا: «إنها تحمل إليك رسالة يا ألكسي فيودوروفيتش. كيف حالك؟».

فتحول الناسك بسرعة إلى أليوشا ورمقه بنظرة فاحصة. فاقترب هذا من ليزا وهو يبتسم ابتسامة الحرج والاضطراب وقد مد يده إلى أمها. وارتسمت على ملامح ليزا علامات الاهتمام. ثم مدت له يدها لتناوله مذكرة صغيرة الحجم وقالت: «إن كاترينا إيفانوفنا كلفتني أن أعطيك هذه الرسالة، وهي ترجوك رجاء خاصاً ألا تخيب رجاءها، وتذهب إليها، إنها تريد أن تراك بصورة أكيدة».

وتمتم أليوشا بدهشة عظيمة وقد ظهر الهمّ على وجهه، «هي تطلب مني أن أذهب وأراها؟ أنا؟ ماذا تريد مني؟».

وهنا تدخلت الأم لتشرح الموقف:

«إن الأمر جميعه يتعلق بديمتري فيودوروفيتش وما جرى له مؤخراً. لقد اتخذت كاترينا إيفانوفنا قرارها بشأنه، ولكن تريد أن تراك وتحدثك عنه..

إنني بطبيعة الحال لا أستطيع ذكر السبب، ولكنها مصرة على أن تراك حالاً. ولا يخالجني شك في أنك ستذهب إليها فإن ذلك من واجبات المؤمن».

فأجاب أليوشا وهو يبدي الدهشة والاضطراب:

«إنني لم أرها في حياتي أكثر من مرة واحدة».

فقالت الأم: «إنها إنسانة لا نظير لها في ترفعهاوسمو نفسها! لولا مصيبتها... تذكر المحنة التي عانت منها وما زالت حتى الآن.! ولا تنس ما ينتظرها! إن الأمر رهيب، رهيب».

وبعد أن ألقى أليوشا نظرة عجلى على المذكرة القصيرة المحيرة التي كانت تتضمن توسلاً حاراً بأن يذهب لمقابلتها، بلا شروح أو إيضاحات، قال: «حسناً جداً، سأذهب».

فاندفعت ليزا تقول متحمسة: «ما أحلى هذا منك وما أنبله، لقد كنت واثقة من أنك سترفض قطعاً وقلت لأمي إنه لن يذهب لأنه يخلص روحه في الدير. ما أروعك! إنني أراك دائماً إنساناً نبيلاً ويسعدني أن أقول لك اليوم ذلك!».

فهتفت أمها بصوت حازم: «ليزا!». مع أنها لم تتمالك نفسها من أن ترفق ذلك بابتسامة. ثم قالت: «لقد نسيتنا يا ألكسي فيودوروفيتش، ولم تعد تأتي لزيارتنا. مع أن ليزا ذكرت لي مرتين أنها لا تشعر بالسعادة إلا معك».

فرفع أليوشا بصره عن الأرض واحمر وجهه خجلاً وعاد إلى الابتسام دون أن يدري لماذا ولم يكن غير الناسك يرقبه، فهو بدأ حديثه مع الراهب الذي كان كما أشرنا سابقاً، يقف قرب محفة ليزا في انتظار دوره. وكان يبدو أنه راهب من طبقة الفلاحين المعدمين، محدود التفكير ولكنه ثابت الإيمان متعصب لعقيدته بطريقته الخاصة. لقد ذكر للناسك أنه آت إليه من أقاصي الشمال، من مدينة أوبدورسك ومقيم في دير القديس سيلفستر وهو دير صغير يضم عشرة رهبان. وقد باركه الناسك ودعاه لزيارته في غرفته كلما حلا له ذلك.

وفجأة سأل الراهب الأب زوسيما مشيراً بيده نحو ليزا إشارة مهيبة ذات

معنى: «من أين لك القوة على القيام بمثل هذه الأعمال؟» وكان يقصد بذلك «شفاءها» من مرضها.

فأجابه الناسك: «إن الوقت لم يحن بعد بالطبع للتحدث عن هذا الأمر، فالتحسن ليس شفاء تاماً، بل إنه قد ينجم عن غير سبب، ولكن إذا حصل الشفاء فإنما هو يحصل بقوة واحدة لا تصدر إلا عن إرادة الله».

ثم استطرد موجهاً قوله للراهب: «تعال زرني أيها الأب فقلما استطعت أنا مقابلة الزائرين. إنني مريض وأعلم أنني لن أعيش سوى أيام معدودات».

فصاحت السيدة: «أواه كلا، كلا! إن الله لن يحرمنا إياك. بل ستعيش عمراً طويلاً. ما هو مرضك؟ إنك تبدو سليماً مرحاً سعيداً».

ـ صحيح أنني أشعر اليوم بتحسن كبير ولكنني أعرف أن ذلك لن يدوم أكثر من فترة وجيزة. إنني الآن أعرف مرضي معرفة تامة. فإذا كنت أبدو أمامك سعيداً، وليس من شيء يسرني أكثر من أن أسمع هذا منك لأن الناس خلقوا للسعادة، وكل من كملت سعادته يحق له أن يقول: «إنني أنفذ مشيئة الله على الأرض». إن جميع القديسين والشهداء كانوا سعداء في كل ظروفهم».

فقالت السيدة: «ما أجمل ما تقول، وما أقوى وأرفع هذه الكلمات! إنك تنفذ بكلماتك مباشرة إلى القلوب. ومع ذلك، السعادة أين هي السعادة؟ ومن يستطيع القول إنه سعيد؟ وطالما تكرمت علينا بالسماح لنا أن نراك مرة ثانية في هذا اليوم، فاسمح لي أن أقول لك ما لم أستطع أن أقوله في المرة الماضية أنني معذبة منذ زمن بعيد! إنني معذبة! اصفح عني! إنني معذبة!» وفي لحظة من لحظات الانفعال المفاجىء ضمت يديها أمامه متوسلة.

ـ وماالذي يعذبك؟.

ـ إنني أتعذب بسبب قلة إيماني.

ـ قلة إيمانك بالله؟

ـ كلا، كلا! إنني لا أجرؤ حتى أن أفكر بذلك، بل قلة إيماني بالحياة الأخرى، إنها لغز عظيم! ولا أحد يستطيع حل هذا اللغز. اصغ إليّ! إن بيدك الشفاء وتسبر غور النفس الإنسانية. إنني طبعاً لا أجرؤ على أن أنتظر أن

تصدق ما أقوله بحذافيره، ولكنني أؤكد لك بشرفي أنني لا أقول قولاً عبثاً. إن فكرة الحياة بعد الممات تعذبني وتفزعني، ولست أعرف إلى من ألجأ، وبقيت أحجم عن ذلك طيلة حياتي، وها أنا الآن أتجرأ وأكشف عن دخيلتي، رحماك يا ربي! ماذا يكون ظنك بي الآن وضمت المرأة يديها.

فأجابها الناسك قائلاً: «لا يحزنك موقفي من رأيك هذا، فإنني متأكد من حقيقة عذابك».

فقالت المرأة: «أواه ما أعظم شكري لك! إنني كثيراً ما أغمض عيني وأتساءل عما إذا كانت قلوب الناس مليئة بالإيمان وما هو مبعث هذا الايمان، ثم يقول لي هؤلاء الناس أن كل إيمانهم ناجم عن الفزع من كل ما في الطبيعة من قلق، وإنه ما من جانب حقيقي في إيمانهم، فأجد نفسي متسائلة: ترى ماذا أكون حققت لو أنني كنت مؤمنة طيلة حياتي، وإذ أموت أنتهي ولا يبقى سوى الأشواك البرية نامية فوق قبري؟» كما قرأت لأحد الكتاب. إن هذا رهيب، فكيف... كيف أستطيع استعادة إيماني؟ ولكن الإيمان دخل قلبي فقط عندما كنت طفلة صغيرة، وكان إيماناً آليا غير قائم على التفكير بأي شيء. فكيف، كيف يستطيع الإنسان أن يثبت ذلك؟ لقد أتيت الآن لأضع نفسي أمامك وأسألك عن أمرها. ولو لم تتح لي هذه الفرصة لما وجدت طوال حياتي إنساناً يستطيع الإجابة على سؤالي. فكيف لي أن أجد الدليل؟ وكيف أستطيع أن أقنع نفسي؟ رباه لم أنا تعيسة! إنني أتطلع حولي فأكاد لا أجد أحداً غيري يشغله هذا الأمر أو يمعن التفكير فيه، إنني الوحيدة التي لا تستطيع احتمال ذلك. إن ذلك شيء مميت، مميت».

- لا شك، ولكن هذا لا يمكن إثباته بالدليل، ولو كان الاقتناع به ممكناً.

- وكيف يتم ذلك؟.

- بواسطة المحبة الحقيقية. حاولي مخلصة أن تحبي جارك محبة صادقة وثابتة. وكلما قويت محبتك ازددت يقيناً فإذا تجاوزت محبتك حد نكران الذات الأكيد فإنك بلا شك ستؤمنين ولا يجد الشك سبيلاً إلى قلبك. إن ذلك أمر مجرب وقد أثبتته التجربة.

ـ بواسطة المحبة الحقيقية؟ إن ذلك يقودني إلى مسألة أخرى ـ ويا لها من مسألة! هل تصدق إذا قلت لك إنني أحب الإنسانية حباً جماً ـ لقد بلغ مني حب الإنسانية أن جعلني كثيراً ما أفكر في التخلي عن الدنيا وهجر ابنتي ليزا وأنتسب إلى سلك الممرضات. إنني أغمض عيني وأفكر وأحلم فأشعر بقدرتي الكاملة على تخطي جميع العقبات التي تصادفني. فلا تعود الجراح ولا القروح العفنة ترهبني، بل أرى نفسي قادرة على تضميدها وغسلها بيدي. كما أكون قادرة على تمريض المصابين بل مستعدة للثم تلك الجراح.

ـ إن هذا لكثير، وجميل أن تكون كلماته هذه الأحلام وحدها غالبة على تفكيرك إنك أحياناً قد تصنعين الجميل دون أن تشعري.

فتابعت السيدة قولها، وهي متدفقة بحماسة وانفعال:

ـ نعم، إن هذا صحيح، ولكن ما هو مدى تحملي لمثل هذه الحياة إنها مسألة المسائل. إنها المسألة التي تلقى منها روحي منتهى العذاب. إنني أحياناً أغمض عيني متسائلة: «هل تستطيعين المضي طويلاً في هذه الطريق؟ وإذا لم يقابلك المريض الذي تغسلين جراحه بعرفان الجميل وأتعبك بفكره المتقلب، وبدلاً من أن يعترف بحسناتك عليه ويقدرها حق قدرها، أساء معاملتك وقسا عليك في أوامره وشكاك إلى رؤسائك (وهذا ممكن حصوله إذا اشتد المرض بالناس) ـ فماذا يكون موقفك؟ هل يبقى الحب متدفقاً في قلبك أم لا؟» هل تدري، لقد توصلت والرعب يملأ نفسي إلى ذلك الاستنتاج، وهو أن نكران الجميل هو وحده الذي يمكن أن يضعف حبي للبشرية. وباختصار إني خادم مأجورة وأريد أن تدفع أجرتي عاجلاً ـ أي أريد الثناء علي والمبادلة بالحب وإلا أصبحت لا أستطيع أن أحب أي إنسان.

كانت المرأة تتكلم كمن تعصب لمحاسبة نفسه وتقويم اعوجاجها. فلما فرغت من كلامها نظرت إلى الناسك في تحد وإصرار.

فقال الناسك: «إنها القصة نفسها التي سمعتها مرة من أحد الأطباء وكان طبيباً تقدمت به السن ولا شك أنه كان حاذقاً في مهنته. لقد حدثني بصراحة تشبه صراحتك ولو أنه كان يتعمد كلمات ساخرة لاذعة. قال: «أحب البشرية ولكني أعجب لنفسي، فبقدر ما يزداد حبي للبشرية عامة يتناقص حبي

للإنسان فرداً. وطالما رأيت نفسي في الأحلام أضع المشاريع الجريئة لخدمة البشرية ولو أدى تنفيذها إلى استشهادي صلباً إذا اقتضى الأمر. ومع ذلك فإنني لا أستطيع أن أشاطر أي إنسان غرفة واحدة لمدة يومين. وقد خبرت ذلك عملياً. وبمجرد أن يقترب مني أي إنسان، فإن شخصيته تعكر علي هدوء نفسي وتقيد حريتي. وبانقضاء أربع وعشرين ساعة أكون كرهت أفضل الناس: فهذا أكرهه لأنه يطيل وقت غدائه وذاك لأنه كثير الامتخاط لإصابته بالزكام. إنني أشعر بأن الناس أعداء لي بمجرد اقترابهم مني. إنني ألاحظ دائماً أنه كلما كرهت الناس أفراداً قويت محبتي للبشرية ككل.

فقالت المرأة: «ولكن ما العمل؟ ما العمل الذي يمكن للإنسان أن يقوم به في مثل هذه الحالة؟ يعلن يأسه؟

ـ كلا، فيكفيك أنك تعانين من هذا الفكر. افعلي ما تستطيعين فعله وسيكون ذلك محسوباً لك. ولقد أنجزت الكثير فعلاً، طالما يمكنك أن تعرفي نفسك هذه المعرفة العميقة المخلصة. إنك تتحدثين إلي بمثل هذا الإخلاص لمجرد أن أطريك على صراحتك كما أطريتها الآن، فهذا يعني بالطبع أنك لن تتوصلي إلى أي شيء في سعيك للوصول إلى المحبة الحقيقية. ولن تكون كلماتك أكثر من صور الأحلام وستمضي حياتك كلها كالشبح. آنذاك لن تعودي بطبيعة الحال تفكرين بالحياة القادمة أيضاً ثم تهدأين في النهاية تلقائياً بطريقة من الطرق.

ـ لقد حطمتني الآن! وأنت تتكلم فقط أدركت أن هدفي مما قلته لك أنني لا أستطيع احتمال نكران الجميل، هو إطراؤك على صراحتي. لقد كشفتني أمام ذاتي. لقد نفذت ببصرك إلى داخلي وأطلعتني على حقيقة نفسي!.

ـ هل أنت صادقة؟ حسناً، الآن بعد اعترافك هذا، أيقنت أنك طيبة القلب. وإذا لم تصلي إلى السعادة فاذكري دائماً أنك تسلكين طريق الصواب وحاولي ألا تحيدي عنها. وقبل كل شيء تجنبي الخداع، جميع أنواع الخداع، واحذري بوجه خاص خداع نفسك. وراقبي غرورك في كل ساعة وكل دقيقة. وتجنبي احتقار غيرك ونفسك. إن كل ما يبدو لك شراً في

داخل نفسك سيزداد طهارة وخيراً بمجرد ملاحظتك إياه في نفسك. وتجنبي الخوف أيضاً مع كون الخوف ليس غير نتيجة لكل نوع من أنواع الخداع. وإياك أن يقعدك الخوف من سيئاتك عن تحصيل المحبة ولا تتيحي لهذه السيئات فرصة هزيمتك.

يؤسفني أنني لا أستطيع أن أضيف على هذا مواساةً لك فإن المحبة الحقيقية شيء قاس رهيب بالقياس إلى المحبة في الأحلام. فحب الأحلام ظامىء إلى إنجاز سريع يلفت أنظار الجميع وإعجابهم. ومن كان حبه كذلك فإنه لا يتوانى عن التضحية بروحه على أن يتم الأمر وينتهي سريعاً، والجميع ينظرون إليه ويهتفون له كمن يقوم بدوره على المسرح. أما المحبة الفاعلة فإنها تتطلب عناء وصبراً وربما كانت بالنسبة لبعض الناس أيضاً، كالعلم ينال بالتحصيل. إلا أنني أتنبأ لك حتى عندما تنظرين إلى هدفك مرعوبة، رغم الجهود التي تبذلينها بأنك تزدادين بعداً عن هدفك بدلاً من أن تزدادي اقتراباً منه. وإنني أتنبأ لك، في هذه اللحظة بالذات، بأنك ستبلغين هدفك وترين بوضوح تام، إلى قوة الله الخارقة، فالله يحبك في جميع الأوقات ويرشدك بطريقة لا تدركين سرّها. معذرة لأنني لا أستطيع أن أطيل المكوث معك فإنهم في انتظاري. وداعاً.

كانت الدموع تنهمر من عيون السيدة وفجأة اندفعت تقول: «ليزا، ليزا! باركها، باركها».

فقال الأب مازحاً: «إنها لا تستحق أن تحب، فقد لاحظت عبثها طيلة الوقت، لماذا كنت تضحكين من أليوشا؟

وكانت ليزا فعلاً منهمكة طيلة الوقت في السخرية من أليوشا، وقد لاحظت خجل أليوشا فلا يحاول أن ينظر إليها، فرأت في خجله مادة للتسلية المفرطة، ولذلك فقد كانت ترقب نظره وترصده حتى تفاجئه بالتطلع إليها. ولم يكن أليوشا يحتمل تحديقها الدائم إليه بل كان يرى نفسه فجأة ورغماً عن إرادته، مدفوعاً إلى النظر إليها فإذا هي تبتسم في وجهه ابتسامة المنتصر. وكان هذا يزيد أليوشا اضطراباً وارتباكاً، فانصرف عنها أخيراً بكليته واختبأ خلف الناسك. وتنقضي بضع دقائق أخرى ويرى اليوشا نفسه مدفوعاً بنفس

القوة الخارجة عن إرادته إلى الالتفات إليها ليعرف ما إذا كانت لا تزال مثبتة بصرها فيه فيشاهد ليزا وقد مالت عن محفتها حتى تكاد تلامس الأرض وهي تختلس إليه نظرة جانبية وتنتظر بشوق أن تقع عيناه عليها، فلا تلتقي عيناهما حتى تضحك، حتى أن الراهب لم يعد يحتمل الموقف فخاطبها قائلا: «لم تهزأين منه أيتها الصبية العابثة؟».

وفجأة احمر وجه ليزا خجلاً وتألقت عيناها وتجهم وجهها وأجابت بصوت حاد تبدو فيه رنة الاستياء وبعبارات سريعة مضطربة: «إذن ما باله نسي كل شيء؟ لقد كان يحملني وأنا طفلة صغيرة، وكنا نلعب معا، وكان يأتي لكي يعلمني القراءة وقبل عامين فقط قال لي، حين غادرنا أنه لن ينساني أبداً. وأننا سنظل صديقين إلى الأبد. والآن أرى حاله قد تبدل وأصبح يخاف مني كأنني سآكله؟ لماذا لا يريد الاقتراب مني؟ ولماذا لا يتكلم؟ ولماذا لا يأتي لزيارتنا؟ هل أنت تمنعه من ذلك؟ نحن نعلم أن بوسعه الخروج إلى حيث شاء. إنه لا يليق بي أن أدعوه إلينا، بل من واجبه هو، لو لم ينسنا، أن يذكر أمر زيارتنا. ولكن، كلا إنه الآن يخلص روحه! ولماذا كسوته بهذا الجلباب الطويل، إنه سيقع لو حاول أن يركض.

وفجأة أخفت وجهها بكفها وانفجرت تضحك ضحكة طويلة عصبية تحاول كتمها فلا تفلح. وأصغى الناسك إليها مبتسماً، ثم باركها بحنان. وعندما تناولت يده لتقبلها وضعتها على عينيها وطفقت تبكي، ثم قالت: «لا تغضب مني، إنني حمقاء لا أصلح لشيء... ولا شك أن أليوشا على صواب في عزوفه عن مثل هذه الفتاة السخيفة والامتناع عن الذهاب لرؤيتها».

فقال الناسك حازماً: «سأرسله إليكم على كل حال».

ذلك ما يكون، ذلك ما يكون

بقي الناسك غائباً عن غرفته حوالي خمس وعشرين دقيقة، وتجاوزت الساعة الواحدة. ولكن ديمتري الذي يعقد الاجتماع من أجله، لم يكن قد حضر، فبدا القوم كأنهم قد نسوا أمره. إذ أن الناسك حين عاد إلى غرفته وجد القوم منهمكين في مجادلة حامية للغاية. وكان إيفان والراهبان أكثرهم غرقاً فيها. أما ميوسوف فقد كان يحاول بحماسة قوية مشاركتهم الحديث ولكنه أيضاً لم يكن موفقاً في ذلك. وكان في الظاهر أنه دونهم في هذا المجال، وكانت ملاحظاته تقابل بالإهمال فيزداد هو غيظاً وحنقاً. وقد كانت له سابقاً مساجلات فكرية مع إيفان ولذلك فإنه لم يكن ليحتمل ذلك الإهمال الذي يقابله به إيفان الآن. وحدث نفسه: كنت حتى الآن على الأقل أعتقد أنني في مقدمة كل ما هو تقدمي في أوروبا، ولكن هذا الجيل الجديد يتجاهل شأننا بطريقة متعمدة.

أما فيودور بافلوفيتش الذي كان قد وعد نفسه جازماً بأن يبقى ساكتاً وبهدأ في مجلسه، فقد بقي كذلك هنيهة، وهو يرقب جاره ميوسوف وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة تؤكد تلذّذه بخذلانه. إنه ينتظر منذ وقت طويل أن تسنح فرصة كهذه لكي يثأر من غريمه. وها هي قد واتته الآن فلم يستطع إفلاتها من بين يديه، فمال برأسه إليه وأخذ يهمس في أذنه قائلاً وهو يتعمد إغاظته: «لماذا لم تغادر هذا المكان على أثر قصة تلك القبلات على رأس القديس بعد قطع عنقه؟ ولماذا رضيت بالبقاء بين هذه الجماعة غير اللائقة بك؟ أنا أقول لك السبب: أنك شعرت بالإهانة والاضطهاد، فبقيت لكي تثأر لنفسك بالكشف عن ذكائك وموهبتك. والآن فأنت حتماً لا تريد الذهاب قبل أن تطلعهم على نضوجك الفكري».

ـ هل عدت إلى الثرثرة ثانية؟... لقد أخطأت فها أنا ذا منصرف الآن.

فقال فيودور بافلوفيتش وهو يطعنه طعنة أخرى «إنك آخر من يذهب، آخر من يغادر هذا المكان». وفي اللحظة تلك، كان الأب زوسيما قد رجع إلى الغرفة.

صمتت الجماعة برهة وانقطعت المناقشة، غير أن الناسك، بعد أن جلس في مكانه المعهود، نظر إليهم بلطف ورضى وكأنه يشجعهم على استئناف الحديث. أما أليوشا الذي كان يعرف معنى كل تعبير في وجه الشيخ، فقد أدرك أنه منهوك القوى وأنه كان يبذل جهداً عظيماً ليخفي تعبه، فإن المرض عرّضه في الآونة الأخيرة لنوبات من الإغماء بفعل الإجهاد. وها هو وجهه في تلك اللحظة على ذلك الشحوب الذي يسبق النوبات عادة، فضلاً عن أن شفتيه قد ابيضتا. ومع ذلك فإنه بدا غير راغب بفض الاجتماع، وأنه يريد إبقاء الجماعة لغاية ما. ولكن ما هي هذه الغاية؟ وكان أليوشا يراقب الناسك باهتمام بالغ.

قال الأب يوسيف، قيم المكتبة مخاطباً الأب زوسيما وهو يشير إلى إيفان: «لقد كنا نناقش المقالة التي نشرها هذا الشاب الشائقة للغاية. فلقد جاء فيها كثير من الآراء الأصيلة، ولكنني أظن أن حجته ذات حدين. والمقالة كتبت رداً على كتاب لأحد الكنسيين الثقات[١] يدور حول القضاء الكنسي ومدى صلاحياته.

فقال الناسك مخاطباً إيفان وهو ينظر إليه متفرساً: «يؤسفني ألا أكون قد قرأت مقالتك، ولكنني سمعت بها».

عاد الأب قيم المكتبة إلى القول: «إن موقف هذا الشاب مثير للاهتمام البالغ، فهو يبدو، بما يتعلق بسلطة الكنيسة، معارضاً لفصل الكنيسة عن الدولة». فسأل الأب زوسيما إيفان: «إن هذا شيق، ولكن من أية وجهة ترى ذلك؟».

بقي إيفان صامتاً بضع لحظات ثم أجابه لا بترفع كما كان يخشى بل

(١) هو الراهب ميخائيل غورشاكوف، وكتابه «بحث في الأسس العلمية للقضاء الكنسي».

بأدب وتحفظ وطيبة نية، وبدون أن يظهر عليه أنه يضمر عكس ما يظهر.

«لقد كانت حجتي أن ذلك التداخل في العناصر، أي في المبادىء الأساسية بين الكنيسة والدولة سيظل قائماً إلى الأبد رغم تلك الحقيقة وهي أنه من المستحيل أن تتمازج، وإن هذا التداخل لا يمكن أن يفضي إلى أية نتائج ثابتة أو حتى طبيعية وذلك لأنه قائم على الكذب أساساً. ومن رأيي أن التوافق بين الكنيسة والدولة في بعض القضايا كقضية السلطة هو أمر مستحيل في أي معنى حقيقي. إن خصمي الكهنوتي يرى أن للكنيسة مركزاً محدداً دقيقاً في الدولة، وأنا أخالفه الرأي تماماً، فأرى أن الكنيسة يجب أن تشمل الدولة بأسرها لا أن تحتل زاوية من زواياها فحسب. فإذا كان ذلك مستحيلاً في الوقت الحاضر لسبب من الأسباب، فيجب في الحقيقة أن نعتبره الغاية الأساسية المباشرة للمجتمع المسيحي خلال تطوره المقبل».

فتدخل الأب بيسي، الراهب الصامت الواسع العلم، وقال جازماً متحمساً: «إن هذا عين الصواب».

وهنا صاح ميوسوف وقد نفد صبره وأخذت ساقاه تتشابكان: «إن هذا أقصى ما يصبو إليه الخاضعون للبابا».

فقال الأب يوسيف: «إن الرأي الديني لا تحدّه الحدود». ثم توجه بحديثه إلى الناسك متابعاً: «لاحظ الجواب الذي يقدمه رداً على حجج خصمه الأساسية الجوهرية التالية، وخصمه كما تذكر من رجال الكنيسة، وهي أولاً: «إنه ما من منظمة اجتماعية تستطيع، أو يجدر بها أن تدعي لنفسها حق التصرف بحقوق أفرادها المدنية والسياسية». وثانياً: «إن سلطة القضاء المدني والجنائي يجب أن لا تكون تابعة للكنيسة لأنها تتعارض مع طبيعتها، سواء من حيث كونها مؤسسة دينية أو تنظيم إنساني يسعى من أجل أهداف دينية»، وثالثاً وأخيراً «إن الكنيسة مملكة ليست من هذا العالم».

استاء الأب بيسي ووجد نفسه يتدخل مرة ثانية وقال: «إن هذا سفاف رخيص في التلاعب بالكلمات لا يليق صدوره عن رجل كنيسة». والتفت نحو إيفان قائلاً: «لقد قرأت الكتاب الذي رددت عليه. وقد أدهشني قوله أن الكنيسة مملكة ليست من هذا العالم، فهي لو لم تكن منه لما استطاعت

البقاء على الأرض مطلقاً. وعبارة «ليست من هذا العالم» الواردة في الإنجيل لا يقصد بها ذلك أبداً. إن التلاعب بالكلمات بهذا الشكل مرفوض وغير جائز. لقد جاء سيدنا يسوع المسيح لكي يبني الكنيسة على الأرض. إن ملكوت السماوات بالطبع ليس من عالمنا بل في السماء؛ ولكن الدخول إليه لا يتحقق إلا عن طريق الكنيسة التي تأسست وأقيمت على الأرض. ولذلك فإن التلاعب التافه بالكلمات في هذا المقام لا يغتفر ولا يليق. إن الكنيسة في الحقيقة مملكة وقد كتب لها أن تحكم، ولا بد أنها أخيراً تحكم جميع أقطار الأرض. إن هذا ما تضمنته النبوءة.

وتوقف الأب بيسي عن الكلام بصورة مفاجئة وكأنه يتعمّد ذلك. وكان إيفان يصغي إلى أقواله باهتمام واحترام، وقال مخاطباً الناسك بأدب جم ورصانة واضحة كعادته: «إن حجتي الأساسية في مقالي كله هي أن المسيحية خلال قرونها الثلاثة الأولى لم تتخطى إطار الكنيسة ولم تكن سوى الكنيسة. وعندما قررت الامبراطورية الرومانية الوثنية أن تعتنق المسيحية لم تجد مفراً بعد أن أصبحت مسيحية من أن تضم إليها الكنيسة ولكنها ظلت دولة وثنية في مجالات كثيرة. وفي الحقيقة لم يكن هنالك مناص من أن يحدث ذلك. ذلك إن روما بوصفها دولة، حافظت على مقدار عظيم جداً من مدنيتها وثقافتها الوثنيتين خاصة ما كان متعلقاً بأهداف الدولة ومبادئها الأساسية. وطبيعي أن الكنيسة المسيحية عندما دخلت في الدولة لم تستطع التخلي عن أي مبدأ من مبادئها الأساسية، أو أي جزء من الصخرة التي بنيت عليها. ولم تستطع أن تسعى لأية أهداف غير تلك التي حدّدها الله بذاته منها احتواء العالم بأسره، وتبعاً لذلك، الدولة الوثنية القديمة ذاتها. وهكذا، أي فيما يتعلق بالمستقبل فليست الكنيسة هي التي يجب أن تسعى إلى مركز محدد في الدولة «ككل منظمة اجتماعية» أو «كل تنظيم إنساني يسعى من أجل أهداف دينية» (كما يصف خصمي الكنيسة) بل العكس هو الصحيح فكل دولة أرضية يجب في نهاية تطورها أن تندمج اندماجاً كلياً بالكنيسة ويجب أن تتخلى عن كل ما لا يتفق وأهداف الكنيسة فلا تكون بالتالي إلا كنيسة. وهذا التحول لن ينتقص من قيمتها بأية حال من الأحوال، ولن يمسّ شيئاً من شرفها

ومجدها كدولة عظمى ولا من مجد حكامها، بل أنها تخرجها من طريق الضلالة الوثنية الخاطئة إلى الطريق الصحيحة الصائبة التي هي وحدها تؤدي إلى الهدف الأزلي. لهذا السبب رأيت أن واجب مؤلف كتاب «حول أسس سلطة الكنيسة» التوصل إلى الحكم الصائب لو أنه حين بحث عن هذه الأسس ووضعها، كان يرى فيها وسيلة التراضي الوحيدة التي لا مفر منها في عالمنا اليوم الذي ما يزال يتمرغ في الخطيئة. أمّا أن يغامر المؤلف ويزعم أن الأسس التي تنبأ بها والتي عدد الأب يوسيف بعضها منذ قليل، كأسس ثابتة وجوهرية وأبدية فإنه يسير مباشرة ضد الكنيسة ويناقض رسالتها الخالدة المقدسة. ذلكم فحوى مقالي».

فعاد الأب بيسي إلى الكلام وهو يشدد على كل كلمة من كلماته: «يعني هذا باختصار، أن نظريات معينة شائعة في القرن التاسع عشر تطالب الكنيسة بالتوجه نحو الدولة، فتترقى من الشكل الأدنى إلى الشكل الأرفع بحيث تذوب الكنيسة في الدولة وتفسح المجال للعلم ولروح العصر والمدنية. فإذا قاومت الكنيسة ذلك وأبدت رفضها له، حدد لها ركن من أركان الدولة، وحتى في هذا الركن، فإنها تبقى تحت إشراف الدولة، كما يحدث في كل مكان من أقطار أوروبا الحديثة. أمّا التطلعات والأفكار الروسية فتقتضي ألا تنتقل الكنيسة من شكل أدنى للوجود إلى شكل أسمى وتندمج بالدولة، بل بالعكس، تقتضي أن تصبح الدولة في النهاية أهلاً لأن تصير الكنيسة وحدها، ولا شيء غير الكنيسة. فليكن ذلك، فليكن ذلك!».

وهنا عاد ميوسوف إلى الكلام ساخراً وقد وضع إحدى رجليه على الأخرى: اعترف بأنك أعدت إلي الطمأنينة إلى حد ما. ووفق ما فهمت فإن تحقيق هذا المثل الأعلى أمر بعيد سحيق وربما طال حتى عودة السيد المسيح إلى الأرض. لك أن تفكر كما يحلو لك، إنه لحلم جميل سعيد حقاً أن تزول الحرب والسياسة والمصارف وما إليها بما يقرب إلى الإشتراكية. ولكنني خشيت في البدء أن تكون جاداً في جميع هذه الأقوال وأن الكنيسة قد تباشر منذ الآن محاكمة المجرمين وإصدار أحكامها عليهم بالجلد والسجن بل وبالإعدام.

فأجاب إيفان بهدوء وثبات: «ولكن ولو انعدمت المحاكم خلا المحاكم الكنسية فإن الكنيسة لن تحكم على مجرم بالسجن أو بالإعدام فإن الجريمة وطريقة التعاطي معها ستتبدلان بلا ريب، ولكن هذا التبديل لا يحدث طفرة واحدة بطبيعة الحال بل بالتدريج خلال فترة كافية».

نظر إليه ميوسوف محدقاً وسأله قائلاً: «هل أنت جاد فيما تقول؟» وعاد إيفان إلى متابعة كلامه قائلاً: «لو أن كل شيء أصبح تحت سلطة الكنيسة فإنها ستنفي المجرمين والعصاة ولن تقتل أحداً. وأنا أسألك، ماذا يكون مصير المبعد عن حظيرة الكنيسة؟ إنه لن يصبح منبوذاً من الناس وحسب، كما هي الحال الآن، بل من المسيح أيضاً. وجريمته لن تكون اعتداء على الناس بل على كنيسة السيد المسيح. إن الأمر الآن هو كذلك، إذا توخينا جوهر الأمور. ولكن ذلك ليس منصوصاً عليه بصراحة. إن المنحرف في أيامنا هذه غالباً ما يستطيع إرضاء ضميره إذ يقول: «إنني أسرق ولكني لا أخالف الكنيسة. إنني لست عدواً للمسيح». إن هذا هو تفكير المذنب في هذه الأيام باستمرار. ولكن عندما تحل الكنيسة محل الدولة يستحيل عليه أن يخالف الكنيسة في جميع أنحاء الأرض ويقول: «إن جميع الناس مخطئون ضالون، هم وكنيستهم ضالون. أما أنا اللص أو القاتل فإني وحدي الكنيسة المسيحية الحق!» نعم إنه يصبح مستحيلاً عليه أن يفكر بذلك فهذا يقتضي توافر نادر لظروف شاذة غير معقولة. والآن انظر من الناحية الثانية إلى مفهوم الكنيسة للجريمة، أفليست في سبيل التخلي عن موقفها الراهن الذي يقضي ببتر آلي لعضوها الفاسد في سبيل المحافظة على المجتمع كما هو حالها الآن، واتباع فكرة تجديد الإنسان وإصلاحه وتحقيق خلاصه في الحياة؟».

فقاطعه ميوسوف قائلاً: «ماذا تعني، إنني الآن أيضا لا أفهمك. إن ما تقوله هو نوع من الأحلام. وهو شيء مبهم لا يمكن استيعابه. ما هو الحرمان؟ وأي نوع من أنواع الحرمان تعني؟ لا أخالك إلا راغباً في تسلية نفسك والضحك علينا يا إيفان فيودوروفيتش».

وهنا اشترك الناسك في الحديث فجأة فقال، وكان الجميع ينظرون إليه: «بلى، في الحقيقة إن هذا لصحيح في الوقت الحاضر. فلولا كنيسة

السيد المسيح لما كان هنالك مانع للمجرم من اقتراف أعمال الشر، ولما كان هنالك عقاب حقيقي له في الدار الآخرة، لا ولا أي شيء سوى ذلك العقاب الآلي الذي تكلمتم عنه قبل لحظات، وهو الذي ثبت في معظم الحالات أنه لا يؤدي إلا إلى ملء القلب بالحقد، بدلاً من العقاب الحقيقي، الذي هو وحده ذو الأثر الحقيقي، العقاب الوحيد الرادع عن الجريمة الذي يهدىء النفس، ويحرك الضمير عند التفكير بالخطيئة.

فقال ميوسوف متحمساً مستفسراً: وكيف ذلك، هل لك أن تشرح لنا ما تعنيه؟.

فعاد الناسك إلى الكلام قائلاً: «نعم إن جميع هذه الأحكام بالنفي مع الأشغال الشاقة وما يسبقه من جلد أيضاً، لا تقوّم إنساناً، وأكثر من ذلك فإنها لا تكاد تردع مجرماً واحداً عن اقتراف جريمته، والنتيجة هي أن عدد الجرائم لا يتضاءل بل أنه آخذ في الازدياد. ينبغي عليك أن تقرّ بذلك. وبناء على ذلك فإن سلامة المجتمع لا تصان، إن العضو الشرير فيه قد بتر منه وأبعد عن الأنظار إلى مكان بعيد، بطريقة آلية ولكن مجرماً آخر يأتي دائماً ليحل محله فوراً، وغالباً ما يحل محله مجرمان اثنان. فإذا كان لدينا حتى يومنا هذا ما يكفل صيانة المجتمع وإصلاح المجرم، إنما ذلك يتم بفضل قانون السيد المسيح الذي يناجيه في ضميره. والمجرم يدرك خطيئته ضد المجتمع، أي ضد الكنيسة، لأنه يدرك زلته فقط، باعتباره ابن مجتمع مسيحي، أي ابن الكنيسة. وهكذا فإن المجرم في هذه الأيام يستطيع أن يشعر بذنبه إذا كان ذنبه موجهاً ضد الكنيسة وحدها لا ضد الدولة. فلو كان المجتمع يمارس السلطة اللازمة باسم الكنيسة فعندها يعرف الذين تأهلوا للعودة إليه ومتابعة الحياة الاجتماعية. أما الآن فلما كانت الكنيسة لا تملك سلطة فاعلة حقيقية، ولا تملك إلاّ الإدانة الروحية لاستنكار أعمال المخطىء، فإنها لا تهتم بمعاقبة المجرم معاقبة فعلية. إنها لا تحرمه، بل تكتفي بأن تبقى تقدم له النصائح الأبوية لكي يصلح نفسه ويستقيم. وأكثر من ذلك، فإن الكنيسة تحاول حتى أن تبقي على جميع الصلات المسيحية مع المجرم. فهي تسمح له بالاشتراك في الصلوات وتناول القربان المقدس وتقدم له المساعدات وتعامله معاملة

الأسير أكثر منها معاملة المجرم السجين. وما عساه يحدث للمجرمين، يا إلهي، لو أن المجتمع المسيحي ـ أي الكنيسة ـ رفضهم ونبذهم كما يرفضهم القانون المدني وينبذهم؟ وما عساه يحصل لهم لو أن الكنيسة عاقبتهم بالحرمان إضافة إلى عقاب القانون الأرضي؟ إنهم عندئذ لا يمكن أن يشعروا بانكسار أقصى مما يشعرون به، وخاصة إذا كانوا من الروس، فإن المجرمين الروس ما زال الإيمان في قلوبهم. وفي مثل هذه الحالة، من يدري، فلعل شيئاً مخيفاً يمكن أن يحدث، كأن يفقد المجرم اليائس إيمانه وعندها ماذا يمكن أن يكون شأنه؟ لكن الكنيسة تبقى كالأم الرؤوم مترفعة عن معاقبته فعلاً لأنها ترى أن عدالة الدولة قد أوقعت فيه عقاباً صارماً ومن الواجب أن يكون ثمة شخص ما على الأقل يشعر بالحنان نحوه. إن الكنيسة تبقى مترفعة فوق كل شيء لأن حكمها هو الحكم الحقيقي الوحيد، ولذلك فلا يمكن أن يتعاون مع أي حكم آخر حتى ولا بصورة تسوية مؤقتة، سواء من الناحية العملية أو الأدبية. والكنيسة لا تستطيع الدخول في أي اتفاق حول هذا الأمر. يقولون إن المجرم في البلاد الأخرى قلما يندم على خطيئته لأن المذاهب الحديثة ذاتها تبرر ما أقدم عليه بأنه ليس جريمة بل مجرد عمل مضاد لقوة ظالمة تضطهده. ثم أنه (هكذا على الأقل يقولون عن أنفسهم في أوروبا) يرفق نبذه، بالكراهية والنسيان والتجاهل الكامل المطلق للمصير النهائي لذلك الأخ الخاطيء. ويحدث ذلك كله بدون عطف الكنيسة نظراً لأن الكنيسة لا وجود لها البتة في الكثير من هذه البلاد. صحيح أن هنالك رجال دين وبنايات فخمة للكنائس، لكن الكنائس نفسها جاهدت منذ زمن طويل لكي تتحول من الكنيسة إلى الدولة وتتلاشى فيها تلاشياً كلياً. إنها على الأقل حالة الأقطار اللوثرية. أما فيما يتعلق بروما، فإنها منذ ألف عام أعلنت دولة بدلاً من كنيسة. وعلى هذا، فإن المجرم لا يعود يشعر بأنه عضو من أعضاء الكنيسة، بل يسقط إلى قاع القنوط. فإذا اتفق له أن عاد إلى المجتمع، فإنه يكون في أغلب الأحيان هو الذي يكره المجتمع هذه المرة وينبذه. ولك أن تحكم كيف تكون النهاية المحتمة. وفي كثير من الحالات يبدو أننا في بلادنا نقع في مثل هذا الأمر، لكن الفرق هو أنه إلى جانب المحاكم المدنية، فلدينا

الكنيسة أيضاً، التي لم تقطع علاقاتها بالمجرم لأنها تعتبره ابناً عزيزاً له قيمته الغالية. وفضلاً عن ذلك فما زال لدينا، ولو في مجال الفكر وحده، حكم الكنيسة الذي وإن لم يعد فاعلاً الآن، فإنه ما زال موجوداً كأمل للمستقبل، ولا شك أن المجرم يعترف به في قرارة نفسه. وصحيح أيضاً، كما قيل هنا منذ لحظة، وهو أنه إذا بلغت سلطة الكنيسة عملياً غاية قوتها ومداها، أو بعبارة أخرى إذا تحول المجتمع كله إلى الكنيسة، فإن حكم الكنيسة لا يساهم في إصلاح المجرم بشكل لم يعهد قبل الآن فحسب، بل من الجائز أن يتناقص عدد الجرائم ذاتها تناقصاً كبيراً لا يصدقه العقل. وما من شك في أن الكنيسة إذ ذاك ستغير من نظرتها إلى المجرم والجريمة في كثير من الحالات في المستقبل، وستنجح في استعادة المنبوذين والسيطرة على تصرفات أولئك الذين يضمرون الشر، وإصلاح الذين اقترفوه».

ومضى الأب زوسيما قائلا وقد علت الابتسامة شفتيه: «صحيح أن المجتمع المسيحي الآن ليس مستكملاً أهبته، وأنه لا يقوم إلا على سبعة من الرجال الصالحين. ولكن طالما أن هذا المجتمع لن يخلو من أمثالهم فهو سيظل مستمراً ثابتاً في انتظار تحوله التام من مجتمع أشبه ما يكون بالوثنية في صفاته، إلى كنيسة واحدة جامعة تتمتع بالقوة التامة. ذلك ما يكون، ذلك ما يكون! حتى ولو في آخر الدهور والعصور! فقد قدّر منذ الأزل. ولا حاجة بنا إلى أن نتعب في حساب الأزمنة والفصول، لأن سر الأزمنة والفصول هو طي حكمة الله وسابق علمه ومحبته. وما يبدو في حساب البشر بعيداً، قد يكون بمشيئة الله أدنى من حبل الوريد ووشيك التحقق، ذلك ما يكون، ذلك ما يكون».

وقال ميوسوف مندفعاً بشدة الاستياء أكثر منه بحرارة الإخلاص: «إن هذا أمر عجيب، عجيب للغاية!».

فقال الأب يوسيف متسائلاً بحذر: «ما الذي يبدو لك غريباً؟».

فأجاب ميوسوف صائحاً: «إن هذا فوق كل تصور، إنه يقول بتلاشي الدولة وإقامة الكنيسة في مكانها. إن هذا ليس إيمان سكان ما وراء جبال

الأب من الإيطاليين وحسب بل يفوقه تطرّفاً، إنه أكثر مما راود البابا غريغوري السابع من أحلام[1]!».

فنظر إليه الأب بيسي نظرة حادة وقال: «إنك فهمت النقيض تماماً. اعلم أن الكنيسة لن تتحول إلى دولة فذاك من وحي روما وحلمها وهو الغواية الثالثة للشيطان. إن الأمر على النقيض من ذلك، فالدولة هي التي ستتلاشى في الكنيسة، وبذلك تظل تترقى حتى تشمل العالم بأسره. وذلك عكس إيمان روما وعكس ما فهمت أنت، وهو النهاية المجيدة الوحيدة التي تنتظر الكنيسة الارثوذكسية. وهذا النجم سيبزغ في سماء الشرق».

صمت ميوسوف صمتاً معبراً، وكانت جلسته تعكس شعوره بالتعاظم الخارق. وارتسمت على شفتيه ابتسامة الكبرياء والترفع. وكان أليوشا يتابع الموقف بقلب خافق. فإن المحادثة هزته في أعماقه. وكان يلقي بين الفينة والفينة نظرة عرضية على راكيتين الذي كان يقف في مكانه عند الباب لا يتحرك يصغي ويلاحظ باهتمام ما كان يجري في الغرفة وأهدابه مسدلة.. ولكن أليوشا أدرك من لون خديه أنه لم يكن أقل تأثراً منه وعلم سر تأثره.

ثم سارع ميوسوف للقول، بلهجة مؤثرة وهو يبدي التعاظم: «ائذنوا لي يا سادتي أن أقص عليكم طرفة صغيرة. كنت قبل بضع سنوات في باريس بعد انقلاب شهر كانون الأول أزور رجلاً ذا نفوذ عظيم يعمل في الحكومة. والتقيت في منزله رجلاً يثير الاهتمام والعجب. لم يكن هذا الرجل من رجال الشرطة بالمعنى الصحيح، بل كان أشبه برئيس لفريق من الشرطة السياسية، وهو مركز رفيع. وقد دفعتني رغبة الاطلاع إلى أن أتحين الفرصة لأحادثه. وبما أن مجيئه إلى المنزل لم يكن بصفته زائراً، بل بصفته مرؤوساً يحمل إلى رئيسه تقريراً خاصاً، ونظراً لما لمسه من حفاوة رئيسه بي، فإنه لم يجد بأساً من أن يتكلم بصراحة عن بعض الأسرار، ولكن إلى حد ما بالطبع. لقد كان أديباً أكثر منه صريحاً، وهو تصرف معهود في الفرنسيين وخاصة مع الغريب.

---

(١) ذلك أن البابا غريغوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) أكبر ممثل لفكرة الحكم القائم على السلطة الدينية.

غير أنني فهمته فهماً كاملاً. تناول الحديث الثوريين الاشتراكيين الذين كانوا مضطهدين آنذاك. وسأكتفي باقتباس ملاحظة واحدة فقط غريبة إلى حد بعيد سرت على لسانه، فقد قال: «إننا لا نخاف كثيراً جميع أولئك الاشتراكيين والفوضويين والملحدين والثوريين؛ فنحن نرقبهم ونرصد عليهم حركاتهم. ولكن هنالك عدداً قليلاً بينهم يؤمنون بالله ويدينون بالمسيحية ولكنهم في نفس الوقت اشتراكيون. إننا نخاف هؤلاء الأشخاص أكثر من سواهم، فهم أشخاص رهيبون! إن الاشتراكي الذي يدين بالمسيحية هو أكثر خطورة من الاشتراكي الملحد». لقد أثرت بي تلك الكلمات عندئذ، وقد حضرتني الآن فجأة أيها السادة وأنا أسمع حديثكم».

فقال الأب بيسي موجهاً إليه سؤالاً مباشراً بدون مراوغة: «هل تطبق تلك الأقوال علينا ونكون في نظرك اشتراكيين؟».

كان الباب قد فتح قبل أن يتوصل بطرس الكسندروفيتش إلى الجواب، ودخل إلى الغرفة ديمتري فيودوروفيتش بعد انتظار طويل. وقد يئس القوم في الحقيقة من حضوره، ولذلك فقد أحدث ظهوره المفاجىء في نفوسهم دهشة لم تطل.



ما نفع حياة مثل هذا الرجل؟

كان ديمتري فيودوروفيتش شاباً في الثامنة والعشرين من عمره متوسط الطول لطيف الوجه، وكان يبدو أكبر من سنه. فهو مفتول العضلات تظهر عليه دلائل القوة البدنية العظيمة. ومع ذلك فقد كانت مسحة من مرض تتخلل قسمات وجهه، إذ كان نحيفاً ناتىء عظم الخدين في لونه شحوب كشحوب المرض. أما عيناه الكبيرتان القاتمتان المتيقظتان فقد كانتا تدلان على العزم والحزم. لكن نظرة غامضة كانت تطل منهما أيضاً، فهو حتى عندما ينزعج ويتكلم بحدة لم تكن نظرات عينيه تناسبان حالته بل كانت تفصح عن شيء آخر، شيء لا ينسجم مع حالته التي يمر فيها. وكان محدثوه في بعض الأحيان يقولون: «إنه من الصعب معرفة ما يجول في ذهنه». وأولئك الذين كانوا يلاحظون آيات السوداء والحزن في عينيه، كانت تدهشهم ضحكاته المفاجئة التي كانت تؤكد على أن ما يجول في خاطره مجرد مشاعر مرحة هادئة في حين تنطق عيناه بالأسى. لكنه من السهل الآن فهم سر نظرة معينة حادة ظهرت في عينيه؛ فجميع الناس كانوا يعلمون أو سمعوا بالحياة المضطربة المتفككة والقلقة التي كان يحياها في الآونة الأخيرة، وكذلك بالغضب الطاغي الذي انتهى إليه من منازعاته مع أبيه بشأن أمور مالية. فلقد تناقلت المدينة حكايات كثيرة عنها. لقد كان حاد الطبع بفطرته وقد صدق قاضي مدينتنا سيمون كاتشالنيكوف عندما وصفه مازحاً بأنه «رجل مندفع مشوش الفكر».

وكان ديمتري فيودوروفيتش يرتدي في ذلك اليوم معطفاً مزرراً بعناية وثياباً تدل على أناقته. وكان يلبس قفازاً أسود اللون ويحمل بيده قبعة عالية. ولما كان غادر الجيش إلى الاستيداع منذ وقت قصير فقد أطال شاربه

وحلق لحيته. وكان شعره البني الأدكن قصيراً ومفروقاً إلى صدغيه، وكانت خطواته عسكرية بحزمها ووسعها. وقف الشاب هنيهة عند العتبة وبعد أن جال بنظراته على الجميع اتجه رأساً نحو الناسك مدركاً أنه المضيف، وانحنى له انحناءة كبيرة وطلب بركته. فنهض الأب زوسيما من مقعده وباركه، فتناول ديمتري يده وقبلها باحترام وقال بانفعال يكاد يتحول إلى استياء وغضب:

«تكرم بالصفح عني لأنني أبقيتك في انتظاري كل هذه المدة الطويلة، ولكن سميردياكوف الخادم الذي أرسله والدي إلي أجابني عن أسئلتي مرتين مؤكداً أن موعد اللقاء الساعة الواحدة ظهراً. وها أنا ذا أعلم الآن...

فقاطعه الناسك قائلاً: «هون عليك، لا بأس فأنت لم تتأخر كثيراً، والأمر ليس مهماً...».

- إنني ممتن جداً لكم، ولم أكن أنتظر منكم أقل مما تفضلتم به. أنهى ديمتري أقواله وانحنى ثانية ثم استدار نحو والده فجأة، وانحنى أمامه أيضاً انحناءة عظيمة أظهر فيها الاحترام. ويبدو أنه كان تهيأ لهذه التحية سلفاً، فقد انحنى أمام والده بكل جد ووقار ظاناً أن من واجبه أن يبدي احترامه وطيبة مقاصده.

ومع أن فيودور بافلوفيتش أخذ بذلك على حين غرة، لكنه سرعان ما استعاد انسجامه فقفز من مقعده رداً على انحناءة ولده، وحيّاه بانحناءة عظيمة، وصار وجهه فجأة وقوراً طافحاً بالمعاني مما أضفى عليه مسحة اللؤم الحقيقي. ثم انحنى ديمتري لجميع الحاضرين وهو صامت، وسار نحو النافذة بخطواته الواسعة الحازمة وجلس على المقعد الوحيد الخالي قرب الأب بيسي. ثم أمال قامته إلى الأمام استعداداً لمتابعة الحديث الذي قطعه بدخوله.

لم يستغرق دخول ديمتري أكثر من دقيقتين استؤنف بعدهما الحديث. لكن ميوسوف لم ير أنه بحاجة إلى الإجابة عن سؤال الأب بيسي الملح المحرج، فقال بلهجة تنم عن ضرب معين من اللامبالاة المعهودة في أبناء الذوات: «اسمحوا لي أن أنسحب من هذا الجدل فإن السؤال هكذا معقد جداً. ها إن إيفان فيودوروفيتش يبتسم لنا، ولا بد أن يكون لديه شيء طريف وأصيل عن هذا الموضوع أيضاً، فاسألوه إذا أردتم».

فأجاب إيفان متسرعاً: «ليس لدي شيء خاص سوى ملاحظة صغيرة فإن أرباب الأفكار الحرة في أوروبا حتى العابثين من أحرارنا، غالباً ما يخلطون، منذ وقت طويل، بين نتائج الاشتراكية النهائية وأهداف المسيحية، إن هذه الفكرة المستغربة هي طريقة تفكيرهم النموذجي بطبيعة الحال، ولكن ليس أرباب الأفكار الحرة ولا العابثون الأحرار وحدهم يخلطون بين الاشتراكية والمسيحية، ولكن في كثير من الحالات يبدو أنها سمة من سمات تفكير رجال الشرطة، عنيت الشرطة في الخارج طبعاً. وطرفتك الباريسية يا بطرس الكسندروفيتش جاءت في محلها».

فعاد ميوسوف إلى تكرار قوله: «إنني أستأذنكم ثانية في أن نطوي هذا الموضوع جملة، وسأقص عليكم بدلاً عنه طرفة أخرى شيقة وهي هذه المرة تتعلق بإيفان فيودوروفيتش نفسه. فقد حدث قبل خمسة أيام فقط في مجلس من مجالس هذه المدينة معظم حضوره من السيدات، أن شارك إيفان في مناقشة فأعلن بجدية أنه ما من شيء في العالم بأسره يحمل الناس على محبة جيرانهم، وأنه لا يوجد قانون من قوانين الطبيعة يحتم على الناس محبة البشرية. وأنه إذا كان هنالك وجود للمحبة على الأرض حتى الآن، فمرد ذلك لا إلى القانون الطبيعي، بل إلى إيمان الناس بالخلود. وقد أضاف إيفان فيودوروفيتش إلى ذلك تأكيده أن القانون الطبيعي كله كامن في هذا الإيمان وأنه إذا تخلت البشرية عن هذا الإيمان بالخلود، فلن ينضب فوراً الحب وحسب، بل ستتلاشى كذلك كل قوة حية تذكي شعلة الحياة في هذا العالم. وعندها تنعدم المعايير الأخلاقية ويصبح كل شيء حلالاً حتى أكل الناس لحم بعضهم بعضاً، وليس هذا كل شيء فإنه أكد في ختام حديثه أن القانون الأخلاقي للطبيعة في كل فرد - مثلنا - لا يؤمن بالله ولا بالخلود، لا بد وأنه يدعو إلى ما يناقض القانون الديني الغابر، وأن الأثرة حتى ولو أدت إلى الجريمة يجب أن لا تصبح مشروعة فحسب، بل يجب الأعتراف بمشروعيتها كنتيجة محتومة، ومعقولة جداً، بل ومشرفة بالنسبة لحالة هذا الفرد. ومن هذا التناقض أيها السادة يمكنكم أن تحكموا على سائر آراء صديقنا السفسطائي الكبير إيفان فيودوروفيتش».

وفاجأ ديمتري الحضور بقوله فجأة: «عذراً، إذا لم يخني السمع فهل ما سمعته هو «أن الجريمة لا يجب أن تكون مباحة فحسب، بل يجب أن يعترف بها، من وجهة نظر كل ملحد، كمخرج محتم ومعقول جداً».

فقال الأب بيسي: «نعم إن هذا عين ما سمعت».

فأجاب ديمتري: «سأذكر هذا القول». ثم صمت فجأة كما بدأ فجأة، فنظر إليه كل واحد من الحضور نظرة الفضول.

وفجأة سأل الناسك إيفان قائلا: «هل صحيح أن هذا هو اعتقادك بنتائج تلاشي الإيمان في الخلود؟».

ـ نعم ذاك كان رأيي فلو انعدم الخلود لما وجدت الفضيلة.

ـ إن اعتقادك هذا يجعلك إما أسعد الناس وإما أشقاهم.

فتساءل إيفان مبتسماً: وكيف أكون شقياً؟.

ـ لأنك في غالب ظني لا تؤمن شخصياً لا بخلود الروح ولا بما كتبته في مقالك عن سلطة الكنيسة.

فاحمر وجه إيفان وقال معترفاً: قد تكون على صواب!... ولكني لم أكن مازحاً إلا نصف مزاح.

ـ صحيح أنك لم تكن مازحاً إلا نصف مزاح، فالمسألة ما زالت تعذب قلبك إذ لم تجد لها حلاً شافياً، إن المعذب يطيب له أحياناً أن يتلهى بقنوطه، وكأنه يعبّر بذلك عن القنوط ذاته. والآن أنت أيضاً في قنوطك تعزي نفسك بكتابة المقالات في المجلات وإثارة المناقشات في المجالس مع أنك لا تؤمن بحججك بل إنك تسخر منها في ضميرك بقلب مفعم بالألم.. إنك لم تجد حلاً لهذه المسألة وهذا هو سر عذابك العظيم لأنها تلح بإيجاد حل لها.

فقال إيفان متسائلاً بلهجة غريبة وهو ينظر إلى الناسك مبتسماً بنفس الطريقة ذات الدلالة: ولكن هل يمكنني أن أتوصل إلى حلّها، ويكون هذا الحل إثباتاً؟.

فأجاب الناسك: «إذا لم تستطع البت فيها إثباتاً، فلا يمكنك قط البت

فيها نفياً. إنك تعلم أن ذلك إنما هو بسبب قانون في قلبك وأن جميع آلامه مردها إليه. ولكن اشكر الخالق الذي وهبك قلباً كبيراً يحمل مثل هذا الألم، والبحث عن الحقيقة في المسائل العليا لأن مكاننا هو السماء. لعل الله أن يمنحك القدرة على إيجاد الجواب لسؤالك على الأرض ويباركك في طريقك».

ثم رفع الناسك يده وهمّ برسم شارة الصليب فوق إيفان وهو واقف في مكانه، ولكن هذا نهض عن مقعده واتجه نحوه ونال بركته ثم قبل يده وعاد إلى مجلسه هادئاً لا ينطق بكلمة وقد ارتسمت على وجهه علامات الرصانة والصرامة. وقد أحدث هذا التصرف والكلمات التي وجهها إلى الناسك، غير المتوقعة أبداً من إيفان أثراً كبيراً لغرابتها ولما رافقها من وقار، في نفوس الجميع. فساد الصمت برهة من الزمن، وارتسمت على وجه أليوشا آيات الاهتمام. لكن ميوسوف هز كتفيه فجأة، ثم قفز فيودور بافلوفيتش من مقعده وخاطب الناسك مشيراً بأصبعه إلى إيفان: «أيها الناسك الورع القديس، ذاك هو ولدي وفلذة كبدي وأغلى أبنائي عليّ، وأعلاهم قدراً، وأكثرهم طاعة! ولو شئت، فإنه مثل كارل مور. أما هذا الابن الذي دخل الآن، ديمتري الذي شكوته إليكم وجئت ألتمس منكم العدالة فهو مثل فرانتس مور العاق. إنهما كما تعرف بطلا مسرحية «اللصوص» لشيللر[1] فأكون أنا بمثابة الكونت فون مور صاحب السلطان! فاقض بيننا وأنقذنا! إننا في حاجة ليس إلى صلواتك وحدها بل إلى نبوءاتك أيضاً!».

فأجاب الناسك بصوت خافت ينم عن الاعياء: «تكلم بهدوء وروية ولا تهرج ولا تبدأ بإهانة أفراد أسرتك». وكان التعب قد بدأ ينال من الناسك وقواه تخور تدريجياً.

وقفز ديمتري من مجلسه وهتف بازدراء: إنه الخداع المشين الذي كنت أتوقعه وأنا قادم إلى هذا المكان. سامحني أيها الأب المحترم إنني لست

---

(١) في مسرحية شيللر هذه يتنافس الأخوان كارل وفرانتس، ابنا الكونت دي مور، الأول رئيس عصابة لقطع الطرق، والثاني مخطط لقتل والده.

رجلاً مثقفاً حتى إنني لا أعرف اللقب الذي يجب مخاطبتك به. ولكنك كنت ضحية الخداع وصفاء سريرتك وطيبتك عندما سمحت لنا بالاجتماع هنا. إن كل ما يبغيه والدي هو الفضيحة. أما لماذا يريدها فهو وحده يعرف السبب. إنه يجري حساباً لكل عمل من أعماله. ومع ذلك فلعلّي أعرف نيته الآن. فقاطعه فيودور بافلوفيتش قائلا: «إنهم جميعاً يتهمونني، جميعاً وبطرس الكسندروفيتش أيضاً اتهمني هنا» ثم التفت فجأة نحو ميوسوف مع أن ميوسوف لم يكن في وارد أن يقاطعه، وتابع قوله: إنك ما فتئت تلومني يا بطرس الكسندروفيتش، إنهم جميعاً يتهمونني بإخفاء أموال أبنائي في حذائي ويقولون عني أنني خدعتهم، ولكن أليس هناك محاكم؟ إنهم في المحاكم سيحسبون لك يا ديمتري فيودوروفيتش وسيرون من مذكراتك ورسائلك واتفاقياتك قيمة ما كان لك ومقدار ما أنفقت وما تبقى لك. لماذا يرفض بطرس الكسندروفيتش أن يعلن رأيه في هذا الأمر؟ إن ديمتري ليس غريباً عنه. إن سبب رفضه أنهم جميعاً ضدي، إن ديمتري فيودوروفيتش في النهاية مدين لي. وليس ديني عليه مبلغاً ضئيلاً بل هو مدين لي بألوف الروبلات ولديّ الوثائق التي تثبت ذلك. إن قصص تهتكه يتجاوب صداها في المدينة كلها. وفي المدينة التي كان الجيش قد أرسله إليها قبل مجيئه إلى هنا، تعوّد أن ينفق الألف أو الألفين على إغواء بعض الفتيات الشريفات. إنني أعرف كل شيء عن هذه الأمور يا ديمتري فيودوروفيتش وأعرف تفاصيلها السرية وسأثبت ذلك... فلتعلم أيها الأب المقدس أنه أسر قلب فتاة هي أشرف الفتيات حسباً وأغناهن مالاً وهي ابنة كولونيل مغوار في الجيش كان رئيسه في الفرقة نال عدة أوسمة أرفعها وسام القديسة آنا. لقد غرر بهذه الفتاة ووعدها بالزواج منها. والآن أصبحت يتيمة وتقطن بلدتنا رغم أنها خطيبته. ومع ذلك فلا يتورع عن أن يلاحق امرأة أخرى تحت سمعها وبصرها. ومع أن هذه المرأة تعيش في عصمة رجل محترم، وإن كان بموجب زواج مدني، فإنها فاضلة، قلعة حصينة وهي تستعصي على أي إنسان، تماماً كزوجة شرعية، لأنها امرأة شريفة. وديمتري فيودوروفيتش يريد أن يفتح باب هذه القلعة بمفتاح ذهبي، وهذا هو سبب مهاجمته لي الآن لأنه يريد الحصول على المال مني، رغم أنه أنفق

الآلاف على ساحرته حتى الآن. وهو دائم الاقتراض لهذه الغاية. وتخيلوا ممّن؟ هل أقول يا ميتيا؟».

فصرخ ديمتري وهو مبهور النفس: «صه! انتظر حتى أخرج. إياك أن تدنس بوجودي سمعة فتاة شريفة! فإنني لن أغتفر لك أن تمسها بكلمة نابية في سورة غضبك!».

فصاح فيودور بافلوفيتش وهو يتصنع ذرف دمعة مرفقة بأنين: «ميتيا، ميتيا، أليس لرضى والدك أية قيمة عندك؟ ماذا يحدث لك لو صببت عليك لعنتي؟».

كان ديمتري يختنق غيظاً وحنقاً وقال: «أيها الممثل الوقح!».

- إنه يقول هذا القول في والده! في والده! تلك هي معاملته لأبيه، وهي للآخرين أشد سوءاً. تصوروا أيها السادة، إن هنالك رجلاً فقيراً ولكنه رجل شريف يعيش في هذه المدينة ويعيل أسرة كبيرة، وهو ضابط متقاعد في الجيش أوقعه سوء طالعه في مشكلة فطرد من الخدمة، ولكنه لم يطرد علناً ولم يكن طرده بناء على حكم محكمة عسكرية، وقد خرج من الخدمة دون أن يمس شرفه. وقبل ثلاثة أسابيع أمسكه ديمتري من لحيته في إحدى الحانات وجره إلى الشارع وأخذ يضربه أمام الناس وكل ذلك، لأنه كان وكيلاً لي في عمل صغير»

فقال ديمتري وهو يرتجف غضباً: «إنها كذبة، ظاهرها الصدق وباطنها الكذب. أيها الأب إنني لا أبرر عملي. إنني أعترف بذلك علناً، فلقد تصرفت بوحشية مع الضابط وإنني نادم على ذلك الآن، محتقر لنفسي لما استبد بي من غضب مسعور، ولكن ذلك الضابط الذي تقول أنه وكيلك ذهب إلى السيدة التي تصفها بالساحرة وأوعز إليها بناء على طلب منك أن تأخذ المستندات التي كنت وقعتها لك، ثم تقاضيني أمام المحاكم وتزج بي في السجن إذا ما بقيت مصرّاً على مطالبتك برصيدي من حساب ملكي. والآن فأنت تقرعني لأنني ضعفت أمام هذه السيدة في حين أنك أنت الذي دفعتها إلى اجتذابي! إنها مستعدة أن تجابه الجميع بذلك... لقد قصت عليّ القصة وسخرت منك... إنك تريد أن تلقي بي في السجن لأن الغيرة بدأت تأكلك

عندما أصبحت تحبها؛ وأنا أيضاً أعرف هذا الأمر جيداً. لقد ضحكت منك بسبب هذا أيضاً، هل تسمع؟ لقد ضحكت منك على حد ما روته لي. هاكم الرجل الأب الذي يعنف ولده لسوء سلوكه! أيها السادة اغفروا لي سورة غضبي، ولكنني كنت أتنبأ بأن هذا الرجل الماهر العجوز لم يأت بكم إلى هذا المكان إلا لكي يثير فضيحة. أما أنا فقد جئت لكي أسامحه لو أنه مد إلي يده، لأسامحه وأطلب صفحه! أما إنه لم يكتف الآن بتوجيه الإهانة إليّ، بل أهان أشرف فتاة أحترمها لدرجة لا أستطيع معها أن أذكر اسمها في مجال لا طائل فيه، فلقد عقدت العزم على أن أدخل لعبته الحقيرة مع أنه والدي...».

لم يستطع ديمتري أن يمضي في الكلام، فقد كانت عيناه تتألقان وكان نفسه يضيق ويصعب. ولكن جميع من كانوا في الغرفة أثارهم ما جرى، فنهضوا جميعاً من مجالسهم قلقين إلا الأب زوسيما. وكان التجهم بادياً على وجوه الرهبان إلا أنهم كانوا ينتظرون قرار الناسك ، وقد ظل هادئاً في مجلسه واصفر وجهه لا انفعالاً بل ضعفاً من العلة. وأشرق وجهه بابتسامة فيها ضراعة وكان بين الفينة والفينة يرفع يده وكأنه يريد أن يطفىء النار المتقدة، وبطبيعة الحال فقد كانت إشارة واحدة منه كافية لوضع حد لما كان يجري، لكنه بدا وكأنه ينتظر شيئاً ما، وكان يرقبهم وكأنه يحاول أن يقف على أمر لم يكن واضحاً له تمام الوضوح. وأخيراً شعر ميوسوف بالإهانة والتحقير فقال محتداً: «إننا لملومون جميعاً على هذا الفصل المخزي، ولكنني مع معرفتي مَنْ هذا الرجل، لم أتوقع حدوث ما حصل. إن هذا يجب أن ينتهي حالاً! صدقني يا صاحب النيافة أنني لم أكن على اطلاع دقيق على التفاصيل التي ظهرت الآن. وكنت رافضاً تصديقها وهاأنذا أسمع للمرة الأولى بهذا الأمر... أب يشعر بالغيرة من جراء علاقة ابنه بامرأة فاسدة الأخلاق ويتآمر مع هذه المخلوقة لكي يلقي بابنه في ظلمات السجن! إن هذا هو الجمع الذي اضطررت لأن أكون معه! لقد انخدعت. إنني أعلن أمامكم جميعاً أنني كنت مخدوعاً كما يخدع أي إنسان آخر.

وبغتة صاح فيودور بافلوفيتش بصوت غير طبيعي: «ديمتري

فيودوروفيتش! لو لم تكن ابني لتحديتك لتوي إلى مبارزة... بالمسدسات وعلى بعد ثلاث خطوات... والأعين معصوبة». ثم ضرب الأرض بقدميه مكرراً: والأعين معصوبة.

إن في حياة الكذابين العريقين الذي يقضون حياتهم كلها في التمثيل لحظات يندمجون فيها بدورهم حتى إنهم ليرتجفون ويذرفون دموع التأثر الصحيح، مع أنهم يقولون لأنفسهم في ذات اللحظة أو التي تليها: «إنك تعلم أنك تكذب أيها الخاطىء العريق الوقح! إنك تمثل الآن رغم (قدسية) غضبك واندفاعك».

قطب ديمتري جبينه متألماً ونظر إلى والده نظرة احتقار لا يمكن وصفه. وقال بصوت ناعم كأن الاتزان يغلب عليه: «لقد ظننت.. ظننت أنني عائد إلى مسقط رأسي مع الملاك الذي اصطفاه قلبي، مع خطيبتي لكي أعزيه في شيخوخته ولكنني لا أجد سوى وغد فاسد وماجن خسيس!».

فصاح ذلك النذل العجوز وقد تقطع نفسه وأخذ الزبد يتطاير من شدقيه: «المبارزة! وأنت يا بطرس الكسندروفيتش ميوسوف دعني أقل لك أنه لم يكن بين جميع أفراد أسرتك امرأة أرفع وأشرف، هل تسمع، امرأة أشرف من تلك «المخلوقة» كما تجاسرت على وصفها! وأنت يا ديمتري فيودوروفيتش لقد هجرت خطيبتك في سبيل تلك «المخلوقة». فبذلك اعترفت إن الفتاة التي هي خطيبتك لا تستحق أن ترفع الشمعة أمام تلك المرأة التي دعوتها «بالمخلوقة!».

فقال الأب يوسيف: «يا للعار».

وقال كالغانوف بصوت صبياني وقد تخضب وجهه بحمرة قرمزية وأخذ يرتجف استياءً واستنكاراً بعد أن ظل صامتاً حتى تلك اللحظة: «إن هذا شيء معيب وفظيع».

وقال ديمتري غاضباً مزمجراً وقد رفع كتفيه وقوس ظهره حتى بدأ أشبه بالأحدب وأخذ ينظر من حوله ويشير إلى والده: «ما الفائدة من حياة مثل هذا الرجل؟ أنبئوني هل يمكن السماح له بأن يظل يدنس الأرض مدة أطول؟».

واندفع فيودور بافلوفيتش نحو الأب يوسيف وصاح قائلاً: «اصغوا،

اصغوا، أيها الرهبان إلى العاق! إن هذا هو جوابه على قولك «يا للعار» فأين هو ذلك العار؟ إن تلك «المخلوقة» تلك المرأة ذات الأخلاق الساقطة، ربما كانت أقدس منكم أنفسكم أيها الرهبان الذين يبتغون الخلاص! ربما كانت قد سقطت في شبابها وحطمتها بيئتها، ولكنها أحبت كثيراً، والسيد المسيح نفسه غفر للمرأة التي أحبت كثيراً!».

فقال الأب يوسيف اللطيف، وكاد ينفد صبره: «إن السيد المسيح لم يغفر لها بسبب مثل هذا الحب».

- بلى، لمثل هذا الحب أيها الرهبان! إنكم هنا تحسبون أنكم تخلصون أرواحكم بأكل الملفوف وتظنون أنكم على حق. إنكم تأكلون سمكة نهرية صغيرة في كل يوم وتظنون أنكم تخدعون الله بما تأكلونه من أسماك.

وهنا علت أصوات من مختلف جهات الغرفة تقول: «إن هذا الأمر لا يطاق».

غير أن هذا المشهد المخزي انقطع بطريقة غير متوقعة، فقد نهض الأب زوسيما من مقعده فجأة، وكان أليوشا شديد القلق على الناسك وعلى جميع الحضور فأسرع يسنده من ذراعه. ومضى الأب زوسيما نحو ديمتري، فلما وصل إليه جثا أمامه على ركبتيه. وظن أليوشا أن الناسك تداعى إعياءً، ولكن لم يصدق ظنه، فإن الناسك انحنى متعمداً على قدمي ديمتري حتى لامس جبينه الأرض. ولشدة دهشته مما رأى فات أليوشا أن يساعده على النهوض. ولما أصبح واقفاً كانت على شفتيه ابتسامة خفيفة.

ثم انحنى لجميع ضيوفه وقال مخاطباً إياهم: «وداعاً! سامحوني جميعاً!» ووقف ديمتري ولبث مشدوهاً بضع لحظات. ثم انحنى للأب زوسيما وهو يتساءل عن معنى هذه الحركة. وبغتة صاح بأعلى صوته: «بالله!» ثم أخفى وجهه بين راحتيه وانطلق خارجاً من الغرفة. وتبعه جميع الزوار ولم يفطنوا لفرط اضطرابهم أن يودعوا مضيفهم أو ينحنوا له. وكان الرهبان وحدهم هم الذين ساروا نحوه طالبين بركته ثانية.

أما فيودور بافلوفيتش الذي هدأ فجأة فقد حاول فتح باب الحديث ولم

يجرؤ على مخاطبة إنسان بذاته، فقال: «ماذا يقصد بالركوع هكذا؟ هل كان هذا رمزاً أم ماذا؟» وكانوا في تلك اللحظة يغادرون حرم الصومعة.

فقال ميوسوف محنقاً: «ليس بوسعي أن أجيب عن أسئلة المجانين، ولكنني سأريح نفسي الآن من عناء مصاحبتك يا فيودور بافلوفيتش، صدقني وإلى الأبد، أين هو ذلك الراهب؟».

وكان يقصد «بذلك الراهب»، الراهب الذي كان قد دعاهم إلى تناول طعام الغداء على مائدة رئيس الدير. ولم يكلفهم الراهب عناء انتظاره، بل قابلهم وهم يهبطون درجات الصومعة وكأنه كان في انتظارهم طول الوقت.

فلما رآه ميوسوف هتف قائلا بصوت حانق غاضب: «أيها الأب المبجل أرجو أن تتكرم وتنقل احترامي العظيم لرئيس الدير وتعتذر له باسمي أنا ميوسوف، إنني لظرف لم يكن في الحسبان، آسف أشد الأسف لأنني لن أستطيع أن أحظى بشرف الجلوس على مائدته، مع رغبتي العظيمة في ذلك».

فاندفع فيودور بافلوفيتش قائلا: «آ... إن الظرف الذي لم يكن في الحسبان هو شخصي أنا، هل تسمع أيها الأب، إن هذا السيد يرفض صحبتي ولولا هذا للبى الدعوة مسرعاً. بلى ستذهب يا بطرس الكسندروفيتش، رجائي أن تذهب إلى مائدة رئيس الدير وأتمنى أن تتفتح شهيتك، فأنا الذي سيعتذر عن الذهاب لا أنت. سأعود إلى البيت، سآكل في بيتي، فإنني أشعر بأنني غير قادر على ازدراد الطعام هنا يا بطرس الكسندروفيتش ياقريبي الودود!».

- أنا لست قريبك، ولم أكن قط قريبك أيها الإنسان الحقير!

- لقد تعمدت قول قريبي لكي أسوقك إلى الجنون لأنك دوماً تتنصل من قرابتي. مع أنك في الحقيقة تمت إلي بصلة القربى. وسأثبت ذلك من تقويم الكنيسة. أما أنت يا إيفان فابق إذا شئت وسأرسل إليك الجياد لتعيدك فيما بعد. إن اللياقة تحتم عليك يا بطرس الكسندروفيتش أن تذهب إلى رئيس الدير تعتذر له عن الفضيحة التي تسببنا بها جميعاً.

- صحيح أنك عائد إلى البيت؟ ألست كاذباً؟.

- بطرس الكسندروفيتش! كيف أستطيع الكذب بعد الذي حدث! سامحوني أيها السادة فقد حملت على الشطط! وعلاوة على ذلك فقد

أحرجت ونسيت نفسي. والحقيقة أنني أشعر بالخجل. أيها السادة إن من الرجال من يحمل بين جنبيه قلب الإسكندر المقدوني، وآخر يحمل قلب «فيدو» الكلب الصغير. وقلبي هو قلب هذا الكلب الصغير، لقد حطمت! وبعد ذلك الشطط كيف أستطيع الذهاب لتناول طعام الغداء والتهام مشهيات الدير. إنني أشعر بالخجل، لا أستطيع. يجب أن تعذروني!.

فقال ميوسوف، وهو يخفف سيره ويراقب المهرج وهو يبتعد بنظرة الشك والدهشة: «الشيطان وحده يعلم إذا كان صادقاً أو أنه يخدعنا». ثم التفت فيودور بافلوفيتش إلى الوراء فلما لاحظ أن ميوسوف كان يرقبه أشار إليه بقبلة.

وفجأة سأل ميوسوف إيفان قائلا: «والآن، هل أنت ذاهب إلى رئيس الدير؟».

ـ ولم لا، لقد دعاني أمس دعوة خاصة.

فقال ميوسوف بانزعاج غير عابيء بوجود الراهب إلى جواره يسمع ما يقول: «لسوء الحظ أشعر بأنني مرغم على تناول هذا الغداء اللعين. إذ ينبغي علينا على الأقل أن نعتذر لرئيس الدير عن تلك الفضيحة ونوضح له أننا لم نشارك بإثارتها، فماذا ترى؟».

فقال إيفان: «نعم يجب أن نوضح له أن ما حدث لم نشارك فيه وفضلاً عن ذلك فوالدي لن يكون معنا».

ـ أملي أن لا يحضر! ألا قبح هذا الغداء.

ثم ساروا جميعاً. وكان الراهب يصغي بصمت إلا أنه أبدى، حين اجتازوا الحرج ملاحظة واحدة وهي أن رئيس الدير ينتظرهم منذ مدة طويلة وأنهم قد تأخروا عن الموعد المضروب أكثر من نصف ساعة. ولم يعلق واحد منهم على ملاحظته. وكان ميوسوف يرمق إيفان بنظرة الكراهية، ويقول محدثاً نفسه: «ها هو ذا ماض لتناول طعام الغداء وكأن شيئاً ما لم يحدث. إنها صفاقة وقحة تليق بسلالة كرامازوف!».



شاب يطلب اللاهوت

كان أليوشا مهتماً بالأب زوسيما، فقاده إلى حجرة نومه وأجلسه على السرير. وكانت هذه حجرة صغيرة خلت إلا من أبسط الضروريات: ففي جانب منها سرير حديدي صغير أمامه على الأرض قطعة من اللباد استعيض بها عن الحصير. وفي إحدى زواياها منضدة للمطالعة عليها صليب وإنجيل وفوقها على الحائط بعض الأيقونات.

تهالك الناسك على سريره خائر القوى، ضيق النفس، وأخذ يحدق في أليوشا بلهف، كما لو كان هنالك خاطر يجول في ذهنه. ثم قال له: «اذهب يا فتاي العزيز، إن بورفيري يكفي لمساعدتي، أسرع، فإنهم هناك في حاجة إليك. اذهب وتعهد ضيوف الأب الرئيس بالخدمة».

فقال أليوشا متوسلاً: «دعني أبقى معك».

- إنهم هناك أحوج إليك، فقد انعدم الوئام هناك. اذهب واخدم ضيوف الرئيس، وإذا افلتت الشياطين فاتل إحدى الصلوات. وتذكر يا بني (وكان الناسك يحب أن يناديه بهذه اللفظة) أن لا مكان لك هنا بعد الآن، فإذا لبيت نداء خالقي غادر الدير ولا تعد إليه أبداً.

وبدا أليوشا مرتعشاً ومتألماً، فقال له الناسك: «ما بك؟ إن مكانك ليس هنا الآن. لقد منحتك بركتي وأرجو أن تكون ذا نفع عظيم في الدنيا. أمامك رحلة طويلة من المعاناة. ويجب أن تتزوج، عليك أن تحتمل الكثير قبل أن تعود إلى هنا. وأمامك واجبات كثيرة يجب أن تنهض بها، غير أني لا تخامرني أدنى ريبة فيك، ولهذا أرسلك لأن المسيح معك. لا تتخل عنه فلا يتخلى عنك. ستواجهك أحزان عظيمة، وستجد السعادة فيها. هذه هي وصيتي إليك: ابحث عن السعادة في الحزن. إعمل بدون كلل أو ملل. تذكر

كلماتي، فإنني، ولو أتيح لي أن أحدثك مرة أخرى، فإنني أدرك أن أيامي بل ساعاتي على الأرض صارت معدودة».

ونم وجه أليوشا مرة أخرى عن التأثر الشديد واختلجت شفتاه.

فكرر الأب زوسيما سؤاله وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: ما بك؟ إذا كان أبناء هذه الدنيا يشيعون موتاهم بالدموع فإننا هنا نغتبط للأب الذي يفارق دنيا الفناء ونصلي لأجله. اتركني فيجب أن أصلي. أسرع بالذهاب وكن إلى جانب أخويك، ولا تكن إلى جانب أحدهما دون الآخر، بل إلى جانب كليهما».

ورفع الأب زوسيما يده ليباركه ولم يكن أليوشا ليستطيع معصية أمر الناسك، برغم قوة رغبته بالبقاء. وهو إلى ذلك كان يتوق إلى سؤال الناسك عن معنى انحنائه أمام أخيه ديمتري. وكاد لسانه ينطلق بالسؤال ولكنه لم يجرؤ على النطق به. لقد كان يعلم أن الناسك لو وجد إيضاح الأمر مناسباً لأقدم على ذلك من نفسه، إلا أنه كان جلياً أن الناسك لم يشأ إيضاحه، وقد كان لتلك الحركة أثر هائل في نفس أليوشا، وكان مسلّماً بأن لها معنى غامضاً ودلالة مخيفة.

خرج أليوشا من الصومعة مسرعاً، محاولاً الوصول إلى الدير في الوقت المناسب لكي يتعهد ضيوف الرئيس بالخدمة. وقد شعر وهو في طريقه إليه بألم مفاجيء يعصر قلبه، فتوقف عن السير. وخيل إليه أنه يتردد في سمعه كلمات الأب زوسيما التي تنبأ فيها عن قرب نهايته. وكان أليوشا يعتقد في نفسه بأن جميع نبوءات الناسك ستتحقق بحذافيرها. فأخذ يردد بينه وبين نفسه: كيف أستطيع الحياة بدونه؟ وكيف أستطيع الحياة بدون أن أمتع نظري برؤية محياه وأسمع كلماته؟ وإلى أين أذهب؟ لقد نهاني عن البكاء، ودعاني إلى مغادرة الدير. يا إلهي! وكانت قد انقضت مدة طويلة على أليوشا لم يشعر بمثل هذه الآلام الشديدة. وقد حث الخطى وهو يجتاز الحرج الذي يفصل الدير عن الصومعة، فأخذ يحدق في أشجار الصنوبر القائمة على جانبيه منذ مئات السنين وهو يكاد ينوء بحمل أفكاره. وكانت المسافة قصيرة لا تزيد على خمسمائة خطوة، ولم يكن من المتوقع أن يلتقي بأحد في تلك الساعة،

ولكنه ما كاد يبلغ أول منعطف حتى لمح راكيتين واقفاً كأنه ينتظر أحداً ما. قال أليوشا بعد أن بلغه: «لعلك تنتظرني؟».

وأجابه راكيتين مبتسماً ابتسامة مغتصبة ساخرة: «نعم، إنك مهرول إلى مسكن رئيس الدير، وأنا أعلم السبب، فإن عنده وليمة لم يعرف لها مثيل منذ أن احتفى الرئيس بالأسقف والجنرال باهاتوف. هل تذكر حفاوته بهما؟ لن أحضر الوليمة، أما أنت فاذهب وساعد في تقديم أنواع المشهيات. والآن، ألكسي أريد أن أسألك ما معنى تلك النبوءة؟ ولقد انتظرتك لأسألك هذا السؤال».

- أية نبوءة؟

- الانحناء لأخيك ديمتري. ألم تلامس جبهته الأرض؟

- هل تعني الأب زوسيما؟

- نعم، الأب زوسيما.

- لامست جبهته الأرض؟.

- آه، حقاً إنه تعبير غير مهذب! ولكن معناها، ما معنى تلك النبوءة؟.

- إنني لا أعرف معناها يا ميشا.

- كنت أعلم أنه لم يكشف لك عن معناها! ليس في الأمر سراً طبعاً، إنه ذلك التمثيل المقدس المألوف يتكرر. لكن الناسك لم يقم بهذا التمثيل عبثاً. وسيجري حديثه على ألسنة جميع الورعين في البلدة، ثم ينقلون القصة إلى المقاطعة بأسرها، ويتساءلون عن معناها. إن حدسي ينبئني بأن الشيخ نافذ البصيرة، صادق الفراسة، وقد اشتم رائحة جريمة. إن أجواء بيتكم تعبق برائحة الجريمة.

- أية جريمة تتحدث عنها؟.

وكان جلياً أن راكيتين يتوق إلى التحدث عن خاطرة تجول في رأسه.

- إن هذه الجريمة ستقع بين أفراد أسرتك، بين أخويك ووالدك العجوز الثري. ولذلك فقد انطرح الأب زوسيما على الأرض. فإذا ما حدث شيء فيما بعد قال الناس: «حقاً إن هذا الرجل القديس تنبأ به. كم هي سخيفة النبوءة

عندما تكون بالانطراح على هذه الصورة. ولكن الناس سيقولون أنها حركة رمزية، إنها مجاز إلى آخر ما يوحي به إليهم إبليس من مثل هذه الأقوال. وسيمجده الناس كلما ذكروا هذا الحادث، فيقولون لقد تنبأ بالجريمة وعين المجرم! فذلك هو دأب هؤلاء المتعصبين المعتوهين: يرسمون شارة الصليب في الحانات ويقذفون الهيكل بالحجارة. إن ناسكك مثلهم يلاحق المستقيم بالعصا ويخر على قدمي مجرم».

- أية جريمة تتحدث عنها؟ وأي مجرم؟ ماذا تعني؟ أجننت؟.

فاه أليوشا بهذه الكلمات وقد وقف في مكانه مسمراً، وتوقف راكيتين أيضاً عن السير، سائلاً أليوشا:

«تسألني عن المجرم وتزعم أنك لا تعرفه. إني أراهن على أنك فكرت في الأمر من قبل. وهذا لعمري مما يثير الاهتمام. اسمعني يا أليوشا، إنك تنطق دائماً بالصدق، رغم أنك متردد الرأي. هل فكرت في الأمر أم لا؟ أجب».

وأجاب أليوشا بصوت خافت: «بلى لقد فكرت». وقد أخذ راكيتين بهذا الجواب على حين غرة وهتف: «ماذا؟ أحقاً فكرت؟».

فقال أليوشا متمتماً: «إنني... إنني لم أفكر في الأمر تماماً، ولكنني حين بدأت تحدثني هذا الحديث الغريب، خيل إليّ أنه سبق لي أن فكرت بالأمر».

- إذن فأنت تعترف؟ (ولكم أجدت في التعبير) لقد فكرت بوقوع جريمة وأنت ترى أباك وأخاك ديمتري اليوم. إذن فإن ظني في محله!.

وقاطعه أليوشا قلقاً: «ولكن مهلاً، أخبرني كيف اتفق لك ملاحظة كل ذلك، أو ما الذي يعنيك منه؟ هذا ما أود معرفته أولاً».

- إنهما سؤالان غير مرتبطين، ولكنهما طبيعيان. وسأرد عليهما الواحد بعد الآخر. أما كيف اتفق لي ملاحظة الأمر، فما كان لي أن أرى ما رأيت لو لم أكشف دخيلة أخيك ديمتري في لحظة معينة، وأسبر أغوار قلبه في نظرة خاطفة. لقد فهمت الرجل من ملاحظة واحدة من سماته. إن حياة أناس من نوع أخيك يتحلون بالشرف إلى أبعد حدوده ولكنهم يعانون من عاطفة جياشة، حداً ينبغي عليهم ألا يتجاوزوه. ولو أن أخاك تجاوز هذا الحد لما

تورع عن قتل والدك. وأبوك سكير متحلل من كل قيد وخاطىء عريق في الخطيئة، ولن يقوى قط على وضع مثل هذا الحد. فإذا لم يستطيعا لجم نفسيهما، فإنهما سيقبلان معاً على الكارثة.

- كلا يا ميشا، كلا. إذا كان ذلك هو كل ما تعني فقد هدأت روعي! إنهما لن يبلغا هذا الحد.

- فما بالك إذن ترتعد؟ دعني أقول لك إن إخاك ميتيا قد يكون شريفاً (إنه غبي ولكنه شريف) إلا أنه شهواني. تلك هي حقيقة طبيعته وذلك هو جوهره الداخلي. ولقد ورث هذه الشهوانية الخبيثة عن والدك. هل تعلم يا أليوشا أنني أستغرب كيف استطعت أن تصون طهارتك حتى الآن. فأنت أيضاً من أسرة كرامازوف، وأنك تعرف هذا. والشهوانية وباء يسري بين أفراد أسرتكم. وهاهم الآن هؤلاء الشهوانيون الثلاثة يراقب أحدهم الآخر وقد أخفى بيده خنجراً. إن ثلاثتهم يصطرعون، وربما صرت رابعهم.

فقال أليوشا وهو يرتجف: إنك مخطىء فيما تقول عن تلك المرأة. إن ديمتري يحتقرها.

- غروشنكا؟ كلا يا أخي، إنه لا يحتقرها. فما دام قد هجر خطيبته علناً في سبيلها فهو لا يحتقرها. إن في الأمر شيئاً يا فتاي العزيز لم تفهمه بعد. فالرجل عندما يقع في غرام امرأة جميلة، أي في غرام جسد امرأة، أو جزء من جسدها، (والشهواني يستطيع فهم ذلك)، يتخلى عن أطفاله في سبيلها، ويبيع أباه وأمه ووطنه، روسيا، أيضاً. قد يكون شريفاً فيقدم على السرقة، وقد يكون لطيفاً فيقدم على القتل، وقد يكون وفياً فيقدم على الغدر. إن بوشكين شاعر الفتنة الأنثوية، قد تغزل بأقدام المرأة في قصائده. أما غيره من الشهوانيين فلا ينظمون أبيات الغزل ولكنهم لا يتمالكون عند النظر إليها أن تصيبهم رعشة. ومفاتن المرأة ليست كلها في القدم. إن الاحتقار لا جدوى فيه يا أخي في مثل هذه الحالة هذا إذا كان فعلاً يحتقر غروشنكا. وهب أنه يحتقرها، إلا أنه لا يقوى على هجرانها.

- «إني لمدرك ذلك». لقد أفلت لسان أليوشا بهذه الكلمات، فقال راكيتين وهو يضمر المكر:

«حقاً؟ لا بد أنك مدرك ذلك ما دمت تعترف منذ بدء كلامك. لقد أفلت منك الاعتراف في ساعة غفلة، وهذا مما يزيد في قيمته. إذن الموضوع، وأعني الشهوانية، ليس جديداً عليك، وقد فكرت فيه قبل الآن! أيها الشاب البتول! إنني أعلم يا أليوشا أنك إنسان رقيق وأنك قديس، ولكن الشيطان وحده يعلم أية أمور ملأت عليك تفكيرك وما الذي تعرفه عنها! إنك طاهر، ولكنك غصت في الأعماق... إنني أراقبك منذ زمن بعيد. ثم أنت من أسرة كرامازوف. إنك كرامازوف من قمة رأسك إلى أخمص قدميك. ولا ريب في أن الأصل والنسب لهما شأن في حياة المرء. فأنت شهواني من أبيك وقديس بسيط من أمك. ما بالك ترتعد؟ إذن فأنا مصيب؟ هل تعلم أن غروشنكا ما برحت ترجوني أن أصطحبك معي إلى منزلها. وهي ما فتئت تقول: «سأنزع عنه ثوب الرهبنة». إنك لا تستطيع أن تتخيل مدى إلحاحها عليّ لإحضارك إليها. وإني ما زلت أتساءل مستغرباً عن سبب اهتمامها بك وشوقها لك إلى هذا الحد. إنها هي أيضاً امرأة غريبة الأطوار! صدقني».

وابتسم أليوشا ابتسامة مصطنعة وقال: «اشكرها وقل لها أنني لن أحضر، هلم يا ميشا واتمم ما بدأت من حديث وسأجيبك بعد ذلك».

ـ لم يبق ما يتطلب المزيد، فقد اتضح كل شيء. إنها النعمة القديمة ذاتها يا أخي، فإذا كنت أنت في دخيلة نفسك تحب المتعة واللذة، فما بالك بإيفان أخيك، إنه أيضاً سليل أسرة كرامازوف، إن علتكم جميعاً يا أبناء كرامازوف أنكم جميعاً شهوانيون جشعون بسطاء، إن أخاك إيفان مثلاً يتلهى بكتابة مقالات دينية بدافع غريب من البله لا يعرف له سبب مع أنه ملحد، ويعترف هو نفسه بأنها ضرب من الخداع. ذلك هو أخوك الطيب إيفان. وهو أيضاً يحاول أن يسلب ميتيا خطيبته لنفسه، وأعتقد أنه سيفلح، وأبلغ من ذلك أنه سيظفر بها بموافقة ميتيا، الذي سيتخلى له عن خطيبته تخلصاً منها، لكي ينصرف عنها إلى غروشنكا. ولاحظ أنه مستعد لأن يفعل كل ذلك بالرغم من نبله وعدم غرضيته. أولئك هم أخطر أنواع البشر! ترى أي نوع من الرجال أنتم في دخائل أنفسكم؟ إنه يقر بدناءته ولا يتخلى عنها! دعني أخبرك أيضاً أن أباك العجوز الصغير، يعترض سبيل ميتيا في الوقت الحاضر. إنه تولّع بغروشنكا

فجأة وصار لعابه يسيل عند رؤيتها وهو لم يثر تلك الفضيحة في الصومعة قبيل لحظات إلا في سبيلها، لأن ميوسوف وصفها بالمخلوقة المتهتكة، إنه حقاً حقير في غرامه. لقد بدأ باستخدامها في حاناته وفي أعمال أخرى مشينة. لكنه لاحظ الآن مدى جمالها وتدلّه في غرامها. وهو لا يفتأ يلاحقها ويثقل عليها بعروضه الكثيرة، وهي طبعاً عروض غير شريفة. وعلى هذا الدرب سيصطدم الأب بابنه. ولكن غروشنكا لا تميل إلى أي منهما. وهي لا تزال تتلاعب بالاثنين وتثير غرامهما معاً لترى من منهما يكون أكثر نفعاً وجدوى لها. فهي وإن كانت قادرة على ابتزاز مبالغ طائلة من الأب، فإنها تعلم أنه لن يقترن منها، وقد يشح بماله عليها في النهاية، ويحتفظ بنقوده في خزنته. وهذا مما يرفع من قيمة ميتيا في نظرها، فهو إذا كان لا مال عنده فإنه لا يرفض أن يتزوجها. نعم، إنه مستعد أن يتزوجها فيترك خطيبته الثرية الفاتنة، كاترينا إيفانوفنا ابنة الكولونيل، لكي يقترن بغروشنكا عشيقة التاجر العجوز المتهتك، سامسونوف، رئيس البلدية الفظ الجلف. وهذه الأمور كلها قد تقود إلى نزاع دام، وهذا ما يترقبه أخوك إيفان بفارغ الصبر، لأنه يلائم أهدافه كل الملاءمة، فهو يتيح له الظفر بكاترينا إيفانوفنا التي يهفو إليها ويظفر بستين ألف روبل هي بائنة هذه الفتاة، وهذا في حد ذاته أمر مغرٍ لرجل معدم لا شأن له في الحياة. ويجب أن تلاحظ أن إيفان لا يسيء في ذلك إلى ميتيا، بل يسدي إليه أعظم خدمة. فأنا أعلم علم اليقين أن ميتيا كان منذ أسبوع فقط، يثمل في خمارة مع بعض الفتيات الغجريات وأعلن بصوت عال، أنه غير أهل لخطيبته، كاتيا، وأن أخاه إيفان أجدر منه بها. ثم إن كاترينا إيفانوفنا نفسها لن تعرض في النهاية عن شاب مغوٍ مثل إيفان، فهي منذ الآن تتردد بين الاثنين. لعمري كيف استطاع إيفان أن يأسر ألبابكم جميعاً حتى أنكم تجلونه إلى حد التقديس؟ إنه يسخر منكم، صدقني، ويضحك عليكم جميعاً.

فسأله أليوشا محتداً مقطب الجبين: «كيف عرفت كل هذه الأمور؟ ولماذا تؤكدها بمثل هذه الثقة؟».

- ولكن ما بالك تسألني وترهب جوابي؟ إن هذا دليل على صحة ما أقول.

- إنك تحقد على إيفان وهو ليس من الذين يغريهم المال.

- حقاً وماذا تقول في جمال كاترينا إيفانوفنا؟ فليس المال وحده هو الذي يغريه، مع أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ في حد ذاته.

- إن إيفان أسمى مما تظن. وهو لن تفتنه آلاف الروبلات، إنه لا ينشد المال ولا ينشد الرخاء. لعله ينشد العذاب!.

- ألست تحلم؟

- آه منكم يا أبناء الطبقة الأرستقراطية.

- لا يا ميشا، إن في جسده روحاً عاصفة قلقة وعقله مثقل بأمور خطيرة، إنه واقع تحت كابوس شك رهيب ما فتىء يعذبه. إنه أحد أولئك الذين لا يسعون وراء الملايين، بل ينشدون أجوبة لما يتردد في نفوسهم من أسئلة عن المسائل الروحية.

- إن هذا سطو على أفكار الآخرين، يا أليوشا. إنك تردد أقوال ناسكك. قال راكيتين ذلك بلهجة ملؤها المكر والكره ثم هتف وقد تبدلت سحنته واختلجت شفتاه: «آه، لقد أوجد لك إيفان مشكلة! وهذه المشكلة تافهة. والتكهن لا يكفي فكل شيء يمكن حزره. اشحذ ذهنك تفهم ما أقول. لقد كانت مقالته سخيفة مضحكة. لقد استمعت إلى نظرياته الغبية: إذا انعدم خلود الروح، انعدمت الفضيلة، وصار كل شيء حلالاً؟ (وهل تذكر كيف هتف أخوك ميتيا: «سأذكر هذا القول!») إنها لعمري نظرية تستهوي الأوغاد! (لقد أسففت في ألفاظي، وهذا شيء معيب) إنها لا تستهوي الأوغاد، بل المتحذلقين المدعين الذين تنتابهم شكوك عميقة لم يستطيعوا تبديدها. إنه كثير التبجح وغاية ما يسفر عنه تبجحه هي عبارات كهذه: «من جهة لا يسعنا إلا أن نقر» و«من جهة أخرى يستحيل علينا إلاّ أن نعترف!». إن نظريته كلها قائمة على التلاعب والسفاهة. وستجد البشرية في نفسها القوة لكي تحيا وتنشد الفضيلة سواء أكانت مؤمنة بالخلود أم لا: إنها ستجد هذه القوة في تعشقها للحرية والمساواة والإخاء».

وكان راكيتين مندفعاً في حديثه يكاد يعجز عن كبح جماح نفسه، ولكنه توقف فجأة عن الكلام وكأنه تذكر شيئاً. وما لبث أن ابتسم ابتسامة تنم

عن المزيد من الخبث وقال: «حسناً، سأكتفي الآن بهذا القدر من الكلام. ما بالك تضحك؟ لعلك تظنني جلفاً أحمق؟».

ـ كلا، لم يخطر لي ذلك على بال، إنك ماهر.. ولكن... لا بأس فإنني ضحكت هكذا بلا سبب. إني أفهم سبب احتدادك يا ميشا. إن ما أستنتجه من اندفاعك هو أنك أيضاً لست خلو الذهن من كاترينا إيفانوفنا. كنت أرتاب في ذلك منذ زمن بعيد يا أخي، وهذا هو سبب كرهك لأخي إيفان. هل هو يجعلك تشعر بالغيرة عليها؟.

ـ وأحسده على مالها، أيضاً؟ ها؟ لم لا تضيف ذلك؟.

ـ لا أريد أن أقول شيئاً عن مالها. فلست أريد إهانتك.

ـ لقد صدقتك، ما دمت تقول ذلك، ولكن قبحت أنت وأخوك إيفان أيضاً. ألا يمكنك أن تدرك أن في وسع المرء أن يكرهه بغض النظر عن موقفه من كاترينا إيفانوفنا؟ وما الذي يحملني بحق الشيطان على حبه؟ إنه لا يرى بأساً في ازدرائي، كما تعلم، فلم لا يكون لي حق ازدرائه؟.

ـ لم يبلغني قط أنه تكلم عنك بخير أو شر. إنه لا يهتم بأمرك البتة.

ـ ولكن بلغني أنه ازدراني ما وسعه الازدراء، منذ أيام ثلاثة، في منزل كاترينا إيفانوفنا. إنه لا يعرفني حقاً، أنا خادمك المتواضع. وبعد فإنني لا أستطيع أن أقول يا أخي أينا يحسد الآخر. لقد تفضل وجهر برأيه في أنني إذا لم أقرر في المستقبل القريب بلوغ رتبة الأرشمندريت، وإذا لم أندمج في سلك الرهبنة، فمن المؤكد أنني سأنتقل إلى مدينة بطرسبورغ، والتحق فيها بإحدى المجلات الكبرى لأعمل ناقداً للكتب، وأنني سأستمر محرراً طيلة عشر سنوات، وفي النهاية تنتقل إلي ملكية المجلة، فأحولها عن اتجاهها واجعلها معبرة عن ذوي الأفكار المتحررة والملحدين، وسأضفي عليها مسحة من الاشتراكية، على أن ألزم جانب الحذر طوال الوقت، أي أنني أحتفظ بعلاقاتي مع الجانبين وأخدع الأغبياء. وبحسب رأي أخيك فإن مسحة الاشتراكية لن تمنعني من ادخار دخلي من المجلة واستثماره بالتعاون مع أحد اليهود إلى أن أتمكن من تشييد بناء شامخ في بطرسبورغ اجعل مكاتب المجلة في الطابق الأرضي وأؤجر طوابقه العليا. بل بلغ به الأمر حد تحديد

مكان للبناء قرب الجسر الحجري الجديد الذي يقال أنه سيقام فوق نهر نيفا الذي يمر في المدينة.

فهتف أليوشا وقد عجز عن إخفاء ابتسامة تنم عن الانشراح: ولكن هذا هو الذي سيحدث فعلاً يا ميشا.

- وأنت أيضاً أصبحت ساحراً يا ألكسي فيودوروفيتش؟.

- سامحني. إن ما أفكر فيه شيء آخر تماماً عما فهمت. ولكن هل لي أن أعرف من أنبأك بكل هذا؟ فأنت لم تكن موجوداً حتماً أثناء حديثه عنك في منزل كاترينا إيفانوفنا.

- لم أكن موجوداً هناك، ولكن ديمتري فيودوروفيتش كان حاضراً، وقد سمعته بنفسي يقول ذلك، وإذا شئت أن تعرف الحقيقة فإنه لم يروها لي. ولكنني استرقت السمع. وقد جاء ذلك عرضاً بطبيعة الحال، لأنني كنت في حجرة نوم غروشنكا، ولم أستطع مغادرتها لأن ديمتري كان جالساً في الغرفة المجاورة لها.

- آه، حقاً لقد نسيت أنها قريبتك، أليس كذلك؟.

فصرخ راكيتين وقد احمر وجهه بلون أحمر مكثف: «قريبتي تلك، غروشنكا قريبتي! هل جننت؟ أتراك فقدت عقلك!».

- لماذا؟ أليست قريبتك، لقد سمعت أنكما قريبان!.

- أين يمكن أن تكون سمعت ذلك؟ إنكم يا أبناء كرامازوف تتباهون بأنكم من أسرة نبيلة عريقة رغم أن والدك اعتاد أن يكون مهرجاً ماجناً على موائد الناس وإذا سمح له بدخول منازلهم فمكانه منها المطبخ، يقدمون له فيه وجبة يأكلها. قد لا أكون أكثر من ابن كاهن فقير، ولعلي أبدو شخصاً لا قيمة له في نظر أمثالكم، ولكن حذار أن توجه إليّ الإهانة جزافاً وبدون مبرر. فإنني أشعر بالشرف أنا أيضاً يا ألكسي فيودوروفيتش، ولا يمكن أن أكون قريباً لغروشنكا الداعرة. أرجوك أن تفهم ذلك.

وكان راكيتين يتكلم بحدة وقد بلغ به الغيظ مبلغاً. وقد أجابه أليوشا قائلا: «أرجوك، لم تكن لدي أدنى فكرة... ثم... كيف تدعوها داعرة... أهي... من ذلك النوع من النساء؟» وعلت وجهه حمرة الخجل، ثم تابع

صفحة من مخطوطة الاخوة كرامازوف

كلامه قائلا: «أعود فأقول أنني سمعت أنها قريبتك. إنك كثيراً ما تذهب لزيارتها، وكنت قد أنبأتني أنك لست عشيقها. لم أكن أتخيل أنك أنت من دون سائر الناس تكن لها مثل هذا الاحتقار! فهل تستحق فعلاً كل هذا؟».

ـ وقد تكون لدي أسباب خاصة تدعوني لزيارتها فهذا مما لا يعنيك، أما عن تلك القرابة، فأرجح أن أخاك أو ربما والدك سيجعلك قريباً لها أكثر مني. لقد انتهينا والأفضل أن تذهب إلى المطبخ. ماذا جرى؟ هل تأخرنا؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الطعام بمثل هذه السرعة، إلا أن يكون الأخوان كرامازوف عادا إلى إثارة الاضطراب؟ لا شك أنهما فعلا ذلك! ها هو أبوك قادم وأخوك إيفان يتبعه. إنهما انفصلا عن مأدبة الأب الرئيس. انظر إن الأب إيزيدور يوجه إليهما بعض الكلام بصوت عال من على درجات السلم. وأبوك أيضاً يصرخ ويلوح بذراعيه. أعتقد بأنه يكيل الشتائم. ثم انظر، ها هو ميوسوف يذهب بعربته، انظر إنه ذاهب. وها هو مكسيموف العجوز يعدو! لا بد أن فضيحة وقعت والمأدبة لم تتم. أرجو الله أن لا يكون قد اعتدوا بالضرب على الأب الرئيس! أم لعلهم قد ضربوا؟ إنهم يستحقون الضرب فعلاً.

كانت أمارات تعجب راكيتين في محلها. لقد وقعت فضيحة فعلاً.. لم يسبق لها مثيل. وقد كانت وليدة ساعتها.



فضيحة

أحسّ ميوسوف، وهو الكريم الطبع المرهف الحس، بشعور من التبكيت عندما وصل مع إيفان إلى غرفة رئيس الدير، وكان يشعر بالخجل من جراء احتداد طبعه. وشعر بأنه كان ينبغي عليه أن يحتقر ذلك الوغد الحقير فيودور بافلوفيتش فلا يفقد هدوءه في صومعة الأب زوسيما إلى درجة فقد معها السيطرة على نفسه. وقال مفكراً وهو يصعد الدرج: «إن الذنب لم يكن ذنب الرهبان على كل حال، وطالما أن أهل هذا المكان هم أناس محترمون (والأب الرئيس كما علمت رجل نبيل) فلماذا لا أكون ودوداً لطيفاً معهم؟ إنني لن أجادلهم وسأتساهل في كل شيء وسأكسبهم بأدبي وسأتظاهر بتأييدي لهم وسأثبت لهم أن لا علاقة لي البتة بذلك المهرج وأنني ضحية الانخراط فيما حدث شأن جميع الآخرين.

وكان عازماً على أن يسقط دعواه على الدير ويتنازل حالاً ونهائياً عن حقوقه في التحطيب وصيد السمك ومما زاد في إقدامه على ذلك أن هذه الحقوق كانت زهيدة القيمة، فضلاً عن أنه كان لا يعلم بشكل دقيق مكان الغابة والنهر مدار الخلاف. كانت نواياه السامية هذه تبلغ نهاية قوتها عندما ولج باب غرفة مائدة الأب الرئيس، ولكنها، على وجه الدقة، لم تكن غرفة بالمعنى الصحيح فإن رئيس الدير لم تكن لديه أكثر من غرفتين؛ وكانتا على كل حال أوسع وأدعى للراحة من غرفة الأب زوسيما، لكن الأثاث فيهما كان على غاية البساطة، إنه من خشب المهوغني المنجد بالجلد يرجع عهد طرازه إلى عام ١٨٢٠. ولم تكن أرض غرفة المائدة مزخرفة غير أن كل شيء كان يتألق بالنظافة، وقد زينت حافات النوافذ بالعديد من الأزهار الثمينة. وكان الشيء اللافت بالغرفة في تلك اللحظة بالذات، إنما هو المائدة التي لم تكن

مترفة بل منسقة تنسيقاً جميلاً. وكان غطاؤها نظيفاً وأدوات الطعام براقة، وكانت على المائدة ثلاثة أصناف من الخبز النضيج، وزجاجتا نبيذ وإناءان من العسل المخمر وقطرميز من الجعة، والصنفان الأخيران من صنع الدير ذاته وقد اشتهر بهما في المنطقة كلها. ولم يكن على المائدة شراب الفودكا. وقد ذكر راكيتين فيما بعد أن المائدة كانت تشمل خمسة أصناف من الطعام: حساء سمك وإلى جانبه فطائر صغيرة من السمك، ثم صنف سمك مشوي معد بطريقة رائعة، ثم شرائح من سمك حوت سليمان، ومثلجات مع مربى الفواكه، ثم قشدة محلاة.

اطلع راكيتين بدقة على كل شيء لأنه لم يستطع أن يقاوم فضوله بالتلصص إلى داخل المطبخ الذي كان يتردد عليه. لقد كان راكيتين يتردد على كل شيء ويطلع على كل ما كان يجري. وكان حسوداً ذا طبع مضطرب، عظيم التقدير لكفاءاته الكثيرة ويزين له غروره أن يضخمها، ويبالغ فيها مبالغة عظيمة. وكان واثقاً من أنه سيلعب دوراً كبيراً بشكل من الأشكال. لكن أليوشا الذي أحب راكيتين كان يؤلمه أن يرى صديقه غير متمسك بالشرف وغير مدرك لحقيقة هذه العيوب فيه، وأنه، في المقابل كان يعتقد نفسه أنه مثال النزاهة لأنه لا يسرق من المال الذي يترك على الخوان. وما كان في وسع أليوشا ولا أي إنسان آخر أن يغير فيه شيئاً حيال هذا الأمر.

كان راكيتين بالطبع تافه القدر قليل الاعتبار فدعوته إلى الغداء غير ممكنة، واقتصرت هذه الدعوة من رجال الدير، على الأب يوسيف والأب بيسي وراهب آخر. كان هؤلاء ينتظرون في غرفة المائدة عندما وصل ميوسوف وكالغانوف وإيفان. وكان الضيف الآخر مكسيموف يقف بعيداً عنهم في انتظار الضيوف أيضاً. وعندما دخلوا خف رئيس الدير إلى منتصف الغرفة لاستقبالهم، وكان رجلاً عجوزاً طويل القامة نحيفاً ما يزال نشيطاً أسود الشعر خطه الشيب مستطيل الوجه صارم الملامح. انحنى رئيس الدير لضيوفه صامتاً، ولكنهم في هذه المرة ساروا إليه التماساً لبركته. بل أن ميوسوف حاول أن يقبل يده، ولكن الأب الرئيس سحبها في الوقت المناسب تجنباً للتحية. لكن إيفان وكالغانوف أديا التحية بشكل كامل

وبعفوية وقبلا يده كما يفعل الفلاحون.

قال ميوسوف، مستهلاً الحديث بلهجة تنم عن الاحترام والوقار وهو يتبسم بأدب: «يجب علينا أن نعتذر لك بكل خضوع يا صاحب النيافة لأننا أتينا وحدنا دون أن نصطحب معنا الرجل الذي تفضلت ودعوته معنا، فيودور بافلوفيتش، فقد رأى نفسه مضطراً إلى الاعتذار عن الحظوة بشرف ضيافتك، وما كان اعتذراه بلا سبب. ففي غرفة الأب زوسيما المبجل اشتط بسبب خلافه المؤسف مع ابنه وصدرت عنه كلمات لم يستطع ضبطها... وهي فعلاً لم تكن لائقة... كما لا شك أنكم أدركتم ذلك حضرتكم (والتفت إلى الرهبان). ولذلك فقد شعر بالأسف الصادق والخجل بعد أن أدرك خطأه، ورجاني مع ابنه إيفان فيودوروفيتش أن أنقل إليكم اعتذاراته وشديد أسفه. وبالاختصار فهو يأمل ويرغب في أن يكفر عن خطأه مستقبلاً ويطلب بركتكم ويرجوكم أن تضربوا صفحاً عما حدث».

توقف ميوسوف عن الكلام، وإذ قال هذه العبارات الرنانة استعاد هدوء نفسه تماماً، وزالت عن وجهه جميع آيات غضبه السابق. وعاد إلى سابق محبته للبشرية محبة تامة صادقة.

أصغى الأب الرئيس لأقواله بوقار ثم أحنى رأسه قليلاً وأجابه قائلا: «إن غيابه يؤسفني كثيراً إذ أنه لو جلس إلى مائدتنا فربما تعوده محبتنا وتعودنا محبته، تفضلوا واتخذوا مقاعدكم أيها السادة».

ثم وقف أمام الأيقونة وبدأ يصلي بصوت عال، وأحنى الجميع رؤوسهم خشوعاً واحتراماً، أما مكسيموف فقد ضم يديه أمامه بحرارة خاصة.

كانت تلك هي اللحظة التي مثل فيها فيودور بافلوفيتش آخر تهريجاته. ويجدر بالذكر أنه كان حقاً يريد الانصراف إلى منزله، ويشعر حقيقةً بأنه من المستحيل عليه أن يتناول طعام الغداء على مائدة رئيس الدير وكأن شيئاً لم يحدث بعد ذلك السلوك الشائن الذي سلكه في حجرة الناسك. وذلك ليس بسبب شعوره بالخزي العظيم فربما كان الأمر على نقيض ذلك. إلا أنه مع ذلك كان يشعر بأنه لا يليق به الذهاب إلى الغداء. ولكن ما كادت عربته القديمة تصل إلى درجات الفندق، وما كاد يستقلها حتى عدل عن رأيه فقد

تذكر كلماته التي فاه بها أمام الناسك إذ قال: إنني أشعر بحقارة شأني كلما قابلت الناس الذين يعتبرونني أفاقاً مهرجاً فأقول بيني وبين نفسي: «لأكن ذلك المهرج حقاً لأنكم جميعاً بلا استثناء أسوأ مني حالاً».

وتاق إلى الانتقام لنفسه من الجميع على ما قام به هو من أمور حقيرة. وفجأة تذكر كيف أنه سئل ذات مرة: «لماذا تكره فلاناً إلى هذا الحد»؟ فأجاب بوقاحة وصفاقة: «سأخبرك بذلك، إنه لم يسيء إليّ قط ولكنني مثلت عليه دوراً حقيراً ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه».

ولما تذكر ذلك الآن ابتسم ابتسامة هادئة خبيثة وتردد برهة ولمعت عيناه وارتعشت شفتاه ثم قال بعزم وتصميم: «حسناً طالما أني بدأت فسوف أتم ما بدأته». ويمكن وصف الفكرة الطاغية التي كانت تدور في رأسه في تلك اللحظة بأنها تتلخص في تلك الكلمات: «لقد فات الأوان على إصلاح نفسي إذن فلأسربلهم بالعار الذي يليق بي. سأريهم أنني لا أخافهم هذا هو كل ما في الأمر!».

ثم أمر الحوذي بالانتظار وعاد بخطوات سريعة في اتجاه الدير وقصد غرفة الأب الرئيس. ولم تكن لديه فكرة واضحة عما سيفعله ولكنه كان يعلم أنه لا يستطيع السيطرة على نفسه ولا التحكم بتصرفاته وأن أتفه كلمة قد تسوقه إلى أقصى حدود القذارة وبدون أن يتجاوز هذه الحدود إلى اقتراف عمل إجرامي يمكن أن يعاقبه عليه القضاء. ثم إنه يستطيع أن يعتمد على قدرته على الوقوف عند حده في اللحظة الحاسمة، بل إنه معجب بنفسه في بعض الأحيان أيما إعجاب لهذه المقدرة.

ودخل غرفة مائدة الأب الرئيس في اللحظة التي انتهت فيها الصلاة، وكان الجميع يتوجهون نحو المائدة. فوقف على عتبة الغرفة وجال ببصره على الجميع ثم أطلق ضحكته الخافتة الطويلة التي تنم عن الحقد واللؤم ونظر إلى وجوههم جميعاً بتحدٍ وصاح بصوت تردد في أرجاء الغرفة: «لقد ظنوا أنني ذهبت ولكن ها أنا أعود».

أصاب الذهول الجميع، وظلوا لفترة دقيقة لا ينبسون ببنت شفة. وفي لحظة خاطفة أدرك كل واحد منهم أن شيئاً طائشاً قبيحاً فاضحاً على وشك

الحدوث. وتحول ميوسوف فوراً من حالة مزاجه الهادىء وفكره المطمئن إلى حالة الهياج الشديد وثارت في فؤاده جميع المشاعر التي كانت خامدة. ثم صاح قائلا: «كلا! إنني لا أقوى على احتمال هذا! لا أقوى عليه مطلقاً!... يقيناً إنني لا أستطيع!» وصعد الدم إلى رأسه، وتعثر لسانه فأخذ يتلعثم ويختلط كلامه ثم تناول قبعته.

فصاح فيودور بافلوفيتش قائلا: «ما هو ذلك الشيء الذي لا يقوى عليه مطلقاً، ولا يستطيعه يقيناً؟ يا صاحب النيافة أتأمرني بالدخول أم بالانصراف؟ هل تقبلني في ضيافتك»؟.

فأجاب رئيس الدير: «إنني أرحب بك من كل قلبي. أيها السادة، إنني أسمح لنفسي أن أرجوكم أحر الرجاء أن تطرحوا خلافكم جانباً وتتحدوا بالمحبة، ووفاق الأخوة بالصلاة إلى الله على مائدتنا المتواضعة».

وقال ميوسوف: «كلا، كلا إن هذا مستحيل».

فعاد فيودور بافلوفيتش إلى القول: «حسناً إذا كان مستحيلاً على بطرس الكسندروفيتش فهو مستحيل عليّ أيضاً، ولن ألبث في هذا المكان. لقد جئت على هذا الأساس وسأبقى الآن مع بطرس الكسندروفيتش أينما ذهب، فإذا انصرفت يا بطرس الكسندروفيتش فسأنصرف أنا أيضاً، وإذا بقيت فسأبقى. أيها الأب الرئيس لقد آلمته بما ذكرته به عن وفاق الأخوة فهو لا يقر بقرابته لي. إن هذا صحيح أليس كذلك يا «فون سوهن»؟ ها هو ذا «فون سوهن». كيف حالك يا «فون سوهن»؟.

فهمهم مكسيموف ذاهلاً: «هل تقصدني بهذا القول»؟.

فأجابه فيودور بافلوفيتش: «طبعاً أقصدك، ومن غيرك المقصود؟ إن الأب الرئيس لا يمكن أن يكون «فون سوهن».

فقال مكسيموف: «ولكنني لستِ «فون سوهن»، إنني أدعى مكسيموف».

فأجاب فيودور بافلوفيتش: «بلى، إنك «فون سوهن». هل تعلم يا صاحب النيافة من هو «فون سوهن»؟ لقد تردد اسمه في حادث جريمة قتل شهيرة. فقد قتل في بيت للدعارة - إنني أعتقد بأنه هو الاسم الذي يطلق في

بلادنا على مثل هذه البيوت ـ لقد قتل وسلب ... بكلمة وداع،
السن، فقد وضع في تابوت بقفل مسمّر و... حة النهائية
عربة للبضائع كطرد بسيط مرقم ... هاً وهو
المسامير في نعشه كانت المومسات ينش... لغ من
البيانو كما تسمونها، وهكذا فإن «فون سوهن» ... يليه.
بين الأموات، أليس كذلك يا «فون سوهن»؟.

وصدرت أصوات عن الرهبان تقول: «ما هذا الذي ...

وقال ميوسوف مخاطباً كالغانوف: «النمض».

وهتف فيودور بافلوفيتش صائحاً وهو يتقدم خطوة أخرى ... الغرفة: «كلا، معذرة، اسمح لي أن أنهي كلامي، لقد لمتني ه... الصومعة وادعيت أنني أسأت التصرف لأنني تكلمت عن أكل السمك النه... يا بطرس الكسندروفيتش؛ إن ميوسوف، قريبي، يفضل الرفعة على الصدق في الكلام أما أنا فأفضل الصدق على الرفعة وتباً للرفعة. إن هذا صحيح أليس كذلك يا «فون سوهن»؟ اسمح لي أيها الأب الرئيس أن أقول، إنني مهرج وأقوم بدور المهرج ولكنني مثال الشرف وأريد أن أنطق بما يدور في ذهني. نعم إنني مثال الشرف بينما لا يمثل بطرس الكسندروفيتش سوى الغرور الجريح ولا شيء سوى ذلك.

ربما جئت إلى هنا لألقي نظرة وأتحدث عما يدور في ذهني. إن ولدي ألكسي هنا يريد خلاص روحه، وأنا والده، وأحرص على رفاهيته ومن واجبي السهر عليه، إنني بينما كنت أقوم بدور الأحمق كنت أصغي وأنظر إلى ذلك الماكر، والآن أريد أن أمثل أمامكم المشهد الأخير ـ إنني أعرف كيف تسير امورنا؟ إنه إذا سقط شيء ما، ظل في مكانه، وبما أنه سقط شيء ما فينبغي أن يظل في مكانه إلى الأبد. إني لا أعترف بهذه الحقيقة! إنني أريد الثورة والتمرد أيها الأب المقدس، إنني حانق عليك. إن الإعتراف سر مقدس عظيم وأنا أشعر إزاءه بالتقوى والاحترام، ولكن هناك في الصومعة يركع الناس جماعة ويعترفون جهاراً، فهل يصح الاعتراف جهاراً؟ لقد سن الآباء المقدسون أن يكون الاعتراف سرياً، وعندها فقط يظل اعتراف العامي سراً. إنها قاعدة قديمة

بلادنا على مثل هذه البيوت ـ لقد قتل وسلب ورغم أنه كان جليلاً طاعناً في السن، فقد وضع في تابوت بقفل مسمّر وأرسل من بطرسبورغ إلى موسكو في عربة للبضائع كطرد بسيط مرقم من طرود الشحن. وفيما كانوا يدقون المسامير في نعشه كانت المومسات ينشدن الأناشيد ويعزفن على القيثارة أي البيانو كما تسمونها، وهكذا فإن «فون سوهن» هو الماثل أمامكم وقد قام من بين الأموات، أليس كذلك يا «فون سوهن»؟.

وصدرت أصوات عن الرهبان تقول: «ما هذا الذي يجري؟ ما هذا»؟.

وقال ميوسوف مخاطباً كالغانوف: «النمض».

وهتف فيودور بافلوفيتش صائحاً وهو يتقدم خطوة أخرى إلى داخل الغرفة: «كلا، معذرة، اسمح لي أن أنهي كلامي، لقد لمتني هناك في الصومعة وادعيت أنني أسأت التصرف لأنني تكلمت عن أكل السمك النهري يا بطرس الكسندروفيتش؛ إن ميوسوف، قريبي، يفضل الرفعة على الصدق في الكلام أما أنا فأفضل الصدق على الرفعة وتباً للرفعة. إن هذا صحيح أليس كذلك يا «فون سوهن»؟ اسمح لي أيها الأب الرئيس أن أقول، إنني مهرج وأقوم بدور المهرج ولكنني مثال الشرف وأريد أن أنطق بما يدور في ذهني. نعم إنني مثال الشرف بينما لا يمثل بطرس الكسندروفيتش سوى الغرور الجريح ولا شيء سوى ذلك.

ربما جئت إلى هنا لألقي نظرة وأتحدث عما يدور في ذهني. إن ولدي ألكسي هنا يريد خلاص روحه، وأنا والده، وأحرص على رفاهيته ومن واجبي السهر عليه، إنني بينما كنت أقوم بدور الأحمق كنت أصغي وأنظر إلى ذلك الماكر، والآن أريد أن أمثل أمامكم المشهد الأخير ـ إنني أعرف كيف تسير امورنا؟ إنه إذا سقط شيء ما، ظل في مكانه، وبما أنه سقط شيء ما فينبغي أن يظل في مكانه إلى الأبد. إني لا أعترف بهذه الحقيقة! إنني أريد الثورة والتمرد أيها الأب المقدس، إنني حانق عليك. إن الإعتراف سر مقدس عظيم وأنا أشعر إزاءه بالتقوى والاحترام، ولكن هناك في الصومعة يركع الناس جماعة ويعترفون جهاراً، فهل يصح الاعتراف جهاراً؟ لقد سن الآباء المقدسون أن يكون الاعتراف سرياً، وعندها فقط يظل اعتراف العاص سراً. إنها قاعدة قديمة

عظيمة، ولكن كيف تريدونني أن أعترف له أمام الجميع بأنني فعلت كيت وكيت.. من الأمور، إنك تدرك ما أعني، وتعلم أن الحديث عن أمور بعينها غير لائق، إنها حقاً فضيحة! كلا أيها الآباء فإنني أخشى أن يساق الإنسان من جراء ذلك إلى الجلد... وفي أول فرصة سأكتب شاكياً إلى المجمع الكنسي، أما إبني ألكسي فقد قررت أن أعيده معي إلى المنزل.

إنه مما تجدر ملاحظته هنا أن فيودور بافلوفيتش كان يعرف أين يوجه ضربته. فلقد راجت في الماضي شائعات مغرضة وصلت إلى رئيس الأساقفة (لا فيما يتعلق بديرنا وحده بل بجميع الأديرة التي عرف فيها نظام النساك) ومن جملة ما قيل أن احتراماً يبلغ المغالاة يقدم إلى هؤلاء النساك وقيل أن من شأن ذلك أن يضعف سلطة رئيس الدير، وأن النساك يسيئون إلى قدسية الاعتراف، وما إلى ذلك من حماقات كانت تتلاشى من تلقاء نفسها عندنا وفي كل مكان. غير أن روح الحماقة التي استحوذت على فيودور بافلوفيتش وانحطت به، متوتر الأعصاب، إلى الدرك الأسفل من البذاءة، سولت له نبش تلك التهمة الكاذبة القديمة التي لم يكن فيودور بافلوفيتش يفقه كلمة واحدة منها، بل إنه لم يستطع أن يعبر عنها تعبيراً مفهوماً، ففي ذلك الظرف لم يركع أي إنسان ولم يعترف جهاراً في صومعة الناسك. ولذلك فإن عينه لم تر شيئاً من هذا القبيل، فهو ليس سوى مردد لما قيل وما تذكره من تهم قديمة. ولكنه ما أن فرغ من عباراته الجوفاء اللاذعة حتى شعر بأنه كان يتفوه بكلام سخيف لا معنى له، وأراد أن يثبت للحضور ولنفسه خاصة أنه لم يكن يتكلم لغواً. ومع أنه كان موقناً بأنه في كل كلمة من كلماته كان يضاعف من سخافاته، إلا أنه لم يستطع أن يوقف ترديه واندفع في سبيله اندفاعاً أعمى.

وصاح بطرس الكسندروفيتش: «يا للعار».

وقال رئيس الدير: «عفواً! لقد جاء في كلام قديم أن الكثيرين بدأوا يغتابونني ويتقولون عني مقالات السوء. ولما سمعت مقالتهم قلت في نفسي: إنه إصلاح من الله اسبغه علي لشفاء روحي المغرورة. وهكذا فنحن نشكرك بتواضع أيها الضيف الكريم»، ثم انحنى أمام فيودور بافلوفيتش انحناءة عظيمة.

واندفع فيودور بافلوفيتش صائحاً وهو يتلعثم في أقواله: «إنه نفاق

وترديد لجمل مألوفة! جمل قديمة وحركات قديمة. إنها الأكاذيب القديمة وآيات التذلل المعروفة. إنها لا تخدعنا، فنحن نعرفها جيداً. «إنها قبلة على الشفتين وخنجر في القلب» كما جاء في مسرحية اللصوص للشاعر شيللر. إنني لا أحب الخداع أيها الآباء، بل أريد الحقيقة، ولكن الحقيقة ليست بأكل السمك النهري، وهذا أعلنه بأعلى صوتي. أيها الآباء الرهبان لماذا تصومون؟ ولماذا تنتظرون مكافأة السماء لكم على ذلك؟ لماذا، فأنا أيضاً ساتي وأصوم من أجل مكافأة كهذه. كلا أيها الراهب المقدس إنك تحاول رعاية الفضيلة في هذا العالم، فأحسن إلى المجتمع بدلاً من أن تغلق على نفسك أبواب الدير فتعيش على حساب غيرك وتنتظر فوق ذلك مكافأة من السماء إنك ستجد ذلك أقسى عليك قليلاً، إن باستطاعتي أيضاً أن أتكلم كلاماً ذا مغزى أيها الأب الرئيس. ثم اقترب من المائدة وقال: «ماذا أعددتم على مائدتكم؟ آه! نبيذ معتق، وعسل مخمر مما يبيعه الأخوان إيليسييف. بخ.. بخ.. أيها الآباء! هذا شيء أشهى من السمك النهري، انظر إلى الزجاجات التي جلبها الآباء، هي! هي! هي! ومن دفع أثمان هذه الأشياء كلها؟ الفلاح الروسي الطيب، يعمل بكد ويجلب إلى الدير الدرهم الذي يكسبه براحتيه المتشققتين ويقتطعه عن أسرته وعن خزينة الضرائب! إنكم تهريقون دم الشعب، هل تعلمون أيها الآباء المقدسون».

وصاح الأب يوسيف: «عار ما تقوله».

وظل الأب بيسي صامتاً بينما اندفع ميوسوف خارجاً من الغرفة وتبعه كالغانوف.

وقال فيودور بافلوفيتش: «حسناً أيها الأب، سألحق ببطرس الكسندروفيتش! ولن آتي لأراك أبداً. وربما رجوتني أن آتي وقد تجثو على ركبتيك فلن آتي. لقد بعثت لك بألف روبل وهكذا فلديك المزيد من المال. إنني أنتقم لنفسي على ما لقيته أيام شبابي وما تحملته من اضطهاد». ثم ضرب المنضدة بقبضة يده وهو في تلك النوبة الحادة من عنفه المتعمد، وتابع يقول: «إن هذا الدير قد لعب دوراً عظيماً في حياتي! وقد جعلني أذرف دموعاً حرى كثيرة. ولقد كان دأبكم أن تؤلبوا علي زوجتي المعتوهة، لقد

لعنتموني في السر والعلن وشوهتم سمعتي في كل مكان، كفاكم أيها الآباء! إن هذا عصر التحرر، عصر البخار والسكك الحديدية. إنكم لن تنالوا مني ألفاً ولا مائة روبل بل ولا مائة درهم!».

يجب أن نذكر هنا أيضاً أن ديرنا لم يكن له أي شأن هام في حياته، ولم يجعله يذرف أية دمعة حرى، ولكنه بالغ في التمثيل فأوشك في لحظة من اللحظات أن يصدق أقواله وتأثره العظيم حتى أنه كان على وشك البكاء إشفاقاً على نفسه، ولكن في تلك اللحظة بالذات شعر بأنه قد آن له أن ينسحب.

وهنا أحنى رئيس الدير رأسه بعد أن فاه فيودور بافلوفيتش بكذبته الخبيثة واندفع يقول بصوت مؤثر:

«لقد قيل أيضاً: افرحوا لكل عار يقع عليكم ولا يد لكم فيه. لا تضطربوا ولا تحقدوا على من جلب العار عليكم. وهذا عين ما سنفعله.

فاندفع فيودور بافلوفيتش صائحاً: «اشغل نفسك أنت وبقية الرهبان بهذه التفاهات والسفاسف، فكروا أنتم أنفسكم أيها الآباء، أما أنا فسأذهب. ولكنني سآخذ معي ابني ألكسي، سأبعده عن هذا المكان إلى الأبد بموجب سلطتي الأبوية. يا إيفان فيودوروفيتش يا أطوع أبنائي دعني آمرك بأن تلحق بي. وأنت يا «فون سوهن» ما الذي يجعلك تمكث هنا؟ تعال وزرني الآن في المدينة. هناك المتعة والترويح عن النفس، إنها لا تبتعد أكثر من فرسخ واحد، وسأقدم لك شيئاً يتحلب له ريقك بدلاً من طعام الصيام وسيكون على المائدة الشهية أنواع البراندي والأشربة الروحية، ولدي نبيذ فاخر، هيا يا «فون سوهن» لا تدع هذه الفرصة تفوتك وخرج من الغرفة وهو يصيح ويلوح بيديه.

كانت تلك اللحظة التي رآه فيها راكيتين ونبه إليه أليوشا.

ولما رأى فيودور بافلوفيتش ابنه صاح منادياً من بعيد: «ألكسي! عد إلى البيت منذ اليوم ولن تعود إلى الدير أبداً. أحضر وسادتك ومفرشك ولا تترك في هذا المكان شيئاً يدل عليك».

وقف أليوشا ثابتاً في مكانه يرقب ذاهلاً ما يجري أمامه وبصمت وفي هذه الأثناء جلس فيودور بافلوفيتش في العربة، وكان إيفان على وشك اللحاق

به بصمت مطبق حتى دون أن يلتفت إلى أليوشا ليلقي إليه بكلمة وداع، ولكن في تلك اللحظة حدث مشهد تهريجي فظيع كان بمثابة المسحة النهائية على تلك القصة. فقد ظهر مكسيموف فجأة عند العربة وكان يعدو لاهثاً وهو يخشى أن يكون الوقت قد فاته. ورآه أليوشا وراكيتين وهو يعدو، وقد بلغ من تعجله أنه وضع قدمه على ركاب العربة بينما كانت قدم إيفان ما تزال عليه. ثم تشبث بالعربة يعدو معها وهو يحاول أن يثب إلى داخلها، ويضحك ضحكة مرحة ووجهه يتألق تألقاً عظيماً، «لقد جئت معكما! خذاني أنا أيضاً».

وصاح فيودور بافلوفيتش مبتهجاً: «ها هو ذا! ألم أقل أنه «فون سوهن»؟ إنه «فون سوهن» الأصل وقد نهض من بين الأموات، كيف استطعت أن تغادر المكان؟ وماذا كان نوع قلة أدبك هناك؟ وكيف استطعت العدول عن الغداء؟ لا شك في أنك قليل الحياء! إنني أنا شخصياً قليل الحياء، ولكنني لا أتمالك من أن أعجب لأمرك يا أخي. ادخل! ادخل! خل سبيله يا إيفان سيكون الأمر مضحكاً ومسلياً. إن باستطاعته أن يجد له مكاناً ينطرح فيه بين أقدامنا. أليس مريحاً أن تضطجع بين أقدامنا يا «فون سوهن»؟ أو تجلس على الصندوق مع السائق، اقفز إلى الصندوق يا «فون سوهن»!.

غير أن إيفان الذي كان في تلك الآونة قد اتخذ مقعده في العربة، وجه إلى صدر مكسيموف ضربة قوية فألقى به بعيداً عن العربة، ولكن الصدفة شاءت ألا يقع، وصاح إيفان بالحوذي غاضباً: «امض بنا»!.

وقال فيودور بافلوفيتش محتجاً:

لماذا، ماذا صنعت؟ لم ضربته؟

ولكن العربة كانت قد ابتعدت عن المكان ولم يحر إيفان جواباً.

فعاد فيودور بافلوفيتش إلى القول: «يا لك من فتى». ثم صمت زهاء دقيقتين ونظر إلى ابنه نظرة جانبية وقال: عجباً لك، إنك أنت الذي أثار كل شيء في الدير. فقد حضضتني على ذلك، ووافقت على الذهاب إليه، فما الذي يغضبك الآن؟.

وصمت فيودور بافلوفيتش دقيقتين أخريين، ثم عاد إلى القول متعاظماً: «إن قليلاً من البراندي يطيب الآن». ولكن إيفان بقي صامتاً.

- ستصيب شيئاً من البراندي أنت أيضاً عندما نصل إلى المنزل.

وظل إيفان على صمته.

ثم قال فيودور بافلوفيتش بعد صمت دام دقيقتين: «أما أليوشا فسأبعده عن الدير ولو أنك تكره ذلك كرهاً عظيماً يا كارل فون مور المبجل».

ولكن إيفان هز كتفيه باحتقار وأشاح بوجهه إلى الطريق وأخذ يتأملها. ولم يتبادلا الكلام حتى وصولهما إلى المنزل.



الباب الثالث



الشهوانيون

مسكن الـخدم

يقع منزل أسرة كرامازوف في مكان بعيد عن وسط المدينة، ولكنه ليس في أقصى ضاحيتها. إنه منزل قديم أنيق مريح فسيح الأرجاء حسن المنظر، مؤلف من طابقين، طليت جدرانه من الخارج باللون الرمادي، أما سقفه فقد كان من الحديد المطلي باللون الأحمر، متين البناء فهو قادر على الصمود لفترة طويلة. تصادفك فيه حيث تجولت الخزائن والسلالم المتعددة الأصناف والأحجام. وكانت الجرذان تعشش في المنزل، ولكن فيودور بافلوفيتش لم يكن ينفر منها، بل كان يقول: «إن المرء لا يشعر بالوحدة إذا ما ألفى نفسه وحيداً في المنزل في المساء». وكان من عادته أن يصرف الخدم إلى منزلهم في الليل، ويغلق على نفسه أبواب منزله. وكان الخدم يقيمون في بناء ملحق فسيح متين قائم في صحن الدار. وكان فيودور بافلوفيتش قد جعل مطبخه الخاص في تلك البناية، مع أن المنزل كان يحتوي على مطبخ تفادياً منه لروائح الطهي التي كان لا يطيقها، فكانت أطباق الطعام تنقل عبر صحن الدار في الصيف والشتاء على السواء. وقد بني المنزل لأسرة كبيرة فهو مؤهل لاستيعاب خمس عائلات مع خدامها. أما في الفترة التي جرت فيها أحداث قصتنا فلم يكن يقطن المنزل سوى فيودور بافلوفيتش وابنه إيفان، أما منزل الخدم فلم يكن مقيماً فيه سوى ثلاثة فقط هم: غريغوري العجوز، وزوجه العجوز مارفا، وفتى يدعى سميردياكوف. ولا بد من بعض التفاصيل عن هؤلاء الثلاثة. لقد سبق لنا أن تحدثنا قليلاً عن غريغوري العجوز، وكان غريغوري شديد الشكيمة ماضي العزم، يتجه نحو هدفه اتجاهاً أعمى يتصف بالعناد، بمجرد أن يقتنع لسبب من الأسباب (وهي في أغلب الأحيان أسباب غير منطقية) بأنه هدف صحيح لا شك في صحته. وكان شريفاً محصناً ضد

الفساد. وقد درجت زوجه مارفا إيغناتييفنا على الانصياع لمشيئة زوجها انصياعاً أعمى ولكنها ألحت عليه بقوة خاصة بعد تحرير رقيق الأرض، أن يترك فيودور بافلوفيتش ويستثمر ما ادخراه من مال قليل في فتح حانوت صغير في موسكو. ولكن غريغوري قرر عندئذ، بما لا يقبل الجدل، أن «حديث المرأة كان من قبيل اللغو، لأن النساء جميعاً غير مخلصات» وأنه لا يجدر بهما أن يتركا سيدهما العجوز، بغض النظر عن صفاته، لأن «ذلك مما يفرضه الواجب عليهما في الوقت الحاضر».

وقد سأل زوجه مارفا إيغناتييفنا: «هل تفقهين معنى الواجب»؟.

فأجابت مارفا: «إنني أفهم الواجب يا غريغوري فاسيليفتش، ولكني لن أفهم قط ما هو الواجب الملزم لنا بالمكوث هنا».

- إذاً لا تفهمي شيئاً، ولكن رأيي هو النافذ، وعليك أن تلزمي الصمت.

وهكذا كان، فقد لازما منزل أسرة كرامازوف، ووعد فيودور بافلوفيتش بدفع مبلغ ضئيل لهما أجرة خدماتهما، وأخذ يداوم على دفعه. وكان غريغوري يعلم أيضاً أنه يتمتع بنفوذ مطلق على سيده. وقد كان ذلك ينطبق على الواقع، وكان هو يدرك هذه الحقيقة. وكان فيودور بافلوفيتش إنساناً ماجناً عنيداً مراوغاً، ومع أنه كان شديد المراس «في بعض شؤون الحياة» على حد تعبيره، لكنه يعرف أنه ضعيف إلى أقصى حدود الضعف في مواجهة بعض الحالات الأخرى الطارئة، مما كان مدعاة لدهشته. وكان يعرف مواطن الضعف في نفسه ويخشاها.

هنالك مواقف تتطلب من المرء فيها أن يكون شديد التيقظ، ولكن ذلك ليس بالأمر اليسير إذا لم يتوفر له رجل يركن إليه، وقد كان غريغوري رجلاً يركن إليه إلى أبعد الحدود، وقد تعرض فيودور بافلوفيتش للجلد عدة مرات في حياته وفي كل مرة كان غريغوري يتدخل في اللحظة الأخيرة وينجح بتخليصه. وكان الخادم العجوز في كل مرة من هذه المرات يلقي عليه محاضرة قيمة. ولم يكن الجلد هو الشيء الوحيد الذي يخيف فيودور بافلوفيتش، بل كانت هنالك مناسبات أكثر حرجاً، مناسبات شديدة التعقيد محيرة، ألفى فيودور بافلوفيتش نفسه فيها عاجزاً عن تفسير توقه اللامحدود

إلى وجود شخص أمين مخلص إلى جانبه. وهو توق كان يلح عليه في بعض الأحيان فجأة ولغير سبب. إنها حالة شبه مرضية، فإن فيودور بافلوفيتش الذي كان فاجراً فاسداً، قاسياً في شهوته، كبعض الحشرات الضارة، كان يستحوذ عليه أحياناً، في لحظات سكره، خوف وهمي مع خلل نفسي كان يتمظهر بمظهر الإرهاق الجسدي. وكان فيودور بافلوفيتش يقول: «إن روحي تضطرب في أحشائي في تلك الأوقات».

وكان يحب في مثل تلك اللحظات أن يشعر بأن في منزل الخدم على الأقل إن لم يكن في غرفة مجاورة له رجلاً قوي البنية أميناً فاضلاً يختلف عنه، رجلاً شاهد جميع تهتكه وألمّ بكافة أسراره، ولكنه مستعد بدافع الإخلاص أن يغفر له كل ذلك، ولا يعارضه فيها قط، وأكثر إنه لا يؤنبه أو يهدده بشيء، سواء في الدنيا أو الآخرة، ومستعد عند الحاجة لحمايته. ولكن ممن؟ من شخص مجهول، ولكنه مرعب وخطر. كان لا بد أن يشعر فيودور بافلوفيتش بالحاجة إلى رجل آخر، صديق قديم مجرب، يستطيع أن يدعوه في لحظات مرضه لمجرد التطلع إلى وجهه، أو ربما لتبادل بعض الكلمات في موضوع ما. فإذا لم يكن الخادم العجوز غاضباً شعر هو بالسلوان، أما إذا كان غاضباً ازداد كمده. وقد حصل لفيودور بافلوفيتش (ولكن نادراً) أن يذهب ليلاً إلى منزل الخدم ليوقظ غريغوري ويحضره إلى المنزل برهة من الزمن، حتى إذا جاء الرجل العجوز شرع فيودور بافلوفيتش يحدثه عن أتفه الأمور، وسرعان ما يصرفه، مختلقاً في بعض الأحيان طرفة من الطرف. وبعد انصراف غريغوري كان فيودور بافلوفيتش يأوي إلى فراشه وهو يصب اللعنات، ثم يستغرق في سبات عميق.

وقد حدث مثل ذلك لفيودور بافلوفيتش لدى وصول أليوشا. إن أليوشا «نفذ إلى قلبه» لأنه «عاش معه وشاهد كل شيء فلا يدينه بشيء». وفضلاً عن ذلك، فقد جاء أليوشا بأشياء لم يعرفها أبوه من قبل: فكان لا يشعر نحوه قط بأي احتقار، ويعامله دائماً بلطف لا تكلف فيه ويظهر إخلاصاً طبيعياً خالصاً لذلك الرجل العجوز الذي لم يكن يستحق مثل هذه المعاملة. وكان كل ذلك مفاجئاً للعجوز المتهتك الذي تخلى عن العيش في ظل الأسرة، بل كان

أمراً جديداً مدهشاً له، وهو الذي لم يحب حتى ذلك الحين سوى النساء والملذات الخسيسة. وبعد رحيل أليوشا اعترف بينه وبين نفسه بأنه أدرك شيئاً لم يكن حتى ذلك الحين مستعداً لتقبله أو التسليم به.

لقد ذكرت سابقاً أن غريغوري كان يكره أديليدا إيفانوفنا، زوج فيودور بافلوفيتش الأولى، ووالدة ديمتري، وأنه، على نقيض ذلك، كان يحمي صوفيا إيفانوفنا «المرأة المعتوهة» المسكينة، من سيده وكل من سولت له نفسه الإساءة لها بالكلام أو بالفعل. وقد تحول عطفه على الزوجة التعيسة إلى شيء مقدس عنده، حتى أنه الآن، بعد مضي عشرين عاماً، لم يكن يحتمل أية إساءة لها من أيّ كان، ولم يتوان عن إيقاف هذا المسيء عند حده. وكان مظهر غريغوري الخارجي يوحي بالجمود والوقار وحب الصمت، وكان إذا تكلم وزن كلماته وتجنب سقط الكلام. وكان يستحيل على المرء أن يدرك لأول وهلة ما إذا كان يحب زوجه الوديعة الطيعة؛ ولكنه كان يحبها حقاً، وكانت هي تعرف ذلك.

ولم تكن مارفا إيغناتييفنا حمقاء بحال من الأحوال؛ وربما كانت فعلاً أحذق من زوجها، أو على أقل تقدير، كانت تفوقه فطنة في الشؤون الدنيوية، ومع ذلك فقد كانت منذ زواجهما تحترمه لتفوّقه في الشؤون الروحية وتخضع له في كل شيء بدون جدل أو تذمر، وكانا يتبادلان الحديث مع بعضهما بعضاً بإيجاز ملفت للأنظار، وإذا تحدثا فلا يتعدى حديثهما الشؤون اليومية الضرورية. وكان غريغوري الوقور يعالج مهماته وواجباته منفرداً لا يشرك فيها أحداً حتى أن مارفا إيغناتييفنا أدركت مع الزمن أنه في غنى عن مشورتها. وكانت تشعر بأن زوجها يحترم فيها صمتها، ويعتبره دليلاً على حسن إدراكها. ولم يضربها في حياته سوى مرة واحدة وبشكل خفيف، حدث ذلك في السنة التالية لزواج فيودور بافلوفيتش بأديليدا أيفانوفنا، وقد تجمعت فتيات القرية ونساؤها ـ وكن بعد من بنات رقيق الأرض ـ أمام منزل أسرة كرامازوف وأخذن يغنين ويرقصن. وبينما كن في مطلع رقصة «في المروج الخضراء» إذ بمارفا تتقدم إلى الأمام، وكانت عندئذ في ريعان الشباب، وأخذت ترقص لا على طريقة الفلاحات بل على الطريقة الروسية كما كانت ترقصها عندما

كانت خادمة عند آل ميوسوف الأثرياء، في مسرح الأسرة الخاص، حيث كان أستاذ مختص استقدم من موسكو يقوم بتعليم الممثلين الرقص. وقد رأى غريغوري كيف كانت ترقص، وبعد ساعة من الزمن عادا إلى المنزل ولقنها درساً، وجذبها من شعرها جذباً خفيفاً. وكانت المرة الوحيدة، فلم يتكرر الضرب، وكفت مارفا إيغناتييفنا عن الرقص.

ولم يبارك الله زواجهما بالنسل، فقد رزقا طفلاً واحداً ولكنه ما لبث أن مات. وكان غريغوري كلفاً بالأطفال ولا يخفي كلفه بهم. وعندما هربت أديليدا إيفانوفنا، أخذ غريغوري طفلها ديمتري الذي كان عندئذ في الثالثة من عمره، واحتضنه لفترة عام تقريباً، فكان يسرح شعر الطفل بيديه ويغسل جسمه في حوض صغير، ويوليه العناية والمحبة. وبعد ذلك أخذ على عاتقه أمر العناية بإيفان وأليوشا، فكافأته أرملة الجنرال على ذلك بصفعة على وجهه؛ وعلى كل حال، فإني قد ذكرت كل ذلك من قبل. أما طفله هو فكانت السعادة الوحيدة التي جلبها له هي متابعة فترة حمله، ولكن عندما ولد استحوذ على غريغوري الغم والفزع. فقد كانت كل من يديه بست أصابع. وكان ذلك سبباً في إصابة غريغوري بكمد شديد، فبقي صامتاً حتى يوم عماد الطفل، ولم يكتف بذلك بل صار يقضي كل أوقاته في الحديقة. كان هذا في فصل الربيع، وأمضى ثلاثة أيام يعزق الحديقة قبل موعد عمادة الطفل. وفي اليوم الثالث، يوم العمادة استقر رأي غريغوري على شيء ما فدخل الكوخ حيث اجتمع رجال الدين والزوار، بما فيهم فيودور بافلوفيتش الذي كان سيقف إشبيناً للصبي، وأعلن فجأة أن الطفل «يجب أن لا يتعمد قط». قال هذه الكلمات بهدوء وتكاسل، ولم يزد عليها وكان يحدق في الكاهن بعينين ملؤهما الاهتمام والسهوم.

وقد سأله الكاهن بدهشة وهو يضحك من كلامه: «ولم لا»؟

فتمتم غريغوري قائلا: «لأنه تنين».

وصمت غريغوري لحظات، ثم تمتم قائلا: «إنها غلطة الطبيعة». كانت كلماته غامضة ولكنها تعكس حزم غريغوري وعزوفه عن متابعة الكلام. وقد ضحك الحضور، وعمدوا الطفل المسكين بطبيعة الحال. ومع أن غريغوري

وقف أمام جرن العمادة يصلي بخشوع، فإن رأيه في الطفل لم يتبدل. ولكنه لم يتدخل بأي شكل من الأشكال. لم يكن غريغوري ينظر إلى الطفل طيلة وجوده في قيد الحياة إلا فيما ندر. ولكن عندما توفي الطفل بمرض القلاع بعد أسبوعين من ولادته، وضعه هو نفسه في التابوت الصغير، وأخذ يتأمله بأسى عميق. وبينما كان المشيعون يهيلون التراب فوق القبر الصغير، جثا على ركبتيه وخر على الأرض. ومرت سنوات بعد ذلك ولم ينطق لسان غريغوري بذكر الصبي مرة واحدة. وقد أحجمت مارفا أيضاً عن ذكره أمامه. وإذا اتفق ان تحدثت عنه، حتى في غياب غريغوري، فإن صوتها لا يعلو على الهمس. وقد لاحظت مارفا أن اهتمام غريغوري بالدين قد بدأ منذ يوم الدفن، وانصرف إلى مطالعة المسائل الإلهية، مؤثراً في أغلب الأحيان المطالعة الصامتة والجلوس على انفراد، وكان دائماً يضع على عينيه نظارتيه الكبيرتين المستديرتين المحاطتين بإطار فضي. وقلما كان يقرأ بصوت مرتفع، إلا في أيام الصيام الكبير، وكان مغرماً بقراءة سفر أيوب[1] فهو حصل بطريقة ما على نسخة من أقوال وعظات «الأب التقي إسحٰق السوري»، وظل يقرأ هذا الكتاب باستمرار سنوات عديدة بدون أن يفقه شيئاً منه، ولعل ذلك ما جعل الكتاب أكثر قيمة في نظرة فمال إليه أكثر. وقد بدأ مؤخراً يصغي إلى عقائد طائفة «الفلاجيلان»[2] القاطنة في ناحيتنا. ومن الثابت أن تلك العقائد هزته هزاً، ولكن رأيه استقر على أنه من غير اللائق أن يتخلى عن مذهبه لاعتناق المذهب الجديد. وقد أضفت عليه عادة مطالعة الكتب الدينية طابعاً من الوقار المتزايد.

ولعل غريغوري كان يميل إلى التصوف، وقد رافقت ولادة طفله المشوه، ووفاته، حادثة عجيبة تركت ـ كما قال فيما بعد ـ أثراً لا يمحى في نفسه، وكأنها حدثت لغاية مقصودة. فقد حدث في الليلة التالية لوفاة طفله أن استيقظت مارفا على صوت بكاء طفل حديث الولادة. وقد فزعت وأيقظت

---

(١) يعرض سفر أيوب في التوراة إلى مشكلة الشر في العالم، وأن حلّها لا يكون إلا بالخضوع لله.

(٢) ظهرت هذه الطائفة في القرن الثالث عشر، وفي اعتقادهم أن الطريقة الوحيدة لتجاوز الخطيئة هي جلد الإنسان لنفسه حتى ينزف الدم من جسده.

زوجها، فأصاخ بسمعه وقال إنه يعتقد أن الصوت أشبه بالعويل، وقد يكون عويل امرأة. فنهض من فراشه وارتدى ثيابه. وكانت ليلة دافئة من ليالي شهر أيار. وخرج غريغوري وهبط درجات المدخل، فسمع بوضوح أصوات عويل تأتي من الحديقة. ودهش إذ إن الباب القائم بين صحن الدار والحديقة كان يقفل في الليل. ولا ممر آخر سواه إليها، لأنها كانت محاطة من جميع الجهات بسياج عال ومتين. فعاد غريغوري إلى المنزل وأشعل مصباحاً وأخذ مفتاح الباب. ثم عاد إلى الحديقة بصمت، دون أن يعبأ بمخاوف زوجه الهستيرية. وكانت مارفا لا تزال تؤكد أنها سمعت بكاء طفل، وأن ذلك الطفل كان يبكي ويدعوها إليه. وعندما بلغ الحديقة سمع لفوره أصوات العويل تنبعث من غرفة الحمام القائمة قرب الباب. ولا ريب في أن ما سمعه كان عويل امرأة. ولما فتح باب الحمام رأى منظراً جمد له الدم في عروقه. فقد شاهد الفتاة البلهاء التي كانت تهيم على وجهها في الشوارع ويطلق عليها جميع سكان البلدة كنية ليزافيتا سمردياستشايا (ليزافيتا المنتنة)، وساعة رآها غريغوري كانت قد دخلت غرفة الحمام ووضعت لتوها طفلاً، وعندما دخل كانت مستلقية تحتضر وطفلها إلى جانبها. ولم تقل شيئاً فإنها لم تستطع النطق طول حياتها. والحديث عنها يستحق منّا فصلاً منفرداً.

ليزافيتا

أحدثت هذه الحادثة هزة في كيان غريغوري وعزّزت شكاً كريهاً حقيراً كان يراود ذهنه. لقد كانت ليزافيتا هذه قصيرة القامة تشبه الأقزام. وبعد موتها، أخذت الكثيرات من العجائز التقيات يتحدثن بإشفاق عن قصر قامتها. وكان لها وجه عريض ممتلىء صحة ومصبوغ باللون الأحمر، تبدو فيه آيات البله التام. وكانت النظرات الجامدة الثابتة في عينيها، على الرغم مما كانت تعبر عنه من دعة، تثير الألم في النفس. وكانت هذه الفتاة تجوب الشوارع صيفاً شتاء وهي حافية القدمين لا ترتدي غير قميص مصنوع من الكتان. وكان شعرها الأشعث الفاحم تقريباً يبدو لتجعده كصوف الحملان ويشبه قبعة كبيرة على رأسها. وهو دائماً مكسو بطبقة من الأوحال، وتتخلله أوراق الشجر وقطع القش والعيدان، لأنها اعتادت النوم على الأرض وبين الأوساخ. وكان والدها إيليا رجلاً سكيراً متشرداً لا يملك مأوى. وعاش عدة سنوات كعامل في منزل بعض أصحاب الحرف الأثرياء. وكانت والدتها قد فارقت الحياة منذ زمن بعيد. وكان إيليا، وهو السقيم السيء الخلق، يضرب ليزافيتا ضرباً مبرحاً كلما عادت إليه. فكانت قلما تعود إليه، لأن جميع سكان البلدة كانوا يندفعون للاعتناء بها، فهم يرون في بلهها سبباً يقربها من الله، وكان سادة إيليا وكثيرون غيرهم من سكان البلدة، ولا سيما أصحاب الحرف والتجار يحاولون إلباسها ثياباً أفضل، وكانوا دائماً يلبسونها في رجليها أحذية ويردّونها معطفاً من جلد الخراف يدفئها مع حلول برد الشتاء. ومع أنها كانت تسمح لهم بإلباسها من غير أن تبدي مقاومة، فإنها كانت لا تلبث أن تنصرف عنهم، إلى مدخل الكاتدرائية في أغلب الأحيان، حيث تخلع جميع ما أعطيت، الخمار والمعطف والثوب والحذاء، وتتركه هناك وتعود إلى سابق عهدها من السير

حافية متسترة بثوب الكتان.

وحدث ذات مرة أن كان حاكم المقاطعة الجديد يقوم بجولة تفتيشية في بلدتنا، فوقع نظره على ليزافيتا، وتأثر تأثراً شديداً في أرق مشاعره. وقد قيل له أنها بلهاء، ولكنه مع ذلك أصرّ على أن تجوال فتاة في العشرين من عمرها في الشوارع بدون أن يستر جسمها شيء سوى ثوب واحد، هو انتهاك للأخلاق العامة ولا يجب تكراره، غير أن الحاكم سار في طريقه، وتركت ليزافيتا على حالها. وأخيراً مات أبوها، وقد جعلها يتمها أكثر قرباً إلى قلوب المتدينين من أهل البلدة، وكان يبدو في الواقع أن الجميع يعطفون عليها، حتى الصبيان امتنعوا عن مشاكستها ومضايقتها، مع أن صبيان بلدتنا، ولا سيما طلاب المدارس منهم، يؤلفون طغمة شريرة، وكانت ليزافيتا تدخل منازل غريبة عنها فلا يصدها أحد. ولم يكن هناك من لا يعطف عليها وينفحها بشيء ما. وكانت إذا أعطيت قرشاً أو أكثر تأخذه ثم تلقيه حالاً في صندوق الصدقات بالكنيسة أو السجن، وإذا أعطاها أحدهم رغيفاً من الخبز أو كعكة في السوق، ناولتها إلى أول طفل يصادفها في طريقها، وكانت في بعض الأحيان توقف سيدة من أغنى سيدات المدينة وتعطيها إياها فتأخذها السيدة مسرورة، أما هي فكانت لا تذوق شيئاً سوى الخبز الأسود والماء. ولم يكن أحد ليفكر بمراقبتها إذا ما دخلت حانوتاً فاخراً حيث تكون السلع النفيسة والنقود الكثيرة في متناول اليد، لأنهم كانوا يعلمون أنها لا تمد يدها إلى فلس واحد لو رأت آلاف الروبلات المتروكة بدون رقيب. ولا يذكر أحد أنها ذهبت إلى الكنيسة. وكانت تنام في مدخل الكنيسة أو تتسلق أحد الحواجز الخشبية (ولا تزال هذه الحواجز تقوم مقام الكثير من السياجات في بلدتنا حتى يومنا هذا) إلى حديقة مطبخ أحد المنازل لتقضي ليلتها فيها، وكانت تتردد في الصيف «إلى المنزل» مرة واحدة في الأسبوع على أقل تقدير، وأعني بالمنزل، منزل سادة والدها السابقين. أما في فصل الشتاء فكانت تذهب إليه كل مساء، وتنام إما في الممر أو في الاسطبل. وكان الناس يستغربون قدرتها على احتمال مثل هذه الحياة، ولكنها تعودتها. ومع أنها كانت ضئيلة الجسم فإنها كانت قوية البنية. وقد صرح بعض سكان البلدة الذين يعيشون حياة هانئة

بأن الكبرياء كانت الباعث على جميع تصرفاتها، ولكن هذا مما يصعب على العقل تصديقه، فقد كانت عاجزة عن النطق وأكثر ما يمكنها أن تهمهم بأصوات غير مفهومة. فكيف يصح بعد هذا أن يقال أنها متكبرة؟.

وفي ليلة صافية دافئة ومقمرة من ليالي شهر أيلول (حدث هذا قبل سنوات عدة) كان خمسة أو ستة من السكارى المعربدين، عائدين من المقصف في ساعة متأخرة من الليل، نسبة إلى ما هو من عاداتنا. وقد سلكوا «الطريق الخلفي» التي تمر بين حدائق المنازل الخلفية، وتقوم الحواجز الخشبية على كلا جانبيها. وتؤدي هذه الطريق إلى الجسر القائم فوق البركة الطويلة الكريهة الرائحة التي تعودنا أن ندعوها نهراً. وقد شاهد هؤلاء المعربدون ليزافيتا غافية بين العواسج والأعشاب النامية تحت الحاجز الخشبي، على حافة الجسر. فوقفوا ينظرون إليها وهم يضحكون قهقهة ويتمازحون بشهوانية وبذاءة. وفجأة خطر على بال أحد السادة الشباب أن يسأل عما إذا كان أحد من الناس يستطيع أن ينظر إلى مثل هذه البهيمة نظرته إلى امرأة، في لحظتهم تلك وهلم جرا... فأكد الجميع بترفع وتقزز أن ذلك مستحيل. ولكن فيودور بافلوفيتش الذي كان أحد أفراد الجماعة، اندفع معلناً أن ذلك ليس مستحيلاً بحال من الأحوال. وأن الأمر في الواقع لا يخلو من إثارة وطرافة، وهلم جرا... والحقيقة إنه كان عندئذ يبالغ في تمثيل دوره المجوني. وكان يحب أن يكون لامعاً ومقدماً، وأن يسلي الجماعة، متظاهراً بطبيعة الحال أنه على قدم المساواة معهم، وإن كان في الواقع دونهم. لقد كان مبالغاً في مجونه حتى أنه عندما نعيت إليه زوجه الأولى التي توفيت في مدينة بطرسبورغ، وضع شارة الحداد على قبعته وراح يعاقر الخمر ويسلك سلوكاً مشيناً، مما جعل أكثرنا تهوراً يرتعد لرؤيته. وقد ضحك المعربدون بطبيعة الحال لذلك الرأي المباغت، وقام أحدهم يشجعه على تنفيذه وكأنه يتحداه. أما الآخرون فقد أصروا على اشمئزازهم من الفكرة، ولو أنهم أمعنوا في مرحهم الصاخب. ومضوا أخيراً في سبيلهم. وقد أقسم فيودور بافلوفيتش فيما بعد أنه ذهب معهم، ولعله كان صادقاً، ولكن أحداً لم يعرف الحقيقة ولن يعرفها، ولكن البلدة من أقصاها إلى أقصاها كانت بعد خمسة أو ستة

أشهر، تتحدث باشمئزاز عظ...
الوغد. ثم سرت فجأة ...
يكن سوى فيودور ...
زمرة السكارى، ...
منهم بين ...
عظيم ...
...معراً

القصة حتى ... ل من عربته، لبث
إلى فيودور بافلو... كنه رغم قلقه لم
يكن ليهتم بموقف هؤ... القرار، بل بادر
الأيام متكبراً يترفع عن ... لده في غرفة
الموظفين والنبلاء، الذين كان ... يجد جواباً
... صيحات
... خوف
... أكثر
... في

وقد هب غريغوري عندئذ ينافح ...
شتم المتحاملين عليه وأثار عدة مشاجرا...
إقناع بعض الناس واكتسابهم في صفه. وقد أ...
وأن المعتدي ليس غير قاطع الطرق كارب» وهو م...
اسمه معروفاً لدينا لأنه اختبأ في بلدتنا. وقد بدا هذا ا...
أبناء البلدة تذكروا أن كارب كان في ليلة الحادث من...
منطقتنا، وسلب ثلاثة أشخاص. ولكن هذا الحادث وما رافقه...
كثيرة لم يخفف من عطف الناس على البلهاء المسكينة، بل العكس...
يعطفون عليها أكثر من ذي قبل. وقد أوتها زوج تاجر ثري يدعى كوندراتيـ...
في منزلها في نهاية شهر نيسان، وقررت أن تبقيها فيه حتى تضع مولودها. وكانت تراقبها مراقبة مستمرة ولكن بالرغم من هذه المراقبة اليقظة، فقد تمكنت الفتاة من الهرب في آخر يوم من أيام حملها وقصدت إلى حديقة منزل فيودور بافلوفيتش. أما كيف استطاعت وهي على تلك الحال أن تتسلق السياج المتين المرتفع، فقد ظلّ سراً بدون حل. وكان البعض يعتقد أن شخصاً ما قد رفعها إلى أعلى السياج، وألمح آخرون إلى أمور خفيّة بعيدة عن العقل. وأقرب التعليلات إلى التصديق هو أن الأمر وقع بصورة طبيعية فإن

أشهر، تتحدث باشمئزاز عظيم عن أن ليزافيتا حامل، وتحاول معرفة الجاني الوغد. ثم سرت فجأة في سائر أنحاء البلدة شائعة تفيد أن ذلك الوغد لم يكن سوى فيودور بافلوفيتش. ترى من الذي أطلق الشائعة؟ كان خمسة من زمرة السكارى العائدين في تلك الليلة من أيلول قد غادروا البلدة. ولم يبق منهم بين ظهرانينا سوى رجل متقدم له ابنتان صبيتان، وكان يتمتع باحترام عظيم كونه عضواً في المجلس البلدي. ومن العسير أن يكون هو الذي أشاع القصة حتى ولو كان لها أساس ما. ومع ذلك فإن الشائعة كانت تشير صراحة إلى فيودور بافلوفيتش، دون أحد سواه. وقد استاء فيودور بافلوفيتش فعلاً، ولم يكن ليهتم بموقف هؤلاء العامة من الصناع ولا بالرد عليهم، فقد كان في تلك الأيام متكبراً يترفع عن التحدث إلى أحد ممن لا ينتمي إلى طبقته من الموظفين والنبلاء، الذين كان يحرص على تسليتهم وإضحاكهم.

وقد هب غريغوري عندئذ ينافح عن سيده بكل ما يملك من قوة. وقد شتم المتحاملين عليه وأثار عدة مشاجرات وملاسنات دفاعاً عنه ونجح في إقناع بعض الناس واكتسابهم في صفه. وقد أكد «أن الذنب كان ذنب الفتاة، وأن المعتدي ليس غير قاطع الطرق كارب» وهو مجرم فر من السجن وكان اسمه معروفاً لدينا لأنه اختبأ في بلدتنا. وقد بدا هذا التخمين مقبولاً، إذ أن أبناء البلدة تذكروا أن كارب كان في ليلة الحادث من شهر أيلول في منطقتنا، وسلب ثلاثة أشخاص. ولكن هذا الحادث وما رافقه من ثرثرات كثيرة لم يخفف من عطف الناس على البلهاء المسكينة، بل العكس صاروا يعطفون عليها أكثر من ذي قبل. وقد أوتها زوج تاجر ثري يدعى كوندراتييف في منزلها في نهاية شهر نيسان، وقررت أن تبقيها فيه حتى تضع مولودها. وكانت تراقبها مراقبة مستمرة ولكن بالرغم من هذه المراقبة اليقظة، فقد تمكنت الفتاة من الهرب في آخر يوم من أيام حملها وقصدت إلى حديقة منزل فيودور بافلوفيتش. أما كيف استطاعت وهي على تلك الحال أن تتسلق السياج المتين المرتفع، فقد ظلّ سراً بدون حل. وكان البعض يعتقد أن شخصاً ما قد رفعها إلى أعلى السياج، وألمح آخرون إلى أمور خفيّة بعيدة عن العقل. وأقرب التعليلات إلى التصديق هو أن الأمر وقع بصورة طبيعية فإن

ليزافيتا قد تعودت تسلق الحواجز الخشبية والنوم في الحدائق فتمكنت بطريقة ما أن تتسلق السياج بالرغم من حالتها ثم قفزت من أعلاه وألحقت الأذى بنفسها.

وقد هرول غريغوري إلى مارفا وكلفها العناية بليزافيتا بينما أسرع هو لإحضار قابلة عجوز كانت تسكن في جوارهم، وقد أمكن إنقاذ الطفل، أما ليزافيتا فقد قضت نحبها عند الفجر.

أخذ غريغوري الطفل إلى منزله وطلب إلى زوجه أن تجلس ووضعه في حجرها وقال: «طفل من الله، فاليتيم قريب الجميع ونحن أولى به. لقد بعث إلينا فقيدنا الصغير بهذا الطفل الذي ولد لأب شرير وأم صالحة بريئة. أرضعيه وكفي عن البكاء».

وهكذا تولت مارفا تربية الطفل وسمّي عند العماد باسم بافل، وبالنسبة إلى اسمه الأبوي، فقد أجمع الناس على أن يضيفوا إلى هذا الاسم كلمة فيودوروفيتش (ومعناها ابن فيودور). ولم يعترض فيودور بافلوفيتش على شيء من ذلك بل اعتبر الأمر من قبيل التسلية مع أنه بقي متمسكاً بإصراره على التنصل من مسؤوليته. وقد استراح أهل البلدة لتبنيه الطفل اللقيط. واشتق فيودور بافلوفيتش فيما بعد لقباً للطفل فدعاه سميردياكوف نسبة إلى الكنية التي كانت تطلق على أمه.

وهكذا صار سميردياكوف هذا، الخادم الثاني لفيودور بافلوفيتش. وكان، في بداية أحداث هذه القصة يعيش في منزل الخدم مع غريغوري ومارفا وتم تعيينه طاهياً.

ضروري أن أذكر شيئاً عن سميردياكوف هذا ولكنني أخجل من توجيه اهتمام قرائي مدة طويلة إلى أولئك الخدم العاديين، ولذلك سأعود إلى سرد قصتي على أمل أن تحين الفرصة وأقول المزيد عن سميردياكوف في سياقها.



اعترافات قلب كسير ــ شعراً

عندما سمع أليوشا والده يصدر إليه أوامره بصوت عال من عربته، لبث واقفاً في مكانه برهة من الزمن وقد أخذته الحيرة الشديدة. ولكنه رغم قلقه لم يتسمّر في مكانه جامداً، فهو يتمتع بقدرة حاضرة على اتخاذ القرار، بل بادر لتوه إلى الذهاب نحو مطبخ رئيس الدير ليسأل عما كان يفعله والده في غرفة المائدة، ثم سرعان ما انطلق في طريقه وهو مؤمن بأنه أثناء سيره سيجد جواباً شافياً لشكوكه التي كانت تعذبه. ويجب أن أسارع إلى القول أن صيحات والده وهو يأمره بالعودة إلى المنزل «مع مفرشه ووسادته» لم تثر فيه أي خوف قط، فلقد كان يعلم علم اليقين أن تلك الصيحات القوية والقاطعة ليست أكثر من تظاهر بالتهديد يراد به التأثير. وقد ذكره هذا بأحد أصحاب المهن في بلدتنا، إذ بينما كان يحتفل بعيد شفيعه مع أصدقائه غضب غضباً شديداً إذ مُنع عن تناول المزيد من الفودكا فحطم أوانيه الخزفية وحطم أثاث منزله ومزق ثيابه وثياب زوجه، ثم ختم ذلك بتكسير نوافذه، وكل هذا كان في سبيل إحداث التأثير. وقد ندم في اليوم التالي بطبيعة الحال، عندما ثاب إلى رشده، على ما أقدم عليه وأخذ يندب أقداحه وصحونه المحطمة. لقد حدّث أليوشا نفسه بذلك وماثل به فعل أبيه، فهو يعلم إذن بأن والده سيأذن له بالعودة إلى الصومعة منذ الغد بل في مساء ذلك اليوم بالذات. وفضلاً عن ذلك، فقد كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأن والده لن يسبب له خاصة الإساءة والحزن. وكان أليوشا متيقناً من أنه ما من إنسان في العالم بأسره يريد له الأذى، وأكثر من هذا كان يعلم أنه ما من إنسان يمكنه أذيته ولو أراد. لقد كان هذا بالنسبة إليه أمراً مسلماً به بدون جدال. ولذلك فقد انطلق في طريقه ثابتاً لا يعرف التردد معتمداً على هذا الاعتقاد.

ولكنه في تلك اللحظة كان يحس بقلق من نوع آخر فتضطرب له نفسه، ومما زاده اضطراباً أنه لم يتبين طبيعة هذا القلق. وقد كان مرده إلى الخوف من امرأة، من كاترينا إيفانوفنا، التي توسلت إليه بإلحاح في الورقة التي أرسلتها إليه بواسطة مدام خولاكوف، أن يذهب إليها من أجل أمر لم تحدده. وقد أهاج هذا الطلب وضرورة الذهاب إليها، في قلبه شعوراً بالهم والضيق. وكان شعوره هذا يزداد طيلة ذلك الصباح رغم المشاهد التي تعاقبت عليه في صومعة الناسك وغرفة الأب رئيس الدير. ولم يكن مبعث قلقه الجهل بما ستقوله هذه المرأة وما ينبغي عليه أن يجيب به، فهو لا يخشاها كونها امرأة، إذ أنه رغم معرفته القليلة بالنساء، فهو قد قضى حياته كلها منذ أيام طفولته حتى دخوله الدير برفقة النساء، بل إنه كان يخشى فيها كاترينا إيفانوفنا بذاتها. ولقد امتلأ قلبه بالخوف منها منذ أن شاهدها لأول مرة. وهو لم يرها أكثر من مرتين أو ثلاث مرات ولم يتبادلا سوى كلمات قليلة. ولقد كان يرى فيها فتاة جميلة مترفعة متسلطة. ولم يكن جمالها هو الذي أقلقه بل كان شيئاً آخر. وكان قلقه يزداد مع عدم تمكنه من إدراك حقيقة هذا القلق فمما لا شك فيه أن غايات الفتاة من أنبل الغايات، فلقد كانت تحاول أن تنقذ أخاه ديمتري بدافع من الشهامة والكرم، مع أنه كان قد أساء معاملتها. ولكن أليوشا مع إدراكه لتلك الغايات السامية الرفيعة واعترافه بنبل دوافعها لم يتمكن من وقف رعشة أخذت تنساب في ظهره مع اقترابه من بيتها.

وقد حسب أليوشا أن أخاه إيفان، وهو صديقها الحميم لن يكون عندها، فهو مع أبيه ولا شك. وكان أليوشا على ثقة أكبر من أنه لن يجد ديمتري في منزلها، لسبب يتكهن به. وهكذا فإن حديثه معها سيكون على انفراد. ولقد كانت رغبته قوية أن يرى أخاه ديمتري قبل أن يقابلها تلك المقابلة الحاسمة. وتمنى لو كان يستطيع أن يعرج ويتبادل الرأي معه بشأن هذه المقابلة دون أن يطلعه على الرسالة طبعاً، لكن منزل ديمتري كان بعيداً، فضلاً عن أنه لو سار إليه لما وجده في منزله. ثم توقف دقيقة، اتخذ فيها قراراً نهائياً. ورسم شارة الصليب بحركة عفوية سريعة وابتسم ثم دار ومضى ثابت الخطى نحو بيت السيدة الرهيبة.

كان أليوشا يعرف مكان منزلها، فرأى أن سلوكه طريق الشارع الصاعد ثم اجتيازه السوق يطيل المسافة، صحيح أن بلدتنا كانت صغيرة لكنها كانت مترامية الأطراف وبيوتها متباعدة. ولم ينس أن والده كان في انتظاره وربما لم يكن قد نسي ما أمره به، وأنه قد يحيد عن الرأي الصائب، ولذلك فقد رأى ضرورة الإسراع في الذهاب والإياب. لهذا كله قرر أن يختصر المسافة ويمضي إليها مجتازاً الطريق الخلفية، إذ كان يعرف الأرض شبراً شبراً، وقد فرض عليه ذلك أن يحاذي الأسيجة ويتسلق الحواجز ويجتاز ساحات البيوت الخلفية حيث كان جميع سكانها يعرفونه ويحيونه، وهكذا فهو سيوفر نصف الوقت للوصول إلى الشارع الصاعد.

كان على أليوشا أن يجتاز الحديقة المتاخمة لحديقة والده، والمحيطة بمنزل صغير متداعي الأركان ذي أربع نوافذ. وقد كان أليوشا يعرف أن صاحبة البيت امرأة عجوز معاقة تعيش فيه منذ سنة مع ابنتها التي كانت خادماً لدى أسر الجنرالات في مدينة بطرسبورغ. وكانت الفتاة دوماً ترتدي الثياب الجميلة رغم حاجتها وأمها مما جعلهما يستجديان يومياً من مطبخ فيودور بافلوفيتش الحساء والخبز اللذين كانت مارفا تتكرم بهما عليهما عن طيبة خاطر. ومع أن الشابة كانت تستجدي الحساء إلا أنها لم تبع واحداً من أثوابها، وأحدها ذو ذيل طويل، وذلك ما علمه أليوشا من راكيتين الذي كان مطلعاً على كل ما كان يجري في المدينة. وقد تذكر الآن ذلك الثوب وهو يقترب من الحديقة فرفع رأسه الذي كان قبل تلك الآونة مطرقاً به إلى الأرض مفكراً فأبصر شيئاً لم يكن يتوقعه.

لقد أبصر أليوشا أخاه ديمتري معتلياً شيئاً وراء سياج الحديقة وهو مائل إلى الأمام يناديه ويشير إليه بيديه إشارة عنيفة، وقد بدا عليه أنه يخشى النطق بأية كلمة خشية أن يسمعه أي إنسان، فلما رآه عدا نحوه.

وقال ميتيا هامساً وهو يبدو مبتهجاً متعجلاً: «لقد كان حسناً أن رفعت بصرك، فإني أوشكت أن أناديك. تسلق الحاجز أسرع! ما أعظم الظروف التي ساقتك! لقد كنت لتوي أفكر فيك».

ولقد ابتهج أليوشا أيضاً، ولكنه لم يكن يدري كيف يعتلي الحاجز،

فساعده ميتيا بتشله له بيده القوية وضم أليوشا جلبابه وزحف حتى بلغ أعلى الحاجز ثم قفز بخفة أبناء الأزقة الحفاة.

فقال ميتيا وهو يهمس متحمساً: «أحسنت، والآن هلم».

وبهمس مماثل أجابه أليوشا: «إلى أين»؟ ثم نظر حوله فرأى أنهما وحيدان في حديقة مهجورة. وكانت الحديقة صغيرة غير أن المنزل كان يبعد عنها مسافة خمسين خطوة على الأقل.

ثم عاد أليوشا إلى الكلام قائلا: «إنه لا يوجد أي إنسان هنا فلماذا تتكلم همساً»؟

فصاح ديمتري بأعلى صوته: فعلاً، لماذا أتكلم همساً! هل ترى تلك الحيل السخيفة التي تلعبها الطبيعة على الإنسان. إن وجودي هنا سر مكتوم، وأنا أقوم بالمراقبة. وسأوضح لك ذلك فيما بعد. ولكنني حفاظاً على السر أخذت أهمس كالأحمق في حين أنه لا حاجة بي إلى ذلك. هلم بنا إلى ذلك المكان. وإلى أن نصل، إلزم جانب الصمت. إنني أريد أن أقبلك.

المجد لله في العالم.

المجد لله في...

لقد كنت أردد هذا القول وأنا جالس هناك حين وصولك. كانت مساحة الحديقة تقارب الثلاثة أفدنة وقد غرست فيها الأشجار على امتداد السياج حول أطرافها الأربعة فقط. ومنها أشجار التفاح والحور والليمون، وهي تؤجر لقاء بضعة روبلات في الصيف. وغرست في الحديقة أيضاً أشجار التوت والقراصيا، وقد زرعت قرب المنزل مؤخراً بعض الخضروات.

قاد ديمتري أخاه إلى أنأى زوايا الحديقة حيث يقوم منزل صيفي أخضر متداعي الجوانب سودته الأيام، وسط مجموعة من أشجار المشمش والأعشاب الجافة والقراصيا السوداء. وجدران المنزل من الألواح الخشبية الدقيقة ويتداول الناس أنه منذ قبل حوالي خمسين عاماً بناه ضابط كبير في الجيش كان يدعى فون شميدت. والمنزل الآن خراب كله، فأرضه عفنة والواحة الخشبية متفككة تنبعث منها رائحة الندوة الكريهة. وكانت توجد فيه منضدة خشبية خضراء تحيط بها بعض المقاعد الخشبية الخضراء ما زالت صالحة للجلوس عليها.

وقد لاحظ أليوشا علائم الانشراح البادية على أخيه، فلما دخل وإياه العريشة أبصر على المنضدة زجاجة مملوءة إلى نصفها بشراب البراندي وبجانبها كأس.

قال ميتيا مخاطباً أخاه ضاحكاً: «إن هذا براندي. أراك تنظر وتقول في سرك: لقد عاد إلى الشراب. ولكن لا تجعل المظاهر تأخذك. لا تؤمن بما يقوله جمهور السخفاء الكاذبين، وتخلص من أوهامك. إنني لا أشرب بل «أستسلم لأهوائي» كما يقول ذلك الخنزير راكيتين صديقك. إنه سيصبح عضواً في المجلس البلدي ذات يوم ولكنه سيظل يتحدث عن «الاستسلام للأهواء». اجلس. إن بوسعي أن أعانقك بين ذراعي يا أليوشا وأضمك إلى صدري حتى أسحقك، لأنني في هذه الدنيا بأسرها (هل تصدقني إذا قلت لك؟) يقيناً، يقيناً، لا أحب أحداً غيرك.

وقد فاه ديمتري بالكلمات الأخيرة بصوت فيه تأثر وانتشاء. ثم تابع: «لا أحد سواك وامرأة عابثة، وقعت في غرامها، وأنا أعلم أنها تقودني إلى الخراب. غير أن الوقوع في الغرام لا يعني العشق. فإنك يمكن أن تهوى امرأة ولكنك مع ذلك تكرهها. أذكر ذلك! إنني ما زلت قادراً على أن أتحدث بانشراح عن مثل هذا الأمر. إجلس إلى هذه المنضدة وسأجلس قربك. وستظل أنت هادئاً وسأمضي أنا في الكلام، فإن الأوان قد آن. ولكن الأفضل أن أتكلم بهدوء لأن الإنسان هنا لا يستطيع أن يأمن الآذان التي تسترق عليه السمع. إنني سأوضح كل شيء لماذا كنت أتوق إليك؟ ولماذا كانت تتعطش روحي إليك طوال هذه الأيام بل في هذه اللحظة؟ (أنا هنا منذ خمسة أيام) لأنني لك وحدك أستطيع أن أفضي بجميع مكنونات صدري، ولأنني يجب أن أفضي إليك بها، ولأنني في حاجة إليك، ولأنني غداً سأنطلق من الغيوم، وغداً ستتجدد الحياة. هل سبق أن شعرت أو حلمت كأنك تتردى من أعلى الهاوية إلى الوادي السحيق؟ إن هذه هي سقطتي ولكن ليس في الحلم. لأنني لست خائفاً فلا تخف أو قل إنني خائف ولكنني أتلذذ بهذا الخوف. بل أن ما أشعر به ليس لذة بل نشوة وهياماً. وتباً لكل ذلك مهما كان! وسواء أكانت روحاً قوية أو خائرة أو ضعيفة كروح المرأة، مهما كان نوع هذه

الروح! فلنمجد الطبيعة؛ هل ترى ما أروع الشمس وما أصفى الجو. إن الفصل صيف وما زالت جميع الأوراق خضراء؛ والوقت هو الساعة الرابعة بعد الظهر وكل شيء ساكن! إلى أين كنت ذاهباً؟.

ـ لقد كنت ذاهباً إلى منزل أبي، ولكنني رأيت أن أعرج على منزل كاترينا إيفانوفنا أولاً.

ـ إليها، وإلى منزل أبي! أواه! أية مصادفة! لماذا كنت في انتظارك! أتدري لماذا؟ كنت متحرقاً إليك في كل نبضة من نبضاتي، وكل جارحة من جوارحي؟ ذلك لأنني كنت أود أن أرسلك إلى أبي وإليها، كاترينا إيفانوفنا لتكون كفءاً لهما. لقد أردت أن أرسل ملاكاً، كان في مقدوري أن أرسل أي إنسان، ولكنني أردت أن أرسل ملاكاً. وها أنت ذا تذهب إليهما معاً.

فقال أليوشا وقد ظهرت عليه علامات الابتئاس: «هل كنت حقاً تنوي إرسالي؟».

ـ مهلاً! إنك تعلم ذلك! ولقد لاحظت أنك أدركت الأمر فوراً. ولكن هدىء من روعك، تمهل قليلاً. لا تبد أسفاً ولا تذرف دمعاً.

ثم نهض ديمتري من مكانه وأطرق هنيهة ووضع إصبعه على جبينه مفكراً وقال: «هل أرادتك في شيء، أو كتبت إليك رسالة أو نحوها، وهل هذا هو ما يحملك على الذهاب إليها؟ لعلّك لما كنت تذهب لولا ذلك؟.

فأخرج أليوشا البطاقة من جيبه وقال: «ها هي مذكرتها». فألقى عليها ميتيا نظرة سريعة، وقال:

«قد اخترت لذهابك الطريق الخلفية! شكراً لك يا رب على إرساله من الطريق الخلفية، فلقد بعثته إليّ كما بعثت السمكة الذهبية إلى الصياد الأحمق العجوز في الأسطورة! أصغ إلي يا أليوشا، أصغ يا أخي! لأنني الآن أريد أن أنبئك بكل شيء، لأنني يجب أن انبيء إنساناً ما. لقد فتحت قلبي لملاك في السماء، ولكنني أريد أن أفتحه لملاك على الأرض. وأنت هو هذا الملاك. إني أريد أن تسمع وتحكم وتصفح وأن يكون إنسان أسمى مني يصفح عني، أصغ إلي! لو أن اثنين انطلقا من كل شيء على ظهر هذه الأرض وحلقا في المجهول، أو واحداً منهما على الأقل، وقبل أن يحلق هذا الإنسان أو ينساق

نحو الدمار، جاء إلى إنسان ما، وقال له: أسد لي معروفاً ورجاه أن يقوم له بخدمة لا يطلبها أحد من أحد، لأنها من نوع ما يطلبه المحتضر على فراش موته، فهل يرفض ذلك الإنسان هذا الطلب إذا كان صديقاً أو أخاً»؟ فقال أليوشا: «إنني سألبي طلبك ولكن أسرع وقل ما هو».

ـ هل أسرع!... لا تتعجل يا أليوشا، إنك تتعجل وتشغل بالك فلا داعي للتسرع الآن. أواه يا أليوشا من المؤسف أنك لا تفهم معنى «النشوة»، ولكن أي قول هذا الذي ألقيه في أذنيه؟ كأنه لا يفهم معنى النشوة. يا لي من أحمق. ما هذا القول الذي أقوله: «كن نبيلاً أيها الإنسان»! ومن قائله؟.

وعزم أليوشا على الانتظار. فلقد شعر بأن عمله في الحقيقة ربما كان هنا. أما ميتيا فقد استغرق في التأمل برهة وهو مسند مرفقه على المنضدة ورأسه على راحة يده. وظل الإثنان صامتين.

ثم قطع ميتيا حبل الصمت وقال مخاطباً أخاه: «أليوشا، إنك الإنسان الوحيد الذي لن يضحك من أقوالي. إنني أحب أن أبدأ «اعترافي» بقصيدة شيللر المعروفة باسم «ترنيمة إلى البهجة» ولكنني لا أعرف الألمانية، ولا أعرف من القصيدة غير عنوانها. إياك والظن بأنني أهذي من السكر، فلست ثملاً البتة. إن البراندي شراب جيد للغاية ولكن لا يسكرني منه أقل من زجاجتين حتى أصير مثل سيلينوس نادل الإله باخوس[1] وينطبق علي وصف الشاعر:

سيلينوس وخداه المتوردان

يترنح فوق حماره

غير أنني لم أشرب ربع زجاجة، ولست مثل سيلينوس مع أنني قوي، فلقد عقدت العزم على شيء ولن أتركه. تجاوز عن هذه التورية؛ وكثير غيرها عليك أن تتجاوزه مما يفوق عبارات التورية. لا تضق ذرعاً بي، إنني لا أضيع وقتك، بل أتكلم كلاماً فيه مغزى، وسأطرق الموضوع فوراً، ولن أتركك نهب الشكوك. مهلاً كيف تمضي القصيدة»؟

---

(١) هو إله الخمر عند الرومان.

ثم رفع رأسه وفكر دقيقة واندفع يقول متحمساً:

اختبأ الناسك خائفاً وجلاً
شبه عارٍ في المغارة
وهام الرحال المشرد
ينشر الخراب في المروج والغابات
وكان الصياد مسلحاً برمح وبسهام
يبث الدمار في كل القلوب
فبؤساً لجميع المساكين الذين جنحت بهم سفينتهم
على تلك الشطآن الغريبة القاسية.
ومن قمة جبل أوليمبوس الشاهقة
هبطت الأم سيريس من عليائها
تبحث عن ابنتها الضالة بروسيربين
ولكن الربة لم تجد لها ملجأ،
ولم تلق ترحيباً يليق بربة
عبثاً هي تبحث عن هيكل
تعبد فيه الأرباب
أين ثمار الحقول والكروم
ليست في مآدب البطولات
بل كانت هنالك أجساد القرابين الدامية
تأكلها نيران المذابح،
وتأملت الربة الحزينة
بنظرتها الكئيبة، كل مكان
حيث الإنسان في ذلّ وهوان
منحط في رذائله فينال شديد العذاب

وهنا انخرط ميتيا في البكاء والنحيب وقبض على يد أليوشا وهتف قائلاً: «يا عزيزي، يا عزيزي، هنا أيضاً، وأنا في حمأة الانحطاط. يا للشقاء

العظيم الكامن للإنسان على الأرض، يا لمصيبته الكبرى. لا تجدني مجرد ضابط فظّ منغمس في الأقذار والشراب. إنني لا أكاد أفكر في أي شيء سوى ذلك الإنسان المنحط، هذا إذا لم أكن كاذباً، إنني أبتهل إلى الله ألا أكون كاذباً متظاهراً، إنني أفكر بذلك الإنسان لأنني هو.

«فإذا أراد من الرذيلة أن يطهر
ويعود إلى النور والفضيلة من جديد
لا بد أن يتحول ويتشبث دائماً
بأمه الأرض إلى الأبد».

ولكن وجه الصعوبة هو كيف أستطيع أن أتشبث بأمي الأرض إلى الأبد؟ إنني لا أفلحها ولا أزرعها. فهل ينبغي علي أن أصبح فلاحاً أو راعياً؟ إنني ماض في طريقي ولست أدري ما إذا كنت مسوقاً إلى العار أم إلى النور والبهجة.

تلك هي المشكلة لأن كل ما في الأرض لغز! وكلما فرضت عليَّ الظروف الانغماس في الدرك الأسفل من الانحطاط (وذلك يحدث دائماً) أعيد قراءة القصيدة عن سيريس والإنسان. فهل قادتني إلى الهدى والإصلاح؟ أبداً! فأنا ابن كرامازوف. ولأنني عندما أتردى في مهاوي الرذيلة أنغمس فيها إلى قمة رأسي وأشعر بنشوة الانحطاط. وفي أعماق الرذيلة أتلو نشيد التمجيد. لأكن ملعوناً، ولأكن دنساً حقيراً، ولكن دعني ألثم طرف الحجاب الذي يخفي عن عيني نور ربي، ومع أنني أتبع خطوات الشيطان فإنني ما زلت إبنك يا إلهي أحبك وأشعر بالبهجة التي لا استمرار للحياة بدونها.

إن روح الخليقة جمعاء
تحيا بمحبة الله الأبدية
وبها تبقى أعماق الحياة
مضاءة بشعلة الخلود
هي التي تنبت الأعشاب
وتحول عروقها الخضراء نحو النور

وتطورت المجموعات الشمسية
من الفوضى والليل البهيم
لكي تملأ الفضاء اللانهائي
فيعم الضياء الكائنات
وفي حضن الطبيعة الخير
تنعم الأحياء بالبهجة
وجميع الكائنات والشعوب
تعيش بما فيه وحده
ونعمتها على الإنسان، أصدقاؤه
وعلى الأزهار، عصارة حياتها،
وعلى الملائكة، نظرة إلى العرش المكين
وعلى الحشرات، شهوة الجسد»

ألا كفاني شعراً! فإن العبرات تخنقني، دعني أطلق لدموعي العنان. قد يكون في هذا حماقة تضحك الجميع أما أنت فلن تضحك مني فعيناك تتألقان يا أليوشا، كفاني شعراً. إنني أريد الآن أن أتحدث عن الحشرات التي وهبها الله شهوة الجسد. وفي الحشرة شهوة الجسد. إنني أنا تلك الحشرة يا أخي. وفيَّ أنا قيل هذا الشعر. ونحن أبناء كرامازوف جميعاً مثل هذه الحشرات، وهذه الحشرة تعيش فيك أنت أيضاً برغم ما فيك من صفة الملائكة، وستثير في دمك عاصفة هوجاء وعواصف، لأن شهوة الجسد عاصفة بل هي أعنف من العاصفة! إن الجمال شيء هائل مخيف! إنه هائل لأننا لم نفهمه ولن ندركه، لأن الله لا يفتح أبصارنا إلا على الألغاز. وهنا تتلاقى تخوم الأشياء جميعاً وتتجاوز المتناقضات، إنني لست إنساناً مثقفاً يا أخي ولكنني أمعنت التفكير في هذا الأمر. إن من الأمور الهائلة أن توجد كل هذه الأسرار: إنني أكون محطماً حين أجد نفسي مثقلاً بألغاز لا يحدها حصر. يجب أن نحلها ونخرج سالمي الرؤوس. الجمال! إن الشيء الذي لا أقوى على احتماله أن يعمد إنسان سامي العقل رفيع القلب إلى جعل مريم

العذراء مثالاً له في أول الأمر ثم يتخذ من سدوم مثالاً له في نهاية الأمر، وأنكى من هذا أن يجعل إنسان مثاله سدوم يمزج به روحه ثم يبقى متمسكاً بالعذراء. وقد يحترق قلبه بنار ذلك المثال، وهي نار حقيقية كالتي تلتهب في جوانحه أيام شبابه وبراءته. نعم إن مطامح الإنسان مسرفة في الاتساع وليته اختصرها، والشيطان وحده يعلم ماذا يكون من أمرها! إن ما يبدو معيباً للعقل، يبدو جمالاً وحسب للقلب. فهل هنالك جمال في بؤر سدوم؟ صدقني إن الجمال موجود في سدوم بالنسبة لغالبية البشر. هل أدركت ذلك السر؟ إن الشيء الرهيب هو أن الجمال سر غامض بقدر ما هو هائل. وبخصوصه يتصارع الله والشيطان وساحة الصراع هي قلب الإنسان. وعن عذابي من هذا الأمر إنما تحدثت هكذا. أصغ إلي الآن فسأتحدث عن الحقائق.



اعترافات قلب كسير ــ نثراً

كانت حياتي آنذاك مجرد لذة وعبث ولهو. ولقد قال والدي منذ برهة وجيزة أنني أنفقت بضعة آلاف الروبلات في إغواء الصبايا. إن ذلك افتراء قذر ولم يحدث ولو حصل فعلاً فإنه لم يكن يتطلب مالاً. فالمال شيء إضافي بالنسبة لي، وهو زيادة لما يتدفق من قلبي ويزين نزواتي. فقد أصطفي اليوم امرأة أمنحها كامل حبي، ولكنني لا ألبث أن أؤثر عليها في الغد عاهرة من بنات الشوارع. لقد اتسع قلبي للطائفتين وأنفقت أموالي جزافاً على الموسيقى والصخب والغجريات. وكنت في بعض الأحيان أنفقها على السيدات أيضاً وأنا أعترف بأنهن يتقبلن المال بجشع ويبتهجن به ويشكرن باذله. لقد حدث لي أن أحببت نساء، وعدد منهن لا كلهنّ أغرمن بي. لكنني كنت دائماً أتعشق المسالك المنزوية والأزقة الخلفية المظلمة وراء الشوارع الرئيسية، فالإنسان يجد فيها المغامرات والمفاجآت، التبر في التبن، إنني أقول هذا على سبيل المجاز يا أخي. وفي المدينة التي كنت أسكنها لم تكن هنالك أزقة خلفية بالمعنى الدقيق ولكن من الناحية المعنوية لم تكن تخلو منها. إنك لو كنت معي لعرفت ماذا يعني ذلك. لقد عشقت الرذيلة، حتى في دناءتها. وأولعت بالقسوة، أو لست حشرة، حشرة مؤذية؟ فأنا كما قلت لك سليل بيت كرامازوف!.

لقد انطلقت ذات مرة مع جماعة في نزهة على سبع عربات. وكان الوقت ظلاماً والفصل شتاء. فأخذت أضغط يد فتاة وأرغمتها على تقبيلي، وكانت ابنة أحد كبار الموظفين وهي فتاة حلوة مطواعة لطيفة. ولقد بذلت لي نفسها ولم تمنعني عن شيء في ظلمة الليل. وظنت تلك المخلوقة المسكينة أنني لا بد آت منذ الغد إليها خاطباً (لقد كان الناس يرونني خطيباً

ممكناً). ولكنني لم أحدثها بكلمة واحدة لمدة خمسة أشهر. وكنت أبصرها في الزوايا من حلبات الرقص (وكثيراً ما كنا نقيم حفلات للرقص) فألاحظ أنها تراقبني. وكنت أرى في عينيها ناراً تتوقد، نار الاحتقار الهادىء. وهذا كان يثير شهوة الحشرة التي في نفسي.

وبعد انقضاء خمسة أشهر تزوجت أحد الموظفين وغادرت المدينة غاضبة علي ولعلها ما زالت تحبني. وهي الآن تعيش مع زوجها عيشة سعيدة. لاحظ أنني لم أذكر ما حدث لي معها أمام أي إنسان ولم أفاخر به. لقد حرصت على حسن سمعتها، فأنا لست مجرداً من الشرف رغم أنني مملوء بالرغبات الدنيئة وأحب الخسة والدناءة. أراك تحمر خجلاً؛ وأبصر في عينيك وميض نار. كفاني إسفافاً في القذارة أمامك. وليس ما ذكرته لك بالشيء الكثير، إن هو إلا أزهار نامية على جانب الطريق ذكرتها على طريقة بول دي كوك. مع أن الحشرة قد تعاظمت في نفسي واستبدّت بها. إن لدي سجلاً حافلاً من صور الذكريات يا أخي، ليبارك الله أولئك الحبيبات. لقد كنت أحاول أن أقطع صلتي بهن بتفاهم، ولم أشهر بهن قط، ولم أتباهى بعلاقاتي معهن. ولكن كفى، إنني لم أحضرك إلى هذا المكان لمجرد التحدث إليك عن مثل هذا اللغو. كلا بل إنني سأتحدث إليك عن أمور أكثر إثارة للغرابة، ولا تعجب إذا رأيتني التذّ بهذه الذكريات بدلاً من شعوري بالخجل».

فقال أليوشا فجأة: «إنك تقول هذا بسبب احمرار وجهي، إن هذا الإحمرار ليس بسبب الخجل من أخبارك، ولا من تصرفاتك، بل لكوني مثلك في الصفات».

ـ أأنت، مثلي؟ إن هذا شطط عظيم!.

فاندفع أليوشا يقول بحرارة، (وكان من الواضح أن الفكرة كانت تراوده من قبل): «كلا إنه ليس شططاً عظيماً، فالسلم الذي نصعده واحد، وأنا في أسفله وأنت أعلى مني بحوالي ثلاث عشرة درجة. هكذا أنظر أنا إلى الأمر، فحالتنا واحدة، في جوهرها. ومن انطلق في أسفل السلم لا بد وأن يصل إلى أعلاه».

ـ إذن فينبغي على المرء أن لا يطأ درجات السلم أبداً.

ـ من استطاع ذلك فخير له أن لا يطأ السلم.

ـ ولكن هل تستطيعه أنت؟

ـ أظن أنني عاجز عن ذلك.

صه، صه، يا حبيبي أليوشا! أقبل يديك، إن كلامك يثير عاطفتي وحناني. إن تلك العابثة غروشينكا ذات شغف بالرجال، ولقد أنبأتني مرة بأنها ستلتهمك ذات يوم كاللقمة، ولكنني لن أدعها تفعل. فلننتقل من الحديث عن هذه البؤرة العفنة التي يحوم فوقها الذباب إلى سر مأساتي التي هي أيضاً معجونة بالحقارة. إن أبي العجوز كان كاذباً فيما قاله عن إغوائي البريئات، والحق أن شيئاً من هذا القبيل حدث في مأساتي ولو أنه حدث مرة واحدة، وفي تلك المرة لم يكن الإغواء تاماً. إن العجوز الذي ألصق بي ما لم أجنه أبداً، لا يعلم شيئاً عن هذه الحقيقة فإنني لم أنبيء بها أحداً، وأنت أول من يطلع عليها ـ بعد إيفان طبعاً ـ لأن إيفان يعلم كل شيء. ولقد أعلمته بها قبل مدة طويلة، ولكنه كتوم كالقبر.

ـ أحقاً أن إيفان كتوم كالقبر؟

ـ نعم.

وأصغى أليوشا بانتباه عظيم بينما تابع أخوه ديمتري كلامه قائلا: «لقد كنت برتبة ملازم في إحدى السرايا المقاتلة ولكنني كنت ما أزال موضوعاً تحت المراقبة كالمجرم. ومع ذلك فقد كان سكان المدينة الصغيرة ـ حيث يقوم المعسكر ـ يستقبلونني بترحيب عظيم. وقد بددت أموالي بغير حساب. وكانوا يظنونني ثرياً، بل أنني أنا أيضاً ظننت نفسي كذلك. ولكن لا ريب في أنني أدخلت على نفوسهم السرور بوسائل أخرى أيضاً غير المال. وقد دحضوني محبتهم على كل حال. وفجأة وجدت الكولونيل العجوز الذي أخدم تحت أمرته نافراً مني قاسياً معي، ولكنني كنت أتمتع بتأييد الأصدقاء الأقوياء، ومعاضدة سكان المدينة لي مما منعه من أن يوقع بي أذى عظيماً. ولقد كنت مخطئاً لأنني لم أكن أعامله بما يليق به من الإحترام بل كنت معتداً بنفسي. وكان لذلك الرجل العجوز العنيد، ذي الجوهر الطيب والقلب الرحيم والنفس الكريمة، زوجتان كلتاهما ماتت. كانت الأولى من أسرة فقيرة،

وقد أنجبت له ابنة متواضعة ساذجة كأمها. كانت آنذاك في الرابعة والعشرين، وكانت تعيش في كنف أبيها مع خالتها وهي ساذجة أمية.

أما الفتاة فكانت برغم سذاجتها تتدفق حيوية. إنه يطيب لي أن أذكر الناس بالخير. ولم يتفق لي أن تعرفت إلى امرأة تفوق أغافيا رقة شمائل وسحر خلال. تصور أن اسمها كان أغافيا إيفانوفنا! ولم يكن منظرها منفراً ولو أن جمالها كان ذا طابع روسي: خشنة تقاطيع الوجه؛ جميلة العينين، طويلة القامة صلبة العود ممتلئة الجسم. وكانت عزبة رغم أن اثنين من الخطاب تقدما لطلب يدها فرفضتهما ولكنها كانت دائمة المرح. وكنت أتودد إليها، ليس على غرار «ذلك الود»، بل إن علاقتي بها كانت مبنية على الصداقة النقية. وكثيراً ما كنت أصادق النساء مصادقة بريئة. وكان يحلو لي أن أتحدث إليها بصراحة متناهية فكانت لا تقابلني إلا بالضحك. إن الكثيرات من النسوة يحببن التنعم بمثل هذه الصراحة، وكان ما يسليني أنها عدا ذلك فتاة. أضف أن هذه الفتاة لا يمكنك الظن بأنها سيدة صغيرة السن فقد كانت تعيش مع خالتها في منزل والدها عيشة الاستسلام الطوعي، فهما لم تكونا تريان نفسيهما متكافئتين مع بقية الناس. وكانت محببة أثيرة على الجميع إذ كانت خياطة حاذقة موهوبة، وتقوم بخدمة الناس مجاناً لا تطلب من أحد أجراً ولكنها ما كانت ترفض بعض المال ممن يعرضه عليها. أما والدها الكولونيل فقد كان من نوع آخر يختلف عنها تماماً، إذ كان من كبار الشخصيات في المقاطعة. وكان منزله مفتوحاً أمام جميع سكان المدينة فيتعشون على مائدته ويحيون الحفلات الراقصة. ولدى وصولي إلى المدينة والتحاقي بفوج ذلك الكولونيل كانت المدينة كلها تتحدث عن قرب عودة ابنة الكولونيل الثانية ذات الجمال الباهر التي أنهت دراستها في إحدى المدارس الداخلية الراقية في العاصمة. وهذه الابنة الثانية هي كاترينا إيفانوفنا أنجبتها زوج الكولونيل الثانية التي كانت تنتمي إلى أسرة جنرال بارز، ومع ذلك فإنها لم تجلب معها لزوجها بائنة كما أفادني مصدر موثوق. وكانت طويلة الباع، ولكن لا مال لديها، وربما كان الكولونيل يتوقعه منها لاحقاً، ولم يأت توقعه في محله.

وعندما جاءت هذه الشابة من مدرستها الداخلية لزيارة المدينة، بعثت

فيها الحياة، وهبت أبرز نسائها، وكن اثنتان من صاحبات الفخامة، وزوجة كولونيل، وتبعتهن بقية السيدات يتسابقن في تكريمها وإقامة المآدب على شرفها. وأصبحت الفتاة نجمة السهرات والنزهات، وأقامت النساء حفلة تمثيلية يعود ريعها لمربيات الأطفال المنكودات.

لم أهتم أنا بكل ذلك وظللت سادراً في غوايتي الجامحة، وأخذت المدينة من أقصاها إلى أقصاها تتحدث عن واحدة من فضائحي. وفي ذات أمسية رأيتها في منزل قائد البطارية تتفرس فيّ. ولم أبادر إلى تقديم نفسي لها وكأنني كنت كارهاً التعرف عليها. وفي سهرة أخرى جمعتنا بعد ذلك بمدة قصيرة رأيتني أمضي أتحدث إليها، فلاحظت أنها تكاد تتجنب النظر إلي وهي تحرك شفتيها احتقاراً، فقلت في نفسي: «انتظري قليلاً فسأنتقم لنفسي منك». وقد كنت في ذلك الوقت أحمق التصرف، سريع الانفعال في كثير من المناسبات، وكنت مدركاً ذلك في نفسي، خاصة أنني شعرت بأن «كاتينكا» لم تكن تلك الآنسة الساذجة كطالبات المدرسة الداخلية، بل كانت إنسانة ذات شخصية تتصف بالقوة والخيلاء، تدين بالمبادىء الرفيعة وأكثر من هذا فإنها كانت ذات علم وثقافة، وكنت أنا مجرداً من كليهما. قد تظن أنني كنت عازماً على خطبتها؟ كلا إن ما أردته، أنا الشاب البطل المرموق، هو الانتقام لنفسي لأنها لم تكن على ما يبدو تشعر ببطولتي.

وفي هذه الأثناء طفقت في القصف والصخب، مما دفع الكولونيل أخيراً إلى حبسي ثلاثة أيام. وفي ذلك الوقت بالذات أرسل لي أبي ستة آلاف روبل مقابل تنازلي المكتوب له عن أي مطلب كان، وفيه اعتراف بتصفية حسابنا إذا جاز هذا القول، وأقر بأنني لا يحق لي مطالبته بأي شيء. وكنت لا أفقه معنى لأية كلمة من كلمات الصك آنذاك. وفي الحقيقة أنني حتى مجيئي إلى هذا المدينة يا أليوشا بل وحتى الأيام القليلة الماضية وربما في هذه اللحظة، لم أستطع أن أميز شيئاً من أموري المالية مع والدي. ولكن دعنا من هذا الأمر الآن، فسنعود إليه فيما بعد.

المهم أنني حالما تلقيت النقود، وصلتني من صديق رسالة تنبئني بأمر يهمني إلى حد كبير. فقد جاء فيها أن السلطات المختصة لم تكن راضية

عن الكولونيل. وكان يشتبه بأنه اقترف بعض الأخطاء والمخالفات. وفي الحقيقة كان خصومه يحيكون له مؤامرة دنيئة. وفعلاً جاء قائد الفرقة بعد ذلك وأثار الموضوع وهتك أستاره، وسرعان ما تلقى الكولونيل أمراً بتقديم استقالته. ولن أذكر لك التفاصيل بهذا الصدد، فلقد كان له أعداء بطبيعة الحال. وفجأة أدار الناس ظهورهم له ولأسرته حتى أصدقاؤه تنكروا له. ثم أنني خطوت الخطوة الأولى فاجتمعت بأغافيا إيفانوفنا وكانت صداقتي لها مستمرة، وخاطبتها قائلا: «هل بلغك أن هناك عجزاً مقداره أربعة آلاف وخمسمائة روبل من مال الحكومة في حسابات والدك؟».

فأجابتني قائلة: مه ذا تعني بهذا القول؟ وما يدعوك إلى قوله؟ لقد كان الجنرال هنا منذ أمد قريب ووجد كل شيء على ما يرام.

ـ كان يومها كذلك أما الآن فلا.

ولقد خافت الفتاة خوفاً عظيماً وقالت:

ـ لا تحاول أن تخيفني. من أنبأك بذلك؟.

ـ لا تقلقي، فلن أخبر أحداً. فأنا صامت كالقبر. ولكنني أردت في حالة وقوع «الاحتمالات» أن أضيف بأنه إذا طولب أبوك بمبلغ الأربعة آلاف والخمسمائة روبل ولم يستطع إبرازها، حوكم وأجبر على الخدمة جندياً بسيطاً في آخر أيامه. وحتى لا يحدث هذا، إذا أردت، عليك أن تبعثي إلي خفية بشقيقتك الصغرى الطالبة الداخلية. فلدي المال وسأعطيها أربعة آلاف روبل إذا وافقت، وسأكتم السر.

اكتفت الفتاة بالقول: آه! أيها النذل، أيها النذل السافل كيف تجرؤ على هذا القول!.

ومضت في طريقها حانقة مبدية لي الاحتقار، فاتبعتها بصوتي ثانية أذكرها بأن السر سيحاط بقدسية الكتمان. وجدير بي أن أقول الآن أن هاتين المخلوقتين البسيطتين أغافيا وخالتها تصرفتا تصرف الملائكة في هذه الحادثة. فقد كانتا تعبدان كاتيا وتنظران إليها من تحت وتخدمانها قدر طاقتهما. غير أن أغافيا أطلعتهما على ما دار بيننا من حديث وبالطبع كان ذلك هو كل ما كنت أبغي.

وفجأة جاء القائد الجديد إلى المدينة ليتسلم قيادة الفوج. وتم ذلك وفق الإجراءات المعهودة. وسرعان ما مرض الكولونيل العجوز. ولم يقو على مبارحة سريره يومين كاملين ولم يقم بتسليم أموال الحكومة. وقد أكد الدكتور كرافشينكو أنه كان مريضاً حقاً لا تظاهراً. ولكن يجدر بي أن أقول أنني كنت أعلم ومنذ وقت طويل، أن الأموال لم تكن أبداً في الخزنة خلال السنوات الأربع الماضية، إلا عندما كان القائد يقوم بزياراته التفتيشية. فقد كان الكولونيل يقرضها لرجل أمين وهو تاجر في المدينة يدعى تريفونوف، الأرمل العجوز، وكان ذا لحية طويلة ونظارتين يحيط بهما إطار مذهب. وقد كان التاجر يتاجر بالمال في السوق فيربح من ذلك ويعيد المبلغ كله إلى الكولونيل مضافاً إليه الفائدة وهدية من السوق. ولكن في هذه المرة (وقد سمعت ذلك بمحض الصدفة من ابن تريفونوف ووريثه، وهو شاب من أكثر الناس فساداً وقذارة) لم يجلب تريفونوف معه المال فهرع إليه الكولونيل يسأله إعادة النقود، فأجابه بقوله: «إنني لم آخذ منك نقوداً، وما كان يمكنني أن آخذها منك. وهكذا لزم الكولونيل بيته وقد لف رأسه بمنشفة وانهمكت النسوة الثلاثة في وضع الثلج عليها. ثم ما لبث أن حضر إلى المنزل حاجب يحمل أمراً مكتوباً «بتسليم أموال الفوج فوراً وفي غضون ساعتين»، فوقع الكولونيل على الأمر ـ وقد رأيت توقيعه فيما بعد ـ ثم نهض على قدميه محتجاً بارتداء بزته العسكرية، ثم عدا نحو غرفة نومه وعبأ بندقية الصيد ذات الماسورة المزدوجة برصاص حربي، وخلع حذاء قدمه اليمنى وثبت فوهة البندقية على صدره وأخذ يتلمس زنادها بأصبع قدمه. لكن أغافيا إذ تذكرت أقوالي، خامرتها الشكوك في نية والدها، فتسللت وراءه واسترقت السمع، ثم اندفعت إلى داخل الغرفة وألقت بنفسها عليه من الخلف وطوقته بذراعيها فانطلقت البندقية وأصابت السقف ولم تتسبب بأذية أحد. ثم اندفعت المرأتان الأخريان نحو الغرفة وانتزعتا البندقية من يده وقبضتا عليه بأيديهما. لقد علمت كل ما جرى فيما بعد. أثناء ذلك كنت في منزلي وقد أخذ الظلام يسدل أستاره وأنا أتهيأ للخروج. وكنت قد ارتديت ملابسي وصففت شعري وعطرت منديلي وإذ تناولت قبعتي انفتح الباب فجأة ورأيت كاترينا إيفانوفنا تدخل غرفتي

وتقف أمامي وجهاً لوجه.

«ما أعجب مصادفات هذه الحياة. ومنها أنه ما من إنسان في الشارع شاهدها وهي تدخل إلي ولذلك لم يعلم بأمر زيارتها لي أي إنسان في المدينة. وكانت تقوم على خدمتي سيدتان طاعنتان في السن، تخدمانني بمحبة واحترام وطاعة عمياء وقد أمرتهما بكتمان أمر الزيارة فبقيتا صامتتين كعمودين من المرمر. وبطبيعة الحال أدركت حقيقة الأمر لتوي. ثم سارت الفتاة نحوي ونظرت إلي نظرة ثابتة وقد ظهر في عينيها الدكناوين عزم وحزم ولكن أمارات الاضطراب بدت على شفتيها وفي محيط فمها.

- أخبرتني أختي بأنك ستعطيني أربعة آلاف وخمسمائة روبل إذا جئت إليك في طلبها بنفسي... وقد جئت... فأعطني المبلغ. ولم تستطع النطق بكلام آخر، وخانتها القدرة على التماسك بل تقطع نفسها وتملكها الجزع واختنق صوتها واختلجت زاويتا فمها واضطربت شفتاها. أتراك تصغي إلي يا أليوشا أم نمت؟.

فقال أليوشا مضطرباً: إنني أعلم يا ميتيا بأنك ستقص عليَّ الحقيقة كلها.

- إنني أقص عليك الحقيقة. وإذا أردت قول الصدق المجرد فسأقول ولن أبرىء نفسي. لقد كانت فكرتي الأولى هي فكرة واحد من آل كرامازوف. لقد حصل مرة أن لسعتني حشرة أم أربع وأربعين فلزمت الفراش محموماً مدة أسبوعين. وفي تلك اللحظة شعرت بحشرة تلسع قلبي، حشرة مؤذية هل تفهم ما أقول؟ فصعدت نظري في الفتاة. هل رأيتها؟ إنها جميلة. ولكنها كانت في تلك اللحظة تتحلى بجمال من نوع آخر. فقد بدا جمالها بقدر ما كانت نبيلة وكنت أنا نذلاً. كانت هي في روعة كرمها وتضحيتها في سبيل والدها، وكنت أنا حشرة. وعلى نذالتي فقد كانت تحت رحمتي بجسدها وروحها وقد سدت في وجهها السبل. أقول لك صراحة أن تلك الفكرة السامة تملكت بي لدرجة أنني كدت أفقد وعيي من فرط الدهشة. وبدا لي أن مقاومتها أمر غير ممكن، وكأن علي أن أصنع كما تصنع الحشرة والعنكبوت السام دون أن يومض في قلبي نور الرحمة والشفقة. وكان نفسي

يتردد بصعوبة. ألا فاعلم أنه كان علي أن أذهب إليها في اليوم التالي وأطلب يدها لأنهي الأمر بطريقة مشرفة فلا يعلم به أحد. فأنا رجل شريف في داخلي رغم شهواتي الدنيئة. وفي تلك اللحظة بعينها خيل إلي أن صوتاً يهمس في أذني قائلا: «ولكنك إذا ذهبت لتطلب يدها فهي لن تراك بل ستأمر الحوذي بأن يطردك من ساحة المنزل، وستقول: اذهب وانشر النبأ في المدينة كلها فلست أرهبك!».

ونظرت إلى الفتاة فرأيت من ملامحها ما أكد لي أن ذلك الصوت صادق ليس فيه أثر للخداع. فهذا ما سيحدث بلا شك. ورأيت من آيات الاحتقار المرتسمة على وجهها ما أوحى إليّ بأنني لو ذهبت إليها، سأطرد حتماً من منزلها، فتأجج في نفسي الحقد عليها. ورغبت أن أتصرف معها بأحقر الأحابيل وأرذل الخداع فأنظر إليها نظرة الاستعلاء وهي تقف مقابلي وأريها من المساومة ما يذهلها فأقول لها: «أربعة آلاف! ما معنى هذا القول؟ إنني كنت مازحاً لقد أفرطت في الاستبشار بالربح يا سيدتي. إذا شئت فهاك مائتي روبل أدفعها لك من كل قلبي. ولكن أربعة آلاف روبل مبلغ من الصعب تبديده في مثل هذه التوافه. لقد كلفت نفسك العناء بلا طائل».

كنت أضمن خسارة الجولة لو فعلت هذا، فهي لا بد هاربة من أمامي. غير أن انتقامي في مثل هذه الحالة يكون انتقاماً دنيئاً. ولو نفّذته لبقيت نادماً بقية حياتي. صدقني إذا قلت لك أن ذلك لم يحدث لي قط في علاقتي بأية امرأة أخرى، ولم أنظر إلى أية واحدة منهن بالكراهية في مثل تلك اللحظات. ولكنني أقسم بأنني تفرست في وجهها ثلاث ثوان أو خمساً بكراهية مخيفة. وهي الكراهية التي لا يفصلها عن العشق الجارف أكثر من شعرة واحدة.

مضيت إلى النافذة وأسندت جبهتي إلى زجاج النافذة البارد. وما زلت أذكر أن برودة الثلج آذت جبهتي بمثل لسع النار. وما هي إلا لحظات حتى استدرت ومضيت نحو المنضدة وفتحت درجاً ثم سحبت منه ورقة نقدية بخمسة آلاف روبل (كانت موضوعة في قاموس فرنسي). وأبرزتها أمامها بصمت وطويتها وناولتها إياها وفتحت لها الباب المؤدي إلى الممشى ثم أفسحت لها الطريق، وانحنيت لها انحناءة عظيمة تنم عن الاحترام. صدقني

إن هذا هو عين ما حدث! لقد انتابت الفتاة رعشة هزت أوصالها، ثم امتقع وجهها امتقاعاً مخيفاً، وبغتة انحنت إنحناءة ناعمة هادئة متزنة وانطرحت على قدمي. ولم تكن انحناءتها من ذلك النوع المألوف في المدارس الداخلية بل كانت على الطريقة الروسية حيث تتمرغ الجبهة على الأرض. ثم قفزت وانطلقت تعدو إلى الخارج. وكنت متمنطقاً بسيفي فسللته من غمده ولا أدري لماذا كدت أطعن نفسي به. ولو فعلت لكنت غبياً بطبيعة الحال. وربما كان ذلك بسبب البهجة التي ملأت نفسي. هل تفهم كيف أن الإنسان ربما قتل نفسه لفرط البهجة؟ ولكنني لم أطعن نفسي بل لثمت نصل سيفي وأعدته إلى قرابه. وما أظن أنه كانت هنالك حاجة لأن أنبئك بذلك أيضاً. ويخيل إلي أنني بسرد آيات ذلك الصراع الداخلي في نفسي بمثل هذا التطويل، إنما أردت تمجيد ذاتي. ولكن دعنا من هذا وتباً للمشاعر التي يختلج بها القلب الإنساني! حسناً لقد أسرفت في الحديث عن تلك المغامرة مع كاترينا إيفانوفنا. وهكذا فإن إيفان يعلم بأمرها وأنت ولا أحد سواكما».

ثم نهض ديمتري من مكانه وخطا خطوة أو خطوتين وهو في اضطرابه وأخرج منديله ومسح به جبينه، ثم عاد إلى الجلوس ولكن هذه المرة في مكان مقابل للأول، مما اضطر أليوشا إلى الاستدارة ليبقى في مواجهته.



اعترافات قلب كسير.. الانحدار

خاطب أليوشا أخاه قائلا: «الآن عرفت النصف الأول من قصتك»، فأجابه ديمتري قائلا: «إنك عرفت النصف الأول وهو رواية مثلت في مكان آخر. أما النصف الآخر فهو مأساة تمثل فصولها هنا».

- إنني لا أعلم شيئاً عن النصف الآخر حتى الآن؟.

- وأنا؟ هل تظنني مدركاً له؟.

- مهلاً يا ديمتري. هنالك نقطة هامة. قل لي لقد كنت خاطباً. فهل لا تزال كذلك؟.

- إنني لم أتعجل في خطبتها، بل طلبت يدها بعد انقضاء ثلاثة أشهر على الحادث. ففي اليوم التالي قلت في نفسي إن الحادث قد انتهى وانقضى أمره ولن ينبش من القبر. وبدا لي أن من الدناءة التقدم لخطبتها. أما فيما يتعلق بها فقد عاشت وحدها ولم تحرك ساكناً طيلة ستة الأسابيع التي قضتها في المدينة، اللهم إلا أمراً واحداً. ففي اليوم التالي لزيارتها لي جاءت خادمتها خلسة وهي تحمل مظروفاً كتب عليه عنواني. لقد كان فيه قيمة ما تبقى من ورقة النقد. إذ لم تكن في حاجة إلى أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة روبل. وقد خسرت من هذه القيمة أكثر من مائتي روبل عمولة صرف الورقة. ولم ترسل إلي سوى مائتين وستين روبلاً ولست أذكر على وجه التدقيق قيمة المبلغ الذي أرسلته، ولم ترفق المال بمذكرة ولا كلمة إيضاح. وبحثت في المظروف عن إشارة خفية بقلم الرصاص ولكنني لم أجد شيئاً! ثم أنفقت بقية النقود على الشراب والمجون وحتى أن القائد الجديد اضطر إلى تأنيبي.

أما الكولونيل فقد سلم أموال الفوج ودهش جميع سكان المدينة، لأن

أحداً لم يكن يعتقد بأن الكولونيل كان يملك المبلغ كاملاً. ولم يلبث أن سقط طريح الفراش وبعد ثلاثة أسابيع تداعى جسمه. وانقضت على ذلك خمسة أيام أسلم بعدها الروح ودفن في احتفال عسكري لأنه توفي قبل أن تقبل استقالته. وبعد تشييع جنازته بعشرة أيام غادرت كاترينا إيفانوفنا مع أختها وخالتها مدينتنا إلى موسكو. وفي ذات اليوم الذي سافرن فيه (ولم أكن قد رأيتهن ولم أودعهن ولم أطلب إجازة للقيام بوداعهن) جاءتني مذكرة صغيرة، مكتوبة على ورقة رقيقة زرقاء وقد خط عليها بقلم الرصاص سطر واحد فقط هو: «سأكتب إليك، انتظرني. ك» وكان ذلك كل شيء.

وسأكمل لك الآن القصة بإيجاز. فعند وصولهن إلى موسكو تبدلت حالتهن المادية بمثل سرعة البرق وبما يشبه أقاصيص ألف ليلة وليلة، فإن زوجة الجنرال التي نزلا في بيتها وهي أقرب الناس إليهن، فجعت بوفاة ابنتي اختها الوحيدتين، في غضون أسبوع واحد بمرض الجدري، وكانتا وريثتيها، ورحبت السيدة العجوز التي هدّتها النكبة هدا، بكاتيا وجعلتها في مقام ابنتها وجعلتها أملها الوحيد وقربتها من نفسها وبدلت وصيتها لصالح كاتيا. وكان ذلك تأميناً للمستقبل، أما فيما يتعلق بالحاضر، فقد منحتها ثمانين ألف روبل لكي تجعلها بائنة لها ولتتصرف بها كما تهوى. وقد كانت سيدة هستيرية أتيح لي فيما بعد بموسكو أن أرى بعض تصرفاتها.

وذات يوم تلقيت بالبريد من كاترينا مبلغ أربعة آلاف وخمسمائة روبل، وقد عقدت الدهشة لساني. وبعد ثلاثة أيام تسلمت الرسالة المنتظرة، وها هي الآن معي فأنا محتفظ بها دائماً وسأظل محتفظاً بها حتى أموت، هل تريد رؤيتها؟ يجب أن تقرأها. لقد عرضت علي أن أكون بعلاً لها. عرضت نفسها علي. وقد قالت في رسالتها: «إنني متيمة في هواك ولست أطلب منك أن تهواني ولكن تزوجني ولا تخش شيئاً فلن أعترض سبيلك بأية حال من الأحوال بل سأكون أطوع لك من بنانك وسأكون البساط الذي تطأه قدماك. إنني أريد أن أهواك إلى الأبد وأريد أن أنقذك من نفسك». أليوشا إنني لا أستحق أن أعيد كلمات هذه السطور بألفاظي الخشنة ولهجتي الفظة التي لم تفارقني ولن أستطيع التخلص منها إلى الأبد. إن الرسالة أصابت قلبي وهو ما

زال ينزف حتى الآن. أتظن أنني لا أحفل بها ولا أعاني منها؟ لقد سارعت إلى الكتابة إليها مجيباً، إذ لم يكن في مقدوري أن أسافر إلى موسكو. كتبت إليها وأنا أذرف الدموع. لكن شيئاً واحداً سيظل عاره يلازمني إلى الأبد، فلقد أشرت في رسالتي إلى أنها ثرية تملك بائنة في حين أنني لم أكن أكثر من فقير معدم لا يملك في الحياة سبيلاً للانطلاق من وهدة فقره! لقد تطرقت إلى ذكر المال! وكان ينبغي عليّ أن أمسك لساني عنه ولكن قلمي سبقني إليه رغماً عني. ثم إنني بادرت إلى الكتابة لإيفان وشرحت كل ما قدرت عليه في ست صفحات وكلفته الذهاب لرؤيتها. لماذا تنظر إليّ هذه النظرة؟ ولماذا تحدق إليّ؟ نعم إن إيفان وقع في هواها؛ ما زال يهواها حتى الآن. إنني أعرف أنني في رأي الناس ارتكبت حماقة، ولكن ربما كانت هذه الحماقة الوحيدة هي سبيل خلاصنا جميعاً، ألا ترى مقدار تفكيرها بإيفان ومقدار احترامها له؟ وفي مجال المقارنة بيني وبينه هل تظن أنها ستحب إنساناً مثلي بعد كل ما حدث هنا؟.

ـ ولكنني مقتنع بأنها تحب إنساناً مثلك لا مثل إيفان.

ولكن الكلمات تدفقت من فم ديمتري عفو الخاطر فقال وهو يكاد يبدي الحقد: إنها لا تحبني أنا، بل تحب فضيلتها هي. ثم ضحك. وبعد دقيقة واحدة تألقت عيناه واحمر وجهه ثم ضرب المنضدة بقبضته ضربة قوية، وصاح وقد أخذته نوبة من الغضب الشديد، على نفسه:

«إنني أقسم يا أليوشا، وقد لا تصدقني، ولكنني أقسم بقدسية الله وربوبيته بأنني رغم سخريتي من عواطفها العالية قبل لحظة، أعلم أنني في روحي أحقر منها ألف ألف مرة. وأن عواطفها العالية صادقة كعواطف الملاك السماوي. إنني أعلم علم اليقين أن ذلك سر مأساتي ولكن ما يضير الإنسان لو أراد التظاهر قليلاً؟ ألست أنا أميل إلى التظاهر؟ ومع ذلك فأنا صادق، إنني صادق. أما إيفان، فإنني أدرك أنه الآن يلعن الطبيعة إذ يرى كيف أنه رغم ثقافته لم يكن مفضلاً وأن الحب ممنوح لغيره، لحقير هو أنا، انصرف إلى ملاذه وفسقه أمام عيني خطيبته، وعلى مرأى من الجميع. نعم إنني أعلم كيف تكون لعنة إيفان للطبيعة لأن الاختيار وقع علي من دونه ولأنه لم يحظ

إلا بالرفض. ولماذا؟ لأن فتاة تريد أن تضحي بحياتها ومستقبلها في سبيل العرفان بالجميل. إن هذا مضحك! إنني لم أفاتح إيفان بهذه الأفكار، ولا هو صدرت عنه إشارة من هذا القبيل أمامي. ولكن المقدر لا بد أن يقع وسيثبت الأصلح من الرجال أما التافه فسيتلاشى ويختفي في أزقته المظلمة إلى الأبد، سيختفي في أزقته القذرة التي عشقتها نفسه حيث يطيب له المقام وحيث ينغمس في القذر والوضر طائعاً مختاراً مبتهجاً. لقد كنت أهذي ولم يبق في جعبتي أكثر من هذا القول الأحمق، إنني ألقي كلامي جزافاً، ولكن سيتحقق ما قلته وسأغرق نفسي في الأزقة المهجورة وستتزوج كاترينا من إيفان».

وهنا قاطع أليوشا ديمتري مرة ثانية بلهجة تنم عن القلق والاضطراب: لحظة ديمتري. إن هنالك شيئاً لم توضحه لي بعد: إنك ما زلت خاطباً، أليس الأمر كذلك؟ فكيف يكون بوسعك فسخ الخطبة إذا كانت خطيبتك لا تريد ذلك؟.

ـ نعم إنني ما زلت خطيبها. وقد تمت الخطبة لدى وصولي إلى موسكو باحتفال رائع. ولقد باركتنا زوجة الجنرال. حتى أنها هنأت كاتيا، هل تصدق؟ وأنها قالت لها: لقد أحسنت الاختيار، فقد نفذت ببصري إلى جوهر خطيبك. وهل تصدق أنها لم تحب إيفان وكادت ألا تحييه؟ لقد دار حديث طويل بيني وبين كاتيا في موسكو. وقصصت عليها كل شيء عن نفسي وتوخيت في ذلك الإخلاص والأمانة، وأصغت إلى أقوالي.

وكان هنالك اضطراب لذيذ ودموع

وكانت هنالك كلمات رقيقة.

كما كانت هنالك كلمات تدل على الكبرياء أيضاً وحملتني على أن أتعهد بأن أصلح نفسي. وعدتها بذلك، وهنا...

ـ ماذا؟.

ـ لقد دعوتك وأحضرتك اليوم إلى هذا المكان وفي هذا اليوم بالذات ـ تذكر هذا ـ أردت إرسالك إلى كاترينا إيفانوفنا وتنبئها...

ـ أنبئها ماذا؟

- لكي تنبئها بأنني لن أذهب لرؤيتها بعد الآن. وأبلغها تمنياتي واحترامي.

- ولكن هل ذلك ممكن؟.

- ممكن لأنه يستحيل عليَّ الذهاب إليها. إذ كيف يمكنني أن أنبئها بالأمر بنفسي؟.

- وإلى أين تبغي الذهاب؟.

- إلى الزقاق المنزوي.

فقال أليوشا مبتئساً وقد ضم يديه: «إذن فأنت ذاهب إلى غروشينكا، هل يمكن أن يكون صحيحاً ما أنبأني به راكيتين؟ لقد كنت أظن أنك زرتها وانقضى كل شيء بينكما».

- هل يمكن أن يقدم الرجل الخاطب على مثل هذه الزيارات؟ وهل مقبول هذا التصرف، ومع مثل هذه الخطيبة وتحت بصر الدنيا كلها؟ سحقاً لذلك، إن لدي شيئاً من شرف! إنني بمجرد أن بدأت أزور غروشينكا لم تعد خطيبتي قائمة ولم أعد رجلاً شريفاً. إنني أفهم ذلك. لماذا تنظر إلي؟ لقد ذهبت أول الأمر بهدف أن أضربها. فلقد سبق أن علمت، وثبت لي الآن أن ذلك الضابط وكيل أبي، سلم غروشينكا مستنداً يثبت ديني، لكي تقاضيني أمام المحكمة مطالبة بالمال فأنسحب وينتهي أمري. لقد أرادوا أن يرهبوني فذهبت كي أضربها. وكنت لمحتها قبل ذلك. إنها لم تحرك في نفسي أثراً مهماً من أول نظرة. وكنت قد سمعت بقصة صاحبها التاجر العجوز، وهو الآن طريح الفراش مشلول، ولكنه سيورثها مبلغاً طيباً من المال. كما علمت بحبها للمال تجمعه وتقرضه بربا فاحش، وبأنها محتالة خادعة. ذهبت لكي أضربها ولكنني أخذت بها. لقد كان ما يشبه العاصفة أو الوباء، أصابني، وما زلت موبوءاً حتى الآن. إنني أعلم أن كل شيء قد انتهى وإنه لم يعد لي أي شيء، فأنا أسير لهذه المرأة ولا شيء سواها. إن هذا هو الموقف الذي أقفه.

وقد اتفق أن كنت أملك ثلاثة آلاف روبل، فاصطحبت غروشينكا إلى موكرو، التي تبعد عن هذه المدينة مسافة خمسة وعشرين فرسخاً، فأرسلت في طلب الغجر والشمبانيا ودعوت نساءهم وبناتهم، وبددت الآلاف، وفي

مدى ثلاثة أيام كنت قد أنفقت كل أموالي وحسبت أنني ظفرت كالبطل بهذه المرأة فهل تظن أن ذلك البطل قد نال بغيته؟ كلا إنني لم أقض لبانتي، فإن تلك اللعوب غروشينكا رخصة العود مطواعة الجسد، إن ذلك يلمح في قدمها الصغيرة بل وأصبعها الصغيرة. وقد رأيت الأصبع فقبلتها وأقسم أن ذلك كان كل شيء. وقالت لي: إنني سأتزوج منك إذا أردت رغم فقرك. ولكن عدني بأنك لن تضربني وأنك ستترك لي الحبل على الغارب، فربما عندئذ قبلت الزواج منك. وضحكت وما زالت تضحك حتى الآن. وقفز ديمتري من مكانه مهتاجاً. وبدا عليه بغتة كأنه مخمور، واحمرت عيناه. فسأله أليوشا قائلا:

ـ وهل حقاً تنوي الزواج منها؟.

فأجاب ديمتري: «أتزوجها لتوي إذا شاءت، وإذا رفضتني فسأبقى على ولائها، وسأكون الحاجب على بابها يا أليوشا».وتوقف متخاذلاً أمام أخيه ثم أمسك بأخيه وأخذ يهزه بكل قوته وهو يقول: «أتدري أيها الفتى البريء إن ذلك هذو لا معنى له، ففي الأمر مأساة. دعني أنبئك يا ألكسي إنني قد أكون إنساناً دنيئاً ذا عواطف منحطة سافلة أما أن أكون لصاً حقيراً فهذا ما لن يكونه ديمتري كرامازوف. والآن دعني أقل لك أنني لص حقير. ففي صبيحة ذلك اليوم بالذات وقبل أن أذهب لأضرب غروشينكا، استدعتني كاترينا إيفانوفنا وكلفتني سراً (لا بد من سبب لديها يبرر هذه السرية) أن أذهب إلى المدينة الكبرى في المقاطعة وأرسل بواسطة البريد ثلاثة آلاف روبل إلى أغافيا إيفانوفنا في موسكو لكي لا يعلم بالأمر أحد في مدينتنا. وهكذا كان في جيبي مبلغ ثلاثة آلاف روبل عندما ذهبت إلى غروشينكا وكان ذلك هو المبلغ الذي أنفقته في موكرو. ثم تظاهرت فيما بعد أمام كاترينا إيفانوفنا بأنني ذهبت إلى المدينة ولكنني لم أعطها إيصال البريد، وقلت لها أنني أرسلت المبلغ وسأحضر لها الإيصال ولم أفعل ذلك طبعاً حتى الآن متعللاً بالنسيان. والآن ما ظنك فيما ستقوله لها اليوم؟ إنك ستقول أنه يبلغك تمنياته. وستسألك عما حلّ بالنقود؟ فتقول لها أنه إنسان حقير عبد شهواته ذو عواطف جامحة لا يملك القدرة على مقاومتها. ولم يرسل نقودك آنذاك بل انفقها لأنه كالوغد

الحقير لم يستطع أن يضبط نفسه. وقد تضيف: ومع ذلك فهو ليس لصاً، هاك ثلاثة آلافك، إنه يعيدها إليك فأرسليها إلى أغافيا إيفانوفنا بنفسك، ولكنه كلفني بأن أقول لك إنه «يهدي إليك تمنياته». ولكن شيئاً لن يتغير، فإنها ستسألك: «ولكن أين النقود»؟.

ـ ميتيا، إنك تعيس حقاً ولكن لا تبالغ فالأمر أهون مما تظن. فلا تدع اليأس يحطمك ويجرك إلى الموت.

ـ ماذا، أتظن أنني سأطلق النار على نفسي لأنني لا أستطيع الحصول على ثلاثة آلاف روبل لكي أردها إليها؟ إن هذا هو ظنك. إنني لن أطلق النار على نفسي، فأنا الآن أضعف من أن أنتحر. وربما قدرت فيما بعد، أما الآن فإنني ذاهب إلى غروشينكا ولست أبالي بما يحدث.

ـ وبعد ذلك، ما أنت فاعل؟.

ـ سأكون زوجاً لها إذا تنازلت وقبلتني، فإذا جاء عشاقها انزويت في الغرفة المجاورة، سأنظف أحذية أصدقائها، وأصنع لهم الشاي وأقضي حوائجهم.

فقال أليوشا متجهماً: «إن كاترينا إيفانوفنا ستدرك كل شيء، وستعلم مقدار شقائك وستصفح عنك، إنها ذكية للغاية ولا يمكن أن يكون هنالك إنسان أشقى منك، وستدرك ذلك من نفسها».

فأجاب ديمتري وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة: «إنها لن تصفح عن كل شيء، إن في الأمر شيئاً لا يمكن أن تصفح عنه أية امرأة. هل تدري ما هو أفضل ما يمكن فعله».

ـ ماذا؟

ـ أن نرد الثلاثة آلاف من الروبلات.

ـ أنى لنا هذا المبلغ؟ مهلاً إن لدي ألفين، وسيمنحك إيفان ألفاً، وهكذا تجتمع في يدك الثلاثة آلاف. فخذها وردها إليها.

ـ ولكن متى يمكن أن يجتمع هذا المبلغ؟ وفضلاً عن ذلك فأنت لم تبلغ سن الرشد بعد، وينبغي لك حتماً أن تنقل إليها كلمة وداعي اليوم، مع المال أو بدونه لأنني لم أعد أطيق التأخير. لقد بلغ الأمر هذا الحد. ولو

انتظرت إلى الغد لفات الأوان. إنني سأرسلك إلى والدي.

- والدك؟.

- نعم إلى والدي أولاً. اسأله أن يدفع لك مبلغ ثلاثة آلاف روبل.

- ولكنه يا ميتيا لن يدفع المبلغ.

- إن هذا بتقديري. هل تعلم معنى القنوط يا أليوشا؟.

- نعم.

- أصغ إلي، إن أبي من الوجهة القانونية غير مدين لي بشيء بعد أن نلت منه كامل حقوقي. إنني أعرف ذلك. ولكنه من الوجهة الأدبية يبقى مديناً لي بشيء ما، أليس كذلك؟ إنك تعلم أن ثروته بدأت بالثمانية والعشرين ألف روبل التي تركتها أمي، ثم ربت حتى بلغت مائة ألف. ليرد إلي ثلاثة آلاف فقط فينقذ روحي من الهاوية، ويكفر بذلك عن الكثير من آثامه. وأعدك وعداً صادقاً، بأنني سأضع حداً لكل شيء، ولن يسمع أي شيء عني بعد حصولي على هذه الثلاثة الآلاف. إنني للمرة الأخيرة أمنحه الفرصة لكي يكون أباً. قل له أن الله ذاته هيأ له هذه الفرصة.

- ميتيا، إن أباك لن يدفع هذا المبلغ مهما كلف الأمر.

- إنني أعلم بأنه لن يدفعه، وأعلم ذلك جيداً، وخاصة في هذه الآونة. بل أعرف أمراً آخر. لقد بلغه قبل بضعة أيام وربما يوم أمس أن غروشينكا ربما كانت في الحقيقة جادة في عزمها على الزواج مني. إنه يعلم طبيعتها فهو يعلم أية قطة هي. فهل تظن أنه سيدفع لي المال وهو المتيم في غرامها، لأتمكن من الحصول عليها؟ وليس هذا كل شيء. إن بوسعي أن أذكر لك المزيد. لقد علمت أنه في غضون الخمسة الأيام الماضية سحب من المصرف مبلغ ثلاثة آلاف روبل وحولها إلى أوراق من فئة المائة روبل وحزمها في مظروف كبير ختمه خمسة أختام وربطه طولاً وعرضاً بشريط أحمر. هل تلاحظ إطلاعي على كل هذه التفاصيل؟! وكتب على المظروف العبارة التالية: إلى ملاكي غروشينكا عندما توافيني. لقد خط هذه العبارة بنفسه وكتم السر على الجميع، وما من إنسان يعلم بهذا الأمر إلا الخادم سميردياكوف الذي يثق به ثقته بنفسه. وهكذا فهو الآن في انتظار غروشينكا

منذ ثلاثة أو أربعة أيام؛ آملاً حضورها من أجل هذا المبلغ. لقد كتب إليها رسالة فأجابته بأنها ربما وافته. فإذا جاءت إلى هذا الرجل العجوز فهل أستطيع أن أتزوج منها بعد ذلك؟ إنك تدرك الآن سبب مكوثي هنا سراً وعلة ترقبي.

ـ هل ترقبها؟.

ـ نعم إنني في انتظارها. لقد أجّرت هاتان العجوزان غرفة في منزلهما لتوما. وتوما هذا من أبناء ناحيتنا، وقد كان جندياً في كتيبتي، وهو يقوم بقضاء حاجاتهما، ويعمل حارساً في الليل ويقضي نهاره في صيد القطا، ذلك هو نمط حياته. وأنا مقيم الآن في غرفته. وليس توما ولا المرأتان على علم بالسر، أي أنني أستخدم هذا المكان للمراقبة والترصد.

ـ إذن فما من إنسان يعلم السر سوى سميردياكوف؟

ـ لا يعلم بالسر أحد سواه وسينبئني بأمرها إذا ذهبت للقاء الرجل العجوز.

ـ إنه هو إذن الذي أنبأك بحزمة النقود؟.

ـ نعم، والأمر سر مكتوم. وإيفان ذاته لا يعلم شيئاً عن أمر النقود أو أي أمر آخر. إن الرجل العجوز يبغي إرسال إيفان إلى تشيرماشنيا في رحلة تستغرق يومين أو ثلاثة أيام. فهناك إنسان يريد شراء أخشاب الغابة، وسيدفع مبلغ ثمانية آلاف روبل ثمناً لها، وما زال الرجل العجوز يلحّ على إيفان أن يساعده ويذهب لإنهاء الصفقة. وذلك يبعده عن المدينة يومين أو ثلاثة أيام. وهذا هو ما يبغيه الرجل العجوز، أن توافيه غروشينكا في غياب إيفان.

ـ إذن فهو في انتظار غروشينكا اليوم؟.

فصاح ديمتري بغتة: «كلا، إنها لن تذهب إليه اليوم هناك ما يثبت ذلك، وهذا هو اعتقاد سميردياكوف أيضاً. إن أباك منهمك في الشراب الآن. وهو جالس إلى المائدة مع إيفان، فاذهب إليه يا أليوشا واسأله أن يعطيك ثلاثة آلاف روبل».

وعندئذ قفز أليوشا من مكانه وسدد نظره إلى وجه أخيه الذي استبد به الرعب وصاح قائلاً: «ميتيا، عزيزي، ماذا دهاك»؟ وقد خطر بباله أن يكون ديمتري فقد عقله.

فنظر إليه ميتيا نظرة هادئة وقال: إطمئن، إنني لست مجنوناً، لا تخف، إني مرسلك إلى أبي وأنا مدرك لما أفعل. إنني أؤمن بحدوث معجزة.

ـ معجزة؟

ـ نعم بمعجزة إلهية. إن الله عالم بمكنونات قلبي وباليأس الذي بلغته، إنه يعلم تفاصيل الأمر. ولا شك في أنه لن يسمح بوقوع شيء مريع. إنني أؤمن بالمعجزات. اذهب!

ـ إنني ذاهب ولكن هل ستنتظرني هنا؟.

ـ نعم، فأنا أعلم أن الأمر سيستغرق فترة من الزمن، فأنت لا تستطيع أن تجابهه بالأمر مجابهة صريحة. إنه الآن ثمل. وسأنتظرك ثلاث ساعات، بل أربعاً وخمساً وستاً وسبعاً. ولكن اذكر أن عليك الذهاب إلى كاترينا إيفانوفنا اليوم ولو في منتصف الليل وسواء أكان المال معك أم لم يكن، وقل لها إنه يهديك تمنياته، إنني أريد أن تقول لها هذه العبارة: إنه يهديك تمنياته.

ـ ميتيا! وماذا لو جاءت غروشينكا اليوم أو غداً أو بعد غد.

ـ غروشينكا؟ إذا أتت، سأراها وسأحول بينهما.

ـ وإذا؟

ـ وإذا وقع المحذور فإن جريمة قتل ستقع، فلن أستطيع احتمال ذلك.

ـ ومن تقتل؟

ـ الرجل العجوز. فإنني لن أقتلها هي.

ـ يا أخي ما هذا الذي تقوله؟.

ـ أواه، إنني لا أدري... لا أدري، ربما استنكفت عن قتله وربما قتلته. إنني أخشى أن يبدو وجهه منفراً في عيني في تلك اللحظة. إنني أكره حلقومه القبيح وأكره أنفه وعينيه وضحكته الخبيثة الوقحة. إنني أشعر بنفور منه في جسمي. هذا ما أخشاه، أن لا أعود أطيقه أو أن أفقد سيطرتي على نفسي.

ـ سأذهب يا ميتيا، إنني مؤمن بأن الله سيقدر الخير ويمنع الشر الرهيب.

ـ وأنا سألبث هنا منتظراً حدوث المعجزة. أما إذا لم تحدث...

وانطلق أليوشا إلى منزل أبيه ساهماً مفكراً.



سميردياكوف

عندما دخل أليوشا على أبيه، وجده ما يزال جالساً إلى المائدة. ومع أن المنزل كان يحتوي على غرفة للطعام، فقد كان الخوان، كالعادة، موضوعاً في غرفة الاستقبال. إنها أكبر غرف المنزل. ومؤثثة برياش فاخر أبيض اللون قديم العهد، مكسو بقماش قديم من الحرير الأحمر. وكانت على الجدران بين كل نافذة وأخرى مرايا وضعت ضمن إطارات فخمة مموهة باللونين الأبيض والذهبي، ومزخرفة بنقوش من الطراز القديم. وكانت الجدران نفسها مغطاة بورق أبيض، ممزق في عدة مواضع وهي مزدانة بلوحتين كبيرتين، إحداهما لأمير كان حاكماً لمنطقتنا قبل ثلاثين عاماً، والأخرى لأسقف توفي منذ عهد بعيد. وفي الزاوية المقابلة للباب وضعت عدة إيقونات، وأمامها مصباح كان يشعل عند هبوط الظلام... بقصد إنارة الغرفة أكثر منه للتعبد. وكان من عادة فيودور بافلوفيتش أن يأوي إلى فراشه في ساعة متأخرة جداً من الليل، أي في الثالثة أو الرابعة صباحاً، فيقضي ساعات الليل وهو يذرع الغرفة أو يجلس على مقعد وثير ويستغرق في التفكير، حتى صار هذا السهر عادة ملازمة له. وكان غالباً ما ينام وحده في المنزل بعد أن يصرف الخدام إلى المبنى الملحق. ولكن سميردياكوف كان يظل عادة جالساً على مقعد خشبي في الردهة.

وكان طعام الغداء قد رفع عن المائدة عندما دخل أليوشا، وقدمت القهوة والمربيات. فإن فيودور بافلوفيتش كان يحب التهام الحلويات مع البراندي بعد الغداء. وكان إيفان أيضاً إلى جانبه يرتشف القهوة. أما الخادمان، غريغوري وسميردياكوف، فكانا واقفين على بعد لتلبية الأوامر. وكانت تبدو على كل واحد من السيدين والخادمين أمارات الانشراح التام. وكان فيودور بافلوفيتش يضحك ضحكاً صاخباً. وقد سمع أليوشا ضحكته العالية التي

يعرفها جيداً، قبل أن يدخل الغرفة، فأدرك أن والده ما يزال في مرحلة الانشراح وبعيداً عن مرحلة الثمل.

وما كاد فيودور بافلوفيتش يلمح أليوشا، حتى بدأت أمارات السرور العظيم على وجهه وهتف: ها هو! ها هو! هلم وانضم إلينا. اجلس، إن القهوة ليست كحولاً ولكنها ساخنة ومفيدة. إنني لا أقدم لك البراندي، فأنت راهب. ولكن أتريد قليلاً منه؟ لا، الأفضل أن أقدم لك شيئاً من الليكور الفاخر. سميردياكوف، أحضر الشراب من الخزانة. إنه على الرف الثاني في الجهة اليمنى. هاك المفاتيح هيّا أسرع.

وبدأ أليوشا يعتذر عن قبول الشراب.

فقال فيودور بافلوفيتش ووجهه يطفح بشراً: «إذا كنت لا تريد أن تشرب فلا بأس، أما نحن فسنشرب. ولكن هل تناولت غداءك»؟.

فرد أليوشا بالإيجاب. مع أنه في الحقيقة لم يكن قد أكل سوى قطعة من الخبز وشرب زجاجة من الجعة في مطبخ الأب الرئيس. ثم أردف قائلا: «على أنه يسرني أن أشرب فنجاناً من القهوة الساخنة».

ـ مرحى يا عزيزي! إنه يطلب شيئاً من القهوة. هل يجب تسخينها؟ لا. فهي تغلي. إنها قهوة ممتازة أعدها سميردياكوف. إن سميردياكوف فنان حقاً في إعداد القهوة وصنع فطائر السمك، وحساء السمك أيضاً. يجب أن تأتي يوماً وتذوق حساء السمك، على أن تخطرني سلفاً بقدومك آ... ولكن.. ألم أطلب إليك صباح اليوم أن تعود إلى البيت وتحضر معك مفرشك ووسادتك وسائر أشيائك؟ هل أحضرت مفرشك؟ هي، هي، هي»!.

فأجاب أليوشا وهو يبتسم: «لا، لم أحضرها».

ـ ولكنك جزعت، لقد جزعت صباح اليوم، ألم تجزع؟ إنني لا أستطيع يا عزيزي إزعاجك. هل تعلم يا إيفان أنني لا أستطيع أن أقاوم نظراته الحادة التي يواجه بها، ضاحكاً، محدثه. إنها تجعلني أهتز من الضحك. أنني شديد الكلف به. أليوشا، دعني أمنحك بركتي، بركتي الأبوية.

ونهض أليوشا، ولكن فيودور بافلوفيتش سرعان ما عدل عن فكرته وقال: لا، لا، حسبي الآن أن أرسم شارة الصليب فوق رأسك. إجلس واهدأ.

لدينا الآن تسلية لك من النوع الذي تحبه. إنها ستحملك على الضحك. لقد بدأت أتان بلعام[1] تكلمنا هنا، وعجباً لها كيف تتكلم»!

وقد تبين أن أتان بلعام المعنية بقوله ليست سوى الخادم سميردياكوف. وكان هذا شاباً في الرابعة والعشرين من عمره مؤثراً للوحدة، دائم الصمت إلى حد غريب. ولست أعني بذلك أنه كان خجولاً، بل على نقيض ذلك كان مغروراً يحتقر جميع الناس. وهنا لا بد أن نقول بضع كلمات عنه. فقد تولى تربيته غريغوري ومارفا، ولكنه نشأ «ناكراً للجميل» على حد تعبير غريغوري وقد كان صبياً متزمتاً ينظر إلى العالم بعين الريبة. وكان مغرماً في طفولته بشنق القطط ودفنها باحتفال عظيم. وكان من عادته أن يلتف بقطعة من القماش تقليداً للباس الكاهن ثم يرنم ويلوح بشيء في يده فوق القطة الميتة كمن يحمل مجمراً. وكان يفعل ذلك خفية وبتكتم شديد. وقد باغته غريغوري ذات مرة وهو منهمك بهذه التسلية فعاقبه بالضرب المبرح. فما كان منه إلا أن انزوى في ركن قصي وانقطع عن الكلام لمدة أسبوع. وكان غريغوري يقول لمارفا: «إن هذا الوحش لا يبالي بكلينا، إنه لا يعبأ بأحد». ثم يخاطب الصبي قائلاً: «هل أنت بشر؟ إنك لست إنساناً لقد ولدت من العفن المتراكم في غرفة الحمام. ذلك أنت». ولم يغفر له سميردياكوف هذه الكلمات أبداً كما تبين فيما بعد. وقد علمه غريغوري القراءة والكتابة، وعندما بلغ الثانية عشرة شرع يحفظه الكتب المقدسة، ولكن هذا التعليم لم ينته إلى نتيجة، فإن الصبي فاجأه في الدرس الثاني أو الثالث بابتسامة ساخرة.

وقد سأله غريغوري وهو يرميه بنظرة تهديد من وراء نظارتيه: «ماذا تقصد بهذه الابتسامة»؟.

فأجابه الصبي: «لا شيء، إن الله خلق النور في اليوم الأول. وخلق الشمس والقمر والكواكب في اليوم الرابع. فمن أين جاء النور في اليوم الأول»؟

وصعق غريغوري لهذا السؤال، بينما أخذ الصبي يرمي استاذه بنظرات

(١) في التوراة إن أتان بلعام نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب.

ساخرة، وقد بدت على سحنته أمارت التعاظم. ولم يقو غريغوري على كظم غيظه، فصاح بالصبي قائلاً: «سأريك من أين جاء»! وصفعه على وجهه صفعة شديدة. ولم يجب الصبي ولكنه عاد إلى الانزواء لأيام أخرى. وبعد أسبوع أصابته أول نوبة من نوبات الصرع التي بقيت تلازمه بقية حياته. وما كاد فيودور بافلوفيتش يعلم بالأمر حتى تبدلت نظرته إلى الصبي. فهو كان حتى ذلك الحين لا يحفل به، ولكنه لم يتفق له قط أن زجره، بل كان ينفحه بقطعة من النقود كلما مر به. وكان في أوقات انشراحه يبعث إلى الصبي أحياناً بشيء من حلوى مائدته. غير أنه ما كاد يعلم بمرضه حتى أبدى اهتماماً حقيقياً بأمره، فاستدعى طبيباً، وابتاع له أنواعاً من العقاقير، ولكنها لم تنفعه، فقد تبين أن الداء غير قابل للشفاء. وكانت نوبات المرض تنتابه بمعدل مرة في الشهر ولكن بغير انتظام. وكانت تختلف في القوة فتارة تكون خفيفة وطوراً تكون عنيفة للغاية. وقد منع فيودور بافلوفيتش خادمه غريغوري منعاً باتاً من معاقبة الصبي عقاباً جسدياً. وبدأ يسمح له بزيارته في المنزل. وقد عارض أيضاً تعليمه أية دروس لمدة من الزمن. وعندما ناهز الصبي الخامسة عشرة من عمره لمحه فيودور بافلوفيتش يتسكع أمام خزانة الكتب ويقرأ عناوينها من وراء الزجاج. وكان فيودور بافلوفيتش يملك كتباً يربو عددها على المائة، ولكنه لم يشاهد قط يطالع أحدها، وقد سلم مفتاح خزانة الكتب لتوه إلى سميردياكوف وقال له: «هلم اقرأ، وسأجعلك قيم مكتبتي، فالمطالعة هنا خير لك من التسكع في صحن الدار». ثم ناوله كتاب «أمسيات في كوخ قرب ديكانكا» وطلب إليه أن يقرأه.

وقد قرأ بضع صفحات فلم يعجبه، ذلك أنه لم يبتسم مرة واحدة، ثم قطب جبينه وألقى بالكتاب جانباً.

فسأله فيودور بافلوفيتش: «لماذا؟ أليس مضحكاً»؟

ولكن سميردياكوف ظل صامتاً.

ـ أجب أيها الغبي!.

فتمتم الصبي وهو يغتصب ابتسامة: «إنه لا حقائق فيه».

ـ فلتذهب إلى الشيطان! إنك خادم جسداً وروحاً. هاك «تاريخ العالم»

لسماراغدوف، إنه كله حقائق، فاقرأه.

ولكن سميردياكوف لم يقرأ سوى عشر صفحات وألقى الكتاب جانباً، فقد وجده مملاً. وهكذا اقفلت خزانة الكتب ثانية.

وقد نمى غريغوري وزوجه مارفا بعيد ذلك إلى فيودور بافلوفيتش أن سميردياكوف بدأ يتقزز من الطعام أكثر فأكثر. فصار يجلس إلى المائدة ويمسك بالملعقة وينظر إلى صفحة الحساء الموضوعة أمامه وينحني فوقها ويتفحصها بدقة، ثم يملأ الملعقة منها ويمعن نظره فيها تحت الضوء.

وكان غريغوري يسأله: ماذا؟ أهي خنفساء؟.

وتقول مارفا: لعلها ذبابة.

ويبقى الشاب المتبرم صامتاً وكان يفعل مثل ذلك الفعل بالخبز واللحم وكل ما يقدم إليه من طعام. فكان يثبت اللقمة على شوكته ويعرضها إلى النور ثم يتفحصها بدقة متناهية ولا يضعها في فيه إلا بعد تأمل طويل.

وكان غريغوري يتمتم قائلا وهو يرقبه: «آه! أية أخلاق رفيعة هذه»!

وعندما علم فيودور بافلوفيتش بما طرأ على سميردياكوف من تغير، عزم على جعله طاهيه الخاص، فأرسله إلى موسكو لكي يتدرب على الطهي. وبقي الشاب فيها بضع سنوات ثم عاد وقد تبدل مظهره تبدلاً ملحوظاً، فصار يبدو متقدماً في السن، وتجعد وجهه وعلاه الشحوب بما لا يتفق وعمره. أما خلقياً فقد ظل كما كان قبل مغادرته، فقد ظل منكمشاً على نفسه ولم يبد أي ميل إلى مصاحبة الناس. وقد علمنا فيما بعد أنه كان في موسكو أيضاً محباً للصمت. ولم يشغف بموسكو نفسها إلا قليلاً، فهو لم يشاهد سوى القليل من معالمها، ولم يحفل بشيء فيها. وقد ذهب إلى المسرح مرة واحدة، ولكنه عاد صامتاً ممتعضاً. ومن جهة أخرى، فقد عاد إلينا من موسكو متأنقاً بهندامه يرتدي معطفاً أنيقاً وثياباً نظيفة، وصار ينظف ثيابه بالفرشاة بعناية مرتين في اليوم. ولم يكن ليغفل عن ذلك أبداً. وكان مغرماً بتنظيف حذائه الأنيق بصباغ إنكليزي خاص حتى يصبح لامعاً كالمرآة. وقد برهن بعد عودته أنه طاه من خيرة الطهاة، فخصص له فيودور بافلوفيتش مرتباً، كان سميردياكوف ينفقه كله تقريباً على الثياب والطيوب والعطور وما شابهها. ومع

ذلك، لم يكن أقل احتقاراً للنساء من الرجال، فكان شديد الحذر منهن، متحاشياً لهن، مما حدا بفيودور بافلوفيتش إلى تبدليل نظرته إليه. وقد أخذت نوبات مرضه تتقارب. وكانت مارفا تقوم بأعمال الطهي في أيام مرضه، فلم يكن فيودور بافلوفيتش راضياً عن ذلك.

وقد سأل فيودور بافلوفيتش ذات يوم طاهيه الجديد وهو ينظر إليه شزراً: «لماذا ألح عليك المرض؟ أفلا تكون راغباً في الزواج؟ هل اختار لك زوجة»؟.

فامتقع وجه سميردياكوف لشدة غضبه، ولم يجب. وانصرف عنه فيودور بافلوفيتش وهو يحرك يده كمن نفذ صبره. وكان أعظم ما في الأمر ثقة فيودور بافلوفيتش المطلقة بأمانته. فقد حدث ذات مرة، وكان فيودور بافلوفيتش ثملاً، أن سقطت منه على الأوحال المتراكمة في صحن الدار، ثلاث ورقات نقدية من فئة المائة روبل، كان قد قبضها قبل قليل ولم يفتقدها إلا في اليوم التالي فهب للبحث عنها في جيوبه وإذا به يشاهدها على المنضدة. فمن أين أتت؟ لقد عرف أن سميردياكوف وجدها البارحة ووضعها هناك.

وقد كافأه فيودور بافلوفيتش بعشرة روبلات وقال له بإيجاز: «حسناً أيها الفتى، إني لم أر قط إنساناً مثلك». ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أنه لم يكن يعتقد بأمانته فحسب بل كان يشعر بميل نحوه، مع أن نظرة الشاب إليه ليست أقل شزراً من نظرته إلى سائر الناس، وكان دائم الصمت. وقلما كان سميردياكوف يتكلم. ولو أراد إنسان ما في ذلك الحين أن يعرف اهتمامات الشاب أو ماذا يجول في خاطره، لما استطاع مهما تفرس فيه. ومع ذلك فقد كان سميردياكوف أحياناً يقف فجأة في البيت أو في صحن الدار أو الشارع، ويلبث جامداً في وقفته مدة عشر دقائق يكون أثناءها مسترسلاً في التفكير. ولو أن أحد علماء الفراسة تفرس في وجهه وهو على تلك الحال، لقال إنه لا أثر فيه للتفكير أو التدبر وإنما هو نوع من التأمل.

هنالك لوحة رائعة اسمها «التأمل» للرسام كرامسكوي إنها تمثل فلاحاً يقف بقفطانه الرث، وحذائه الممزق، والفصل شتاء، على طريق مقفر يخترق

الغابة، مستغرقاً في التفكير، كما يبدو في اللوحة. ومع ذلك فإنه لا يفكر؛ إنه «يتأمل». ولو مسه أحد لأجفل وفتح عينيه كمن يستيقظ من نومه مشدوهاً. فإذا ما ثاب فوراً إلى رشده وسألته عما كان يفكر فيه، لما استطاع أن يجيبك بشيء. ومع ذلك فإن فكرة ما ربما بقيت قابعة في داخله، بعد أن كانت شاغلته وهو في غمرة تأمله. وتلك الأفكار عزيزة عليه، ولا ريب في أنه يكدسها بدون إحساس أو قصد. وهو لا يعرف بطبيعة الحال لماذا أو كيف حصل ذلك. وقد تراه بعد أن تتراكم الأفكار عدة سنوات يتخلى عن كل شيء بغتة وينطلق إلى القدس حاجاً لتخليص روحه، أو قد يضرم النار في القرية التي ولد فيها، وربما فعل هذه وتلك. ويكثر وجود «المتأملين» بين أبناء طبقة الفلاحين. ولعل سميردياكوف كان أحدهم، ولعله أيضاً كان يكدس الأفكار من غير معرفة لهدف أو لسبب لها.



الخصومة

لقد نطقت فجأة أتان بلعام فعلاً، وكان الموضوع الذي أثارته غريباً، كان غريغوري في صباح ذلك اليوم في السوق لشراء بعض الحاجات، سمع من البقال لوكيانوف قصة جندي روسي نشرتها صحف الصباح. ومؤداها أن ذلك الجندي أسر ونقل إلى إقليم على حدود آسيا، حيث هدده آسروه بالتعذيب والموت إذا لم يرتد عن المسيحية إلى الوثنية. ولكنه أبى أن ينكر دينه فعذبوه وسلخوا جلده حياً، فمات وهو يمجد المسيح ويسبح باسمه. وقد روى غريغوري هذه القصة على المائدة. وكان فيودور بافلوفيتش إذا ما رفع طعام الغداء ووضعت الحلوى، يحب دوماً أن يضحك وأن يتحدث، ولو مع غريغوري. وكان في عصر ذلك اليوم منشرح النفس مرح المزاج. وبعد أن سمع القصة وهو يرتشف البراندي، علق قائلا: «إن الواجب كان يقضي بإعلان ذلك الجندي قديساً، ونقل جلده إلى أحد الأديرة، فإن الإقبال على ذلك الدير سيكون عظيماً، وتتدفق عليه الأموال».

وأدرك غريغوري أن فيودور بافلوفيتش لم يتأثر بالقصة وأنه كعادته استرسل بالتجديف فقطب جبينه. وفي تلك اللحظة ابتسم سميردياكوف الذي كان يقف قرب الباب. وكان سميردياكوف كثيراً ما يقوم على خدمة المائدة عندما يشرف الغداء على نهايته فيشهد المناقشات التي تليه، ولكنه واظب على هذه الخدمة يومياً منذ وصول إيفان إلى بلدتنا.

وقد لحظ فيودور بافلوفيتش الابتسامة لتوه، وعرف أن المقصود بها هو غريغوري، فسأل سميردياكوف «ما الذي جعلك تبتسم»؟.

وكانت إجابة سميردياكوف مفاجئة فقال بصوت مرتفع وبطريقة لم تكن منتظرة: «إن رأيي هو أن العمل الرائع الذي أقدم عليه ذلك الجندي إذا

كان بطولياً عظيماً إلى هذا الحد، فلا يمكن اعتباره خاطئاً لو أنه في مثل ذلك الموقف الحرج أنكر، على حد القول، اسم المسيح وكفر بالمسيحية، لكي ينقذ بذلك حياته، حتى يكرسها لأعمال الخير التي ستكفّر بعد سنين عن ضعفه في تلك اللحظة.

فقال فيودور بافلوفيتش: «كيف لا يكون خاطئاً؟ إن هذا حديث لغو. وسيكون عقابك عليه الهبوط إلى جهنم حيث يشوى جسمك كما يشوى لحم الخرفان».

وقد اتفق وصول أليوشا إذ ذاك، فكان سرور فيودور بافلوفيتش عظيماً لقدومه، كما أشرنا. وقال ضاحكاً مبتهجاً عظيم الابتهاج: «إننا نبحث موضوعاً يهمك موضوعاً يهمك». ثم طلب إلى أليوشا أن يجلس.

وقال سميردياكوف بلهجة تنم عن العناد والتعنت: «أما عن شوي الخراف، فذلك غير صحيح، ولن يكون هناك شيء منه، إذا التزمت قواعد العدالة».

وهتف فيودور بافلوفيتش الذي أفرط في المرح وهو يكز أليوشا بركبته: «وماذا تعني بالتزام قواعد العدالة»؟.

وصاح غريغوري بغتة: «إنه وغد، ولا شيء سوى ذلك». وكان يوجه إلى سميردياكوف نظرات ملؤها الحقد والغضب.

فأجابه سميردياكوف محتفظاً بهدوئه التام: «أما قولك أنني وغد، فمهلاً يا غريغوري فاسيلييفتش، وأجدى لك أن تفكر ملياً أنني لو وقعت أسيراً في أيدي أعداء المسيحية، وطلبوا مني أن ألعن اسم الله وأن أنكر مسيحيتي المقدسة، فإنني في مثل هذه الحالة أتمتع بحقي كاملاً في الاستجابة لما يمليه عقلي ولن يكون في الأمر خطيئة».

فصاح فيودور بافلوفيتش: «لقد قلت هذا من قبل، لا تردد قولك، عليك بالبرهان».

وتمتم غريغوري بلهجة تنم عن الازدراء: «طاهي الحساء»!.

فعاد سميردياكوف إلى الكلام قائلاً: «أما أنني طاهي حساء، فرويدك أيضاً يا غريغوري فاسيلييفتش وعليك بالتروي قبل أن ترميني ببذيء الكلام.

فأنا حالما أقول لأولئك الأعداء: «إني أرتد عن المسيحية أو أتنكر لإلهي الحقيقي، في تلك اللحظة بالذات، تحل علي لعنة الله، بموجب حكم إلهي سام، وأفصل عن الكنيسة المقدسة، كأي وثني منذ تلك اللحظة بعينها لا عندما نطقت بالتجديف بصوت مرتفع، بل عندما أفكر بالنطق به، وقبل أن ينقضي ربع ثانية من الزمن، أكون قد فصلت. أليس هذا صحيحاً يا غريغوري فاسيلييفتش»؟.

وكان يخاطب غريغوري بتعمد وارتياح، مع أنه كان في الحقيقة يجيب عن أسئلة فيودور بافلوفيتش، وهو مدرك لذلك، ويتظاهر متخابثاً بأن غريغوري هو الذي وجه إليه الأسئلة.

وصاح فيودور بافلوفيتش فجأة: «إيفان، ادن مني لأهمس شيئاً في أذنك. لقد قال ما قال لصالحك. إنه يريد تأييدك ومديحك. فاثن عليه إذن».

وأصغى إيفان بوقار إلى والده وهو يهمس في أذنه همساً مشوباً بالاهتمام. وعاد فيودور بافلوفيتش إلى الكلام فصاح: «تمهل يا سميردياكوف، اصمت دقيقة». ثم خاطب إيفان قائلا: «إيفان، ثمة أمر آخر أريد أن أهمس به في أذنك».

وانحنى إيفان نحو والده ثانية باهتمام لا يقل عن المرة الأولى.

- إنني أحبك بقدر ما أحب أليوشا. لا يتبادر إلى ذهنك أنني أحبه أكثر منك. هل لك في شيء من البراندي؟ فأومأ إيفان بالإيجاب وهو يقول في نفسه ناظراً إلى أبيه: لقد أصبحت ثملاً.

إلى ذلك، كان يرقب سميردياكوف بفضول عظيم.

وفجأة عاد غريغوري إلى الكلام مهتاجاً فقال: «إنك منذ الآن قد حلت عليك لعنة الله، فكيف تجرؤ أيها الوغد على أن تجادل إذا...!».

فقاطعه فيودور بافلوفيتش قائلاً: «لا توبخه ياغريغوري. كف عن توبيخه».

وقال سميردياكوف: «تمهل ولو فترة قصيرة يا غريغوري فاسيلييفتش، وأصغ إلي لأنني لم أكمل حديثي. إذ أنني في اللحظة ذاتها التي تحل علي فيها لعنة الله، في تلك اللحظة الحاسمة بالذات، أصير كأي وثني آخر، وتنزع

عني نصرانيتي وتصبح عديمة الجدوى. أليس هذا صحيحاً»؟.

استحثه فيودور بافلوفيتش على متابعة حديثه قائلا، وهو يتجرع البراندي بتلذذ: «أسرع يا فتى وأتمم حديثك لنقف على النتيجة».

وتابع سميردياكوف كلامه فقال: «وإذا لم أعد مسيحياً، فلا أكون عندها قد كذبت على العدو في إجابتي على سؤاله عما إذا كنت مسيحياً أم غير مسيحي، فإن الله نفسه يكون قد أعفاني من نصرانيتي بسبب نيتي وحدها وقبل أن يتسع لي الوقت للإجابة بكلمة واحدة. فإذا كنت قد نبذت، فبأي حق وبأية طريقة أحاسب كمسيحي في الآخرة على نكراني المسيح، بعد أن أعفيت من نصرانيتي لمجرد النية، وقبل أن أنكره؟ وقبل أن أكون مسيحياً، فأنّى لي أن أنكر المسيح، إذ ليس ثمة من أنكره. ومن ذا الذي يستطيع يا غريغوري فاسيلييفتش أن يحاسب تترياً قذراً، حتى في السماء، على أنه لم يولد مسيحياً؟ ومن ذا الذي يعاقبه على ذلك مع العلم بأنك لا تستطيع أن تسلخ ثوراً واحداً مرتين؟ إذ أن الله العلي القدير، حتى ولو حاسب التتري على ذلك، فإنه تعالى سيعاقبه عقاباً يسيراً في تصوري (إذ لا بد من فرض عقاب ما عليه)، ويقضي سبحانه وتعالى بأن التتري لا يلام على مجيئه إلى الدنيا وثنياً قذراً من أبوين وثنيين. ومن المؤكد أن الرب الإله لا يستطيع أن يعدّ التتري مسيحياً! لأن ذلك يعني أن العلي القدير ينطق بشيء مغاير للحقيقة مغايرة تامة. وهل يستطيع رب السماوات والأرض أن يكذب ولو في كلمة واحدة»؟.

وصعق غريغوري وهو ينظر إلى الخطيب محملقاً ومع أنه لم يفقه ما سمعه، فقد ألم بشيء من ذلك الهراء، وصار يبدو في وقفته كمن ضرب على رأسه بالحائط. أما فيودور بافلوفيتش فقد أفرغ كأسه في جوفه وأطلق ضحكته الصاخبة، ثم هتف قائلا:

«أليوشا! أليوشا! ما قولك في ذلك! يا له من فقيه! لا شك أنه انخرط في سلك اليسوعيين يا إيفان. أيها اليسوعي المنتن، من علمك هذا؟ ولكن حديثك أيها الفقيه، كله لغو. إنه كله لغو. لا تبك يا غريغوري، سنحرقه الآن ونحيله إلى دخان ورماد. أنبئني أيها الأتان. قد تكون مصيباً أمام أعدائك، أما

أمام نفسك فأنت منكر لدينك على أية حال، ثم أنك تقر بأن لعنة الله حلت عليك في تلك اللحظة بالذات.وإذا صرت ملعوناً فإنهم في جهنم لن يكافئوك على ذلك بالترتيب والاستحسان. فما قولك في ذلك أيها اليسوعي الطريف»؟.

- لا ريب في أنني أنكرت ديني في دخيلة نفسي، ولكن هذا النكران لا ينطوي على خطيئة كبيرة. وإذا كانت هنالك خطيئة فهي من أبسط الخطايا العرضية.

- وكيف تكون من أبسط الخطايا؟.

وقال غريغوري مستنكراً: «إنك تكذب، أنت ملعون». فتابع سميرdياكوف كلامه محتفظاً بثقته وهدوئه شاعراً بانتصاره، ولكن متظاهراً بالكرم على خصم خسر المعركة، وقال: إبدأ بنفسك أولاً يا غريغوري فاسيلييفتش. لقد جاء في الكتاب المقدس أنه لو كان عندك إيمان بقدر حبة خردل فإنك تقول للجبل انتقل إلى البحر فينتقل طوع أمرك بدون تأخير. والآن يا غريغوري فاسيلييفتش، إذا كنت أنا عديم الإيمان، وأنت بلغت من عمقه ما يبرر لك أن تشتمني على الدوام، فهلا حاولت أن تأمر هذا الجبل بالانتقال لا إلى البحر لأنه بعيد عنا بعداً عظيماً، بل إلى النهر الصغير المنتن الذي يجري وراء أسفل الحديقة، وسترى بأم عينيك أنه لن يتزحزح من مكانه بل يبقى ثابتاً فيه مهما رفعت عقيرتك بالصراخ، وهذا ما يثبت يا غريغوري فاسيلييفتش أنك لست مؤمناً حقاً في حين أنك تسفه الآخرين لأنهم غير مؤمنين حقاً. ثم إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه لا أحد في هذه الأيام، لا أنت وحدك فحسب، بل في الواقع لا أحد أبداً، من أرفع الناس منزلة إلى أحقر فلاح، يستطيع أن يلقي بالجبال إلى البحر، اللهم سوى رجل واحد في العالم كله أو رجلين على الأكثر، وأرجح أنهما يحققان لنفسيهما السلام والخلاص في مكان ما من صحراء مصر، بحيث لا تستطيع العثور عليهما فإذا صح ذلك، وإذا كان بقية أبناء البشرية عديمي الإيمان، فهل ينزل الله لعنته عليهم جميعاً؟ أي هل يحل لعنته على أهل الأرض جميعاً، ما عدا ناسكين في الصحراء، أو لا يصفح عن أحد منهم وهو كما تعلم الغفور الرحيم؟ ولهذا

فإنني مقتنع بأنه سيغفر لي إذا ما ذرفت دموع الندامة على فعل شك دخل ذات مرة إلى قلبي.

وصاح فيودور بافلوفيتش وقد تعاظمت بهجته: «مهلاً! إذاً فأنت تسلّم بوجود شخصين يستطيعان نقل الجبال؟ إيفان، سجل هذه الملاحظة. هاك مثالاً عن المواطن الروسي»!.

وأمن إيفان على ذلك وهو يبتسم ابتسامة الاستحسان: «إنك مصيب في ملاحظتك هذه، إن هذا مثال لإيمان الشعب».

ـ إنك موافق. ما دمت موافقاً فيجب أن يكون رأيي صحيحاً، أليس كذلك يا أليوشا؟ أليست هذه صورة جامعة للإيمان الروسي؟.

فأجاب أليوشا بحزم وجد: «لا، ليس إيمان سميردياكوف روسياً أبداً».

ـ لست أتحدث عن إيمانه هو، بل أعني ذينك الإثنين المقيمين في الصحراء. الفكرة بحد ذاتها. لا ريب في أنها روسية، أليس كذلك؟.

فقال أليوشا مبتسماً: «نعم، إنها روسية محضة».

وقال فيودور بافلوفيتش مخاطباً سمير دياكوف: «إن كلماتك تساوي قطعة ذهبية، أيها الأتان، وسأنقدك إياها اليوم. أما سائر كلامك فكله لغو. دعني أنبئك أيها الغبي إن الإهمال وحده هو سبب كوننا جميعنا هنا، لأنه لم يتهيأ لنا الوقت الكافي. إن وقتنا بالكاد يكفي لإتمام أعمالنا وواجباتنا، ومن جهة ثانية فإن الرب الإله منحنا وقتاً قليلاً لا يعدو أربعاً وعشرين ساعة في اليوم الواحد، بحيث لا يجد أحدنا متسعاً من الوقت لينال قسطاً كافياً من النوم، فما بالك بالندم على خطاياه. أما وقد أنكرت أيها الأخ دينك أمام أعدائك عندما كان واجبك يقضي بألا يغلب إيمانك أي شيء آخر فاعتبر عملك خطيئة.

ـ أما أنها خطيئة فقد يكون هذا صحيحاً، ولكن فكر بنفسك، يا غريغوري فاسيليفتش، إنها إذا كانت فعلاً خطيئة فهي خطيئة مخففة. فلو كنت أؤمن عندئذ بالحقيقة، كما كان الواجب يقتضي مني، لكنت قد ارتكبت خطيئة لو رفضت العذاب من أجل ديني، وارتددت عنه إلى الوثنية ولكن ما كان الأمر بطبيعة الحال ليبلغ حد التعذيب، لأن غاية ما كان علي

أن أفعله في تلك اللحظة هو أن أقول للجبل، تحرك واسحق معذبي، فينتقل من مكانه ويسحقهم كالحشرات، فأمضي أنا في سبيلي ممجداً الله مسبحاً بحمده، وكأن شيئاً لم يحدث. ولكن لنفترض أنني حاولت ذلك في تلك اللحظة، وصحت بالجبل: «اسحق هؤلاء المعذبين» فلم يجبني ولم يسحقهم، فكيف أتمالك نفسي من الشك في مثل ذلك الوقت، وفي مثل تلك الساعة الرهيبة من الرعب القاتل؟ وفضلاً عن ذلك فإني قد علمت سلفاً أنه لن يكون في وسعي بلوغ ملكوت السماوات (ذلك لأنه بعد أن خذلني الجبل ولم يتحرك تنفيذاً لأمري، فإنهم في العلى لم يحملوا فكرة طيبة عن إيماني، ولن تكون هنالك مكافأة عظيمة بانتظاري في الآخرة). فما الجدوى من السماح لهم بسلخ جلدي، ولغير فائدة؟ لأنه حتى لو سلخوا جلدي إلى منتصف ظهري وناديت الجبل ثانية لن ينصاع لأمري مهما علا صراخي وفي مثل تلك اللحظة لا يتعرض المرء للشك فحسب، بل قد يفقد عقله لشدة الخوف، بحيث يصبح عاجزاً عن التفكير.. ولذلك فكيف ألام دون سائر البشر إذا اخترت إنقاذ جلدي على الأقل وأنا في لجة الشك والحيرة غير قادر على أن أتبين فائدة لي أو مكافأة في الدنيا أو الآخرة؟.

ولذلك فإني أضع كامل ثقتي برحمة الله وأعلل نفسي بأمل الحصول على غفرانه التام.



على مائدة الشراب

انتهى الجدال. ولكن الغريب أن فيودور بافلوفيتش الذي بدأ منشرحاً مرحاً انتهى عابساً فجأة، وقطب جبينه وصار يعب البراندي عباً وتجاوز طاقته من الشراب بكأس واحدة. ثم إنه انتهر الخادمين قائلا:

«إليكم عني أيها اليسوعيون! أغرب عن وجهي يا سميرديا كوف. سأبعث إليك اليوم النقود الذهبية التي وعدتك بها، فاغرب عن وجهي! وأنت يا غريغوري لا تنتحب، إذهب إلى مارفا فإنها ستواسيك وتضعك في سريرك». ثم زمجر حانقاً وهو ينظر إلى خادميه وهما ينصرفان بسرعة انصياعاً لأمره: «إن النذلين لا يريدان لنا أن ننعم بالهدوء بعد الغداء».

ثم التفت إلى ابنه إيفان واندفع يقول: إن سميرديا كوف قد أجاز لنفسه أن يكون كل يوم في هذه الغرفة بعد الغداء، إن اهتمامه ينصب عليك، فبم فتنته؟.

فأجاب إيفان: إنني لم أفعل شيئاً، غير أنه يشعر نحوي بالتقدير والإعجاب؛ وهو رجل متطفل فظ، ولكنه مادة أولية للثورة عندما يحين أوانها.

ـ للثورة؟.

ـ سيأتي أناس غيره وأفضل منه. ولكن سيكون هنالك أشباه له. وسيأتي أمثاله أولاً، ثم يتلوهم الأفضلون.

ـ ومتى يحين الوقت لذلك؟.

ـ إن المقذوف ربما اندفع يشق عنان السماء فيكون له انفجار مدو. لكن الفلاحين الآن غير مهتمين كثيراً بما يقوله هؤلاء الطباخون.

ـ آه يا أخي. إن ذلك الأتان يفكر ويفكر ولا يدري إلا الشيطان إلى أين يؤدي تفكيره.

فقال إيفان مبتسماً: «إنه يجمع الآراء».

فأردف فيودور بافلوفيتش قائلا: «أتدري، إنني أعلم أنه يكرهني ويكره الآخرين، حتى أنت رغم ظنك بأنه يكن لك التقدير. وأنكى من هذا فهو لا يكره أليوشا أيضاً بل يحتقره، ولكن فيه خلة طيبة وهي أنه لا يسرق، كما أنه لا يثرثر بل يمسك لسانه ولا يشهر بنا أمام الناس. وفضلاً عن ذلك فهو ماهر في صنع فطائر السمك الشهية؛ ولكن تباً له فهل يستحق أن نطيل الحديث عنه بهذا الشكل»؟.

ـ كلا بالطبع.

ـ أما فيما يتعلق بالآراء التي ربما كانت تختمر في ذهنه، فإن الفلاح الروسي على وجه العموم يستحق الجلد، لقد كان هذا رأيي دائماً، ففلاحونا غشاشون لا يستحقون الرأفة، وحسناً أنهم ما زالوا يجلدون في بعض الأحيان. إن أشجار الخيزران التي تصنع منها المجالد كثيرة في روسيا، فإذا تلاشت من أرضها الغابات كان ذلك معناه خرابها. إنني من فئة المهرة من الناس، ولقد منعنا أن يجلد الفلاحون وأمعنا في المهارة ولكنهم استمروا يجلدون بعضهم بعضاً. وهذا أمر جيد، لأنه بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم ويزاد، أوليس هذا هو نص الآية؟ على كل حال إن فيها كيلاً. إن روسيا قذر كلها. يا عزيزي لو تدري مدى كرهي لروسيا.. أكرهها لا لما فيها من رذائل! ولكن ربما كنت أقصد روسيا بعينها. إن كل ما ذكرته في حديثي هو شيء قذر.. هل تدري أي شيء أحب؟ إنني أحب الذكاء والمرح.

ـ لقد تجاوزت طاقتك بكأس أخرى. كفاك شراباً.

ـ لا، سأحتسي كأساً ثانية فثالثة ثم أكف عن الشراب. مهلاً، لقد قطعت علي أفكاري. لقد كنت في موكرو أتحدث إلى رجل شيخ فقال لي: إنه ما من شيء أحب إلى نفوسنا من أن نحكم على الفتيات بالجلد. ونحن نكلف الشباب دائماً تنفيذ هذه المهمة. والشاب الذي يجلد الفتاة اليوم يتقدم للزواج منها في الغد، إن هذا جزاء وفاق للفتيات؟ هل لنا في الذهاب

ومشاهدة جلد الفتيات؟ ماذا تقول يا أليوشا؟ أتحمر خجلاً؟ لا تكن طفلاً خجولاً. لشد ما أسفت إذ لم أستطع البقاء وتناول طعام الغداء على مائدة رئيس الدير لكي أروي للرهبان قصة فتيات موكرو. أليوشا لا تغضب لأنني أهنت رئيسك في هذا الصباح. فلقد خرجت عن طوري. إنه لو كان هنالك إله لكنت بطبيعة الحال ملوماً استحق العقوبة، ولكن إذا لم يكن هناك وجود لله أبداً فماذا يستحق أولئك الرهبان؟ إنه لا يكفي أن تضرب أعناقهم لأنهم يعيقون تقدم البشرية. هل تصدق يا إيفان أن ذلك يؤلم مشاعري؟ إني أرى في عينيك عدم التصديق. إنك تصدق ما يقوله الناس عني بأنني مهرج لا غير؟ أليوشا، هل تصدق أنني لست مهرجاً فحسب؟.

- كلا، إنني لا أصدق ذلك.

- وأنا أعتقد بأنك لا تصدق ذلك فأنت تتكلم بصدق. إنك تبدو مخلصاً ولا تتكلم إلا الصدق. أما إيفان فلا، فهو مترفع.. إنني سأنهي وضع رهبانك، وسآخذ تلك الجماعة الغريبة كلها وأجتثها من جميع أراضي روسيا لكي أرد الأغبياء إلى العقل والرشاد. وعندئذ سينهال الذهب والفضة على خزانة الدولة!

فتساءل إيفان قائلا: ولكن لماذا تريد اجتثاثها؟.

- لكي يسود الصدق. إن هذا هو السبب.

- ولكن أنت تدرك أنه لو ساد الصدق لكنت أول من يسلب ويجرد من أمواله ويجتث!.

فاندفع فيودور بافلوفيتش قائلا وهو يضرب جبهته براحِهِ: «وي! قد أقول أنك على صواب. أواه أنتني أتان!» والتفت إلى أليوشا واندفع يقول: «إذن فديرك سيظل قائماً يا أليوشا، إذا كان الأمر كذلك، أما نحن معشر الأذكياء فسنعيش في رخاء ونتلذذ بشرب البراندي. هل تدري يا إيفان أن ذلك لا بد وأن يكون مقدراً من قبل الله جل شأنه. إيفان، تكلم، هل الله موجود أم لا؟ كن صادقاً وجاداً فيما تقول. لماذا عدت إلى الضحك؟».

- إنني أضحك لأنك في هذه اللحظة أشرت إشارة حذق إلى اعتقاد سميردياكوف بوجود ذينك القديسين اللذين يستطيعان زحزحة الجبال.

- لماذا، إذن هل هنالك شبه بيني وبينه الآن؟.

- شبه عظيم.

- حسناً إن هذا يثبت أنني حقاً روسي، وأن لي خصائصه المميزة، إنك أنت أيضاً ربما زلّت قدمك ووقعت وقعتي ذاتها مع أنك فيلسوف. هل أوقع بك؟ إنني أراهنك على أنني سأوقع بك منذ الغد. ولكن هذا لا يصرفني عن السؤال، هل الله موجود أم لا؟ ولكن، كن جاداً. إنني أريدك أن تكون الآن جاداً.

- كلا، لا وجود لله.

- أليوشا، هل هنالك وجود لله؟.

- نعم.

- إيفان هل هنالك خلود مهما كانت صفته ومهما كان قدره قليلاً؟.

- إنه لا أثر للخلود.

- لا خلود البتة؟.

- البتة.

- إذن فالدنيا خواء. ربما كان هنالك شيء ما؟ إن القليل خير من لا شيء!.

- بل خواء محض.

- أليوشا هل هنالك خلود؟.

- نعم.

- هل هنالك وجود لله والخلود؟.

- نعم الله والخلود. فالخلود من صفات الله.

- أغلب ظني أن إيفان هو المحق. يا لله! ما أكثر تضحيات الإنسان في سبيل ذلك الإيمان وتلك القوة المتشعبة الأنحاء التي أهدرها الناس على لا شيء، على حلم راود أذهانهم منذ آلاف السنين. ترى من يسخر بالإنسان؟ إيفان! إنني أطرح عليك هذا السؤال للمرة الأخيرة ولن أعود إليه، هل هنالك وجود لله أم لا؟ إنني أسألك للمرة الأخيرة!.

- وللمرة الأخيرة أقول لك لا.

- من يسخر من الإنسان يا إيفان؟.

- فأجاب إيفان باسماً: «لا بد وأن يكون الشيطان».

- إذاً الشيطان موجود؟.

- كلا، إنه لا وجود للشيطان كذلك.

- وأسفاه، تباً لهذا كله، ترى ماذا أصنع بذلك الرجل الذي اخترع وجود الله! فإن الصلب قليل عليه.

- لو لم يخترعوا وجود الله لما كانت هنالك مدنية!.

- لما كانت هنالك مدنية؟ بدون الله؟.

- كلا. ولا براندي أيضاً. ولكن آن أن أبعد هذا البراندي عنك بأية حال.

- مهلاً، مهلاً، مهلاً يا ولدي العزيز، أعطني كأساً أخرى. لقد آذيت مشاعر أليوشا. ألم تغضب مني يا أليوشا؟ يا عزيزي الصغير الكسي!.

- كلا إنني لست غاضباً. إنني أعلم أفكارك، فقلبك خير من رأسك.

- قلبي خير من رأسي. هل هذا صحيح؟ يا إلهي! وهذا القول منك. أتحب اليوشا يا إيفان؟.

- نعم.

- يجب عليك أن تحبه (وكان السكر في هذه اللحظة أخذ مأخذه من فيودور بافلوفيتش). أصغ إليّ يا أليوشا. لقد كنت فظاً مع الناسك صباح اليوم، إذ أنني كنت مهتاجاً. إن ذلك الناسك على حظ من الذكاء، ما رأيك يا إيفان؟.

- صحيح على الأرجح.

- إن فيه فطنة. إن فيه فطنة، وفيه قبس من الكاتب بيرون. فهو يسوعي، من اليسوعيين الروس. وهو رجل شريف يشعر في أعماقه بالاشمئزاز لأنه يضطر إلى التظاهر بالقداسة وادعائها.

- ولكنه بالطبع يؤمن بالله.

ـ لا، أبداً ألا تعلم ذلك؟ إنه يعترف بذلك أمام الجميع. أعني أنه لا يبوح بذلك لجميع الناس بل للمهرة منهم الذين يأتون إليه. لقد جابه الحاكم شولتز منذ مدة ليست بالطويلة بقوله: إنني أؤمن، ولكنني لا أدري بماذا.

ـ أحقاً ما تقول؟

ـ لقد قال ذلك فعلاً. ومع ذلك فأنا أحترمه، ففيه شيء من صفات فيفيستوفيليس أو بالأحرى صفات «بطل عصرنا» أربنين إذا صدقت ذاكرتي. أتدري أنه شهواني، إنه شهواني إلى حد يجعلني لا آمن على ابنتي أو زوجي إذا ذهبت للاعتراف له. هل تدري متى يبدأ في سرد القصص. لقد دعانا قبل ثلاثة أعوام لتناول الشاي، الشاي مع «الليكور» (إن السيدات يرسلن إليه «الليكور») وظل يقص علينا طرفاً من سالف أيامه حتى كادت جنوبنا أن تشق من فرط الضحك... لا سيما عندما حدثنا عن الطريقة التي عالج بها ذات مرة امرأة مشلولة وقال أن المرأة قالت له: «لولا أن ساقيّ مريضتان لرقصت لك الرقصة التي أجيدها». فما رأيك أليست ظريفة؟ وقد قال أيضاً: لقد كان في جعبتي الكثير من الألاعيب أيام شبابي. وقد ابتز من التاجر ديميدوف ستين ألف روبل.

ـ ماذا، هل سرقها؟.

ـ لقد ائتمنه عليها باعتباره رجلاً فاضلاً قال له: «إنني أستودعك هذه النقود يا صديقي فإن رجال الشرطة سيفتشون بيتي غداً». وحفظها له. وقد ذكر لي أنه قال للرجل فيما بعد: «لقد وهبت المبلغ إلى الكنيسة». وقد انبته على ذلك وقلت له: «إنك دنيء». فأجابني قائلا: «كلا لست دنيئاً بل عاقلاً». لا، لا لم يكن هو الذي فعل ذلك، ولكن الذي أقدم على ذلك إنسان آخر. لقد اختلط الأمر علي بينه وبين شخص آخر... دون أن ألاحظ ذلك. هلم، علي بكأس أخرى، كأس أخيرة. أبعد عني قارورة الخمر يا إيفان فقد أخذت أقول الأكاذيب. لماذا لم توقفني يا إيفان وتقل لي أنني كنت أكذب؟.

ـ لأنني أدركت أنك ستتوقف من تلقاء نفسك.

ـ إن ذلك غير صحيح إنك أطلقت لي حبل الكذب بدافع من الخبث، والخبث وحده، إنك تحتقرني. لقد جئت إلي واحتقرتني في عقر بيتي.

ـ حسناً إنني ذاهب. إن الإسراف في شرب البراندي شوش عقلك.

ـ لقد توسلت إليك باسم المسيح أن تذهب إلى تشيرماشنيا وتقضي فيها يوماً أو يومين ولكنك لم تذهب.

ـ سأذهب منذ الغد إذا كنت متشوقاً إلى هذا الحد لذهابي.

ـ بل إنك لن تسافر، لأنك تود أن تبقى لتراقبني. إن هذا هو مأربك أيها الإنسان الحقير. هذا هو سبب عدم سفرك.

فقد الرجل العجوز سيطرته على نفسه، فلقد بلغ به الشراب ذلك الحد الذي يجعل بعض السكيرين فجأة يثيرون عراكاً لإثبات وجودهم ثم مضى يقول:

لماذا تتفرس فيّ هكذا؟ وأية نظرة ترمقني بها؟ إن عينيك تنظران إلي وتقولان: «يا لك من سكير قبيح». إن عينيك تنذران بالخيانة إنهما تفيضان احتقاراً... لقد جئت إلى هذا المكان سعياً وراء غاية. ها هو أليوشا ينظر إلي وعيناه تبرقان. إن أليوشا لا يحتقرني. يا ألكسي إياك أن تحب إيفان.

فقال أليوشا مندفعاً: لا تسيء خلقك مع أخي، وكف عن إهانته.

ـ حسناً. أواه إنك محق. إن صداعاً شديداً ألمّ فجأة برأسي. أبعد البراندي عني يا إيفان. إن هذه هي المرة الثالثة التي أطلب فيها منك أن تبعده.

ثم أخذ يمزح وفجأة ابتسم ابتسامة عريضة ماكرة فقال: «لا تغضب من رجل ضعيف يا إيفان. إنني أعلم أنك لا تحبني، ولكن ذلك لا يمنع من أن تجتنب الغضب والحقد. إنه ليس هنالك ما يوجب أن تحبني. إذهب إلى تشيرماشنيا. وسأزورك فيها بنفسي وأحضر لك معي هدية وسأعرفك بشابة عابثة فيها، لقد وضعت عيني عليها منذ زمن بعيد، وهي ما زالت تسعى حافية القدمين، لا تخشى العابثات الحافيات ولا تحتقرهن، فإنهن لآلىء في الغالب. وأرفق ذلك بطبع قبلة على يده من باب التأكيد. ثم أردف يقول وقد بدا عليه كأنه انتعش فجأة وصحا من سكره وعاد إلى واقعه بمجرد أن تطرق إلى ذكر موضوعه المحبب إلى نفسه: «حسب ظني، حسب ظني... أيها الأولاد! أيها الرضيعان كصغار الخنازير، حسب ظني، إنني لم أستقبح أية امرأة في حياتي

إن هذا هو مبدأي في الحياة! هل تستطيعان لذلك فهماً؟ أنى لكما أن تفهماه؟ إن الذي يتدفق في عروقكما هو اللبن لا الدم. إنكما لم تنقفا البيض بعد. إن قاعدتي هي أن الإنسان يستطيع أن يجد في أية امرأة شيئاً ملذاً شيطانياً لا تملكه سواها من النساء! وهو يفتقر إلى الموهبة! إنه في رأيي لا وجود للمرأة القبيحة. وكونها امرأة فذلك بحد ذاته نصف المعركة... ولكن كيف السبيل لكي تفهما ذلك؟ إنكما قد تجدان حتى في العوانس ما يجعلكما تعجبان لحماقة الرجال كيف تركوهن يكبرن دون أن يلحظوه. إن الفتيات اللواتي يمضين حافيات الأقدام وأولئك اللواتي لا يتمتعن بالجاذبية يجب أن يباغتن مباغتة. ألم تعرفا ذلك؟ يجب أن تذهلاهن حتى تأسرا قلوبهن وتوقعاهن في الاضطراب والبلبلة وتشعراهن بالخجل من أن شخصاً رفيعاً يتيه حباً بمثل أولئك الفتيات المشعثات. إن من الأمور المفرحة أنه كان وسيظل دائماً هناك وجود للسادة والعبيد في هذه الدنيا، فإنه بذلك لا بد وأن توجد فتاة تقضي جميع الحاجات لسيدها وتفرحه، وأنتما تعلمان أن هذي هي كل مستلزمات السعادة. مهلاً أصغ لي يا أليوشا. إن هذا يذكرني بأني طالما كنت أفاجىء أمك ولكن بطريقة مختلفة. إنني لم أكن أعيرها اهتمامي البتة. ولكن عندما كانت تلك اللحظة تحين كنت أبدي لها دفعة واحدة جميع صنوف التدله فأزحف على ركبتي وأقبل قدميها وكنت دائماً، دائماً - إنني ما زلت أذكر ذلك وكأنه يحدث الآن - كنت أحملها على أن تضحك تلك الضحكة المميزة وهي ضحكة هادئة رنانة عصبية. وكنت أعرف أن هذه الضحكة تسبق نوبة الصرع، ففي اليوم التالي كانت تصرخ صرخات هستيرية. ولم تكن تلك الضحكة دليل البهجة، بل كانت تقليداً جيداً لها. وكنت ألتذ بهذه الضحكة. ألم أقل لكم أني أجد في كل شيء ما يجذبني إليه. لقد حدث ذات مرة أن جاء بيليافسكي - وكان شاباً أنيقاً غنياً، وكان يطيب إليه التردد إليها هنا - جاء إليَّ وصفعني على حين غفلة صفعة على وجهي في حضورها. فماذا فعلت؟ - وهي تلك النعجة الوادعة - لقد ظننت بأنها كادت تضربني بسبب هذه الصفعة. فخاطبتني قائلة: لقد ضربت، ضربت لتوك، لقد صفعك هذا. لقد كنت تحاول بيعي له. كيف تجرأ على ضربك بحضوري؟

إياك والاقتراب مني بعد الآن أبداً، أبداً! أسرع حالاً وتحداه إلى المبارزة!..، ولقد أخذتها إلى الدير لكي تستعيد ثوابها. فصلى الآباء عليها وأعادوها إلى جادة العقل. ولكنني أقسم بالله يا أليوشا أنني لم أهن الفتاة المعتوهة المسكينة قط! اللهم إلا مرة واحدة قد تكون في عامي الأول معها؛ ولقد كانت آنذاك مغرمة بالصلاة إلى حد بعيد. وكانت تحافظ على أعياد السيدة العذراء بوجه خاص، فلا تعود تسمح لي بمقاربتها. وقد خطر لي أن أنزع عنها تلك الخرافات فخاطبتها قائلا: «أنظري هل ترين هذه الصورة المقدسة للعذراء ها هي ذي إنني أنزلها من مكانها، إنك تؤمنين بأنها تصنع الأعاجيب، لكن انظري فها أنا سأبصق عليها، ولن يسبب لي ذلك أي سوء إذ ذاك، يا إلهي! لقد تصورت أنها ستقتلني لا محالة. ولكنها لم تزد على أن قفزت من مكانها ولوت يديها وفجأة سترت بهما وجهها وأخذت ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وسقطت على الأرض... سقطت دفعة واحدة. أليوشا أليوشا ماذا دهاك؟.

قفز الشيخ من مكانه مرعوباً، فقد كانت ملامح أليوشا بدأت تتغير تدريجياً منذ اللحظة التي بدأ فيها أبوه يتحدث عن والدته، فاصطبغ وجهه بحمرة قانية وتألقت عيناه وارتعشت شفتاه. ولكن الشيخ السكير مضى في كلامه ولعابه يتناثر دون أن يلاحظ هذا التبدل حتى رأى أليوشا في حالة جد غريبة. فإن ما كان يصنعه بالمرأة «المعتوهة» أخذت آثاره تظهر بدقة على أليوشا. فقفز عن مقعده تماماً كما قفزت والدته من قبل ولوى يديه وستر بهما وجهه وعاد إلى مقعده وأخذ جسمه يرتجف في نوبة هستيرية، وطفق يبكي بكاءً مراً صامتاً. وقد أثر هذا التشابه العجيب بينه وبين أمه تأثيراً عظيماً في نفس العجوز، فصاح بإيفان قائلا: «إيفان، إيفان! علي بالماء أسرع! إن هذا نفس ما كان يحدث لأمه. إنضح وجهه بالماء من فمك، فلقد كنت أفعل هذا مع أمه، لقد استثاره الحديث عن أمه، عن أمه».

فقال إيفان بغضب وازدراء لا حد لهما: «ولكن أمه على ما أعتقد هي أمي أليست كذلك»؟ وتراجع الشيخ أمام نظراته الحانقة المسعورة، ولكن شيئاً غريباً كان قد حدث ولم يستغرق أكثر من ثانية. يبدو أن الرجل العجوز قد

غاب عن باله أن أم أليوشا كانت في الواقع أم إيفان أيضاً فاندفع يقول وهو لا يعي شيئاً:

«أمك؟ ماذا تعني؟ أي أم هذه التي تتحدث عنها؟ هل كانت أمك؟... تباً لي! طبعاً لقد كانت أمك أنت أيضاً! سحقاً لي! إن الأمور لم تضطرب من قبل في ذهني اضطرابها الآن. سامحني، لقد كنت أفكر يا إيفان... هي، هي، هي!» ثم توقف عن الكلام وارتسمت على وجهه ضحكة عريضة عابثة.

وفي تلك اللحظة سمعت في القاعة جلبة مخيفة، وتعالت صيحات حادة، وفتح الباب على مصراعيه واندفع ديمتري إلى داخل الغرفة، فما كان من الرجل العجوز إلا أن لاذ بإيفان وقد عقل الرعب مفاصله، ثم صرخ وهو متشبث بطرف ردائه: «إنه سيقتلني! إنه سيقتلني! لا تدعه يصل إلي».



عبيد الشهوات

كان غريغوري وسميردياكوف يتبعان ديمتري فدخلا الغرفة بعده مباشرة. كانا يعاركانه في الممر ويحاولان منعه من الدخول إليها حسب تعليمات فيودور بافلوفيتش إليهما قبل بضعة أيام. وانتهز غريغوري فرصة تلكؤ ديمتري برهة لدى دخوله الغرفة للبحث عنه، فدار حول المنضدة وعدا نحو الأبواب المزدوجة المتقابلة التي تؤدي إلى المخادع الداخلية، فأقفلها ووقف دونها باسطاً ذراعيه إلى الجانبين، وهو مستعد لمنعه عن الدخول، لآخر نقطة من دمه. فلما أبصر ديمتري هذا العمل صرخ بأعلى صوته حاملاً على غريغوري: «إنها هنا إذن! إنها مختبئة هناك! ابعد أيها النذل»!.

وحاول ديمتري أن يزحزح غريغوري عن مكانه، ولكن الخادم العجوز دفعه، فاستشاط ديمتري غضباً واندفع نحوه وضربه بكل قواه. فوقع الرجل العجوز على الأرض كومة واحدة، عندها قفز ديمتري من فوقه وتخطاه وأسرع نحو الباب ففتحه. أما سميردياكوف فقد ظل في الطرف الآخر من الغرفة قرب فيودور بافلوفيتش وقد شحب لونه وارتعدت فرائصه.

وصاح ديمتري قائلا: «إنها هنا! لقد شاهدتها تنحرف نحو المنزل في هذه اللحظة ولكنني لم أستطع اللحاق بها. أين هي! أين هي»!.

وقد أحدثت صيحة ديمتري إذ قال: «إنها هنا»! أثراً لا يوصف في نفس فيودور بافلوفيتش، فتبدد كل الرعب الذي كان يتملكه.

وصاح فيودور بافلوفيتش قائلا: «اقبضوا عليه»! وعدا خلف ديمتري.

وفي هذه الأثناء كان غريغوري قد نهض من وقعته، ولكنه كان ما يزال مشدوهاً. وقد تبع إيفان وأليوشا والدهما. وسمع في الغرفة الثالثة صوت شيء

يقع على الأرض فيتحطم محدثاً صوتاً عظيماً: إنها زهرية كبيرة من الزجاج، ليست غالية الثمن، موضوعة على قاعدة رخامية. وقد اصطدم بها ديمتري لدى دخوله الغرفة فانقلبت.

وصاح الرجل العجوز قائلا: «شدوا عليه! النجدة»!.

وقبض إيفان وأليوشا على الرجل العجوز وأخذا يرجعانه بالقوة.

وصاح إيفان في وجه أبيه محنقاً: «لماذا تعدو خلفه؟ إنه سيقتلك فوراً».

- إيفان! أليوشا! لا بد أنها هنا. إن غروشينكا هنا. لقد قال أنه شاهدها تدخل إلى هنا.

واختنق صوته. لم يكن يتوقع قدوم غروشينكا في هذا الوقت، وقد اهتاج لسماعه فجأة نبأ وجودها في منزله. وأخذ جسمه يختلج. وبدا عليه الاضطراب العظيم.

وقال إيفان: «لكنك ترى بنفسك أنها لم تأت».

- قد تكون دخلت من الباب الثاني.

- إنك تعلم أن ذلك الباب مغلق. وأن المفتاح معك.

وهنا ظهر ديمتري فجأة في غرفة الجلوس من جديد، وبالطبع فقد وجد ذلك الباب مغلقاً، وكان المفتاح في الحقيقة في جيب فيودور بافلوفيتش. وكانت نوافذ جميع الغرف أيضاً مغلقة، وهكذا فإنه ما كان في وسع غروشينكا أن تدخل المنزل أو تغادره.

فلما رآه فيودور بافلوفيتش صاح قائلا: «اقبضوا عليه! لقد كان يسرق النقود من غرفة نومي». واستطاع تخليص نفسه من إيفان واندفع نحو ديمتري. ولكن ديمتري رفع كلتا يديه وفجأة أمسك بالرجل العجوز من خصلتي الشعر الباقيتين في فوديه وجذبه ورماه على أرض الغرفة فأحدث سقوطه صوتاً عالياً، ثم ركله بكعبه في وجهه ركلتين أو ثلاثاً. فأخذ الرجل العجوز يصرخ. ومع أن إيفان لم يكن في مثل قوة ديمتري، إلا أنه لف ذراعيه حوله واستجمع قواه وأبعده عن أبيه. وساعده أليوشا بقدر ما أعانته قواه الخائرة وأمسك بديمتري من الأمام.

وصاح إيفان قائلا: «أيها المجنون! لقد قتلته»!.

فهتف ديمتري وهو مبهور النفس: إنه يستحق ذلك، فإذا لم أكن قتلته الآن فسأعود إليه وأزهق روحه، ولن تستطيع تخليصه.

فانتهره أليوشا قائلا، بلهجة الأمر: «ديمتري! إمض حالاً»!.

ـ ألكسي، أنبئني، فإنك الشخص الوحيد الذي أطمئن إلى صدقه، هل كانت هنا قبل قليل؟ لقد رأيتها بنفسي تتجه نحو هذا المنزل عند الجدار الذي يلي الزقاق، فلما ناديتها فرت راكضة.

ـ أقسم لك أنها لم تأت إلى هذا المكان، ولم يكن أحد في انتظارها.

ـ ولكنني رأيتها... ولا بد أنها... سأرى حالاً أين توجد الآن... وداعاً ألكسي! إياك أن تكلمه بشأن النقود. ولكن إذهب حالاً إلى كاترينا إيفانوفنا واحرص على أن تقول لها، أنه يهديك تمنياته، التمنيات، تمنياته! مجرد التمنيات والوداع! وصف لها هذا المشهد.

وفي تلك الآونة كان إيفان وغريغوري قد أنهضا الرجل العجوز وأجلساه على مقعد وثير. كان وجهه مخضباً بالدم، ولكنه كان صاحياً فأصغى باهتمام شديد إلى صيحات ديمتري. وكان لا يزال يتخيل أن غروشينكا موجودة في مكان ما من المنزل. ورمقه ديمتري بنظرة الكراهية وهو يخرج من الباب، ثم صاح به قائلا: «إنني لست نادماً على إراقة دمك. حذار أيها الرجل العجوز حذار من حلمك، فلي حلمي أيضاً. إنني ألعنك وأتبرأ منك».

ثم انطلق من الغرفة.

وقال الرجل العجوز بهمس أشبه بالحشرجة وهو يشير إلى خادمه بإصبعه: «إنها هنا، لا بد أنها هنا. سميردياكوف! سميردياكوف»!.

فصاح به إيفان غاضباً: «كلا، إنها ليست هنا، أيها العجوز المجنون. ها هو يغمى عليه! إلي بالماء! هاتوا منشفة! أسرع يا سميردياكوف»!.

وعدا سميردياكوف لإحضار الماء، وأخيراً استطاعوا أن ينزعوا الملابس عن الرجل العجوز ونقلوه إلى فراشه. ثم جاءوا بمنشفة مبللة ولفوها حول رأسه. ولما كان منهوك القوى بفعل البراندي وعنف الانفعالات وقوة الضربات التي تلقاها، فقد أغمض عينيه وراح في سبات عميق فور أن أسند رأسه إلى

الوسادة. وعاد إيفان وأليوشا إلى غرفة الجلوس، وأخذ سميردياكوف يجمع شظايا الإناء المحطم، بينما وقف غريغوري عند المنضدة حزيناً مطأطىء الرأس.

وخاطبه أليوشا قائلاً: «فلتضع أنت أيضاً على رأسك رباطاً مبللاً وتمضي إلى فراشك. لقد أصابك أخي بضربة عنيفة على رأسك».

فأجابه غريغوري بلهجة حزينة واضحة النبرات: «لقد أهانني»!.

فابتسم إيفان ابتسامة مغتصبة وقال: لم يهنك وحدك بل أهان والده أيضاً.

- لقد كنت أغسله بيدي في الحوض وقد أهانني.

والتفت إيفان نحو أليوشا قائلاً بهمس: «تباً لكل هذا، لو لم أنتزعه عنه فإنه ربما أزهق روحه. ولا يكلفه قتل الرجل العجوز جهداً عظيماً، أليس كذلك»؟.

فصاح أليوشا قائلا: «لا قدر الله»!.

وعاد إيفان إلى الهمس وملامحه تنم عن الحقد: «ولماذا لا قدر الله؟ إن أحد التنينين سيلتهم الآخر. وكلاهما يستحق ذلك».

وارتعد أليوشا. وعاد إيفان يقول: «طبعاً سأنافح عنه وأحميه من القتل كما حميته الآن. إبق هنا يا أليوشا. سأخرج إلى الساحة، فقد أخذت أشكو صداعاً في رأسي».

مضى أليوشا إلى غرفة نوم أبيه وجلس لدى سريره خلف الستار نحو ساعة. وفجأة فتح الرجل العجوز عينيه وثبت نظره على أليوشا شارداً، وبدا عليه كأنه يستجمع أشتات فكره متأملاً. وبغتة ارتسمت على وجهه آيات الاضطراب العظيم. وهمس باهتمام:

- أليوشا، أين إيفان؟.

- لقد نزل إلى الساحة، فهو يشكو صداعاً. وهو يقوم بالرقابة.

- أعطني تلك المرآة الموضوعة هناك؛ أعطني إياها.

فناوله إيفان مرآة مستديرة صغيرة ذات مسند يطوى كانت موضوعة فوق

الخزانة. ونظر الرجل العجوز إلى نفسه فيها، وكان أنفه متورماً كثيراً وفي الجانب الأيسر من جبهته رضة قرمزية اللون كبيرة الحجم. ثم قال مخاطباً أليوشا:

ـ ماذا يقول إيفان؟ أليوشا يا عزيزي، يا ولدي الأوحد. إنني أخشى إيفان، أخشاه أكثر مما أخشى أخاه. إنك الوحيد الذي لا أخافك من بين أبنائي...

ـ لا تخش إيفان. يغضب ويؤنب، ولكنه سيدافع عنك.

ـ أليوشا، وماذا كان من شأن الآخر؟ لقد مضى مسرعاً إلى غروشينكا! يا ملاكي، أنبئني الحقيقة. هل كانت الآن هنا أم أنها لم تأت؟.

ـ لم يرها إنسان هنا. لقد كان الأمر خطأ. إنها لم تأت هنا.

ـ إن ميتيا يبغي زواجها، زواجها.

ـ وهي لن تتزوج منه.

ـ لن تتزوج منه. لن تتزوج منه. لن تتزوج منه. إنها سترفض الزواج منه مهما كانت الأسباب.

وتألق وجه الرجل العجوز ببهجة كأنه لم يكن هناك أكثر من قول أليوشا مدعاة لتعزيته واطمئنانه. وفي لحظة سروره قبض على يد أليوشا وضغطها بحرارة على مكان القلب من صدره. وجالت الدموع في عينيه ثم قال:

خذ صورة العذراء تلك التي كنت أحدثك عنها الآن واحتفظ بها لنفسك. وسأسمح لك بالعودة إلى الدير... لقد كنت أمزح في هذا الصباح، لا تغضب مني إن رأسي يؤلمني يا أليوشا... أليوشا طمئن قلبي، فأنت ملاكي وقل الحقيقة كلها.

فسأله أليوشا مبتسماً: أما زلت تتساءل عما إذا كانت قد جاءت إلى هذا المكان أم لا؟

ـ كلا، كلا، كلا. إنني أصدقك، سأنبئك بحقيقة الأمر. إمض إلى غروشينكا بذاتك. أو اتصل بها بأية وسيلة؛ أسرع واسألها، وانظر بنفسك أينا

تختار أنا أم هو؟ ماذا؟ هل تستطيع ذلك؟

فتمتم أليوشا محرجاً: «سأسألها إن رأيتها».

فقاطعه الرجل العجوز قائلاً: «كلا إنها لن تنبئك بذلك إنها فتاة لعوب. بل ستأخذ في تقبيلك وستقول لك بأنك انت الذي تريده إنها فتاة وقحة خالعة العذار مغرورة. ينبغي ألا تذهب إليها. لا تذهب»!.

- كلا يا أبتاه. لا يليق بي ذلك. ولا يصح أن أقوم بهذا الأمر أبداً!.

- أين كان يريد إرسالك الآن؟ لقد صاح فيك «إذهب» ومضى مسرعاً.

- إلى كاترينا إيفانوفنا.

- في سبيل المال؟ لكي تطلب له منها مالاً؟.

- كلا، ليس في سبيل المال.

- إنه لا يملك مالاً، ولا درهماً واحداً. سألزم منزلي هذه الليلة وأقلب أوجه الرأي وبإمكانك أن تتصرف. وربما التقيت بها... ولكن إحرص على أن تأتي إليّ غداً صباحاً. تعال حتماً. سأحدثك بشيء غداً. فهل أنت آت؟.

- نعم.

- إذا أتيت فتظاهر بأنك آت من تلقاء نفسك لكي تطمئن علي. ولا تنبىء بأنك جئت بناء لطلبي. لا تفه بكلمة واحدة لإيفان.

- حسناً.

- وداعاً يا ملاكي! لقد وقفت إلى جانبي الآن. ولن أنسى لك هذا الصنيع. ثمة شيء أريد أن أقوله لك غداً - ولكن يجب أن أشبعه تفكيراً.

- وكيف حالك الآن؟.

- سأنهض منذ الغد، وأخرج من منزلي معافى مكتمل الصحة.

وعندما كان أليوشا يجتاز ساحة المنزل وجد إيفان جالساً على مقعد قرب الباب، وكان يدون بقلم الرصاص كلمات على دفتر صغير في يده. فأنبأه أليوشا بأن أباه قد استيقظ من نومه واسترد وعيه، وأنه أذن له بالعودة إلى الدير.

وقال إيفان وهو ينهض من مجلسه ويظهر التودد: «أليوشا إنني سأكون

سعيداً بلقائك غداً صباحاً». كانت مفاجأة أليوشا كبيرة بهذا التودد غير المعهود، فأجابه:

«إنني سأكون غداً في منزل آل خولاكوف. أو سأذهب إلى كاترينا إيفانوفنا إذا لم أجدها الآن».

ابتسم إيفان وقال: «ولكنك على كل حال ذاهب إليها الآن لكي تنقل إليها «التمنيات وكلمات الوداع» واضطرب أليوشا. وعاد إيفان إلى القول:

«أحسب أنني أدركت معنى هتافه بك الآن، وبعض ما كان يجري سابقاً. لقد طلب منك ديمتري أن تذهب إليها وتقول لها أنه، في الحقيقة، يعلن انفصاله عنها أليس كذلك؟».

فتساءل أليوشا: أخي، كيف سينتهي هذا الأمر المفزع بين أبي وأخي ديمتري؟.

- إنه ما من إنسان يستطيع أن يعلم ذلك علم اليقين. وربما وصلت الأمور إلى غاية السوء، فإن تلك المرأة متوحشة. ومهما كان الأمر فمن الواجب علينا أن نبقي الرجل العجوز في داخل المنزل ونمنع ديمتري من الدخول إليه.

- أخي إسمح لي بسؤال آخر: هل يحق للإنسان أن يدقق في وجوه الناس ويقرر أيهم يستحق الحياة وأيهم يجب أن يمنعوا عنها؟.

- ولماذا تحشر مسألة استحقاق الحياة في الأمر، إن هذه المسألة كثيراً ما يتم تقريرها في قلوب الناس وعلى أسس هي أقرب إلى الطبيعة من غيرها. أما فيما يتعلق بالحقوق، فمن من الناس يمكننا إنكار حقه بالتمني؟.

- ليس في موت غيره؟.

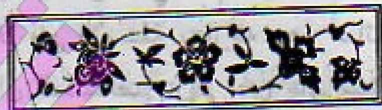
- وماذا يحدث لو اتجهت رغبته نحو موت غيره؟ لماذا نكذب على أنفسنا، فالناس إنما يعيشون وفق هذا النمط، ولا يستطيعون إلا أن يعيشوا هكذا. لعلك تشير إلى ما ذكرته قبل قليل، إن أحد التنينين سيلتهم الآخر؟ وفي هذه الحالة دعني أسألك: هل تظن أنني مثل ديمتري قادر على أن أريق دم الرجل العجوز أو أقضي عليه؟.

- ماذا تقول يا إيفان؟ إن فكرة كهذه لم تخطر ببالي. حتى ديمتري لا

أجده قادراً على هذا العمل.

فابتسم إيفان وقال: «شكراً على حسن ظنك هذا. ثق بأنني سأحميه دائماً. أما عن رغباتي، فسأظل محتفظاً لنفسي بحرية التصرف في هذا المجال. وداعاً وإلى اللقاء غداً، لا تسخط علي، ولا تصنفني نذلاً». ثم عاد إلى الابتسام.

وتصافحا بحرارة لم يألفاها قبل ذلك قط. وشعر أليوشا بأن أخاه قام بالخطوة الأولى نحو اكتساب وده، مدفوعاً إلى ذلك لغاية في نفسه.





الغريمتان وجهاً لوجه

كانت حالة أليوشا عند مغادرته منزل والده أكثر سوءاً مما كانت عند دخوله إليه، كان منهاراً حزيناً مشتت الذهن. وقد شعر بخوف يمنعه عن جمع شتات أفكاره وتكوين فكرة عامة عن التجارب الممضة المتضاربة التي عانى منها في ذلك اليوم. وأحس بشيء لم يعرف له مثيلاً من قبل، كان يدنيه من اليأس. وكان سيلاً من الأسئلة يتنازعه وهو سائر في الطريق ويقلق باله، أعظمها ذلك السؤال المستعصي: إلى أي مآل ستؤول الأمور بين والده وأخيه ديمتري والتنافس قائم بينهما على تلك المرأة المخيفة؟ لقد شهد الآن بنفسه فصلاً من فصول المشكلة، إنه كان حاضراً ورآهما يواجه أحدهما الآخر.

وبدا له أن أخاه ديمتري سينتهي دون سواه إلى الشقاء، الشقاء القتال فثمة بلاء يكمن له بالمرصاد. وقد بدا له أيضاً أن هنالك أناساً آخرين يعنيهم الأمر، وأنهم أكثر عدداً مما كان أليوشا يعتقد. وقد جزم في أنه أمام عقدة لا يمكن حلّها. لقد خطا إيفان نحوه خطوة كان أليوشا يتمنى حدوثها منذ عهد بعيد. أما الآن فإنها أحدثت في نفسه جزعاً لا يعلم سرّه. وهاتان المرأتان؟ من دواعي الاستغراب أن أليوشا كان يشعر بحرج عظيم عندما انطلق في صبيحة ذلك اليوم قاصداً منزل كاترينا إيفانوفنا؛ ولكن هذا الشعور قد زال الآن، بل على النقيض، فإنه يحث الخطى إليها من غير إحراج، وأملاً بالمساعدة. غير أن مهمة تسليمها تلك الرسالة بدت في نظره الآن أعسر من ذي قبل. إن الثلاثة آلاف روبل قد تقرر نهائياً عدم ردّها، كما أن ديمتري قد يقدم على أية حماقة بدافع من شعوره بأن شرفه قد تلوث، وأنه فقد أمله الأخير. وفضلاً عن ذلك فقد طلب إليه ديمتري أن يصف لكاترينا إيفانوفنا المشهد الذي وقع قبل لحظات بينه وبين والده.

وكانت الساعة قد قاربت السابعة وأخذ الظلام يكتنف الكون عندما ولج أليوشا المنزل الواسع الفخم الذي تقطنه كاترينا إيفانوفنا في الشارع الكبير. وكان يعلم أنها تعيش مع قريبتين لها: إحداهما هي خالة أغافيا إيفانوفنا أختها لأبيها، التي كانت ترعاها في منزل والدها بعد عودتها من المدرسة الداخلية، وهي امرأة لم تحظ بقسط وافر من التعليم. أما الأخرى فقد كانت من سيدات موسكو، رفيعة الشأن والذوق، ولو أنها كانت في ضائقة مالية. وقيل أنهما كانتا تنساقان لرغبات كاترينا إيفانوفنا في جميع الأمور. وأنها كانت تحتفظ بهما كمرشدتين. وكانت كاترينا إيفانوفنا نفسها لا ترضخ لإرادة أحد سوى أرملة الجنرال المحسنة إليها، التي أقعدها المرض في موسكو. وقد آلت على نفسها أن تكتب إليها مرتين في الأسبوع بياناً بتفاصيل أمورها.

دخل أليوشا ردهة المنزل وطلب إلى الخادم التي استقبلته على الباب أن تبلغ سيدتها وصوله. وقد تبين له أن أهل المنزل كانوا على علم بوصوله، ولعلهم رأوه مقبلاً من وراء النافذة. وعلى الأقل فإنه سمع جلبة وقع أقدام تسرع الخطى وحفيف ثياب كأن سيدتين أو ثلاثاً بارحن غرفة الجلوس على عجل.

وقد استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذه الجلبة. ولكن ترقبه لم يطل فقد عادت الخادم حالاً وسارت بين يديه إلى غرفة الجلوس. إنها غرفة واسعة تزخر بأثاث أنيق يدل على ذوق رفيع لا عهد لسكان الأرياف به. فقد صف فيها عدد كبير من الأرائك والمقاعد الوثيرة والمناضد الكبيرة والصغيرة، والجدران زينت باللوحات، والمناضد صفت عليها أواني الزهر والمصابيح، والحوض الصغير المستقر في النافذة تحيط به باقات الزهور. وكان نور الشفق قد أخذ يتلاشى أمام طلائع الظلام، وقد استبان أليوشا عباءة حريرية ملقاة على أحد الأرائك، فعلم أن أحداً غادرها قبل لحظات. وكان على المنضدة أمام الأريكة فنجانان فرغ نصفاهما من الكاكاو، وإلى جانبهما قطع من الكعك وصحن زجاجي فيه فاكهة مجففة وآخر فيه بعض الحلوى. وأدرك أليوشا أنه أفسد على زوار المنزل جلستهم فشعر بالحرج وبدا عليه التقطيب، ولكن في

اللحظة ذاتها أزيحت الستارة ودخلت كاترينا إيفانوفنا بخطى مسرعة، مادة ذراعيها نحو أليوشا، وعلى شفتيها ابتسامة تشع منها البهجة. وتبعتها حالاً خادم تحمل شمعتين موقدتين وضعتهما على المنضدة.

- حمداً لله! وأخيراً حضرت أنت أيضاً! لقد كنت طيلة النهار أبتهل إلى الله أن يرسلك! هلم واجلس.

كان أليوشا قد أخذ بجمال كاترينا إيفانوفنا عندما زارها لأول مرة قبل ثلاثة أسابيع برفقة ديمتري، بناء على طلبها بالتعرف عليه. ولكنهما لم يتبادلا الحديث في تلك الزيارة، فقد توسمت فيه الخجل فتجنبت إرباكه بالتحدث إلى ديمتري طيلة الزيارة. وقد لاذ أليوشا بالصمت ولكنه رأى الشيء الكثير بجلاء تام، وأخذ بقوة شخصية الفتاة المتعجرفة وكبريائها وثقتها بنفسها، وشعر أن هذه صفات أصيلة فيها وأنه لم يكن مبالغاً وكان مفتوناً بعينيها السوداوين الكبيرتين المتألقتين وبوجهها الشاحب المخروط، ورأى أن في هاتين المقلتين وفي شفتيها الرقيقتين شيئاً أحبه أخوه حباً جارفاً، ولكنه ليس من النوع الذي يدوم طويلاً. ولم يكتم رأيه عن ديمتري عندما رجاه أخوه وألح في الرجاء أن يصارحه بالفكرة التي حملها عن خطيبته بعد انتهاء الزيارة.

- ستسعد معها، ولكنها لن تكون سعادة مقرونة بالهدوء.

- لقد نطقت بالصواب يا أخي، إن مثل هؤلاء الناس يظلون على حالهم دائماً. إنهم لا يرضخون لتصاريف القدر. إذاً فأنت تعتقد أن حبي لها لن يدوم إلى الأبد.

- كلا، فقد يدوم حبك لها إلى الأبد، ولكنك قد لا تكون سعيداً دائماً معها.

عندما أبدى أليوشا برأيه عندئذ كان وجهه مضرجاً بحمرة الخجل، وقد نقم على نفسه لأنه استجاب لتوسلات أخيه وصاغ تلك الأفكار «الحمقاء» في عبارات، ما كاد ينطق بها حتى بدا له أن رأيه كان أخرق، وأخجله من نفسه أنه تجرأ على إبداء رأيه في امرأة بمثل تلك الثقة. وهو هو الآن يشعر بمزيد من الدهشة، ومنذ أول نظرة رمق بها كاترينا إيفانوفنا وهي مقبلة عليه، أنه أمعن في الخطأ في المرة السابقة. فقد كان محياها في هذه المرة يطفح

ببشاشة لا أثر فيها للتكلف، وينم عن إخلاص قلبي جم. أما الكبرياء «والعجرفة» التي أخذ بها في المرة السابقة، فإنها تبدو الآن مجرد حيوية وجرأة وشدة ثقة بنفسها. وقد أدرك أليوشا من أول نظرة، ومن أول كلمة، أن مأساة علاقتها بالرجل الذي أحبته حباً ملك عليها حواسها، لم تكن خافية عليها، وأنها ربما كانت محيطة بكل شيء، بكل شيء قطعاً. وعلى الرغم من ذلك فقد كان وجهها وضيئاً مشرقاً، واطمئنانها إلى المستقبل عظيماً. وشعر أليوشا على الفور أنه تحامل عليها في أفكاره، وأساء إليها إساءة بالغة. لقد غلب وأسر فوراً. وقد لاحظ إلى جانب ذلك منذ كلماتها الأولى. إنها كانت مضطربة اضطراباً عظيماً غير عادي، يقرب من التدله. وقد بادرته بقولها:

لقد كنت شديدة الشوق لرؤيتك فأنت وحدك الذي أستطيع معرفة الحقيقة كاملة منه. أنت وحدك ستقول الحقيقة كاملة.

فتمتم أليوشا مضطرباً: «لقد جئت... أنا جئت... هو أرسلني».

فهتفت كاترينا إيفانوفنا وقد ومض في عينيها بريق خاطف: «آه. هو أرسلك! لقد توقعت ذلك، لقد عرفت الآن كل شيء، كل شيء»! ثم أردفت قائلة: «أصغ إليّ يا ألكسي فيودوروفيتش، سأوضح الآن سبب رغبتي الشديدة في مقابلتك. لعلي أعرف أكثر مما تعرف، ولا حاجة بك لأن تخبرني أي شيء. إن ما أريد أن أطلع عليه منك هو رأيك الأخير فيه. أود أن تطلعني بمنتهى الصراحة والبساطة، بل بقاسي الكلام (ومهما بلغت قسوته) على رأيك في أخيك الآن، وموقفه بعد اجتماعك به اليوم. وقد يكون ذلك أفضل من أن أذهب أنا وأعاتبه، إنه يعزف عن رؤيتي. هل فهمت ماذا أريد؟ والآن أنبئني بصريح العبارة، ردد على مسمعي كل كلمة من كلمات الرسالة التي حمّلك إياها (إني أعلم أنه مرسلك).

ـ لقد طلب مني أن أنقل إليك تمنياته، وأن أخبرك أنه لن يراك بعد الآن. وألح علي بأن أنقل إليك تمنياته.

ـ تمنياته؟ هل هذا ما قاله لك، هل فاه بتلك العبارة؟.

ـ نعم.

ـ لعله أخطأ عرضاً في انتقاء الكلام، لعله استعمل تلك الكلمة عفو الخاطر؟

ـ كلا، فقد ألحّ عليّ بأن أذكرها جيداً، ورجاني تكراراً أن لا أنسى ترديدها على مسمعك.

وأخذ الدم الحار يتدفق في عروق كاترينا إيفانوفنا.

ـ ساعدني الآن يا ألكسي فيودوروفيتش. إني الآن في أمس الحاجة إلى مساعدتك. سأفضي إليك بما يدور في خلدي، وعليك أن تصارحني القول ما إذا كنت مصيبة أم لا. إنه لو بعث إلي بتمنياته عرضاً، بدون أن يلح على ترديد كلماته، وبدون أن يؤكدها لك، لكان الأمر قد انتهى. أما إذا كان قد أصر على تلك الكلمات إصراراً خاصاً، وناشدك ألاّ تنس تكرارها لي، فلعله كان مضطرباً وخارجاً عن طوره. لقد اتخذ قراره ولكنه فزع منه. إنه لم يكن يبتعد عني بخطى ثابتة، بل كان يتعثر بخطاه وهو يندفع في سقوطه. وتأكيده تلك العبارة قد لا يعدو كونه تظاهراً بالشجاعة.

فهتف أليوشا بحرارة: «نعم، نعم! إنني أعتقد هذا هو الصواب».

ـ إذا صح هذا، فإني لم أفقده نهائياً. ثمة فرصة ما تزال أمامي لإنقاذه. مهلاً! هل قال لك شيئاً عن نقود، عن ثلاثة آلاف روبل؟

ـ لقد حدثني فعلاً، وإن ذلك هو الذي يسحق قلبه أكثر من أي شيء آخر. لقد قال لي أنه فقد شرفه، ولا قيمة لشيء بعد ذلك. وقد فاه أليوشا بهذه الكلمات بحرارة، وقلبه طافح بالآمال، معتقداً فعلاً بإمكانية العثور على طريق لخلاص أخيه وإنقاذه. ثم سأل كاترينا إيفانوفنا قائلاً: «ولكن هل لديك علم بأمر النقود، وصمت فجأة».

ـ علمت بأمرها منذ مدة طويلة. لقد أبرقت إلى موسكو لأسأل عن وصولها، فجاءني الرد بأنها لم تصل أبداً، إنه لم يرسل النقود، ولكنني لم أقل شيئاً. وقد علمت في الأسبوع الماضي أنه ما زال في حاجة إلى المال. إن هدفي الوحيد من كل ذلك هو أن يعرف بمن يلوذ، ومن هو صديقه الحقيقي. ولكنه لن يعترف بأني كنت أخلص أصدقائه. إنه لن يعرفني على حقيقتي، فأنا بنظره امرأة فحسب. لقد أمضّني العذاب طوال الأسبوع وأنا أحاول

الاهتداء إلى وسيلة تبدد خجله من مقابلتي بسبب الثلاثة آلاف روبل. فليخجل من نفسه أو من الآخرين، ولكن ليس مني. إن بوسعه أن يعترف لله بكل شيء بدون خجل. ترى لماذا لا يفهم كم أنا مستعدة للتحمل في سبيله؟ لماذا لا يعرفني على حقيقتي؟ وكيف يجرؤ على ذلك بعد الذي حدث؟ إنني أريد إنقاذه نهائياً. دعه ينساني كخطيبته، ولكنه يخشى أن يبدو في عيني إنساناً فاقد الشرف. إنه لم يخش إطلاعك على مكنونات صدره يا ألكسي فيودوروفيتش، فلماذا لا أكون جديرة بمثل هذه المعاملة؟.

وقد فاهت بالكلمات الأخيرة وهي مغرورقة العينين. ثم انهمرت الدموع من عينيها.

وقال أليوشا بصوت متهدج: «من واجبي أن أنبئك بما وقع للتو بينه وبين والدي». ثم راح يصف لها المشهد وصفاً دقيقاً، منذ أن كلفه ديمتري الذهاب إلى والده طالباً المال، إلى اقتحامه المنزل وطرحه والده أرضاً، وقال لها أنه كرر بعد ذلك توسلاته إليه لكي ينقل إليها تمنياته وكلمات وداعه. وأنهى أليوشا كلامه بصوت هادىء: «لقد ذهب إلى تلك المرأة».

ـ وهل تعتقد بأنني لا أستطيع احتمال تلك المرأة؟ هل يعتقد هو أنني لا أستطيع ذلك؟ ولكنه لن يتزوجها. وفجأة أطلقت ضحكة عصبية. ثم تابعت كلامها قائلة: «هل يمكن أن تستمر هذه النزوة العاطفية إلى الأبد في أحد أفراد أسرة كرامازوف؟ إنها نزوة عاطفية، وليست حباً، إنه لن يتزوجها لأنها هي لن ترضى الزواج منه» وأتبعت كاترينا إيفانوفنا ذلك بضحكة غريبة أخرى.

فقال أليوشا مكتئباً غاضاً طرفه: «إنه قد يتزوج منها».

فقالت كاترينا إيفانوفنا فجأة وبحرارة متدفقة: أؤكد لك أنها لن تتزوج منه. إن تلك الفتاة ملاك. هل تعرف ذلك؟ هل تعرف ذلك؟ إنها أكثر المخلوقات إغراءً وأنا أعلم مدى ما تتمتع به من فتنة وسحر، ولكنني أعلم أيضاً ما تتصف به من لطف وشهامة ونبل. ما بالك تنظر إليَّ هكذا يا ألكسي فيودوروفيتش؟ لعلك تعجب لكلماتي، لعلك لا تصدقني؟ ثم هتفت منادية، وهي تسترق النظر إلى الغرفة المجاورة: «أغرافينا ألكسندروفنا، يا ملاكي! تعالي إلينا. هذا صديق. إنه أليوشا، وهو يعرف كل مشاكلنا. انضمي إلينا».

وتردد صوت نسائي عذب رخيم، يقول: «لقد كنت خلف الستار بانتظار عودتك».

وأزيحت الستارة، فإذا بغروشينكا بعينها تقترب من المائدة، باسمة مشرقة الوجه. انتابت أليوشا رعشة شديدة. وثبت بصره فيها ولم يستطع أن يحوله عنها. ها هي المرأة الرهيبة، «المتوحشة»، كما وصفها إيفان قبل نصف ساعة. إن أليوشا يرى أمامه الآن مخلوقة من أبسط المخلوقات، امرأة حسنة الطباع لطيفة وجميلة بلا ريب. وأدهشه أنها لا تختلف مظهراً عن غيرها من النسوة الجميلات العاديات! لقد كانت حقاً فاتنة جداً بجمالها الروسي الذي يستهوي الكثيرين من الرجال. إنها فارعة القوام، ولكنها أقصر قليلاً من كاترينا إيفانوفنا التي كانت مفرطة الطول. وكانت ممتلئة الجسم في حركاتها رشاقة ونعومة كنعومة صوتها، تسير بخفة فلا يسمع صوت لوقع قدميها على الأرض، بعكس كاترينا إيفانوفنا التي كانت تسير بخطوات قوية ثابتة. وقد جلست بدلال على مقعد منخفض، فأحدث ثوبها الحريري الأسود الفاخر حفيفاً ناعماً وهي تجمع أطرافه. ولقد لفت بأناقة حول جيدها البض وكتفيها العريضين شالاً أسود من الكشمير النفيس.

إنها في الثانية والعشرين من عمرها، وهذا العمر ينسجم مع قسمات وجهها الناصع البياض وكان على خديها حمرة فاهية. ويمكن اعتبار وجهها عريضاً، وفكها الأسفل بارزاً إلى الأمام قليلاً. وكانت شفتها العليا رقيقة، أما شفتها السفلى الناتئة نتوءاً خفيفاً فكانت أكثر منها امتلاء، وتبدو كأنها مقلوبة. إن شعرها البني الغزير الجذاب، وعينيها الزرقاوين الساحرتين وأهدابها الطويلة وجفنيها الفاحمين، كل ذلك خليق أن يخلب لب أقل الناس اهتماماً بها إذا صادفها عرضاً في زحمة الشارع، وتحمله على الوقوف لكي يتملى محاسن وجهها، وتظل صورتها عالقة بذهنه طويلاً. أما ما أخذ أليوشا خاصة فكانت أمارات البراءة المرتسمة على محياها. فقد كانت في عينيها نظرة الأطفال وبهجتهم. وقد اقتربت من المنضدة وهي منبسطة الأسارير، كأنها تنتظر وقوع شيء ما، بمثل فضول الأطفال وتسرعهم وطمأنينتهم. وشعر أليوشا بأن النور المتألق في عينيها يدخل البهجة في النفس. وكان يشع منها شيء آخر أعياه

فهمه، أو عجز عن تحديده، ولكنه تأثر به لا شعورياً. ولم يكن هذا الشيء سوى رشاقة حركاتها الجسمانية المثيرة ورقتها وليونتها. ومع ذلك فإن جسدها كان ممتلئاً ينبض بالحياة. وكان يبدو تحت الشال كتفان عريضان وصدر ناهد، ولكنه في مقتبل النضوج. وكان قوامها يوحي بتمثال فينوس القائم في ميلو، مع اختلاف في نسبة التقاطيع. ولقد كان باستطاعة خبراء الجمال الروسي أن يحكموا عن ثقة بأن هذا الجمال الغض اليانع سيفقد تناسقه في سن الثلاثين، فيصاب بعدها «بالتهدل»، وينتفخ وجهها وتظهر التجاعيد على جبهتها وحول عينيها، وتفقد ملامحها رونقها وتخشوشن. وبالإيجاز فإن هذا هو جمال عارض مؤقت سريع الزوال من الطراز المألوف في نساء روسيا. إن أليوشا لم يذهب إلى هذا التفكير بطبيعة الحال. ومع أنه وقع تحت تأثير سحرها، فإنه أخذ يتساءل وقد استحوذ عليه شعور بغيض مقرون بالأسف، عن سر تصنعها في الكلام. وكان هذا التصنع بدافع من شعورها بأن في تلحين مقاطع الكلام تلحيناً عذباً، ما يخلب الألباب ويؤثر على النفوس. والواقع أن تلك العادة خلة سيئة تدل على سوء تربيتها وعلى رداءة الأفكار التي كونتها عن الآداب الاجتماعية. وعلى أية حال فإن ذلك التلحين في الكلام وذلك الأسلوب في الحديث كانا في نظر أليوشا متناقضين تناقضاً حاداً مع تقاطيع وجهها التي توحي بالابتهاج الساذج والسعادة البريئة، ومرح الطفولة الهادىء المتبدي في عينيها. وقد أشارت إليها كاترينا إيفانوفنا بالجلوس على أريكة مواجهة لأليوشا، وفي نشوة من البهجة طبعت على شفتيها عدة قبلات. وبدا جلياً أنها تحبها.

وقالت كاترينا إيفانوفنا وهي لا تزال في نشوتها: «إن هذا هو لقاؤنا الأول يا ألكسي فيودوروفيتش. لقد رغبت في أن أعرفها، وأن أراها، وقد فكرت في أن أذهب إليها. ولكنها مذ علمت برغبتي حتى جاءت هي إلي. كنت أعلم أنه ينبغي أن نلتقي ونسوي كل شيء، نعم كل شيء. لقد حدثني قلبي بذلك. ومع أنهم حاولوا أن يصدوني عن هذا السبيل فقد رأيت فيه مخرجاً من المأزق، وها أنا أرى أنني لم أكن مخطئة. لقد أوضحت لي غروشينكا كل شيء، وأطلعتني على كل ما تنوي أن تفعل. لقد طارت إلي

كملك من ملائكة الرحمة، وجلبت إلينا السلام والفرح».

فقالت غروشينكا متصنعة بصوتها الرخيم، وهي تبتسم تلك الابتسامة الساحرة: «إنك لم تزدريني يا سيدتي الشابة الجميلة الفاتنة».

- إياك والتحدث معي على هذا النحو، أيتها العرافة، أيتها الساحرة! أزدريك أنت؟ دعيني أقبل شفتك السفلى مرة أخرى. لكأنها متورمة، وسأزيد الآن من تورمها. قبلة أخرى سأزيدها. أنظر إليها كيف تضحك، يا ألكسي فيودوروفيتش! إن رؤية هذا الملاك لمما يدخل السرور إلى النفس.

وتضرج وجه أليوشا بحمرة الخجل. وأخذت تسري في جسده رعشات خفيفة غير ظاهرة.

- إنك تبالغين في مديحي، يا سيدتي الشابة العزيزة، ولعلي لا أستحق هذا اللطف والتدليل.

فهتفت كاترينا إيفانوفنا بنفس الحماس والاندفاع: «لا تستحقين! تدعي أنها لا تستحق المديح! هل تعلم، يا ألكسي فيودوروفيتش إنها صاحبة خيال جامح وإرادة قوية، ولكن قلبها الصغير يطفح كبرياء. دعني أنبئك يا ألكسي فيودوروفيتش أن من شيمها النبل والكرم، وكل ما في الأمر أن الحظ خانها وكانت على أتم الاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل رجل لعله غير جدير بالتضحية لخساسته وطيشه. كان هنالك رجل واحد، وهو ضابط أحبته وضحت بكل شيء في سبيله. كان ذلك منذ عهد بعيد، منذ خمس سنوات، وقد نسيها وتزوج. أما الآن فإنه أرمل، وقد كتب يقول أنه عائد إليها. وأعلم أنها أحبته ولم تحب أحداً سواه طيلة المدة التي انقضت، وستحبه طيلة حياتها. إنه سيأتي وتستعيد غروشينكا سعادتها. لقد كانت تعيسة خلال السنوات الخمس الأخيرة. ولكن من ذا الذي يستطيع تأنيبها، أو المفاخرة بالتعطف عليها؟ لأحد سوى ذلك التاجر العجوز المقعد، ولكنه أشبه بالأب أو الصديق أو الحارس بالنسبة لها. لقد وجدها في وهدة اليأس والألم الممض بعد أن تخلى عنها الشخص الذي أحبته، وكانت عندئذ لا تتردد في إغراق نفسها، ولكن التاجر العجوز أنقذها، نعم أنقذها»!.

وعادت غروشينكا تقول بصوتها المتصنع: إنك تظهرين لطفاً زائداً في

الدفاع عني، يا سيدتي الشابة العزيزة. إنك تبالغين في تسرعك.

ـ أدافع عنك! وهل لي أن أدافع عنك؟ هل أتجرأ على الدفاع عنك؟ غروشينكا يا ملاكي، هاتي يدك. أنظر إلى هذه اليد الصغيرة الغضة الفاتنة، يا ألكسي فيودوروفيتش! أنظر إليها! إنها جلبت لي السعادة وردت إليَّ الحياة، وسأقبلها، سأقبل يدها باطناً وظاهراً سأقبلها، سأقبلها، سأقبلها.

وقبلت ثلاث مرات يد غروشينكا، تلك اليد الفاتنة التي كانت أقرب إلى السمنة، وهي تشعر بنشوة. وقد مدت غروشينكا يدها وهي تضحك ضحكة قصيرة سحرية موسيقية عصبية، وترقب «السيدة الشابة العزيزة» وهي تطبع القبلات على يدها، فبدت مغتبطة بقبلاتها تلك.

وحدث أليوشا نفسه: «لعل النشوة تجاوزت حدودها». واحمر وجهه خجلاً. وكان يشعر طيلة الوقت بقلق داخلي غريب.

ـ قالت غروشينكا: لا تخجليني يا سيدتي الشابة العزيزة بتقبيل يدي على هذا النحو بحضور ألكسي فيودوروفيتش.

فقالت كاترينا إيفانوفنا مندهشة: «وهل تبادر إلى ذهني أنني أبغي إحراجك»؟ آه يا عزيزتي كم تسيئين فهمي!.

ـ نعم، وأنت أيضاً لعلك أخطأت فهمي، يا سيدتي العزيزة. وقد لا أكون طيبة كما أبدو. إن لي قلباً شريراً، وسأتصرف حسب أهوائي. لقد اجتذبت ديمتري فيودوروفيتش إلى منزلي ذلك اليوم لمجرد التسلية والسخرية منه.

ـ أما الآن فإنك ستنقذينه، لقد قطعت لي وعداً، وستوضحين له كل شيء. ستنبئينه أنك تحبين شخصاً آخر منذ زمن بعيد، وأنه الآن سيتزوجك.

ـ آه، كلا! لم أعدك بذلك. إنك أنت التي أسرفت في الحديث عن الموضوع، أما أنا فلم أقطع لك وعداً.

فقالت كاترينا إيفانوفنا، وقد أخذ وجهها يمتقع: إذاً فأنا لم أفهمك بوضوح. وحسبت أنك وعدتني....

فقاطعتها غروشينكا بهدوء وصوت رتيب، وبذات لهجة المرح الاستخفافي: كلا يا سيدتي، يا ملاكي، لم أعدك بشيء. ها أنت ترين الآن

سيدتي العزيزة مدى خبثي ونزواتي، فأنا إنسان فاقد الضمير إذا قورنت بك. فأنا إذا شئت أن أفعل شيئاً فعلته، وقد أكون وعدتك بشيء ما قبل قليل، ولكني الآن أفكر وأحدث نفسي: ماذا لو أعجبني ميتيا ثانية. لقد أحببته ذات مرة حباً جماً. أحببته لمدة ساعة كاملة تقريباً، وقد أمضي الآن وأطلب إليه أن يقيم في منزلي منذ هذا اليوم. أترين كم أنا متقلبة لا أستقر على حال؟.

فقالت كاترينا إيفانوفنا همساً وبغير وضوح: «ولكنك قبل لحظات قلت شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف».

- قبل لحظات! ولكنني مخلوقة لينة القلب عابثة. فكري فقط فيما تحمّله لأجلي! فماذا يحدث لو أخذتني به الشفقة فور عودتي إلى المنزل؟ ماذا عساه يحدث عندئذ؟.

- لم أتوقع قط.

- آه، يا سيدتي العزيزة، ما أطيب قلبك وما أكرمك مقارنة بي. والآن لعلك لا تعبأين بمخلوقة عابثة مثلي، إنك الآن قد اكتشفت سوء طبعي. ثم قالت بصوت رقيق: هاتي يدك الحلوة الصغيرة، أيتها السيدة الملائكية.

وتناولت يد كاترينا إيفانوفنا بحماسة واحترام.

- والآن سيدتي العزيزة، سأقبل يدك كما قبلت يدي. أنت قبلت يدي ثلاث مرات، وسأقبل يدك ثلاثمائة مرة لكي نتساوى. ولكن دعي الأمور على حالها. إن مشيئة الله هي النافذة. وقد أصير أمتك ورهن إشارتك وأئتمر بأمرك كالجارية. فلتكن مشيئة الله، ولا حاجة بنا إلى اتفاقات ووعود. ما أجمل يدك. ما أجمل يدك! أنت أيتها السيدة الجميلة، يا ذات الجمال الفاتن!.

ورفعت يد السيدة إلى شفتيها وقد نوت تلك النية الغريبة ألا وهي «التساوي» في القبل.

ولم تسحب كاترينا إيفانوفنا يدها. بل أصغت إلى آخر كلماتها ووعدها، وفي قلبها أمل واه، مع أن وعد غروشينكا قد صاغته بلهجة غريبة. وكانت كاترينا إيفانوفنا تتفرس في عينيها فلا ترى فيهما سوى تلك السذاجة والثقة بالنفس، وذلك المرح المشرق.

وقالت تمني نفسها: لعلها ساذجة ممعنة في السذاجة.

وكانت غروشينكا في هذه الأثناء مقبلة بكليتها على «اليد الجميلة» وقد رفعتها عمداً إلى شفتيها، وأبقتها قربهما دقيقتين أو ثلاث دقائق، كما لو كانت تفكر في أمر ما.

ثم قالت فجأة وقد عادت إلى التصنع في الكلام ولكن بصوت أكثر رقة وعذوبة: «هل تعلمين يا ملاكي، هل تعلمين! أنني عدلت فجأة عن تقبيل يدك؟». وأطلقت ضحكة قصيرة مرحة.

فأجابتها كاترينا إيفانوفنا قائلة: «كما تشائين». ثم أردفت قائلة: «ماذا دهاك»؟.

ـ لكي تذكري في المستقبل أنك قبلت يدي ولم أقبل يدك.

وقد ومض في عينيها فجأة بريق، وأخذت تحدج كاترينا إيفانوفنا بنظرة رهيبة.

فصاحت كاترينا إيفانوفنا وكأنها أدركت بغتة شيئاً ما: «يا لك من مخلوقة وقحة».واحمرت احمراراً أرجوانياً، وفجأة هبت واقفة. ووقفت غروشينكا أيضاً، متثاقلة.

ـ وهكذا فإني سأخبر ميتيا كيف قبلت يدي، ولم أقبل أنا يدك.

ـ أيتها العابثة الدنسة! أغربي عن وجهي.

ـ يا للعار، أيتها السيدة الشابة! يا للعار! إن مثل هذه الكلمة لا تليق بك يا سيدتي العزيزة.

وصاحت كاترينا إيفانوفنا والاختلاج واضح في وجهها: «أغربي عن وجهي! إنك مخلوقة للبيع»!.

ـ حقاً للبيع؛ لقد كنت ذات مرة تزورين الرجال عند الغسق طلباً للمال. ألم تبيعي جمالك؟. ها أنت ترين أنني أعرف ذلك.

وندت عن كاترينا إيفانوفنا صرخة تنم عن الألم وانقضّت عليها ولكن أليوشا أمسكها بكل قواه.

ـ إياك أن تخطو خطوة، أو تفوه بكلمة! لا تتكلم، لا ترد عليها. إنها ستذهب. ستذهب حالاً.

وفي تلك اللحظة هرعت إلى الغرفة خالتا كاترينا إيفانوفنا، وجاءت معهما خادم، وقد أسرعن جميعهن نحوها.

وقالت غروشنكا وهي ترفع عباءتها عن الأريكة: «سأذهب». ثم توجهت بكلامها إلى أليوشا: «رافقني إلى منزلي، يا عزيزي أليوشا».

فصاح أليوشا وهو يضم يديه متوسلاً: «إذهبي، إذهبي، أسرعي»!.

ـ عزيزي أليوشا الصغير، رافقني إلى البيت، سأقص عليك في الطريق قصة قصيرة تسرك. لقد اختلقت هذا المشهد من أجلك. رافقني، يا عزيزي، ولن تندم.

وأشاح أليوشا بوجهه عنها، وهو يلوي يديه. وأسرعت غروشينكا في الخروج وهي تضحك ضحكتها الصاخبة.

وقد أصيبت كاترينا إيفانوفنا بنوبة هستيرية، وأخذت تنتحب وكان جسمها يختلج وكان المحيطون بها يحدثون جلبة.

قالت خالتها الكبرى: لقد حذرتك، وحاولت أن أثنيك عن هذا التصرف. إنك كثيرة التهور. كيف أقدمت على هذا؟ إنك تجهلين هذه المخلوقات، ويقال إنها أسوأهن. إنك عنيدة جداً لا شيء يغير من رأيك.

فقالت كاترينا إيفانوفنا منتحبة: «إنها نمرة! لماذا أمسكتني يا ألكسي فيودوروفيتش! كان بودي أن أضربها، أن أضربها!».

وعجزت عن ضبط شعورها أمام أليوشا، ولعلها لم تعبأ بذلك. ثم قالت: «يجب أن تجلد على رؤوس الأشهاد».

واتجه أليوشا نحو الباب.

ثم صاحت كاترينا إيفانوفنا وقد ضمت يديها: «ولكن، يا إلهي! هو! هو! هل أصبح بلا كرامة إلى هذا الحد، وبلا قلب أيضاً. لقد أخبر تلك المخلوقة بما حدث في ذلك اليوم اللعين! «ألم تبيعي جمالك، يا سيدتي العزيزة» إنها عرفت بذلك! إن إخاك نذل يا ألكسي فيودوروفيتش».

وأراد أليوشا أن يجيب ولكن الكلمات لم تسعفه وكان الألم يعصر قلبه.

ـ إذهب يا ألكسي فيودوروفيتش! إن هذا شيء معيب، رهيب بالنسبة لي. عد غداً، أتوسل إليك أن تأتي غداً. لا تسخط علي، إصفح عني. لست أدري ما أنا فاعلة بنفسي الآن!

وخرج أليوشا إلى الشارع مترنحاً في مشيته. وكان على وشك أن يبكي لبكائها. وفجأة لحقت به الخادم، وقالت له: لقد نسيت السيدة أن تسلمك الرسالة من السيدة خولاكوف. لقد تركتها عندنا منذ الظهيرة.

وتناول أليوشا الغلاف الصغير الوردي، ودسه في جيبه بشكل عفوي وبدون انتباه.

سيرة أخرى تتلوث

إن المسافة بين المدينة والدير لا تزيد كثيراً على ثلاثة أرباع الميل، وكان أليوشا يحث خطاه على الدرب التي كانت مقفرة في تلك الساعة. وكان الليل يكاد يهيمن على الكون والظلمة حالكة حتى لا تستطيع العين أن تخترقها إلى أبعد من ثلاثين خطوة. وفي منتصف الطريق كان ثمة تقاطع لدروب أربع وهناك برز شبح تحت شجرة صفصاف منفردة. وعندما بلغ أليوشا نقطة تقاطع الطرق تحرك الشبح واندفع نحوه وهو يصيح صيحة منكرة: هات نقودك وإلا قتلتك!.

فصاح أليوشا مندهشاً وقد ظهرت عليه البغتة العظيمة: «هذا أنت يا ميتيا». قال ميتيا وهو يضحك: «لم تكن تتوقع وجودي أليس كذلك؟ لقد تملكتني الحيرة وأنا أفكر في مكان أنتظرك فيه. وقلت أألقاه عند منزلها؟ وتذكرت أن منزلها يذهب إليه من ثلاث طرق، وقد أضل الطريق إليك. وأخيراً خطر ببالي أن أنتظرك هنا فقد أدركت أنك لا محالة مار من هذا المكان إذ ليس هناك طريق أخرى تؤدي إلى الدير. هلم وأصدقني القول! إسحقني كما تسحق الحشرة. ولكن قل لي ما خطبك»؟.

ـ لا شيء يا أخي. وإنما هو الخوف الذي روعتني به. أواه يا ديمتري! يا لدم أبيك المراق قبل قليل. (وانفجر باكياً فلقد كان يرغب بالبكاء منذ مدة طويلة، أما الآن فقد أحس بشيء يهيج فيه شجونه). «لقد كدت أن تقتله، وقد لعنته. والآن، فها أنت تمزح وتصيح بي: هات نقودك وإلا قتلتك»!.

ـ حسناً، وما في ذلك؟ إنه غير لائق هل هذا ما تقصده؟ لا يليق في مثل موقفي؟.

ـ كلا، إنما رميت فقط...

ـ مهلاً. أنظر من حولك. ما أحلك ظلمة الليل، ويل لهذه الغيوم والريح التي أخذت تهب. لقد اختبأت هنا تحت الصفصافة أنتظرك. وبحق الله العلي، خطر لي بغتة خاطر فسألت نفسي: لماذا أظل أقاسي البؤس أكثر مما قاسيت، ففيم التأجيل ولماذا الانتظار؟ ها هي شجرة صفصاف ومنديل وقميص أستطيع أن أصنع منهما حبلاً في دقيقة واحدة. فلماذا أحيا في هذه الدنيا وأثقلها وأدنسها بحياتي الدنيئة. وعندها سمعت صوت خطواتك وأنت آتٍ. ويا للسماء، لقد شعرت كأن شيئاً هبط علي فجأة، وقلت: «إذاً فها هو إنسان أحبه، ها هو ذا أخي الصغير الحبيب الذي أحببته أكثر من أي إنسان آخر في هذه الدنيا، إنه الوحيد الذي أحبه حقاً. ولقد احببتك في تلك اللحظة حباً لا يقدر وقلت في نفسي: لأهجم عليه وأخيفه. وصحت كالأحمق: ـ هات نقودك! فاصفح عن حماقتي، فلم يكن الذي أتيت به إلا عملاً سخيفاً. سحقاً لهذا كله. أنبئني بما حدث. ماذا قالت لك؟ اضربني، لا تشفق علي! ولكن لا تخف عني شيئاً، هل وجدتها غاضبة، فاقدة صوابها؟

ـ كلا، ليس ذاك... لم يكن هنالك شيء من هذا يا ميتيا. فقد لقيتهما هناك معاً.

ـ معاً؟ من؟.

ـ غروشينكا في منزل كاترينا إيفانوفنا.

وذهل ديمتري. ثم صاح قائلا: «إن هذا مستحيل! إنك تعبث! غروشينكا كانت معها؟».

وقص أليوشا عليه كل ما حدث منذ اللحظة التي دخل فيها إلى منزل كاترينا إيفانوفنا. دامت قصته عشر دقائق، ولم تكن تفاصيلها متسقة ومتسلسلة ولكنه أوضح كل شيء ولم يفرط بأية كلمة أو أي عمل ذي مغزى. وكان في أكثر الحالات يوضح بكلمة واحدة ما يجول في خاطره من مشاعره الخاصة، وأصغى ديمتري صامتاً وهو يحملق فيه وينظر إليه نظرة مخيفة. وقد اتضح لأليوشا منذ كلماته الأولى، أن أخاه فهم كل شيء وألم بكل نقطة من نقاط القصة. ولما تقدم أليوشا في سرد قصته، أصبح وجه ديمتري يزداد عبوساً حتى كأنه ينذر بالشر. فقد قطب جبينه وصرف بأسنانه وقست نظرته وثبتت

وبدت هائلة. وفجأة، وبسرعة لا يصدقها العقل تبدلت ملامحه وانفردت أساريره وانفرجت شفتاه، ثم أغرق ديمتري فيودوروفيتش في ضحكة جامحة عنيفة اهتز لها بدنه ولم يستطع لوقت طويل أن يوقفها ليتكلم.

ـ إذن فلم تشأ أن تقبل يدها! إذاً فلم تقبلها؛ إذن فرت هاربة! وأخذ يصيح مبتهجاً كمن به نوبة هستيرية. ثم اندفع قائلا: «إذن فقد دعتها الأخرى بالنمرة! إنها نمرة في الحقيقة! إذن فقد قالت أنها تستحق الجلد على رؤوس الأشهاد! نعم، نعم، يجب أن تجلد. وأنا أرى الشيء نفسه. كان ينبغي أن تجلد منذ زمن بعيد. إن الأمر هكذا يا أخي، لتعاقب هي، ولكن يجب أن أقضي لبانتي قبل هذا. إنني أفهمها ملكة الوقاحة هذه تلك هي خلالها! لقد شاهدت بنفسك خلالها في حادثة لثم اليد، يا لها من شيطانة! إنها ملكة جمال الشيطانات اللواتي يمكن أن يخطرن على البال في هذه الدنيا! إنها في نوعها رائعة ومدهشة! إذن فقد أسرعت نحو المنزل؟ سأمضي، سأمضي إليها! أليوشا لا تلمني، إنني أوافق أن الشنق قليل عليها.

فصاح أليوشا مبتئساً: «وكاترينا إيفانوفنا»؟!.

ـ سأراها أيضاً! لقد نفذت ببصري إليها كما لم أنفذ من قبل! لقد اكتشفتها كاكتشاف القارات الأربع، أي الخمس! وما أعظم هذا الاكتشاف! لقد استطاعت أن تلقى غروشينكا. إنها كاتيا بذاتها التي لم ترهب مواجهة ضابط فظ سيء الطباع وخاطرت بتحمل إهانة قاتلة من أجل رغبة كريمة بإنقاذ والدها! ولكن الكبرياء، والتهور، وتحدي القضاء، والتحدي الذي لا حدود له! هل قلت إن خالتها حاولت أن تمنعها؟ هل تعلم أن تلك الخالة متعجرفة متظاهرة هي الأخرى؟ إنها شقيقة أرملة جنرال في موسكو، وهي أرق منها حالاً. ولكن زوجها قبض عليه بتهمة الاختلاس فخسر كل شيء، ضيعته وكل أمواله، واضطرت الزوجة المتعجرفة أن تتخلى عن كبريائها، ولم تعد إلى عجرفتها السابقة بعد ذلك أبداً. إذن فقد حاولت أن تمنع كاتيا، ولكنها لم تأخذ بنصيحتها. إنها تظن في نفسها القدرة على التغلب على كل شيء، ولا شيء يصمد في وجهها. لقد ظنت بأنها قادرة على أن تسحر غروشينكا إذا شاءت؛ إنها تخدع نفسها. فمن يكون المذنب؟ هل تظن بأنها كانت البادئة

في تقبيل يد غروشينكا عن قصد وبدافع ما؟ كلا فلقد أسرتها غروشينكا، أو بمعنى آخر أسرها حلمها ووهمها، لأن الحلم كان حلمها والوهم كان وهمها! يا أليوشا، عزيزي كيف استطعت الإفلات من هاتين المرأتين؟ أحسب أنك طويت ثوبك الكهنوتي وأطلقت ساقيك للريح؟ وعاد يضحك ضحكاً عالياً.

ـ أخي، يبدو أنك لم تدرك بعد تلك الإهانة التي وجهتها لكاترينا إيفانوفنا إذ أنبأت غروشينكا بما جرى لك معها في ذلك اليوم. ولقد رمتها هذه المرأة الآن بتلك الإهانة عندما قالت لها أنها كانت تسعى إلى الرجال خفية لكي تبيعهم جمالها! أخي أية إهانة يمكن أن تكون أقسى وأمض على النفس من هذه الإهانة؟.

وكان ما أزعج أليوشا أكثر مما سواه، أن أخاه بدا له مغتبطاً بالهوان الذي لحق بكاترينا إيفانوفنا.

وعبس ديمتري وتجهم وجهه، وضرب على جبهته بيده. فقد تحقق الآن من هذا الأمر رغم أن أليوشا ذكر له الإهانة وصيحة كاترينا إيفانوفنا به: «إن أخاك نذل».

ـ نعم ربما كنت قد قصصت على غروشينكا قصة ذلك اليوم المشؤوم على حد تعبير كاتيا. صحيح، لقد قصصتها عليها، إنني أذكر ذلك! وقد حدث ذلك في موكرو. وكنت ثملاً وكان الغجر يغنون... ولكنني كنت آنذاك أنتحب وأنا راكع على ركبتي أصلي أمام صورة كاتيا. وقد فهمت غروشينكا الأمر. فهمته كله. وأذكر أنها بكت... تباً لكل هذا، لقد بكت آنذاك ولكنها الآن غرست الخنجر في قلب غريمتها! هكذا هنّ النساء.

وأطرق ديمتري واستغرق في تفكير عميق. ثم قال فجأة بصوت حزين: «نعم، إنني نذل، نذل في كل جارحة من جوارحي، وسواء بكيت أم لم أبك فأنا نذل! قل لها إنني أقبل هذا النعت، إذا كانت تجد فيه عزاءً لها. كفانا حديثاً. وداعاً. لا فائدة من الكلام! إن كلامنا ليس مدعاة للتسلية. إذهب في طريقك وسأمضي في طريقي. ولست أريد أن أراك إلا في نهاية الأمور. وداعاً يا ألكسي»!.

ثم شد بحرارة على يد أليوشا، واتجه بسرعة نحو المدينة وهو ما زال مطرقاً برأسه إلى الأرض وكأنه ينتزع نفسه انتزاعاً.

وكان أليوشا ينظر إليه وهو لا يصدق أنه ذاهب بمثل هذه السرعة.

وعلى حين غرة استدار ديمتري فجأة ونادى أخاه قائلاً: مهلاً يا ألكسي، ثمة اعتراف أخير، اعتراف لك وحدك. أنظر إلي. ثبت نظرك في. هل ترى هذا المكان، هذا المكان إن فيه عاراً عظيماً يكمن لي. (كان ديمتري عند قوله «هذا المكان» يضرب صدره بقبضته ضرباً عجيباً كأن العار يكمن هناك، في جهة منه أو ربما في جيبه أو في كيس يطوق عنقه). وعاد ديمتري إلى القول: إنك تعرفني الآن، إنني نذل، نذل كبير، ولكن لأقل لك إنني لم أفعل قط ولن أفعل شيئاً يمكن أن تقارن دناءته بما أحمله في صدري هذا هنا. على أنني أستطيع أن أكبته إنني أتمتع بكامل حريتي لأكف عن هذا العمل أو أمضي فيه إلى النهاية، أذكر ذلك. حسناً، دعني أقل لك، أنني سأمضي فيه إلى النهاية ولن أوقفه. لقد أطلعتك على كل شيء قبل قليل ما عدا هذا الأمر لأن الجرأة لم تواتني. ما زال بوسعي أن أنفضه عن نفسي، ولو فعلت لاستطعت أن استرد منذ الغد نصف سعادتي الضائعة. ولكنني لن أنفضه عني. وسأمضي في تنفيذ خطتي الدنيئة، وبوسعك أنت أن تقوم شاهداً على أنني قلت لك ذلك سلفاً. الظلام والخراب! لا حاجة بي إلى شرح ذلك. وستقف عليه في الوقت المناسب. الزقاق المنزوي العفن، والمرأة الشيطانة. وداعاً. لا تصل لأجلي. فإنني لا أستحق الصلاة. ثم أنني لست بحاجة لها، لست بحاجة أبداً... إنني لا أحتاج إلى صلاتك! وهذا فراق.

وفجأة مضى بخطوات ثابتة. واتجه أليوشا نحو الدير. أخذت الأفكار العنيفة تضطرب في نفس أليوشا، وأخذ يحدث نفسه قائلاً: «ماذا؟ لن أراه! ماذا يقول؟ لا شك أنني سأراه غداً. سأبحث عنه وأكلمه. ماذا يعني»؟.

دار أليوشا حول الدير واجتاز حرج الصنوبر حتى بلغ الصومعة. وقد فتح الباب له رغم أنه ما كان يسمح لأي إنسان بالدخول في مثل هذه الساعة من الليل. وكان صدره منقبضاً وهو في طريقه إلى غرفة الناسك وأخذ يسائل

نفسه: «لماذا، لماذا أسير في هذه الطريق؟ ولماذا أرسلني الناسك إلى الدنيا؟ وهنا السلام والقدسية. أما هناك فالاضطراب والظلام اللذين يضل فيهما الإنسان ويزل».

وألفى في الغرفة الراهب المبتدىء بورفيري والأب بيسي اللذين كانا يدخلان إليها كل ساعة للاستفسار عن صحة الأب زوسيما وقد علم أليوشا والفزع يملأ قلبه أن صحته تزداد سوءاً، حتى أن أحاديثه المعتادة مع الرهبان ألغيت في ذلك اليوم. وقد كانت القاعدة أن يجتمع الرهبان كل مساء بعد الصلاة في صومعة الأب زوسيما ويعترفون له جهراً بما ارتكبوه من خطايا وبما ساور أفكارهم من آثام ذلك اليوم، وما تعرضوا له من تجارب بل إنهم كانوا يعترفون له بمشاجراتهم الفردية. وكان بعضهم يعترف جاثياً. وكان الناسك يحلهم من خطاياهم، ويوفق بينهم، ويردهم إلى الصواب، ويفرض عليهم الكفارات المناسبة، ويباركهم ثم يصرفهم. وكان ذلك «الاعتراف» العام هو الذي احتج عليه خصوم «النساك» باعتباره تدنيساً لسر الاعتراف مما يعرض الدين إلى الفساد، مع ذلك كان شيئاً مختلفاً عن الاعتراف العادي. بل إنهم كتبوا العرائض إلى سلطات أبرشية المقاطعة مؤكدين أن مثل هذا الاعتراف لا يعطل الهدف الأخلاقي المنشود وحسب بل يؤدي، في الحقيقة إلى الخطيئة والتجربة. وقالوا أيضاً أن كثيرين من الرهبان يكرهون الذهاب إلى صومعة الناسك، فيذهبون إليه كارهين لأن الجميع يذهبون، فيخشون أن يتهموا بالكبرياء والتمرد. وقد قيل إن بعض الرهبان كانوا يتفقون مع بعضهم سلفاً على القول: «سأعترف بأنني خاصمتك هذا النهار، فوكّد على أقوالي» لمجرد أن يكون لديهم ما يقولونه خلاصاً من المهمة. وكان أليوشا يعلم أن ذلك كان يحدث فعلاً في بعض الأحيان. كما كان يعلم أن بعض الرهبان كانوا يشعرون بالغيظ العظيم من عادة قضت بحمل رسائلهم الواردة إليهم من أقاربهم إلى الناسك لكي يفتحها ويقرأها قبل أصحابها.

والحق أن ذلك كان يتم أصلاً بحرية وطواعية أساسهما الخضوع الإرادي والتسليم التام. ولكن الحقيقة هي أن ذلك العمل كان ينطوي في بعض الأحيان على الكثير من الرياء. غير أن الكبار والمجربين من الرهبان ظلوا

متمسكين بآرائهم وكانوا يقولون: «إن مثل هذا الخضوع وهذه التضحية بالنسبة لأولئك الذين دخلوا الدير صادقين يريدون حقاً السلامة والخلاص، لابد وأن يؤديا إلى خير النتائج وأجل الفوائد، أما أولئك الذي يشتكون منها فليسوا رهباناً حقيقيين بل إنهم أخطأوا في دخول الدير لأن مكانهم الصحيح هو الدنيا. والإنسان لا يستطيع حتى وهو في الدير، أن يكون معصوماً عن الخطيئة والشيطان، ولذلك فليس من الخير أن نعطي مسألة الاعتراف هذه أكثر مما تستحق من الأهمية».

همس الأب بيسي في أذن أليوشا وهو يمنحه البركة: إن ضعفه يتفاقم، وقد ألمت به سكرة ومن الصعب إيقاظه. ويجب أن لا نوقظه. لقد استيقظ لمدة خمس دقائق وبعث ببركته إلى الإخوان وطلب أن يصلوا من أجله في الليل. وهو ينوي العودة إلى التناول صباحاً. لقد ذكرك يا أليوشا، وسأل عما إذا كنت قد غادرت الدير، فقلنا بأنك ذهبت إلى المدينة. فأجاب: «باركته على ذلك العمل، فمكانه هناك وليس هنا لفترة من الزمن». ذلك ما قاله عنك. لقد ذكرك بمحبة واهتمام، هل تعلم مقدار احترامه لك؟ ولكن لماذا أمرك قضاء فترة من الزمن في الدنيا؟ لا بد وأنه قد تنبأ لك بشيء مقدر لك! إعلم يا ألكسي أنك إذا عدت إلى الدنيا فيجب أن تلتزم بالواجب الذي فرضه عليك الناسك، لا للانصراف إلى الأباطيل الفارغة والملذات العابرة.

خرج الأب بيسي. ولم يكن يخامر أليوشا أي شك في أن الأب زوسيما **كان يحتضر**، حتى ولو ظل على قيد الحياة يوماً آخر أو يومين. وحزم أليوشا أمره نهائياً على أن لا يغادر الدير في الغد رغم الوعود التي قطعها لأبيه ولآل خولاكوف ولكاترينا إيفانوفنا، بل يمكث مع الناسك حتى النهاية. كان قلبه يمتلىء بحبه وهو يزجر نفسه زجراً عنيفاً لأنه استطاع ولو للحظة واحدة أن ينسى ذلك الإنسان الذي تركه على فراش الموت في الدير والذي يجله أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا. ثم دلف إلى غرفة نوم الأب زوسيما وركع وأحنى هامته إلى الأرض أمام الناسك النائم بهدوء وبلا حراك، وكان نفسه يتردد تردداً ضعيفاً يكاد لا يسمع، ووجهه ساكن القسمات.

عاد أليوشا إلى الغرفة الأخرى التي استقبل الأب زوسيما زواره فيها

صباح ذلك اليوم، وخلع نعليه فقط وتمدد على الأريكة الجلدية الضيقة الصلبة، التي اعتاد منذ زمن طويل أن يجعلها فراشه، فيكتفي بأن لا يضع فوقها شيئاً سوى وسادته مستغنياً عن المفرش الذي طلب إليه أبوه بأن يحضره إلى المنزل، فكان قد نسي منذ زمن بعيد أن ينام عليه. ثم خلع جلبابه الذي كان يتخذه غطاء، ولكنه قبل أن ينام خر على ركبتيه واستغرق في صلاة طويلة حارة. ولم يتوسل أليوشا إلى الله أن ينير طريقه، بل حصر تطلعه في تلك العاطفة المبهجة التي كان الله يسبغها على روحه بعد التسبيح بحمده والتقرب إليه، وهما عماد صلاته المسائية عادة. وكانت البهجة دوماً تجلب له نوماً خفيفاً هادئاً. وفيما كان يصلي أحس في جيبه بوجود الظرف الوردي الصغير الذي أعطته إياه الخادم فيما كان يهم بمغادرة منزل كاترينا إيفانوفنا. فاضطرب ولكنه أنهى صلاته. تردد برهة ثم شق الغلاف. وكانت فيه رسالة إليه ممهورة بتوقيع ليزا ابنة السيدة خولاكوف الصغيرة التي ضحكت منه بحضور الناسك في ذلك الصباح.

قرأ أليوشا الرسالة فإذا فيها ما يلي: «ألكسي فيودوروفيتش، إنني أكتب إليك خفية عن جميع الناس، حتى أمي. وأنا أعلم مقدار الخطأ في هذا العمل. لن أستطيع العيش إذا لم أشرح لك الشعور الذي اضطرم في قلبي، وهو شعور ينبغي ألا يطلع عليه أي إنسان في الوقت الحاضر سوانا نحن الاثنين. ولكن أنى لي أن أعبر لك عن ذلك الشيء الذي أتوق كثيراً إلى التعبير عنه؟ يقال أن الورق لا يحمرّ خجلاً، ولكن أؤكد لك أن ذلك قول خاطىء، فهو يحمر بين يدي في هذه اللحظة. عزيزي أليوشا إنني أهواك، ولقد أحببتك منذ طفولتي ومنذ أيامنا في موسكو، يوم أن كنت تختلف عنك الآن اختلافاً عظيماً، وسأقيم على حبك طول حياتي، لقد اختارك قلبي لتتحد حياتنا ونظل متحدين حتى أيام الشيخوخة. ولكن شريطة أن تترك الدير طبعاً. أما فيما يختص بالسن فسننتظر المدة التي يقتضيها قانون الزواج، ولا شك في أنني حتى ذلك الحين سأشتد وسأصبح قادرة على السير والرقص، ذلك أمر لا شك فيه. ها أنت ترى كيف أني فكرت في كل شيء، ولكن هنالك شيئاً واحداً لا أستطيع تصوره: وهو ماذا يكون رأيك فيّ عندما تقرأ

رسالتي هذه؟ إنني كثيرة الضحك وقد أصبحت فتاة لعوباً حتى أنني أغضبتك هذا الصباح، ولكن أؤكد لك أنني قبل أن أتناول القلم لأكتب إليك، صليت أمام صورة العذراء، وأنا الآن مستغرقة في الصلاة وتكاد دموعي تنهمر.

إنني أضع سري بين يديك، فلست أدري كيف أنظر إليك عندما تأتي غداً. أواه يا ألكسي فيودوروفيتش ماذا يكون من أمري لو أنني لم أستطع أن أتمالك نفسي كالحمقاء وضحكت عندما أراك كما ضحكت اليوم؟ إنك ستظنني فتاة عابثة تريد أن تلهو بك ولن تصدق ما جاء في رسالتي. ولذلك فإنني أرجوك يا عزيزي، إن كنت تشفق علي، أن لا تطيل النظر إلى عينيّ فمن المؤكد أنني سأضحك وخاصة إذا كنت ترتدي ذلك الثوب الطويل. إنني أشعر بقشعريرة كلما فكرت في ذلك، ولهذا فإذا أتيت إليّ، لا تحدق في وجهي بل تشاغل عني بالنظر إلى أمي أو إلى النافذة...

ها إني كتبت إليك رسالة غرام. أواه يا عزيزي ماذا فعلت؟ أليوشا، لا تحتقرني. وإذا كنت قد سببت لك ما يجرح شعورك فسامحني. والآن فإن سري الذي قد يلوث سمعتي إلى الأبد، هو بين يديك.

لا شك أنني سأبكي اليوم. وداعاً وإلى اللقاء الرهيب - ليزا.

ملاحظة: أليوشا! يجب أن تأتي! يجب، يجب عليك! - ليزا».

قرأ أليوشا المذكرة وقد تملكته الدهشة. وأعاد قراءتها ثانية، ثم فكر برهة وإذا به يطلق ضحكة ناعمة حلوة. وأجفل، فقد يكون ارتكب خطأً إذ ضحك تلك الضحكة، ولكنه بعد دقيقة أطلق ضحكة أخرى، ضحكة ناعمة تنم عن السعادة ثم إنه أعاد المذكرة إلى الظرف ببطء، ورسم شارة الصليب وتمدد على فراشه. وبعد ذلك مباشرة زايله الاضطراب الذي كان يملأ قلبه. وتمتم وهو يرسم شارة الصليب قائلاً: «إرحمهم جميعاً يا رب، واحفظ جميع تلك الأرواح الشقية المضطربة. واهدها سواء السبيل. إن جميع السبل سبلك. أنقذهم يا رب كما تشاء حكمتك. أسعدهم جميعاً، فأنت المحبة»! ثم استسلم إلى نوم هادىء.

الباب الرابع

آلام ممضة



الأب فيرابون

قام أليوشا من فراشه باكراً قبل شروق الشمس. وكان الأب زوسيما قد استيقظ وهو يشعر بإعياء عظيم ولكنه أراد مبارحة فراشه والجلوس على مقعده. وكان ذهنه صافياً، ووجهه مشرقاً يكاد ينطق بالفرح رغم آثار الإجهاد التي تبدو فيه. وبدت نظرته تعكس البشاشة والرحمة والإخلاص. فلما رأى أليوشا خاطبه قائلاً: «ربما لم يطل أجلي إلى أكثر من هذا اليوم». ثم إنه أراد أن يعترف ويتناول القربان المقدس لتوه. وقد كان من عادته أن يعترف للأب بيسي. وبعد أن تناول القربان المقدس جرت خدمة المسح بالزيت المقدس. وأخذ الرهبان يفدون على غرفة الناسك حتى غصت بهم. وكان الكون آنذاك قد أضاء بنور الصباح. وأخذ رجال الدير يفدون إلى الصومعة. وبعد انتهاء القداس رغب الناسك في توزيع الرهبان، فأخذ يقبل كل واحد منهم. وإذ كانت الغرفة ضيقة فقد أخذ المبكرون يخرجون منها لكي يفسحوا المجال لغيرهم.

وكان أليوشا يقف إلى جوار الناسك، الذي أجلس على مقعده المريح، فكان يتحدث بالمقدار الذي يستطيعه. وكانت نبرات صوته صارمة، رغم الضعف الشديد الذي أصابه.

ثم نظر إلى الجمع الملتف حوله وقال يمازحهم: «أيها الآباء والإخوان الأعزاء، لقد كان دأبي منذ سنوات عديدة أن أعظكم وأعلمكم العقيدة الدينية. وكنت طوال الوقت أحدثكم بصوت عال حتى غلبت علي عادة الكلام فأصبحت لا أستطيع أن أحبس لساني وأكف عن الكلام حتى في هذه اللحظة رغم ضعفي».

وقد تذكر أليوشا فيما بعد بعض أقوال الناسك لهم. ولكن بالرغم من

أنه كان يتكلم بوضوح ونبرات صوته ثابتة فقد كان كلامه متقطعاً ويفتقر إلى التسلسل. وقد تحدث عن أشياء كثيرة وبدا عليه كأنه مهتم قبل أن تدنو لحظة وفاته بأن يقول كل ما عنده وما لم ينطق به لسانه في حياته، ولم يكن ذلك لمجرد رغبته في وعظهم وتعليمهم، بل كان يبدو عليه كأنه متعطش إلى الإفصاح عن خطراته وسعادته وإلى أن يفتح قلبه على مصراعيه مرة أخرى قبل أن يموت.

وتذكر أليوشا فيما بعد أن الأب زوسيما قال: «أحبوا بعضكم بعضاً أيها الآباء، أحبوا أبناء الله. إننا لسنا أقدس من العلمانيين لمجرد مجيئنا إلى هذا الدير وانقطاعنا داخل هذه الجدران. إن الأمر على نقيض ذلك. فمجرد مجيئنا إلى هذا المكان، يدل على أن كل واحد منا قد اعترف بينه وبين نفسه أنه أسوأ حالاً ممن سواه، بل وأسوأ من جميع الناس في الطرف المقابل... وكلما طالت وحدة الراهب، تحتم عليه أن يدرك ذلك، وإلا لما كان هنالك أي سبب يدعوه إلى المجيء والانعزال هنا. إننا لن نبلغ هدفنا إلا إذا أدرك كل واحد منا أنه ليس أسوأ من غيره فحسب، بل أنه مسؤول تجاه جميع الناس عن كل شيء، عن جميع الخطايا الصادرة عن الأفراد والجماعات. واعلموا يا أعزائي أن كل واحد منا هو ولا شك مسؤول تجاه جميع الناس وجميع الأشياء على وجه الأرض، وليست الخطيئة الشاملة للخليقة وحدها هي وراء هذه المسؤولية، بل إن الواحد منا مسؤول عن كل المجتمعات البشرية وعن جميع الأفراد. بهذه المعرفة تتوج حياة الراهب وكل إنسان، لأن الرهبان ليسوا صنفاً خاصاً من الناس، بل إنهم المثال الذي يجب أن يكونه جميع الناس. وبهذه المعرفة وحدها ترق قلوبنا بالمحبة الدائمة الشاملة اللانهائية وعندها سيجد كل منكم في نفسه القوة على كسب العالم بأسره بالمحبة وغسل خطايا العالم بدموعكم... فعليكم جميعاً أن تقفوا حراساً على قلوبكم وتعترفوا بخطاياكم لأنفسكم بلا انقطاع. لا ترهبنكم خطاياكم حتى ولو بدت واضحة لكم، بشرط أن تتوبوا عنها، ولكن إياكم أن تشترطوا على الله. وأعود فأقول لكم، إياكم والكبرياء، والزهو والتعالي على الأصاغر أو الأكابر، لا تكرهوا أولئك الذين ينبذونكم ويهينونكم والذين يسيئون إليكم

ويحقرونكم، لا تكرهوا الملحدين، دعاة الشر، الماديين، بل لا تكرهوا حتى الأشرار من هؤلاء لأن هنالك الكثيرين من الأخيار بينهم وخاصة في يومنا هذا. واذكروهم في صلواتكم على النحو الآتي: يا رب خلص جميع أولئك الذين لا يصلي أحد لأجلهم، وخلص حتى جميع أولئك الذين لا يؤدون الصلاة. ثم أتبعوا هذا الدعاء بقولكم: «أللهم لا أسألك هذا بدافع من الكبرياء، لأنني أحط من جميع الناس»... أحبوا أبناء الله، ولا تدعوا الأغراب يستحوذون على القطيع، لأنكم إذا غفلتم بدافع من كسل أو تفوق موهوم أو بدافع الإستئثار بالخيرات - وهذا أسوأ وأنكى - فإنهم سينهالون عليكم من كل حدب وصوب ليسلبوكم قطيعكم. بشروا بالكتاب المقدس بين الناس بدون كلل ولا ملل... ولا تحرفوه... ولا تحبوا الذهب والفضة ولا تكنزوهما... آمنوا. تشبثوا براية العقيدة وارفعوها عالياً.

إن كلمات الناسك كانت أكثر تقطعاً مما رواه أليوشا فيما بعد. فقد كان في بعض الأحيان يتوقف عن الكلام كأنه يريد أن يستجمع قواه. ولكنه كان في حالة من الانتشاء وقد أصغى إليه الرهبان بتأثر ولو أن البعض منهم كانوا يعجبون لأقواله والبعض الآخر يرونها غامضة... وقد تذكروا جميعاً فيما بعد هذه الكلمات.

وحدث أن غادر أليوشا الغرفة لحظة وحين عاد أخذته الدهشة لما شاهده من آيات الاضطراب على وجوه الرهبان المتجمعين داخلها وحولها. وكانت آيات ذلك بادية على وجوه بعضهم بشكل قلق مستحوذ عليهم، وعلى وجوه الآخرين بشكل وقار واحترام عظيمين. وبدا أنهم جميعاً يتوقعون حدوث معجزة فور وفاة الراهب. وكان هذا الترقب حالة نفسية طائشة لا مبرر لها وهي قد سيطرت على جميع الرهبان حتى أشدهم وقاراً وأكثرهم تقشفاً. وكان وجه الأب بيسي أكثر الوجوه تعبيراً عن الخطورة.

كان أليوشا قد غاب لحظة لرؤية راكيتين الذي كان قد قدم من المدينة وهو يحمل رسالة فذة إليه من السيدة خولاكوف، فبعث إليه أحد الرهبان يستدعيه خفية. وفي هذه الرسالة أبلغت أليوشا بوقوع حادث غريب جاء في الوقت المناسب. إن القارىء يتذكر أن بين النسوة اللواتي جئن في

اليوم السابق للحصول على بركة الأب زوسيما كانت هناك امرأة عجوز من بلدتنا وهي أرملة رقيب في الجيش تدعى بروخوروفنا. وقد استفتت الناسك عما إذا كان لها أن تصلي لراحة ابنها فاسنكا الذي أرسل مجنداً إلى «أيركوتسك» ولم تصلها أنباء عنه منذ أكثر من عام. وقد أجابها الأب زوسيما آنذاك إجابة قاسية، ومنعها من ذلك، وأفهمها أن صلاة كهذه هي ضرب من الشعوذة. ولكنه غفر لها فيما بعد بسبب جهلها، وواساها قائلاً، «وكأنه يتصفح سفر مستقبلها» (وكان هذا تعبير السيدة خولاكوف): «إن ابنها فاسيا حي يرزق لا ريب في ذلك وأنه إما أن يعود إليها وشيكاً أو يبعث إليها برسالة، وأن عليها أن تعود إلى دارها وتنتظر مقدمه». وقد أضافت السيدة خولاكوف تقول في رسالتها بحماسة مفرطة: «هل تصدق بأن النبوءة قد تحققت بنصها، بل وأكثر من ذلك». إذ ما كادت المرأة تبلغ منزلها حتى تسلمت رسالة من سيبيريا كانت وصلت أثناء غيابها. ولم يكن هذا كل شيء؛ فقد أنبأ فاسيا أمه في رسالته التي كتبها إليها، وهو في طريقه من إيكاترينبورغ، أنه عائد إلى روسيا مع أحد الموظفين وأنه يأمل «أن يعانق أمه» بعد ثلاثة أسابيع كحد أقصى.

ورجت السيدة خولاكوف أليوشا أن ينقل «أعجوبة التنبؤ» الجديدة هذه إلى رئيس الدير وجميع الرهبان. وأنهت رسالتها قائلة: «يجب أن تعلموا جميعاً بلا استثناء نبأ ذلك»! كانت الرسالة مكتوبة على عجل وقد عكس كل سطر من سطورها اضطراب الكاتبة وانفعالها. غير أن أليوشا لم تكن به حاجة إلى أن يبلغ الرهبان نبأها، لأنهم جميعاً كانوا يعرفون ما جاء فيها. إن راكيتين قد رجا الراهب الذي حمل رسالته «بأن يبلغ الأب المبجل الكلي الاحترام بيسي، بأنه أي راكيتين يريد رؤيته ليكلمه حالاً وفي غير إبطاء بأمر على جانب من الخطورة وأنه بكل خضوع يرجوه المعذرة على قحته». ولما كان الراهب قد سلم رسالة راكيتين إلى الأب بيسي قبل أن يسلم أليوشا رسالته فإنه لم يبق لأليوشا سوى أن يسلّم رسالته إلى الأب بيسي لكي يرى فيها مصداقاً لقصة النبوءة.

ولم يستطع حتى ذلك الرجل الصارم الجلود أن يكبت شعوراً باطنياً

اعتلج في نفسه عندما قرأ نبأ «المعجزة» مع أنه قطب جبينه وهو يقرأ. فقد تألقت عيناه وارتسمت على شفتيه ابتسامة رزينة وعميقة ووجد نفسه يقول: «سنرى معجزات أعظم»!.

فأمن الرهبان على كلامه قائلين: «سنرى معجزات أعظم! أعظم من هذا»! لكن الأب بيسي عاد فقطب جبينه ورجا الرهبان أن لا يتحدثوا الآن على الأقل عن هذا الأمر بانتظار أن يحين أوان إعلانه. وأضاف قائلاً وهو يبدي الحكمة وكأنه يود أن يرضي ضميره: يجب الانتظار حتى يأتي المزيد من البراهين على صدقه. وكما تعلمون فإن أبناء هذه الدنيا سذج سريعو التصديق. والحقيقة أن ما جرى يمكن أن يكون وليد الصدفة.

لكن الحضور أدركوا بوضوح أن حماسة الأب بيسي تكاد تفوق تحفظه وشكوكه. وسرعان ما كان أبناء الدير جميعاً قد أحاطوا علماً بنبأ «المعجزة»، بل إنها تناهت إلى أسماع كثيرين من الزوار الذين أموا الدير للصلاة. وكان أكثر الناس تأثراً، ذلك الراهب الذي جاء في أمس الأول من دير سانت سيلفستر، ودير أوبدروسك الصغير في الشمال البعيد. وهو الراهب الذي كان يقف خلف السيدة خولاكوف بالأمس، وسأل الأب زوسيما سؤالاً يدل على صدق إيمانه وهو يشير إلى «شفاء» ابنة السيدة: «أنى لك القدرة على فعل مثل هذه الأمور».

فلما سمع نبأ المعجزة الجديدة لم يدر أيهما يصدق. ذلك أنه قام يوم أمس بزيارة إلى الأب فيرابون في غرفته النائية القائمة خلف خلايا النحل. وقد أحدثت فيه هذه الزيارة تأثيراً عظيماً وأدخلت الرهبة في نفسه. وقد كان الأب فيرابون راهباً مسناً، اشتهر بشدة استمساكه بالصيام عن الطعام والكلام، وهو الذي أشرنا إليه بأنه كان مناوئاً للأب زوسيما وخصماً لجميع أفراد فئة «النساك» التي كان يعدها بدعة هدامة تافهة. إنه خصم خطر جداً رغم أنه لصمته قلما فاه بكلمة لأي إنسان. ومما زاد في بأسه أن عدداً من الرهبان كانوا يشاطرونه شعوره مشاطرة تامة. وكان الكثيرون من الزوار يرون فيه أنه معتوه، بل أن عتاهته هي عنصر الجاذبية فيه.

ولم يتفق قط أن قام الأب فيرابون بزيارة الناسك زوسيما. ومع أنه كان

يعيش في الصومعة إلا أن أهلها لم يثقلوا عليه بطلب مراعاة تعاليمها، ذلك لأنه كان يتصرف تصرف المعتوهين. إنه في الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد، وكان يعيش في زاوية تقع خلف خلايا النحل في غرفة خشبية متداعية بنيت في القرن الماضي لمتقشف آخر يدعى الأب جوناس الذي عمّر مائة وخمسة أعوام، وعرفت عنه أعمال قدسية ما زالت تفاصيلها العجيبة على ألسنة أهل الدير والمنطقة.

ولقد أفلح الأب فيرابون في الاستئثار لنفسه بالعيش في نفس هذه الغرفة المنفردة منذ سبع سنوات. وقد كانت كوخاً بسيطاً مع أنها كانت تبدو كالكنيسة الصغيرة لاحتوائها على عدد كبير من الأيقونات والقناديل المشتعلة أمامها بصورة دائمة، إنها من تقديمات الناس إلى الدير. وعهد إلى الأب فيرابون بصيانتها وإبقائها مشتعلة. وقيل عنه أن تسعمائة غرام من الخبز كانت تكفيه طعاماً لمدة ثلاثة أيام، يحملها إليه عادة راعي الخلايا الذي كان يعيش على مقربة منها. وكان الأب فيرابون نادراً ما يتكلم حتى أمام هذا الرجل الذي كان يقوم بخدمته. وكان يرسل إليه ضعف هذا المقدار من الخبز، مع خبز القربان المقدس بانتظام في أيام الآحاد بعد القداس الأخير برئاسة الأب رئيس الدير فيكفيه أسبوعاً كاملاً. وكان الخادم يبدل له الماء في كوزه مرة في كل يوم. وكان الأب فيرابون لا يكاد يحضر القداس أبداً. وكان زواره يرونه في بعض الأحيان راكعاً طول النهار وهو يتمتم بالصلاة لا يلتفت إلى ما حوله. فإذا اتفق أن كلمهم كان كلامه غريباً موجزاً مقتضباً وهو فظ في معظم الأحيان. وفي مناسبات نادرة كان يطيل حديثه إلى زائريه ولكنه كان في الجانب الأعظم منه ينطق بقول غريب مبهم كاللغز. ويرفض أن يقدم شرحاً له رغم توسلات العديدين إليه. ولم يكن قسيساً بل راهباً بسيطاً. وقد كان هناك اعتقاد غريب راج بين الجهلة من الناس بأن الأب فيرابون كان على اتصال بالأرواح السماوية وأنه لا يتخاطب إلا معها فهو لذلك لا يتحدث مع الناس إلا في حالات الضرورة.

ذهب راهب أوبدورسك إلى الزاوية التي يقوم عندها كوخ الأب فيرابون وقاده إليها راعي خلايا النحل الذي كان هو الآخر راهباً قليل الكلام متزمتاً

وقد نبهه قائلاً: «إنه قد يتحدث إليك لأنك غريب، وربما لم تتمكن من انتزاع كلمة واحدة منه. وقد قص الراهب فيما بعد قصة اجتماعه به، وقال إنه اقترب من الكوخ وقد تقدم الليل وهو يشعر بالرعب الشديد. وكان الأب فيرابون يجلس على مقعد وطيء عند باب الغرفة وكانت الريح تعبث بأغصان شجرة دردار كبيرة عند الغرفة فتحدث حفيفاً هادئاً وكان الهواء بفعل طراوة الماء منعشاً بهيجاً. وقد انحنى راهب اوبدورسك أمام القديس وطلب بركته.

فخاطبه الأب فيرابون قائلاً: «أتراك تريد أن أركع لك أيها الراهب؟ هيا إنهض من مجلسك»!.

فنهض الراهب. وخاطبه الأب فيرابون متسائلاً: أتريد البركة فليباركك الله! إجلس إلى جواري. من أي مكان أتيت؟.

كان أكثر ما أدهش الراهب المسكين أن الأب فيرابون رغم استمساكه بالصيام وتقدمه في العمر، كان لا يزال يبدو شيخاً ممتلئاً حيوية. هو طويل القامة معتدل العود ووجهه ناحل إلا أنه كان ينطق بالصحة والنشاط. كان يبدو للناظر إليه أنه لا يزال يتمتع بقسط وافر من القوة. فقد كان هائل الجثة. ورغم تقدمه في السن فإنه لم يشب تماماً. وما زال شعر رأسه غزيراً ولحيته مسترسلة. وكانت عيناه رماديتين واسعتين يلفت بروزهما النظر. وفي كلامه لكنة بتشديد حرف الواو. يرتدي ثياب الفلاحين وهي عبارة عن جلباب طويل يميل لونه إلى الحمرة مصنوع من النسيج الخشن (جوخ السجناء كما كان يسمى) وقد تمنطق بحبل غليظ. وكان عنقه وصدره لا يكسوهما شيء وتحت جلبابه كان يظهر قميصه المصنوع من أخشن أنواع الكتان، وهو لفرط قذارته كان يسودّ، فهو لم يبدله منذ شهور. ويقولون أنه كان يثقل جسمه بأوزان من الحديد تحت جلبابه تزن بضعة عشر كيلو غراماً. ولم يكن يلبس الجوارب بل كان ينتعل خفاً مهترئاً يكاد يتناثر قطعاً مهلهلة.

فلما سمع الراهب سؤال الناسك أجابه متواضعاً وعيناه الحادتان المتسائلتان بل الخائفتان الصغيرتان ترمقانه بحذر: «من دير اوبدورسك الصغير، من سانت سيلفستر».

- لقد كنت أزور سيلفستركِ هذا، لقد عشت فترة هناك. هل سيلفستر بخير؟.

وظهرت الحيرة والتردد على الراهب.

- إنكم قوم سخفاء! كيف تؤدون فروض صيامكم؟.

- إن واجباتنا تقدم وفق قوانين الأديرة القديمة. فنحن لا نزود بالطعام أيام الإثنين والأربعاء والجمعة طيلة الصوم. وفي أيام الثلاثاء والخميس نتناول الخبز الأبيض والفواكه المطبوخة بالعسل، والتوت البري، أو الملفوف المملح مع وجبة من الخضار المخلوطة. وفي أيام السبت نتناول حساء الملفوف الأبيض مع البسلى وخفيف الطعام وتطبخ كلها بزيت الكتان. وفي أيام الأسبوع العادية نتناول السمك المقدد مع طعام خفيف وحساء الملفوف. وفي أسبوع الآلام لا نطهو شيئاً وطوال الستة الأيام ابتداء من يوم الإثنين حتى مساء السبت، لا نأكل سوى الخبز والماء وحتى هذا يكون بمقدار. ومن استطاع منا، لم يتناول طعامه يومياً، كما هي الحال في الأسبوع الأول من أيام الصيام الكبير. وفي يوم الجمعة العظيمة لا نأكل شيئاً، وفي يوم سبت النور نصوم حتى الساعة الثالثة وبعدها نأكل قليلاً من الخبز، ونشرب قليلاً من الماء مع كأسٍ واحدة من النبيذ. وفي خميس الأسرار نشرب النبيذ ونأكل طعاماً نيئاً أو مطبوخاً بدون زيت. وفي النظام الذي أقره المجلس اللوديسي بالنسبة لخميس الأسرار: إنه لا يليق قطع الصوم في خميس الأسرار، لئلا يفسد الصيام كله.

وأضاف الراهب قائلاً وهو يشعر بالاعتداد: «ذلك هو صيامنا، ولكن أنى له أن يقاس بصيامك أيها الأب المقدس فأنت طوال السنة وحتى عيد الفصح لا تتناول شيئاً سوى الخبز والماء، وما نأكله في يومين يكفيك أسبوعاً كاملاً. إن زهدك العظيم يثير في الحقيقة أشد الإعجاب.

وفجأة سأل الأب فيرابون الراهب قائلاً: «والفطر؟».

فردد الراهب المندهش قائلاً: «الفطر؟».

نعم، إن في مقدوري أن أتخلى عن خبزهم، فلا أحتاج إليه أبداً، فأنا أوغل بعيداً في الغابة وأعيش فيها على الفطر والثمار البرية. ولكنهم في هذا الدير لا يستطيعون التخلي عن خبزهم لأنهم مقيدون بقيود الشيطان. وفي

زماننا هذا ينكر الدنسون الحاجة إلى مثل هذا الصيام. إن ذلك هو رأي المتكبرين الذين دنسهم الشيطان.

تنهد الراهب وقال مؤمّناً على كلامه: «إن هذا صحيح».

وعاد الأب فيرابون إلى سؤاله قائلاً: «وهل رأيت الشياطين بينهم»؟.

فأجاب الراهب متهيباً: «بينهم؟ بين من»؟.

- لقد زرت الأب الرئيس يوم أحد الثالوث الأقدس من العام الماضي ولم أعد إليه بعد ذلك أبداً، فقد شاهدت شيطاناً يجثم على صدر أحد الرهبان، وقد اختبأ تحت جلبابه ولم يظهر منه إلا قرناه، ورأيت شيطاناً ثانياً يطل من جيب راهب آخر وعيناه حادتان، وقد خاف مني وكان هنالك شيطان آخر في جوف أحدهم القذر، وآخر متشبثاً بعنق أحدهم وهكذا كان يطوف به من مكان إلى آخر دون أن يراه الرهبان.

فتساءل الراهب قائلاً: «إنك... هل تستطيع رؤية الأرواح»؟.

- إنني أقول لك بأنني قادر على ذلك. إنني أستطيع رؤية الأرواح من خلل الرهبان. وعندما كنت خارجاً من غرفة الأب الرئيس رأيت شيطاناً يختبىء مني خلف الباب، وكان شيطاناً عظيم الخلقة يبلغ ارتفاعه متراً بل أكثر وله ذيل أغبر غليظ. وكان طرف ذيله في شق الباب. وقد أسرعت فأقفلت الباب على ذيله، فأخذ يصيح ويحاول الفكاك فسارعت إلى رسم شارة الصليب فوقه ثلاثاً فمات لتوه كالعنكبوت المسحوق. ولا بد أنه تحلل في تلك الزاوية وأصبحت موبؤة بريحه ولكنهم لا يبصرون ولا يشمون. لقد مضى عام كامل منذ أن ذهبت إلى غرفة الأب الرئيس. إنني أسرّ لك بهذا الأمر لأنك غريب عن هذا الدير.

فقال الراهب: «إن كلماتك هائلة! ولكن أيها الأب المقدس المبارك». وأضاف يقول وجرأته تزداد رويداً: «هل صحيح، ما يروج عنك حتى في المناطق النائية بأنك دائم الاتصال بالروح القدس»؟.

- إن الروح القدس يهبط في بعض الأوقات.

- وكيف يهبط؟ وفي أية صورة؟.

- بصورة طائر.

- الروح القدس بصورة حمامة؟.

- يجب التفريق بين الروح القدس، والروح المقدسة. وهذه يمكن أن تظهر بصورة الطيور الأخرى. ففي بعض الأحيان تكون بصورة طائر السنونو، وفي أحيان أخرى تكون بصورة حسون وغيره.

- وكيف تميزها عن سائر الطيور العادية؟.

- إنها تتحدث.

- وكيف تتحدث وبأية لغة؟.

- بلغة الناس.

- وماذا تقول لك؟.

- لقد أنبأتني اليوم مثلاً أن أحد الحمقى سيزورني ويسألني أسئلة لا تليق. إنك تريد أيها الراهب معرفة أشياء تثقل عليك كثيراً.

فهز الراهب رأسه وقال: «إن كلماتك هائلة أيها الأب الأقدس المبارك». وبدا الشك في عينيه الصغيرتين اللتين عاودهما الخوف.

وبعد برهة من الزمن سأله الأب فيرابون قائلاً: «هل ترى هذه الشجرة؟».

- إنني أراها أيها الأب المبارك.

- إنها تبدو لك شجرة دردار، ولكنها تختلف عن ذلك في نظري وتتخذ شكلاً آخر.

وانتظر الراهب عبثاً أن ينطق الراهب بما يراه فيها، فعاد إلى التساؤل: «وأي شكل؟».

- إن ذلك يحدث أثناء الليل. هل ترى هذين الغصنين؟ إنهما يصبحان في الليل ذراعي السيد المسيح يفتحهما لي ويدعوني إليهما. إن ذلك يكون واضحاً وأنا أراه وأرتعد. إنه شيء هائل، شيء هائل!.

- وما هو وجه الهول لو أن الشجرة كانت السيد المسيح بذاته؟.

- قد يخطفني ويحملني بعيداً.

- وأنت حي؟.

ـ بروح النبي إلياس ومجده أما سمعت؟ إنه المسيح سيأخذني بين ذراعيه ويحملني بعيداً.

وعاد الراهب إلى الغرفة التي كان يشاطر فيها أحد رهبان الدير، وبرغم ما شعر به من حيرة عظيمة وتشوش في عقله، فإنه كان في قرارة نفسه يكن من الاحترام للأب فيرابون أكثر مما كان يكنه للأب زوسيما. فقد كان مولعاً ولعاً عظيماً بالصيام. ولم يكن غريباً أن يؤتى «رؤية المعجزة» من كان بقدرة الأب فيرابون على الصيام. ولقد بدت كلماته غريبة لا ريب في ذلك، ولكن الله وحده هو الذي يدري ما وراءها من دلالات. أفلا يسمع الإنسان عادة كلمات ولا يبصر أفعالاً أسوأ من هذه تصدر عمن ضحوا بحجاهم في سبيل مجد الله؟ أما قصة سحق ذيل الشيطان، فقد كان متقبلاً لها وبشوق حتى في غير معناها المجازي. وفضلاً عن ذلك فهو كان قبل زيارته للدير يشعر بنفور عظيم من نظام «النساك» الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً إلا ما كان يسمعه وكان يعتبره بدعة هدامة. وخلال إقامته القصيرة في الدير ترامى إلى سمعه همس يحمل تذمر بعض الإخوان السطحيين الذين كانوا يكرهون النظام. وكان علاوة على ذلك رجلاً متطفلاً ثرثاراً يقحم نفسه في كل شيء. ذلك ما سبّب له الشعور بالاضطراب العظيم عندما بلغه نبأ «المعجزة» الجديدة التي جاء بها الأب زوسيما. وقد تذكر أليوشا فيما بعد، كيف كان زائر الدير الفضولي القادم من أوبدورسك دائم التنقل بين جماعة وأخرى يصغي إلى أقوال الجميع ويسأل الجميع بينما كانوا مزدحمين على باب الناسك، ولكنه لم يعره كبير اهتمامه في ذلك الوقت، ولم يتذكر أعماله إلا بعد ذلك.

لم يكن ذهن أليوشا يتسع إلى هذا الراهب، لأن الأب زوسيما عندما عاوده الإعياء وانتقل إلى فراشه، تذكر أليوشا وهو يغمض عينيه وأرسل في طلبه. فسرعان ما حضر، ولم يكن في الغرفة سوى الأب بيسي والأب يوسيف والراهب المبتدىء بورفيري. وفتح الأب زوسيما عينيه الكليلتين وحدق إلى أليوشا وسأله فجأة:

ـ هل أهلك في انتظارك يا ولدي؟

وتردد أليوشا، ثم عاد الناسك الأكبر إلى السؤال قائلاً:

ـ أليس بهم حاجة إليك؟ ألم تعِد إنساناً ما يوم أمس بالعودة إليه اليوم؟.

ـ لقد وعدت أبي وأخوي وغيرهم بالذهاب إليهم.

ـ إذن يجب أن تذهب. لا تبتئس. وثق بأنني لن أسلم روحي قبل أن تكون إلى جواري لتسمع كلمتي الأخيرة، وستكون كلمتي هذه لك، وستكون هديتي الأخيرة إليك. إليك يا ولدي العزيز لأنك تحبني. والآن إذهب وبر بوعدك.

وأطاع أليوشا مسرعاً، ولو أن ذهابه شق على نفسه، ولكن وعد الناسك له بأنه سيسمع آخر كلمة منه وهو على قيد الحياة، وأنها ستكون هديته الأخيرة إليه، بعث في نفسه نشوة أشرقت بها جوانبها. وأسرع لكي ينجز مهماته التي تنتظره في المدينة ويعود مبكراً. كما أن الأب بيسي أسمعه بعض كلمات التشجيع التي هزته وأدهشته كثيراً، وهما يغادران معاً الغرفة.

قال الأب بيسي مباشرة: «أذكر دائماً أيها الفتى أن العلوم الدنيوية التي غدت قوة عظيمة، وخاصة في القرن الماضي، قد حللت كل ما هو إلهي مما تضمنته الكتب المقدسة. وبعد ذلك التحليل القاسي لم يترك علماء هذه الدنيا شيئاً مما كان مقدساً في الزمن القديم. ولكنهم لم يحللوا إلا أجزاء التعليم الديني وتجاوزوا عن جوهره وكلّيته. وإن عماهم في الحقيقة شيء يدعو إلى العجب ذلك أن الجوهر راسخ أمام أعينهم ولن تطغى عليه أبواب الجحيم. ألم يثبت تسعة عشر قرناً، أو ليس هو حياً، وقوة متحركة فى روح الفرد وفي أرواح جمهرة الناس؛ إنه ما زال قوياً وحياً حتى في أرواح الملحدين الذين أرادوا تدميره! وحتى أولئك الذين خرجوا على المسيحية وهاجموها، فإنهم في قرارة نفوسهم شاؤوا أم أبوا يتبعون المثل الأعلى المسيحي، ذلك أنهم، رغم تفوقهم العقلي ورغم الجذوة المتقدة في نفوسهم، فشلوا حتى الآن بخلق مثل أسمى للإنسان وللفضيلة، من المثل الذي جاء به السيد المسيح منذ القدم. إن كل المحاولات في هذا السبيل لم تأت إلا بنتائج مغلوطة وقبيحة. أذكر هذا بوجه خاص أيها الفتى، لأنك الآن مرسل إلى الدنيا من قبل ناسكك المحتضر. لعلك أنت تذكر هذا اليوم العظيم، لا

تنسى كلماتي التي صغتها إليك من قلبي لتضيء طريقك، وأنا أرى فيك فتى صغير السن، وتجارب الدنيا عظيمة لا قبل لقوتك على احتمالها. والآن إذهب أيها اليتيم».

ولما فرغ الأب بيسي من أقواله بارك أليوشا. وإذ هو يغادر الدير، كان أليوشا يستعيد هذه الأقوال ويتدبرها. وفجأة أدرك أنه حظي بصديق جديد من حيث لا يدري، بمعلم مخلص محب له، هو هذا الراهب الزاهد الذي كان حتى تلك اللحظة قاسي المعاملة. وخيل إلى أليوشا أن الأب زوسيما كلفه هذه المهمة وهو على فراش الموت وأنه «ربما كان ذلك ما اتفقا عليه». أليست التأملات الفلسفية التي سمع تفسيرها منذ لحظة، دلالة غير منتظرة على محبة الأب بيسي وإخلاصه. لقد كان متعجلاً في تزويد ذهن الصبي بما يؤهله لمواجهة تجارب الحياة، وحماية تلك الروح الفتية التي استودعها، بأقوى الأسلحة الروحية والأخلاقية.



عند والده

توجه أليوشا أولاً إلى منزل والده. وقد ذكر وهو يقترب منه إلحاحه بالأمس على أن يعود خفية عن أخيه إيفان. وفجأة تملكه العجب لأمر هذا الإلحاح وأخذ يتساءل: «ترى ما هو الموجب لمجيئي خفية عن أخي، حتى ولو كان والدي يبغي البوح لي بسر من أسراره؟ الأرجح أن الأمر التاث عليه وهو في تلك الحالة من الاضطراب فقال شيئاً وكان يعني شيئاً آخر».

وإذ بلغ حديقة المنزل، واستقبلته مارفا ايغناتييفنا التي فتحت له الباب (وعلم منها أن غريغوري كان يلازم فراشه في منزل الخدم) اغتبط كثيراً عندما قالت مجيبة عن سؤاله أن إيفان خرج قبل ساعتين.

ولما سألها عن والده أجابته بشيء من الجفاف: «إنه في المنزل يرتشف القهوة».

ودخل اليوشا المنزل فألفى والده جالساً وحده إلى المنضدة منتعلاً خفين، ملتفاً بمعطف عتيق. كان يزجي الوقت بمراجعة بعض الحسابات من غير تدقيق فيها. ولم يكن في المنزل أحد سواه لأن سميردياكوف أيضاً كان قد خرج إلى السوق لقضاء بعض الحاجات. ورغم نهوضه المبكر وتظاهره باستعادة قواه، فإن أمارات الاعياء والضعف كانت بادية عليه. ولقد لف جبهته بمنديل أحمر ستر الرضوض الكبيرة الأرجوانية التي ظهرت عليها أثناء الليل. وكان أنفه أيضاً قد تورم في الليل توراماً خفيفاً، وغطي بقطع من الشاش كانت تستر ما ظهر عليه من رضوض صغيرة. وقد أضفى كل ذلك على وجهه مظهراً يثير في النفس النفور والاشمئزاز: وكان الرجل العجوز شاعراً بذلك، فرمق أليوشا لدى دخوله بنظرة عدائية، وصاح به بلهجة تنطوي على الفظاظة:

«إن القهوة باردة، فلن أقدم لك منها شيئاً. وطعام اليوم سيكون مقتصراً على حساء السمك وهو طعام يؤكل في الصيام، ولن أدعو أيّ إنسان لمشاطرتي هذا الحساء. انبئني، لماذا أتيت؟».

فقال أليوشا: «جئت لكي أطمئن على حالك».

ـ «هذا صحيح. ثم إنني قد طلبت إليك بالأمس أن تأتي. إن الأمر كله سخيف، ولم يكن من سبب لانزعاجك. ولكني كنت أعلم أنك لا ريب آت لكي تتطفل عليّ!».

وقد فاه بهذه الكلمات بلهجة عدائية. ثم نهض وأخذ يتفقد أنفه في المرآة (ولعله للمرة الأربعين ينظر إلى وجهه في المرآة في ذلك الصباح). وأخذ أيضاً ينسق المنديل الأحمر الذي لف به جبهته. ثم قال:

«إني أفضل اللون الأحمر. فالضمادات البيضاء تذكر بالمستشفى. والآن، كيف تسير الأمور هناك؟ وكيف حال ناسكك؟

فأجاب أليوشا: «لقد ساءت حاله، وقد يفارق الحياة هذا اليوم». ولكن والده لم يكن مصغياً إليه، فقد نسي أنه طرح سؤالاً.

وقال فيودور بافلوفيتش فجأة: «لقد خرج إيفان، إنه يبذل قصارى جهده لكي يستأثر لنفسه بخطيبة ميتيا». ثم أضاف بخبث وقد زم شفتيه وأخذ ينظر إلى أليوشا: «إن هذا هو سبب مكوثه هنا».

فقال أليوشا متسائلاً: «لا شك أنه لم يخبرك هو بذلك».

ـ «بلى، لقد أخبرني منذ زمن بعيد. هل تصدق أنه اعترف لي بذلك منذ ثلاثة أسابيع؟ أو لعلك تعتقد أنه هو أيضاً ينوي الفتك بي؟ لا بد أن له هدفاً في قدومه».

فقال أليوشا مضطرباً: «ماذا تعني؟ أي قول هذا، ولم تقوله؟».

ومضى فيودور بافلوفيتش في كلامه وهو يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، واضعاً يديه في جيبي معطفه القذر المصنوع من نسيج قطني أصفر اللون: «إنه لا يطلب مني مالاً، وهذا صحيح، ولكنه على أي حال لن ينال مني فلساً واحداً. إنني أود أن أعيش أطول مدة ممكنة، فلتعرف ذلك أنت أيضاً يا عزيزي الكسي فيودوروفيتش، ولذلك فإنني في حاجة إلى كل فلس أملكه،

وكلما طال بي العمر ازدادت حاجتي إلى المال. وقد أفارق الحياة في سن الخامسة والخمسين، ولكني أريد أن أحيا عشرين سنة أخرى. وأنت تعلم أن شكلي لن يكون مقبولاً عندما أشيخ، ولن تقبل علي الفتيات من تلقاء أنفسهن، وهذا هو سر حاجتي إلى المال. ولذلك فإنني أدّخر وأدخر، لا لأحد سواي بل لنفسي، يا ولدي العزيز الكسي فيودوروفيتش. ولك أن تعرف ذلك أيضاً، ودعني انبئك أنني سأسترسل في خلاعتي إلى آخر يوم من عمري. فالخطيئة شيء حلو، وجميع الناس يحقرونها، ولكنهم جميعاً يعيشون فيها، والفرق بيني وبينهم هو أني أرتكب الخطايا جهاراً، وهم يرتكبونها في الخفاء. ولذلك يلومني جميع الواعظين على بساطتي. أما فردوسك يا الكسي فيودوروفيتش فدعني أنبئك أنه لا يتلاءم وذوقي، وهو مكان لا يليق بسيد، هذا إذا كان الفردوس موجوداً. أعتقد أنني سأغفو فلا أستيقظ بعد ذلك، ولا شيء بعد الموت أبداً. بوسعك أن تصلي عن روحي إذا شئت. أما إذا لم تشأ فلا تصل وتباً لك! تلك هي فلسفتي. لقد أجاد إيفان في الكلام البارحة، مع أننا كنا جميعاً ثملين. إن إيفان إنسان مغرور، غير مثقف، ولا يجيد علماً من العلوم. وإذا جالس إنساناً فإنه يصمت ويسخر من الجميع صامتاً، وبصمته هذا يأمن الزلل. وكان أليوشا يصغي إلى حديثه صامتاً.

وتابع فيودور بافلوفيتش كلامه فقال: «لماذا يحجم عن التحدث إلي، وهو إذا تحدث فإنه يتصنع في كلامه. إن أخاك إيفان نذل! أما غروشينكا فإني سأتزوجها في غضون دقيقة واحدة إذا أردت. فما دمت أملك المال يا الكسي فيودوروفيتش فإني سأحصل على أي شيء أريده. وهذا هو ما يخشاه إيفان، وهو يقظ دائماً ليحول بيني وبين الزواج، وهو لذلك يحض ميتيا على الاقتران بغروشينكا. إنه يأمل بهذه الطريقة أن يبعدني عن غروشينكا (كأني سأخلف له أموالي إذا لم أقترن بها!). وفضلاً عن ذلك، إذا اقترن ميتيا بغروشينكا، فإن إيفان سيظفر بخطيبته الثرية، تلك هي حساباته. إنه نذل، أخاك إيفان!».

فقال أليوشا: «ما أعظم غضبك اليوم. وما هو إلاّ بسبب ما حدث البارحة. والأفضل لك أن تستلقي على فراشك».

- «مهلاً! ها أنت تقول ذلك ولم تثر غضبي. ولو كان إيفان هو الذي قال ما قلته الآن لغضبت منه. معك وحدك يطيب خاطري، وفيما عدا ذلك فأنا إنسان سيء الطباع».

فقال أليوشا مبتسماً: «لست سيء الطباع ولكنك مضطرب الذهن».

- «اصغ إلي، لقد نويت هذا الصباح أن أزج بذلك السافل ميتيا في السجن. وحتى الآن فإن قراري غير نهائي بهذا الشأن. النظرة العصرية للآباء والأمهات هي أنهم عبء ثقيل، ولكن القانون حتى في هذه الأيام لا يسمح لك بأن تمسك بوالدك من شعره وتجره على الأرض، وتركله في وجهه وفي عقر داره، ثم تباهي بأنك ستعود للقضاء عليه أمام شهود. ولو شئت لسحقته وألقيت به في غياهب السجن للتو، عقاباً على ما فعل البارحة».

- «إذن فأنت لا تنوي الآن مقاضاته أمام المحاكم؟».

- لقد صرفني إيفان عن ذلك. وما كنت لأعبأ بإيفان وآرائه لولا أن شيئاً آخر خطر ببالي.

ثم مال بجسمه نحو أليوشا وتابع حديثه بما يشبه الهمس:

«لو أنني ألقيت بذلك السافل في السجن لتناهى إليها أمره، وسارعت إلى زيارته في السجن. أما إذا علمت بأنه اعتدى علي بالضرب وكاد يفتك بي، أنا العجوز الضعيف فقد تنصرف عنه، وتأتي إلي. فذلك هو أسلوبها، تحب أن تأخذ الأمور بأضدادها. لقد خبرتها وأصبحت أعرفها جيداً! هلا تناولت شيئاً من البراندي؟ خذ شيئاً من القهوة الباردة، وسأسكب فيها ربع قدح من البراندي، فيسيغ شرابها».

فقال أليوشا: «كلا، شكراً لك. سآخذ هذه الكعكة إذا أذنت لي». ثم أخذ كعكة صغيرة ودسها في جيب جلبابه، وقال باهتمام وقلق: وأنت أيضاً يجب أن تكف عن شرب البراندي.

- إنك على حق، فهو يهيج أعصابي ولا يهدئها، سآخذ قدحاً واحداً صغيراً فقط. الزجاجة في الخزانة هناك.

وفتح الخزانة وملأ قدحاً من البراندي فشربه وأقفلها، وأعاد مفتاحها إلى جيبه، وقال:

«هذا يكفي. إن قدحاً واحداً لن يقتلني».

فقال أليوشا مبتسماً: «ها أنت ترى أنك عدت أفضل طبعاً».

ـ «ها! إنني أحبك حتى في ساعات صحوي، أما مع الأنذال فأنا نذل. إن إيفان راغب عن السفر إلى تشيرماشنيا ـ لماذا؟ لأنه يريد التجسس علي ومعرفة ما أعطيه من مال إلى غروشينكا إذا جاءت إلي. إنهم جميعاً أنذال! إنني لا أعترف بإيفان إبناً لي، ولا أعرفه البتة. من أين جاء؟ إن روحه ليست من أرواحنا. أيظن أني سأورثه شيئاً! إنني لن أترك وصية بعد وفاتي، ألا فاعلم ذلك أنت أيضاً. وسأسحق ميتيا كما تسحق الخنفساء. إنني أسحق الخنافس السود أثناء الليل برجلي، وأسمع صوت طقيقها وهكذا سأسحق أخاك ميتيا أيضاً. أقول أخاك ميتيا لأنك تحبه. إنك تحبه ولا تقلقني محبتك إياه. أما لو كان إيفان يحبه فلخشيت عندئذ على نفسي. ولكن إيفان لا يحب أحداً، إنه ليس منا. إن الناس أمثال إيفان ليسوا من طينتنا. إنهم أشبه بسحابة من غبار، فإذا هبت الريح ذرا الغبار... لقد راودتني فكرة سخيفة عندما طلبت إليك أن تأتي اليوم؛ لقد رغبت معرفة شيء يتعلق بميتيا. ترى لو أعطيته ألف روبل الآن، أو قل ألفين، فهل يوافق ذلك الفاسق الدنيء على أن يغادر البلدة خمس سنوات أو خمساً وثلاثين سنة بدون أن يأخذ معه غروشنكا، متنازلاً عنها إلى الأبد؟».

فتمتم أليوشا قائلاً: «إني سأسأله أنك لو أعطيته ثلاثة آلاف نقداً...»

ـ «هذا كلام لغو! لا حاجة بك إلى سؤاله الآن، لا حاجة لذلك! غيّرت رأيي. إنها فكرة سخيفة. لن أعطيه شيئاً، ولا فلساً واحداً، إني سأحتاج هذه الأموال». كان الرجل العجوز يقول ذلك ملوحاً بذراعيه سأسحقه كما أسحق الخنفساء بدون أن أعطيه شيئاً من المال. إياك أن تفاتحه بأمر النقود وإلاّ أحييت في نفسه الآمال. ثم ليس من موجب لبقائك هنا فاذهب الآن ولكن أنبئني، هل تنوي خطيبته كاترينا إيفانوفنا التي حرص على إخفائها عني، أن تتزوج منه أم لا؟ لقد ذهبت بالأمس إليها، أليس كذلك؟.

ـ «ما من شيء يستطيع أن يغريها بالتخلي عنه».

ـ «ها أنت ترى ما أعظم تدله الشابات الجميلات بنذل سافل. إنهن

مخلوقات مسكينات، أولئك الشابات الناصعات البياض، ويختلفن اختلافاً تاماً عن... أواه، لو كان لي شبابه ووجهي أيام الشباب (فقد كنت أكثر منه وسامة وأنا في الثامنة والعشرين) لكنت الآن أيضاً صاحب غزوات. ألا إنه منحط دنيء! ولكنه لن يظفر بغروشينكا بحال من الأحوال! لن يظفر بها! سأسحقه سحقاً!».

قال ذلك والغضب قد عاوده.

ثم صاح فجأة بلهجة فظة: «إذهب الآن، فلا موجب لبقائك هنا اليوم».

فنهض أليوشا وتقدم من أبيه مودعاً، وقبله على كتفه.

فقال الرجل العجوز وهو يبدي شيئاً من الدهشة: لم هذه القبلة؟ إننا سنتقابل مرة أخرى، أو لعلك تظن أننا لن نتقابل؟.

ـ «كلا، لم أقصد شيئاً من ذلك. لقد قبلتك عفواً، وبغير نية».

فقال الرجل العجوز وهو ينظر إلى أليوشا: وأنا كذلك لم أقصد شيئاً. لقد نطقت بالسؤال غفلة. ثم صاح منادياً: «مهلاً، مهلاً، عد إليّ بسرعة، وسأعد لك حساءً لذيذاً من السمك لا كحساء اليوم. لا تنس أن تعود. تعال غداً، هل تسمعني، غداً».

وما كاد يغلق الباب وراء أليوشا، حتى اتجه العجوز نحو الخزانة وسكب لنفسه نصف قدح آخر، وتمتم وهو يتنحنح: «لن أشرب أكثر من هذا» وأقفل الخزانة مرة ثانية ودس المفتاح في جيبه، ثم اتجه إلى مخدعه، واستلقى على فراشه. وقد نال منه الضعف والارهاق، فسرعان ما نام.



لقاء مع التلاميذ

كان أليوشا يحدث نفسه بعد أن غادر منزل والده متجهاً إلى منزل السيدة خولاكوف: «حمداً لله أنه لم يسألني عن غروشنكا، فلو فعل لاضطررت أن أقص عليه قصة اجتماعي بها البارحة».

وشعر أليوشا والألم يحز في نفسه أن كلا الخصمين جددا قواهما منذ البارحة وعاودت القسوة قلبيهما. وقال يحدث نفسه: «إن والدي غاضب والحقد يأكل قلبه، وقد قرر شيئاً ولن يحيد عنه. وديمتري؟ لا شك أنه اليوم أكثر كرهاً وتصلباً وأنه هو أيضاً غاضب حاقد ولا بد أنه يبيت أمراً ما. يجب أن أبحث عنه وأراه اليوم مهما كلف الأمر».

ولكن حادثة وقعت على الطريق وقطعت على أليوشا حبل تفكيره. ومع أن هذه الحادثة كانت في ظاهرها قليلة الأهمية فقد أحدثت فيه أثراً عظيماً. إنه ما كاد يجتاز الساحة وينعطف إلى شارع ميخايلوفسكي الذي تفصله عن الشارع المرتفع قناة صغيرة (لأن الأقنية تتخلل مدينتنا في كل الاتجاهات) شاهد جماعة من التلاميذ تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثانية عشرة يقفون على الجسر. وكانوا عائدين من المدرسة إلى منازلهم، يحملون على أكتافهم حافظات كتبهم، ويحمل بعضهم حافظات جلدية على جنوبهم، وكان منهم من يرتدي المعاطف القصيرة، والمعاطف الطويلة. وكان بينهم عدد ينتعل الأحذية الطويلة التي على ساقها أخاديد والتي ينتعلها الصغار الذين أفسد ذوقهم آباؤهم الأثرياء. وكانت الجماعة بأسرها تتحدث باهتمام حول أمر ما، وتلتمس رأياً على ما يبدو. وكان أليوشا منذ عهده بموسكو لا يتمالك نفسه قط من الاهتمام بالأطفال، ومع أنه كان كلفاً بالأطفال الذين في سن الثالثة أو نحوها، فإنه كان يحب أيضاً الأولاد الذين في سن العاشرة أو الحادية عشرة.

ولذلك وعلى الرغم من همومه الضاغطة على نفسه، فإنه رغب في الاتجاه نحوهم والتحدث إليهم. وقد وقف يرمق وجوههم المتوردة التي تبدو عليها أمارات التهيج، ولاحظ لتوه أن جميع الأولاد كانوا يحملون حجارة في أيديهم. ورأى خلف القناة، على بعد ثلاثين خطوة من بقية التلاميذ، تلميذاً آخر واقفاً قرب سياج، تتدلى على جانبه حافظة كتبه. كان في العاشرة من عمره شاحباً نحيلاً ذا عينين سوداوين متألقتين. وكان يرقب الستة الآخرين بنظرات الخصم لخصمه. وكان جلياً أنهم أترابه الذين غادر المدرسة وإياهم.

واتجه أليوشا نحوهم وقال مخاطباً أحدهم، وهو صبي وسيم الطلعة متورد الوجنتين أجعد الشعر، يلبس معطفاً أسود قصيراً:

«عندما كنت أحمل حافظة كتب مثلك، كنت أحملها على جانبي الأيسر لكي تظل يدي اليمنى طليقة، وها أنت تضع حافظتك إلى جانبك الأيمن مما يعيق حركتك حين تريد أن تخرج شيئاً منها».

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة العملية بطريقة عفوية. ولكن تلك هي الطريقة المثلى لكي يندمج شخص بالغ، مع طفل من الأطفال ويدخل إلى نفسه الطمأنينة فوراً. فما بالك بجماعة من الأطفال. إذ يجب على المرء أن يبدأ حديثه مع الأطفال بلهجة جدية عملية تجعله على قدم المساواة تماماً معهم. وكان أليوشا يدرك ذلك بالفطرة.

وأسرع صبي آخر في الحادية عشرة، جميل الوجه جيد الصحة، يرد على أليوشا قائلاً: «ولكنه أعسر». ووقف الصبية الآخرون يحدقون في أليوشا.

وقال ثالث: «بل إنه يقذف الحجارة أيضاً بيده اليسرى».

وفي تلك اللحظة قذف الصبي الواقف على الجانب الآخر من القناة حجراً على الجماعة بقوة ودقة، ولكنه لم يصب الصبي الأعسر إنما مسّه مساً خفيفاً وسقط على الأرض.

وصاح الصبيان بصوت واحد: «هلم يا سموروف، رد عليه، أرنا براعتك في القذف». غير أن سموروف، وهو الصبي الأعسر، لم يكن بحاجة إلى من يشجعه، فقد بادر فوراً إلى قذف حجر أخطأ الصبي وأصاب الأرض. وكان جيب الصبي الواقف على الجانب الآخر من القناة منتفخاً بما حشره فيه

من الحجارة. وقد تناول منها حجراً آخر وقذفه على الجماعة. وفي هذه المرة أصاب الحجر كتف أليوشا فأوجعه وجعاً شديداً.

فصاح الصبية متضاحكين: «لقد صوبه إليك، لقد استهدفك أنت بالذات. إنك من أسرة كرامازوف، إنك كرامازوف! هلموا سددوا إليه دفعة واحدة!».

وانهالت على الصبي ستة أحجار أصابه واحد منها على رأسه، فسقط على الأرض، ولكنه انتصب لتوه وأخذ يرد عليهم بعنف. واستمر الجانبان يتراشقان الحجارة بدون توقف، وكانت جيوب كثيرين من أفراد الجماعة ملأى بالحجارة أيضاً.

وصاح أليوشا: ماذا تفعلون! ألا تشعرون بالخجل؟ ستة لواحد! سوف تقتلونه.

وعدا أليوشا إلى الأمام معترضاً وابل الحجارة لكي يحمي الصبي، فكف ثلاثة أو أربعة من الصبية عن قذف الحجارة لمدة دقيقة واحدة.

وصاح صبي يلبس قميصاً أحمر بصوت صبياني خانق: لقد كان هو البادىء! إنه وحش، ومنذ أيام طعن كراسوتكين بمدية صغيرة في غرفة الصف، فأدماه. إن كراسوتكين لم يشكه، ولكنه يحب أن يجلد».

ـ «ولكن لماذا؟ أعتقد أنكم تشاكسونه».

وهنا صاح الأولاد: «احذر، لقد رماك بحجر آخر. إنه يعرفك. إنك أنت هدفه الآن، لا نحن، هلموا، جميعاً، عليه ثانية، لا تخطئه يا سموروف». وانهالت الحجارة من جديد بعنف. وقد أصيب الصبي الواقف على الجانب الثاني من القناة في صدره، فتأوه، وأخذ يبكي، ثم ركض هارباً عبر قمة التل متجهاً نحو شارع ميخايلوفسكي. فهتف الأولاد بصوت واحد: «ها، لقد جبن ولاذ بأذيال الفرار، يا لحزمة القش».

وقال الصبي الذي يرتدي المعطف القصير، وعيناه تتألقان: «إنك لا تعرف يا كرامازوف أي وحش هذا، إن القتل قليل عليه». وكان هذا الصبي يبدو أكبر رفاقه سناً.

فقال أليوشا متسائلاً: «ما خطبه؟ أهو نمام أم ماذا؟».

وتبادل الصبية النظرات كأنهم يسخرون من السائل.

ثم تابع الصبي ذو المعطف القصير كلامه فقال: «هل تنوي أن تسلك تلك الطريق، إلى شارع ميخايلوفسكي؟ أدركه... ها أنت ترى أنه توقف مرة ثانية، إنه يترقبك وينتظر إليك».

وردد بقية الصبية: «إنه ينظر إليك».

ـ «إسأله، هل يحب حزمة القش المبعثرة. هل تسمع اسأله وسترى.

وانفجر الأولاد ضاحكين، بينما وقف أليوشا يبادلهم النظر. وصاح سمورروف محذراً: «إياك والاقتراب منه لأنه سيؤذيك».

فقال أليوشا: «لن أسأله عن حزمة القش، فأنا أعتقد أنكم تقصدون إثارته بهذا السؤال. ولكني سأعرف منه سبب كرهه الشديد لكم».

وصاح الصبية ضاحكين: «إذن فأعرف منه، أعرف».

واجتاز أليوشا الجسر وأخذ يصعد التل بمحاذاة السياج واتجه رأساً نحو المكان الذي يقف فيه الصبي.

فصاح الصبية يحذرونه: «عليك بالحذر، فإنه لن يخافك. إنه سيطعنك خفية، كما فعل بكراسوتكين».

وكان الصبي واقفاً ينتظر وصوله ولا يتزحزح من مكانه. ولما اقترب منه أليوشا، رأى أمامه صبياً يناهز التاسعة، قصير القامة ضعيف البنية نحيلاً ذا وجه يميل إلى الطول، شاحب، وعينين كبيرتين سوداوين كانت ترمقانه بنظرات الشر والعداوة. وكان الصبي يرتدي معطفاً قديماً مهلهلاً أصغر من قياسه. وكانت ذراعاه العاريتان بارزتين من تحت كمي المعطف. وكانت على الركبة اليمنى من سرواله رقعة كبيرة، أما حذاؤه فقد كان في مكان الابهام منه ثقب كبير طلاه الصبي بالحبر بدقة لإخفائه. وكان جيبا معطفه ينوءان بحملهما من الحجارة. وقد وقف اليوشا على خطوتين منه وأخذ يرمقه بنظرات ملؤها التساؤل. أما الصبي فقد أدرك على الفور من هذه النظرات أن اليوشا لا يضمر له سؤاً، فخفت حدة موقفه، حتى إنه بادر أليوشا الكلام، فقال وعيناه تتألقان: «إنني وحدي وهم ستة، وسأغلبهم جميعاً بمفردي!».

فقال أليوشا: «أظن أن أحد الحجارة سبب لك أذى كبيراً».

فصاح الصبي قائلاً: «ولكني أصبت سمورروف في رأسه!».

فقال أليوشا: يقولون أنك تعرفني، وأنك تعمدت أن تقذفني بحجر». وأخذ الصبي يرمقه بنظرة شريرة.

وتابع اليوشا كلامه قائلاً: «إنني لا أعرفك، فهل تعرفني؟».

فصاح الصبي متضايقاً: دعني وشأني! ولم يتحرك من مكانه، كما لو أنه كان يتوقع حدوث شيء ما، وعاد إلى عينيه وميض الانتقام.

فقال اليوشا: «كما تريد، سأذهب، ولكنني لا أعرفك ولست راغباً في إثارتك. لقد أنبأوني كيف يمكنني إغاظتك، أما أنا فلا أريد ذلك وداعاً».

فصاح الصبي: «يا للراهب الذي يرفل في ثياب الحرير!» ثم اقتفى أثر اليوشا وهو على ما هو عليه من روح العداء والانتقام، ثم اتخذ موقف الدفاع لاعتقاده بأن اليوشا في هذه المرة سيهجم عليه. ولكن اليوشا استدار ونظر إليه ثم تابع سيره. ولكنه ما كاد يبتعد ثلاث خطوات حتى رماه الصبي بأكبر حجر في جيبه فأصابه في ظهره، وآلمه ألماً شديداً.

فقال اليوشا ملتفتاً من جديد: «إذاً فأنت تهاجم الناس من الخلف! وهم صادقون في قولهم أنك تهاجم خفية». وفي هذه المرة تناول الصبي حجراً وقذفه بوحشية على وجه اليوشا، ولكن اليوشا استطاع في اللحظة الأخيرة أن يتحاشى الحجر بذراعه فأصابه في مرفقه. ثم صاح بالصبي قائلاً: «ألا تستحي؟ بماذا أسأت إليك؟».

ظل الصبي واقفاً وقفة التحدي والعداء، لا يخامره شك في أن اليوشا سينقض عليه الآن. فلما خاب ظنه، استحال في سورة غضبه إلى شبه وحش ضار، فانقض على اليوشا، وقبل أن يتمكن اليوشا من الابتعاد، استطاع الصبي الحاقد الامساك بيده اليسرى بكلتا يديه، وعض اصبعه الوسطى، وغرز أسنانه فيها لمدة ثوان قليلة. وصاح اليوشا لشدة الألم، وحاول سحب اصبعه بكل قواه. وأخيراً أخلى الصبي سبيله متراجعاً إلى مكانه السابق. كانت العضة قرب الظفر وقد بلغت لقوتها العظم. أخرج اليوشا منديله وأحكم ربطه حول جرحه، واستغرق ربطها دقيقة كاملة، كان الصبي يقف أثناءها مترقباً. وأخيراً رفع اليوشا عينيه الوادعتين ونظر إليه قائلاً:

«لا بأس، ها أنت ترى عمق الجرح الذي سببته لي بعضتك. هذا يكفي، أليس كذلك؟ انبئني الآن بماذا أسأت إليك؟».

ووقف الصبي يحدق فيه مشدوهاً.

وتابع أليوشا كلامه بنفس اللهجة الهادئة قائلاً: «أنا لا أعرفك، ومع أنني أراك لأول مرة، فلا بد أنني أسأت إليك، وإلاّ لما أقدمت على إيذائي بدون سبب. فبماذا أسأت إليك، ما هي إساءتي، أنبئني؟».

ولكن الصبي بدلاً من أن يجيب، طفق يبكي بصوت مرتفع وانطلق هارباً. وسار اليوشا في أثره على مهل باتجاه شارع ميخايلوفسكي، وظل مدة طويلة من الزمن يرى الصبي عن بعد وهو يتابع عدوه، بدون أن يلتفت يمنة أو يسرة، ولا ريب في أنه كان لا يزال يبكي. وقر رأي اليوشا على أن يبحث عنه حالما يجد متسعاً من الوقت، وأن يهتك أسرار هذا اللغز. أما الآن فالوقت لا يتسع لهذا.





في منزل آل خولاكوف

لقد وصل اليوشا إلى منزل السيدة خولاكوف، وهو منزل حجري أنيق مؤلف من طابقين، ومن أفخم المنازل في بلدتنا. ومع أن السيدة خولاكوف كانت تقضي معظم أوقاتها في مقاطعة أخرى تملك فيها عقاراً، أو في مدينة موسكو حيث كانت تملك منزلاً، فقد احتفظت بهذا المنزل في بلدتنا أيضاً، الذي ورثته عن أجدادها. وكان عقارها في منطقتنا أكبر عقاراتها الثلاثة، ولكنها قلما كانت تقيم في منطقتنا قبل الآن.

خفت السيدة خولاكوف لاستقبال أليوشا في ردهة المنزل، وسألته بسرعة وعصبية:

هل تلقيت رسالتي بشأن الأعجوبة الجديدة؟

ورد عليها أليوشا بالايجاب. فعادت إلى السؤال:

«هل أطلعت الجميع عليها؟ لقد أعاد الناسك الابن إلى أمه!».

فقال اليوشا: «إنه يحتضر الآن».

- «لقد سمعت بذلك، لقد علمت، أواه، ما أعظم شوقي إلى التحدث إليك، أو إلى أي شخص آخر عن كل هذا، لا، بل إليك، إليك أنت! ما أشد أسفي لأنني لا أستطيع أن أراه! إن البلدة بأسرها في حالة انفعال، إنهم جميعاً ينتظرون. أما الآن، فهل تعلم أن كاترينا إيفانوفنا موجودة هنا الآن؟».

فهتف اليوشا قائلاً: «إذن فهذا من حسن حظي، وسأراها هنا لأنها ألحت علي بالأمس أن أقابها اليوم».

- إنني أعلم، إنني أعلم كل ذلك، لقد انبئت بتفاصيل ما حدث أمس، وتصرف تلك المخلوقة الفظيع. إنها لمأساة، ولست أدري ما كنت فاعلة لو

أنني كنت في موقفها، وأخوك ديمتري فيودوروفيتش، ماذا تقول فيه؟ يا إلهي! لقد غاب عن ذهني، يا الكسي فيودوروفيتش، تصور: إن أخاك معها هنا، ولست أعني ذلك الأخ الرهيب الذي كان منه كل تلك الدناءة أمس، بل الأخ الآخر، إيفان فيودوروفيتش. إنه يجلس معها ويحدثها. إنهما يتحدثان في أمور مهمة. ليتك تستطيع أن تتصور ما يجري بينهما. إنه رهيب، بل معذب. إنها أشبه بقصة مخيفة لا يصدقها العقل. إنهما يدمران حياتهما ولا يدريان السبب. إنهما يعترفان بذلك ويلتذان به. كنت أترقب وصولك بفارغ الصبر! إنني بحاجة إلى مقابلتك! يصعب عليّ كثيراً أن أكون عاجزة تماماً أمام هذه المأساة. سأفضي إليك حالاً بكافة التفاصيل، ولكن يجب أن أتحدث الآن عن شيء آخر، عن الشيء الأهم. لقد كدت أنسى ما هو الشيء الأهم. انبئني؛ لماذا أصيبت ليزا بنوبات هستيرية؟ إنها ما كادت تعلم بقدومك حتى ظهرت عليها أمارات الهستيريا!».

وتناهى إليهما صوت ليزا العذب من خلال شق باب الغرفة المقابلة يقول: «أماه، أنت المصابة بالهستيريا الآن، لا أنا». وكانت رنة صوتها كمن تجتاحه رغبة بالضحك ولكنه يغالب نفسه كي لا يضحك. وقد لاحظ أليوشا لتوه شق الباب ولم يخامره شك في أن ليزا كانت خلفه تسترق النظر إليهما ولو أنه لم يستطع رؤيتها.

- لا عجب في ذلك يا ليزا، لا عجب... لأن نزواتك كفيلة أن تصيبني بالهستيريا أيضاً. إنها عليلة يا الكسي فيودوروفيتش، لقد قاست كثيراً من المرض طيلة الليل، ولازمتها الحمى ولم تنقطع عن البكاء. كدت أفقد القدرة على الانتظار حتى الصباح ليأتي هرتزنشتوبي. فقد اعترف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وعلينا أن نصبر، إن هرتزنشتوبي لا يفتأ يأتي ويقول لنا هذا القول، وما كدت أنت تقترب من المنزل حتى صرخت وانتابتها الهستريا، وأصرت على إعادتها إلى غرفتها القديمة هذه.

- ولم أكن عالمة بقدومه يا أماه، وليس بسببه طلبت أن أنقل إلى هذه الغرفة».

- هذا غير صحيح يا ليزا، إن جوليا أسرعت لكي تنبئك بقدوم الكسي

فيودوروفيتش وهي كانت مكلفة منك بترقبه.

- «ليس في قولك ما يدل على الذكاء يا أمي العزيزة، وإذا شئت أن تصلحي الخطأ وأن تقولي قولاً صائباً، فيجدر بك يا أمي العزيزة أن تنبئي ضيفنا الكريم الكسي فيودوروفيتش أنه أظهر غباوته إذ تجرأ على زيارتنا بعد حادث الأمس الذي جعل الجميع يضحكون منه».

- ليزا، لقد بلغت حدود الشطط في الكلام. وإنني أنذرك بأن معاملتي معك ستكون قاسية. ومن ذا الذي يضحك منه؟ لقد سررت سروراً عظيماً بحضوره، لأنني في حاجة إليه، ولا غنى لي عنه. أواه يا الكسي فيودوروفيتش، ما أتعسني وأشقاني.

- ولكن ما خطبك يا أماه، يا عزيزتي؟.

- نزواتك يا ليزا، كثرة تقلبك ومرضك، واشتداد الحمى عليك ليلة أمس، وهرتزنشتوبي الرهيب الذي لا خلاص منه، لا خلاص منه، لا خلاص منه، وهذا أسوأ ما في الأمر! بل كل شيء، في الواقع كل شيء... وحتى تلك الأعجوبة، أيضاً! يا إلهي، كيف أهاجتني وهدتني، تلك الأعجوبة يا عزيزي الكسي فيودوروفيتش! وهذه المأساة التي تقع فصولها في غرفة الجلوس، وهي مما يستحيل عليّ احتماله، إنني أنذرك بأني لا أستطيع احتمالها. لعلها رواية هزلية وليست مأساة. أنبئني، هل سيعيش الأب زوسيما حتى غد، هل سيعيش؟ يا إلهي! ماذا دهاني؟ إنني في كل دقيقة أغمض جفني وأرى أن كل شيء باطل وسخيف.

فقاطعها أليوشا فجأة: «سأكون شاكراً جداً لك، لو أعطيتني خرقة نظيفة لأضمد بها أصبعي. لقد جرحت وهي تؤلمني ألماً شديداً».

ونزع أليوشا المنديل عن إصبعه الجريحة، وكان المنديل مخضباً بالدم، فأغمضت السيدة خولاكوف عينيها وصاحت بصوت عال:

«يا إلهي، ما هذا الجرح، ما أفظعه».

ولكن ما كادت ليزا ترى اصبع أليوشا من الشق، حتى فتحت الباب بدفعة قوية، وهتفت بلهجة آمرة: «هلم، اقترب مني، لا مجال للسخافات الآن. يا إلهي، لماذا وقفت هناك ساكتاً طيلة هذا الوقت؟ إن النزيف كاد

يقضي عليه، يا أماه! كيف حدث لك ذلك؟ الماء، اسعفونا بالماء! يجب أن تغسله أولاً، أو تضعه في الماء البارد لوقف الألم، يجب أن تبقيه في الماء.. أسرعي يا أماه، أحضري كمية من الماء في وعاء». نطقت ليزا بكلماتها الأخيرة بعصبية ظاهرة. لقد أحدث منظر جرح أليوشا في نفسها رعباً شديداً.

وصاحت السيدة خولاكوف متسائلة: «ألا نستدعي هرتزنشتوبي؟».

ـ أماه، سوف تقتلينني، إن صاحبك هرتزنشتوبي سيأتي ويقول إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. إليّ بالماء، إليّ بالماء!. أتوسل إليك يا أماه أن تذهبي بنفسك وتعجلي جوليا، إنها فتاة دأبها البطء ولا تستطيع التلبية! أسرعي يا أماه وإلا قتلتني.

فصاح أليوشا وقد أرعبه فزعها: «ما هذا، إن الجرح ليس بليغاً».

ودخلت جوليا مسرعة بالماء، فوضع أليوشا إصبعه في الوعاء.

ـ ضمادة يا أماه، أتوسل إليك أن تحضري ضمادة. وأحضري معها السائل المداوي للجروح، ما اسمه، لدينا كمية منه. إنك تعرفين مكان القارورة يا أماه، إنها في الشقة اليمنى من الخزانة في غرفتك. هناك تجدين قارورة كبيرة منه وضمادات أيضاً.

ـ سأحضر كل شيء في غضون دقيقة واحدة، يا ليزا، ولكن أرجوك أن تكفي عن الصراخ ولا تحدثي هذه الجلبة، ها أنت ترين كيف يتحمل الكسي فيودوروفيتش الألم بشجاعة. ولكن، كيف جرحت هذا الجرح المخيف، يا الكسي فيودوروفيتش؟.

وأسرعت السيدة خولاكوف بالذهاب، وهذا ما كانت تنتظره ليزا. وقد سألت أليوشا متعجلة: «أجبني أولاً على هذا السؤال، أين جرحت هذا الجرح البليغ؟ وسأحدثك بعد ذلك في أمر آخر مختلف. الآن أجبني».

وقد أدرك أليوشا بفطرته أن فترة غياب أمها ثمينة بالنسبة لها، فراح يقص عليها، بإيجاز سريع، تلك القصة المحيرة عن لقائه مع التلاميذ. وكانت ليزا تصغي إليه وهي تضم يديها، ثم صاحت حانقة غاضبة وكأنها تملك حق تأنيبه: «كيف تستطيع، وأنت ترتدي هذا الثوب، أن تعاشر أولاد المدارس! أولست إلاّ صبياً ما دمت تفعل ذلك، أجل، صبي لا غير! ولكن عليك أن

تستقصي لي أمر ذلك الصبي المخيف وتنبئني بكل ما يتعلق به، لأن في الأمر لغزاً. والآن سأحدثك في الأمر الثاني، ولكن قل لي أولاً: هل يمنعك الألم من التحدث عن أمور لا تهمك بشيء، على أن يكون حديثك جدياً؟.

- إنه لا يمنعني بطبيعة الحال، فإنني لا أشعر الآن بألم شديد.

- ذلك لأن إصبعك في الماء. يجب تبديل الماء لأنه سيسخن في غضون لحظات. جوليا، أحضري قطعة من الثلج ووعاء فيه ماء بارد. والآن ها هي قد ذهبت فلنتحدث بجدية؛ هلا أعدت لي الرسالة التي أرسلتها إليك أمس، يا عزيزي الكسي فيودوروفيتش، أسرع لأن أمي ستعود بين لحظة وأخرى ولست أريد...».

- إن الرسالة ليست معي الآن.

- بل هي معك، وأنت لم تصدقني القول. كنت أتوقع ردك هذا. إن الرسالة في جيبك تلك. إنني ما فتئت طيلة الليل أشعر بالأسف لتلك المزحة. أعد إلي الرسالة حالاً، أعدها إلي.

- لقد تركتها في غرفتي.

- قد تكون بعد تلك المزحة تعتبرني طفلة أو بنت صغيرة. أستميحك عذراً على تلك السخافة، ولن ينبغي عليك أن تعيد إلي الرسالة، وإذا لم تكن حقاً معك الآن، فيجب أن تحضرها اليوم، يجب أن تحضرها اليوم.

- قد لا أستطيع إحضارها اليوم، لأنني عائد إلى الدير، ولن أراك قبل انقضاء يومين وربما ثلاثة أو أربعة أيام، لأن الأب زوسيما...

- أربعة أيام! إنك تهذي! أصدقني القول: هل ضحكت كثيراً مني؟.

- لم أضحك البتة.

- ولماذا؟.

- لأنني صدقت جميع أقوالك.

- إنك تهينني.

- كلا. إنني حالما قرأت الرسالة بدا لي أن كل ما جاء فيها سيتحقق، إذ حين يموت الأب زوسيما سأضطر إلى مغادرة الدير. وسأعود عندئذ إلى

المدرسة لأتم دراستي، ثم ننتظر بلوغك السن القانونية فنتزوج، وسأحبك. ومع أن وقتي لا يتسع للتفكير في الأمر، فأنا أعتقد أنك خير زوجة أستطيع العثور عليها، ثم إن الأب زوسيما يقول أنه لا بد لي من الزواج.

فقالت ليزا ضاحكة وقد اصطبغ وجهها بلون قرمزي: «ولكنني مقعدة، استعمل العجلة لأنتقل من مكان إلى آخر».

ـ وسأتولى بنفسي جر عجلتك، ولكني واثق من شفائك حتى ذلك الحين.

فقالت ليزا بعصبية: «لا شك أنك جننت، إنما كانت مزحة، فرحت تصوغ كل هذا الهراء من مزحة! ها هي أمي قد عادت، ولعلها جاءت في الوقت المناسب تماماً. ما أبطأك يا أماه! وها هي جوليا قد عادت بالثلج!».

ـ أواه، لا تصرخي يا ليزا، إن ما أطلبه منك فقط هو أن تكفي عن الصراخ. إن هذا الصراخ يذهب عقلي... وكيف يمكن أن لا أتأخر وأنت قد وضعت الضمادة في غير مكانها. لقد أمضيت الوقت في البحث عنها، وأعتقد أنك فعلت ذلك عامدة.

ـ ولكني ما كنت لأتنبأ بأنه سيأتي إلينا وإصبعه مجروحة، ولو كان ذلك لفعلت ذلك قصداً. أمي العزيزة، ها قد بدأت تنطقين بأقوال تنم عن الذكاء.

ـ ذكائي غير مهم،لا ولكني لا أرى بدأ من القول إنك تظهرين شعوراً رقيقاً نحو آلام الكسي فيودوروفيتش! أواه يا عزيزي الكسي فيودوروفيتش! إن ما يعذبني ليس شيئاً واحداً بالذات، إنه ليس هرتزنشتوبي، بل جميع الأشياء معاً، وهذا ما لم أعد أستطيع احتماله.

فقالت ليزا ضاحكة مرحة: «كفاك يا أماه، كفاك حديثاً عن هرتزنشتوبي، أعطني الآن الضمادة والمرهم. إن هذا مرهم غولار يا الكسي فيودوروفيتش، لقد تذكرت اسمه الآن، ولكنه مرهم ممتاز. هل تصدقين يا أماه أنه تشاجر مع الصبيان في الشارع، وأن أحد الصبية عض إصبعه، أليس صبياً هو أيضاً؟ أجدير هو بالزواج بعد هذا الحادث؟ تصوري! إنه يريد أن يتزوج، تخيليه وقد تزوج، ألا تبدو الصورة مضحكة، بل مزعجة؟»

لم تتوقف ليزا عن ضحكتها الهستيرية الرقيقة، وكانت تنظر خفية إلى أليوشا.

ـ ولكن لِمَ تتحدثين عن زواجه يا ليزا؟ إن هذا أمر لا يعنيك. أما الصبي الذي عضه فربما كان مصاباً بالكلب.

ـ ماذا تقولين يا أماه! كأن هنالك صبية يصابون بالكلب!.

ـ ولم لا يا ليزا، كأني قلت شيئاً سخيفاً! إن ذلك الصبي ربما كان هو قد عضه كلْب كلِب، فانتقل إليه الوباء، وهكذا فإنه يعض كل من يقترب منه. ما أروع ربطها للضمادة يا الكسي فيودوروفيتش، ما كنت أستطيع مجاراتها في هذا. أما زلت تشعر بالألم؟.

ـ قليلاً الآن.

فسألته ليزا: «ألا تشعر بخوف من الماء؟».

ـ كفى يا ليزا، لعلي في الحقيقة تسرعت في الحديث عن الكلب فرحت أنت تسرفين فيه. الكسي فيودوروفيتش، لقد علمت كاترينا إيفانوفنا بوجودك هنا منذ لحظات فقط، وألحت عليّ أن تراك إنها في شوق عظيم لرؤيتك!.

ـ ويحك يا أماه، إذهبي إليها وحدك، أما هو فلا يستطيع أن يذهب الآن، إن أصبعه تؤلمه كثيراً.

فقال أليوشا: «إنني لا أشعر بأي ألم، وباستطاعتي أن أذهب».

ـ ماذا! إذاً فأنت ذاهب؟ أهذا حقاً ما تقول؟.

ـ سأراها وأعود إليك، وعندئذ نستطيع أن نتحدث ما طاب لك الحديث. ولكن يجب أن أرى كاترينا إيفانوفنا حالاً، لأنني أود أن أعود إلى الدير بأسرع ما يمكن.

ـ «أماه، خذيه عني حالاً. وأنت يا الكسي فيودوروفيتش، لا تجشم نفسك مشقة العودة لرؤيتي بعد مقابلتها، بل عد إلى ديرك رأساً، فهناك ستكون أكثر طيبة. أما أنا، فسأنام لأنه لم يغمض لي جفن طيلة الليلة الماضية».

فصاحت السيدة خولاكوف قائلة: «إنك تعبثين يا ليزا، وكم أتمنى أن تنامي!».

وتمتم أليوشا قائلاً: «لا أدري ماذا فعلت... سأبقى هنا ثلاث دقائق أخرى، أو خمساً إذا شئت».

- وخمسة! أستحلفك يا أماه أن تأخذيه عني، إنه مخلوق غريب غليظ القلب.

- إنك معتوهة يا ليزا، هلم نمضي يا الكسي فيودوروفيتش، إنها اليوم كثيرة التقلب وأخشى إثارتها. ما أكثر متاعب المرء مع الفتيات العصبيات! لعلها في الحقيقة تستطيع أن تنام بعد أن رأتك. لقد أدخلت إلى جفنيها النعاس بسرعة، وإن ذلك لمن حسن حظنا.

- ما ألطف كلامك يا أماه. أود أن أقبلك إعجاباً.

- وأنا أيضاً سأقبلك يا ليزا، ثم شرعت السيدة خولاكوف تحدث أليوشا حديثاً ذا أهمية ولكنه غامض، وقد خفضت صوتها وأخذت تسرع في الكلام: «اصغ إلي يا الكسي فيودوروفيتش، إنني لا أريد أن أبدي رأياً ما، لا أريد أن أزيح القناع، وسترى بنفسك ماذا يجري. إنه شيء مخيف. إنها أعظم مهزلة يستطيع العقل أن يتخيلها. فهي تحب أخاك إيفان وتحاول أن تقنع نفسها بأنها تحب أخاك ديمتري. أجل إنه شيء مخيف! سأدخل معك، وإذا لم يطلبا مني الخروج فإنني سأبقى حتى أشهد الخاتمة».

عذاب في غرفة الجلوس

انتهى الحديث في غرفة الجلوس، وكانت كاترينا إيفانوفنا شديدة الاضطراب. ولكن العزيمة والقوة كانتا واضحتين في محياها. وفي اللحظة التي دخل فيها أليوشا والسيدة خولاكوف، كان إيفان فيودوروفيتش يهم بالانصراف، ووجهه قد امتقع، فأخذ أليوشا ينظر إليه قلقاً. فقد كان يرجو من هذا اللقاء أن ينجلي الموقف، وأن يحل لغزاً محيراً أقضّ مضجعه إلى حين. لقد قيل لأليوشا مراراً في غضون الشهر السابق أن أخاه إيفان متيم بكاترينا إيفانوفنا، وأنه، علاوة على ذلك، كان ينوي «أن يخطفها» من ديمتري. وكانت الفكرة إلى عهد قريب غير قابلة للتصديق بالنسبة لأليوشا لكنها كانت تزعجه إزعاجاً عظيماً. فهو يحب كلا أخويه، ويمقت وجود مثل هذا التنافس بينهما، ولكن ديمتري صارحه أمس بأن منافسة إيفان له تسعده وتبهجه لأنها تساعده وتيسر له أموره. وقد تساءل أليوشا: ولكن أي أمر يكون هذا؟ أليتزوج من غروشينكا؟ ولكن أليوشا كان يعتبر هذا الزواج أسوأ الاحتمالات. وفضلاً عن ذلك فقد كان اعتقاد أليوشا حتى مساء أمس بأن كاترينا إيفانوفنا كانت مقيمة على حبها الجارف لديمتري؛ ولكن هذا الاعتقاد تزعزع مساء البارحة. وهو كان يتخيل أيضاً أنها لن تحب رجلاً مثل إيفان، وأنها كانت صادقة في حبها لديمتري، بما فيه من سيئات، وعلى الرغم بما في هذه العاطفة من غرابة.

ولكن فكرة أخرى استحوذت على لبه أثناء حادث الأمس مع غروشينكا. إن كلمة «معذب» التي تفوهت بها السيدة خولاكوف قبل لحظات قد أذهلته، لأنه مع بزوغ فجر ذلك اليوم نفسه، صحا من نومه وأخذ يهتف وهو بين اليقظة والحلم، «عذاب، عذاب» ولعله كان يعني بذلك، حلماً انتهى لتوه. فقد ظلت فصول الحادث الذي وقع في اليوم السابق في منزل كاترينا

إيفانوفنا تلاحقه في نومه طيلة الليل، أما الآن فقد تأثر أليوشا بتأكيد السيدة خولاكوف الصريح أن كاترينا إيفانوفنا كانت تحب إيفان، ولكنها تخدع نفسها من قبيل التظاهر، يدفعها إلى ذلك «عذاب النفس»، أو هي مدفوعة إلى ذلك بواجب العرفان بالجميل الذي صوره لها خيالها. وقال أليوشا بينه وبين نفسه: «أجل، إنها الحقيقة، هي كذلك». ولكن ما هو موقف إيفان في هذه الحالة؟ لقد شعر أليوشا بالفطرة أن شخصية كشخصية كاترينا إيفانوفنا بحاجة أبداً إلى التسلط على غيرها، وأنها لا تستطيع أن تتسلط إلاّ على أمثال ديمتري، لا أمثال إيفان. ذلك أن ديمتري قد يخضع في النهاية لسيطرتها «نشداناً لسعادته»، (وهذا ما كان يتمناه أليوشا)، أما إيفان فلا، إن إيفان لا يستطيع أن يخضع لها، وهو إن خضع فإنه لن يكون سعيداً. ولم يتمالك أليوشا نفسه من الاعتقاد بهذه الخلة في إيفان.

كانت جميع هذه الأفكار والتأملات تقتحم فكر أليوشا وهو يدخل غرفة الجلوس، وقد استحوذت على ذهنه فكرة أخرى، وهي: «فماذا لو كانت لا تحب لا إيفان لا وديمتري؟».

وينبغي أن نلاحظ أن أليوشا في وضعه هذا شعر بالخجل من أفكاره، وأنحى على نفسه باللائمة مراراً خلال الشهر الأخير. وكان يحدث نفسه مؤنباً إياها بعد أن تلح عليه تلك الأفكار والريب: «ما معرفتي أنا بشؤون الحب والنساء، وكيف أستطيع أن أجزم في مثل هذه الأمور؟» ومع ذلك فلم يجد مناصاً في التفكير فيها. وقد أحس بالغريزة، أن تلك المنافسة كانت ذات شأن عظيم في حياة أخويه، وأن أموراً كثيرة موقوفة عليها.

وتذكر أليوشا ما قاله إيفان أمس وهو في سورة غضبه على والده وأخيه ديمتري: «إن أحد التنينين سيلتهم الآخر». فهو يعني إذاً أن أخاه هو أيضاً تنين، ولعله كان ينظره كذلك منذ عهد بعيد. ترى هل أصبحت هذه نظرته إليه منذ تعرف على كاترينا إيفانوفنا؟ لا ريب في أن هذه العبارة أفلتت من شفتي إيفان بالأمس عفو الخاطر، ولكن هذا يجعلها أكثر دلالة وأهمية. وإذا كان هذا شعوره، فأي أمل هناك في أن يعود الصفاء والوئام إلى القلوب؟ ثم أليس يوحي هذا الشعور بوجود أسباب جديدة للحقد والخصام بين أفراد أسرته؟

وأي الاثنين أحق بشفقة أليوشا وعطفه؟ وماذا ينبغي عليه أن يتمنى لكل واحد منهما؟ لقد كان أليوشا يحب كلا أخويه، ولكن ما الذي يستطيع أن يتمناه لكل واحد منهما في خضم هذه المصالح المتضاربة؟ ثم إن هذه الحيرة سوف تعمي قلبه، وهو لا يقوى على احتمال التشكك، لأن حبه كان دوماً إيجابياً والسلبي منه لا مكان له في فؤاده، فإذا أحب إنساناً ما، فإنه يسعى لتوه إلى مساعدته. ولكي يتمكن من إسداء المساعدة يجب أن يتحقق مما يريده. ويجب أن يعرف على وجه التأكيد ما هو الأصلح لكل واحد منهما، حتى إذا اطمأن إلى ذلك فإنه من الطبيعي أن يخف لمساعدتهما معاً. ولكن، للأسف، فإنه لم يجد سوى الشك والحيرة يكتنفانه من جميع الجهات. إن هذا شيء معذب كما قيل قبل لحظات. فما السبيل إلى فهمه والتعبير عنه. يبدو أنه لم يستطع فهم الكلمة الأولى في ذلك الشك المحير.

عندما وقع نظر كاترينا إيفانوفنا على أليوشا بدا البشر على محياها، والتفتت بسرعة إلى إيفان الذي كان قد نهض استعداداً للانصراف، وقالت له: «دقيقة أخرى! لا تخرج الآن! أريد أن أستمع إلى رأي هذا الشخص الذي أثق به ثقة مطلقة». ثم طلبت إلى السيدة خولاكوف أن تبقى في الغرفة، وأشارت إلى أليوشا بالجلوس قربها وجلست السيدة خولاكوف على مقعد مقابل لهما إلى جانب إيفان.

وبدأت كاترينا إيفانوفنا تتكلم بحرارة وتدفق وكان صوتها متهدجاً بدموع الألم الصادق، حتى أن أليوشا أحس بتأثر شديد وعطف عظيم عليها، فقالت: «أنتم جميعاً أصدقائي، أصدقائي الوحيدون في هذه الدنيا، أصدقائي الأعزاء. وأنت، يا الكسي فيودوروفيتش، لقد شهدت أمس ذلك المشهد المريع، ورأيت ما كان مني. إنك لم ترني في تلك اللحظة يا إيفان فيودوروفيتش، أما هو فقد رآني. ولكنني لا أعرف ما هي الفكرة التي كوّنها عني. إنني أعرف شيئاً واحداً، وهو أنه لو تكرر ذلك المشهد في هذا اليوم وفي هذه اللحظة، لكانت مشاعري ذاتها التي كانت أمس، ولكانت تصرفاتي وأقوالي هي ذاتها كما بالأمس. إنك تذكر تصرفاتي يا الكسي فيودوروفيتش وقد أثنيتني عن أحدها..» (وقد صعد الدم إلى وجهها وتألقت عيناها عندما

قالت ذلك). ويجب أن أنبئكم أنني لا أستطيع أن أتجنب كل ذلك. إصغ إلي يا الكسي فيودوروفيتش. أصبحت لا أدري ما إذا كنت لا أزال أحبه. إنني أشعر بالاشفاق عليه، وهذا دليل ضعيف على الحب. وإذا كنت أحبه، إذا كنت لا أزال مقيمة على حبه، فقد لا آسف عليه الآن، بل أمقته».

كان صوتها يرتجف، والدموع تتلألأ على أهدابها، فأحس أليوشا برعشة داخلية، وقال بينه وبين نفسه: «إن هذه الفتاة صادقة مخلصة، ولم يعد في قلبها مكان لحب ديمتري بعد الآن».

وهتفت السيدة خولاكوف قائلة: «هذا صحيح. هذا صحيح».

وتابعت كاترينا إيفانوفنا كلامها فقالت: «رويدكم يا أعزائي. إنني لم أطلعكم بعد على الشيء الرئيسي، على القرار النهائي الذي توصلت إليه أثناء الليل. وقد يكون هذا القرار رهيباً بالنسبة لي، ولكنني لا أعتقد بأن شيئاً سيحملني على التراجع عنه، وسأعمل به فيما تبقى من حياتي. إن مرشدي العزيز المخلص الكريم، وصديقي الأوحد في هذا العالم إيفان فيودوروفيتش، الذي سبر أعماق قلبي، يوافق على قراري ويثني عليه، إنه يعرفه».

فقال إيفان مؤمناً على كلامها بصوت منخفض حازم: «نعم إنني أقره».

وتابعت كاترينا إيفانوفنا تقول: «ولكنني أود أن ينبئني أليوشا أيضاً (معذرة يا الكسي فيودوروفيتش لأنني أدعوك باسمك المجرد)، أود أن ينبئني الكسي فيودوروفيتش أيضاً أمام صديقيَّ الاثنين ما إذا كنت مصيبة. إنني أعتقد بالفطرة أنك يا أليوشا، يا أخي العزيز (فأنت أخ عزيز علي) ـ وقد عادت في نشوتها إلى مخاطبته باسم أليوشا وأمسكت بيدها الحارة يده الباردة ـ «إنني أعتقد بأن قرارك، أو موافقتك ستعيد إلى نفسي الراحة والطمأنينة، رغم كل ما أعانيه من ألوان العذاب، لأنني بعد أن أستمع إلى كلماتك سأرضى بقسمتي وأرضخ لرأيك، إنني أشعر بذلك».

فقال أليوشا وقد صعد الدم إلى وجنتيه: «إنني لا أدري عم تسألينني، وجلّ ما أعرفه هو أنني أحبك وأتمنى لك السعادة في هذه اللحظة أكثر مما أتمناه لنفسي!...». ثم أسرع يضيف: «مع أنني لا دراية لي بمثل هذه الأمور». نطق أليوشا بهذه الكلمات وهو لا يدري تماماً ما الذي يدفعه إلى ذلك.

ـ إن الشيء الرئيسي في مثل هذه الأمور، يا الكسي فيودوروفيتش، هو الشرف والواجب وربما هو شيء آخر، لا أدري ما هو، يسمو حتى على الواجب. إنني أحس بهذا الشعور الجارف في قلبي، ولا أستطيع له دفعاً ولا مقاومة. ولكن يمكن تلخيص الأمر برمته في كلمتين. لقد قررت أن لا أتخلى عنه، حتى ولو تزوج من تلك المخلوقة (وهنا بدأت تتكلم بجد ووقار) التي لن أصفح عنها، فإنني لن أتركه بعد الآن مطلقاً. وأضافت كاترينا إيفانوفنا وهي تنتحب وقد امتقع وجهها وأخذتها موجة من الهستيريا: ولا أعني بذلك أنني سأتعقبه فأعترض سبيله وأقلقه. كلا، فإنني سأنتقل إلى مدينة أخرى، نائية، نائية جداً إذا لزم الأمر، ولكنني سأكلأه بعين رعايتي أبداً، سأرعاه ما دمت في قيد الحياة دون ملل أو كلل. وعندما يشقى مع تلك المرأة، وهذا ما سيحدث حتماً في وقت قريب، فليأت إلي فيجد فيّ صديقة، بل أختاً... أختاً، لا أكثر... وسأبقى أختاً له إلى الأبد؛ ولكنه سيعرف على أقل تقدير أنني أخته الحقيقية، التي تحبه وتضحي بحياتها في سبيله، إنني سأبلغ غايتي، ثم صاحت بانفعال لا يخفى: سأحسن التصرف لأجبره على أن يعرفني معرفة صحيحة، وأن يثق بي ثقة تامة، وبلا خجل. سأكون آلهة يستطيع أن يخصها بعبادته. وهذا، أقل ما يدين به نحوي ككفارة عن خيانته وعن العذاب الذي سبّبه لي. وسيعرف إذ ذاك أنني، طيلة حياتي، وفية له وللوعد الذي قطعته له، على الرغم من خيانته لي. وسأكون، سأكون وسيلة لسعادته، أو ـ كيف هو التعبير الصحيح ـ سأكون أداة، أو آلة لتحقيق سعادته، وسأبقى هكذا طيلة حياتي، أجل طيلة حياتي، وبوسعه أن يرى بأم عينه صدق ما أقول طيلة حياته! ذلكم هو قراري. وإيفان فيودوروفيتش يقرني عليه بكليته.

أصبحت مبهورة النفس. ولعلها كانت تريد أن توضح فكرتها بأسلوب أحفظ لكرامتها، وأكثر رصانة وبساطة، ولكن كلماتها جاءت متدفقة ركيكة. كانت مفعومة بعنفوان الشباب، وبتأثرها من الإهانة التي لحقت بها أمس، وحاجتها إلى إرضاء كبريائها. وقد شعرت هي نفسها بذلك، فغشيت وجهها فجأة سحابة قاتمة، وبدت في عينيها نظرة مفزعة. وسرعان ما لاحظ أليوشا ذلك، فأخذه بها عطف شديد. وقد زاد أخوه إيفان الموقف حرجاً عندما قال:

«لقد أبديت رأيي الخاص. ولو كان هذا الموقف قد صدر عن أي إنسان آخر، لكان مفتعلاً كنتيجة للجهد المتعمد، أما وقد صدر عنك، فهو ليس كذلك. إن أي امرأة أخرى لو تصرفت تصرفك لكانت مخطئة، أما أنت فلا. لست أدري كيف أعبّر، ولكنني أرى أنك صادقة كل الصدق، ولذلك فأنت مصيبة».

فقالت السيدة خولاكوف: «إنها صادقة. ولكن في اللحظة الراهنة. وما قيمة قرار تتخذه في هذه اللحظة بتأثير من إهانة الأمس». وكان واضحاً أن السيدة خولاكوف ما كانت تنوي التدخل، ولكنها لم تتمالك نفسها فأطلقت هذه الملاحظة السديدة.

وهتف إيفان بعنف مكبوح، وقد بدا عليه الضيق من مقاطعة كلامه: «هذا صحيح، هذا صحيح، لو أن الأمر كان متعلقاً بامرأة أخرى، لكان مردّ هذا الموقف التأثر بما حدث أمس، ولن يدوم أكثر من لحظة. أما وإن الأمر يتعلق بطبيعة كاترينا إيفانوفنا، فإن هذا الموقف سيبقى طيلة حياتها. إن ما تعتبره أي امرأة عادية وعداً فحسب، هو بالنسبة لها واجب أبدي والتزام نهائي ثقيل، وأليم، لكنه لا مندوحة عن تنفيذه. وهي ستحيا على الشعور بأن هذا الواجب يتم تنفيذه. إنك يا كاترينا إيفانوفنا ستمضين حياتك من الآن فصاعداً في هذا التفكير الممض، بمشاعرك وبطولتك وآلامك؛ ولكن تلك الآلام ستخف مع الوقت وتستحيل إلى رضى عذب عن مضيك في قرار جريء فيه سمو. أجل إنه قرار سام، ولئن حملك على اليأس فهو سيكون نذير انتصارك. وشعورك بذلك سيكون في النهاية مصدر غبطة كاملة فيطيب خاطرك وتنصرفين عن كل ما عداه».

وما من ريب في أن إيفان نطق بهذه الكلمات بدافع من الحقد وكان واضحاً أنه تعمد ذلك. بل لعله كان راغباً في أن يتضح قصده وتدرك سخريته من حديثه.

وهتفت السيدة خولاكوف قائلة: «أواه، يا عزيزي، لم تصب أبداً».

وصاحت كاترينا إيفانوفنا وقد انهمرت الدموع من عينيها: «تكلم أنت يا الكسي فيودوروفيتش، إنني شديدة الرغبة في معرفة رأيك». ونهض أليوشا

عن الاريكة، بينما تابعت كاترينا إيفانوفنا كلامها باكية، فقالت:

لا شيء، لا شيء! إن أعصابي مرهقة لأنه لم يغمض لي جفن طيلة الليل. ولكنني إلى جانب صديقين مثلك ومثل أخيك، أشعر بأنني أحتفظ بكامل قوتي، لأنني أعلم أنكما لن تتخليا عني.

وقال إيفان فجأة: «إنني لسوء الحظ مضطر أن أسافر غداً إلى موسكو وسأتغيب عنك مدة طويلة، ولسوء الحظ لا أستطيع لهذا السفر دفعاً.

فصاحت كاترينا إيفانوفنا وقد تجهم وجهها: «غداً، إلى موسكو!» ثم هتفت وقد تبدل صوتها بصورة مفاجئة: «ولكن، ولكن، يا عزيزي يا لحسن الحظ» واختفت آثار الدموع من وجهها بسحر ساحرٍ، وقد أدهش أليوشا هذا التغير المذهل الذي أصابها، إن الفتاة الذليلة المهانة التي كانت قبل برهة، تبكي بتأثير «العذاب»، هي الآن امرأة رابطة الجأش بل عظيمة السرور، كأن شيئاً محبباً إليها قد حدث للتو.

وسرعان ما استدركت كاترينا إيفانوفنا وهي تصطنع إبتسامة ساحرة: لا شك أن حسن الحظ ليس لأني سأفقدك. فهذا الظن لا يمكن أن يتبادر إلى ذهن صديق مثلك. بل إنني سأكون حزينة جداً لابتعادك عني. واندفعت بعنف نحو إيفان، وأمسكت بكلتا يديه، وضغطتهما بحرارة. ثم تابعت كلامها قائلة: «ولكن من حسن حظي أنك ستتمكن في موسكو من مقابلة خالتي وأغافيا وتوضح لهما الظرف الذي أعيشه الآن، وبوسعك أن تتكلم بمنتهى الصراحة مع أغافيا. ولكن ترفق بخالتي العزيزة. إنك ستقوم بهذه المهمة بلباقة. إنك لا تستطيع أن تتصور مدى ما قاسيت أمس وهذا الصباح، فقد كنت حائرة لا أدري كيف اخط تلك الرسالة الفظيعة، لأن إبلاغ مثل هذه الأشياء كتابة أمر يصعب على المرء. أما الآن فقد سهلت علي الكتابة، لأنك ستراهما وتشرح لهما كل شيء. أواه ما أعظم سروري! ذلك هو السبب الوحيد في سروري هذا، صدقني. إنه ما من أحد بطبيعة الحال يستطيع أن يحل محلك... سأمضي فوراً لكي أخط الرسالة. وأنهت كلامها فجأة، ونهضت استعداداً لمغادرة الغرفة.

فهتفت السيدة خولاكوف: «وأليوشا؟ أين رأيه الذي كنت تواقة

للاستماع إليه؟». قالت ذلك بلهجة غاضبة لاذعة.

فصاحت كاترينا إيفانوفنا وقد جمدت في مكانها: إنني لم أنس ذلك. ثم أضافت بلهجة تنطوي على التأنيب الشديد: «ولكن ما بالك تظهرين لي كل هذا العداء في مثل هذه اللحظة؟ إنني أكرر ما قلت. لن أستغني عن رأيه. بل أريد أكثر من هذا. أريد أن أعرف قراره! وسأعمل به. أترى مدى اهتمامي بسماع أقوالك يا الكسي فيودوروفيتش... ولكن ما بك؟».

فصاح أليوشا فجأة متألماً: لا أستطيع أن أصدق ذلك. لا أستطيع فهم ذلك.

ـ ماذا؟ ماذا؟

ـ إنه ذاهب إلى موسكو، وأنت تعلنين سرورك لذلك. لقد تعمدت أن تقولي ذلك! ثم استدركت توضحين أنك لست مسرورة لذلك، بل آسفة لفقدان صديق. ولكن ذلك أيضاً من قبيل التمثيل. إنك تمثلين دوراً، كما في المسرح!.

فهتفت كاترينا إيفانوفنا متعجبة، وقد تملكتها الدهشة، واشتد احمرار وجهها وقطبت جبينها: «في المسرح؟ ماذا؟ ماذا تعني بذلك؟».

فأجاب أليوشا مبهور النفس: «بينما تؤكدين له أسفك لفقده كصديق، فإنك تعلنين أمامه أنك تعتبرين سفره من قبيل حسن حظك». وقد ظل أليوشا واقفاً أمام المنضدة.

ـ أي شيء هذا الذي تتحدث عنه؟ إنني لا أفهم!.

ـ وأنا أيضاً لا أفهم... يبدو أنني أنظر بعين العاطفة... وأنا أعلم أنني لست لبقاً في التعبير عن رأيي، ولكنني مع ذلك سأبديه. ومضى أليوشا في كلامه بصوت متهدج متقطع، فقال: لقد بدا لي أنك لا تحبين ديمتري أبداً... وأنك لم تحبيه قط منذ البداية.. وأن ديمتري أيضاً لا يحبك... ولم يحبك. إنما هو يشعر نحوك بالاحترام والتقدير فقط... لست أدري في الحقيقة كيف أتجرأ على هذا القول، ولكن لا بد من شخص ما يقول الحقيقة.. لأنه ليس بين الحاضرين هنا من يريد أن يجهر بها.

فصاحت كاترينا إيفانوفنا وفي صوتها صدى هستيري: «أي حقيقة هذه؟».

وتابع أليوشا كلامه بسرعة تدل على القنوط، وهو يشعر بأنه يكاد يهوي من على سطح أحد المنازل، فقال: «سأنبئك الآن. لنستدع ديمتري؛ إنني سأتولى إحضاره. دعيه يأتي ويضع يدك بيد إيفان. فإنك تعذبين إيفان لا لسبب سوى حبك له، وتعذبينه لأنك تحبين ديمتري بدافع من عذاب النفس وهو حب غير حقيقي، لأنك أقنعت نفسك بذلك».

فقالت كاترينا إيفانوفنا غاضبة: «إنك... إنك... إنك صبي متدين أبله، ولا شيء سوى ذلك». وكان وجهها ممتقعاً وشفتاها ترتجفان لشدة الغضب.

وضحك إيفان فجأة ونهض عن مقعده ممسكاً قبعته بيده. ثم قال وقد ارتسمت على وجهه أمارات لم يرها فيه أليوشا من قبل، أمارات الاخلاص العظيم وشعور الصراحة الجارف: «لقد أخطأت يا أليوشا، إن كاترينا إيفانوفنا ما أحبتني في يوم من الأيام! وهي كانت تعلم طيلة الوقت أنني أحبها، ولو أنني لم أكلمها عن حبي قط. إنها كانت تعرف ذلك، ولكنها لم تحفل بي. ولم أكن صديقها أيضاً، في أي وقت من الأوقات. إن لها من كبريائها ما يغنيها عن صداقتي، وقد أبقتني إلى جانبها كوسيلة للانتقام، إنها كانت تثأر بواسطتي ومني، نعم مني، لجميع الاهانات التي كانت تلقاها من ديمتري باستمرار منذ لقائهما الأول. لأن ذلك اللقاء نفسه بقي في قلبها. تلك هي كاترينا إيفانوفنا! إنها لم تحدثني في شيء سوى حبها له. إنني ذاهب الآن، ولكن صدقيني، يا كاترينا إيفانوفنا، إنك تحبينه حباً حقيقياً. وستزدادين حباً له كلما ازداد هو إهانة لك ذلك هو عذابك! إنك تحبينه على علاته، تحبين فيه إهانتك. ولو أنه استقام، لكرهته وانطفأت شعلة حبك له. ولكنك في حاجة إليه لكي تواصلي التأمل في إخلاصك الذي بلغ البطولة، ولكي تجدي الفرصة لتؤنبيه على خيانته. وكل هذا مبعثه كبرياؤك. إن ثمة مذلة تكابدينها بالخضوع وإذلال النفس والكبرياء هي وراء كل ذلك.. فأنا شاب أيضاً وقد أحببتك حباً ملك علي حواسي، إنني أعلم أنه كان أحفظ لكرامتي وأقل إيلاماً لك لو أنني اكتفيت بالصمت والابتعاد عنك، ولكنني سأسافر إلى مكان قصي، ولن

أعود... لن أعود أبداً. إنني لا أريد أن أقضي حياتي إلى جانب إنسان «يتعذب»... ولكنني لا أدري كيف أوضح أفكاري الآن. لقد قلت كل ما يجول في خاطري... وداعاً ياكاترينا إيفانوفنا؛ وليس لك أن تغضبي علي، لأنني سألقى عقاباً هو أضعاف ما تلقين. هذا إذا كان عقابي الوحيد هو أنني سأحرم رؤيتك إلى الأبد. وداعاً. لا أريد مصافحتك. إن عذابك المتعمد لي بلغ حداً يمنعني من الصفح عنك في هذه اللحظة. سأصفح عنك فيما بعد، أما الآن فلا أريد أن أضع يدي بيدك». ثم أضاف باللغة الألمانية: «شكراً، لست بحاجة إلى سيدة»، وقد فاه بهذا البيت وهم يتسم إبتسامة مغتصبة، وقد أراد بذلك أن يبين قدرته على قراءة قصائد الشاعر الألماني شيلر وحفظها عن ظهر قلب، وهو ما كان أليوشا يأبى تصديقه. وخرج إيفان من الغرفة حتى دون أن يودع مضيفته السيدة خولاكوف.

ضم أليوشا يديه وصاح منادياً شقيقه يائساً:

«إيفان! عد يا إيفان!» ثم صاح بلهجة تدل على اليأس: لا، لن يعود مهما كلف الأمر. ولكن الذنب ذنبي، أنا الذي أذنبت. لقد كنت أنا البادىء! وإيفان كان يتكلم بدافع من الغضب، فتنكب جادة الصواب، ولم يعدل». ثم أخذ يردد بعصبية: «يجب أن يعود، يجب أن يعود».

وفجأة غادرت كاترينا إيفانوفنا إلى الغرفة المجاورة.

وهمست السيدة خولاكوف بتأثر عظيم في أذن أليوشا: إنك لم تأت ما تؤاخذ عليه. لقد تصرفت كملاك. سأبذل جهد طاقتي لأمنع إيفان فيودوروفيتش من السفر.

وكان وجهها مشرقاً بالبهجة، رغم حزن أليوشا الشديد. غير أن كاترينا إيفانوفنا عادت فجأة، وكانت تحمل في يدها ورقتين ماليتين من فئة المائة روبل.

توجهت بقولها إلى أليوشا بصوت يبدو فيه الهدوء والاتزان، كأن شيئاً لم يحدث: «أود أن تصنع لي معروفاً عظيماً يا الكسي فيودوروفيتش، فمنذ أسبوع، أجل منذ أسبوع، اقترف ديمتري فيودوروفيتش، نتيجة التهور والظلم، عملاً قبيحاً جداً. هنالك حانة وضيعة في هذه البلدة، وقد التقى فيها بذلك

الضابط المعزول، ذلك الرئيس، الذي كان أبوك يستخدمه في بعض الأعمال. وقد غضب ديمتري فيودوروفيتش غضباً شديداً واحتد على هذا الرئيس فأمسكه من لحيته وجره إلى الشارع وخلال هذه المسافة الطويلة كان يضربه ضرباً مبرحاً. ولقد قيل لي أن ابن الضابط، وهو صبي صغير السن وتلميذ في مدرسة البلدة، اتفق له أن شاهد أباه على تلك الحال فركض نحوه باكياً يطلب الصفح عنه، راجياً الناس المتجمهرين مساعدة أبيه، فقابله الجميع بالضحك. يجب أن تعذرني. يا الكسي فيودوروفيتش. فإنني لا أتمالك نفسي من الشعور بالاشمئزاز كلما تذكرت عمله المشين هذا... إنه أحد الأعمال التي لا يقدم عليها سوى ديمتري فيودوروفيتش في سورة غضبه... وفي أثناء جموح أهوائه! إنني لا أستطيع حتى أن أروي هذا العمل... وتجدني مضطربة لذكره. وقد تحريت عن ضحيته، فتبين لي أنه رجل مسكين، اسمه سنغيريوف، لقد أساء التصرف في الجيش فطرد منه، ولا أعرف أية خطيئة اقترف. أما الآن فإنه تردى في هاوية الإملاق مع أفراد أسرته، وإنها لأسرة تعيسة تتألف من أبناء عليلين وزوجة فاقدة العقل، كما أعتقد. إنه يعيش في هذه البلدة منذ عهد بعيد، حتى اشتغل في بعض الأعمال الكتابية، ولكنهم فجأة قطعوا عنه راتبه. وقد فكرت لو أنك... أعني لقد فكرت... لا أدري ماذا. إنني شديدة الاضطراب. أقصد أنني أردت أن أطلب منك يا عزيزي الكسي فيودوروفيتش أن تذهب إليه، متذرعاً بحجة مناسبة، ترى ذلك الضابط، يا إلهي ما أسوأ الطريقة التي أوضح فيها قصدي، وأن تجد الطريقة اللبقة لتقدم له وبالأسلوب الذي لا يتقنه أحد سواك (فاحمر وجه أليوشا خجلاً) هذه المساعدة، هاتين المائتين من الروبلات. إنني متأكدة أنه سيأخذها... أعني ستقنعه بأخذها... أو ترى ماذا أعني؟ إنني لا أريد أن أقدم له هذه المساعدة استرضاء له حتى لا يلجأ إلى القضاء (فإنني أعتقد أنه ينوي الإقدام على ذلك)، بل كدليل عطف، ورغبة مني في مساعدته، على أن تقدمها إليه مني أنا خطيبة ديمتري فيودوروفيتش. لا منه... أنت تعلم... أنه كان بودي أن أذهب بنفسي. ولكنك ستتدبر الأمر خيراً مني. إنه يقطن في شارع البحيرة. في منزل امرأة تدعى كالميكوف... أستحلفك الله يا الكسي

فيودوروفيتش أن تقوم بهذه المهمة من أجلي أما الآن... أما الآن فإنني أشعر بشيء... من الاعياء. وداعاً».

ومضت مسرعة واختفت وراء الباب قبل أن يتمكن أليوشا من التفوه بكلمة واحدة، مع أنه كان راغباً في الكلام. كان يريد أن يعتذر إليها ويطلب صفحها، وتقريع نفسه، وتقديم كلمة اعتذار، لأن قلبه كان مفعماً فلم يحتمل مغادرة الغرفة بدون أن يقول شيئاً. غير أن السيدة خولاكوف أمسكت بيده وجذبته معها إلى القاعة، وهناك أوقفته مرة أخرى كما فعلت من قبل. وقالت له بما يشبه الهمس: «إنها متكبرة، وهي تصارع نفسها، ولكنها رقيقة ساحرة كريمة. أواه، كم أحبها، وخاصة في بعض الأحيان، وكم أنا مسرورة بكل شيء! إنك لا تعلم يا عزيزي الكسي فيودوروفيتش ولكن يجب أن أنبئك أننا جميعاً، خالتيها وأنا جميعاً حتى ليزا، ما فتئنا خلال الشهر الأخير نرجو ونبتهل كي تتخلى عن ديمتري الذي تؤثره أنت، لأنه لا يهتم بها ولا يحبها، ولكي تقترن من إيفان فيودوروفيتش، يا له من شاب رائع مثقف يحبها أكثر من أي شيء في العالم. لقد تآمرنا على تحقيق ذلك، ولعلي لم أغادر بعد إلا لهذا السبب».

فهتف أليوشا: ولكنها عادت إلى البكاء لشعورها بالاهانة مرة ثانية.

ـ لا تغرنك دموع النساء يا الكسي فيودوروفيتش. فأنا لا أنحاز إلى صف النساء في مثل هذه الحالات، بل إلى صف الرجال.

وارتفع صوت ليزا من وراء الباب يقول: أماه، إنك تفسدينه.

فعاد أليوشا يردد قوله: كلا، أنا السبب في هذا كله، وأنا الملوم على ذلك. وقد أخفى وجهه بين يديه واستحوذ عليه عذاب عظيم مرده إلى تأنيب الضمير على تهوره.

وقالت السيدة خولاكوف: «بل على نقيض ذلك. لقد تصرفت تصرف الملائكة، أجل تصرف الملائكة. وإني أتمسك بهذا القول وأردده ألف مرة».

وتناهى إليهما صوت ليزا مرة أخرى متسائلة: «أماه، كيف تصرف كالملائكة؟».

وتابع أليوشا كلامه، كأنه لم يسمع صوت ليزا، فقال: «لقد تراءى لي

فجأة أنها تحب إيفان، فأفلت مني ذلك الكلام السخيف... ما تراه سيحدث الآن؟».

فصاحت ليزا: «سيحدث لمن؟ لمن؟ أماه، إنك في الحقيقة تسعين إلى حتفي، إنني أسألك فلا تجيبين».

وفي تلك اللحظة جاءت الخادم مهرولة وقالت:

«إن كاترينا إيفانوفنا مريضة... إنها تبكي، وتعاني... نوبات من الهستيريا».

فصاحت ليزا بلهجة يتضح فيها القلق الحقيقي هذه المرة: ماذا حدث؟ أماه، إنني أنا التي سأصاب بالهستيريا، لا هي!.

ـ بحق السماء يا ليزا لا تصرخي، ولا تلاحقيني بأسئلتك. إن سنك لا يسمح لك أن تعرفي كل ما يعرفه الكبار، سآتي وأخبرك بكل ما يمكن أن تعرفيه. أواه، رحماك يا رب! إنني قادمة، إنني قادمة.. إن الهستيريا بشرى خير يا الكسي فيودوروفيتش؛ وإصابتها بالهستريا شيء حسن. إن الأمور تسير كما يجب. إنني في مثل هذه الحالات ضد المرأة وضد دموع المرأة وهستيريتها. أسرعي يا جوليا وأنبئيها أنني قادمة إليها فوراً. أما ذهاب إيفان فيودوروفيتش على هذا النحو، فهي تتحمل تبعته. ولكنه لن يسافر. ليزا، بحق الله لا تصرخي! أواه، نعم، إنك لا تصرخين الآن. أنا التي أصرخ. سامحي أمك. ولكنني مبتهجة، مبتهجة، مبتهجة! هل لاحظت، يا الكسي فيودوروفيتش، كيف كان إيفان فيودوروفيتش يبدو فتياً عندما خرج الآن، عندما قال كل ذلك وخرج من المنزل؟ لقد اعتقدت أنه ضليع في العلم، إنه عالم، ثم ها هو يتصرف فجأة باندفاع وصراحة، وبروح الشباب الذي تنقصه التجربة، فكان سلوكه رائعاً، كسلوكك... ثم أسلوبه في ترديد ذلك البيت من الشعر الألماني، مثلك تماماً! ولكن سأذهب إليها، سأذهب إليها! أسرع يا الكسي فيودوروفيتش ونفذ المهمة التي أوكلتها إليك، وعد إلينا سريعاً، هل تريدين شيئاً يا ليزا؟ بحق الله، لا تؤخري الكسي فيودوروفيتش دقيقة واحدة. إنه سيعود إليك حالاً.

ومضت السيدة خولاكوف مسرعة. وأراد أليوشا قبل انصرافه أن يفتح

الباب ويرى ليزا، فصاحت به: «يستحيل أن تراني الآن بحال من الأحوال. تكلم من وراء الباب. كيف صرت شبيهاً بالملائكة؟ ذلك فقط ما أريد معرفته».

- عن طريق حماقة مريعة يا ليزا! وداعاً.

فقالت ليزا: إياك أن تجرؤ على الذهاب هكذا.

- ليزا، إنني حزين حزناً عظيماً! سأعود إليك بعد لحظات، إن حزني عظيم.

وخرج مسرعاً.



عذاب في الكوخ

حزن أليوشا حزناً عظيماً، لم يعرف مثله إلاّ نادراً، فقد تسرع كما يتسرع الحمقى، وفي أي أمر؟ في أمر غرام. وأخذ يتساءل في سره للمرة المائة ووجهه يحمرّ حسرة وخجلاً: ولكن ماذا عساي أعرف من هذا الأمر؟ وكيف أستطيع الخوض في أمور كهذه؟ أواه ليس مهماً ما أشعر به من خجل؛ فالخجل هو العقاب الذي استحقه. الأمر المؤلم هو أنني قد سببت مزيداً من الشقاء ولا ريب... وقد أرسلني الأب زوسيما لكي أفض خلافهم وأوفّق بينهم، أبهذه الطريقة أوفق بينهم؟ وفجأة تذكر كيف أنه حاول أن يجمع أيديهم فعاوده الخجل العظيم. ثم قال فجأة وهو يقطع برأيه النهائي: بغض النظر عما تميز به عملي من إخلاص، فالواجب يقتضي أن أكون في المستقبل أكثر تعقلاً. ولكنه لم يسترح إلى هذا القرار حتى أن الابتسامة لم تداعب شفتيه.

كانت المهمة التي كلفته كاترينا إيفانوفنا، قضاءها، تقتضي أن يذهب إلى شارع البحيرة. وقد كان مسكن أخيه ديمتري قريباً من هذا المكان، وفي شارع فرعي. وقرر أليوشا أن يعرج على أخيه قبل أن ييمم شطر منزل الرئيس، رغم أنه كان يشعر شعوراً خفياً بأنه لن يلقى أخاه. وخيل إليه أن أخاه يتعمد تجنبه في هذه الآونة، ولكنه عزم على السعي للعثور عليه مهما كلف الأمر. وكان الوقت يمر مرّ السحاب، والتفكير في ناسكه الذي تركه على فراش الموت لم يبارحه منذ أن غادر الدير.

كانت هنالك نقطة واحدة تتعلق بمهمة كاترينا إيفانوفنا، أثارت فيه اهتماماً خاصاً، فهي عندما أشارت في حديثها إلى ابن الضابط ذلك التلميذ الصغير الذي كان يعدو إلى جانب والده منتحباً، خطر ببال أليوشا فوراً أن

ذلك الصبي لا بد وأن يكون هو التلميذ الذي عض أصبعه عندما سأله أليوشا عمّا أساء إليه. وشعر أليوشا بمثل اليقين بأنه هو، وإن لم يكن يعرف لذلك سبباً. ولاحظ أن هذه التأملات قد صرفته عن همومه وجلبت إلى نفسه الراحة، فعقد العزم على أن لا يشغل باله بأمر ذلك «الخطأ» الذي صدر عنه، وأن لا يعذب نفسه بالندم، بل يمضي إلى ما يجب أن يفعله مهما كانت النتيجة. وقد أشعره هذا القرار بالراحة التامة. وعندما تحول إلى الشارع الذي يقوم فيه مسكن أخيه ديمتري شعر بالجوع، فأخرج من جيبه الكعكة التي تناولها من منزل أبيه وأكلها، فشعر بأنه استعاد قوته.

لم يكن ديمتري في المنزل. ولما سأل أليوشا سكان المنزل، وهم نجار عجوز وزوجه وابنهما، نظروا إلى أليوشا نظرة الشك الأكيد. وأجاب الرجل العجوز عندما ألح أليوشا في السؤال قائلاً: «إنه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال، ولعله قد رحل عن هذا المكان». وأدرك أليوشا أن الرجل كان يجيب حسب تعليمات أنهيت إليه وعندما عاد إلى التساؤل عما إذا كان أخوه في منزل غروشنكا أو مختبئاً في حجرة توما (وقد تعمد أليوشا أن يذكر هذه المسميات صراحة)، نظر الثلاثة إليه نظرة مذعورة. فقال أليوشا في نفسه: إنهم يحبونه إذاً، وهم يبذلون جهدهم في سبيله. وهذا جيد.

وأخيراً عثر أليوشا على منزل الضابط في شارع البحيرة؛ فألفاه منزلاً صغيراً متداعياً قد مال على أحد جانبيه وله ثلاث نوافذ تطل على الشارع، وأمامه ساحة موحلة وقفت في وسطها بقرة. واجتاز الساحة فلما بلغ الباب أطل منه على الممر، وإلى يسار الممر كانت تقيم السيدة العجوز صاحبة المنزل مع ابنتها المتقدمة في السن. وقد ظهر له أنهما مصابتان بالصمم. وبعد أن كرر سؤالهما مستفهماً عن الضابط، أدركت احداهما أخيراً أنه يسأل عن ساكني المنزل، فأشارت إلى الباب الذي يواجه الممر. واتضح لأليوشا أن منزل الضابط كان عبارة عن كوخ بسيط. وعندما أمسك بأكرة الباب ليفتحه، أخذ بالصمت الغريب الذي خيم على المكان. إنه كان قد عرف من كاترينا إيفانوفنا أن الرئيس رب أسرة، فقال في نفسه: «إنهم إما أن يكونوا نياماً، أو أنهم سمعوا وقع خطواتي آتية فهم يترقبون دخولي عليهم، فالأفضل أن أقرع

الباب قبل أن ألج». ثم قرع الباب، وجاء الجواب من الغرفة متأخراً بعد انقضاء برهة من الزمن تقدر بعشر ثوان.

سمع أليوشا أحدهم يصيح بصوت ينم عن الغضب الشديد: «من هناك؟».

وعندها فتح أليوشا الباب واجتاز العتبة فإذا هو في غرفة كغرف الفلاحين، واسعة ومزدحمة بأشخاص وأدوات منزلية من جميع الأصناف. ورأى عند الجدار الأيسر مدفأة روسية كبيرة، وقد ربط بينها وبين النافذة اليسرى حبل يقطع الغرفة من أقصاها إلى أقصاها علقت عليه ملابس داخلية. وعلى يساره ويمينه عند جداري الغرفة سريرين متقابلين قد كسيا بستارة مطرزة. ورأى على الأيسر منهما أربع وسائد مزدانة بنقوش مطبوعة ومرتبة على شكل هرم وكل واحدة منها أصغر مما تحتها حجما، وليس على السرير الآخر سوى وسادة واحدة صغيرة.

وكانت الزاوية المقابلة من الغرفة محجوبة بستارة مربوطة بحبل، وخلف الستارة شاهد طرف فراش مؤلف من مقعد طويل وكرسي. وتحت النافذة الوسطى وضعت منضدة خشنة مربعة من الخشب العادي. أما النوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية المغطاة بالغبار، فلم يكن ينفذ منها سوى نور ضئيل. كانت محكمة الاغلاق، فإن الغرفة كانت قليلة النور فاسدة الهواء. وكانت على المنضدة مقلاة فيها بقايا بيض مقلي وكسرة من الخبز وقارورة صغيرة بقي فيها القليل من شراب الفودكا.

وأبصر امرأة مهيبة الملامح ترتدي ثوباً قطنياً، جالسة على مقعد قرب السرير القائم عند الجدار الأيسر، كان وجهها ناحلاً شاحباً، وخداها الغائران ينبئان بمرضها من النظرة الأولى. وقد لفت انتباه أليوشا ما تعبر عنه عيناها من تساؤل وكبرياء. وفيما كان أليوشا يحادث زوجها، كانت عيناها الرماديتان الواسعتان تتنقلان بينهما، وفيهما نفس ذلك التعبير عن الكبرياء والتساؤل. وإلى جانب المرأة قرب النافذة، وقفت فتاة صغيرة السن عادية المظهر شعرها خفيف ضارب إلى الحمرة، ترتدي ثوباً رخيصاً ولكنه أنيق مرتب. ورمقت الفتاة أليوشا بنظرة ازدراء وهو يدخل الغرفة. وعند السرير الآخر كانت تجلس

فتاة أخرى حزينة النظرات تناهز العشرين من عمرها، ولكنها كانت حدباء مقعدة «شوهاء الساقين» كما علم أليوشا فيما بعد. وقد أسندت عكازيها إلى الزاوية. وكانت عيناها البديعتان تشعان طيبة وهي تنظر إلى أليوشا بهدوء ووداعة. وعند المنضدة كان يجلس رجل يبلغ الخامسة والأربعين من عمره وهو يلتهم ما تبقى من البيض المقلي. إنه رجل ضئيل الجسم ضعيف البنية ذو شعر أحمر ولحية خفيفة ذات لون حائل تشبه حزمة القش (سرعان ما خطرت هذه المقارنة وعبارة «حزمة القش» في بال أليوشا بسرعة البرق كما تذكر فيما بعد). وكان واضحاً أنه هو الرجل الذي صاح فيه عندما قرع الباب، إذ لم يكن في الغرفة رجل سواه، ولكنه ما إن دخل أليوشا إلى الغرفة حتى قفز من مقعده وهو يمسح فمه بمنشفة ممزقة وأقبل نحو أليوشا مسرعاً.

قالت الفتاة الواقفة عند الزاوية اليسرى من الغرفة: «إنه راهب يجمع الصدقات للدير، لقد جاء إلى المكان المناسب». ودار الرجل على عقبيه ملتفتاً إليها وهو يجيبها بصوت متهدج غلب عليه التأثر: «كلا يا فارفارا، إنك مخطئة. دعيني أسأله»، ثم التفت نحو أليوشا وسأله قائلا: ما الذي جاء بك إلى هذا المكان الحقير.

ورمقه أليوشا بنظرة متفحصة، فهو يراه للمرة الأولى، ولمح فيه شيئاً منفراً مهيجاً لا يدعو إلى الارتياح، إنه كما يبدو كان يتناول الخمرة لكنه لم يكن ثملاً. وكان الإستعلاء العظيم يبدو في لهجته، كما يبدو فيه الجبن أيضاً، واجتماعهما يثير الغرابة. وقد بدا عليه كأنه رجل أخضع للذل والمهانة أمداً طويلاً حتى استكان إليه، والآن يتمرد عليه فجأة فيحاول مجدداً تأكيد ذاته، أو بتعبير أصح كان مثله كمثل رجل يود من كل قلبه لو استطاع أن يضربك ولكنه مع ذلك يخافك أعظم الخوف ويخشى أن تضربه. إن المرء يلمح في كلماته ونغمة صوته الحاد نوعاً من المزاج الأبله. فهو آناً ينم عن الازدراء وآناً يبدي الذل، فلا يستقر على منوال واحد. وقد وجه سؤاله عن «المكان الحقير» وكأن جسمه يختلج من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وهو يقلب عينيه ويقترب من أليوشا فاندفع هذا خطوة إلى الوراء بوحي من غريزته. وكان الرجل يرتدي معطفاً مهلهلاً من القطن قاتم اللون، وقد تناثرت فوقه الرقع

والبقع، وسروالاً فاتح اللون جداً، من نوع تقادم عليه العهد وقد صنع من نسيج رقيق، وتغضن وقصر عليه فبدا كأنه صبي.

فأجاب أليوشا قائلاً: «إنني الكسي كرامازوف».

فعاد الرجل يقول متسرعاً ليثبت أنه يعرفه: «أعلم ذلك يا سيدي تمام العلم. إنني الرئيس سنيغيريوف أيها السيد، ولكنني ما زلت راغباً في معرفة السبب الحقيقي الذي جاء بك إلى...».

ـ إنني لم آت لسبب بعينه. أردت أن أتحدث إليك ببعض الحديث، إذا كنت تسمح لي بذلك.

ـ إذا كان هذا شأنك، فهاك مقعداً يا سيدي وتفضل بالجلوس. أليس هذا ما اعتاد الناس قوله في الروايات الهزلية القديمة: «تفضل بالجلوس؟» وبحركة سريعة جذب مقعداً خالياً (وهو من الخشب الخشن غير المنجد) ووضعه في منتصف الغرفة، ثم جاء بمقعد ثان له وجلس قرب أليوشا وجهاً لوجه حتى كادت ركبهما أن تتماس.

واندفع الضابط يقول: «إني نيكولاي ايلييتش سنيغيريوف يا سيدي، وأنا ضابط سابق في سلاح المشاة برتبة رئيس، وقد جلبت العار على نفسي بسبب تصرفاتي السيئة ولكنني ما زلت رئيساً، رغم أنني لا أبدو كذلك الآن بسبب اللهجة التي أتحدث بها، فإنني خلال النصف الأخير من عمري قد تعلمت ترديد كلمة يا سيدي، وهي كلمة يعتمدها الانسان إذا جارت عليه دنياه».

فابتسم أليوشا وقال متسائلاً: «إن هذا عين الصواب. ولكنك تعتمد هذه الكلمة عن كراهية أم أنك ترمي إلى غاية من الغايات؟».

ـ بحق الله العلي إني لم أكن أتكلم بها طوعاً، ولم أكن قط أتفوه بها طيلة حياتي، ولكنني عندما بدأ نجمي في الافول بدأت أقول كلمة سيدي. ذلك تقرره القوة العليا. إنني أراك تهتم بشؤون حياتي الحالية، ولكن ما الذي حملك على منحي شرف زيارتك وأنا أعيش في مكان يستحيل على الانسان معه أن يكون كريماً مع ضيوفه؟.

ـ إنما جئت لأمر يتعلق بتلك المسألة.

فأجابه أليوشا باضطراب: «مسألة لقائك لأخي ديمتري فيودوروفيتش».

-أي لقاء يا سيدي؟ إنك لا تعني ذلك اللقاء؟ إذن فالأمر أمر حزمة القش؟ وأدنى مقعده من مقعد أليوشا حتى ارتطمت ركبتاه بركبتيه، وشد شفتيه حتى بدتا كالخيط المشدود.

وتمتم أليوشا قائلاً: «أي حزمة قش؟ لم أفهم».

وهنا انبعث من خلف الستارة صوت عرفه أليوشا، صوت الصبي الذي لقيه قبل لحظات قائلاً: «لقد جاء يشكوني إليك يا أبي. أنا الذي عضضت أصبعه». ثم أزيحت الستارة ورأى أليوشا الصبي الذي اعتدى عليه مضطجعاً على فراش وضع فوق مقعد طويل وكرسي في الزاوية تحت الايقونات. وكان الصبي متدثراً بمعطفه وبملاءة عتيقة. وكان يبدو عليه المرض، وظهر من تألق عينيه أنه كان يعاني الحمى. وقد أخذ ينظر إلى أليوشا بلا خوف أو وجل، وكأنه كان يشعر أنه في بيته فلا تستطيع يد أن تناله بأذى. قفز الضابط من مقعده وقال: «ماذا هل عض أصبعك؟ أهي أصبعك التي عضها؟».

-نعم، لقد كان يتراشق بالحجارة مع تلامذة آخرين، وقد تألب عليه ستة منهم، فبادرت إلى نجدته فما كان منه إلاّ أن قذفني بحجر واتبعه بآخر سدده إلى رأسي. ولما سألته عما أسأت إليه، انقض علي وعض أصبعي عضة شديدة، ولست أدري سبب ذلك.

صاح الضابط وهو يثب من مقعده: سأجلده يا سيدي حالاً.

-ولكني لست هنا لأشكوه، ولا لأحملك على معاقبته... إنني لا أريد له الجلد. وفضلاً عن ذلك فهو يبدو مريضاً.

-وهل تصدّق أنني سأجلده؟ وأنني لأرضيك سأجلد ولدي ايلوشا أمامك؟ أتريدني أن أفعل ذلك حالاً يا سيدي؟. قال الضابط ذلك وهو يلتفت إلى أليوشا ورمقه بنظرته وكأنه يهم بالهجوم عليه، ثم أردف يقول: «إنني آسف لما لحق بإصبعك من أذى يا سيدي، ولكن هل يرضيك بدلاً من أن أجلد ايلوشا أن أبتر بهذه المدية أمامك أربعاً من أصابعي؟ إنني أظن أن أربع أصابع تكفي لارواء ظمئك للانتقام. ولا أخالك راغباً في أن أبتر الأصبع الخامسة

أيضاً؟. وأحس وكأنه اختنق فلم يتمكن من متابعة الكلام. وكانت كل عضلة من عضلات وجهه مشدودة تختلج، وقد ظهر التحدي العظيم في نظراته. إنه في سورة من الغضب أفقدته القدرة على التماسك.

قال أليوشا مترفعاً حزيناً دون أن يزايل مجلسه: «أظن أنني فهمت كل شيء. إن ابنك فتى طيب، وهو يحب أباه، وقد هاجمني لأنني أخ للرجل الذي اعتدى عليك»، ثم تابع كلامه مطرقاً مفكراً: الآن قد أدركت السر... ولكن أخي ديمتري فيودوروفيتش نادم على فعلته. إنني أعلم ذلك وحبذا لو أذنت له بالمجيء إليك، أو أفضل من هذا، حبذا لو أمكنه أن يلقاك في ذات المكان في تلك الحانة نفسها، وهناك سيعتذر إليك، *أمام الجميع إذا رغبت* في ذلك.

ـ أتعني أنه بعد أن جرني من لحيتي يكفي أن يعتذر إليّ لينتهي كل شيء نهاية مرضية أليس كذلك؟.

ـ أواه كلا! على نقيض ذلك، إنه سيقوم بكل ما تريده، وبالطريقة التي ترضيك.

ـ إذن لو طلبت من «سموّه» أن يجثو أمامي على ركبتيه في نفس الحانة ـ وإسمها المتروبوليس ـ أو في السوق لكان يفعل ذلك؟.

ـ نعم إنه سيجثو على ركبتيه.

ـ لقد مسست شغاف قلبي يا سيدي. لقد أثرت عواطفي وتكاد تنفجر دموعي!. لقد كان تأثري عظيماً بكرم أخيك. اسمح لي أن أقدم لك أفراد أسرتي، هاتان إبنتاي وهذا ابني، صغيري. فإذا أنا متّ فمن يعنى بأمرهم، وما دمت حياً، من غيرهم يعنى بأمر بائس مثلي؟ إن تلك هبة عظمى من الخالق وهبها الله كل إنسان على شاكلتي يا سيدي، إذ ينبغي أن يكون هناك إنسان، في هذا العالم محبّ لمن كان مثلي.

فهتف أليوشا قائلاً: «إن هذه هي الحقيقة».

وفجأة التفتت الفتاة الواقفة عند النافذة إلى أبيها وهي تبدي الاستياء والاحتقار بقولها: «ألا كف عن هذه الحماقة! ها إن إنساناً معتوهاً يدخل بيتنا فتظهر له عارنا».

فصاح أبوها بلهجة الأمر وهو ينظر إليها نظرة الاستحسان والتأييد: «تمهلي قليلاً يا فارفارا». ثم نظر إلى أليوشا مضيفاً: «إن هذا هو طبعها. إنها كما يقول الشاعر: «ليس في الدنيا بأسرها ما يرضيها».

والآن دعني أقدمك إلى زوجي ارينا بيتروفنا. إنها مقعدة، وهي تبلغ الثالثة والأربعين من عمرها؛ وتستطيع الحركة ولو بصعوبة. وهي ذات أصل متواضع. أرينا بيتروفنا أصلحي ملامحك. إن هذا هو الكسي فيودوروفيتش كرامازوف. إنهض يا الكسي فيودوروفيتش. ثم أمسك ذراعه وجذبه فأنهضه عن المقعد بقوة غير منتظرة وأردف يقول: عليك أن تنهض عندما تقدم إلى سيدة. عزيزتي، إنه ليس كرامازوف الذي فعل بي ذلك الفعل القبيح ولكنه شقيقه الذي يتألق وجهه بنور الفضائل. هلمي أرينا بيتروفنا، هلمي هات يدك، يجب أن أقبلها أولاً.

ثم انحنى على يد زوجه وقبلها باحترام وحنان. فما كان من الفتاة الواقفة عند النافذة إلاّ أن أدارت ظهرها إلى هذا المشهد بازدراء. غير أن المرأة قد تبدلت تقاطيع وجهها، فبعد أن كانت تظهر عليه سيماء الاستفهام والاستعلاء، أصبح فجأة يدل على الهشاشة والمودة.

وقالت المرأة: «عم صباحاً! تفضل فاجلس أيها السيد شيرنومازوف[1]».

فقال الضابط هامساً: «إنه كرامازوف، كرامازوف. ثم خاطب أليوشا بهمس: إنها من أصل وضيع.

ـ حسناً، ليكن كرامازوف كما تريد. ولكن سيان عندي كرامازوف أو شيرنومازوف... اجلس. لم انهضك عن مقعدك؟ فلأنه يدعوني مقعدة، وأنا لست كذلك، وما بي من علة سوى أن ساقي متورمتان كبرميلين. ولكن سائر جسمي قد تصوّح. لقد كنت بدينة أما الآن فقد أصبحت نحيلة كإبرة.

وعاد الضابط يقول مهمهماً: «إنها من أصل وضيع».

وهنا تحدثت الفتاة الحدباء التي كانت حتى تلك اللحظة صامتة في مقعدها، وقالت بغتة وقد أخفت وجهها بمنديلها: «أواه، أبتاه، أبتاه!».

---

(١) تعني هذه اللفظة: الملطخ بالسواد.

وقالت الفتاة الواقفة عند النافذة: «إنك مهرج!».

وقالت الأم وهي تشير بيدها إلى ابنتيها: «هل بلغتك أنباؤنا؟ إن ما يحدث لنا أشبه بالسحائب ثم تنقشع وتعود ألحان الموسيقى إلى أسماعنا. عندما كان زوجي في الجيش، كان بيتنا يمتلىء بأمثالك من الضيوف. ولست أقصد المفاضلة بين الناس فلكل إنسان أن يسير وفق هواه. ولقد كانت زوجة الشماس تأتي دائماً وتقول: إن الكسندر الكسندروفيتش من أنبل الرجال قلوباً ولكن ناتاسيا بيتروفنا من أبناء الجحيم. فكنت أجيبها: لكل منا ذوقه الخاص، ولكنك سيدة نتنة حادة الطبع. فتعود إلى القول: وأنت لا تودين العودة إلى الصواب. فأجيبها: ومن طلب منك أيتها الشريرة أن تلقي عليّ دروساً؟ فتجيبني قائلة: ولكن رائحة فمي زكية وأنت بخرة الفم. فأجبتها: ألا فاسألي جميع الضباط عما إذا كنت بخرة الفم. ولم تبرح هذه الأقوال خيالي منذ ذلك الوقت أبداً. ولقد حدث منذ زمن ليس بالبعيد أن كنت جالسة في مكاني هذا، فلمحت ذلك الجنرال الذي يأتي لزيارتنا في عيد الفصح، يدخل علينا. فابتدرته بالسؤال قائلة: يا صاحب السعادة، هل يمكن أن يكون نفس السيدة كريهاً؟ فأجاب: نعم، ينبغي عليك أن تفتحي النافذة أو الباب فإن الهواء ليس نقياً في هذه الغرفة. إنهم جميعاً سواء. وما دخلهم في رائحة فمي؟ إن رائحة الموتى أسوأ من رائحته! فقلت له: إنني لن أفسد الهواء وسأطلب حذائي وأمضي من هنا. يا أعزائي لا تلوموا أمكم! وأنت يا نيكولاي ايلييتش كيف لا يكون في مقدوري أن أسرك؟ لم يبق لي سوى ايلوشا الذي يعود من المدرسة ويبدي لي حبه. وقد أحضر لي بالأمس تفاحة. اصفحوا عن أمكم. اصفحوا عن الانسانة المسكينة الوحيدة! لماذا صار نفسي كريه الرائحة في أنوفكم؟».

ثم أخذت المرأة المعتوهة المسكينة تنشج وتتأوه، وانهمرت الدموع من مآقيها وجرت على خديها، واندفع الرئيس نحوها مواسياً بقوله: «يا عزيزتي هوني عليك فإنك لست وحيدة. كلنا نحبك، وكلنا نعبدك». ثم طفق يلثم يديها ويربت على خدها بحنان؛ وتناول المنشفة وأخذ يمسح دموعها. وخيل لأليوشا أن الدموع تترقرق أيضاً في عيني الرئيس الذي التفت نحو أليوشا

وسأله محتداً وهو يشير إلى البلهاء المسكينة: أرأيت وسمعت؟.

فتمتم أليوشا قائلاً: «إنني أرى وأسمع».

وعندها نهض الصبي نصف نهوض وجلس في فراشه، وصاح وهو يحدق في أبيه بعينين ملتهبتين: «أبتاه، أبتاه كيف تستطيع أن تقيم صلة مع هذا الرجل! دعه ينصرف».

وثنت فارفارا على كلام أخيها وصاحت وهي تضرب الأرض بقدميها غضباً وهياجاً: دع عنك هذه الحماقات، إن تكرارك هذه الأمور السخيفة القديمة لن يعود علينا بأية فائدة!.

أجاب الأب: إن غضبك هذه المرة حق، يا فارفارا، وسأبادر إلى ارضائك. هلم يا الكسي فيودوروفيتش ضع قبعتك على رأسك وسأضع قبعتي على رأسي. سنخرج من هنا. إن لدي حديثاً جدياً سأفضي به إليك، ولكن ليس هنا. إن هذه الفتاة الجالسة هي ابنتي نينا. لقد نسيت أن أقدمها إليك. إنها ملاك سماوي متجسد... هبط على الأرض أيمكنك فهم ما أقول؟.

فهتفت فارفارا قائلة بازدراء: «إنه يرتجف كمن به رعشة!».

أما التي ضربت الأرض بقدميها غيظاً مني وقد نعتتني بالأحمق في هذه اللحظة، فإنها أيضاً ملاك سماوي متجسد، معذورة هي في نعتي بهذا اللقب. هلم يا الكسي فيودوروفيتش، يجب أن ننتهي من هذا ثم أمسك يد أليوشا وجذبه وخرج به إلى الشارع.



وفي الهواء الطلق

قال الضابط: «إن الهواء هنا منعش، أما في غرفتي فهو ليس كذلك أبداً. دعنا نمشي الهوينا يا سيدي. إنني مسرور باهتمامك وأرجو أن لا يضجرك حديثي».

فقال أليوشا: لدي شيء هام أود أن أفضي به إليك، ولكنني لست أدري من أين أبدأ.

ـ لقد قدرت أن لك معي شأناً، إذ لا يمكن أن تكون قد أتيت بدون غاية معينة، اللَّهم إلاّ إذا كانت غايتك أن تشكو لي الصبي، وهذا أمر بعيد الاحتمال. وما دمنا في معرض الحديث عن الصبي، فإنني أريد أن أقول لك شيئاً لم أستطع أن أشرحه لك في المنزل، والآن سأشرح لك الأمر. إن حزمة القش كانت، قبل أسبوع، أكثف مما ترى. أعني بذلك لحيتي. كذلك يلقبون لحيتي وخاصة أولاد المدارس. ومنذ أسبوع جرني أخوك ديمتري فيودوروفيتش من لحيتي، ولم أذنب بحقه، كان في سورة غضب واتفق أن وقع بصره علي فبقي يجرني من الحانة إلى السوق. وفي تلك اللحظة كان الأولاد عائدين من مدارسهم وإيلوشا معهم. فلما رآني على تلك الحال عدا نحوي وصاح قائلاً: أبتاه، أبتاه. ثم تشبث بي وطوقني بذراعيه وشدني بجماع قواه محاولاً تخليصي وهو يناشد المعتدي: خل سبيله، خل سبيله، إنه والدي، اصفح عنه! نعم لقد قالها: اصفح عنه. وقبض على يد اخيك بيديه الصغيرتين وقبلها... إنني ما زلت اذكر صورة وجهه الصغير في تلك اللحظة، ولم انسها ولن انساها أبداً!

فهتف اليوشا قائلاً: اقسم لك أن أخي سيبدي لك كامل الأسف وأصدقه، حتى ولو كان عليه أن يجثو على ركبتيه في ذلك السوق ذاته...

سأجعله يفعل ذلك وإلا فلن يكون أخي.

ـ إذن فالأمر لا يعدو كونه اقتراحاً! ولم يصدر عنه، بل عنك أنت بدافع من كرم قلبك الممتلىء نبلاً واخلاصاً. كان عليك أن تقول هذا منذ البدء. كلا، في هذه الحالة اسمح لي أن اصف لك شهامة أخيك العسكرية العظيمة، في تلك الآونة. فقد أرخى قبضته عن لحيتي وأطلق سبيلي، وقال لي: إنك ضابط وأنا ضابط، فإذا استطعت العثور على رجل شريف يقبل أن يكون شاهدك للمبارزة، فإنني امنحك فرصة استرداد اعتبارك ولو أنك نذل حقير. لقد كانت هذه كلماته لي، ويالها من شهامة؛ وقد انصرفت بعد ذلك مع ايلوشا، وكان المشهد سجلاً عائلياً انطبع في أحناء روح اليوشا. ومن الصعب بعد الآن الادعاء باننا نحتفظ بميزة كرم المحتد. احكم على الأمر بنفسك، فلقد كنت منذ لحظات في منزلي، فماذا شاهدت فيه؟ ثلاث اناث، احداهن مقعدة مجنونة، والأخرى مقعدة حدباء، والثالثة ليست مقعدة ولكنها ذكية إلى حد بعيد. وهي طالبة تحن إلى العودة إلى بطرسبورغ لكي تدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا. ولن احدثك عن ايلوشا فهو لم يتجاوز التاسعة من عمره. إنه وحيد في هذه الدنيا، وإذا مت فماذا يكون مصيرهم؟ إنني اكتفي بطرح هذا السؤال عليك. وإذا تحديته للمبارزة وقتلني على الفور فماذا يحدث، وماذا يؤول إليه أمرهم؟ واسوأ من هذا إذا لم يقتلني بل يجعلني مقعداً، إنني عندئذ لن اقدر على العمل، ولكنني سأصبح فماً يتلهف إلى لقمة الطعام. فمن يطعم هذا الفم، ومن يطعم تلك الافواه جميعاً؟ هل يجب علي عندئذ اخراج ايلوشا من المدرسة وارساله إلى الشوارع يستجدي اكف المحسنين؟ إن هذا هو حصيلة المبارزة، وهذا كلام سخيف لا أكثر.

فهتف اليوشا تارة أخرى وهو متألق العينين: إنه سيطلب منك الغفران، وسيجثو عند قدميك في وسط السوق.

وعاد الضابط إلى القول: «لقد خطر لي أن اقاضيه أمام المحاكم، ولكن قانون العقوبات ليس فيه مادة تخولني الحصول على تعويض كبير عن اذى شخصي؟ ثم إن اغرافينا الكسندروفنا (غروشنكا) استدعتني وصاحت في

وجهي قائلة بغضب شديد:

- اياك أن تفكر بمقاضاته! فإنك إذا رفعت امرك إلى القضاء، شهرت بك وكشفت للدنيا أنه ضربك معاقبة لك على خيانتك، وعندها ستقاضى أنت أمام المحكمة. انني أشهد الله، على من كانت تلك خيانته وعلى من أمرني أن اقوم بذلك العمل، الم تكن هي وفيودور بافلوفيتش هما اللذان امراني بذلك؟ واضافت تقول: وأكثر من هذا فسأطردك إلى الأبد ولن تنال مني فلسا واحداً وسأحدث صاحبي التاجر (إنه اللقب الذي تطلقه على عشيقها العجوز) وسيطردك هو أيضاً. فإذا طردني من خدمته فكيف استطيع كسب رزقي؟ إن هذين هما الشخصان الوحيدان اللذان اتطلع إليهما في معاشي، لان فيودور بافلوفيتش لم يكتف بالاستغناء عن خدمتي، لسبب آخر، ولكنه يعتزم أن يستغل أوراقاً في حوزته كنت قد وقعتها، لكي يشكوني إلى القضاء. ولذلك فإنني رضيت السكوت والصبر. ولقد رأيت بنفسك منعزلنا. ولكن قل لي الآن: هل آذاك ايلوشا في اصبعك أذى بالغا؟ إنني لم أرغب أن اثير هذا الموضوع في منزلي بحضوره.

- نعم، لقد آذاني كثيراً، وقد كان عظيم الهياج. لقد انتقم لك مني باعتباري فرداً من أسرة كرامازوف، لقد ادركت ذلك الآن. ولكن ليتك رأيت كيف كان يرشق زملاءه في المدرسة بالحجارة! إن هذا عمل خطر؛ إنهم ربما قتلوه. فهم اطفال لا يعقلون. فقد يرتطم الحجر برأس الإنسان فيشجه.

- ذلك ما حصل هذا اليوم. فلقد اصيب بكدمة من ضربة حجر ولم يصب برأسه بل بصدره فوق القلب، وقد جاء إلى البيت يئن ويبكي وها هو الآن مريض.

- إنه هو الذي يبدأ بالهجوم عليهم، وهو عظيم الحقد عليهم بسببك. ويقولون أنه طعن الصبي كراسوتكين بمدية في جنبه.

- لقد بلغني ذلك أيضاً. إن هذا شيء خطير، وكراسوتكين هذا هو ابن أحد الموظفين في هذه المدينة، وربما ادى الأمر إلى مضاعفات.

فاندفع اليوشا يقول بحرارة: «نصيحتي إليك أن يتغيب عن المدرسة مدة من الزمن حتى تهدأ ثائرته ويزول غضبه».

ـ غضب! إن ذلك هو عين ما يضطرم في نفسه، إنه مخلوق صغير وغضبه عظيم. إنك لم تحط علما بكل شيء يا سيدي، دعني اضاعف معلوماتك إن الأولاد ما زالوا منذ وقوع ذلك الحادث يتعمدون اثارته بتعييره بحزمة القش. وأولاد المدارس لا يعرفون الرحمة، فهم إذا تفرقوا افراداً كانوا ملائكة، أما إذا اجتمعوا، وخاصة في المدارس، فإنهم في اغلب الاحايين ينقلبون إلى وحوش. وهذا التحرش من جانبهم قد خلق في ايلوشا روح النبل والتمرد. ولو كان يا سيدي صبيا عاديا وابنا ضعيفا لاستسلم للمقادير وشعر بالخزي من والده، ولكنه وقف في وجه الجميع؛ يدافع عن أبيه وعن الحق والعدالة. إن الألم الذي كابده عندما قبّل يد اخيك وصاح به: «اصفح عن أبي، اصفح عنه»، لا يدرك حقيقته إلا الله وأنا. لأن اطفالنا، لا أطفالكم بل اطفالنا، اطفال الفقراء الذين يزدريهم جميع الناس، يدركون معنى العدالة يا سيدي، منذ السنة التاسعة من اعمارهم. ولكن أنى للاغنياء أن يدركوا ذلك؟ إنهم لا يغوصون إلى مثل هذه الاعماق ولو مرة واحدة في حياتهم. ولكن ايلوشا ادرك في تلك اللحظة التي وقف فيها في الساحة يقبل يد اخيك، معنى العدالة كاملة. لقد تسربت الحقيقة إليه وانغرست في نفسه، فأثرها باق فيها إلى الأبد. واحتد الضابط وبدا عليه الهياج، ولطم راحة يده اليسرى بقبضة يده اليمنى. وكأنه يبغي أن يصور كيف انغرست الحقيقة في نفس ايلوشا.

ثم تابع كلامه قائلاً: «وفي ذلك اليوم بالذات يا سيدي فاجأته الحمى وظل يتقلب في فراشه طول ليلته. وكاد ألا يبادلني كلمة واحدة طول اليوم، ولكنني لاحظت أنه كان دائباً على مراقبتي من زاويته، رغم أنه كان يشيح ببصره إلى النافذة ويتظاهر بمراجعة دروسه، فقد كنت ادرك أن ذهنه لم يكن منصرفاً إلى الدرس. وفي اليوم التالي عمدت إلى الشراب لكي أنسى فيه مصائبي، ويالي من شقي، اصبحت لا أذكر شيئاً. واخذت زوجي تنتحب ـ إنني مغرم بها غراماً عظيماً ـ وانفقت آخر فلس في جيبي لكي أبقي على النسيان. لا تحتقرني يا سيدي بسبب هذه الخلة فالذين يسكرون في روسيا هم أفضل الجميع. وخير رجالنا هم أكثر الناس سكراً. واضطجعت ولم أعد

احفل بإيلوشا مع أن أولاد المدرسة في ذلك اليوم أخذوا يعيرونه ويسخرون منه بقولهم «حزمة القش، لقد جر أبوك من الحانة من لحيته، وعدوت انت بجانبه تطلب له الصفح».

وفي اليوم الثالث عندما عاد من المدرسة رأيت عليه سيماء الشحوب والبؤس فسألته: «ما بك؟» فلم يجب. حسنا، لم يكن ممكناً أن نتحدث في بيتنا إذ ستتدخل أيضاً زوجتي وابنتاي. وأكثر من هذا، فإن الفتاتين علمتا بما جرى في ذلك اليوم بالذات. وكانت فارفارا قد بدأت تقرعني قائلة: أيها الجبناء والمهرجون، هل تستطيعون أن تقوموا مرة بعمل يصدر عن العقل؟ فأجبتها قائلا: إنك على صواب، هل نستطيع أن نقوم مرة بعمل يصدر عن العقل؟ واكتفيت بذلك لأنهي الموضوع. وفي المساء، اصطحبت الصبي إلى نزهة سيراً على الأقدام، وينبغي أن تعلم أننا نتمشى كل مساء في هذه الطريق بالذات التي نسير فيها الآن، من بوابة المنزل إلى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها في الطريق تحت السياج، وهي التي تحدد المكان الذي تبدأ عنده مراعي المدينة. إنها بقعة خالية جميلة يا سيدي. كنت اساير ايلوشا ويدي في يده كالعادة. إن يده صغيرة واصابعه دقيقة باردة. إن علته تكمن في صدره. وفيما نحن سائران إذ به يقول لي فجأة: «ابتاه! ابتاه!» فسألته «ماذا»؟ وابصرت في عينيه وميضا. فأجاب: «ابتاه في ذلك اليوم.. ما ابشع معاملته إياك!» فقلت: «لم استطع دفعا لما حدث يا ايلوشا». فقال: «لا تصفح عنه يا أبي، لا تصفح عنه! إنهم في المدرسة يقولون أنه دفع لك عشرة روبلات تعويضاً عما فعله». فأجبته: «كلا يا ايلوشا، إنني لن آخذ منه مالاً لقاء أي شيء». وعندئذ بدأ يرتجف، ثم أخذ يدي بكلتا يديه وغمرها بالقبل، وأكمل قائلاً: «أبي اطلبه إلى المبارزة، إنهم في المدرسة يرمونك بالجبن ويقولون أنك لن تتحداه، وإنك ستتقاضى منه عشرة روبلات». فقلت: «إنني لا استطيع أن ادعوه إلى المبارزة يا ايلوشا». ثم شرحت له باقتضاب الأسباب التي ذكرتها لك الآن. وأصغى برهة ثم قال: «ابتاه، على كل حال لا تصفح عنه، فعندما اكبر سأدعوه إلى المبارزة بنفسي وسأقتله». وتألقت عيناه ورأيت فيهما بريقاً. وكان من واجبي كأب، أن اطيب خاطره بكلمة فقلت له: «إن قتل النفس

خطيئة، حتى ولو كان ذلك في المبارزة». فعاد إلى القول: «ابتاه، إنني عندما أكبر سأبارزه وأطرحه أرضاً، وأجرده من حسامه، فأكون فوقه ملوحاً بحسامي قائلاً له: «إنني قادر على ازهاق روحك، ولكنني اصفح عنك، فانطلق!»

فانظر يا سيدي في تلك الأخيلة التي كانت تداعب عقله الفتي خلال هذين اليومين، لا بد أنه كان يهيء خطة الانتقام في ذهنه طول يومه ويهذي بها طول الليل ولكنه صار يعود من المدرسة وقد ضرب ضرباً مبرحاً، ولم الاحظ ذلك إلا أول أمس، وأنت على صواب فيما تقول، فلن أرسله إلى المدرسة بعد اليوم. لقد بلغني أنه يقف بمفرده في وجه تلاميذ الصف جميعاً، وكله حقد وعداء وأنه هو الذي تحداهم أولاً. ولذلك فقد خفت عليه. وانطلقت به في نزهة ثانية وسألني قائلاً: ابتاه، هل الاغنياء أقوى من الآخرين في هذا العالم؟ فأجبته قائلاً: إنه ما من إنسان على وجه الأرض اقوى من الاغنياء. فقال: أبي، إنني سأصبح ثريا، وسأكون ضابطاً واقهر الأعداء فيجيزني القيصر وسأعود إلى هذه المدينة ولن يجرؤ أي إنسان.. ثم صمت وشفتاه ما زالتا تختلجان. وعاد إلى القول: أبي ما ابشع هذه المدينة. فقلت: أجل يا ايلوشا، إنها ليست مدينة بديعة. فقال: أبي، دعنا نرحل إلى مدينة أخرى أكثر جمالاً ولا يعرفنا أهلها. فأجبته: سننتقل يا ايلوشا، سننتقل. ذلك ما أنويه، ولكن علي أن أجمع بعض المال لذلك. لقد سرني أنني افلحت في صرفه عن تلك الافكار المؤلمة. وبدأنا نحلم كيف يكون رحيلنا بكامل تفاصيله. سنشتري حصاناً وعربة نضع امك وشقيقتيك في داخلها وندثرهن ونسير نحن إلى جوارهن، وبين آونة وآخرى ستمتطي أنت الحصان، وأسير أنا إلى جانبه، لأن علينا أن نعنى بالحصان، فهو لن يقدر على جرّنا جميعاً. وسنسير إلى المدينة الجديدة على هذا النحو، واستحوذت هذه الفكرة على لبه فأسرته، وكان أكثر ما سرّه، تصوره أن له حصاناً يقوده بنفسه. وما ذلك بطبيعة الحال إلا لأن الصبي الروسي يولد بين الجياد. وتبادلنا الحديث برهة، وقلت في نفسي: شكراً لله فقد صرفت ذهنه وسرّيت عنه.

لقد حدث ذلك أول أمس، غير أن كل شيء تبدل البارحة، فقد ذهب صباحاً إلى المدرسة وعاد منها مهموماً محطماً وفي المساء أخذت بيده

وخرجت أنزهه، وكان متمسكاً بالصمت. وكانت الريح تهب والشمس محتجبة. إنها اجواء الخريف تهيمن على الدنيا؛ وبدأت انوار الاصيل تتلألأ عند مغرب الشمس، ومضينا في سيرنا وكلانا حزين مهموم. ثم إنني خاطبته قائلاً: والآن يا ولدي ما رأيك في أمر اسفارنا؟ وظننت أنني بهذا السؤال ربما اعدته إلى حديث امس. ولكنه لم يجب، وشعرت بأنامله ترتجف في يدي. فقلت في نفسي: إنه في حالة سيئة، فلا بد أن يكون قد وقع له حادث جديد. ووصلنا إلى الصخرة التي نقف عندها الآن، فجلست عليها، ورأيت في الجو اعداداً من طيارات الورق التي يلهو بها الاطفال وهي تحوم وتصطفق في الهواء وكانت تبلغ الثلاثين عدا. إنه فصل تطيير الطيارات، وقلت له: لقد حان الوقت لكي تطير طيارتك التي كنت تلهو بها في العام الماضي. سأصلحها لك فأين وضعتها؟ ولم يجب بكلمة، وأشاح ببصره واخذ يحدجني بنظرة جانبية، وعندها هبت نسمة حملت معها الغبار. وبغتة مال علي وطوق عنقي بذراعيه الصغيرتين وضمني إليه. إن الأطفال الصامتين المعتدّين بأنفسهم إذا حبسوا دموعهم طويلاً عند تألمهم، ثم ضعفوا، فإن دموعهم تنهمر انهماراً. لقد بلل وجهي بهذه الدموع السخينة، واخذ ينتحب ويختلج كمن به نوبة والتصق بي ونحن جالسان على الصخرة وصاح والعبرات تخنقه، أبي، أبي العزيز، ما ابلغ اهانته لك! وانتحبت أنا أيضاً. كنا متعانقين والدموع تهزنا كلينا فقلت له: ايلوشا، الحبيب. لم يرنا على تلك الحالة سوى الله، وأملي أن يضيفها إلى حسناتي. يجب أن تشكر اخاك يا الكسي فيودوروفيتش. كلا يا سيدي إنني لن اجلد إبني ترضية لك.

وعاد الضابط إلى لهجته السالفة التي تنم عن السخرية المشوبة بالحقد. وشعر اليوشا أن الرجل وثق به، وأنه لم يكن ليتحدث إلى رجل غيره بمثل هذه الصراحة، أو ليقص عليه قصة ما حدث، فقوي الأمل في نفس اليوشا الذي كان قلبه يرتجف ودموعه تكاد تنهمر. ثم قال: حبذا لو استطعت مصادقة ابنك، ولو تمكنت من تدبير ذلك.

فتمتم الضابط قائلاً: «بكل تأكيد يا سيدي».

ثم تابع اليوشا كلامه قائلاً: «اصغ الآن إلى شيء آخر. إنني احمل لك

رسالة. إن أخي هذا بعينه ديمتري قد الحق الاهانة بخطيبته أيضاً، وهي فتاة نبيلة القلب، ولعلك سمعت عنها. إن من حقي، بل من واجبي أن أذكر لك ما تشعر به من ألم، لأنها ما أن بلغها نبأ الاهانة التي تعرضت لها ومآأن سمعت بأمر شقائك،حتى اوفدتني إليك فوراً منذ قليل، لكي احمل إليك هذه المساعدة المادية منها، ومنها وحدها، لا من ديمتري الذي نبذها. وليست المساعدة مني باعتباري اخاه، ولا من أي إنسان آخر بل منها، ومنها وحدها! وهي تتوسل إليك أن تقبل مساعدتها.. إن رجلاً واحداً اهانكما كليكما. ولقد تذكرتك عندما الحق بها اهانة لا تقل عن اهانتك وتدانيها قسوة. وهي إذاً تقدمها إليك مساعدة من أخت إلى أخيها المنكود الحظ... لقد طلبت مني اقناعك بقبول هاتين المائتين من الروبلات منها، وأن تتقبلها كما لو كانت المساعدة من اختك، وقد علمت بحاجتك الماسة إلى المال. ولن يعرف أحد بذلك، ولن تلحقك من جراء هذا الأمر أية مهانة. هاك المائتي روبل واقسم على أنك يجب أن تأخذها، اللهم إلا إذا كان قد كتب بأن يبقى جميع الناس متعادين في هذه الأرض... إن في صدرك قلباً كريماً... وسوف تفهم... سوف تفهم ذلك حتماً. ومد اليوشا يده إليه بورقتي نقد بمقدار مائتي روبل جديدتين غير متداولتين بعد.

وكانا في تلك اللحظة يقفان عند الصخرة القائمة عند السياج. ولم يكن بجوارهما أحد. وخيل لأليوشا أن الورقتين النقديتين احدثتا في نفس الرئيس أثراً عظيماً. لقد ارتعش في بدء الأمر بدافع من الدهشة. إذ أن آخر ما يمكن أن يتوقعه أن ينتهي حديثهما إلى هذه النتيجة. ولم تهيء له أحلامه أن يتلقى المعونة من أي إنسان، سيما بهكذا مبلغ.

تناول الورقتين النقديتين، وظل دقيقة صامتاً لا يكاد يقوى على الكلام، وطغى على وجهه تعبير جديد. ثم اندفع يقول: «هذا لي؟ كل هذا المال، مائتا روبل! يا للسماوات! إنني لم أر مبلغاً بهذه الضخامة طيلة السنوات الاربع الماضية! ارحمنا يا رب! وتقول أنها اختي... هل هذا صحيح؟»

فصاح اليوشا قائلاً: اقسم لك أني ما أنبأتك بغير الحقيقة.

وأحمر وجه الرئيس ثم اندفع يقول: «اصدقني القول، ألا أكون نذلاً إذا

قبلت هذا المال؟ ألا ابدو نذلا في عينيك يا ألكسي فيودوروفيتش؟ كلا اصغ إلي يا الكسي فيودوروفيتش، اصغ. كان في كل لحظة يمسّ كتفي اليوشا متسرعاً بكلتا يديه، ثم تابع كلامه قائلاً: «إنك تحاول اقناعي باخذ هذا المال باعتباره من اخت لي، ولكن ألا تشعر في قلبك باحتقار لي إذا أنا اخذته؟».

- كلا، كلا، اقسم بمن بيده خلاص روحي أنني لا احتقرك! ولن يعرف أحد بهذا الأمر سوانا نحن الثلاثة، وسيدة أخرى، هي صديقتها الحميمة.

- لا تهمني هذه السيدة! اصغ إلي يا الكسي فيودوروفيتش، فأنا أكثر حاجة لإصغائك في مثل هذه اللحظة، لأنك لا تستطيع أن تدرك أي معنى في هاتين المائتين من الروبلات بالنسبة لي. ثم اخذ صوت الرجل المسكين يرتفع رويداً رويداً واصبحت كلماته متنافرة غير مترابطة وكأنه مأخوذ بحماسة طاغية. لم يعد يمسك بأفكاره، فاخذ يتكلم مندفعاً متعجلاً، كمن يخشى أن يفوته فرصة اتمام كلامه:

إنه فضلاً عن حصولي على هذا المال من «اخت» تحظى بتلك المنزلة الرفيعة من الاحترام والتبجيل، هل تعلم انني استطيع به أن أرعى شؤون زوجي، ونينا، ابنتي الحدباء التي تشبه الملائكة؟ لقد جاء إلى منزلي الدكتور هرتسنشتوبي، عطفاً منه وشهامة، وقضى ساعة كاملة وهو يفحصهما. ولما فرغ من فحصه قال: انني لا استطيع أن اتبين اسباب علتهما. ولكنه وصف لهما ماء معدنياً يوجد لدى الصيدلي في المدينة، مشيراً إلى أن هذا الماء المعدني لا بد وأن يفيدها، كما أوصى بأن تستحم في ماء اذيب فيه بعض الدواء. إن ثمن الماء المعدني ثلاثون فلساً، وربما اقتضى الأمر أن تشرب أربعين زجاجة، وهكذا اخذت الوصفة ووضعتها على الرف تحت الايقونات، وما زالت هناك. كذلك أوصى بحمامات لابنتي نينا في الصباح والمساء مذاب فيها بعض الدواء. ولكن أنى لنا أن نقوم بالمعالجة في منزلنا حيث لا يوجد خدم ولا تتوفر المساعدة ثم ليس لدينا حمام ولا ماء؟ إن نينا مصابة بالروماتيزم في جميع انحاء جسمها ولعلي لم اطلعك بعد على هذا الأمر. وعندما يأتي الليل تشعر بألم في جنبها الأيمن فتتعذب، وقد لا تصدق إذا قلت لك أن هذه الفتاة الملائكية تغالب الألم ولا تئن لئلا توقظنا. ونحن

نأكل ما يتيسر لنا من طعام وتأبى هي إلا أن تتناول الفضلات التي تأنف أن تلقيها للكلب، وأرى في عينيها معنى يجول وكأنها تقول: انني لا استحق هذا، فأنا آخذه منكم، إنني عبء عليكم. ونحن نعنى بها، وهي ترفض ذلك وتقول: إنني مقعدة لا فائدة منها لأحد ولا خير فيها. إنها عزاؤنا جميعاً بعذوبتها الملائكية أفلا تستحق شيئاً حقاً؟ لولاها، ولولا كلماتها الرقيقة لاصبحت حياتنا جحيماً! إنها ترقق حتى قلب فارفارا. لا تقس بحكمك على فارفارا أيضاً، فهي الأخرى ضحية مثلنا جميعاً. لقد جاءت إلينا في عطلة الصيف وجلبت معها ستة عشر روبلاً كسبتها في اعطاء دروس خاصة ووفرتها من مصروفها لكي تسافر بها إلى بطرسبورغ في شهر ايلول الذي نحن فيه. ولكننا اخذنا منها هذا المال وأنفقناه على شؤوننا، فهي لن تتمكن من العودة الآن بل هي في الحقيقة لا تستطيع العودة، لأنها يجب أن تقوم بخدمتنا كالأمة. إنها اشبه شيء بجواد ينوء بحمله ونحن جميعاً نمتطي صهوته. فهي تقوم بخدمتنا جميعاً. ترتق وتغسل وتكنس الغرفة وتحمل أمها إلى الفراش. وزوجتي متقلبة الاهواء معتوهة سرعان ما تبكي بلا سبب. والآن استطيع بهذا المال أن استخدم خداماً، إنك تفهم ذلك يا الكسي فيودوروفيتش، واستطيع أن اشتري العلاج لاعزائي، وأن ارسل ابنتي إلى بطرسبورغ لمتابعة دروسها، وأن أطعمهم طيب المآكل. ما اكرمك يا رب، ولكن ذلك حلم!»

وابتهج اليوشا لأنه أشاع في نفسه تلك السعادة، ولأن الرجل المسكين أبدى قبولاً لأن يكون سعيداً.

ثم عاد الرئيس إلى الكلام بسرعة واضطراب كمن يعيش حلماً من احلام اليقظة: «مهلاً يا الكسي فيودوروفيتش، مهلاً. هل تعلم بأنني وايلوشا ربما حققنا حلمنا؟ سنشتري جواداً وعربة، وسيكون لون الجواد اسود، فهو يصر على هذا اللون، وسننطلق كما صور لنا خيالنا أمس الأول. إن لي صديقاً قديماً وهو محام في إحدى المقاطعات وقد نمي إلي من رجل ثقة، أن صديقي هذا سيهيء لي عملاً كتابياً في مكتبة إذا ذهبت إليه، ومن يدري لعله يفعل ذلك. وهكذا فسأضع زوجتي ونينا في العربة وسيسوقها إيلوشا وسأسير، سأسير... ليتني أستطيع تحصيل ذلك الدين الوحيد لي من أحدهم هنا، فقد

يكون معي من المال ما يكفي لتحقيق هذه الرحلة.

فصاح اليوشا قائلاً: «سيكون لديك الكفاية! فإن كاترينا ايفانوفنا سترسل إليك أي مبلغ تحتاجه، وأنا أيضاً لدي نقود، فخذ منها حاجتك واعتبر أنك اخذتها من أخ، من صديق، إن بوسعك أن تردها إلي فيما بعد... (إنك ستصبح ثرياً، بالتأكيد ستكون ثرياً) واعلم أنه ليس من فكرة تفضل فكرة انتقالك إلى مقاطعة أخرى! إن هذا الانتقال فيه خلاصكم وخاصة خلاص ولدك، والأفضل أن تسرع قبل حلول فصل الشتاء، والزمهرير. يجب أن تكتب إلينا من هناك، وسنكون دوماً اخواناً... كلا إن ذلك ليس حلماً!»

وكاد اليوشا يعانقه، لفرط ما فيه من فرح، ولكنه جمد فجأة في مكانه حين وقع نظره عليه. فقد كان الرجل يقف وقد مد عنقه ومط شفتيه، وامتقع وجهه وبان عليه الذهول. وكانت شفتاه تتحركان كأنه يحاول أن يتكلم، ولكنهما لم تصدرا أي صوت، وبقيتا تتحركان. لقد كان ذلك منظراً غير طبيعي.

وسأله اليوشا مذعوراً: «ما خطبك؟»

فأجابه الرئيس متلعثماً مضطرباً، وهو يحدق فيه تحديقاً غريباً، ويظهر عزيمة يائسة، في حين بدت على شفتيه شبه ابتسامة مغتصبة: «الكسي فيودوروفيتش... إنني... أنت، أنا... يا سيدي... ثم قال بغتة وهو يهمس همساً سريعاً ثابتاً وصوته قد زايله ذلك الاضطراب: أتريد أن اريك حيلة من حيلي؟

ـ أية حيلة؟

فهمس الرئيس، وقد برزت عيناه وهو ما زال يحدق في اليوشا: «انها حيلة بديعة».

فعاد اليوشا إلى السؤال وهو يشعر برعب عظيم: «أية حيلة؟»

فصرخ الرئيس بغتة، ومد يده إليه بالورقتين النقديتين اللتين كان يمسكهما اثناء الحديث بين سبابته وابهامه، وقال: انظر ثم كورهما في يده بعنف وقوة، وقبض عليهما بشدة في باطن كفه اليمنى. وصاح وهو ممتقع الوجه هائجاً: «هل ترى، هل ترى؟» وبغتة بسط يده والقى بالورقتين على

الأرض، وعاد يصيح وهو يشير إليهما: «هل ترى؟ انظر هناك!»

وفي سورة هياجه اخذ يدوسهما بكعبه وهو يلهث ويصيح:

«هذه قيمة نقودك! هذه قيمة نقودك! هذه قيمة نقودك! هذه قيمة نقودك!»

وفجأة ارتد إلى الوراء ودنا من اليوشا منتصباً بكبرياء لا تقهر، ثم رفع ذراعه ملوحاً بها في الهواء وصاح قائلاً: «بلّغ اولئك الذين ارسلوك أن صاحب حزمة القش لا يبيع شرفه». ثم دار بسرعة وطفق يعدو. ولكنه ما كاد يبتعد مسافة خمس خطوات حتى التفت إلى الخلف واشار بقبلة لاليوشا. ثم عدا خمس خطوات اخرى والتفت إلى الخلف ثانية وفي هذه المرة غابت الضحكة عن وجهه واستبدلها بالدموع، وصاح بصوت متهدج تخنقه العبرات:

«وماذا عساي اقول لابني إذا قبلت النقود منك ثمناً لعارنا؟»

وعندئذ طفق يعدو دون أن يلتفت إلى الخلف. وكان اليوشا ينظر إليه والحزن العميق يملأ نفسه، ولم يكن يظن حتى اللحظة الأخيرة أن الرجل سيكور الورقتين النقديتين ويرميهما. ولم يلتفت الرجل إلى الخلف، وأدرك اليوشا أنه لن يلتفت. ولم يشأ اليوشا لا أن يعدو خلفه ولا أن يدعوه، فقد شعر أنه يجب ألا يفعل، ولما اختفى عن الانظار، تناول اليوشا الورقتين عن الأرض، وكانتا مشوهتين تشويهاً عظيماً وغائرتين بالتراب، ولكنهما بقيتا سليمتين غير ممزقتين، حتى أن اليوشا سمع حفيفهما في كفيه كأنهما جديدتان. وبعد أن أعاد بسطهما، طواهما ووضعهما في جيبه وانطلق إلى منزل كاترينا ايفانوفنا لكي يبلغها نتيجة مسعاه بما عهدت به إليه.

الباب الخامس



تأييد ومعارضة

الـخطبة

كان أول من استقبل اليوشا هذه المرة أيضاً، السيدة خولاكوف. وكانت بادية الاضطراب؛ لقد حدث أمر هام، فإن نوبات كاترينا ايفانوفنا الهستيرية انتهت بنوبة اغماء. واعقب ذلك وفق ما ذكرت السيدة خولاكوف «اعياء مرعب هائل، واضطجعت كاترينا ايفانوفنا مقلوبة العينين، وهي الآن تهذي من جراء الحمى. وقد ارسلوا في طلب الطبيب هرتسنشتوبي وخالتيها، وقد حضرت خالتاها أما هرتسنشتوبي فلم يحضر بعد. وهن جميعاً جالسات في غرفتها يترقبن. أما هي ففاقدة الوعي الآن، ترى، ما مصيرها لو كانت مصابة بحمى في الدماغ!»

وقد بدا أن السيدة خولاكوف مرعوبة جداً، وكانت لا تفتأ تردد عقب كل كلمة: إن هذا خطير، خطير!! كأنما لم تواجه من قبل شيئاً خطيراً. واصغى اليوشا مبتئساً، ثم شرع يروي ما حدث له، فسارعت إلى مقاطعته، قائلة له إنه ليس لديها وقت للاصغاء ورجته أن ينتظرها عند ليزا في غرفتها.

ثم قالت وهي تدني فمها من أذنه: «لقد ادهشتني ليزا دهشة عظيمة في هذه اللحظة يا عزيزي الكسي فيودوروفيتش، وقد حركت عواطفي أيضاً ولذلك فإني غفرت لها من قلبي كل شيء. يكفيك أن تتصور هذا، فإنها فور مغادرتك هذا المكان، اخذت تبدي الندم الصادق لأنها ضحكت منك في هذا اليوم وأمس، مع أنها كانت تقصد المزاح لا الضحك منك ومع ذلك فإنها اظهرت اسفها العميق على ذلك وهمت بالبكاء، حتى أنني لم إتمالك نفسي من الدهشة. إنها تضحك مني في كل دقيقة. غير أنها في هذه المرة كانت صادقة في ندمها. فهي تقدر رأيك تقديراً عظيماً يا الكسي فيودوروفيتش، فابذل أقصى جهدك لتمنع عن نفسك الشعور بالاهانة وبالجرح

في كبريائك من اعمالها إنني لا اقسو عليها ابداً لأنها فتاة عظيمة الذكاء، أتصدق؟ لقد ذكرت لي الآن أنك كنت صديق طفولتها، واعظم اصدقاء طفولتها. تصور هذا، اعظم الأصدقاء! وأنا ما هو شأني؟ إن لها مشاعر قوية وذكريات عزيزة وأكثر من هذا فإنها تستعمل تلك الجمل والكلمات التي لا تخطر بالبال، والتي تطلقها فجأة ولا يتوقع الإنسان سماعها. إنها مثلاً تحدثت مؤخراً عن شجرة صنوبر، لقد كانت هنالك شجرة صنوبر في حديقتنا أيام طفولتها المبكرة. واغلب الظن أنها ما زالت قائمة هناك؛ ولذلك فلا حاجة للتحدث عنها بصيغة الماضي. إن اشجار الصنوبر ليست كالبشر يا الكسي فيودوروفيتش فهي لا تتبدل بسرعة. وقد قالت لي: اماه، إنني اذكر شجرة الصنوبر هذه كما في الحلم. كانت كلماتها صادقة وحارة، فأنا لا استطيع أن اعيدها، وفوق هذا فقد نسيت حديثها جملة. وداعاً! إنني عظيمة الاضطراب حتى انني لأشعر بانني سأودع عقلي. أواه! يا الكسي فيودوروفيتش لقد فقدت فطنتي ونباهتي مرتين في حياتي. امض إلى ليزا وأدخل السرور على نفسها كما اعتدت أن تفعل بما تملكه من اسلوب ساحر. ثم صاحت وهي تتجه نحو باب ابنتها: «ليزا، ها قد أتيت لك بألكسي فيودوروفيتش الذي اهنته كل تلك الاهانة اؤكد لك أنه ليس غاضباً عليك البتة، بل على نقيض ذلك فإنه مندهش لأنك تحسبين أنك اهنته».

ـ شكراً يا اماه، ادخل يا الكسي فيودوروفتش.

دخل اليوشا، وبدا على ليزا الإحراج ثم تضرجت وجنتاها بحمرة قرمزية، كانت كأنها تشعر بالخجل من شيء ما، ولذلك فقد تصرفت تصرف سائر الناس في مثل هذه الحالات، وطفقت لتوها تتحدث عن اشياء اخرى، كأن هذه الاشياء تحظى بكل اهتمامها في تلك اللحظة.

ـ لقد قصت علي امي الآن حديث المائتي روبل يا الكسي فيودوروفيتش، وكيف حملتها إلى ذلك الضابط المسكين... واخبرتني قصة اهانته بحذافيرها... ومع أن امي تخلط في حديثها... وتستطرد فيه كثيراً.. فإنني بكيت عندما سمعتها انبئني هل اعطيته النقود وما هو حال ذلك الرجل المسكين؟

فأجاب اليوشا قائلاً: «الحقيقة أنني لم أعطه المال وقصة ذلك طويلة» لقد بدا هو الآخر أنه لا يستطيع التفكير إلا في اسفه لاخفاقه في مهمته، وقد ادركت ليزا ادراكاً اكيداً أنه هو أيضاً كان يحول نظره عنها، وأنه هو أيضاً كان يحاول الحديث عن أشياء أخرى غير التي تجول في ذهنه.

ثم جلس اليوشا إلى المنضدة وطفق يروي قصته. وما كاد ينطق بكلماته الأولى، حتى نسي حرجه واستحوذ على اهتمام ليزا أيضاً. كان كلامه ينضح بشعور عميق، مرده الاحساس الذي ولده فيه ما مر به لتوه، ونجح في رواية قصته بكامل تفاصيلها. كان في تلك الأيام الخوالي، اثناء مقامه في موسكو، مغرماً بالمجيء إلى ليزا، ووصف الاحداث التي مرت به، وقراءاته وذكرياته عن أيام طفولته. وكانا في بعض الأحيان يذهلان عما حولهما في احلام اليقظة ويصوغان أوهاماً روائية كاملة. وكانت اوهامهما على وجه العموم مرحة مسلية. وقد شعرا معاً في هذه اللحظة أنهما نقلا إلى أيامهما الخوالي في موسكو قبل عامين مضيا. ولقد تأثرت ليزا تأثراً عظيماً بقصته. ووصف اليوشا لها ايلوشا بشعور فياض. واختتم قصته بذكر الرجل التعيس الذي داس النقود بقدميه، فلم تتمالك ليزا نفسها من أن تضم يديها وتصيح قائلة: إذاً فأنت لم تعطه النقود! لقد تركته يفلت منك! اواه يا عزيزي لقد كان ينبغي عليك أن تلحق به.

فنهض اليوشا عن مقعده واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو ساهم مفكر، وقال: «كلا يا ليزا، لقد كان من الأفضل ألا الحق به».

- وكيف ذلك؟ كيف يكون ذلك افضل؟ إنهم الآن بدون طعام، ولا أمل لهم بشيء.

- إن الأمل لم ينقطع، فإن المائتي روبل ستصلهم غداً وهو سيأخذها لا شك في أنه سيأخذها غداً ومضى اليوشا يذرع الغرفة وهو يفكر. ثم وقف امامها فجأة وتابع كلامه قائلاً: «لقد ارتكبت هفوة واحدة، ولكن حتى هذه سينجم عنها الخير».

- أية هفوة، وكيف ينجم عنها الخير؟

- هاك نبأ ذلك. إنه رجل ضعيف رعديد، ولقد قاسى الكثير لكنه طيب

السريرة. إنني لا افتأ استغرب لماذا شعر بالإهانة بغتة، واؤكد لك أنه لم يكن قرر حتى اللحظة الأخيرة بأن يطأ النقود بقدميه. وإنني اظن الآن أن شعوره بالاهانة سببه اشياء كثيرة... ولم يكن ممكناً أن يكون الأمر على غير هذه الصورة بالنسبة لحاله... فقبل كل شيء آلمه أن ينكشف أمامي ابتهاجه العظيم بالنقود وألا يخفي سروره عني. إنه لو شعر بسرور أقل، أو أنه اخفاه عني، ولو أنه اكتفى بالتحدث عن مصاعبه كما يفعل الناس عندما يأخذون نقوداً، لكان في مقدوره أن يحتمل عناء اخذها، غير أنه شعر ببهجة طاغية، وكان ذلك امراً قتالاً. اواه يا ليزا إنه رجل طيب القلب صادق، وهذا هو اسوأ ما في الأمر. لقد كان صوته متقطعاً طوال حديثه وكانت كلماته تتدافع مسرعة من بين شفتيه، وكان يضحك ضحكة غريبة، أو لعله كان يبكي، نعم إنني متأكد من أنه كان يبكي، إن اغتباطه كان عظيماً. لقد حدثني عن ابنتيه، وعما يمكن أن يحققه في مدينة ثانية... وعندما كشف لي عن مكنونات قلبه، شعر بالخجل لأنه اظهر لي اسرار روحه بمثل تلك الصراحة. وهذا ما دفعه للشعور نحوي لتوه بالكراهية. إنه من أولئك الناس المساكين المرهفي الحس. والشيء الذي اخجله أكثر مما عداه هو أنه استسلم سريعاً وقبلني صديقاً له. فبعد أن كاد يهجم علي منذ اللحظة الأولى في محاولة لإخافتي، فإنه ما أن ابصر النقود حتى طفق يعانقني، وظل يتحسسني بيديه، ولا بد أن يكون هذا هو السبب في شعوره بالضعة، وأنا بدوري قد ارتكبت غلطة كبيرة وكانت زلة عظيمة. فقد فاجأته بقولي: إذا لم تكن تملك من النقود ما يمكنك من الانتقال إلى مدينة أخرى فإننا سنعطيك هذه النقود. وفي الحقيقة كنت مستعداً أن اعطيه من مالي الخاص ما يشاؤه. وقد وقع عليه هذا القول فجأة وقوع الصاعقة. فقد اخذ يتساءل في سره قائلاً لماذا تطوعت لمساعدته؟ إن من الإرهاق العظيم يا ليزا على الرجل المهان أن ينظر إليه الناس باعتبارهم محسنين إليه... لقد سمعت ذلك؛ وقد انبأني به الأب زوسيما. إن التعبير عن ذلك صعب للغاية، ولكنني عاينته، بل إنني شخصياً اشعر بهذا الأمر أيضاً. والأدهى من ذلك أنه بالرغم من جهله حتى اللحظة الاخيرة بأنه سيطأ النقود بقدميه، إلا أن شعورا داخلياً لديه، هو الذي اوحى إليه سلفاً بما سيحدث. إنني على يقين من

ذلك، وهذا الشعور هو الذي جعله يشعر بالنشوة... ومع أن الأمر هائل مخيف، إلا أنه سيؤدي إلى اطيب النتائج. والحق أنني اعتقد بأن ما حصل هو أفضل من أي احتمال آخر.

وهنا صاحت ليزا وهي تنظر بدهشة عظيمة إلى اليوشا: لماذا، لماذا، هو أفضل من أي احتمال آخر.

ـ لأنه لو قبل النقود، فإنه بعد انقضاء ساعة واحدة على عودته إلى منزله، سيتراءى له الشعور بالذل، وسيبكي من اعماقه، ذلك هو عين ما كان سيحدث له. واغلب الظن أنه كان لا بد آت إلي في صبيحة الغد، وربما القى بالنقود في وجهي وداسها بقدميه كما فعل الآن. أما الآن فإنه عاد إلى بيته شامخ الأنف منتصراً مع ادراكه تضييع ثروة من بين يديه. وهكذا فلن يكون هنالك شيء أسهل من اقناعه بقبول المائتي روبل إذا جاء الغد، لأنه حقق الانتقام لشرفه بطرحه النقود أرضاً ودوسها بقدميه... ولم يكن ليعرف عندما فعل فعلته، أنني سأحضر النقود إليه مرة ثانية في الغد، وحاجته إليها ما زالت ماسة. ومع أنه الآن فخور بنفسه، إلا أنه سيكون حتى في هذا اليوم مشغولاً بالتفكير في تلك المعونة التي اضاعها. وسيكون معظم تفكيره في هذا الأمر عندما يجن الليل، وسيراوده في احلامه، وسينتظر صباح الغد حتى يطير إلي ويسألني الصفح. وفي تلك اللحظة بالذات سأظهر أمامه وسأقول له: إليك أيها الرجل المعتد. لقد اثبت اعتدادك. ولكن الآن هاك النقود واصفح عنا! وسيأخذها.

وشعر اليوشا بالبهجة تأخذه عندما فاه بهذ الكلمة: وسيأخذها. قالت ليزا وهي تضم يديها: اواه إن هذا صحيح! إنني افهم ذلك تماماً الآن. اليوشا، كيف ادركت كل هذا؟ يا لك من فتى صغير السن ولكنك تعلم مكنونات القلب... أما أنا فما كنت لأدرك شيئاً من هذا ابداً.

ومضى اليوشا قائلاً وهو لا يزال في فورة حماسته: «إن الأمر الهام الآن هو أن نشعره أنه كفء لنا رغم اخذه المال منا، وليس هذا فحسب بل ارفع منا منزلة».

- إن ارتفاعه في المنزلة شيء ساحر يا الكسي فيودوروفيتش، زدني من كلامك.

- إنك تعنين أنه لا وجود لمثل هذا التعبير «ارفع منزلة» ولكن لا بأس لأن...

- اواه كلا، طبعاً لا بأس في ذلك. صفحك يا عزيزي اليوشا.. انني قلما شعرت لك بالاحترام حتى الآن، اقصد انني كنت احترمك باعتبارك كفءاً أما الآن فسأحترمك باعتبارك أعلى مني منزلة. لا تغضب يا عزيزي من مزاحي..» وتابعت تقول بحنان وفير: «إنني سخيفة تافهة، أما أنت، أنت! اصغ إلي يا الكسي فيودوروفيتش، أليس في كل تحليلنا هذا، اعني تحليلك...
- كلا الأفضل أن ادعوه تحليلنا - السنا نبدي له الازدراء، لذلك الرجل المسكين، إذ نحلل باطنه على هذا النحو الفوقي ونقرر بأنه سيأخذ النقود لا محالة؟

فاجاب اليوشا وكأنه كان مستعداً لهذا السؤال: «كلا يا ليزا إنه ليس ازدراء. ذلك ما كنت افكر فيه وأنا في طريقي إلى هنا. كيف يكون ذلك ازدراءاً ونحن جميعاً نحبه، ونحن جميعاً مثله، يجب أن تعلمي أننا مثله ولسنا خيراً منه، ولو كنا مكانه، لن نبقى خيراً منه إنني لا أعلم طبيعة نفسك يا ليزا، ولكنني أرى في جسمي روحاً وضيعة في عدة نواح، وليست روحه وضيعة؛ بل إنها بالعكس، مفعمة بالشعور الرفيع... كلا يا ليزا إنني لا احتقره. واعلمي يا ليزا أن ناسكي قد طلب مني ذات مرة أن اعنى بمعظم الناس، كما يعنى بالاطفال وأن اعنى بيعضهم كما يعنى بالمريض في المستشفى».

- اواه يا الكسي فيودوروفيتش، أيها العزيز، دعنا نعنى بالناس كأنهم مرضى!

- دعينا يا ليزا نفعل هذا؛ فإنني على استعداد له. مع أن استعدادي له ليس تاماً في روحي. إذ انني في بعض الأحيان ضيق الصدر عظيم التبرم، وفي احيان أخرى لا ادرك حقيقة الأمور. أما أنت فلست كذلك.

- اواه، إنني لا اصدق ذلك! ما اسعدني يا الكسي فيودوروفيتش.

- إنني مسرور لقولك هذا يا ليزا.

فقالت ليزا وهي تهمس متسرعة مضطربة: الكسي فيودوروفيتش إنك طيب إلى حد بعيد، وأنت في بعض الاحيان تبدو متكلفاً... ولكنك في الحقيقة لست متكلفاً. اذهب إلى الباب، وافتحه بهدوء، وانظر هل تسترق أمي علينا السمع.

انصاع اليوشا لأمرها وفتح الباب وقال لها: إنه ما من أحد يسترق علينا السمع.

فعادت ليزا إلى القول بخجل بدا من احمرار وجهها: «ادن مني يا الكسي فيودوروفيتش، هات يدك، نعم هكذا. يجب علي أن اعترف لك بسر هام. إنني لم اكن مازحة في كتابتي إليك بالأمس، بل كنت صادقة فيها وحجبت عينيها براحة يدها. وظهر عليها الخجل العظيم لهذا الاعتراف.

وفجأة جذبت يده وقبلتها ثلاثاً بانفعال.

فهتف اليوشا مبتهجاً: أي ليزا ما اطيب هذا، لقد كنت متيقناً من صدقك.

ـ حقاً؟ لامراء في صدقي! ثم أرخت يده ولكنها لم تتركها وتضرج وجهها بالحمرة وتابعت قائلة وهي تضحك ضحكة سعيدة مقتضبة: إنني اقبل يده فيقول: ما اطيب هذا.

كان كلامها تأنيباً غير مبرر، فإن اليوشا هو أيضاً كان مضطرباً اعظم الاضطراب.

واجاب متلعثماً وهو يحمر خجلاً: «يطيب لي دوماً أن ارضيك وافرحك يا ليزا ولكنني لست اعرف السبيل لذلك».

ـ يا عزيزي اليوشا إنك فاتر الشعور، فظ. أترى؟ لقد اختارني زوجاً له وهدأت نفسه. وهو واثق من انني كنت صادقة. يا له من قول ليس في محله. إنها الحقيقة، ليس في محله.

وفجأة سألها اليوشا ضاحكاً: «هل كنت مخطئاً في ثقتي بصدقك؟»

فاجابته ليزا، وهي تنظر إليه نظرة كلها رقة وسعادة: بالعكس يا عزيزي اليوشا، فإن ما تظنه هو الحقيقة المبهجة.

وكان اليوشا ما يزال ممسكاً يدها بيده، وفجأة انحنى عليها وقبل شفتيها.

فصاحت ليزا قائلة: «اواه، ماذا فعلت؟» فقال اليوشا وقد بلغ منه الاضطراب مبلغاً: اواه، اصفحي عني إذا كنت قد أخطأت... ربما كنت عظيم الحماقة... لقد قلت لي إنني فاتر الشعور، فقبلتك... ولكنني أرى الآن أنني قد ارتكبت حماقة.

فأغرقت ليزا في الضحك وأخفت وجهها بيديها، وقالت في ذروة مرحها: «وفي هذا الثوب!» ثم كفت عن الضحك بغتة وغلب الجد على ملامحها إلى حد التجهم، ثم قالت: «يجب أن نؤجل التقبيل يا اليوشا، فنحن لم نستعد له بعد وعلينا أن ننتظر أمداً طويلاً، والآن انبئني لماذا اخترت لنفسك، وأنت الفطن المثقف الذكي، فتاة مثلي، صغيرة بلهاء ومقعدة؟ أواه يا اليوشا إن السعادة تغمر قلبي إلا انني لا أليق بك ابداً».

- بل إنك تليقين بي يا ليزا، انني بعد بضعة أيام سأغادر الدير نهائياً، وإذا عشت في الدنيا، أضحى لزاماً علي أن اتزوج أنا اعرف ذلك. لقد طلب مني الناسك أن اتزوج أيضاً، ومن اتزوج خيراً منك، ومن غيرك يريدني الآن؟ لقد اشبعت هذا الأمر تقليباً. فأنت، بتقييم أولي، عرفتني منذ أن كنت طفلاً وفيك خصال كثيرة لا اتمتع أنا بها. فأنت أكثر مني مرحاً، وفوق كل شيء إنك اطيب مني سريرة. لقد عرفت أموراً كثيرة في حياتي... أواه إنك لا تعلمين، إنني أيضاً من سلالة كرامازوف وماذا يضيرني لو ضحكت ومزحت حتى مني أنا أيضاً؟ إضحكي كما يحلو لك، فإنني عظيم السرور بذلك إنك تضحكين كما يضحك الطفل الصغير ولكنك تفكرين كما لو كنت شهيدة.

- شهيدة؟ وكيف ذلك؟

- نعم يا ليزا، إن سؤالك قبل قليل عما إذا كانت نفوسنا خلواً من أي احتقار لذلك الرجل المسكين ونحن نحلل باطنه. لقد كان ذلك سؤال الإنسان الشهيد... إنني لا أدري كيف اعبر عن ذلك، غير أن كل من يفكر بمثل هذه الأمور لا بد وأن يكون معذباً. لامراء في أنك قد فكرت باشياء كثيرة وأنت تجلسين مقعدة في محفتك.

فتمتمت ليزا بصوت خافت ضعيف لفرط سعادتها: اليوشا، ناولني يدك، لماذا تبعدها؟ اصغ إلي اليوشا. ماذا يكون لباسك عندما تغادر الدير؟ وأية بزة سترتدي؟ لا تضحك مني ولا تغضب علي، إني أعلق اهمية بالغة على هذا السؤال.

-إنني لم أفكر في ثوبي يا ليزا؛ ولكنني سأرتدي الزي الذي يرضيك.

-إنني أريد أن تلبس معطفاً من المخمل الازرق الداكن، وصداراً أبيض، وقبعة رمادية من اللباد الناعم... انبئني، لقد صدقت بأنني لا احبك عندما قلت لك أن ما كتبته لم أكن اعنيه، أليس كذلك؟

- كلا، إنني لم اصدق ذلك.

-يا لك من إنسان فريد، إنك إنسان معصوم.

-لقد ادركت أنك تحبينني، ولكنني تظاهرت بأني صدقت ادعاءك بأنك لا تأبهين لي، فقط لأهون الأمر عليك.

-إن ذلك يزيد الأمر سوءاً! ويجعله اسوأ وافضل من كل شيء! اليوشا إنني متيمة بك. وقبل أن تأتي إلينا في هذا الصباح، جربت حظي. وقد قررت أن اطلب منك الرسالة، فإذا ما سلمتني إياها (وهذا هو ما كان يتوقع منك) كنت لا تحبني مطلقاً، وفاقد الشعور نحوي، فلا تعدو كونك فتى مغفلا لا تصلح لاي شيء واكون قد جلبت الخراب على نفسي. ولكنك تركت الرسالة في الدير، وهو أمر غمرني بالسعادة. لقد خلفت الرسالة متعمداً، لكي لا تردها إلي، فقد ادركت بأنني سأسألك أن تعيدها إلي. ذلك ما حصل، أليس كذلك؟

- كلا يا ليزا، ما تقولينه غير صحيح. فالرسالة معي الآن وقد كانت صباح اليوم في جيبي هذا، وها هي ذي. ثم أخرج اليوشا الرسالة من جيبه ضاحكاً واراها إليها من بعد وقال:

غير أنني لن اعطيك إياها، انظري إليها من مكانك.

-إذاً كذبت؟ أراهب يكذب!

وضحك اليوشا وقال: «لقد كذبت باعتبار أن ذلك القول يحلو لك»، واندفع يضيف وقد احمر وجهه وفاضت مشاعره: «لقد كذبت لكيلا اعيد

إليك الرسالة فإنها غالية علي. وستظل كذلك وسأحتفظ بها.

ونظرت إليه ليزا مبتهجة وقالت بهمس: «اليوشا، انظر خلف الباب، هل تسترق أمي علينا السمع؟»

ـ حسناً يا ليزا، سأنظر؛ ولكن أليس من الأفضل ألا انظر؟ لم تظنين بأمك هكذا؟ لماذا ترمينها بوضاعة كهذه؟

فصاحت ليزا محتدة: «واية وضاعة؟ إن من حقها استراق السمع على ابنتها وليس في الأمر وضاعة! ألا فاعلم يا الكسي فيودوروفيتش بأنني إذا صرت أماً، وولدت ابنة مثلي سأتجسس عليها بالتأكيد».

ـ احقاً يا ليزا؟ إن ذلك ليس صواباً.

ـ ويحي! ما هو وجه الوضاعة في ذلك؟ إن استراق السمع على حديث عادي وضاعة، أما إذا كانت الابنة مختلية بشاب، فالأمر مختلف! الا فاصغ إلي يا اليوشا، واعلم بأنني سأتجسس عليك حالما نتزوج، وأعلم أنني سأفض جميع رسائلك وسأقرأها فاستعد لذلك.

فتمتم اليوشا قائلاً: نعم، بالطبع، إذا... ولكن ذلك ليس صواباً.

ـ اواه يا للزراية! يا عزيزي اليوشا انتخاصم في يومنا الأول. إنه من الخير أن اطلعك على الحقيقة كلها. أنا أعلم طبعاً أن التجسس على الناس خطأ عظيم، ولامراء في أنك مصيب وأنا مخطئة، ولكنني مع ذلك سأتجسس عليك.

فضحك اليوشا وقال: إذن فافعلي ما يحلو لك، ولكنك لن تجدي شيئاً.

ـ وهل ستطيعني يا اليوشا؟ يجب أن نقرر هذا منذ الآن.

ـ إنني سأبتهج بذلك يا ليزا، ولا شك في أنني سأطيعك، ولكن فقط في الأمور غير الأساسية. أما إذا اختلفت آراؤنا في امور أخرى أكثر أهمية فسأقوم حتماً بواجبي.

فهتفت ليزا باندفاع: «إن هذا عين الصواب؛ ولكن دعني أقل لك بأنني على استعداد لإطاعتك ليس في أكثر الأمور أهمية فحسب، بل فيها جميعاً،

في كل شيء، وإنني مستعدة لأن اقسم على ذلك تواً في كل شيء وطول حياتي، وسأقوم بذلك مسرورة، مسرورة! وأكثر من هذا فلأنني اعتقد أنك مصيب وأنا مخطئة، سأقسم لك بأنني لن اتجسس عليك مرة واحدة ولن اقرأ قط رسائلك، لأنك محق وأنا مخطئة وبرغم رغبتي الفائقة بأن اتجسس عليك، فإنني سأقاوم هذه الرغبة لأنك تراه امراً غير مشرف إنك الآن القيم على وجداني... اصغ إلي يا الكسي فيودوروفيتش، لماذا بلغ حزنك هذا الحد في الآونة الأخيرة، بالأمس واليوم؟ إنني أعلم أنك فريسة القلق والاضطراب، ولكنني أرى فيك حسرة على شيء معين ربما كنت تؤثر التستر عليه؟

فاجاب اليوشا وقد بدت في نبرة صوته الحسرة: نعم يا ليزا، إن هناك أمراً يقتضي كتمانه ملاحظتك هذه جعلتني ادرك مدى حبك لي.

فتساءلت ليزا متوسلة: أي حزن؟ وما مرده؟ هل لك أن تنبئني؟

فقال اليوشا مضطرباً: سأنبئك بالأمر فيما بعد، أما الآن فإنك لن تفهمي، وأنا لن استطيع شرحه كما يجب.

ـ إنني أعلم أن اخويك ينغصان عليك حياتك أيضاً، فضلاً عن أبيك.

فتمتم اليوشا ساهماً: «نعم، واخواي أيضاً».

وبغتة قالت ليزا: «إنني لا أميل إلى اخيك ايفان يا اليوشا».

لقد دهش اليوشا لهذه الملاحظة ولكنه لم يحر جواباً ثم قال: إن اخوي يحطمان نفسيهما، وأبي أيضاً، وهم جميعاً يحطمون غيرهم بجريرتهم. إنها سلالة كرامازوف بقوتها الغريزية، كذلك وصفها الأب بيسي ذات يوم، وهي قوة عاتية جارفة دنيوية، فهل تحوم روح الله فوق تلك القوة؟ إنني عاجز عن الإجابة حتى عن هذا السؤال وكل ما اعرفه هو أنني أنا أيضاً من سلالة كرامازوف... وأنا الراهب، الراهب! هل أنا راهب حقاً يا ليزا؟ لقد قلت لتوك أنني راهب.

ـ نعم، قلت ذلك.

ـ وربما كنت غير مؤمن حتى بالله.

فقالت ليزا بهدوء وحنان: «أنت لا تؤمن؟ ماذا دهاك؟» ولكن اليوشا لم

يجب، فلقد كان هنالك شيء خفي، شيء تنضح به كلماته الأخيرة، وربما كان غامضاً عليه ولكنه كان سبب عذاب له. وتابع يقول:

وفوق كل هذا، فإن صديقي وخير الناس في هذا العالم سيفارق دنيانا! ليتك تعلمين يا ليزا أي رباط يربط روحي به! سأكون وحيداً بعد موته.. سآتي إليك يا ليزا... لاننا لن نفترق في أيامنا القادمة.

ـ نعم سنبقى معاً! ومنذ الآن سنظل معاً دائماً طول حياتنا! اصغ إلي، قبلني، إنني اسمح لك الآن.

وقبلها اليوشا.

ـ والآن امض، رافقك السيد المسيح! ثم رسمت فوقه شارة الصليب، وأضافت تقول: «اسرع، عد إليه وهو في قيد الحياة. لقد ادركت انني اضعت لك وقتك في احتجازي إياك. سأصلي اليوم لاجلك ولاجله. اليوشا سنكون سعيدين! سنسعد، سنسعد أليس كذلك؟

ـ اعتقد باننا سنسعد يا ليزا.

وفضّل اليوشا أن لا يذهب إلى السيدة خولاكوف وبادر إلى الخروج من المنزل دون أن يودعها. ولكنه ما كاد يفتح الباب حتى رأى السيدة خولاكوف تقف أمامه. وادرك اليوشا من كلمتها الأولى إليه أنها كانت في انتظاره. إذ أنها سارعت إلى القول: «الكسي فيودوروفيتش إن هذا مخيف، إنه لغو فارغ، عمل صبياني. إنه مضحك. لقد كنت موقنة بأنك لن تحلم... إنها حماقة ولا شيء غير ذلك».

فاجابها اليوشا قائلاً: «حذار أن تسمعك لأنها ستغضب، وهذا يؤذيها الآن».

ـ يا لها نصيحة رزينة من شاب رزين. هل لي أن أفهم أن تأثرك دفعك إلى الموافقة بسبب عجزها، وإنك لم تشأ أن تستثيرها بدافع من التناقض؟ فقال اليوشا حازماً: كلا، البتة. كنت جاداً تمام الجد فيما قلته لها.

ـ أما إنك جاد، فهذا مستحيل ولا يمكن أن يخطر بالبال. وفضلاً عن ذلك، فلن استقبلك في منزلي بعد الآن، وسأقصيها عن هذا المكان. كن واثقاً أنني سأفعل ذلك.

فقال اليوشا: ولكن لم هذا؟ إن الأمر بعيد، وقد يكون علينا الانتظار عاماً ونصف العام على الأقل.

- اواه يا الكسي فيودوروفيتش إن هذا صحيح بطبيعة الحال، إن فترة عام ونصف ستكون كافية لأن تتخاصما وتتباعدا ألف مرة. يا لي من تعسة! إن الأمر ضربة عظيمة لي، عدا عن كونه لغو فارغ. ما أشبهني الآن بفاموزوف في المشهد الاخير من رواية «الكثير من الذكاء ضرر». انك تشاتسكي وهي صوفيا. انظر إلى المفارقة، كيف هبطت لملاقاتك على السلم، وفي هذه الرواية إنما تقع المأساة على السلم. لقد سمعت كل شيء فكدت افقد وعيي واسقط على الأرض. إذاً فهذا سر عذابها ونوباتها الهستيرية التي اصابتها في الآونة الأخيرة! نتيجة ذلك إن الابنة تحب والأم تموت. وقد اموت فعلاً عما قليل. وهنالك ما هو اخطر من هذا. ما هي تلك الرسالة التي بعثت بها إليك؟ اهي كتبت رسالة إليك؟ أرنيها حالاً، وأنا مصرة.

- كلا لا حاجة بك لها. اخبريني كيف حال كاترينا ايفانوفنا الآن؟ يهمني أن اعرف.

- إنها ما زالت تهذي، ولم تسترد وعيها بعد. وقد حضرت خالتاها؛ وهما لا تفعلان شيئاً سوى التنهد والتشدق بالكلام. ولقد حضر هرتسنشتوبي، فأصابه جزع كبير، فأربكتني حالته وكدت أن استدعي له طبيباً يعالجه. وقد أعيده إلى منزله بعربتي. لم تنته متاعبي عند هذا، فقد تممتها تلك الرسالة. حقاً إنه لا يمكن أن يجري أي شيء، قبل عام ونصف العام. بحق كل المقدسات باسم ناسكك الذي يطل على الآخرة أرني تلك الرسالة يا الكسي فيودوروفيتش. إنني امها، وإذا شئت سأقرأها وأنت ممسك بها بيدك.

- كلا، إنني لن أريك إياها حتى ولو وافقت هي على ذلك، لا فائدة من إصرارك. سأعود في الغد، وسنطرق ابواباً من الحديث إذا شئت، أما الآن فاستودعك الله!

وهبط اليوشا درجات السلم وأكمل باتجاه الشارع.

سميردياكوف وقيثارته

كان الوقت أمام اليوشا لا يحتمل اضاعة دقيقة واحدة، وحتى حينما كان يودع ليزا، كان فكره ضاغطاً عليه ليحاول وضع خطة للعثور على أخيه ديمتري، بعد أن وضح له أنه يتجنب سبيله. وتقدم النهار وشارفت الساعة الثالثة. وبرغم أن روحه كانت متوجهة كلها إلى الدير، إلى قديسه المحتضر، فإن حاجة اليوشا إلى رؤية ديمتري بقيت طاغية فيه على كل شيء. وقد تعاظم في نفسه الاعتقاد ساعة بعد ساعة بأن خطباً جللاً لا مرد له يوشك أن يقع. ولكنه لم يكن باستطاعته تحديد ماهية ذلك الخطب ولا الكلمات التي سيقولها لأخيه في تلك اللحظة، وقال في نفسه: «أنه حتى ولو مات ذلك المحسن إلي دون أن يراني، فإنني لن اصاب بعقدة الذنب طيلة حياتي بأنني ربما كنت قادراً على انقاذ بعض الشيء ولكنني لم افعل ذلك، بل مررت مرور الكرام وانطلقت إلى البيت. إن اتباعي لنهجه العظيم هو في تنفيذ أفكاري».

وكانت خطته تقوم على مباغتة أخيه ديمتري على حين غفلة من أمره، بأن يتسلق الجدار كما تسلقه بالأمس ويدخل الحديقة ويقبع في المنزل الصيفي. وقد عزم اليوشا في حال لم يجد ديمتري هناك، على ألا يبوح بمقدمه لفوما أو للنسوة في المنزل، بل يظل مختبئاً في المنزل الصيفي حتى المساء لو اضطره الأمر. أما إذا كان ديمتري كسالف عهده مضطجعاً ينتظر غروشينكا، فالمرجح أنه سيأتي إلى المنزل الصيفي. وعلى كل حال فإن تفاصيل خطته لم تكن تهمه كثيراً، بل إنه عقد العزم على تنفيذها حتى ولو أدى ذلك إلى تخلفه عن الدير في ذلك اليوم.

جرت الأمور كلها كما تصور، ولم تصادفها، أية عقبة. وتسلق الجدار من ذات الموقع الذي تسلق منه بالأمس، ثم مضى متستراً إلى المنزل الصيفي

دون أن يراه أحد. لقد تعمّد ألا يشعر به أحد، فإن نسوة المنزل وفوما أيضاً في حال وجوده في المنزل، قد يكونون مخلصين لأخيه منفذين لأوامره، فلا يسمحون لاليوشا بدخول الحديقة، أو ربما حذروا ديمتري من أن أحداً يسعى إليه.

لم يكن من أحد في المنزل الصيفي. فجلس اليوشا منتظراً. واجال بصره في المنزل، فبدا له أنه أقدم بكثير مما كان قبل الآن. ومع أن النهار كان في مثل جمال الأمس، إلا أن المكان بدا له الآن صغيراً حقيراً. ولمح على المائدة دائرة هي بلا شك أثر قاع زجاجة براندي شربت بالأمس. وطافت في عقل اليوشا أفكار تافهة متضاربة، كما يحدث عادة لمن ينتظر بملل وضجر. فقد استغرب، مثلاً أنه جلس في نفس المكان الذي جلس فيه من قبل لا في مقعد آخر. واخيراً شعر بالكآبة من جراء الترقب والشك. ثم بعد مرور ربع ساعة تقريباً، تناهى إلى سمعه فجأة صوت قيثارة تعزف في مكان قريب منه. وأدرك اليوشا أن بعض الناس كانوا جلوساً أو أنهم جلسوا لتوهم بين الشجيرات على بعد لا يتجاوز العشرين خطوة. وتذكر اليوشا بغتة أنه لدى خروجه من المنزل الصيفي أمس لمح مقعداً منخفضاً قديماً أخضر اللون، يستعمل عادة في الحدائق، بين الشجيرات النامية إلى اليسار عند الجدار، ولا بد أن أحداً أو أناساً جلس أو يجلسون عليه الآن، فمن يا ترى يكون أو يكونون؟

وفجأة تعالى صوت رجل في اغنية عذبة على انغام القيثارة:

إنني مقيدٌ إلى حبيبي.

بقوة عظيمة لا تقهر

برحمتك يا رب ارحمنا

أنا وهي

أنا وهي

أنا وهي!

ثم انقطع الغناء، وكان اللحن مما تردده عادة طبقة الخدم. وفجأة ارتفع صوت آخر، صوت امرأة وهي تسأل مستدرجة بلهجة يمتزج فيها الخجل

بالدلال: «لماذا لم تأت لمشاهدتنا طيلة هذه المدة، يا بافيل فيودوروفيتش؟ ولماذا تنظر إلينا دائماً نظرة تعال وترفع؟

فأجاب الرجل متأدباً بوقار ظاهر: «لا، ابداً»، وكان جلياً أن الرجل كان في وضع ممتاز وأن المرأة كانت تتودد إليه. فقال اليوشا في سره: «اعتقد أن هذا هو صوت سمير دياكوف، وإن الفتاة لا شك أنها ابنة السيدة القاطنة في هذا المنزل، وهي الفتاة التي جاءت من موسكو، والتي تطلب الحساء من مارفا بثوبها ذي الذيل الطويل.

ومضت الفتاة تقول: إنني كلفة بالشعر على اختلاف الوانه إذا كان موزوناً، لماذا لا تواصل غناءك؟ وارتفع صوت الرجل منشداً:

لماذا أحفل بالكنوز الملكية

وحبيبتي متسربلة باثواب الصحة؟

برحمتك يا رب ارحمنا

أنا وهي

أنا وهي

أنا وهي!

وعادت الفتاة إلى الكلام قائلة: لقد غنيت من قبل بطريقة أفضل وأجود. لأنك عندما قلت: «وحبيبتي متسربلة باثواب الصحة»، كان صوتك أرق، لعلك قد نسيت الآن.

فأجاب سمير دياكوف باقتضاب: «إن الشعر شيء تافه».

- اواه، كلا! إنني مغرمة بالشعر

- طالما كان الكلام نظماً فهو شيء تافه، قدري بنفسك هذا الأمر، من يتكلم نظماً؟ ولو اجبرتنا الحكومة على التكلم شعراً، فلن نقول الشيء الكثير. أليس هذا صحيحاً؟ إن الشعر لا نفع فيه يا ماريا كوندراتييفنا.

فقالت المرأة وصوتها تزداد فيه لهجة الاستدراج: «ما أمهرك، كيف تسنى لك أن تنفذ إلى كل شيء؟»

- إن جدارتي تتعدى ما قلته. وهي تسمح لي أن اطلع على أكثر مما

عرفت لو تغيرت ظروف طفولتي. ولقد كان ينبغي علي أن ابارز وأقتل أي رجل يشتمني ويعيرني بأنني ابن متسولة قذرة ولا أب لي. إنهم كانوا في موسكو يصفعونني بهذه الإهانة، فقد بلغتهم حقيقة نسبي من غريغوري فاسيليفيتش. إن غريغوري فاسيليفتش يرميني بالانقضاض على محتدي، ولكنني لو خيرت لاخترت أن لا أولد فلا آتي إلى هذه الدنيا أبداً. ولقد اعتاد الناس، وامك منهم أيضاً، أن يلوكوا سيرة أمي في السوق بلا مراعاة للأدب، ويقولوا لي إن شعرها كان كالحصير على رأسها، وإن طولها كان لا يبلغ خمسة اقدام. ولكن عجباً لها، فهي تستعمل كلمات فيها حروف مد لتمطها في حين أن باستطاعتها التكلم طبيعياً ككل إنسان؟ إنها ارادت أن تجعل قولها مؤثراً وأن تضفي عليه شيئاً من شعور الفلاحين. وهل يمكن أن يقال إن الفلاح الروسي يشعر إذا قيس بالرجل المتعلم؟ كلا فهو سادر في جهله، فلا شعور له. إنني منذ أيام طفولتي اشعر بأن صدري يكاد ينشق كلما سمعتهم يمطون حروف المد تلك.

- إنك لو كنت طالباً في الكلية الحربية، أو فارساً في الجيش لما كنت تقول ذلك بل كنت تجرد حسامك من غمده دفاعاً عن حياض روسيا كلها.

- لا أريد أن اكون فارساً في الجيش يا ماريا كوندراتييفنا وأكثر من هذا، أحبذ إلغاء الجيش أصلاً.

- ومن يدافع عنا إذا تعرضت البلاد إلى غزو؟

- لا حاجة بنا إلى الدفاع. لقد حدث في عام ١٨١٢ أن تعرضت روسيا لغزو عظيم من قبل نابوليون الأول امبراطور فرنسا واب الأمبراطور الحالي[١]. ولو أنهم احتلونا لكان ذلك امراً حسناً. فهذا يعني أن أمة نشيطة قد قهرت أمة عظيمة الغباء والحقتها بها. ولو تم ذلك لكانت الآن لنا نظم تختلف عن نظمنا.

فاجابت ماريا كوندراتييفنا برقة وعذوبة المحبين: هل حياتهم في بلادهم تفضل حياتنا إلى حد بعيد؟ إنني ارفض استبدال فتاي الذي أعرفه

---

(١) إن نابليون الأول هو عم «الأمبراطور الحالي» الذي هو نابليون الثالث.

بثلاثة من الشباب الانكليز.

- إن لكل امرىء ما يهوى.

- ولكنك تشبه الاجانب، وتبدو كألطفهم. إنني اقول لك ذلك، مع أنه يخجلني.

- إذا اردت أن تعلمي الحقيقة، فإن اولئك الناس يتساوون مع ابناء شعبنا في الرذيلة. كلهم خداعون، مع فارق وحيد هو أن أولئك الانذال الاجانب ينتعلون الاحذية اللماعة، أما هنا فانهم يتمرغون في الاقذار ولا يرون ضيراً في ذلك. إن الشعب الروسي يستحق الجلد، وقد اصاب فيودور بافلوفيتش كبد الحقيقة عندما قال ذلك بالأمس، مع أنه مجنون وجميع ابنائه مجانين.

- لقد قلت إنك تكنّ لايفان فيودوروفيتش الاحترام العظيم.

- ولكنه قال إنني خادم وضيع، وهو يعتبرني لا أعبأ بالنظام. وقد اخطأ في ظنه، ولو كان في جيبي مقدار معين من المال، لكنت قد غادرت هذا المكان منذ أمد بعيد. إن ديمتري فيودوروفيتش أحقر من أي خادم في طبعه وفي عقله وفي فقره. إنه يحظى باحترام الجميع مع أنه لا يجيد أي عمل. ربما كنت صانع حساء لا أكثر، ولكنني إذا واتاني الحظ استطعت أن افتح لي مقهى ومطعماً في حي بيتروفكا بموسكو، لأن الطعام الذي استطيع طهوه هو طعام فريد والاجانب وحدهم يستطيعون ذلك في موسكو. إن ديمتري فيودوروفيتش متسول حقير غير أنه لو تحدى ابن الكونت الأول في هذه البلاد لنازله. فبم يتميز عني؟ إنه أغبى مني إلى حد بعيد. انظري إلى الأموال التي بددها عبثاً.

فقالت ماريا كوندراتييفنا بغتة: «لا بد وإن المبارزة شيء جميل».

- وكيف ذلك؟

- لا شك أن الأمر فيه بأس وفيه شجاعة، وخاصة إذا تبادل ضابطان شابان النار من مسدسيهما من أجل امرأة. يا لها من صورة رائعة! أواه، لو يسمحون للفتيات أن يشهدن المبارزة. إنني على استعداد لأن ابذل كل شيء لأشاهد مبارزة.

ـ إنه لشيء جميل أن تطلقي النار على إنسان ما، أما إذا أطلق هو النار على رأسك، فإنك تصابين بالبله وتسرّين عندما تطلقين ساقيك للريح يا ماريا كوندراتييفنا.

ـ إنك لا تعني أنك تطلق ساقيك للريح؟ ولم يتنازل سمير دياكوف فيجيب. وبعد صمت دام برهة واحدة عادت الألحان تنبعث من قيثارته وطفق يغني:

مهما تقولين، سأرحل
كفاني معاناة
ستكون مشرقة مبهجة حياتي في العواصم
ولن أحزن
لن أحزن أبداً عليك
ولن احزن على شيء أبداً.

وعندها حدث شيء لم يكن في الحسبان، فإن اليوشا عطس فجأة. وساد الصمت، فنهض اليوشا من مجلسه وسار نحوهما، فألفى سميرديا كوف بهندام حسن وشعر مجعد مصفف وفي قدميه حذاء لامع، وقيثارته مطروحة على المقعد. وكانت جليسته ابنة صاحبة المنزل وترتدي ثوباً سماوياً له ذيل وراءها بطول ياردتين. إنها فتاة صغيرة السن، ما كان شكلها لينفر، غير أن وجهها كان تام الاستدارة تناثر عليه نمش كثير.

فبادرهما اليوشا بالسؤال، وهو يحاول أن يتمالك نفسه قدر ما يستطيع: هل سيعود أخي ديمتري قريباً؟

ونهض سمير دياكوف من مجلسه بتؤدة، وكذلك نهضت ماريا كوندراتييفنا. وتولى سمير دياكوف الاجابة عن سؤال اليوشا بلهجة متمهلة واضحة متعالية: وأنى لي معرفة انباء ديمتري فيودوروفيتش؟ أم لعلني حارسه؟

فقال اليوشا: «ولكنني سألتك فقط عما إذا كنت تعلم!»

ـ إنني لا أعلم شيئاً عن احواله ولا أريد أن أعلم.

ـ ولكن أخي انبأني بأنك تطلعه على كل ما يدور في البيت، وإنك

وعدته بابلاغه نبأ مجيء اغرافينا الكسندروفنا.

فسأله سمير دياكوف وهو ينظر إليه نظرة ثابتة متفحصة: وكيف استطعت الدخول إلى هذا المكان الآن وباب الحديقة مغلق منذ ساعة؟

ـ لقد اتيت من الطريق الخلفية وتسلقت الجدار ومضيت مباشرة إلى المنزل الصيفي. ثم التفت إلى ماريا كوندراتييفنا وقال يخاطبها: «ارجو أن تعذريني، فقد كنت أود ملاقاة أخي بأقصى سرعة».

فأجابت ماريا كوندراتييفنا متعاظمة وقد زادها اعتذار اليوشا استعلاء: بخ، كأننا نؤاخذك! إن ديمتري فيودوروفيتش غالباً ما يذهب إلى المنزل الصيفي سالكاً هذا الطريق. إننا لا نعلم بوجوده هنا أو أنه في المنزل الصيفي.

ـ إنني عظيم الاهتمام بالعثور عليه، أو بالاطلاع منكما على مكانه. صدقاني إنني ابحث عنه لأمر يهمه غاية الأهمية.

فأجابت ماريا كوندراتييفنا: إنه لا يزودنا أبداً باخباره.

وعاد سمير دياكوف إلى الكلام قائلاً: «مع إنني كنت أؤم هذا المكان. باعتباري صديقاً، فإن ديمتري فيودوروفيتش كان لا يرحمني بوابل من اسئلته التي لا نهاية لها حول السيد، فكان يسألني مثلاً، ما وراءك؟ ماذا يجري هناك الآن؟ من يأتي ويذهب؟ إن هذا فقط هو ما استطيع أن احدثه به لقد هددني بالموت مرتين حتى الآن».

فقال اليوشا مندهشاً: «بالموت؟»

ـ أو تظن بأن ذلك يكون مدعاة لتفكيره الكثير، وهو بهذا الطبع الذي شاهدت طرفاً منه بنفسك يوم أمس؟ لقد قال لي إنني إذا أدخلت اغرافينا إلى البيت وقضت الليلة مع ابيه، فسأكون أنا أول من يرى عاقبة ذلك. انني عظيم الخوف منه، بل أخاف أكثر من هذا، من أن انفذ ما كلفنيه. ولولا خوفي ذاك لأبلغت الشرطة. إن الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله.

واضافت ماريا كوندراتييفنا قائلة: لقد قال له ذات يوم: سأسحقك في الهاون!

فقال اليوشا: «إذا كان الأمر كذلك، فقد لا يعدو كونه كلاماً. إنني لو استطعت العثور عليه فقد احدثه في هذا الأمر أيضاً».

فقال سمير دياكوف، وكأنه أولى الأمر المزيد من الفكر والتعقل: «حسناً، إن قصارى ما يمكنني قوله لك، هو أنني في هذا المكان بصفة صديق قديم وجار، والغرابة هي في أن لا آتي لزيارة أهله. ومن جهة ثانية فإن ايفان فيودوروفيتش قد جعل أولى مهامي في هذا الصباح أن أذهب إلى نزل اخيك في شارع البحيرة. ولم يحملني كتاباً، بل كلفني أن أدعو ديمتري فيودوروفيتش لتناول طعام العشاء معه في مطعم هنا، في السوق. لم اعثر على ديمتري فيودوروفيتش في النزل، مع أنني بلغته في الساعة الثامنة. وقد قالت لي صاحبة النزل؛ لقد كان هنا، وخرج. وأنا على يقين من وجود تواطيء بينهما ويجوز أن يكون الآن في المطعم مع ايفان فيودوروفيتش، لأن ايفان فيودوروفيتش لم يعد إلى المنزل لتناول طعام العشاء. وقد تعشى فيودور بافلوفيتش وحيداً منذ ساعة وأوى إلى فراشه. إن ما ارجوه منك خاصة ألا تذكر شيئاً عني، ولا تحدثه في ما قلته لك، وإلا قتلني بلا سبب على الإطلاق».

فاعاد اليوشا قول سمير دياكوف ليزداد تأكيداً:

أخي ايفان دعا ديمتري إلى المطعم هذا اليوم؟

ـ نعم هذا ما كان.

ـ في حانة متروبوليس بالسوق؟

ـ إنه المكان بعينه.

فهتف اليوشا باضطراب: إن هذا ممكن تماماً، شكراً لك يا سمير دياكوف. إنها معلومات قيّمة. سأذهب إلى هناك حالاً.

فناداه سمير ياكوف قائلاً: «لا تش بي».

ـ كلا، سأذهب إلى الحانة متظاهراً بأن الصدفة قادتني إلى المطعم، فلا تقلق.

فقالت ماريا كوندراتييفنا: «ولكن انتظر دقيقة فسأفتح لك الباب».

ـ كلا سأختصر الطريق، وأتسلق الجدار ثانية.

لقد قلق اليوشا كثيراً مما سمعه فعدا إلى الحانة. وكان من المتعذر

عليه أن يذهب إليها بثياب الدير، ولكنه عاد واطمأن إلى أنه سيسأل عن اخويه عند الباب، ويدعوهما إليه. ولكنه ما كاد يبلغ الحانة، حتى فتحت احدى النوافذ على مصراعيها، وناداه اخوه ايفان منها قائلاً:

اليوشا ألا تستطيع أن تصعد إلى هنا؟ إنني سأكون عظيم الامتنان لك لو فعلت ذلك.

ـ يقيناً إنني استطيع الصعود، ولكنني اتحرج من هذا الثوب...

ـ ولكنني اجلس في غرفة منفردة. اصعد درجات السلم، وسألاقيك على الفور.

وبعد دقيقة واحدة، كان اليوشا يجلس إلى جوار اخيه. وكان ايفان يتعشى وحيداً.

الأخوان يتصادقان

إن ايفان لم يكن حقيقة في غرفة منفردة، بل إن ستارة كانت تفصله عن الغرفة، بحيث كان في مكانه مختفياً عن انظار الناس. وكانت الغرفة أول ما يواجه الداخل من الباب، وإلى جوارها خزانة المشروبات، وكانت تشهد حركة دائبة للندل فيها ذهاباً وإياباً. أما الرجل الوحيد في الغرفة فكان رجلاً عسكرياً متقاعداً، كان يحتسي الشاي في إحدى زواياها، لكن عدد الزبائن في غرف الحانة الاخرى كان كبيراً؛ وكانت الاصوات تتعالى بنداء الندل، وتسمع اصوات نزع سدادات الفلين، واصطدام كرات البلياردو وعزف الارغن. وكان اليوشا يعلم أن ايفان لم يكن من عادته أن يؤم هذه الحانة بل هو يكره الحانات اجمالاً. ولذلك فلا بد أنه جاء إلى هذا المكان لكي يقابل ديمتري عامداً. ولكن ديمتري لم يكن هناك. وكان ايفان انهى عشاءه وبدأ باحتساء الشاي.

وصاح ايفان قائلاً، وقد ظهرت عليه امارات السرور لعثوره على اليوشا: «هل اطلب لك سمكاً أو شيئاً آخر؟ اعتقد أنك لا تحيى بالشاي وحده».

فأجاب اليوشا مرحاً: «دعني اتناول الحساء ثم اشرب الشاي فيما بعد، إنني جائع».

- ومربى الكرز، إنهم يقدمونه هنا. اتذكر مقدار حبك لمربى الكرز في صغرك؟

- اذكر ذلك؟ فأتناول المربى أيضاً، فما زلت احبه.

وعدا إيفان نحو الخادم واوصاه بأن يحضر حساء ومربى وشايا.

- إنني أذكر كل شيء يا اليوشا، وأذكرك إلى أن بلغت الحادية عشرة،

وكنت أنا في الخامسة عشرة. إن البون شاسع بين الخامسة عشرة والحادية عشرة، حتى أن الاخوة لا يتصادقون في مثل تلك السن. بل إنني لا اذكر ما إذا كنت مغرماً بك، وعندما ذهبت إلى موسكو لم افكر فيك طيلة السنوات الأولى ابداً. وعندما أتيت أنت إلى موسكو، اعتقد أننا التقينا مرة واحدة في احد الامكنة. والآن ها قد انقضى على وجودي هنا اكثر من ثلاثة أشهر وحتى الآن قلما تبادلنا الكلام. وغداً سأمضي، وكنت لتوي وأنا جالس في هذا المكان أفكر في الوسيلة لتوديعك فمررت.

ـ هل كنت مشتاقاً لرؤيتي إذن؟

ـ لقد كنت عظيم الشوق لك. فقد اردت أن اعمق معرفتي بك، واعرف نفسي إليك، ثم لكي اودعك. انني اعتقد بأن من الأفضل دائماً أن يتعرف الإنسان على الناس قبيل مفارقته لهم. لقد لاحظت نوعية نظرتك إلي طيلة هذه الاشهر الثلاثة، فقد كان التساؤل يطل من عينيك فيصعب عليّ احتماله، وهذه هي علة ابتعادي عن سبيلك. ولكنني في النهاية تعلمت احترامك، ولقد قلت في سري إن الفتى ثابت في مكانه. ومع أنني اضحك، إلا أنني جاد فيما اقول. أنت ثابت الست كذلك؟ إنني احب اولئك الذين يثبتون في أماكنهم، بغض النظر عن اهمية ما يثبتون من أجله، حتى ولو كانوا في مثل سنك هذه الصغيرة، إن عينيك المترقبتين لم تعودا تضايقاني، وقد تعودت أن أغرم بهما في نهاية الأمر. يبدو أنك تحبني لسبب ما يا اليوشا؟

ـ إنني احبك يا ايفان. إن ديمتري يقول عنك «إن ايفان كالقبر»! أما أنا فأقول عنك، إن ايفان لغز مغلق. وبالنسبة لي، ما زلت لغزاً حتى الآن. ولكنني فهمت فيك شيئاً لم افهمه إلا هذا الصباح.

فضحك ايفان وتساءل: «وما هو هذا الشيء؟»

وضحك اليوشا أيضاً وقال: «ألا تغضب لو صارحتك به؟»

ـ هات ما عندك.

ـ فهمت أنك شاب صغير، ككل الذين يبلغون الثالثة والعشرين من عمرهم، طيب، ممتلىء حيوية، عديم التجربة! قل لي هل اهنتك اهانة بالغة؟

فهتف ايفان بحرارة ومرح: «بالعكس، لقد اعجبتني هذه المصادفة،

صدقني إذا قلت لك إنني منذ حادثتي معها، لا أفكر إلا في فجاجتي وقلة خبرتي، وها أنت ذا تفاتحني بها كأنك وقفت على حقيقة تفكيري. لقد كنت جالساً في هذا المكان والافكار تتواتر على مخيلتي فأحدث نفسي إنني لو لم أومن بالحياة، وفقدت إيماني بالمرأة التي احبها، وفقدت إيماني بنظام الاشياء في هذه الحياة، واقتنعت بأن كل ما فيها فوضى واضطراب مزعج من عمل الشيطان، وادركت الواقع مجرداً من التصورات والأوهام، فتملكني الرعب القاتل، فإنني مع ذلك سأظل راغباً في الحياة، وطالما إنني ذقت الكأس مرة واحدة فلن ارفعها عن شفتي قبل أن اتجرعها حتى الثمالة! هذا، وأنا على يقين من أنني متى بلغت الثلاثين من عمري، فسأهجر الكأس حتى ولو لم اكن قد افرغتها، ولن آبه له. ولكن إلى أين سأمضي، هذا ما لا اعرفه. غير أني أعلم بأنني إلى أن ابلغ الثلاثين فإن شبابي سينتصر على كل شيء، على كل الحقائق وعلى كل عزوف عن الحياة. وكثيراً ما تساءلت عما إذا كان في الحياة يأس كهذا يمكن أن يقهر ظمأي الشديد الدنيء للحياة. وقد استنتجت أنه لا وجود له، اقصد أنه لن يصادفني قبل أن أبلغ الثلاثين وعندها اظن أن هذا الظمأ سيفارقني تلقائياً. إن بعض السخفاء من معتنقي النظريات الادبية الهزيلة ـ وخاصة الشعراء ـ كثيراً ما يعيرون الظامىء للحياة بأنه وضيع. الحق أن هذا الظمأ صفة في سلالة كرامازوف، وهو فيها رغم كل شيء؛ ولا شك في أنه موجود فيك أيضاً، ولكن لم يكون وضيعاً؟ إن قوة الانجذاب إلى كوكبنا الأرضي ما تزال قوية إلى حد مخيف يا اليوشا. إن بي شوقاً للحياة وإنني أحيا رغم منطق الأمور. قد لا أومن بحسن نظام الكون، ومع ذلك فإنني أحب البراعم اللزجة إذ تتفتح في فصل الربيع. وأحب السماء الزرقاء، وأحب بعض الناس، الذين يجد الإنسان نفسه في بعض الأحيان يميل إليهم ولا يعرف لذلك سبباً، وأحب بعض الأعمال التي يقوم بها الناس، مع إنني ربما كنت قد فقدت إيماني بها، إلا أن قلب الإنسان بحكم العادة القديمة لا يملك إلا تقديرها. لقد جلبوا لك الحساء فتناوله لأنه سينعشك. إنه حساء من أفضل الأصناف، وهم يتقنون صنعه هنا. إنني سأغادر هذا المكان يا اليوشا، أريد أن أقوم بجولة في أوروبا. ومع ذلك فإنني أعلم أنني اسعى إلى

القبر، ولكنه سيكون أغلى القبور، وهذه هي الحقيقة! ما أغلى الموتى الذين يرقدون هناك، إن كل حجر فوقهم يتحدث عن تأجج حياتهم في الماضي، وينطق باخلاصهم العظيم لعلمهم ولعملهم ولنضالهم ولنزاهتهم، حتى إنني سأنحني إلى الأرض وأقبّل تلك الحجارة واذرف فوقها دموعي؛ مع أنني مقتنع في قرارة قلبي بأنها لم تعد سوى مقابر منذ زمن طويل. ولن يكون اليأس دافعي للبكاء، بل سعادتي بدموعي، سأغرق روحي بعاطفتي. إنني أحب البراعم اللزجة في فصل الربيع وأحب السماء الزرقاء، وتلك هي حالي. وليس الذكاء ولا المنطق وراء موقفي، ولكنه الحب المنبعث من داخل الإنسان، من معدته. إن الإنسان يحب الدفقة الأولى من قوة شبابه.

ثم ضحك ايفان بغتة وسأل اخاه قائلاً: «اتفقه شيئاً من أقوالي يا اليوشا؟». فهتف اليوشا قائلاً: «إنني أفقه ذلك تماماً يا إيفان. إن الإنسان يتوق إلى أن يحب من داخله، من معدته. لقد احسنت في التعبير حتى جعلتني مسروراً لما فيك من شوق للحياة. إنني اظن بأن كل إنسان يجب أن يقدم حبه للحياة على حبه لأي شيء آخر في هذه الدنيا».

ـ وهل ينبغي أن يحب الإنسان الحياة أكثر من حبه لمعناها؟

ـ ذلك عين الصواب. ينبغي أن يحبها بمعزل عما ذكرته عن منطق الاشياء، وباهمال المنطق، وهو لن يفهم معنى الحياة إلا إذا احبها هكذا. لقد اطلت التفكير في ذلك. لقد اجتزت نصف الطريق يا إيفان. فانت تحب الحياة، وما عليك إلا أن تجتاز النصف الثاني حتى يكتب لك الخلاص.

ـ إنك تحاول أن تخلصني، ولكن ربما كنت غير ضال! وماذا تقصد بالنصف الثاني؟

ـ ما الغامض في كلامي؟ إن على الإنسان أن يحيي موتاه الذين ربما كانوا لا يزالون على قيد الحياة. مهلاً فسأتناول الشاي، إنني جد مسرور من حديثنا هذا يا إيفان.

ـ إنني أرى فيك الهاماً. وكم أحب المبادىء التي يدين بها الرهبان المبتدئون. إنك فتى ثابت المبدأ يا الكسي. هل ستترك الدير حقاً؟

إن هذا صحيح فقد ارسلني ناسكي إلى الدنيا.

- إذن فسنلتقي على مسرح الحياة، سنلتقي قبل أن ابلغ الثلاثين، موعد انصرافي عن الكأس. إن والدنا لا يبغي الانصراف عن كأسه حتى يبلغ السبعين، بل هو يأمل ببلوغ الثمانين كما يقول. وهو يعبر عن أمله جاداً مع كونه مهرجاً. هو أيضاً يقف على صخرة راسخة. إنها صخرة بهيميته، أما نحن فعندما نتخطى الثلاثين فقد لا يبقى لنا أي شيء آخر نقف فوقه... إنه لأمر ممجوج أن يمتد بنا العمر إلى السبعين، والأفضل أن لا نتجاوز الثلاثين، فالإنسان يستطيع في هذه السن أن يحتفظ ببقية من شهامة ولو بخداع نفسه. هل رأيت ديمتري اليوم؟

- كلا بل رأيت سمير دياكوف وأخذ اليوشا يروي مقابلته لهذا بسرعة ودقة. وكان إيفان يصغي إليه باهتمام مستوضحاً منه عن هذه المقابلة.

ثم أضاف اليوشا قائلاً: ولكنه توسل إلي ألا انقل لديمتري ما دار بيني وبينه بشأنه. وهنا أضحى ايفان عابساً واصبحت نظراته شاردة.

فسأله اليوشا قائلاً: هل عبوسك بسبب سمير دياكوف؟

فأجاب إيفان متردداً: نعم بسببه تباً له. لقد كنت حقاً ابغي رؤية ديمتري، أما الآن فلا حاجة بي لذلك.

- ولكن هل حقاً تنوي السفر بهذه السرعة يا أخي؟

- نعم.

فسأله اليوشا قلقاً: وماذا يكون من أمر ديمتري وأبي؟ وكيف ينتهي الأمر بينهما؟

فقال إيفان منزعجاً: «إن هذا الموضوع هو شغلك الشاغل! ما شأني في ذلك؟ هل أنا حامي أخي ديمتري؟» ثم ابتسم ابتسامة مغتصبة وأضاف: إنه جواب قابيل عن أخيه الصريع أليس كذلك؟ لعلك تفكر بهذا في هذه اللحظة؟ تباً لهذا الأمر. إنه من غير الممكن أن ابقى هنا حامياً لهما. لقد أنجزت ما كان يجب علي انجازه، وها أنا ذا ذاهب. هل تتخيل أنني أحسد ديمتري وإنني ما فتئت أحاول أن اختطف منه خطيبته الجميلة كاترينا ايفانوفنا منذ ثلاثة أشهر. إن هذا لغو فارغ. ثمة مهمة خاصة انجزتها. وسأذهب. لقد انجزت مهمتي لتوي وأنت شاهد على ذلك.

ـ اتعني ذلك الذي جرى في منزل كاترينا ايفانوفنا؟

ـ نعم، وقد تحررت من قيدها إلى الأبد. وفضلاً عن ذلك، ما شأني بديمتري؟ إنه لا يذهب إليها. ولدي مهمتي الخاصة التي يجب أن اصفيها مع كاترينا ايفانوفنا. إن تصرف ديمتري جاء عكس ما تظن، وكأن هناك تفاهماً بيننا. إنني لم اطلب منه أن يفعل ذلك، ولكنه سلمها إلي ومنحنا بركته. إنه لأمر مضحك. أواه يا اليوشا، ليتك تدرك مدى الراحة التي اشعر بها الآن في قلبي! صدقني إنني كنت اتناول عشائي وكدت أن اطلب الشمبانيا لكي احتفل بأول ساعة من ساعات حريتي. بئس ما عملت له قرابة ستة أشهر. لقد ارحت نفسي فجأة من هذا العبء. كانت عملية سهلة عندما اردت ذلك، ولم أكن اتوقعها كذلك حتى أمس.

ـ هل تتحدث عن حبك يا إيفان؟

ـ نعم عن حبي، إذا طاب لك هذا. لقد وقعت في حبائل غرام الفتاة وازعجت نفسي بالتفكير فيها، وازعجتني هي. وقبعت ارقبها... وفجأة انهار كل شيء! لقد كنت اتحدث كمن أتاه الالهام في صباح اليوم، ولكنني ابتعدت، وكانت ضحكتي عالية جداً. هل تصدق ذلك؟ نعم إن ما أقوله هو عين الحقيقة. كان اليوشا ينظر في وجه أخيه الذي بدا مشرقاً فجأة ثم قال: إنك تبدو الآن عظيم الابتهاج بما جرى.

ـ ولكن كيف السبيل لأن ادرك انني لا آبه لها مطلقاً! وأطلق ضحكة عالية وأردف يقول: «يبدو لي أنني في الحقيقة لم آبه لها، غير أن جاذبيتها لي كانت طاغية. كم كانت رائعة الآن عندما القيت أمامها خطابي! أو تدري أنها لا تزال تأسرني حتى الآن، ومع ذلك فما أسهل أن اهجرها. اتعتبر قولي مكابرة؟».

ـ كلا، بل إن مايدور بخلدي هو أنك ربما لم تكن تضمر لها الحب.

فضحك إيفان وقال: «اليوشا، إياك والتأمل في الحب فهذا لا يليق بك. كم أنت سريع الاندماج في الجدال صباح اليوم! لقد نسيت أن اقبلك على ما قمت به. ولكن ارهاق الفتاة لي كان عظيماً! لا شك أنها كانت حريصة على «عذابها» لقد ادركت مقدار حبي لها! وأضاف مرحاً: «إنها

تحبني أنا لا ديمتري، وما شعورها نحوه إلا من قبيل تعذيب النفس. إن جميع ما قلته لها منذ قليل كان صحيحاً كله، ولكن أسوأ ما في الأمر هو أنها لن تدرك قبل خمس عشرة سنة أو عشرين سنة أنها لا تأبه لديمتري، بل تحبني أنا ذلك الإنسان الذي تضنيه، وقد لا تدرك ذلك قط رغم الدرس الذي أعطيته اليوم. جميل أن ينتهي الأمر هكذا؛ إن باستطاعتي أن أمضي فلا أعود ابداً. ولكن ما دمنا في معرض الحديث عنها، انبئني كيف حالها؟ وماذا حدث بعد أن غادرت منزلها؟

فانبأه اليوشا كيف أنها وقعت فريسة نوبة هستيرية، وأنها كما قيل له فاقدة الوعي هاذية.

ـ ألم تبالغ السيدة خولاكوف؟

ـ لا أظن ذلك.

ـ يجب أن أرى ذلك بنفسي، والهستيريا على كل حال لم تمت أحداً، فنوباتها لا تؤذي. إن الله جعل النوبات الهستيرية للنساء تخفيفاً عن صدورهن. إنني لن أزورها بعد الآن، فلماذا أضع نفسي مجدداً في طريقها؟

ـ ولكنك قلت لها أنها لم تهتم بك مطلقاً.

ـ لقد كنت اهدف من وراء ذلك إلى غاية. اليوشا هل أطلب لك كأساً من الشمبانيا؟ دعني اشرب احتفالاً بحريتي. ليتك تعلم مقدار سروري!

فأجاب اليوشا فوراً: «كلا يا أخي، من الأفضل لنا أن لا نشرب. وفضلاً عن ذلك فإنني أشعر يبعض الكآبة».

ـ أجل، إن الكآبة تلازمك منذ أمد طويل، لقد لاحظت ذلك.

ـ إذن فقد عقدت عزمك على السفر في صباح الغد.

ـ في الصباح؟ إنني لم أقل بأنني سأسافر حتما في الصباح... ولكنني قد أسافر فعلاً في الصباح. صدقني لقد تناولت عشائي هنا اليوم لكي اتجنب العشاء مع الرجل العجوز. إنني عظيم الكراهية له، وفيما يختص به كان علي أن اسافر منذ أمد طويل. ولكن لماذا يسبب لك سفري كل هذا القلق؟ إن لدينا فسحة طويلة من الوقت قبل أن أذهب، فسحة الأزلية!

ـ إذا كنت مغادرنا غداً، فماذا تقصد بالأزلية؟

فضحك إيفان وقال: «ولكن ماذا يهمنا من ذلك؟ فلدينا متسع من الوقت لنتحدث بما أتينا إلى هنا بسببه. لماذا تبدو عليك هذه البغتة العظيمة؟ اجبني: لماذا التقينا هنا؟ الكي نتحدث عن غرامي بكاترينا ايفانوفنا وعن الرجل العجوز وديمتري؟ أم عن سفري إلى الخارج؟ أو عن مركز روسيا الذي لا أمل فيه؟ أم عن الامبراطور نابليون؟ هل هذا هو ما اجتمعنا للحديث عنه؟

ـ كلا.

ـ إذاً فانت تعلم سبب مجيئنا إلى هذا المكان. وإذا كان الأمر مختلفاً بالنسبة لغيرنا، فينبغي لنا نحن الشباب المتفتح، أن نبت قبل كل شيء في مسائل الأزلية. ذلك هو محور اهتمامنا. إن شبيبة روسيا لا تتحدث عن شيء في هذه الأيام سوى مسائل الأزلية. في حين أن شيوخي منهمكون في المسائل العملية. لماذا كنت تنظر إلي بعين الترقب طيلة الأشهر الثلاثة الاخيرة؟ أكنت تريد أن تسألني بم تؤمن أو بم لا تؤمن؟ إن هذا هو ما كانت تفصح عنه عيناك في هذه الاشهر الثلاثة أصحيح هذا؟

فابتسم اليوشا وقال: «ربما كان ذلك، ألا تضحك مني يا إيفان؟

ـ أنا اضحك! انني لا اريد أن اجرح شعور أخي الصغير الذي ما برح يرمقني بنظرة الترقب منذ ثلاثة أشهر. اليوشا، حدّق في! إنني على كل حال، فتى صغير السن مثلك، ولكنني لست راهباً مبتدئاً. ولو سألتك عما يفعله الاحداث الروس حتى الآن، اعني بعضهم فماذا أنت مجيب؟ إنك تراهم، في هذه الحانة القذرة مثلاً، يجتمعون قابعين في إحدى الزوايا، وهم لم يسبق أن التقوا في حياتهم مرة من قبل. وإذا خرجوا منها فلا يكون بينهم لقاء لمدة أربعين عاماً. وماذا تكون مادة احاديثهم في هذا اللقاء العابر بالحانة؟ إنهم يطرقون أموراً أزلية فيتحدثون عن وجود الله وعن الخلود. في حين يتحدث بعضهم الذين لا يؤمنون بالله عن الاشتراكية والفوضوية، واحداث تحويل في الإنسانية على نمط جديد، حتى أن غايات الحديث تتشعب ثم تنتهي في نقطة واحدة، إنها نفس القضايا تقتل بحثاً وتكشف خفاياها، وجمهرة الفتيان الروس الذين يفوقون غيرهم اصالة لا يفعلون شيئاً بل يتحدثون عن

القضاياالأزلية! أليس كذلك؟

فأجاب اليوشا وهو لا يزال يرقب اخاه وقد انطبعت على شفتيه تلك الابتسامة التي تنم عن العطف والاستفهام: بلى، لان قضيتيّ وجود الله والخلود أو أية تسمية أخرى تطلقها، هما بالنسبة للروس الحقيقيين القضيتان اللتان تستقطبان جدلهم واهتمامهم فهم يقدمونهما على أي أمر آخر، وهذا ما ينبغي أن يكون.

- حسناً يا اليوشا، في بعض الأحيان يصبح من غير الحكمة أن يكون الإنسان روسياً، ولكن الإنسان لا يكاد يتصور شيئاً في الوجود اسخف من طريقة الفتيان الروس في تمضية أوقاتهم. إن هناك فتى روسياً واحداً اسمه اليوشا قد استأثر بحبي.

فضحك اليوشا فجأة وقال: «ماأجمل طريقتك في التعبير».

- حسناً انبئني من أين نبدأ، اصدر أوامرك. هل يروق لك أن تتكلم عن وجود الله؟

فرمق اليوشا أخاه بنظرة متفحصة وقال: «ابدأ من حيث يحلو لك. فإنك قد اعلنت بالأمس في منزل والدنا أنه لا وجود لله».

- لقد قلت ذلك بالأمس، وقت العشاء، عمداً لكي استثيرك وقد رأيت عينيك تتألقان، أما الآن فليس لي هدف من بحث الأمر معك. إن حديثي معك الآن جديّ، وأريد أن اصادقك يا اليوشا لأنه ليس لي اصدقاء، فأنا ارغب بتجريب الصداقة. ثم ضحك إيفان واردف يقول: «حسناً، تصور انني أنا أيضاً ربما آمنت بوجود الله، ألن تكون مفاجأة لك؟».

- طبعاً إنها مفاجأة، هذا إذا لم تكن الآن مازحاً.

- مازحاً؟ لقد قيل لي بالأمس في منزل الناسك إنني كنت مازحاً. إعلم يا فتاي العزيز أنه كان في القرن الثامن عشر خاطىء كبير أعلن على رؤوس الاشهاد أنه إذا لم يكن الله موجوداً فينبغي اختراعه. الحقيقة إن الإنسان قد اخترع الله. والغريب العجيب في الأمر ليس في ضرورة وجود الله، بل في أن يسمح الإنسان، ذلك المخلوق الجلف الدنيء، لهذه الفكرة بالنفاذ إلى عقله إن الحاجة الماسة إلى الله فكرة مليئة بمعاني القدسية والجلال والحكمة

حتى لتسبغ على الإنسان مأثرة عظيمة. أما بالنسبة لي، فقد عقدت العزم منذ زمن بعيد على أن اكف عن التفكير فيما إذا كان الإنسان قد ابدع الله، أم أن الله هو الذي ابدع الإنسان. ولن ارجع إلى ما توصل إليه الفتيان الروس في هذا الموضوع فهم قرروا اشياء هي ليست أكثر من افتراضات عند الأوروبيين. ذلك أن افتراضاً في أوروبا يعده الفتى الروسي شيئاً مقرراً. ولا يقف الأمر عند حد الفتيان، بل يتعداه إلى اساتذتهم أيضاً، لأن اساتذتنا الروس لا يختلفون عن فتياتنا. وهكذا فإنني استبعد جميع الافتراضات. والآن إلام نهدف؟ إنني احاول أن أشرح باسرع ما يمكن، جوهر طبيعتي، أي أن اشرح أي نوع من الرجال أنا، ما هو معتقدي وما هي آمالي. أليس هذا ما اهدف إليه ولذلك فإنني اقول لك ببساطة إنني اسلم بوجود الله. ولكن يجب أن تتوقف عند أمر واحد، وهو أنه إذا كان الله موجوداً، وإذا كان هو الذي خلق العالم، فإنه كما نعلم جميعاً خلقها حسب هندسة اقليدس وفي حدود العقل البشري الذي لا يدرك سوى ثلاثة اتجاهات في الفضاء. ومع ذلك فقد كان وما زال هنالك مهندسون وفلاسفة، وبعضهم من المع الناس، يشكون في أن تكون الخليقة كلها أو الحياة بتعبير أشمل، قد أوجدت حسب هندسة اقليدس، بل إنهم يجرؤون على تخيل أن الخطين المتوازيين اللذين تقرر نظرية اقليدس إنهما لا يلتقيان على الأرض، قد يلتقيان في نقطة ما من اللانهائية.

لقد توصلت إلى هذا القرار، وهو أنني طالما كنت عاجزاً عن فهم حتى هذا الأمر، فكيف يمكنني أن آمل بمعرفة الله. واعترف بكل خضوع بأنني لا أملك الموهبة لحل مثل هذه المعميات. فلي مثل عقل اقليدس الأرضي، وأنى لي أن احل قضايا لا وجود لها على ظهر هذه الأرض؟ إنني انصحك يا عزيزي اليوشا بألاّ تفكر في هذه الأمور أبداً وخاصة فيما يتعلق بالله وبوجوده إن جميع هذه القضايا لا يمكن أبداً أن يستوعبها العقل الذي خلق وله ثلاثة اتجاهات فقط. وهكذا فأنا اسلم بوجود الله، وهذا التسليم من دواعي سروري، وأكثر من هذا فإنني أؤمن بحكمته ومشيئته. وهي أشياء تجل عن مداركنا. إنني أؤمن بالنظام الذي يسيّر هذا الكون، وبمعنى الحياة، كما أؤمن بالإنسجام السرمدي الذي يقال أننا سنتمازج عن طريقه في يوم من الأيام،

وبالكلمة التي يناضل العالم في سبيلها والتي كانت بذاتها «مع الله» والتي هي الله، إلى آخر ما هنالك من أسباب تتصل باللانهاية. إنه أمر واحد له تعبيرات كثيرة. إنني ابدو سالكاً الطريق السوي أليس كذلك؟ ومع ذلك صدقني بأنني في النهاية لا أسلم بكلمة الله، ومع أنني مؤمن بوجودها فإنني لا أسلم بها البتة. ولا يعني هذا أنني لا أسلم بوجود الله، يجب أن تفهم ذلك، بل لا استطيع أن اسلم بالدنيا التي خلقها ولا أن اقبلها. دعني أوضح لك الأمر، إنني أؤمن إيمان الأطفال بإمكانية مداواة الآلام وبحتمية تلاشي السخافة المرهقة الناتجة عن المتناقضات الإنسانية كما يتلاشى السراب الخادع وكما تتلاشى الإختلاقات الهزيلة المتمخضة عن عقل الإنسان الكليل الضئيل الممثل في عقل اقليدس. كما أؤمن بأنه في نهاية العالم، وفي لحظة الإنسجام الأزلي، سيحدث شيء لا يقدّر يكون كافياً لجميع القلوب، ويكون كافياً لتبديد اسباب الغيظ كلها، ولمحو جميع ذنوب البشرية ولغسل جميع الدماء المسفوكة. إن هذا الشيء ليس فقط يتيح الصفح عن جميع ما اجترحته يد الإنسان، بل تبرير أعماله أيضاً. إن كل هذا وبرغم احتمال حدوثه فإنني لا أسلم به ولن اسلم به. وحتى لو تلاقت الخطوط المتوازية ورأيتها تتلاقى بأم عيني، فسأراها وأقول أنها تلاقت، ولكنني مع ذلك لن اسلم بالتقائها. إن هذا هو الشعور الكامن في أعماقي يا اليوشا، وتلك هي عقيدتي. إنني مخلص فيما اشرح وأصف. لقد تعمدت أن نبدأ الحديث بأسخف ما تكون الاحاديث، ولكن الأمر انتهى إلى اعترافي وذلك إنما هو كل مبتغاك. إن الحديث عن الله ليس ما تريده وما تريده هو أن تكشف عما في سر أخيك الذي تحبه، من عقائد. وهكذا فقد اطلعتك عليها.

عندما أنهى إيفان هذه الخطبة الطويلة العنيفة كان واضح الانفعال.

ونظر إليه اليوشا نظرة حالمة وسأله قائلاً: «ولكن لم بدأت حديثك بأسخف ما تكون الاحاديث؟».

ـ في الاعتبار الأول، بدأته كذلك أملاً في أن يكون منسجماً مع الواقع الروسي. إن الاحاديث الروسية حول موضوعات كهذه تبدأ دائماً بمثل هذه الغباوة التي لا نظير لها. والسبب الثاني هو أنه كلما ازدادت غباوة الإنسان،

دنا من الحقيقة. واغبى الناس هو اقربهم إلى الوضوح. إن الغباوة شيء مقتضب بسيط، في حين أن الذكاء يلتوي وينطوي على نفسه. الذكاء شيء حقير معقد، أما الغباء فشيء أمين مستقيم. لقد تناولت الحديث بشكل أوصلني إلى القنوط، ولكنني بقدر تمسكي بالغباء في شرح قضيتي، اجدت في هذا الشرح.

فسأله اليوشا: «هل لك في أن تشرح لي لماذا لا تسلم بوجود الدنيا؟».

- ثق أنني سأشرح لك ذلك، فالأمر ليس سراً. ذلك هو هدفي من الحديث كله. يا أخي العزيز إنني لا أريد أن أفسدك، ولا أن اخرجك من حصنك، وربما كنت ابغي أن انال الشفاء على يديك. وفجأة ابتسم إيفان ابتسامة طفل بريء لطيف. ولم يسبق لاليوشا أن رأى وجهه مضاء بمثل هذه الابتسامة.



تمرد

استأنف إيفان الحديث قائلاً: «ثمة اعتراف يجب أن اصارحك به، أنني لا استطيع أن افهم قط كيف يمكن للإنسان أن يحب جيرانه. باعتقادي، إن جيران الإنسان هم الذين لا يستطيع أن يمحضهم الحب، وهو مع ذلك يستطيع أن يحب الابعدين. لقد قرأت ذات مرة في أحد الكتب قصة عن يوحنا الرحيم، وهو قديس جاءه ذات يوم متسول جائع مقرور، فحمله إلى فراشه واحتضنه بين ذراعيه وطفق يتنفس في فمه الذي كان عفناً قبيحاً من جراء اصابته بمرض خبيث. إنني موقن أنه فعل هذا بدافع من «العذاب الطوعي» من العذاب الزائف، ليتحلل من خطيئته عن طريق بذل المحبة التي يفرضها الواجب. فالإنسان لا بدّ أن يكون مختبئاً حتى يحظى بمحبة غيره، لأنه بمجرد أن يظهر وجهه تزول المحبة.

فقال اليوشا: إن الأب زوسيما قد تحدث مراراً في هذا الموضوع. وقد قال أيضاً إن وجه الإنسان في الغالب يمنع عنه محبة الكثيرين الذين لم يعتادوا الحب، ولكن مع ذلك فهنالك مقدار عظيم من المحبة في الجنس البشري تكاد تبلغ منزلة محبة السيد المسيح. إنني أعلم ذلك بنفسي يا إيفان.

- إنني لم أعلم شيئاً عن هذا حتى الآن، ولا استطيع فهمه، ويوافقني على هذا سائر ابناء البشرية الذين لا يحصرهم عدد. والسؤال هو ما إذا كان سبب ذلك خصال سيئة في الناس، أو طبائع فيهم موروثة. ومن رأيي أن الحب الذي يطاول حب المسيح للناس، هو معجزة يستحيل حدوثها في الأرض فقد كان إلهاً ونحن لسنا بالآلهة. ولنفترض أنني أنا مثلاً اصبحت اعاني من شدة عظيمة، فإن غيري لا يستطيع إدراك مدى معاناتي، لأنه هو هو، وليس هو أنا. وفوق هذا، فإن الإنسان قلما كان مستعداً للاقرار بشقاء

غيره (كأنما ذلك الشقاء مميز له). فما هو السبب في عدم اقراره بمصابي في ظنك؟ السبب هو أن رائحتي منفرة، أو أنه يرى الغباء في وجهي، أو إنني ربما كنت ذات مرة قد دست على قدمه. وفضلاً عن ذلك، فإن الشقاء على نوعين: فشقاء يخفض ويقهر، فمنه ما يصيرني خنوعاً ـ كألم الجوع مثلاً ـ وهذا قد يسمح به المحسن إلي، أما إذا انتقلت إلى النوع الثاني والأرفع من الشقاء ـ الألم في سبيل فكرة مثلاً ـ فإنه قلما يعترف بذلك، وقد يكون السبب أنه لم يجد في وجهي تلك الصورة التي في ذهنه عن وجه رجل يشقى في سبيل فكرة. وهكذا فإنه لا يتوانى عن أن يمنع عني عطفه، ولا يكون ذلك قط بدافع من سوء الطوية. إن على المتسولين، وخاصة المتسولين من الفئة العليا، ألاّ يظهروا انفسهم، بل يجب أن يطلبوا الصدقات بواسطة الجرائد. إن الإنسان يستطيع أن يحب جيرانه في الخيال أو يحبهم حتى عن بعد، ولكن من المستحيل عليه أن يحبهم وهم على مقربة منه. إن الأمر لو كان شبيهاً بما يجري على المسرح في رقصات الباليه حيث يدخل المتسولون، مرتدين الأسمال الحريرية والربائط المهلهلة يسألون الناس الصدقات ويؤدون الرقصات البديعة لأحب الإنسان أن ينظر إليهم، ولكن حتى في مثل هذه الحالة لا ينبغي لنا أن نحبهم.

ألا كفانا حديثاً عن هذا. إن ما أردته هو الكشف عن رأيي ولكنني شئت أن اتحدث عن شقاء البشرية بوجه عام. ولكن الأفضل أن نقصر حديثنا عن شقاء الاطفال، فهذا يختزل كلامي إلى العشر. ومع أن ذلك يضعف حجتي، فإني أفضل أن نقصر حديثنا على الأطفال. أما السبب الأول فلأننا يمكن أن نحب الأطفال وهم على مقربة منا، حتى ولو كانوا قذرين، أو حتى دميمين (ومن رأيي أن الأطفال لا يكونون قط دميمين). والسبب الثاني في استبعاد البالغين عن الحديث هو أنه فضلاً عن كونهم منفرين لا يستحقون المحبة، فإنهم قد عوضوا عن الحب، فقد أكلوا التفاحة وهم يعرفون الخير من الشر، واصبحوا «أشبه بالله»، وما زالوا يأكلونها حتى الآن. أما الاطفال فلم يأكلوا شيئاً وهم ابرياء في سنهم هذه. أأنت مغرم بالاطفال يا اليوشا؟ إنني أعلم بأنك مغرم بهم، ولا بد أنك تعي سبب تفضيلي الحديث عنهم. فإذا

نالهم العذاب على الأرض فإن ذلك يكون عقاباً عن ذنوب آبائهم الذين اكلوا التفاحة لكن هذه الحجة هي في العالم الآخر، أما في هذه الدنيا، فلا يدركها قلب الإنسان. إن البريء يجب ألاّ يؤاخذ بجريرة غيره، وخاصة إذا كان كهؤلاء الابرياء! قد تصيبك مني يا اليوشا الدهشة، ولكنني أنا أيضاً مغرم بالأطفال غراماً عظيماً. ولاحظ أن القساة العتاة أهل الشهوات الجامحة من ابناء كرامازوف يكونون في بعض الاحيان جد مغرمين بالأطفال. إن الاطفال في صغرهم ـ إلى أن يبلغوا السابعة من أعمارهم مثلاً ـ مخلوقات تختلف طبيعتهم عن طبيعة الاشخاص المدركين وكأنهم من نوع آخر غير نوعهم. لقد عرفت مجرماً في السجن طالما سطا على منازل ومحا أسرها على بكرة ابيها بما في ذلك العديد من الاطفال. ولكنه عندما دخل السجن، أولع بالاطفال ولعاً غريباً. وقد كان يقضي جلّ وقته أمام النافذة يرقب الاطفال وهم يلعبون في ساحة السجن. وقد استدرج أحدهم وأغراه بالتسلق إلى نافذته واصطفاه صديقاً عزيزاً له... قد لا تدري لماذا أقص عليك كل هذه الاشياء يا اليوشا؟ إنني مصدوع الرأس منقبض النفس.

فقال اليوشا قلقاً: «إنك تتحدث بلهجة غريبة، وكأنك لست في كامل وعيك». ومضى إيفان في حديثه، وقد بدا عليه كأنه لم يسمع كلمات أخيه: «وبهذه المناسبة، لقد سرد علي رجل بلغاري قابلته مؤخراً في موسكو، الجرائم التي اقترفها الاتراك والشراكسة في كل ناحية من نواحي بلغاريا منعاً لقيام ثورة عامة في بلاد السلاف. وقال أنهم احرقوا القرى وأعملوا السيف في رقاب الناس وانتهكوا الاعراض وقتلوا الاطفال، ودقوا آذان الاسرى بالمسامير في الاسيجة وتركوهم هكذا حتى الصباح، حيث ساقوهم إلى المشانق واقترفوا من اصناف الفظائع ما لا يخطر على بال. إن الناس عندما يتحدثون عن القسوة الوحشية، إنما يظلمون الوحوش ويسيئون اللفظ، فالوحش لا يمكن قط أن يجاري الإنسان في قسوته، إن الإنسان مفتن في القسوة. إن النمر لا يزيد عن أن يمزق فريسته وينهشها ولا يخطر بباله أن يدق آذان الاسرى بالمسامير حتى ولو كان يستطيع إلى ذلك سبيلاً. لقد كان هؤلاء الاتراك يتلذذون بتعذيب الاطفال أيضاً، فينتزعون الاجنة من أرحام أمهاتهم، ويقذفون بالاطفال

في الهواء ويتلقفونهم على اسنة الحراب تحت انظار امهاتهم. كان ذلك مما يضاعف متعتهم.

وهاك مشهداً آخر أظنه ممتعاً للغاية! تصور أماً مرتعدة الفرائص وهي تحمل طفلها بين ذراعيها يحيط بها جماعة من الغزاة الاتراك احاطة السوار بالمعصم. إنهم يطلبون التسلية، فتراهم يربتون على الطفل ويضحكون حتى يستضحكوه، ويفلحون في محاولتهم فيضحك الطفل. وفي هذه اللحظة، يصوب أحد الاتراك غدارته إلى وجه الطفل من مدى أربع بوصات، فيشرق وجه الطفل بالضحك ويمد يديه الصغيرتين نحو الغدارة، فيضغط ذاك على الزناد ويلهب دماغ الطفل. إن ذلك فيه افتتان، أليس كذلك؟ وبهذه المناسبة يقال إن الاتراك فيهم غرام خاص بالاشياء الجميلة.

فصاح اليوشا قائلاً: «أخي إلام تهدف من اقوالك؟».

- في ظني أن الشيطان لو لم يكن موجوداً، وأوجده الإنسان، فإنما يكون قد جعله على صورته ومثاله.

فقال اليوشا: «كما أوجد الله إذن؟»

فضحك إيفان وقال: «ما ابدع اسلوبك في تحوير الكلام، كما يقول بولونيوس في رواية هملت، إنك تحور كلامي ضدي، وإنني لمسرور بهذا. لو صح أن الإنسان خلق الله على صورته ومثاله فلا بد أن يكون إلهك جميلاً. لقد سألتني لتوك إلام اهدف. إنني مغرم بجمع حقائق معينة، وقد لا تصدق أنني أنسخ طرفاً من نوع خاص، من الصحف والكتب، حتى اجتمع لي فيها عدد كبير. طبعاً إن للاتراك نصيباً في ذلك ولكنهم غرباء. ولدي نماذج من طرف هذه البلاد تفوق ما لدى الاتراك من طرف. إن من عاداتنا الضرب بالهراوات والسياط، أما دق الآذان بالمسامير فذاك مما لا يدور في خلدنا، لاننا في النهاية، أوروبيون. غير أن الهراوات والسياط تلازمنا دوماً ولن نتركها. إن الناس في خارج بلادنا قلما يلجأون إلى الضرب، فوسائلهم أدنى إلى الإنسانية، أو أن قوانين قد سنت بتحريم الجلد فهم الآن لا يجرؤون على جلد الناس، ويستعيضون عن ذلك بطريقة أخرى خاصة بهم، كما هي طريقتنا خاصة بنا، وهي من خصائصهم حتى ليستحيل أن نطبقها عندنا، ولو إنني

اعتقد بأننا قد اخذنا نطعم بها منذ أن بدأت الحركة الدينية في طبقتنا الأرستقراطية.

إن لدي كراساً رائعاً مترجماً عن الفرنسية، يصف تنفيذ حكم بالإعدام تمّ مؤخراً، لخمس سنوات خلت، بقاتل يدعى رتشارد، وهو كما اعتقد فتى يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، وقد تاب عن ذنبه واعتنق المسيحية على المقصلة. كان رتشارد هذا طفلاً غير شرعي، واعطاه أبواه وهو في عامه السادس إلى بعض الرعاة في جبال سويسرا. واستخدمه هؤلاء ونما بين ظهرانيهم كالوحش الصغير الشرس، ولم يتلقى من العلم شيئاً. وكان الرعاة لا يكادون يدفعون إليه بطعامه ولباسه، وفي عامه السابع أرسلوه لرعاية القطيع تحت وطأة الزمهرير والمطر، ولم يكن أحد منهم يتردد في معاملته هذه المعاملة أو يكلف نفسه عناء التفكير في ذلك بل لقد كان الأمر على نقيض ذلك، فهم يعتقدون بصواب ما يصنعونه بالطفل الذي تسلموه باعتباره متاعاً منقولاً، حتى إن إطعامه لم يروه ضرورة، وقد وصف رتشارد ذاته كيف أنه في تلك السنوات كان كالابن الشاطر الذي ذكره الانجيل، يتوق إلى التهام بعض ما يقدم من علف مطبوخ إلى الخنازير التي كانت تسمّن للبيع، ولكنهم كانوا يحرمونه حتى من هذا ويوسعونه ضرباً كلما شاء أن يسرق شيئاً من طعام الخنازير. واستمر في طفولته وشبابه على حاله هذه حتى نما جسمه واشتد ساعده واصبح قادراً على أن يغادر ذلك المكان ويصبح لصاً. واخذ ذلك الشاب الفظ يكسب قوته كعامل يومي في جنيف، وكان ينفق ما يكسبه في معاقرة الخمرة. وعاش عيشة الشقاوة وعمد إلى قتل رجل عجوز وسرقه ماله. وقد القي القبض عليه وحوكم وصدر الحكم عليه بالموت، فهم في تلك البلاد لا يؤخذون بالعواطف. وما كاد الشاب يدخل السجن حتى أحاط به الكهنة واعضاء الاخويات المسيحية وسيدات الجمعيات الخيرية وأناس غيرهم، وقد علموه القراءة والكتابة في سجنه، وتلوا عليه الإنجيل. والحوا عليه في التبشير واوسعوه وعظاً وكلاماً، دون أن تفتر عزيمتهم، ولا ينقطع لهم سؤال، حتى إنه في نهاية الأمر اعترف بجريمته صادقاً. ثم أدخل في حظيرة الدين، وكتب إلى المحكمة رسالة بخط يده يذكر فيها أنه وحش، ولكن الله في

النهاية تلطف به فهداه سواء السبيل. ولقد احدثت قضيته ضجة كبيرة في جميع أوساط جنيف، بجميع هيئاتها الخيرية والدينية. وتقاطر افراد الطبقة الارستقراطية وابناء المجتمع الراقي في المدينة، إلى السجن يقبلون رتشارد ويعانقونه ويقولون له: إنك أخونا، ولقد تداركتك نعمة الله، وكان رتشارد يكتفي بالانتحاب بحرقة قائلاً نعم! لقد تداركتني نعمة الله! لقد كنت في أيام طفولتي وشبابي كلها اشتهي طعام الخنازير، ومع أن نعمة الله قد ادركتني الآن، فها أناذا أموت بالرب. أجل يا رتشارد، مت بالرب؛ فلقد ارقت دماً ويجب أن تموت، ولو لم تكن أنت صاحب الذنب، إذ أنك لم تكن تعرف الله عندما كنت تتوق إلى طعام الخنازير، وتضرب لانك كنت تسرقه (وهذا خطأ منك فالسرقة أمر حرام)، لكنك سفكت دماً ويجب أن تموت.

وفي اليوم الأخير من أيام رتشارد كان متداعياً ولم يكن يفعل شيئاً سوى البكاء وترديد هذه العبارة في كل دقيقة: إن اسعد أيامي لهذا اليوم، فإنني ذاهب لملاقاة ربي. وكان القساوسة والقضاة والسيدات المحسنات يجيبونه قائلين: نعم، إنه لأسعد أيام حياتك فإنك ذاهب لملاقاة ربك! وقد لحقوا جميعاً بعربة السجن راكبين أو راجلين إلى مكان المقصلة. وهناك صاحوا برتشارد قائلين: مت، أيها الأخ، مت بالرب ولو أن نعمة الله قد تداركتك! وهكذا سيق رتشارد إلى المقصلة تغمره قبلات اخوانه، وحزت عنقه تحت حدها حزاً اخويا لأنه أدرك نعمة الله.

بلى، إن هذه القصة نموذجية. إن هذا الكراس قد ترجمه إلى الروسية بعض رجال البر من الروس من ابناء الطبقة الارستقراطية ومن الطائفة الانجيلية، وتعميماً لفائدته فقد وزع على الناس مجانا. إن قضية رتشارد ملذة لانها وقف على بلد بالذات. ومع ما في حز عنق إنسان من سخف لأنه أصبح أخانا ولأنه أدرك نعمة الله، فإننا أيضاً نمتاز عن غيرنا بأمور أسوأ من هذا الأمر. لقد كانت تسليتنا التاريخية التلذذ المباشر بإيقاع الاذى. إن نيكراسوف كتب قصة يصف فيها فلاحاً يسوط جواده على عينيه، وهما كليلتان. إنها قصة روسية نموذجية فلا بد أن يكون قد قرأها كل إنسان. إنه يصف كيف أن جواداً هزيلاً اثقل صاحبه حمله، فخارت قواه ولم يستطع حراكا، فاخذ الفلاح يضربه

بالسوط ضرباً قاسياً، ثم تعميه قسوته فينهال عليه بالسوط، وهو غافل عما يفعله، دونما شفقة أو رحمة ويصيح قائلاً: مهما بلغ بك الاعياء فيجب أن تنهض بحملك أو تموت دون ذلك. ويتحامل الجواد ويستجمع اشتات قواه الخائرة، فيعود الفلاح إلى جلد هذا المخلوق الضعيف البائس على عينيه الكليلتين الدامعتين وينهض الحيوان الذي ارهقه الضرب فينوء بحمله، وجسمه يرتعد وهو يلهث ويستجدي الهواء ويتأرجح في سيره ذات اليمين وذات اليسار وهو يرتعش ارتعاشاً غير طبيعي، إن وصف نيكراسوف مخيف. إنه ليس أكثر من حصان، وقد كتب الله على الخيل أن تساق وتضرب. هذا ما اخذناه عن التتار الذين خلفوا لنا السوط تذكاراً له.

غير أن البشر يضربون أيضاً. فقد بلغني أن رجلاً واسع العلم عظيم الثقافة قام مع زوجته بضرب طفلتهما البالغ عمرها سبع سنوات بغصن شجرة وعندي نبأ دقيق لذلك. وقد سر الأب أن الغصن كان كثير الفروع وقال: إن هذا يضاعف وجعه. وهكذا طفق يشبع طفلته وجعاً. إنني أعلم علم اليقين بوجود أناس ينساقون إلى وحشية، تكون حقيقية مع كل ضربة يضربونها، وكلما زادوا ضربهم ازدادوا وحشية وهم يضربون دقيقة، وخمس قائق، وعشر دقائق وأكثر من هذا وبوحشية متزايدة. وصرخت الطفلة حتى بح صوتها واختنق فأخذت تلهث قائلة: ابتاه! ابتاه! ويشاء الحظ العاثر أن تعرض القضية على المحكمة ويوكل الاب محامياً والمحامي معروف عند الشعب الروسي منذ القديم بلقب «ضمير للاجرة». ويقول هذا المحامي في دفاعه عن وكيله إن هذا أمر بسيط وهو ما يحدث يومياً في كل بيت، فالأمر لا يعدو كونه أباً يقوّم طفله ومجرد عرض القضية على المحكمة عار لنا. ويقتنع المحلفون باقواله فيصدرون حكماً في صالح المتهم. وإذ يخلى سبيل ذلك الجلاد يضج الحضور بالبهجة. إن من المؤسف ألاّ أكون حاضراً الجلسة! وإلا لاقترحت أن يكتتب الناس بالنقود تكريماً له!... يالها من صور ساحرة.

إن عندي أشياء أفضل من هذه عن الاطفال، فلقد جمعت مقداراً عظيماً من القصص عن الاطفال الروس يا اليوشا. كانت هنالك طفلة صغيرة في الخامسة من عمرها، وكان والداها يكرهانها وهما من ارفع الناس قدراً

واعظمهم احتراماً ويمتازان بغزارة العلم وحسن التربية. ينبغي لي أن أكرر لك أن هذا الغرام بتعذيب الاطفال، والاطفال وحدهم، هو ميزة غريبة يمتاز بها الكثيرون. إنهم يعاملون سائر ابناء البشرية بالمودة والاحسان، على طريقة الأوروبيين المثقفين الإنسانيين، ولكنهم جد مغرمين بتعذيب الاطفال، بل إنهم مغرمون بالاطفال انفسهم بدافع من غرامهم بتعذيبهم، إن عجز الاطفال هو الذي يحرض معذبيهم عليهم، وإن ما يلهب في نفوس هؤلاء نار التشفي هو تلك الثقة الملائكية المتجلية في الطفل الذي لا ناصر له ولا معين. إن في كل إنسان بطبيعة الحال شيطاناً متخفياً، شيطان الغضب، شيطان النشوة الشهوانية التي توقدها صيحات الضحية المعذبة، شيطان الفوضى المنطلق من عقاله، شيطان الامراض التي تتبع الرذيلة، امراض المفاصل والكلى وما شابه ذلك.

لقد تعرضت هذه الطفلة المسكينة التي تبلغ الخامسة من عمرها إلى أقسى أنواع العذاب على يد أبويها المهذبين. لقد قاما بضربها وجلدها وركلها بلا سبب، حتى غطت الكدمات جسمها. ثم أتبعا ذلك بأصناف من القسوة هي أكثر رفقاً وتهذيباً، فسجناها وحيدة ليلة كاملة تحت البرد والصقيع، ونظراً لانها لم تطلب منهما ليلاً أن يبيلاها (كأن طفلاً في الخامسة من عمره وقد اخذه النوم الهادىء العميق، يمكن أن يستيقظ لقضاء حاجته) فقد لطخا وجهها وملآ فاها بالغائط. وكانت أمها، أمها بذاتها هي التي فعلت بها ذلك الفعل. ونامت أمها قريرة العين على أنات الطفلة المسكينة! هل تدري السبب الذي يحتم على مخلوقة صغيرة عاجزة عن فهم ما يجري لها، أن تضرب على صدرها المتألم بقبضتها الصغيرة في الظلام والبرد، وتبتهل إلى الله العزيز الرحيم بدموعها الضعيفة البريئة أن يحميها؟ هل تدري سبب ذلك يا صديقي وأخي، أنت الذي تحضر نفسك لتكون راهباً متديناً؟ هل تعلم السبب في وجوب السماح بهذا الأمر المشين؟ لقد قيل لي إنه لولاه لما كان للإنسان أن يحيا على وجه الأرض، إذ بدونه لا يستطيع أن يميز بين الخير والشر. ألا تباً لهذه المعرفة إذا كانت تتطلب مثل هذا الثمن الباهظ؟ إن كل ما في العالم من معرفة لا يوازي ضراعة تلك الطفلة إلى الله العزيز الرحيم! إنني لا أقول

شيئاً عن الآلام التي يقاسيها الكبار، فقد أكلوا التفاحة. فليجنوا جزاء فعلهم، ولكن هذه المخلوقات الصغيرة! إنني أشقيك بكلامي هذا يا اليوشا، فأنت لا تبدو على طبيعتك، سأصمت إذا شئت.

فتمتم اليوشا قائلاً: «لا بأس عليك فإنني أنا أيضاً أريد أن اشقى».

- إليك صورة واحدة أخرى فقط، لأنها عظيمة الغرابة، ونموذجية إلى حد بعيد، ولقد قرأتها لتوي في مجموعة «الماضي الروسي» أو في غيرها لم أعد أتذكر وقد حدثت قصتها في أظلم أيام عهد رقيق الأرض، في مطلع هذا القرن. عاش محرر الشعب[1]! كان يعيش آنذاك جنرال ذو اتصالات رفيعة وكان يملك ضياعاً واسعة، وهو واحد من اولئك الرجال - بل اعتقد أنه كان مثالاً فريداً نادراً إلى حد ما حتى في تلك الأيام - الذين بعد تقاعدهم وانصرافهم إلى حياة الفراغ يقتنعون بأنهم حازوا السلطة المطلقة على ارواح أتباعهم. لقد وجد مثل هؤلاء الأشخاص آنذاك. وهكذا استقر المقام بهذا الجنرال الذي احدثك عنه في أملاكه التي تضم الفي نسمة، في جو من البذخ والتظاهر بالعظمة والتسلط على جيرانه المساكين وكأنهم كانوا اتباعه ومهرجيه. وكانت لديه زرائب تضم مئات كلاب الصيد يعنى بها حوالي مائة صبي، جميعهم يمتطون الخيول ويرتدون زياً موحداً. وفي ذات يوم كان طفل صغير من ابناء رقيق الأرض يبلغ الثامنة من عمره يلهو بقذف الحجارة، فأصاب باحداها مخلب الكلب الاثير على نفس الجنرال. فسأل من حوله قائلاً: «لم يعرج كلبي المفضل؟» فانبأوه أن الصبي قذف حجراً اصاب به مخلبه. فصعّد الجنرال بصره في الطفل من رأسه إلى قدمه وقال: إذن فقد اقدمت على هذه الفعلة. وصاح بمن حوله قائلاً: احملوه فحملوه، وأخذوه من أمه وسجنوه طول الليل. وفي صباح اليوم التالي كان الجنرال يتهيأ للصيد وسط استعراض كبير. كان ممتطياً صهوة جواده تحفّ به كلابه واعوانه وخدمه ومرافقوه وجميعهم يمتطون الجياد. واستدعي الخول من بيوتهم، ووقفت أم الطفل أمام الجميع، وجيء بالطفل من سجنه. وكان اليوم كئيباً

(١) هكذا كان يلقب الاسكندر الثاني لتبنّيه تحرير الأقنان سنة ١٨٦١.

قارساً تعاقد فيه ضباب الخريف، وهو من أفضل أيام الصيد، وأمر الجنرال بنزع كامل الثياب عن الطفل فتمت تعريته تماماً. وأخذ يرتجف وقد عقد الفزع لسانه فلا يجرؤ على البكاء... وصاح الجنرال قائلاً: ارغموه على الركض. ويصيح الفتيان به قائلين: اركض اركض! ويعدو الطفل ويغري الجنرال به كلابه كلها فتندفع خلفه وتلحق به وتمزقه ارباً ارباً أمام عيني أمه!... وأعتقد أنه اعلن الحجر على الجنرال فيما بعد، والآن ماذا كان يستحق؟ إطلاق النار عليه؟ أم رميه بالرصاص ارضاء لمشاعرنا الادبية؟ أنطق يا اليوشا!

فرفع اليوشا عينيه إلى إيفان وتمتم قائلاً وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة مغتصبة: أجل، إنه يستحق أن يرمى بالرصاص.

وصاح إيفان مبتهجاً: مرحى! إذا كنت حتى أنت تقول مثل هذا الكلام، يا للراهب الرائع! إذاً ثمة شيطان صغير يجلس في قلبك يا اليوشا كرامازوف.

ـ إن ما قلته كان سخيفاً، ولكن.

فصاح إيفان قائلاً: إن «لكن» هذه هي محور القضية ألا فاعلم أيها الراهب المتبدىء أن السخف لا غنى عنه في ارضنا. فعالمنا قائم على السخافات، ولولاها لما حدث شيء، إننا نعلم ما نعلمه!

ـ وماذا تعلم؟

فتابع إيفان كلامه قائلاً وكأنه يهذي: إنني لا أفهم شيئاً، ولا أريد الآن أن افهم شيئاً. بل اريد أن استمسك بالحقيقة. لقد عولت منذ زمن بعيد على ألا أفهم. وإذا حاولت أن أفهم شيئاً، فإنما أشوّه الحقائق، وأنا حريص على عدم الخروج عليها.

فهتف اليوشا قائلاً وهو يشعر بمرارة: ولم تجربني؟ هل لك اخيراً في أن توضح لي ما تعني؟

ـ سأوضح لك ذلك طبعاً؛ فهذا ما كنت أرمي إليه، إنك عزيز على نفسي، ولا أريد أن اسلمك إلى الأب زوسيما.

ثم صمت إيفان لحظة، وبدا محياه واجماً ثم قال:

«أصغ إلي! لقد اخترت قصص الاطفال حتى ادعم قضيتي بالبرهان. أما فيما يتعلق بدموع البشرية الاخرى التي تغرق ارضنا من سطحها إلى مركزها فلن أقول شيئاً. فلقد ضيقت مجال حديثي عامداً. لست سوى حشرة وأعترف بذلك أنني لا استطيع أن أفهم السبب في أن الدنيا قد نظمت بالشكل بالذي نراها عليه. والذنب ذنب البشر أنفسهم كما اظن؛ فقد اعطوا الفردوس فآثروا الحرية وسرقوا النار من السماء، مع ادراكهم انهم سيصبحون اشقياء، وهكذا فلا حاجة بنا إلى الرثاء لحالهم. وحسب ادراكي السقيم الارضي الخاضع لنظريات اقليدس فكل ما اعرفه هو أن الشقاء موجود وأنه ليس هناك مذنبون. وأعلم أن السبب يتبع الأثر مباشرة وبيسر، وإن كل شيء ينقضي في النهاية، ولكنه التوازن لا بد قائم. إنها سخافة اقليدسية لا اوافق على أن احيا بها! ما هو عزائي في أنه ليس هناك من مذنب وأن السبب يتبع الاثر مباشرة وبيسر، وفي أني أعلم ذلك، يجب أن أنصف وإلا حطمت نفسي. إني أنشد عدلاً لا أريده في زمان ومكان لا نهاية لهما بل في هذه الدنيا حتى استطيع أن أراه بنفسي. لقد آمنت بالعدل، واريد أن أراه، فاذا مت قبل حلوله فلأنهض ثانية من جدثي، لأنه لو تم الأمر بعدي فيسكون ذلك ظلماً عظيماً. هل يكفيني أن أكون أنا بجرائمي وآلامي سماداً يخصب التربة التي سينمو فيها الانصاف لانسان غيري. إنني أريد أن أبصر بأم عيني الغزال يستلقي بهدوء وأمان أمام الأسد، والقتيل ينهض ويعانق قاتله. إنني أريد أن اكون حاضراً عندما ينكشف بغتة سر الخليقة. إن جميع الاديان في الدنيا قائمة على هذا الانتظار، وأنا إنسان مؤمن. ولكن عندئذ تبرز مسألة الاطفال، وماذا عساي اصنع بأمر هذه المسألة؟ إنها المشكلة التي لا اجد لها حلاً. وتراني اقول للمرة المائة أن هناك عدداً من المسائل، ولكنني اخترت مسألة الاطفال، لان ما يهمني من امرهم هو واضح لا يتطرق إليه الشك!

قل لي: إذا كان على الجميع أن يكون شقاؤهم ضريبة الانسجام الابدي، فما دخل الاطفال في ذلك؟ انبئني بذلك مشكوراً. إن جميع الافهام لتعجز عن أن تدرك علة شقاء الاطفال، والسبب الذي يحتم عليهم دفع ضريبة الانسجام. لماذا يجب أن يهيء الاطفال السماد لاخصاب التربة التي سينمو

فيها الانسجام في المستقبل؟ إنني أفهم قيام الوحدة في خطايا الناس، وافهم كذلك قيام الوحدة في التكفير عن هذه الخطايا؛ ولكن لا يمكن أن تقوم مثل هذه الوحدة بالنسبة للاطفال. فاذا قيل إنهم يجب أن يتحملوا نصيبهم من مسؤولية جرائم آبائهم فمثل هذه الحقيقة ليست من حقائق هذه الدنيا وهي بعيدة عن فهمي. وربما تخابث مازح وقال إن الطفل مكتوب عليه أن يكون خاطئاً عندما يكبر، فأقول له، ولكنه لم يكبر، بل مزقته الكلاب إرباً إرباً وهو في الثامنة من عمره أواه يا اليوشا إنني لا اجدف! إنني أفهم بطبيعة الحال أي تهليل سيشهده الكون عندما يندمج ما في السماء والأرض ويصبح ترنيمة تمجد الخالق، وعندما يصيح جميع الاحياء ومن كانوا أحياء بصوت واحد: «إنك عادل يا رب لأنك كشفت لنا اسرار حكمتك»، وعندما تعانق الأم ذلك الشرير الذي جعل الكلاب تمزق طفلها ويصيح الثلاثة عالياً والدموع تترقرق في مآقيهم: «إنك عادل يا رب»! فعندها بطبيعة الحال ستنهتك اسرار المعرفة وتنجلي معميات الاشياء. غير أن ما يهيج اشجاني في هذه الدنيا هو أنني لا استطيع أن اسلم بوجود الانسجام، وطالما كنت اعيش على ظهر الارض فإنني عظيم الشوق لاتخاذ اجراءاتي الخاصة. قد يحدث يا اليوشا انني لو عشت إلى تلك اللحظة أو بعثت فيها حياً، فقد اصيح أنا أيضاً بصوت عال مع الصائحين وأنا ابصر الام تعانق معذب طفلها: «إنك عادل يا رب»! لكنني لا أريد عندئذ أن أفعل ذلك، فسأحرص سلفاً على حماية نفسي، وهكذا انبذ الانسجام الأسمى جملة، فهذا الانسجام لا يتكافأ مع دموع تلك الطفلة المعذبة التي ضربت صدرها بقبضتها الصغيرة وهي تضرع في مكان قذر بدموعها المبرأة من الحقد إلى الله العزيز الرحيم! إنه لا يتكافأ معها لانها دموع غير مفتداة. ويجب أن تفتدى وإلا لما كان هناك إنسجام. ولكن كيف تفتدى وبم؟ هل يمكن ذلك؟ هل عن طريق الانتقام لها؟ وما شأني بالانتقام لها؟ وماذا يهمني أن يكون قساة القلوب في الجحيم؟ وما الفائدة من وجود الجحيم طالما أن الطفلة عذبت فعلاً؟ وأين يصبح الانسجام لو وجد الجحيم؟ إنني أريد أن اصفح. وأريد أن اعانق. وارجو زوال الشقاء. ولو كانت آلام الاطفال لا بد منها لاتمام الآلام التي يجب أن تدفع ثمناً للحقيقة، فإنني

اعترض على ذلك بأن الحقيقة لا تستحق مثل هذا الثمن. انني لا أريد أن تعانق الام ذلك المستبد الذي قذف بابنها إلى الكلاب! إنها لا تجرؤ على أن تصفح عنه! لتصفح عنه إذا شاءت باسمها. لتصفح عن الآلام الهائلة التي عانت منها. لكنها لا تملك الحق في الصفح عن الجاني على الآلام التي الحقها بابنها المعذب، حتى ولو صفح عنه الطفل. فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان الناس لا يجرؤون على الصفح فماذا يكون عن أمر الانسجام؟ هل هناك مخلوق في الدنيا كلها يملك حق الصفح ويستطيع أن يصفح؟ إنني لا أريد الانسجام وارفضه بدافع من محبتي للإنسانية، بل أفضل أن يبقى شقائي الذي لم ينتقم له، وازدرائي الذي لم يكفر عنه، حتى ولو كنت مخطئاً في ذلك. وفضلاً عن ذلك فإن الثمن الذي يطلب لقاء الانسجام هو ثمن باهظ؛ ولا نملك ثمن بطاقة الدخول إلى الانسجام. وهكذا فإنني سأرد بطاقتي. وإذا كنت انساناً شريفاً فلا مندوحة لي عن أن اردها باسرع وقت ممكن. وهذا هو عين ما افعله، إن مالا اقبله ليس الله يا اليوشا، وكل ما في الأمر هو انني ارد له البطاقة بكل احترام.

فتمتم اليوشا وهو مطأطىء الرأس: «إن هذا تمرد».

فأجابه إيفان، وقد بان الاخلاص في وجهه: «تمرد؟ يؤسفني أن يكون هذا حكمك. إن الإنسان قلما استطاع أن يحيا في تضاعيف الثورة، وأنا أريد أن احيا. إنني اتحداك، اجبني على هذا السؤال تصور أنك تصمم بناء المصير الإنساني، وهدفك من ذلك أن يصبح الناس سعداء في النهاية، بعد أن تؤمن لهم السلام والراحة، ووجدت أن لا مندوحة عن تعذيب وقتل مخلوق واحد ضئيل، مثلاً تلك الطفلة التي تضرب صدرها بقبضة يدها، وأن بناءك هذا لا يمكن أن يقوم إلا على دموعها التي لم ينتقم لها، فهل كنت ترضى أن تكون الصانع وفق هذه الشروط؟ انبئني وكن صادقاً في قولك».

فأجاب اليوشا بصوت هادىء: كلا ما كنت لاوافق على ذلك.

- وهل توافق أن يرضى الناس الذين تقوم أنت بتأسيس ذلك البناء لهم، أن تكون سعادتهم قائمة على أساس من دم ضحية صغيرة؟ وهل يظلون سعداء إلى الابد لو وافقوا على ذلك؟

فأجاب اليوشا مسرعاً وقد تألقت عيناه: «كلا إنني لا استطيع الموافقة على ذلك يا أخي. لقد تساءلت الآن، هل هناك مخلوق في الدنيا كلها يملك حق الصفح ويستطيع أن يصفح؟ ولكن هنالك إله يستطيع أن يصفح عن كل شيء، ويغفر للجميع. لقد وهب دمه البريء للانسانية جمعاء. إنك نسيته، فعليه تأسس البناء، وإليه يرفعون اصواتهم قائلين: «إنك عادل يا رب لأنك كشفت لنا سرك!»».

ـ إنك تتحدث عن الخالق المبرأ من الخطايا، وعن دمه! كلا إنني لم أنسه، بل العكس، فقد ادهشتني طيلة الوقت كيف أنك لم تذكره قبل الآن؛ لانك في جميع محاولاتك تجعله في طليعة ما تستشهد به. إعلم يا اليوشا، لا تضحك! لقد نظمت شعراً قبل عام فلو ملكت أن تضيع من وقتك عشر دقائق اخرى لتلوته عليك.

ـ انت نظمت شعراً؟

فضحك إيفان وقال: كلا إنني لم انظم شعراً ولم يحدث أن نظمت بيتين منه طول حياتي. ولكنني جعلته شعراً منثوراً وحفظته عن ظهر قلبي ولقد حلقت في سماء الخيال عندما كتبته، وستكون أنت أول قارئيه، أعني سامعيه. وابتسم إيفان قائلاً: «ليس المؤلف مجبراً على أن يتجاهل ولو حكم مستمع واحد؟ هل اتلوه عليك؟»

إني منصت بشوق واهتمام.

ـ عنوان قصيدتي «رئيس محاكم التفتيش»، وهي شيء مضحك ولكن يسرني أن أسمعك إياها.

رئيس محاكم التفتيش

تابع إيفان كلامه ضاحكاً: لا بد من مقدمة حتى لهذه القصيدة المضحكة أي مقدمة ادبية، وأنا لست كفءاً لتدبيج مقدمة. إن حوادث قصيدتي وقعت في القرن السادس عشر، ولعلك تعلمت في المدرسة أنه كان من عادتهم في ذلك العصر أن ينزلوا القوى السماوية إلى الأرض في اشعارهم. وفضلاً عن دانتي شاعر إيطاليا، فقد كان من عادة الكهنة والرهبان في الأديرة أن يقدموا بانتظام مسرحيات يمثلون فيها على المسرح ادوار السيدة العذراء والقديسين والملائكة والسيد المسيح والباري تعالى نفسه. وكانت هذه المسرحيات تقدم في ذلك العصر بكل بساطة فلا يشعر أحد بحرج لذلك. وقد وصف فكتور هوغو في روايته «أحدب نوتردام» تمثيلية لتهذيب الارواح قدمت للشعب مجاناً على مسرح فندق «اوتيل دوفي» في باريس في عهد لويس السادس عشر احتفاء بمولد ولي عهده. وكان اسم هذه المسرحية «الحكم الصائب للكلية القداسة الرحيمة العذراء مريم» وتبدو فيها العذراء نفسها على المسرح وتنطق بحكمها الصائب. وعندنا على مسارح موسكو أيضاً، كانت تمثل بين حين وآخر، حتى في أيام بطرس الاكبر، مسرحيات مماثلة معظمها مقتبس عن التوراة. وعدا هذه المسرحيات، فإن انواعاً متعددة من الاساطير والقصائد انتشرت في انحاء عدة من العالم، كان يشترك فيها عند الحاجة الملائكة والقديسون وجميع القوى السماوية. وكان الرهبان في اديرتنا منهمكين في ترجمة ونسخ ونظم مثل هذه القصائد حتى في عهد التتار. واذكر لك منها على سبيل المثال قصيدة مترجمة عن اليونانية طبعاً بعنوان «جولات سيدتنا العذراء في الجحيم» إنها لا تقل جرأة في الوصف عن شعر دانتي، وفيها تزور سيدتنا العذراء أماكن التعذيب في الجحيم، ويسير

ميخائيل رئيس الملائكة امامها دليلاً، فترى الخطاة وهم يلقون العقاب، وكان بينهم جماعة تلفت النظر، في بحيرة مشتعلة فمن غاص فيها منهم، أصبح لا يستطيع الخروج منها. وهؤلاء إنما «نسيهم الله»، وهو تعبير يدل على قوة وعمق عظيمين، ويبلغ التأثر بسيدتنا العذراء مداه فتبكي، وتجثو أمام عرش الله ملتمسة الرحمة لجميع أهل الجحيم، لا تميز بين واحد وآخر. ويدور بينها وبين الله حديث طريف للغاية. فهي تتوسل إليه، وتلح بالتوسل، وعندما يشير الله إلى يدي ابنه وقدميه المسمرة على الصليب، ويسألها قائلاً: كيف استطيع أن اصفح عن جلاديه؟ تمضي هي وتطلب إلى جميع القديسين والشهداء، وجميع الملائكة ورؤساء الملائكة أن يجثوا معها ويلتمسوا الرحمة للجميع بدون تمييز. وتظفر في النهاية بوعد من الله أن يرفع التعذيب عن الخطاة بين يوم الجمعة العظيمة ويوم احد الثالوث من كل عام، وعندئذ تدوي اصوات الخطاة بالشكر، من الجحيم، ينشدون: «إنك عادل يا رب في هذا الحكم». حسناً، لو أن قصيدتي ظهرت في ذلك العصر لكانت على هذا النسق. إن السيد المسيح يظهر على المسرح في قصيدتي، ولكنه لا يقول شيئاً، بل يظهر ثم يمضي. خمسة عشر قرناً انقضت منذ أن وعد بأن يعود إلى مملكته، خمسة عشر قرناً انقضت منذ كتب رسوله يقول: إني آت قريباً[1] وقد تنبأ هو نفسه على الأرض بأن اليوم والساعة لا يعلمهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن، بل الأب وحده. ولكن البشرية ما زالت تنتظره بنفس الإيمان ونفس المحبة، بل بإيمان اعظم، لأن خمسة عشر قرناً قد انقضت منذ أن انقطعت علامات السماء عن الظهور للإنسان: «لا تظهر علامات من السماء لكي تؤكد ما يقوله الفؤاد». ليس من قيمة بعد الآن سوى للإيمان بما يقوله القلب. صحيح أن تلك الأيام شهدت معجزات كثيرة، وظهر اثناءها قديسون اتوا المعجزات في شفاء المرضى؛ وإذا صدقت سير بعض الصالحين الذين عاشوا في تلك الأيام فإن ملكة السماء نفسها كانت تظهر لهم ولكن الشيطان لم يكن مستسلماً للسبات، فأخذ الشك في صحة تلك المعجزات يتطرق إلى نفوس الناس. وفي ذلك

---

(١) إشارة إلى قول المسيح (الإصحاح الثاني والعشرون من رؤيا يوحنا الرسول).

العصر بالذات ظهرت في شمال المانيا بدعة جديدة رهيبة، خلاصتها أن كوكباً هائلاً شبيهاً بالمشعل (وهو الكنيسة) سقط على ينابيع المياه فجعلها مرة المذاق. وقد بدأ الهراطقة يجدفون منكرين تلك المعجزات. أما الذين حافظوا على إيمانهم، فقد ازداد ايمانهم واشتدت حماستهم، وصعدت من جديد دموع البشرية إلى السيد المسيح كما صعدت إليه من الماضي وكانت البشرية تنتظر قدومه وقد افعمت القلوب بمحبته، وعمرت بالرجاء فيه، وتاقت النفوس إلى العذاب والموت من أجله كما حدث في السابق. وما زالت البشرية تبتهل منذ قرون بإيمان وحرارة مرددة: «أيها الرب إلهنا، عجل مجيئك الينا». لقد تردد هذا الابتهال اجيالاً عديدة حتى إنه برحمته التي لا تحدها حدود تنازل وشاء أن ينزل إلى عبيده. ولقد نزل حتى ذلك الحين وزار بعض الصالحين والقديسين وبعض الشهداء والنساك كما هو مدون في سيرهم وقد تغنى بذلك شاعرنا تيوتشيف الذي قال بكلمات مفعمة بالإيمان:

إن ملك السماوات، مرتدياً زي العبيد

منحنياً تحت ثقل صليبه

جاء لكي يبارك أمّنا روسيا

وتجول في أرض بلادنا

واؤكد لك أن هذا ما حدث فعلاً

لقد شاء الرب هذه المرة أن يظهر لحظة لجميع المعذبين المتألمين الغارقين في لجج الظلم، والذين يحبونه مع ذلك حب الأطفال لآبائهم. إن حوادث قصتي وقعت في اسبانيا، وفي مدينة اشبيلية منها، في أحلك فترات محاكم التفتيش، عندما كانت تضرم النيران في كل يوم تمجيداً لله؛ «وفي اللهيب المستعر كان يحرق الهراطقة». ولم يكن المقصود طبعاً عودته الموعودة المفاجئة عند نهاية الأزمنة بجلاله السماوي العظيم، كبرق يسطع من الشرق إلى الغرب[1]. كلا، لقد زار ابناءه لحظة ومضى، في تلك الاماكن

---

(١) بمثل هذا وصفت عودة المسيح في انجيل متى (الإصحاح ٢٤).

التي كانت السنة اللهيب تلتهم الهراطقة. وبدافع من محبته الإلهية، ظهر مرة أخرى بين الناس بصورته البشرية التي ظهر بها على الأرض طيلة ثلاث وثلاثين سنة قبل خمسة عشر قرناً. لقد نزل إلى الشوارع الملتهبة في تلك المدينة الجنوبية، حيث أحرق في اليوم السابق لنزوله زهاء مائة من الهراطقة ـ لمجد الله العظيم ـ تحت اشراف الكردينال رئيس محاكم التفتيش، وبحضور الملك ورجال البلاط والفرسان والكرادلة وأجمل نساء البلاط، وجميع سكان اشبيلية.

لقد ظهر مسترقاً الخطى متحاشياً مظاهر العظمة، ومع ذلك فإن من الغريب أن الجميع عرفوه. وقد يكون هذا المقطع أبدع مقاطع القصيدة، عنيت المقطع الذي يبين كيف أنهم تعرفوا عليه. فقد أحس الناس بجاذبية نحوه لا قبل لهم بمقاومتها، فأحاطوا به، والتفوا حوله، وتبعوه ومضى هو بينهم صامتاً وعلى ثغره ابتسامة عطف لا حدود له. إن شمس المحبة تتقد في قلبه، ومن عينيه يشرق النور والقوة، فيغمران المؤمنين من حوله ويبثان المحبة في قلوبهم ويمد يديه نحوهم، ويباركهم، فينعم بالشفاء كل سقيم مسه أو مس طرف ردائه. ويخرج من بين الجماهير رجل مسن عمي منذ الطفولة، قائلاً: ابرئني يا رب لكي امتع نظري برؤيتك! فتنزاح عن عينيه غشاوة العمى ويشاهد الرب. وطفقت الجماهير تبكي وتلثم الأرض تحت قدميه. واخذ الاطفال ينثرون الزهور أمامه منشدين: خلصنا يا ابن الله. وكانت الجموع تردد «إنه هو، إنه هو، لا ريب في أنه هو لا ريب في أنه هو، ولا يمكن أن يكون احداً سواه»! واتفق أنه وقف على درجات كاتدرائية اشبيلية عندما كان يهم بدخولها جمع يحمل نعشاً صغيراً ابيض مكشوفاً، يرقد فيه جثمان طفلة في السابعة من عمرها. كانت الابنة الوحيدة لأحد الناس من علية القوم. وكانت الطفلة ترقد في النعش تغمرها الزهور. وهتفت الجماهير بالوالدة المنتحبة: «إنه سيحيي ابنتك». وكان الكاهن قادم لملاقاة النعش، فظهرت عليه الحيرة وقطب جبينه عندما القت والدة الطفلة المتوفاة بنفسها على قدميه واستسلمت للعويل، ورفعت ذراعيها نحوه ضارعة وصاحت: «إن كنت أنت هو، فردّ إلى ابنتي حياتها». ووقف موكب الجنازة ووضع النعش على الدرجات تحت قدميه. واخذته الرأفة بالمرأة، ولفظت شفتاه من جديد ذلك النطق الرقيق:

انهضي يا صبية[1]! وقد نهضت الصبية. جلست البنت الصغيرة مبتسمة في النعش وهي تجيل نظراتها فيما حولها بعينين مدهوشتين، وكانت تقبض على ضميمة من الورد الابيض وضعت في يدها.

وتعالت اصوات الجموع بالهتاف والبكاء وساد بينهم الهرج، وفي تلك اللحظة مر الكاردينال، رئيس محاكم التفتيش نفسه. إنه رجل مسن يناهز التسعين من عمره، طويل القامة منتصب العود، معروق الوجه غائر العينين، ولكنه ما زال ينبعث من عينيه وميض من نور. ولم يكن في ذلك اليوم مرتدياً ثوب الكاردينالية الفخم الذي كان يرتديه في اليوم السابق عندما احرق اعداء الكنيسة الكاثوليكية، بل كان مرتدياً جلباب الرهبنة الخشن القديم. وعلى بعد منه كان يسير خلفه اعوانه وعبيده وحرس القداس الاحتفالي العابسون. وقف الكاردينال عندما شاهد الجمع أمام الكاتدرائية، وأخذ يرقبهم عن كثب، فرأى كل شيء؛ رأى النعش عند قدمي السيد المسيح، ورأى الطفلة تنهض، فاحتقن الدم في وجهه، وقطب حاجبيه الغليظين الشائبين، واتقدت في عينيه نار الشر. وقد أومأ باصبعه إلى حراسه أن اقبضوا على السيد المسيح. وكان استطاع بسلطته العظيمة، أن يرهب الناس ويجعلهم يخضعون له ويطيعون اوامره خوفاً، وها هي الجموع تفسح في الحال طريقاً للحراس. وفي صمت يشبه سكون الموت قبض هؤلاء على السيد المسيح واقتادوه أمامهم. وجثت الجموع في الحال وبحركة واحدة أمام رئيس محاكم التفتيش العجوز، الذي باركهم بصمت ومضى. أما الحراس فقد اقتادوا اسيرهم إلى السجن المظلم المقفل ذي الاقبية، في القصر القديم، مقر محكمة التفتيش المقدسة، واحتجزوه هناك. انقضى النهار واعتقبه الليل. إنه ليل مدينة اشبيلية، الحالك الثقيل الحار. وكان «يعبق في الهواء اريج الغار والليمون»[2]. وفي ظلمة الليل الحالكة فتح بغتة باب السجن الحديدي ودخل رئيس محاكم التفتيش نفسه، وهو يحمل مصباحاً في يده وأقفل الباب خلفه حالاً. ووقف في مدخل

---

(١) وردت هذه المعجزة للسيد المسيح في انجيل متى (الإصحاح التاسع) وانجيل مرقص (الإصحاح الخامس).

(٢) مقتبس من وصف شاعري لمدينة اشبيلية.

السجن محدقاً لأكثر من دقيقة في وجه السيد المسيح. واخيراً أقبل عليه متثاقلاً، ووضع المصباح على المنضدة وأخذ يخاطبه:

ـ أحقاً أنت هو؟ أحقاً أنت! وإذ لم يظفر منه بجواب، اردف يقول: أنت وشأنك، لا تجب، إبق ساكتاً. ولعمري ماذا يمكنك أن تقول؟ إنني أعلم جيداً ما يمكنك قوله. ثم إنك لا تملك الحق في أن تضيف شيئاً لما قلته في سالف الأيام. فلأي سبب إذاً اتيت تعيق حياتنا؟ إنما أتيت لكي تعيق حياتنا، وأنت تعلم ذلك. ولكن هل تعلم ما ينتظرك غداً؟ إنني لا أعلم من أنت، ولا أحفل بأن أعلم إن كنت أنت هو، أو إنك صورة عنه. ولكني سأحكم عليك غداً بالموت واحرقك كما يحرق ارذل الهراطقة. إن اولئك الناس انفسهم الذين لثموا اليوم قدميك، سيهرعون في الغد عند أول اشارة مني لكي يكدسوا حطب النار التي سأحرقك فيها. هل تعلم ذلك؟ ثم اضاف وهو نافذ النظر إلى السجين لا يرفع نظره عنه لحظة واحدة: نعم، لعلك تعلم ذلك.

فقال اليوشا مبتسماً، بعد أن ظل يصغي إلى أخيه بصمت: «إنني لا أفهم تماماً يا إيفان: ماذا تعني قصيدتك؟ أهي مجرد قطعة من خيالك الجامح، أم أنك اردت القول أن ثمة خطيئة وقع فيها الرجل العجوز، أهو التباس يستحيل وقوعه؟».

فقال إيفان ضاحكاً: فليكن الاحتمال الثاني، ما دامت الواقعية الحديثة قد افسدتك، وما دمت عاجزاً عن فهم أمر خيالي. وتابع كلامه وهو يضحك فقال: «إذا شئت أن تكون المسألة مسألة التباس، فلتكن كذلك. فإن الرجل العجوز كان يناهز التسعين، ولعله بلغ مرحلة العته، ولعله أخذ بظهور سجينه العظيم. وقد تكون حقيقة الأمر أنه مجرد انفعال عظيم، ونتيجة لخرف ذلك الرجل الهرم الذي ناهز التسعين، وقد بات شديد التأثر بالنار التي احرق فيها مائة من الهراطقة في اليوم السابق. على أن هذا الأمر لا يعنينا سواء أكان التباساً أم خيالاً جامحاً؟ إن ما يعنينا منه هو أن يتكلم الرجل العجوز، وأن يجهر بما جال في فكره مدة تسعين عاماً».

ـ وهل ظل السجين صامتاً؟ هل كان ينظر إليه ولا ينبس ببنت شفة؟

فعاد إيفان إلى الضحك وقال: «إن ذلك لا بد منه على أي حال. لقد

أبلغه الرجل العجوز أنه ليس من حقه إضافة أي شيء إلى ما قاله في الماضي. وهذا، في رأيي على أقل تقدير، ميزة من اعظم المميزات الرئيسية للكاثوليكية الرومانية. فهم يقولون: «لقد فوضت إلى البابا، جميع سلطاتك، وهي ما زالت كلها بين يدي البابا، فلا حاجة قط إلى مجيئك الآن. وينبغي عليك ألا تتدخل في الوقت الحاضر، على أقل تقدير». ذلك قولهم أو هو قول اليسوعيين على الأقل. وقد قرأت عنه في كتب علمائهم اللاهوتيين. ويتابع العجوز فيسأل السيد المسيح؛ هل تملك الحق في أن تجلو لنا ولو واحداً من اسرار العالم الذي جئت منه؟ ثم يتابع مجيباً عن سؤاله بنفسه فيقول: كلا، إنك لا تملك هذا الحق، إنك لا تستطيع أن تضيف شيئاً إلى ما قلته في سالف الأيام، ولا تستطيع أن تسلب البشر الحرية التي مجدتها عندما كنت على الأرض. إن كل ما تكشف عنه من جديد، سينتقص حرية العقيدة لدى الناس، لأنه سيبدو للناس أنه معجزة من المعجزات، وقد كانت حرية عقيدتهم، قبل خمسة عشر قرناً، اعز إليك من أي شيء آخر في تلك الأيام. ألم تكن تردد دائماً قولك: «سأجعلكم احراراً؟» ويضيف الرجل العجوز فجأة، وقد علت شفتيه ابتسامة توحي بالاغراق في التفكير: وها أنت الآن قد رأيت هؤلاء الناس «الاحرار». ثم يتابع كلامه، وهو ينظر بقسوة إلى السيد المسيح: «أجل، إن الحرية التي صنعناها قد دفعنا ثمنها غالياً، ولكننا في النهاية انجزنا ذلك العمل باسمك، ما زلنا منذ خمسة عشر قرناً نصطرع مع هذه الحرية التي بشرت بها، أما الآن فقد انتهى هذا الصراع. لقد انتهى إلى غير رجعة ألا تعتقد بذلك؟ إنك تنظر إلي نظرة خضوع ولا ترى في نفسك نداً لي. ولكن دعني انبئك أن الناس في هذا اليوم بالذات، هم أكثر اقتناعاً منهم في أي وقت مضى بأنهم ينعمون بالحرية كاملة، ومع ذلك فإنهم قد تنازلوا عنها وألقوا بها تحت اقدامنا بكل مذلة ذلك كان نتيجة اعمالنا. فهل تلك هي الحرية التي بشرت بها؟»

فقاطعه اليوشا قائلاً: لست افهم هنا أيضاً، أهو يتعمد السخرية، أم أنه يهزل؟

- لا هذا ولا ذاك إنه يدعي لنفسه ولكنيسته الحدّ من تنامي الحرية،

ويدعي أنهما استطاعا بذلك اسعاد البشرية. ويتابع الكاردينال كلامه قائلاً: أما الآن (إنه يتحدث بطبيعة الحال عن محاكم التفتيش) ـ وللمرة الأولى ـ اصبح التفكير في سعادة البشرية ممكناً. لقد طبع الإنسان على التمرد والعصيان وكيف يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء؟ لقد حذروك، إنك لم تعدم الارشاد والتحذير، ولكنك لم تحفل بذلك التحذير، وقد رفضت السبيل الأوحد الذي يؤدي إلى اسعاد الناس ولكنك لحسن الحظ، عهدت إلينا باتمام رسالتك عندما رحلت عن الأرض. لقد وعدتنا، بل بايعتنا، بل اعطيتنا حق الربط والحل، ولا تستطيع الآن ـ بطبيعة الحال ـ أن تفكر في استرداد هذا الحق منا. فلم جئت إذاً تعرقل أعمالنا؟

فسأله اليوشا: ولكن ما معنى «أنك لم تعدم الارشاد والتحذير؟»

ـ إن ذلك يشكل الجزء الرئيسي مما كان يجب على الرجل العجوز أن يفصح عنه. ويمضي الرجل العجوز قائلاً: إن الروح الحكيمة الهائلة، روح الدمار والعدم، قد حدثتك في البرية، وروت في الأسفار أنها «جربتك» أيضاً. فهل هذا صحيح؟ وهل يمكن أن نتصور حقيقة أكبر من تلك الحقائق الثلاث التي كشفتها لك في الأسئلة الثلاثة؟ لقد رفضتها أنت، يومئذ، إنها ما تدعوه الأسفار «التجربة»؟ ومع ذلك، فإذا صح أن معجزة كبرى حقيقية حصلت على الأرض، فإن تلك المعجزة قد حصلت في ذلك اليوم، يوم التجارب الثلاث. إن مجرد طرح تلك الأسئلة الثلاثة هو في حد ذاته معجزة. فلنتخيل على سبيل الافتراض فحسب، أن تلك الأسئلة الثلاثة التي وضعتها الروح الهائلة، قد تبددت ولم يبق لها أثر في الكتب، وأنه كان علينا أن نعيد من جديد، بناءها وصياغتها، وأننا في سبيل ذلك جمعنا كل حكماء الأرض ـ الحكام، ورؤساء الكهنة، والعلماء والفلاسفة، والشعراء ـ وعهدنا إليهم بمهمة صياغة الاسئلة الثلاثة، في صيغة لا ترتقي إلى مستوى الحدث فحسب، بل تعبر في ثلاث عبارات بشرية، عن كامل مستقبل العالم والإنسانية ـ فهل تعتقد بأن حكمة الأرض مجتمعة في هؤلاء الرجال تستطيع أن تصوغ شيئاً مساوياً في عمقه وقوته للاسئلة الثلاثة التي طرحتها عليك الروح الحكيمة الجبارة في البرية؟ إن طرح هذه الاسئلة وحده، أي معجزة القائها، يعني أن ما نعالجه هنا

ليس الذكاء البشري الزائل، بل فكر يحيط بالشمول والابدية، لأن تلك الاسئلة الثلاثة جمعت مستقبل تاريخ البشرية بأسره في مجموعة واحدة، وتنبأت به، وفيها اتحدت جميع المتناقضات التاريخية في الطبيعة البشرية التي لا سبيل إلى حلها. ولم تكن يومها جلية جلاءها الآن، لأن المستقبل كان مجهولاً، أما الآن، وقد انقضى خمسة عشر قرناً، فها نحن نرى أن جميع ما تضمنته تلك الاسئلة الثلاثة قد تنبأ به واضع الاسئلة نبوءة صادقة، وقد تحقق الآن بكامله، إلى حدٍ لا يمكننا الآن اضافة شيء إليها أو حذف شيء منها.

ألا فاحكم بنفسك من الذي كان مصيباً، أنت أم الذي وجه إليك الاسئلة في ذلك الحين؟ تذكر السؤال الأول؛ ومؤداه ما يلي: «إنك ذاهب إلى العالم، صفر اليدين، إلا من وعدٍ بالحرية، لأناس لا يستطيعون فهمها لسذاجتهم وتمردهم، بل إنهم يخشونها ويرهبونها، إذ أنه لم يعرف الإنسان والمجتمع البشري شيئاً أبغض إليه واثقل عليه من الحرية. ولكن أترى هذه الحجارة المتناثرة في هذه البرية المقفرة الجدباء؟ لو حوّلتها إلى خبز فإن الناس سيتبعونك مثل قطيع الخراف، طائعين شكورين، ولكنهم يظلون مع ذلك خائفين إلى الأبد، لئلا تسترد نعمتك فتحرمهم خبزك. غير أنك لم توافق على حرمان الناس من الحرية، ونبذت ذلك العرض، قائلاً في نفسك: ما قيمة الحرية إذا كانت الطاعة تشترى بالخبز؟ وكان جوابك أن قلت: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. ولكن أما كنت تعلم أن روح الأرض ستثور عليك في سبيل ذلك الخبز الارضي، وسينشب بينكما قتال فيقهرك وعندئذ سيتبعه الجميع وهم يهتفون: «من ذا الذي يشبه هذا الوحش؟ لقد انزل إلينا ناراً من السماء!» إن قروناً ستنقضي، وإن الإنسانية ستعلن بلسان حكمائها إنه لا وجود للجريمة، وبالتالي فلا وجود للخطيئة؛ فقط هناك جائعون. «أطعم الناس أولاً، ثم حاسبهم على الفضيلة» تلك هي العبارة التي سيخطونها على اللواء الذي سيثورون عليك تحته والذي سيدمرون هيكلك بواسطته. إن بناء جديداً سيقوم مكان هيكلك إنه برج بابل أخر ومع أنه لن يتم بناؤه، شأنه في ذلك شأن البرج القديم فقد كان في وسعك أن تمنع قيام هذا البرج الجديد، وأن تضع حداً لآلام يقاسيها الناس مدة ألف عام؛ لأنهم بعد ألف عام من العذاب

الممض سيعودون إلينا بعد جهدهم في بناء البرج وسيبحثون عنا من جديد، حيث سنكون مختبئين في الأقبية القائمة تحت الأرض، لأننا سنلقى من جديد العذاب والاضطهاد. وسيعثرون علينا ويهتفون بنا قائلين: «أطعمونا، لأن الذين وعدونا ناراً من السماء لم يوفوا بوعدهم!» وعندئذ سننجز لهم برجهم، لأن الذي سينجز لهم البرج يكون مطعمهم. وسنكون نحن دون سوانا من الناس، الذين سنطعمهم باسمك، معلنين كذباً أننا نفعل ذلك باسمك. إنهم لن يتمكنوا أبداً، أبداً من الحصول على طعامهم بدوننا! ولن يستطيع أي علم من العلوم أن يمنحهم الخبز ما داموا احراراً وسيأتون في النهاية ويلقون بحريتهم تحت اقدامنا قائلين: «استعبدونا ولكن اطعمونا» وسيدركون هم أنفسهم، في النهاية أن الحرية وخبز الأرض لا يمكن الجمع بينهما. لأنهم لن يتمكنوا من اقتسام الحرية والخبز بينهم! وسيقتنعون أيضاً بأنهم لن يتمكنوا من العيش احراراً، لأنهم ضعفاء ثائرون غير جديرين بالحرية، ويميلون بقوة إلى التمرد. لقد وعدتهم أنت خبزاً من السماء، ولكني أسألك ثانية: هل يساوي هذا الخبز السماوي خبز الأرض في نظر الجنس البشري الدنيء الضعيف المتمرغ دوماً في الخطيئة؟ ولو فرضنا أن آلافاً أو عشرات الآلاف من الناس سيتبعونك من أجل الخبز السماوي، فماذا يكون مصير الملايين بل عشرات آلاف الملايين من المخلوقات التي لن تقوى على نبذ الخبز الدنيوي في سبيل الخبز السماوي؟ تراك لا تهتم سوى بعشرات الآلاف من العظماء والاقوياء، في حين أن الملايين، العديدين كرمل البحر، والذين يحبونك على ضعفهم، ينبغي عليهم أن يسخروا من أجل الكبار والأقوياء فحسب؟ كلا، إننا نهتم أيضاً بالضعفاء، إنهم خاطئون متمردون، إلا أنهم هم الذين سيحولون في النهاية هم أيضاً إلى أناس طائعين. وستدهشهم اعمالنا وينظرون إلينا كأننا آلهة، لأننا قبلنا أن نحمل عبء الحرية التي رهبوها رهبة عظيمة، واصبحنا حكاماً لهم وبرغم أن الحرية أصبحت في نظرهم رهيبة جداً. فإننا سنقول لهم إننا خدامك وسنحكمهم باسمك. سنخدعهم مرة ثانية، لأننا لن نسمح لك بالعودة إلينا. وذلك الكذب الضروري سيكون مبعث عذابنا.

ذلك هو مغزى السؤال الأول الذي طرح عليك في البرية، وكان

رفضك ذاك في سبيل تلك الحرية التي تغنيت بها ومجدتها على كل شيء. ومع ذلك ففي هذا السؤال يكمن سر هذا العالم. فلو اخترت «الخبز» لأشبعت رغبة بشرية عامة ابدية، وهي ايجاد معبود للناس. فإن الإنسان الذي أصبح حراً لا يكافح في سبيل شيء كفاحه الدائم الشاق في سبيل ايجاد معبود له. ولكن الإنسان يسعى لعبادة ما تأكدت حقيقته بما لا يقبل الجدل، فيقبل كل الناس على عبادته. ذلك إن المخلوقات الضعيفة ليست غايتها إيجاد معبود لهذا أو ذاك من الناس، فحسب، بل هي ترنو إلى شيء ما، يستطيع الجميع أن يؤمنوا به وأن يعبدوه؛ والعامل الاساسي هو اشتراكهم جميعهم «معا» في عبادته. وهذا التوق إلى «الاشتراك» في العبادة، هو مصدر شقاء كل إنسان فرد، ومصدر شقاء الإنسانية، جمعاء منذ الأزل. وهم في سبيل العبادة المشتركة إنما اقتتلوا حتى الفناء. كانوا يقيمون آلهة مختلفة ويتبادلون الاستفزاز قائلين: «دعوا آلهتكم، وتعالوا واعبدوا آلهتنا، وإلا قتلناكم وآلهتكم!» وهكذا سيدوم حتى انتهاء العالم، حتى ولو زالت الآلهة من الأرض؛ لأن الناس سيجثون عندئذ للاصنام.

لقد كنت تعرف هذا السر الاساسي في الطبيعة البشرية، فغير ممكن أن تجهله غير أنك رفضت اللواء الوحيد المعصوم عن الخطأ الذي عرض عليك لكي تجعل جميع الناس يجثون أمامك وحدك، اعني لواء الخبز الأرضي. وقد رفضته في سبيل الحرية والخبز السماوي. ثم انظر إلى ما فعلت بعد ذلك وهو ما فعلته باسم الحرية! إعلم أن الإنسان لا يعذبه قلق اعظم من قلقه للعثور على من يستطيع أن يتنازل له سريعاً عن الحرية الموهوبة له. إنه مخلوق منكود الحظ منذ الولادة ولكن لا يستطيع أن يتسلم حرية الإنسان سوى من يستطيع أن يمنحه راحة الضمير. وقد عرض عليك في الخبز لواء لا يقهر؛ أطعم الإنسان يعبدك إذ لا شيء اضمن من الخبز. ولكن إذا استطاع شخص آخر الاستيلاء على ضمير الناس آه! إنهم عندئذ سيلقون بخبزك ويتبعون ذلك الذي استهوى ضميرهم. لقد كنت مصيباً في ذلك. إن سر وجود الإنسان ليس أن يحيا فحسب، بل أن يجد السبب الذي يحيا لأجله. فإن الإنسان إذا لم يتبيّن الهدف من حياته، فلن يرضى بأن يستمر في الحياة،

بل يفضل إهلاك نفسه على البقاء على الأرض، حتى ولو اعطى الخبز بوفرة. إن هذا صحيح، ولكن ماذا حدث؟ حدث أنك بدلاً من أن تسترد حرية الإنسان منه، جعلتها اعظم مما كانت في أي زمن من الأزمنة! هل نسيت أن الإنسان يؤثر الطمأنينة، بل الموت، على حرية الاختيار في معرفة الخير والشر؟ ليس هناك ما يستهوي الإنسان في البدء أكثر من راحة الضمير، وفي الواقع ليس هنالك ما يعذبه أكثر من هذه الحرية.

ثم إنك بدلاً من أن تضع أساساً ثابتاً يمنح الإنسان راحة الضمير إلى الأبد، فقد اخترت كل ما هو شاذ غامض محير. إنك اخترت ما هو فوق طاقة البشر قطعاً، وكنت في تصرفك كمن لا يحب البشر مطلقاً، أنت الذي جئت لتبذل حياتك من أجلهم! إنك بدلاً من أن تسيطر على حرية الإنسان عزّزتها وضاعفت في نفوس البشر آلامهم الابدية. لقد رغبت في أن يحبك الإنسان بمحض حريته، وأن يتبعك بمحض حريته، وأن تستهويه فيقع في اسرك. لقد ألغيت القانون العتيق الجاف، فبات على الإنسان، أن يميز بنفسه، وبحرية بين الخير والشر، ولا يهديه تردده سوى صورتك. أفلم تعلم أنه سينبذ في النهاية صورتك وسينبذ الحقيقة التي تبشر بها؟ بذلك الحمل المخيف، حمل حرية الاختيار، ألم تعلم أن الإنسان سيرفع في النهاية صوته قائلاً أنه لم يجد فيك الحقيقة، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان فريسة اضطراب وألم اعظم مما سببته انت له، بما فرضته عليه من واجبات ومشاكل لا سبيل إلى حلها.

وهكذا فإنك في الحقيقة قد سلمتهم بنفسك المعاول اللازمة لتدمير مملكتك، ففي هذه الحال ليس يلام أحد أكثر منك. ومع ذلك فما الذي عرض عليك؟ هنالك فقط ثلاث قوى، هي وحدها، قادرة على قهر ضمائر أولئك المتمردين الذين لا حول لهم، وإخضاعها إلى الأبد في سبيل سعادتهم. وهذه القوى هي: المعجزة والسر والسلطة. وقد رفضتها أنت جميعها وجعلت الناس يتمثلونك في رفضهم لها، فعندما أخذتك الروح الحكيمة الرهيبة[1] وأقامتك على سطح الهيكل قالت لك: «إن كنت تعلم أنك ابن الله فألق

(١) إبليس.

بنفسك إلى أسفل لأنه مكتوب: أنه سيجعل ملائكته تتلقاك فتحملك على أيديها لئلا تصدم بحجر رجلك، فتعلم عندئذ إن كنت أنت ابن الله وتثبت عظيم إيمانك بأبيك[١]» لكنك رفضت ذلك ولم تلق بنفسك إلى أسفل. حقاً، إنك فعلت تماماً وبكل فخر ما يفعله الله. أما ابناء الجنس البشري الضعفاء المتمردون، فهل هم آلهة؟ لقد ادركت عندئذ، أنك لو خطوت خطوة واحدة، لو هممت فحسب بالقاء نفسك إلى أسفل، لكنت قد اقدمت على تجربة الله واثبتّ قلة إيمانك ولتحطمت على الأرض التي جئت لكي تخلصها. ولكان ذلك مدعاة لابتهاج الروح الحكيمة التي جربتك، ولكني اعود فاسألك هل هم كثيرون امثالك في هذا العالم؟ وهل تبادر إلى ذهنك لحظة واحدة أن البشر أيضاً قادرون على مواجهة مثل تلك التجربة؟ وهل بلغت طبيعة البشر حداً يسمح للإنسان أن يرفض المعجزة، وأن يعتمد في اعظم لحظات حياته، أمام مشاكله النفسية وأشدها تعذيباً، على الحكم الذي يصدره القلب بحرية، فحسب؟

آه، لقد كنت تعلم أن موقفك هذا سيدوّن في الكتب المقدسة، وستتداوله الايدي إلى نهاية العصور، وفي ارجاء الارض قاطبة وكنت ترجو أن يقتدي الإنسان بك فيتشبث بالله ولا يطلب المعجزات. ولكن لم تحسب أن الإنسان عندما يرفض المعجزات فإنما يرفض الله أيضاً؛ فإن الإنسان يتطلع إلى المعجزات لا إلى الرب الذي يصنعها ولما كان الإنسان لا يستطيع الاستمرار بدون من يصنع المعجزات، فإنه سيخلق بنفسه معجزات جديدة وسيمجد اعمال السحر والشعوذة، برغم ميله المضاعف عندئذ إلى التمرد والهرطقة والكفر. إنك لم تنزل عن الصليب عندما صرخوا بك على سبيل الهزء: «انزل عن الصليب فنؤمن بأنك أنت المسيح».

إنك لم تنزل، لأنك في هذه المرة أيضاً لم تشأ استعباد الإنسان بالمعجزات، وكنت تفضل أن يأتوك أحراراً لا بفعل المعجزات. لقد كنت تتوقع أن يحبوك بحرية، لا أن يتبعوك عبيداً وقد ملأت قوتك بالرهبة نفوسهم

---

(١) إشارة إلى ما جاء في انجيل متى: الإصحاح الرابع، ومثله في انجيل لوقا (الإصحاح الرابع).

إلى الأبد. ولكنك احسنت الظن بابناء البشرية اكثر مما يجب، فهم عبيد وإن كانوا مفطورين على التمرد. انظر حولك بعد مضي خمسة عشر قرناً واحكم كم هم الذين رفعتهم إليك؟ اقسم لك أن الإنسان في حقيقته أضعف واحط مما كنت تعتقد! هل يستطيع، هل يستطيع هو أن يفعل ما فعلته أنت؟ وأنت منذ أن اظهرت له ذلك الاحترام العظيم، لم تعد تشعر معه، لأنك سألته ما هو فوق طاقته. أنت الذي احببته اكثر مما احببت ذاتك! فلو كان احترامك له، أقل من ذلك، لكان ما تطلبه منه أقل أيضاً. وهذا ادنى إلى المحبة لأن حمله سيكون اخف مما هو الآن. إن الإنسان ضعيف ودنس. فما سبب ثورته إذاً في كل مكان ضد سلطتنا، ومباهاته بهذه الثورة؟ إنها مباهاة الأطفال وتلاميذ المدارس. إن الناس تلامذة صغار يثورون ويطردون استاذهم من الصف. ولكن بهجتهم الصبيانية ستبلغ نهايتها؛ إنهم سيدفعون ثمنها غالياً. إنهم سيهدمون الهياكل ويغرقون الأرض بالدماء. ولكن اولئك الاطفال الحمقى سيدركون في النهاية أنهم إن كانوا متمردين ضعفاء فإنهم لن يقدروا على المضي في تمردهم حتى النهاية. وهم بعد أن يغرقوا في دموعهم الكاذبة سيدركون في النهاية أن الذي جعل فيهم روح الثورة قد غرّر وهزىء بهم. وسيقولون هذا القول بدافع من اليأس، وسيكون قولهم تجديفاً يزيد في شقائهم، لأن طبيعة الإنسان لا تحتمل التجديف، وهي لا بد يوماً ستنتقم من التجديف وهكذا فإن الاضطراب والحيرة والشقاء، هو قدر الإنسان في الوقت الحاضر، بعد الكثير الذي تحملته من أجل حريته!

يقول رسولك العظيم[1] أنه شاهد الرؤيا جميع الذين اشتركوا في القيامة الأولى، فكان تعداد كل سبط اثني عشر ألف نسمة. فإذا صح أن مثل هذا العدد، مهما كان كبيراً، قد اشترك في القيامة الأولى، فلا ريب في أن هؤلاء هم اقرب إلى أن يكونوا آلهة لا بشراً. لقد حملوا صليبك، عاشوا عشرات السنين في البرية المجدبة القاحلة، يقتاتون على الجراد وجذور النبات. إن بوسعك حقاً أن تذكر بفخر هؤلاء الذين جعلوا من انفسهم ابناء الحرية، ابناء المحبة الحرة، وابناء التضحية الرائعة التي قدموها بمحض اختيارهم في سبيلك

---

(١) أي يوحنا الرسول.

ومن أجلك. ولكن عليك أن تذكر أن هؤلاء لا يزيدون على بضعة آلاف؛ فما شأن الآخرين؟ ما ذنب الضعفاء الذين لم يحتملوا ما استطاع الاقوياء احتماله؟ كيف تلام النفس الضعيفة على بقائها دون تلك المستويات الرهيبة للفضيلة؟ أم تراك جئت من أجل المختارين، ولهم فحسب؟

وإذا كان الأمر كذلك، فهو سر لا نملك إدراكه. وفي حال كان الأمر سراً، فمن حقنا نحن أيضاً أن نلجأ إلى السر، وأن نعلم الناس أن الأساس ليس ما يقرره القلب بحرية، ولا المحبة، إنما هو السر الذي يجب أن يخضعوا له كالعميان، حتى ولو كان مخالفاً لضمائرهم، وهذا بعينه ما فعلناه. لقد قومنا عملك وأصلحنا خطأه وأعدنا بناءه على أساس المعجزة والسر والسلطة، فاغتبط الناس بذلك إذ عادوا يساقون كالقطيع، ووجدوا متحررين نهائياً من تلك الهبة الرهيبة التي سامتهم سواء العذاب. قل، هل أصبنا في تعليمهم هذه الأمور؟ ألا نكون محبي البشرية لأننا سلّمنا بضعف ابنائها. وبدافع من حبنا لهم خففنا حملهم، ووافقنا أن ترتكب طبيعتهم الضعيفة حتى اقتراف الخطايا، فلماذا جئت لتعرقل عملنا؟ ما لك تنظر إلي بعينيك الوادعتين صامتاً متفحّصاً؟ اغضب كما تشاء، فأنا لا أريد حبك، لإنني أنا نفسي لا أحبك. لا مبرّر لإخفاء ذلك عنك؟ ألست اعرف من اخاطب؟ إنك تستطيع معرفة ما أقوله لك قبل أن انطق به. وهل لي أن انتزع منك سرنا؟ لعلها مشيئتك أن تسمع هذا السر من فمي. إذاً فلتعلم أننا لا نتعاون معك، بل «معه». ذلك هو سرّنا. إننا منذ مدة طويلة انحزنا إلى جانبه وتركناك.

نعم، منذ ثمانية قرون[١] بالضبط قبلنا منه ما رفضته أنت باستياء، أعني تلك الهبة الأخيرة التي عرضها لك عندما أراك جميع ممالك الأرض. لقد اخذنا منه روما وسيف قيصر، واعلنا انفسنا ملوك العالم الوحيدين مع أننا لم نتمكن بعد من انجاز عملنا. ولكن من الملوم على ذلك؟ إن مشروعنا ما يزال في بدايته، ولكنه بدأ فعلاً. ولا بد من انقضاء زمن طويل قبل أن يبلغ نهايته، ولا بد من مقاساة آلام كثيرة في هذه الحياة، ولكننا سننتصر وسنكون سادة

(١) إشارة إلى تاريخ دولة البابا.

الأرض، وعندئذ يمكننا التخطيط للسعادة الإنسانية الشاملة. لقد كان بوسعك أن تأخذ سيف قيصر عندئذ. ولكن لماذا رفضت تلك الهبة الاخيرة؟ لو أنك قبلت مشورة الروح الجبارة، لحققت للإنسان امنياته جميعاً، وأعني بذلك، شخصاً ما يعبده، وشخصاً ما يحفظ له ضميره، ووسيلة ما لتوحيد البشر في مجتمع كبير متناسق، فالتوق إلى الوحدة الشاملة هي آخر وثالث هموم الإنسان التي تقض مضجعه. إن الجنس البشري على وجه العموم ما فتىء دوماً يكافح لتنظيم دولة عالمية. وثمة أمم عظيمة ذات تواريخ مجيدة، ولكنها كانت تعاني من شقاء مطّرد مع مجدها ورقيّها لأنها كانت أكثر الشعوب توقاً واحساساً بالحاجة إلى الوحدة العالمية. إن كبار الفاتحين، أمثال تيمورلنك أنفسهم وجنكيزخان مضوا في الأرض كالعواصف ينشرون الموت والدمار من أجل اخضاع شعوب الأرض، وهم أيضاً كانوا يعبرون دون أن يدركوا عن ذلك الشوق ذاته إلى الوحدة العالمية. فلو أنك قبلت العالم وقبلت بزة قيصر الارجوانية، لوضعت اسس الدولة العالمية وضمنت السلام العالمي. إذ من ذا الذي يستطيع أن يحكم الإنسان إذا لم يكن مالكاً نفسه، متحكما بخبزه. لقد قبلنا قيصر، وبقبولنا إياه نكون بطبيعة الحال قد تخلينا عنك «وتبعناه».

إن قروناً عديدة سيسودها الاضطراب الناشىء عن الفكر المتحلل والعلم الباطل والوحشية. ذلك أنهم بعد أن شرعوا بتشييد برج بابل الثاني بدوننا فإن الأمر سيقودهم حتماً إلى افتراس بعضهم بعضاً. ولكن الوحش سيأتي إلينا زاحفاً، سيلحس اقدامنا ويبللها بدموع من دم. وسنركب الوحش ونرفع الكأس التي سينقش عليها كلمة «سر». وعندئذ، عندئذ فقط، سينعم الناس بعهد السلام والسعادة، إنك فخور بالذين اصطفيتهم، ولكنهم وحدهم معك أما نحن فنهب الراحة للجميع. وحتى بين أولئك المختارين، أولئك الأقوياء الذين استطاعوا أن يصيروا في عداد المختارين، سيكون منهم من حل بهم السأم وهم ينتظرونك، فنقلوا وسينقلون سلطات ارواحهم وحرارة قلوبهم إلى المعسكر الآخر، وسينتهي بهم الأمر إلى أن يرفعوا ضدك لواء «الحرية» الذي يحملونه الآن. ألست بنفسك رفعت هذا اللواء؟ أما معنا فسينعم الجميع بالسعادة وسيكفون عن التمرد وابادة بعضهم بعضاً كما يفعلون الآن بفضل

الحرية التي منحتهم. إننا سنقنعهم بأنهم لن يكونوا أحراراً إلا إذا تنازلوا عن حريتهم وخضعوا لنا إلى الأبد، إذ ذاك هل نكون صادقين أم كاذبين؟ إنهم سيدركون أننا صادقون لأنهم سيذكرون ما جرّت عليهم حريتك من عبودية وآلام. إن الحرية، حرية النقد والعلم، ستفضي بهم إلى مثل هذه المآزق، وستضعهم وجهاً لوجه أمام اعاجيب وأسرار مهمة حتى أن الاشداء منهم سيهلكون أنفسهم، في حين أن الآخرين، وهم المتمردون الضعفاء، سيدمر بعضهم بعضاً. أما البقية وهي جمهرة الخائرين الأشقياء، فإنهم سيزحفون إلى مواطىء اقدامنا كالعبيد. ويعترفون قائلين: «نعم، لقد كنتم صادقين، أنتم وحدكم تملكون سره، إننا نعود إليكم، فانقذونا من أنفسنا!»

وحين يتناولون الخبز من أيدينا، يتضح لهم أنه الخبز الذي أنتجوه وصنعوه، فنحن أخذناه منهم وأعدناه لهم بدون اعجوبة. وسيفهمون بأننا لا نقلب الحجارة خبزاً، غير أنهم في الحقيقة سيكونون مغتبطين بكونه من أيدينا أكثر من اغتباطهم بالخبز ذاته! فهم لن ينسوا أبداً في الماضي، بدون مساعدتنا، كان الخبز الذي يصنعونه ينقلب في أيديهم حجارة، ومنذ عودتهم إلينا انقلبت الحجارة في أيديهم خبزاً. وهم يعلمون علم اليقين قيمة الخضوع التام! وهم سيظلون أشقياء ما داموا يجهلون ذلك. فمن هو الملوم أكثر من غيره على جهلهم هذا الأمر؟ من شتت القطيع وظلّله في السبل المجهولة؟ ولكن القطيع سيلتئم شمله من جديد، وسيعود مطواعاً في خضوعه ويظل كذلك إلى الأبد وعندها سنمنحهم السعادة الهادئة المستكينة، التي تتناسب وطبيعة المخلوقات الضعيفة. واخيراً سنغريهم ليتخلوا عن كبريائهم، فإنك قد رفعتهم وبذلك علمتهم أن يكونوا متعالين. سنريهم أنهم ضعاف، وأنهم ليسوا سوى أطفال مساكين، ولكن هذه السعادة، كسعادة الاطفال، هي أعظم السعادات. وسينظرون إلينا، ويهرعون إلينا. ويلتفون علينا من الخوف كما تلتف الفراخ على الدجاجة الأم. وسيتملكهم العجب والرعب لما نحن عليه، ويأخذهم الفخار بقوتنا الخارقة وذكائنا العظيم لتمكننا من إخضاع ذلك القطيع الجياش الذي يبلغ في تعداده آلاف الملايين. وسترتعد فرائصهم خوفاً أمام غضبنا، ويستحوذ الخوف على عقولهم، ثم يذرفون الدموع كالنساء والاطفال،

حتى إذا أومأنا إليهم انقلب خوفهم بهجة وسعادة ضاحكين مرحين ثم ينطلقون ينشدون كالاطفال.

نعم، إننا سنطلب منهم أن يعملوا، ولكن إذا فرغوا من عملهم سنجعل حياتهم كلهو الاطفال فينشدون أناشيدهم ويرقصون رقصهم البريء. أواه. بل إننا سنسمح لهم بارتكاب الخطايا، ما داموا ضعافاً لا معين لهم، وسيحبوننا كما يحب الاطفال لأننا سمحنا لهم بذلك سنقول لهم أن كل خطيئة تقترف بإذننا، سنغفر لهم، سنبيح لهم الخطيئة لاننا نحبهم وسنتحمل نحن عقابها سنتحملها، وسيعبدوننا باعتبارنا مخلصين لهم إذ نتحمل أوزار خطاياهم أمام الله. ولن يكتموننا سراً من أسرارهم. سنحلل لهم أو نحرم عليهم، تبعاً لمدى طاعتهم، أن يعيشوا مع أزواجهم وخليلاتهم، وسنتحكم في إنجابهم للاطفال وعدم إنجابهم لهم، وسيخضعون لنا سعداء مرحين. سيضعون بين ايدينا أشد أسرارهم وطأة على ضمائرهم، وسنجد جواباً لكل سر منها. وسيسرون بقبولهم حلولنا لأنها توفر عليهم القلق العظيم والعذاب الاليم اللذين يعانون منهما الآن إذا كان عليهم اتخاذ قراراتهم بأنفسهم وبمحض حريتهم. وستسعد ملايين الخلائق كلها، باستثناء المائة ألف التي تحكمها، إذ أننا وحدنا، معشر الذين يحرصون على السر، سنكون اشقياء سيكون هنالك آلاف الملايين من الاطفال السعداء، ومائة ألف من الاشقياء الذين انتكبوا تلك اللعنة، لعنة معرفة الخير والشر. وسيموتون بسلام، وبسلام سينقضي أجلهم باسمك، وبعد القبر لن يجدوا شيئاً غير العدم. ولكننا سنحرص على السر، وفي سبيل سعادتهم سنخدعهم بالمكافأة السماوية والخلود. ولو كان من حياة في الدار الاخرة، فإنها لن تكون لأمثالهم.

إن النبوءة تقول بإنك ستعود منتصراً على الشر ومحاطاً بمن تختارهم من المتعالين الاقوياء، ولكننا سنجيب بأنهم لم يخلصوا إلا أنفسهم، ونحن خلصنا الجميع.

لقد قيل إن المرأة الزانية التي تجلس فوق الوحش[1] وتمسك بيدها

(١) إشارة إلى رؤيا بولس الرسول (الإصحاح السابع عشر).

كأس السر سيجللها العار، وإن الضعيف سيبعث ثانية ويمزق رداءها الارجواني الملوكي ويعري جسدها البشع. ولكنني عندئذ سأقف وأشير إلى آلاف الملايين من الاطفال السعداء الذين لم يعرفوا الخطيئة. ونحن معاشر الذين اخذنا ذنوبهم على عواتقنا بغية إسعادهم سنقف أمامك ونخاطبك قائلين: «أحكم علينا إذا استطعت، إذا جرؤت. إلا فاعلم أنني لا أخافك، وأعلم أنني أنا أيضاً عشت في البرية أقتات جذور النبات والجراد، وأنا أيضاً عرفت قيمة الحرية التي وهبتها للإنسان. وكافحت لكي أكون في عداد نخبتك، بين الاقوياء وذوي السلطان وكنت متعطشاً إلى أن «أسدّ النقص في العدد». ولكنني أفقت في اللحظة المناسبة فلن أخدم عقيدة الجنون، فتراجعت وانضممت إلى صفوف «الذين قوموا عملك». تركت المتكبرين وانضممت إلى المتواضعين حباً في إسعادهم. إن ما أقوله لك سيحدث، وستبنى مملكتنا. واعود فأكرر القول بأنك غداً سترى ذلك القطيع الطيع الذي سيبادر، بإشارة مني، إلى تجديد اضرام النار في كومة الحطب التي سأحرقك فوقها لأنك اتيت لتعرقل مسيرتنا. فلئن كان هنالك من يستحق أن يصلى نارنا فهو أنت. غداً سأحرقك أيها الإله».

أمسك إيفان عن الكلام، وكان يتحدث ساهماً منفعلاً. وعندما فرغ من اقواله، علت شفتيه ابتسامة.

وكان اليوشا يصغي صامتاً؛ ولكنه في نهايات الحديث أحسّ بعاطفة تحركه بعنف، وبدا عليه بضع مرات أنه يوشك أن يقاطعه، ولكنه كبح جماح نفسه. أما الآن وقد فرغ إيفان من حديثه، فإنه انفجر صائحاً بانفعال:

ولكن... إن هذا أمر سخيف! إن قصيدتك تمجّد السيد المسيح بدل أن تقرّعه وتلومه، كما أردتها أن تكون. ومن يؤمن بتأويلك الحرية؟ فهل هذه هي الطريقة لفهمها؟ إن هذه ليست فكرة الكنيسة الارثوذكسية... وإنما هي فكرة روما، بل إنها ليست روما كلها، ذلك خطأ، إن من تتحدث عنهم هم اسوأ فئات الكاثوليك، المفتشون و «الجزويت».. ولا يمكن أن يوجد في الواقع مثل هذا المخلوق الخيالي رئيس محاكم التفتيش الذي تحدثت عنه. ما هي هذه الذنوب البشرية التي حملوا أنفسهم اوزارها؟ وأين هم أولئك الحفظة للسر

الذين يزعم أنهم تحملوا اللعنة والعذاب في سبيل سعادة البشر؟ ومتى كان هنالك وجود لهؤلاء؟ إننا نعرف «الجزويت»، فقد نالتهم الالسنة بالسؤ كثيراً، ولكن هل هم حقاً كما تصفهم؟ إنهم ليسوا كذلك، ليسوا كذلك أبداً... فهم ليسوا في الحقيقة سوى جيش روما للمملكة الارضية في عالم المستقبل، التي سيكون امبراطورها البابا الجالس في روما.. إن هذه هي فكرتهم، وهي لا تشتمل لا على سر ولا على أسى نبيل مبهم.. فالأمر ليس غير عطش للقوة، وللكسب الأرضي الدنيء، وللسيطرة وهو اشبه بنظام رق يكونون هم فيه أسياداً. إن هذا هو كل ما يدعون إليه، بل إنهم ربما كانوا لا يؤمنون بالله. إن مفتشك وعذابه السامي ليس إلا خيالاً.

فضحك إيفان وقال: مهلاً، مهلاً، لا تنفعل! إنك تعتبره خيالاً، ليكن كذلك! فهو خيال بطبيعة الحال. ولكن اسمح لي أن اسألك: هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية التي ظهرت في القرون الأخيرة لم تكن في حقيقتها سوى شهوة للقوة وللكسب الارضي الدنيء؟ إن هذه تعاليم الأب بيسي؟ بلا شك.

ـ كلا، كلا، إن الأمر على نقيض ذلك، فإن الأب بيسي قال مرة شيئاً يكاد أن يطابق أقوالك. ثم استدرك اليوشا بسرعة: اعني أنه لم يقل عين ما قلته قط.

ـ إن هذا اعتراف له قيمته رغم اعتراضك بأنه لم يقل نفس ما قلته قط. إنني أسألك، هل اتحد «الجزويت» والمفتشون فقط بهدف الربح المادي الدنيء؟ ولماذا لا يمكن أن يكون بينهم ولو شهيد واحد يتحمل الأسى العظيم وحب الإنسانية؟ فلنفترض وجود رجل واحد كهذا المفتش بين جميع أولئك الذين لا يتوقون إلى شيء سوى الكسب المادي الدنيء، أكل الجذور في الصحراء وبذل جهوداً يائسة للوصول إلى الحرية والكمال. وتخيل أنه ظل طول حياته يحب الإنسانية، وعلى حين غفلة تفتحت عيناه، ورأى أن نيل الكمال والحرية ليس بركة أدبية عظيمة، ما دام الإنسان يدرك في نفس اللحظة أن ملايين البشر قد خلقوا عبثاً وإنهم عاجزون عن استخدام حريتهم وإن هؤلاء الثائرين المساكين لن يصبحو أبداً عمالقة يساهمون بإتمام ابناء

البرج، وإن المثالي العظيم لم يحلم حلمه في الانسجام لا مثال لهؤلاء التافهين. تخيل أنه إذ يبصر كل ذلك يدير ظهره وينضم إلى زمرة الاذكياء. يقينا إن حدوث هذا ليس مستحيلاً أليس كذلك؟

فصاح اليوشا قائلاً وقد استبد به التأثر: «وإلى من ينضم، وأي اذكياء هم هؤلاء؟ إنهم يفتقرون إلى الذكاء وليست لديهم اسرار ولا ألغاز... إنهم ملحدون لا غير، إن هذا هو سرهم كله. إن مفتشك لا يؤمن بالله، وهذا هو سره»!

ـ ولنفرض أن الأمر كما تقول! لقد فهمت ذلك اخيراً. وعين الصواب أن نقول إن هذا هو السر كله، ولكن أليس في ذلك شقاء بالنسبة لرجل كهذا، أضاع عمره كله في الصحراء، ومع ذلك فلم يستطع أن ينفض عن نفسه حبه العظيم للإنسانية؟ لقد ادرك هذا الرجل في السنين الأخيرة من عمره، وبوضوح، أنه ما من شيء سوى نصيحة الروح العظيمة الرهيبة تستطيع أن تؤمّن للمتمردين الضعاف مستوى متدنياً من مستويات الحياة، ولكنه مقبول من هذه المخلوقات الناقصة الواقعية التي خلقت عبثا. وهكذا فهو بعد أن اقتنع بهذه الحقيقة، يرى لزاما عليه أن يتبع نصيحة تلك الروح العاقلة، روح الموت والخراب الرهيبة، وانسجاماً مع موقفه هذا، فإنه يقبل الكذب والخداع، ويقود الناس على إدراك، إلى الموت والخراب، ولكنه يترك لهم أوهامهم لتلهيهم عن إدراك حقيقة ما يقودهم إليه. وهكذا تتمكن هذه المخلوقات العمياء المسكينة عن الاعتقاد وهي تسير في تلك الطريق بأنها سعيدة. ثم لاحظ، أن هذه الخديعة تكون باسم السيد المسيح الذي آمن ذلك الرجل العجوز بمثله إيماناً راسخاً طول حياته. أليس هذا مفجعاً؟ ولو أن رجلاً من هذا النوع جعل نفسه على رأس الجيش المتعطش إلى القوة طمعا في الكسب الدنيء، فإن ذلك يسبب مأساة؟ وأكثر من ذلك فإن إنساناً هذه صفاته يقف على رأس الحركة، كاف لأن يوجّه الكاثوليكية بجميع جنودها ورجال الجزويت فيها، نحو تأمين فكرتها العليا.

إنني أقول لك صراحة بأني على يقين من وجود مثل هذا الرجل دائماً بين أولئك الذين يقفون على رأس الحركة. وربما كان مثلهم موجوداً بين

بابوات روما أنفسهم، ومن يدرينا فلعل روح ذلك الرجل العجوز اللعين الذي يحب على طريقته البشرية كل هذا الحب الطاغي، ما زالت حتى الآن توجد في كل ذلك الجمع الغفير من أمثاله الذين أوجدوا بالإتفاق لا بمحض الصدفة، كعصبة سرية شكلت منذ زمن بعيد لكي يؤمنوا حراسة السر، وإخفاءه عن الضعفاء والتعساء أملاً في جلب السعادة إلى نفوسهم. لامراء في أن ذلك هو عين الصواب، ولا بد أن يكون الأمر كذلك. ويخيل إلي أن الماسونيين لديهم شيء فيه مثل هذا السر في اعماقه، وذاك هو السبب الذي يحمل الكاثوليك على مناصبة الماسونيين العداء واعتبارهم خصوما لهم يسعون لتحطيم وحده الفكرة، .في حين أن الضرورة تقضي بوجود قطيع واحد وراعٍ واحد... ولكن قد أكون بطريقتي التي أدافع بها عن فكرتي، مؤلفاً لا يحتمل انتقادك. فلنكتف بهذا القدر.

وفجأة صاح اليوشا قائلاً: «ربما كنت أنت نفسك ماسونيا!» واردف يقول وقد ظهر عليه الاسى العظيم: إنك لا تؤمن بالله.

وتخيل أن أخاه يرمقه بنظرة السخرية. ثم سأل اخاه بغتة وهو مطرق برأسه: كيف تنتهي قصيدتك أم هي انتهت فعلاً؟

ـ لقد أردت أن تنتهي على الشكل التالي عندما انتهى رئيس محكمة التفتيش من اقواله، انصت برهة من الزمن بانتظار أن يتكلم الاسير. وكان صمت الأسير ثقيلاً على نفسه، فهو كان يصغي إليه باهتمام طول الوقت، وهو ينظر نظرة رحيمة إلى وجهه، وبدا أنه لا يريد الرد عليه. وتاق الشيخ أن يسمع منه كلمات ولو كانت قاسية رهيبة. ولكنه على حين غفلة، دنا من الشيخ صامتاً وطبع قبلة رقيقة على شفتيه اللتين ارهقتهما تسعون سنة. كان ذلك هو جوابه. وارتعد الشيخ واختلج طرفا شفتيه، فمضى نحو الباب وفتحه وخاطب السيد المسيح قائلاً: امض ولا تعد.. لا تعد ابداً! ابداً! وتركه ينطلق في ازقة المدينة المظلمة. وابتعد الأسير.

ـ وماذا كان من أمر الشيخ؟

ـ إن القبلة الهبت قلبه، ولكنه بقي متمسكا بفكرته.

فتساءل اليوشا مبتسماً: وأنت، أليست هي فكرتك أيضاً؟

وضحك إيفان قائلاً: «إن هذا كله لغو فارغ يا اليوشا إنه مجرد شعر سخيف وضعه طالب سخيف لا يستطيع أن ينظم بيتين من الشعر. لماذا تنظر إلى المسألة هذه النظرة الجدية؟ إنك لا تفترض حقاً بأنني سأذهب تواً إلى «الجزويت» لكي أنضم إلى الرجال الذين يدّعون تقويم اعمال الرب، أليس كذلك؟ يا إلهي إن هذا الأمر لا يعنيني. لقد قلت لك بأنني أود أن أعيش حتى ابلغ الثلاثين من عمري وبعدها... سأرمي الكأس.

وأجاب اليوشا حزيناً:

ولكن ماذا ستصنع بالأكمام اللزجة والاضرحة الغالية، والسماء الزرقاء والمرأة التي تهوى! كيف ستعيش وكيف ستكون قادراً على محبتهم، مع وجود هذه الأفكار الجهنمية في رأسك؟ كيف تستطيع ذلك؟ كلا، إن هذا هو السبب في ذهابك، إنك ذاهب لكي تنضم إلى «الجزويت»... وإن لم تفعل فستقتل نفسك، فأنت لا تستطيع احتمال ذلك!

فقال إيفان وهو يتكلف ابتسامة: إن لدي قوة تمكنني من احتمال كل شيء.

- أية قوة؟

- قوة سلالة كرامازوف - قوة الخسة والانحطاط في سلالة كرامازوف.

- هل تنغمس في الفسق، وتدنس روحك بالفساد؟ أهذا هو تفكيرك؟

- ربما بلغت هذا الحد... ولكن حتى أبلغ الثلاثين وبعدها سأنجو بنفسي.

- أتعرف سبيل نجاتك؟ كيف؟ إن هذا مستحيل مع افكارك هذه.

- سبيل سلالة كرامازوف أيضاً.

- اتعني أن كل شيء حلال؟ كل شيء حلال، هل تقصد هذا؟

وهنا تجهم وجه إيفان ثم امتقع امتقاعاً عظيما. وقال وهو يتصنع الابتسامة: «لقد حفظت العبارة التي قلتها بالأمس، تلك العبارة التي اعتبرها ميوسوف اهانة عظيمة له، والتي تلقفها ديمتري وحوّرها إلى كلام ساذج. نعم إذا كان هذا يعجبك، إن كل شيء حلال طالما قلتها ولن انكرها. ولم تكن

صياغة ميتيا لها سيئة».

ونظر إليه اليوشا صامتاً.

ثم عاد إيفان فجأة إلى الكلام وقد ظهر منفعلاً: لقد ظننت أنني حين أسافر، سأظل محتفظاً بحبك على الأقل، أما الآن فإنني أرى أنه لا مكان لي حتى في قلبك يا ناسكي العزيز، إنني لن أتنكر لعبارة «كل شيء حلال» فقل لي، هل تتنكر لي من أجل ذلك؟

فما كان من اليوشا إلا أن نهض من مكانه، ومضى إلى أخيه وقبله قبلة حنان على شفتيه ولم يقل شيئاً.

فصاح إيفان مبتهجاً: إن هذا تقليد، لقد سرقت الفكرة من قصيدتي. ومع ذلك فشكراً لك. هيا يا اليوشا فقد حان وقت انصرافنا.

وخرجا من المطعم ولكنهما توقفا عند بابه. وقال إيفان مخاطباً اليوشا بصوت ظهر العزم في نبراته: اصغ إلي يا اليوشا، إنني إذا كنت حقاً قادراً على العناية بأمر الأوراق الصغيرة اللزجة، فإن ذلك سيكون بفضل ذكراك. ويكفيني أن اتذكر أنك في مكان ما حتى استعيد رغبتي في الحياة. هل هذا يرضيك؟ اعتبر كلامي اعلاناً للحب إذا شئت. والآن إمض إلى اليمين وسأمضي إلى اليسار. وهذا يكفي اصغ إلي. إن هذا يكفي. أعني أنني إذا لم أسافر غداً (وفي ظني أنني لا بد مسافر) ثم التقينا مرة ثانية، فينبغي أن تعود إلى مناقشة هذه المواضيع. أرجو أن تنتبه لهذا بصورة خاصة، ثم أضاف قائلاً وقد بدا عليه الضيق: وفيما يتعلق بديمتري فأرجوك رجاء خاصاً أن لا تكلمني عنه ثانية، لقد استنفدنا الحديث عن هذه الاشياء ورددناه المرة تلو المرة أليس كذلك؟ وفي مقابل ذلك سأقطع لك هذا العهد، وهو أنني عندما أبلغ الثلاثين، سأود أن أرمي الكأس. وأينما كنت فسأعود لكي اتحدث إليك تارة اخرى، ولو كنت أحيا في اميركا، ولك أن تثق بما اقول. سآتي إليك عامداً. فسيكون مشوقاً أن أراك وأقف على أمورك عندئذ. إنه عهد عظيم كما ترى. ونحن في الحقيقة ربما افترقنا سبع سنوات أو عشراً. والآن امض إلى ناسكك الأب سيرافيكوس فهو على فراش الموت، ولو مات في غيابك لحقدت عليّ لانني اخرتك عنه. وداعاً، قبلني ثانية؛ حسناً؛ والآن امض.

وفجأة دار إيفان وانطلق في طريقه دون أن يلتفت إلى الخلف. لقد فارقه كما فارق ديمتري أليوشا بالأمس رغم اختلاف الظروف في الفراقين. ونفذ هذا التشابه العجيب نفوذ السهم في عقل اليوشا في تلك اللحظة المثقلة بالأسى والحزن. ووقف في مكانه هنيهة وهو يرقب أخاه، ولاحظ بصورة مفاجئة أن إيفان كان يترنح في مشيته وأن كتفه الايسر كان يبدو اعلى من كتفه الأيمن، ولم يكن قد لاحظ ذلك من قبل. وفي هذه اللحظة استدار اليوشا واتجه نحو الدير مهرولاً. وكان الظلام قد هبط فأحس بمثل الخوف، فقد كان هناك نوع من الإحساس يتعاظم في اطواء ضميره ولا يستطيع تبينه وهبت الريح شديدة كما في مساء الامسية السابقة. وسمع همسات الأنسام الحزينة وهي تداعب اشجار الصنوبر العتيقة عندما أوغل في حرش الصومعة. وحدث نفسه وهو يكاد يعدو: «الاب سيرافيكوس»! لقد عرف الاسم من مكان ما. وممن سمعه؟ إيفان، أخي المسكين متى أراك مرة ثانية؟... ها هي ذي الصومعة. نعم، نعم، ها هو ذا الاب سيرافيكوس إنه سيخلصني منه إلى الأبد!

ولم يتمالك اليوشا نفسه من التعجب فيما بعد، وتساءل عدة مرات كيف امكنه، بعد أن فارق إيفان أن ينسى أخاه ديمتري نسياناً تاماً، مع أنه كان في الصباح وقبل بضع ساعات، قد عقد عزمه على أن يواصل البحث عنه حتى يجده ولو اقتضى الأمر أن يقى تلك الليلة خارج الدير.





بانتظار الوضوح البعيد

توجّه إيفان بعد أن افترق عن اليوشا إلى مسكنه في منزل والده فيودورو بافلوفيتش ومن الغريب أنه شعر بانقباض عظيم، كان يزداد مع اقترابه من المنزل. ولم تكن الغرابة في شعوره بالانقباض، بل في جهل أسبابه.

كان يحدث أن تنقبض نفس إيفان، ولم يكن ليندهش من شعوره هذا في مثل تلك اللحظة التي قطع فيها علاقته بكل ما يتصل باسباب قدومه إلى هذه المدينة، وكان يستعد في ذلك اليوم لأن يبدأ حياته بداية جديدة ويطل على مستقبل جديد مجهول. سوف يعود وحيداً كما كان طول حياته، تحدوه الآمال الواسعة والثقة المفرطة بما سيقسم له في الحياة من غير أن يدرك سبباً واضحاً لآماله وثقته. وبالرغم من أنه كان في تلك اللحظة مدركاً تماماً ما ينتظره من مجهول في حياته الجديدة فإن ذلك لم يكن هو مصدر قلقه في تلك اللحظة، بل هو أمر مختلف آخر وتساءل في سرّه: «أتراني منقبض بسبب نفوري من منزل أبي»؟ وأجاب قائلاً: «قد يكون ذلك فأنا سئمته حقاً، وما زلت أنفر منه رغم معرفتي بأن هذه المرة ستكون الأخيرة التي اجتاز فيها عتبته البغيضة، لا، لا ليس هذا هو السبب. فهل يكون إذاً فراقي لأليوشا، وذلك الحديث الذي دار بيننا؟ لقد ألزمت نفسي بالصمت سنوات كثيرة ولم افتح فمي بكلمة أتحدث بها إلى أي إنسان، وإذ بي بغتة تحل عقدة لساني فأتكلم دفعة واحدة بكل هذا الحديث.

وقد يكون سبب انقباض إيفان، هو غيظ الشباب من قلة تجاربه، ومن شدة غروره. ذلك أنه عجز عن التعبير عن نفسه وخاصة لمخلوق مثل اليوشا ينتظر منه في داخله أموراً كثيرة. لا شك في أن هذا الغيظ كان وارداً وملاحظاً، إلاّ أنه ليس السبب في انقباضه. وقال ايفان يحدث نفسه: «إنني

ضقت ذرعاً بالانقباض ومع ذلك فلا أدري ما اريد وربما كان خيراً لي إلا افكر. وحاول ايفان «ألا يفكر» ولكنه لم يستطع. إنه يشعر الآن بأن انقباضه المثير الآن لغيظه، يتصل بمصدر عرضي طارىء من خارج. إنه يحدث في بعض الأحيان أن يظهر إنسان أو شيء في مكان ما، كالشيء الذي يكون في مجال العين، ومع أن الإنسان لا يلحظه فترة طويلة إذا ما انشغل عنه بعمل أو حديث. إلا أن هذا الشيء يضايق الإنسان ويكاد يعذبه حتى أنه في النهاية يدرك العلة فيعمد إلى إزالته، وغالباً ما يكون شيئاً تافهاً مضحكاً، كحاجة وضعت في غير موضعها أو منديل ملقى على الأرض أو كتاب لم يوضع في مكانه على الرف.

بلغ إيفان المنزل أخيراً، وقد استبد به الغضب والانزعاج وإذ أصبح على بعد حوالي خمس عشرة خطوة من باب الحديقة، ادرك فجأة ما كان يضايقه ويزعجه، فقد كان الخادم سمير دياكوف جالساً على مقعد عند البوابة وهو ينعم ببرودة الجو وماأن وقع نظر إيفان عليه حتى علم أنه هو الذي لازمته صورته، وأن ذلك الرجل هو الذي كانت روحه تبغضه. لقد ادرك كل شيء بغتة واتضح له الأمر.

لقد بدأ شعور إيفان بالانقباض والاشمئزاز اللذين لا مزيد عليهما عندما حدثه اليوشا عن اجتماعه بسمير دياكوف، وسرعان ما هيج انقباضه واشمئزازه في قلبه سورة من الغضب. ولكن الحديث الذي اعقب ذلك أنسى إيفان أمر سمير دياكوف برهة من الزمن ولكن هذا بقي منطبعاً على صفحة ذاكرته، فلم يتمالك نفسه عندما ابصره من التساؤل وهو يشعر بضيق عظيم: هل يمكن أن يستطيع هذا المخلوق الغبي الحقير اقلاقي إلى هذا الحد؟

والحقيقة هي أن إيفان بدأ منذ فترة طويلة، وخاصة في بضعة الأيام الماضية، يشعر بنفور عظيم من هذا الرجل. بل إنه اخذ يلمس في نفسه شعوراً متزايداً يصل إلى حدّ الكراهية لهذا المخلوق. وربما زاد في رسوخ الشعور بالكراهية له، أن شعور إيفان حيال الخادم في أول عهده بالمدينة كان يختلف عنه الآن. فقد كان آنذاك يوليه اهتماماً بل إنه كان يعدّه انساناً عاقلاً. وقد شجعه على التحدث إليه، مع تساؤله الدائم عن سر ذلك التفكك في

عقله وحديثه ولطالما تساءل إيفان عمّا يؤثر تأثيراً مستمراً ملحاً على عقل هذا «المتأمل». لقد تطرقا إلى بحث بعض القضايا الفلسفية، بل إنهما ناقشا مسألة وجود النور في اليوم الأول من أيام الخليقة في حين أن الشمس والقمر والنجوم لم تخلق إلا في اليوم الرابع، وكيفية إدراك العقل هذا الأمر غير أن إيفان سرعان ما أدرك أن سمير دياكوف وإن تكن أمور الشمس والقمر والنجوم ممتعة، فإنه يعتبرها مسألة ثانوية، وهو يبحث في الحقيقة عن شيء يختلف عنها تماماً. وكان غرور سمير دياكوف يتعاظم في تصرفاته وهذا مما كان إيفان يكرهه. وقد كان هذا الغرور هو أول ما جعل إيفان ينصرف عنه. ثم برزت مشاكل العائلة وظهرت غروشينكا على المسرح، وحدثت الفضائح بين ديمتري وأبيه. هذه المسائل قد بحثاها أيضاً، ولكن بالرغم من أن سمير دياكوف كان دوماً يتحدث عنها بانفعال عظيم فقد كان من المستحيل ادراك ما كان يرغب أن تؤول إليه الأمور.

ومما كان في الحقيقة يثير الدهشة والاستغراب، هو ذاك الغموض والاضطراب في رغباته التي تنكشف عرضاً. وكان سمير دياكوف دائم التساؤل والاستيضاح بأسئلة غير مباشرة، ولكن كان يبدو من طريقة طرحها أنه أعمل تفكيره بها، غير أنه لم يكن يفصح عن غايته فيها. وكان دأبه في أدق اللحظات وأهمها أن يصمت فجأة ليقطع الحديث أو ينتقل إلى موضوع آخر. غير أن ما جعل إيفان يحنق عليه في النهاية أكثر مما سواه ويرسخ كراهيته له هو تلك الدالة العظيمة الغريبة التي تطل منها روح التمرد، والتي بدأ سمير دياكوف ممعناً فيها ولم يكن ذلك يعني أنه نسي مكانته وأصبح فظاً؛ بل على نقيض ذلك، فهو يتعمد إظهار المزيد من الإحترام، ومع ذلك فقد ظهر عليه أنه بدأ يعتقد ولا ندري السبب بأن تفاهماً ما قائم بينه وبين إيفان فيودوروفيتش. كانت لهجته تدل دائماً على أن الاثنين تجمعهما رابطة من الروابط، رابطة خفية، عبر عنها الاثنان في وقت من الأوقات، لا يعلمها أحد غيرهما ولا يدركها الذين يحيطون بهما ولكن إيفان ظل ردحاً من الزمن يجهل السبب الحقيقي لنفوره المتزايد منه، ولم يدرك هذا السبب إلا في الآونة الاخيرة.

كان إيفان شديد الاشمئزاز والضيق، وهمّ بأن يلج مدخل الحديقة دون أن يحادث سمير دياكوف أو ينظر إليه. ولكن سمير دياكوف نهض عن المقعد، فأدرك إيفان فوراً من حركته وحدها أنه يبغي محادثته بأمر خاص. ونظر إيفان إليه ووقف في مكانه. لقد كان مصمماً على أن يمر به دون توقف، فلما توقف شعر بغيظ يأكله والقى على وجه سمير دياكوف المعروق الناحل وخصل شعره المصففة بعناية كبرى على صدغيه، نظرة كراهية ممزوجة بالغضب والاشمئزاز. وكان سمير دياكوف يغمز بعينه اليسرى هاشا كأنه يقول إلى أين أنت ذاهب؟ لن تمر ألا ترى أن لدينا نحن الرجلين الذكيين حديثاً نتبادله؟

وأحس إيفان برعشة وكاد أن يصيح به قائلاً: أغرب عن وجهي أيها الغر الخسيس، أيكون لي أنا شأن معك؟ ولكن شد ما أدهشه أنه وجد نفسه يسائله قائلاً: أما زال أبي نائماً أم أنه استيقظ؟

طرح إيفان هذا السؤال مترفقاً هادئاً فأصابته الدهشة. وأحس بدهشة ثانية إذ ألفى نفسه يجلس على المقعد. وقد تذكر فيما بعد أنه أحس بغتة بمثل الخوف يسري في أوصاله. وقف سمير دياكوف أمامه واضعاً يديه خلف ظهره وهو ينظر إليه نظرة فيها ثقة وفيها ما يشبه القسوة.

وأجاب سمير دياكوف متباطئاً: «إن سعادته ما زال نائماً» (وبدا عليه كأنه يقول: «لقد كنت أنت البادىء في الحديث لا أنا»)، وبعد أن صمت قليلاً عاد إلى الكلام وقد خفض بصره تصنعاً، وقدم رجله اليمنى وشرع يحرك طرف حذائه اللامع وقال: «لقد ادهشني امرك يا سيدي».

فتساءل إيفان متسرعاً عابساً وهو يلجم نفسه: «وما الذي يدهشك؟» وادرك بغتة وهو يشعر بالنفور، أنه كان يشعر بفضول عظيم، ما كان ليستطيع معه أن يمضي دون أن يشبعه.

وفجأة رفع سمير دياكوف بصره وهو يظهر الإلفة في شفتيه وسأله قائلاً: لماذا لا تذهب إلى «تشيرماشنيا» يا سيدي؟ وكانت عينه اليسرى المشدودة إلى أعلى كأنها تقول: يجب عليك أن تدرك سبب ابتسامي إذا كنت رجلاً ذكياً.

فأجاب إيفان مندهشاً: ولماذا اذهب إلى تشيرماشنيا؟

فصمت سمير دياكوف برهة ثم قال متمهلاً وكأنه لا يريد أهمية ما لجوابه: إن فيودور بافلوفيتش قد ألحّ برجائه أن تذهب. وبدا عليه كأنه يقول: إنما اردت أن أصطنع سبباً ثانوياً لكي أقول لك شيئاً.

أصبح إيفان حانقاً فجأة فصاح غاضباً: تبا لك! أفصح بوضوح عما تريده.

وضم سمير دياكوف رجله اليمنى إلى اليسرى وانتصب في وقفته وأبقى في عينيه نظرة الجد وعلى شفتيه تلك الابتسامة الخفيفة، وقال: ليس هنالك من شيء، وإنما أردت أن نتحادث.

وخيم الصمت ثانية. وانقضت على صمتهما قرابة دقيقة وأدرك إيفان أن عليه أن ينهض من مجلسه ويشعر الخادم بغضبه. ووقف سمير دياكوف أمامه وكأنه يسأل إيفان: والآن، ستغضب أم ستبقى هادئاً؟ كان هذا على الأقل هو ما أحس به إيفان. واخيراً تململ يبغي النهوض، ولكن سمير دياكوف بدا وكأنه أراد انتهاز الفرصة فقال: إنني في موقف حرج يا إيفان فيودوروفيتش، ولست أدري أين المخرج. وكان يتكلم بوضوح وعزم، ثم تأوه آهة حرى. أما إيفان فيودوروفيتش فقد عاد إلى الجلوس في مكانه.

وتابع سمير دياكوف كلامه قائلاً: إنهما أحمقان، وهما يتصرفان كالأطفال إنني اتحدث عن أبيك وأخيك ديمتري فيودوروفيتش. فأما أبوك فيودورو بافلوفيتش فلا يكاد ينهض من رقاده حتى يأخذ في ازعاجي بأسئلة متتالية: هل جاءت؟ لماذا لم تأت بعد؟ ويظل هذا شأنه حتى منتصف الليل، بل إلى ما بعد منتصفه. وإذا لم تأت اغرافينا الكسندروفنا (واغلب الظن أنها لا تود المجيء) فإنه سيعاود السؤال منذ صباح الغد: ما سبب تخلفها عن الحضور؟ متى تأتي؟ كأنني أنا الملوم على هذا الأمر. أما حالي مع أخيك فليست افضل منها مع أبيك، إذ لا تكاد الظلمة تهبط بل وقبل حلول الظلام، حتى يظهر لي أخوك ديمتري وغدارته في يده ويخاطبني قائلاً: اصغ إلي أيها الحقير، يا صانع الحساء. إذا تركتها تدخل ولم تخبرني بامرها، إذا وافت أبي، فسأقتلك أولاً. وعندما ينقضي الليل، فإنه يزعجني بأسئلته كأبيك حتى

يكاد يزهق روحي: لماذا لم تحضر؟ وهل ستحضر سريعاً؟ فهو أيضاً يظنني الملوم على عدم حضور فتاته. إن غضبهما يتضاعف يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، حتى لأظن في بعض الأحيان بأنني لا محالة قاتل نفسي طلباً للخلاص. إنني لا أركن إليهما يا سيدي.

فأجابه إيفان وقد بدا عليه الضيق: ولماذا تدخلت في الأمر ورضيت أن تكون جاسوساً لديمتري فيودوروفيتش؟

ـ وكيف يمكنني عدم التدخل. والواقع أنني لم أتدخل في الأمر مطلقاً إذا شئت أن تعرف الحقيقة. فقد ظللت صامتاً منذ بدء الأمر لا اجرؤ على الرد. ولكن أخاك ألح علي في أن أكون خادماً له. ومنذ ذلك الوقت لم أعد أسمع منه إلا هذه العبارة: سأقتلك أيها النذل. إذا غابت عن ناظريك. إنني اشعر يا سيدي بأنني سأقع غداً فريسة نوبة صرع طويلة.

ـ وماذا تعني بقولك نوبة طويلة؟

ـ أعني نوبة طويلة، تدوم زمناً طويلاً، بضع ساعات، أو ربما دامت يوماً أو يومين. لقد امتدت ذات مرة ثلاثة أيام. فقد سقطت آنذاك من غرفة السطح، وبقيت ثلاثة أيام غائباً عن نفسي. وقد أرسل فيودور بافلوفيتش في طلب الطبيب هرتسنشتوبي فوضع على رأسي ثلجاً وعالجني بدواء آخر... ولولا ذلك لكنت الآن ميتاً.

فتساءل إيفان مستغرباً وهو يبدي الضيق: ولكنهم يقولون إن المريض بالصرع لا يمكنه التنبوء بموعد النوبة فما ادراك بأنك ستقع فيها غداً.

ـ إن هذا صحيح، لا يمكن التنبوء بموعد نوبات الصرع.

ـ وفضلاً عن ذلك، فقد سقطت آنذاك من غرفة السطح.

ـ إنني اصعد إلى غرفة السطح كل يوم، وقد اسقط منها غداً أيضاً. وإن لم اسقط منها فقد تزل قدمي وأنا اهبط درجات السرداب. فإن علي أيضاً الذهاب إليه كل يوم.

فحدق إيفان فيه طويلاً، ثم قال له بهدوء مشوب بالتهديد: يبدو أن حديثك لا معنى له، فأنا لا استطيع أن افهمه. هل تقصد من قولك، إنك ستصنع المرض غداً وتلزم فراشك ثلاثة أيام؟

كان سمير دياكوف قد غضّ بصره، وهو يهزّ قدمه اليمنى، فلما سمع قول إيفان خفض قدمه إلى الأرض ومد قدمه اليسرى وقال وهو يغتصب ابتسامة:

لو كنت قادراً على أن آتي بمثل هذه الخدعة أي أن نوبة صرع انتابتني - ولا يصعب ذلك على إنسان عرف بهذه العلة - فإنه يكون لي ملء الحق في أن الجأ إلى هذه الخدعة كي أنقذ حياتي، لأن اغرافينا الكسندروفنا لو وافت أباه فيودور بافلوفيتش وأنا طريح الفراش فإن صاحب السعادة لا يستطيع أن يلوم إنساناً عليلاً على عدم ابلاغه النبأ بل إنه سيخجل من ذلك.

فقال إيفان وقد احتقن وجهه غضباً: دعك من هذا كله، ما بالك دائم الخوف على حياتك؟ إن تهديدات أخي ديمتري كلها ليست إلا كلمات يمليها تسرّعه وهي لا تعني شيئاً. إنه لن يقتلك؛ فلست أنت الإنسان الذي سيقتله!

- بل إنه سيقتلني كالذبابة قبل أن يقتل أي إنسان آخر. وثمة ما أخشاه أكثر، عنيت أن أعد شريكاً له إذا ما اعتدى على أبيه.

- ولماذا تعد شريكاً؟

- إنهم سيظنونني شريكاً له لأنني افشيت له سر العلامات وهو سر عظيم.

- أية علامات؟ ولمن افشيت سرها؟ تباً لمخاتلتك، فلتوضح الأمر.

فأجاب سمير دياكوف متشدقاً رافعاً من قيمته: أرى لزاماً علي أن أقر بهذه الحقيقة، إن في هذا الأمر سراً بيني وبين فيودور بافلوفيتش. فهو كما تعلم (إذا بلغك علم ذلك) مع حلول المساء أو قبل ذلك أحياناً، يقفل على نفسه الأبواب. إنك في الآونة الأخيرة تبكر في الصعود إلى غرفتك كل مساء. وبالأمس لم تخرج منها قط. فربما أنك لا تعلم مدى حرصه على أن نوصد عليه الأبواب كلما جن الليل. بل إنه لا يفتح الباب حتى لغريغوري فاسيليفيتش، قبل أن يتحقق من صوته. غير أن غريغوري فاسيليفيتش لا يقرع بابه، لأنني انفرد في القيام بخدمته الآن. وهذا هو تدبيره منذ أن بدأت علاقته بأغرافينا الكسندروفنا. وأنا انفذ اوامره فأذهب عند حلول الظلام إلى

منزل الخدم وأظل ساهراً حتى منتصف الليل، لأتربص وأطوف بالساحة منتظراً حضور اغرافينا الكسندروفنا. لقد ازداد شوقه للقائها في الأيام القليلة الماضية ويرتقب قدومها بفارغ الصبر وهو يحاجني ويقول إنها ترهب جانب ديمتري فيودوروفيتش (أو ميتيا كما يدعوه)، ولذا فإنها ستوافيني في ساعة متأخرة من الليل وستسلك الطريق الخلفية. ويمضي قائلاً: عليك أن تظل ترقب قدومها حتى انتصاف الليل وبعد انتصافه؛ فإذا جاءت اصعد إلي مسرعاً واقرع بابي أو زجاجة النافذة المطلة على الحديقة قرعتين خفيفتين أولاً ثم اعقبهما بثلاث قرعات متواترة سريعة، وعندها أعلم أنها جاءت فأفتح لك الباب بهدوء. وقد أعطاني علامة ثانية اعتمدها إذا وقع امرطارىء وهي قرعتان وبعدهما بقليل، قرعة اقوى. ومن هذه العلامة يفهم أن أمراً مفاجئاً قد حدث فلا بد من أن أراه، فيفتح لي الباب وأكلّمه. كل هذا في حالة عدم تمكن اغرافينا الكسندروفنا من المجيء فبعث رسولاً يحمل رسالة. وفضلاً عن ذلك فقد يحضر ديمتري فيودوروفيتش ويصبح لزاماً علي أن أعلمه نبأ حضوره حالاً. إن خوفه من ديمتري فيودوروفيتش رهيب، حتى إنه لو وافته اغرافينا الكسندروفنا واختلى بها ثم ظهر أن ديمتري فيودوروفيتش قريب من المنزل في تلك الآونة، فمن واجبي أن أبلغه باقترابه فوراً بقرع بابه ثلاث مرات. وهكذا تكون القرعات الخمس الأولى تعني حضور أغرافينا الكسندروفنا، بينما تقضي القرعات الثلاث الأخرى بوجوب اعلامه فوراً بطارئ هام. لقد أوضح لي سعادته هذه العلامات مرات عدة وقرعها امامي. وإنه ما من إنسان في الوجود غيري وغيره عالم باسرار هذه العلامات فإذا سمعها فتح الباب بدون أدنى تردد وبدون أن يرفع صوته بالنداء (فهو يخشى خشية عظيمة أن يرتفع صوته بالنداء) وإن ديمتري فيودوروفيتش يعلم الآن سرّ هذه العلامات.

كيف علمها؟ هل اطلعته أنت عليها؟ وكيف جرؤت على ذلك؟

- إنه الخوف طبعاً إذ كيف اجرؤ على كتمان امرها عنه؟ لقد كان ديمتري فيودوروفيتش يلاحقني كل يوم بقوله: إنك تخدعني وتخفي عني شيئاً! سأحطم ساقيك. فاطلعته على هذه العلامات السرية لكي اثبت له خضوعي واخلاصي، واقنعه بأنني لن أخفي عنه شيئاً طالماً أطلعته على سرّ كهذا.

ـ إذا كنت تخشى أنه سيستغل هذه العلامات ويحاول الدخول إلى المنزل فامنعه من الدخول.

ـ ولكن إذا كنت فاقد الوعي من نوبة الصرع فكيف استطيع منعه من الدخول، بل وكيف اجرؤ على منعه من الدخول ـ إذا قدرت ـ وأنا أعلم مقدار بأسه؟

ـ تباً لك ولأقوالك! كيف تجزم بأنك ستصاب غداً بنوبة صرع؟ أم أنك تهزأ مني؟

ـ وكيف اجرؤ على الهزؤ منك، وأنا لا أقوى على الضحك في حالة الفزع هذه؟ إن الخوف وحده كاف لأن أصاب بالنوبة.

ـ سحقاً لك! إذا وقعت طريح الفراش فإن غريغوري سيتولى أمر الحراسة، فأعلمه بالأمر سلفاً، وهو ولا شك سيمنعه من الدخول إلى المنزل.

ـ إنني لا استطيع اطلاع غريغوري فاسيليفيتش على العلامات السرية إلاّ بإذن من سيدي. أما فيما يتعلق بسماع غريغوري فاسيليفيتش بحضوره، ومنعه من الدخول، فأقول لك إنه ما زال طريح الفراش منذ الأمس، وها هي مارفا اغناتييفنا تعتزم أن تداويه غداً. ولقد اتفقا على ذلك وهي تداويه بعلاج غريب من صنع يديها. فمارفا اغناتييفنا تعلم سر تركيب علاج ولا تبوح به لأي إنسان. وهو عقار قوي الأثر يستخرج من بعض الأعشاب ولديها سره وهي تعطيه لغريغوري فاسيليفيتش ثلاث مرات في كل عام حين يشتد عليه ألم عرق النسا ويكاد أن يشلّه. إنها تأتي بمنشفة وتبللها بهذا العلاج العقار وتدلك بها ظهره مدة نصف ساعة حتى يحمر ويتورم. ثم تسقيه ما يتبقى منه في الزجاجة وتتلو صلاة خاصة. وليس هذا كل ما في الأمر، فإنها تنتهز هذه المناسبة فتبقي لنفسها شيئاً من هذا العلاج وتشربه. ولما كانا لا يتناولان المسكرات القوية، فاؤكد لك أنهما لا يكادان يشربان ذلك العلاج حتى يستسلما لنوم عميق ولمدة طويلة. وعندما يصحو غريغوري فاسيليفيتش من رقدته يشعر بأنه قد شفي من مرضه تماماً، أما مارفا اغناتييفنا فتصاب دوماً بالصداع من أثر العلاج. وهكذا فإن مارفا اغناتييفنا إذا نفذت غداً ما عقدت عليه عزمها فإنهما لن يسمعا شيئاً ولن يستطيعا منع ديمتري فيودوروفيتش من

الدخول إلى المنزل لأنهما سيكونان مستغرقين في النوم.

فصاح إيفان قائلاً:

غريب هذا! إن كل هذه الأمور ستحصل في آن واحد كأنها وضعت بموجب خطة محكمة. أنت ستصاب بالنوبة وهما سيكونان فاقدي الشعور. ثم سأله وقد قطب جبينه مهدداً: ولكن الست تعمل على ترتيب هذه المصادفات؟

ـ وأنى لي القدرة على ذلك؟... وأي شأن لي بذلك؟ فالأمور مرهونة بديمتري فيودوروفيتش وخططه؟... فإذا كان ينوي أن يفعل شيئاً فسيفعله؛ أما إذا لم يكن ينوي أن يفعل شيئاً فلن أدفعه إليه.

فهتف إيفان، وقد احتقن وجهه من الغضب: ولكن لماذا سيأتي ديمتري إلى هنا، ومتسللاً أيضاً إذا كانت اغرافينا الكسندروفنا لا تبغي المجيء مطلقاً إلى أبي كما قلت هذا بنفسك. وأنا أشعر يقيناً منذ أن حللت هذا المكان أن حضورها هو من نسج خيال الرجل العجوز وأن تلك المخلوقة لن تزوره. فما الذي يدعو ديمتري إلى اقتحام المنزل عليه في هذه الحالة؟ هيا تكلم فإنني أريد أن أعرف ما يدور في رأسك من افكار!

ـ إنك بذاتك تعلم السبب الذي يحمله على المجيء. ولا اهمية لما يدور في رأسي من افكار؟ إن سعادته سيحضر بمجرد أن يستبد به الغضب أو تساوره الشكوك وربما كان ذلك بسبب مرضي، وسيندفع إلى الداخل كما فعل أمس بسبب نفاد صبره ليفتش الغرف ويتأكد من انها غير مختبئة في المنزل وعلاوة على ذلك فهو يعلم علم اليقين أن فيودور بافلوفيتش هيأ مظروفاً كبيراً فيه ثلاثة آلاف روبل وقد ربطه بشريط وختمه باختام ثلاثة. وكتب على هذا المظروف بخط يده، «إلى ملاكي غروشينكا، إذا وافتني» وقد أضاف إلى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام «إلى دجاجتي الصغيرة» ولا يدري أحد ما الذي يحدثه وجود هذا المظروف.

فهتف إيفان قائلاً والغضب يبدو في صوته: إن هذا هراء! فديمتري لن يأتي لكي يسرق مالاً ويقتل أبي في سبيل ذلك. لقد كان بمقدوره أن يقتله بالأمس بسبب غروشينكا وهو ذلك المجنون الاحمق، ولكنه لن يأتي ليسرق.

فقال سمير دياكوف بلهجة واثقة وهادئة: إنه الآن في حاجة قصوى إلى المال، وفي أمس الحاجة إليه يا إيفان فيودوروفيتش. إنك لا تدري مقدار حاجته إليه، هذا فضلاً عن أنه يعتقد أن تلك الآلاف الثلاثة حق له. لقد انبأني بذلك قائلاً، إن أبي ما زال مديناً لي بثلاثة آلاف روبل. ثم لاحظ يا إيفان فيودوروفيتش أن هناك أمراً آخر صحيحاً تماماً. ويمكن أن يكون جيداً بقدر ما هو اكيد، ذلك أن اغرافينا الكسندروفنا سترغم فيودور بافلوفيتش على الزواج منها إذا هي شاءت ذلك، ومن الجائز كثيراً أن تشاء ذلك. لم اكن واثقاً عندما قلت أنها لن تأتي، ولكن ربما كانت تطمع باكثر من هذا، اعني أن تصبح حظية أبيك. إنني أعلم أن عشيقها التاجر سامسونوف قال لها من باب التندر وصراحة أنها لن تكون غبية لو فعلت ذلك. وهي فتاة تمتاز بقدر عظيم من الحكمة وحسن تقدير الأمور ولن تتزوج من متسول كديمتري فيودوروفيتش. وفي هذه الحالة يدا لك يا إيفان فيودوروفيتش، أنه لا ديمتري فيودوروفيتش ولا أنت ولا أخوك الكسي فيودوروفيتش ستنالون روبلاً واحداً من تركة سيدي بعد وفاته، لان اغرافينا الكسندروفنا لن تتزوجه ما لم تضمن لنفسها كل ما يخلفه من مال. ولكن إذا مات أبوك الآن فإن نصيب كل منكم سيكون قرابة اربعين ألفاً. حتى ديمتري فيودوروفيتش، الذي يبغضه كل ذلك البغض لانه لم يكتب أية وصية بعد، وديمتري فيودوروفيتش يعلم كل هذا علم اليقين.

بدا إيفان مشمئزاً وصبغت وجهه حمرة مباغتة، وقال مقاطعاً سمير دياكوف: إذاً لماذا تريدني أن اذهب إلى تشيرماشنيا؟ ما غايتك من ذلك؟ إنك تدرك حقيقة ما سيحدث هنا لو ذهبت. وهنا أصبح تنفس إيفان ثقيلاً لفرط تأثره.

فقال سمير دياكوف وهو يبدي اللطف والتروي ويرقب وقع كلامه عند إيفان: الأمر صحيح.

وسأله إيفان وفي عينه بريق الغضب وهو يغالب نفسه: ماذا تعني بقولك، الأمر صحيح؟

فأجاب بصراحة وهو يحدق في عيني إيفان اللتين تجلى فيهما

الغضب: «لقد قلت ما قلت، اسفا عليك. ولو كنت في مكانك لما اقحمت نفسي في هذه الأمور وابعدتها عنها... وصمت الاثنان برهة، ثم قال إيفان وهو ينهض فجأة عن مقعده:

إنك ابله كما يبدو، وفوق هذا نذل. وهم بأن يلج مدخل الحديقة، ولكنه احجم عن ذلك والتفت إلى سمير دياكوف. وهنا حدث امر غريب، فإن إيفان عض شفته اثناء تشنجه، وضم قبضته وكاد أن يهجم على سمير دياكوف، وشعر هذا بالأمر، فأجفل وارتد إلى الوراء. ومرّ الوقت ولم يلحق بسمير دياكوف أي أذى. واستدار إيفان صامتاً نحو المدخل وقد بدا عليه الاضطراب.

وفجأة صاح غاضباً: إنني منطلق إلى موسكو منذ الغد، إذا كان يهمك أن تعلم، هذا كل شيء! ولم يتمالك نفسه من التساؤل فيما بعد عن السبب الذي دفعه إلى ابلاغ سمير دياكوف بأمر سفره.

فأجاب سمير دياكوف وكأنه كان ينتظر سماع ذلك منه: إن هذا خير ما تستطيع صنعه، إلا إنه سيكون بالإمكان استدعاؤك من موسكو إذا حدث أي شيء.

ووقف إيفان في مكانه والتفت بسرعة إلى سمير دياكوف، الذي تبدلت ملامحه فجأة. لقد زالت كلياً عن وجهه آيات التبسط وعدم الاكتراث التي كان يصطنعها، وانطبعت عليه أمارات الاهتمام والترقب، وبدا أنه ينتظر بخضوع وذلة.

وكانت نظرته الثابتة المصوبة إلى إيفان كأنها تسائله: ألن تقول كلمة أخرى؟ ألا تود أن تضيف شيئاً إلى اقوالك؟

وقال إيفان وهو يرفع صوته لسبب خفي: وهل يمكن استدعائي من تشيرماشنيا أيضاً إذا حدث شيء؟

فتمتم سمير دياكوف هامساً وهو يبدو مضطرباً، لكنه كان يحدق بثبات وإلحاح بعيني إيفان: بلى إن بالإمكان استدعاءك من تشيرماشنيا أيضاً.

-إن موسكو أبعد عن هنا من تشيرماشنيا. هل إن اصرارك علي في

السفر إلى تشيرماشنيا سببه رغبتك في توفير نفقات السفر أم هو رغبتك في ألا ابتعد؟

فتمتم سمير دياكوف بصوت غلب عليه التأثر، وهو يبتسم بخبث: إنه هذا تماماً. ثم تحفز للارتداد إلى الخلف ولكن ما كان اعظم دهشته عندما أغرق إيفان في الضحك واجتاز مدخل الحديقة وهو لا يزال يضحك. ولو أن إنسانا نبيهاً رآه آنذاك لأدرك أنه لم يكن يضحك انشراحاً. إنه هو بنفسه لم يكن يستطيع أن يوضح حقيقة شعوره في تلك اللحظة. لقد كان يتحرك ويسير وأعصابه مضطربة وكانت خطواته وكأنها آلية.



أحياناً يلتذ المرء بمحادثة الأذكياء

دخل إيفان المنزل وهو على حاله من التوتر، فلما شاهد فيودور بافلوفيتش في غرفة الجلوس صاح به قائلاً وهو يلوح بيديه: إنني صاعد إلى غرفتي ولا أريد الدخول عليك. وداعاً! ثم اجتاز الغرفة وهو يحاول ألا ينظر إلى أبيه. وأغلب الظن أنه كان في تلك اللحظة شديد النفور من الرجل العجوز ولكن هذا الإعلان السافر للعداوة كان مفاجئاً حتى لفيودور بافلوفيتش. ومن الظاهر أن الرجل العجوز كان يريد اطلاع ابنه على أمر ما مستعجل، ولذلك جاء لمقابلته في غرفة الجلوس عامداً. فلما حياه هذه التحية جمد في مكانه لا يحير جواباً، ثم وقف يرقب ابنه ساخراً وهو يصعد درجات السلم حتى غاب عن ناظريه. وكان سمير دياكوف قد تبع إيفان إلى الغرفة فبادره العجوز قائلاً: ما خطبه؟

فتمتم الخادم وهو يحاول التهرب: لعل أمراً ما اغضبه. لا أحد يدري السبب.

ـ سحقاً له! إذن فليغضب كما يحلو له الغضب. أحضر إلي ابريق الشاي ثم انصرف. كن متيقظاً. أما من جديد؟

ثم تتالت الاسئلة التي شكا منها سمير دياكوف لإيفان، وكلها تتعلق بزائرته المنتظرة. ولسنا لنكررها الآن. وبعد نصف ساعة اوصدت أبواب البيت، وأخذ الرجل المعتوه يجوب حجراته في لهفة الترقب منتظراً في كل دقيقة سماع القرعات الخمس المتفق عليها. وبين الحين والحين كان يحدق ببصره في الظلام فلا يرى شيئاً.

وتقدم الليل، وظل إيفان مستيقظاً متأملاً، كان يفكر. وامتد به السهر حتى الساعة الثانية صباحاً. ولكننا لن نشرح ما كان يجول في مخيلته من

أفكار، وليس مؤاتياً هذا الحين لننفذ إلى تلك الروح، وسيأتي دور ذلك. ونحن لو حاولنا ذلك لصادفتنا مصاعب عظيمة. إن رأسه كان خالياً من أية أفكار، بل كان فيه غموض واضطراب مقلق. لقد كان يشعر أنه فقد اتجاهه في الحياة. وفوق هذا كانت ألوان غريبة مدهشة من الرغبات تلح عليه؛ فمثلاً شعر فجأة بعد منتصف الليل برغبة عارمة لا راد لها لأن يهبط إلى اسفل ويفتح الباب ويمضي إلى منزل الخدم ويضرب سمير دياكوف. ولو سألته عن سبب ذلك لما وجد سبباً دقيقاً، اللهم إلا أن يقول إنه اصبح يكره هذا الخادم باعتباره إنساناً وجه إليه اهانة لم يعرف مثلها على يد أي إنسان آخر في الدنيا باسرها. ومنْ جهة ثانية، فقد تملكه أكثر من مرة فزع مريع غامض شل قواه الجسمانية. وشعر بصداع في رأسه ودوار. واستولت عليه نار الكراهية. وانتابه شعور بحاجة الانتقام لنفسه من إنسان ما، بل إنه كره اليوشا إذ تذكر تلك المحادثة التي دارت بينهما. وكان في بعض اللحظات يتراءى له كرهه لنفسه. أما كاترينا ايفانوفنا فإنه كاد أن ينسى التفكير فيها، وقد عجب لذلك أيما عجب فيما بعد، وخاصة عندماتذكر بوضوح أنه لما انبأ كاترينا ايفانوفنا أنه مسافر غداً إلى موسكو سمع صوتاً يهمس في قرارة نفسه: «إن هذا لغو فارغ، فأنت لن تذهب، ولن يكون باستطاعتك أن تفارقها بالسهولة التي تدعيها الآن مفاخراً».

ولسنوات عديدة بقي إيفان يشعر بالاشمئزاز الشديد، وحوادث تلك الليلة تتواثب إلى ذاكرته، عندما تذكر كيف أنه نهض من اريكته فجأة، وتسلل كمن يخشى الرقباء ففتح الباب، وخرج إلى السلم واخذ يصيخ بسمعه إلى فيودور بافلوفيتش وهو يتنقل في غرف الطابق الأرضي، واطال الاستماع، لدقائق وكان يحركه فضول غريب، بقلب خافق ونفس منحبس. وقد تساءل في سره عن السبب الذي دفعه إلى استراق السمع ولكنه لم يهتدي إليه. وقد ظل طول حياته يؤاخذ نفسه على تصرفه ذاك. ووصفه «بالمشين» وظل في دخيلة نفسه يعتبره أدنأ عمل أقدم عليه طول حياته. فهو لم يكن في تلك اللحظة يشعر بأية كراهية لفيودور بافلوفيتش، إنما دفعه فضول عظيم لمعرفة كيف كان يسير في الطابق السفلي من المنزل وما كان يقوم به من عمل.

وكان يتخيله يقترب لينظر من خلال النوافذ المظلمة، ثم يقف في منتصف الغرفة يتحرق سماع القرعات المنشودة. لقد خرج إيفان إلى السلم لكي يسترق السمع مرتين.

وفي حوالي الساعة الثانية، عندما خيّم الهدوء، وبعد أن استسلم فيودور بافلوفيتش إلى النوم، أوى هو أيضاً إلى فراشه وهو ثابت العزم على أن ينام فوراً، فقد كان منهوك القوى إلى حد مخيف. وفعلاً فقد غرق في نوم عميق بلا أحلام، ولكنه استيقظ مبكراً في الساعة السابعة صباحاً ونور الشمس يملأ الكون. وعندما فتح عينيه دهش كثيراً لما وجد في نفسه من نشاط عظيم. فقفز من سريره مسرعاً وارتدى ثيابه على عجل. ثم سحب صندوقه وشرع من غير أن يضيع لحظة يحزم أمتعته وكانت ملابسه الداخلية قد احضرتها له الغسالة أمس فابتسم إيفان ابتسامة مشرقة عندما تبين له أن لا شيء يعرقل رحيله المفاجيء، وقد كان رحيله مفاجئاً حقاً ومع أن إيفان كان قد قال في اليوم السابق (لكاترينا ايفانوفنا واليوشا وسمير دياكوف) أنه راحل منذ الغد، فقد تذكر أنه لم يفكر بالسفر عندما أوى إلى فراشه، أو على الأقل لم يكن يتصور أن يبدأ صباحه بحزم امتعته، واخيراً اكمل تجهيز صندوقه وحقيبته. وقرابة الساعة التاسعة دخلت عليه مارفا ايغناتييفنا تسأله سؤالها المعتاد: «أين ترغب سعادتك أن تتناول الشاي، في غرفتك أم في الطابق السفلي؟» وكان اقرب إلى الانشراح، رغم ما ظهر في كلماته واشاراته، من بعض التسرع وعدم الاتزان. وقد حيا أباه تحية ودية بل إنه سأله عن صحته، ولكنه لم ينتظر أن يسمع جوابه إلى نهايته، فأعلمه أنه مسافر في غضون ساعة واحدة إلى موسكو ورجاه أن يأمر باحضار الجوادين. استمع الأب إليه ولم تبدو عليه أية علامة من علامات الدهشة بل إنه نسي أن يعمل بمقتضيات اللياقة فيعرب له عن أسفه لفقده. وبدلاً من أن يفعل ذلك، انحصر اهتمامه في أن تذكر امراً هاماً من اموره الخاصة فهتف بابنه قائلاً: «يا لك من فتى! لو اخبرتني بذلك في الأمس! ولكن لا بأس فبإمكاننا أن نتدبر الأمر. أرجو أن تؤمن لي خدمة كبرى يا ولدي العزيز. اذهب إلى تشيرماشنيا في طريقك. ويمكن الوصول إليها من المنعطف القائم إلى يسار محطة فولوفيا، فلا تسير اكثر من اثني عشر فرسخاً

حتى تصل إلى تشيرماشنيا».

ـ إنني آسف، فهو أمر لا استطيعه. إن علي أن اقطع ثمانين فرسخاً لكي أصل إلى محطة السكة الحديد، والقطار يقوم إلى موسكو في الساعة السابعة من هذه الليلة، وعلى ذلك فإنني لا أكاد ألحق به.

ـ تستطيع أن تلحق بالقطار غداً أو بعد غد وتذهب اليوم إلى تشيرماشنيا، وهذا ليس كثيراً مقابل هذه الخدمة الصغيرة لأبيك. ولو لم يكن لدي هنا من الأعمال ما يضطرني إلى البقاء لسافرت بنفسي إلى تلك المدينة منذ أمد بعيد، لأن لدي فيها عملاً هاماً ومستعجلاً. ولكن الوقت لا يسمح لي بالسفر الآن. أنت تعلم أن لدي قطعتي أرض مشجرتين هناك. إن ماسلوف التاجر العجوز وابنه لا يعرضان عليّ سوى ثمانية آلاف روبل ثمناً لما فيهما من اخشاب، في حين أن مشترياً آخر قد أفلت مني، العام الماضي كاد أن يدفع اثني عشر ألفاً. إنه من غير هذه المنطقة التي ليس فيها من يرغب في شرائها. إن ماسلوف وابنه مدركان مدى نفوذهما ولهما طريقتهما الخاصة في التعرف بهذه القضية. فالإنسان لا يملك إلا أن يقبل بما يعرضانه عليه، إذ ليس من يجرؤ على مواجهتهما ويدفع زيادة على ما يدفعانه. لقد كتب لي كاهن قرية إيليينسكو يوم الخميس الماضي يقول إن تاجراً يدعى غورستكين وهو تاجر اعرفه، قد ابدى رغبته في شراء الأخشاب. إن هذا الرجل ليس من ابناء ناحيتنا ولذلك فهو لا يخشى بأس ماسلوف. وقد ذكر أنه يدفع لي أحد عشر ألفاً ثمناً لاخشاب الحرج. هل تسمع؟ ولكن الكاهن يقول إنه لن يمكث في تشيرماشنيا أكثر من أسبوع واحد، ولذلك يجب أن تذهب إليه لتناقشه وتنهي الصفقة معه.

ـ حسناً اكتب إلى الكاهن؛ وهو يتولى أمر عقد الصفقة.

ـ إنه لا يفقه شيئاً في مثل هذه الأعمال، فهو عديم الدراية في المهام العملية إنه كنز عظيم، وأنا مستعد لإعطائه عشرين ألف روبل ولا آخذ منه إيصالاً بذلك، ولكنه جاهل تماماً في شؤون الأعمال. إنه طفل بسيط القلب وفي مقدور الغراب أن يخدعه. ومع ذلك فهو رجل مثقف هل تصدق ذلك.

إن غورستكين هذا له هيئة الفلاحين فهو يرتدي قفطاناً ازرق اللون،

ولسوء الحظ فهو رجل فظ وهذا عيبه، إنه كاذب كبير. وقد يقول الكذب احياناً ليس لغير الكذب ذاته. لقد قال لي في العام الاسبق إن زوجته قد توفيت وإنه اقترن بأخرى. وهل تصدق إذا قلت لك إنه كان يكذب؟ نعم! فزوجته لم تمت أبداً، وهي ما زالت حية حتى الآن، وما زالت تضربه يومياً. وهكذا فإن عليك أن ترى ما إذا كان كاذباً أم صادقاً في عرضه علي أحد عشر ألفاً ثمناً لاخشاب الحرج.

-وكيف يمكنني أن انفعك في مثل هذا العمل؟ فأنا لا أحسن هذه الأعمال!

-مهلاً، انتظر، يمكنك أن تنفعني. سأطلعك على العلامات التي تستطيع أن تعرف بواسطتها حقيقة غورستكين. فقد زاولت التجارة معه امداً طويلاً. راقب لحيته؛ فلديه لحية قذرة خفيفة حمراء. فإذا اهتزت لحيته اثناء الكلام وشعرت أنه غاضب، فذلك يعني أنه يقول الصدق وينوي عقد الصفقة، أما إذا كان يخلل لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة فإنه في مثل هذه الحالة يحاول أن يخدعك. لا تتفرس في عينيه فهذه الطريق لا تفيدك شيئاً، فهو رجل فظ لئيم، عليك بلحيته وحسب سأعطيك بطاقة تسلمها اليه. إن اسمه الحقيقي ليس غورستكين إنما هو لياغافي (أي الكلب الراقد) فاياك أن تدعه بهذا الاسم لئلا يغضب بشدة، وإذا استطعت التفاهم معه ورأيت أن كل شيء على ما يرام، فاكتب إلي حالاً. ويكفي أن تذكر لي عبارة: «إنه لا يكذب» أثبت على الأحد عشر ألفاً يمكنك أن تتنازل عن ألف واحدة ولكن لا تتنازل عن أكثر من هذا. أعمل خيالك! إن الفرق بين ثمانية آلاف وأحد عشر ألفاً لمبلغ يستحق ألا نضيعه. قد لا يتوفر لنا مشترٍ آخر، وأنا في أمس الحاجة إلى النقود. لا اطلب منك إلا أن تتأكد من أنه جاد فيما يقول وسأتولى أنا بنفسي إتمام الصفقة، وسوف اقتنص الوقت اللازم. أما أن اسرع الآن في السفر، فمن يضمن أن تكون الصفقة من أوهام الكاهن؟ أذاهب أنت الآن؟

-إن وقتي لا يتسع للقيام بهذا العمل. يجب أن تعذرني.

-بل إن بوسعك أن تطوق عنق والدك بجميل لن أنساه لك. إنكم

جميعاً مجردون من القلوب! ما قيمة اليوم أو اليومين بالنسبة لك؟ إلى أين صممت على السفر الآن، إلى البندقية؟ إن البندقية لن تغادر مكانها خلال يومين آخرين. كان ممكناً أن أرسل اليوشا، ولكن ما الفائدة من اليوشا في مثل هذه الأمور؟ لئن اخترتك فلأنك فتى ذكي. أو تظن أنني لا ادرك ذلك؟ قد لا تكون تاجراً متخصصاً ولكن ذوقك كاف. إن كل ما اريده هو أن ترى ما إذا كان الرجل جاداً في اقواله. اكرر قولي انظر إلى لحيته، فاذا اهتزت كان صادقاً.

فهتف إيفان قائلاً وهو يتسم ابتسامة تنم عن الحقد: إذن فأنت تود أن ترغمني على السفر إلى تشيرماشنيا؟

تجاهل فيودور بافلوفيتش نبرة الحقد في كلام ابنه ولكنه رأى الابتسامة على شفتيه فصاح قائلاً: إذن ستذهب، هل وافقت؟ سأخط لك المذكرة حالاً.

ـ إنني لا أعرف ما إذا كنت سأذهب، إنني لا اعرف ذلك، وسأبت الأمر أثناء الطريق.

ـ ولم هذا؟ قرر الآن يا صديقي العزيز، اقطع برأيك! إذا انهيت الأمر فاكتب إلي؛ واعط الكتاب إلى الكاهن وهو يرسله إلي فوراً. ولن اؤخرك أكثر مما اخرتك. إن بوسعك السفر إلى البندقية. وسيؤمن الكاهن بعربته عودتك إلى محطة فولوفيا.

وبدا الرجل العجوز مغتبطاً، فخط رقعة صغيرة ثم طلب إعداد الجياد. وجيء بطعام خفيف وشيء من البراندي. إن من عادة فيودور بافلوفيتش إذا اغتبط أن ينطلق ويكثر كلامه. لكنه الآن قليل الكلام، فهو مثلاً لم يتفوه بأية كلمة عن ديمتري. ولم يكن يظهر التأثر لفراق ابنه، وفي الحقيقة كان يبدو عليه أنه لا يعرف ماذا يقول. وقد لاحظ إيفان ذلك، وقال في سره؛ لا بد أن وجودي يضايقه. ورافق الرجل العجوز ابنه نحو الدرجات، ولقد هم بتقبيله ولكن إيفان اسرع فمد له يده مودعاً تحاشياً لقبلاته، فأدرك الأب لتوه معنى ذلك فلجم رغبته وامتنع.

وصاح من أعلى السلم بابنه قائلاً: اتمنى لك حظاً طيباً، اتمنى لك حظاً

طيباً! سوف تعود لرؤيتي ذات يوم أليس كذلك؟ احرص على أن تعود، وسأظل دائماً مسروراً لرؤيتك. رافقك السيد المسيح!

استقل إيفان العربة من غير أن يردّ.

وعاد أبوه إلى مخاطبته قائلاً: وداعاً يا إيفان! لا تؤاخذني.

وخرج جميع الخدم لتوديعه ـ سمير دياكوف ومارفا وغريغوري ـ فنفح ايفان كلا منهم بعشرة روبلات. ولما اتخذ مقعده في العربة قفز سمير دياكوف إليها لكي يرتب البساط تحت قدميه، فقال له إيفان: أرأيت... إنني ذاهب إلى تشيرماشنيا». وظل يذكر فيما بعد أن كلماته هذه صدرت عفواً. واطلق ضحكة غريبة عصبية كضحكة الأمس.

فأجاب سمير دياكوف بلهجة حازمة وهو يرمق إيفان بنظرة ذات معنى: إذن فقد صدق القائل إن المرء يلتذ أحياناً بمحادثة الأذكياء.

انطلقت العربة بإيفان وكان كل شيء في أعماق روحه مضطرباً ولكنه اخذ ينظر باهتمام إلى ما حوله من حقول وروابي وأشجار وشاهد سرباً من البط محلقاً في السماء. وعلى حين غرة شعر بالسعادة تملأ نفسه، وتحادث مع سائق العربة واهتم اهتماماً عظيماً بجواب السائق على سؤاله. ولكنه بعد لحظات ادرك أنه لا يستوعب أي شيء وإنه في الحقيقة لم يفهم جواب السائق. فصمت وشعر بالسرور حتى بهذا الصمت. وكان النيسم عليلاً ندياً منعشاً والسماء صافية. وخطر بباله اليوشا وكاترينا ايفانوفنا ولكنه ابتسم وحول ذهنه عن شبح هذين الصديقين وسرعان ما فارقا خياله وحدّث نفسه: إن أمامي متسعاً من الوقت لهما.

ووصلت العربة إلى المحطة بسرعة وابدل السائق الجياد ثم انطلق بإيفان إلى فولوفيا. وفجأة سأل نفسه: «لماذا يقال إن المرء يلتذ أحياناً بمحادثة الأذكياء؟ ماذا كان يعني بهذا القول؟» وسرعان ما شعر بضيق يكتم نفسه. وعاد إلى التساؤل قائلاً: وهل كنت مضطراً إلى ابلاغه انني مسافر إلى تشيرماشنيا؟ وأخيراً وصلت العربة إلى محطة فولوفيا، فترجل إيفان منها والتفّ حوله السائقون فساومهم في أجر السفر إلى تشيرماشنيا الواقعة على بعد اثني عشر فرسخاً. وطلب إليهم أن يعدوا الجياد. ثم توجه إلى بناية المحطة فجال

ببصره، وحدق إلى زوجة المأمور وفجأة عاد ادراجه إلى المدخل وخاطب السائقين قائلاً: «أيها الاخوان، لست ذاهباً إلى تشيرماشنيا هل استطيع ادراك قطار الساعة السابعة؟

ـ الوقت يتسع لهذا، فهل نخرج العربة؟

ـ حالاً. هل يوجد بينكم من يود الذهاب إلى المدينة غداً؟

ـ إن متري ذاهب إليها بكل تأكيد.

ـ هل لك أن تؤدي لي خدمة يا متري؟ إذهب إلى أبي فيودور بافلوفيتش كرامازوف وانبئه بأنني لم أذهب إلى تشيرماشنيا. هل بامكانك أن تفعل ذلك؟

ـ طبعاً يمكنني أن اقوم بهذا العمل، فإنني اعرف فيودور بافلوفيتش منذ زمن بعيد.

وقال إيفان وهو يضحك منشرحاً: خذ هذا، لأنني اعتقد بأنه لن ينفحك بشيء.

فأجاب متري ضاحكاً: ثق بأنه لن يفعل ذلك، شكراً لك يا سيدي، سأذهب إليه لا محالة.

وفي الساعة السابعة كان إيفان في القطار منطلقاً به إلى موسكو وحدّث نفسه قائلاً: وداعاً أيها الماضي. لقد قطعت كل صلة لي بدنياي القديمة ولا أريد أن أسمع عنه شيئاً. فلأتطلع إلى حياة جديدة، وأماكن جديدة، ولا التفت إلى الوراء! ولكنه بدلاً من أن يشعر بالبهجة، أحسّ بانقباض شديد في صدره، وكان الألم يعصر قلبه بشكل لم يعهده من قبل مطلقاً. وظل يفكر طول الليل والقطار يمرق به كالسهم، حتى فجر اليوم التالي وكان القطار يقترب من موسكو. لقد همس قائلاً: «يا لي من تعيس».

أما فيودور بافلوفيتش فظل، بعد أن ودع ابنه، راضياً منشرحاً، بل أنه بقي على حاله من السعادة بعد ذلك بساعتين، وهو جالس يحتسي البراندي.

وفجأة حدث شيء حمل معه الضيق الشديد والكدر لكل من في المنزل، والانزعاج الكامل لفيودور بافلوفيتش. إن سمير دياكوف سقط من أعلى درجات السلم وهو في طريقه إلى القبو. ولحسن الحظ فقد كانت

مارفا ايغناتييفنا في الفناء، فسمعت جلبة سقوطه في الوقت المناسب. وهي لم تره وهو يقع، بل سمعت صيحته الخاصة الغريبة التي ألفتها منذ زمن بعيد، صيحة المصروع أول حدوث النوبة. كان مستحيلاً أن يعرف أحد ما إذا كانت النوبة قد جاءته في اللحظة التي كان يهبط فيها درجات السلم، فتدحرج مغشياً عليه، أو إن السقطة والهزة التي اصابته هما اللتان سببتا له النوبة. لقد وجدوا سمير دياكوف ملقى على أسفل درجات السلم، وجسمه يختلج وقد امتلأ شدقاه بالزبد. وكان الظن في بدء الأمر أنه لا بد قد تأذى وكسر ساقه أو ذراعه، ولكن كما قالت مارفا ايغناتييفنا «فإن الله قد حماه» ولم يكسر أي عضو من اعضائه. ولكن نقله من السرداب كان أمراً صعباً، وأخيراً نقلوه بمساعدة الجيران. وقد شهد فيودور بافلوفيتش الحادث كله وساعد بنقل المصاب وقد بدت عليه علامات الذعر والاضطراب.

لم يسترد سمير دياكوف وعيه؛ وكانت التشنجات تنقطع ثم تعاوده. وادرك كل من في المنزل أنه سيحدث له مثلما حدث له قبل عام، عندما سقط من غرفة السطح. وتذكروا أنه وصف له آنذاك وضع الثلج على رأسه. وقد كان هناك شيء من الثلج في السرادب فتولت مارفا ايغناتييفنا أمره. وفي المساء ارسل فيودور بافلوفيتش في طلب الطبيب هرتسنشتوبي فحضر لتوه. كان شيخاً وقوراً جليلاً واشتهر بأنه أكثر اطباء المقاطعة دقة واصدقهم ضميراً. وبعد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً تبين له أن النوبة شديدة للغاية، وإنها ربما ادت إلى نتائج خطيرة لا يستطيع تحديدها الآن بشكل دقيق فإذا لم يشف المريض حتى صباح الغد ولم تنفع العلاجات المعطاة له فإنه سيغامر باللجوء إلى علاج آخر. وتم نقل المريض إلى منزل الخدم ووضع في غرفة تلي غرفة غريغوري ومارفا ايغناتييفنا.

وتواترت المصائب على فيودور بافلوفيتش في ذلك اليوم متواصلة لا تنقطع. وتولت مارفا ايغناتييفنا طهو طعام الغداء، فكان حساؤها إذا قورن بحساء سمير دياكوف، «لا يفضل ماء الغسيل» وكانت الدجاجة فيه جافة حتى كان يستحيل مضغها. تلقت مارفا ايغناتييفنا تأنيباً عنيفاً من سيدها وهي تستحقه، وكان ردها بأن الدجاجة كانت كبيرة السن من جهة، ومن جهة

ثانية فإنها لم تتدرب قط على أعمال الطباخين.

عندما حل المساء كانت مشكلة جديدة في انتظار فيودور بافلوفيتش فلقد ابلغ أن غريغوري وهو مريض منذ ثلاثة أيام قد لزم فراشه بعد أن عنف عليه عرق النسا. فرغ فيودور بافلوفيتش من تناول الشاي مبكراً باسرع وقت مستطاع، وأوصد الأبواب على نفسه فقد بات وحيداً في المنزل، وكان عظيم الاضطراب مهموماً قلقاً. لقد أحسّ إلى درجة التأكد بأن غروشينكا لا بد آتية الليلة، فهو كان تلقى تأكيداً من سمير دياكوف في صباح ذلك اليوم بأنها «وعدته بالمجيء بدون تأخير». وأخذ قلب الرجل العجوز يخفق خفقاناً عظيماً من فرط الاضطراب وهو يذرع غرف المنزل جيئة وذهاباً مصيخاً بسمعه. وكان يرى أن عليه أن يكون يقظاً، لأن ديمتري قد يكون مترصداً مرورها، فإذا ما قرعت النافذة (وقد انبأه سمير دياكوف قبل يومين أنه اعلمها متى وكيف يجب أن تطرق) كان عليه أن يفتح لها الباب فوراً. فلا يجب أن تنتظر في الممر ثانية واحدة خشية أن تفزع فتولي هاربة، لا قدر الله! إن فيودور بافلوفيتش سبق أن أقلقته أمور كثيرة، ولكن نفسه لم تعمر قط بمثل هذا الأمل الحقيقي، فهو الآن يكاد يكون على يقين من أنها آتية إليه الليلة.



الباب السادس

الراهب الروسي

الأب زوسيما وعوّاده

كان اليوشا يهم بدخول غرفة الناسك قلقاً مصدوع الفؤاد. وما إن أصبح على العتبة حتى جمد في مكانه مشدوهاً، فبدلاً من أن يجد الرجل العليل في غيبوبة يلفظ انفاسه الأخيرة، رأى الناسك، جالساً على مقعده، متشجعاً منبسط الاسارير، على الرغم من ضعفه وشدة اعيائه، وكان يحدث عواده الذي التفوا حوله هادئاً بروح منطلقة، والواقع أنه لم ينهض من سريره إلا قبل ربع ساعة من وصول اليوشا؛ وكان عواده قد تجمعوا في صومعته قبل ذلك ومكثوا ينتظرون استيقاظه، بعد أن أكد لهم الأب بيسي قاطعاً «إن المعلم سينهض، وسيتحدث مرة أخرى إلى أحبته، تماماً كما وعد هو نفسه في الصباح». والحقيقة أن الأب بيسي كان يثق ثقة تامة بهذا الوعد وبكل كلمة ينطق بها الناسك المحتضر. لقد بلغ به هذا الإيمان أنه لو رآه هامداً كلياً يلفظ انفاسه الاخيرة، لما صدق أنه مات، طالما وعده الناسك بأنه سينهض لوداعه، بل لظل ينتظر ارتداده حياً والبر بوعده. وكان الأب زوسيما قد قال له بصوت واضح وواثق عندما استلقى على فراشه في الصباح: لن افارق الحياة إلاّ بعد أن اتمتع بالتحدث إليكم مرة أخرى يا اعزائي، وبعد مشاهدة وجوهكم الغالية علي، وبعد أن افتح لكم قلبي مرة أخيرة. أما الرهبان الأربعة الذين اجتمعوا لسماع ما قد يكون آخر حديث للأب زوسيما فهم أقدم اصدقائه وأشدهم اخلاصاً له إنهم الأب يوسف، والأب بيسي، والأب ميخايل، قيم الصومعة وهو رجل لم يبلغ سن الشيخوخة، ولم يصبح عالماً بعد. وكان هذا الراهب من أصل وضيع، قوي العزيمة والإيمان، ذا مظهر ينم عن الزهد، ولكن فيه رقة شعور عميقة ويبدو أنه كان يجهد باخفائها خجلاً. أما الراهب الرابع، الأب أنفيم، فقد كان طاعناً في السن وضيعاً، من صغار الرهبان،

نادرا ما يكلم احدا. وكان هذا الراهب أيضاً ممعناً في التواضع والخضوع، وكأن الرعب يملأ نفسه بسبب شيء عظيم رهيب يجل عنه فهمه. وكان الأب زوسيما يكن لهذا الرجل المرهف الحس حباً عظيماً، ويظهر له الاحترام الكامل، مع أنه قد لا يكون في العالم سوى قلة من الناس كان الأب زوسيما أقل مخاطبة لهم من الأب أنفيم، ذلك أن الأب زوسيما كان يصطحب هذا الراهب لعدة سنوات من حياته عندما كان يطوف أنحاء روسيا المقدسة وقد حدث ذلك منذ عهد بعيد، قبل أربعين عاماً، عندما بدأ الأب زوسيما حياته كراهب في دير صغير فقير في كوستروما، وبعد فترة من دخوله هذا الدير كلف مرافقة الأب انفيم في رحلته التي قام بها لكي يجمع الحسنات للدير الفقير.

كان الجمع بأكمله في غرفة نوم الناسك التي كانت كما ذكرنا صغيرة جداً، بحيث كاد الرهبان الأربعة (بالإضافة إلى بورفيري، الراهب المبتدىء، الذي كان واقفاً) لا يجدون متسعاً لجلوسهم على الكراسي التي نقلوها من غرفة الاستقبال وصفوها حول سرير الأب زوسيما. كان الليل قد بدأ يرخي سدوله، وكانت الغرفة تنيرها المصابيح والشموع الموضوعة أمام الايقونات.

ولما شاهد الأب زوسيما أليوشا واقفاً على العتبة واضح الاضطراب، ابتسم له ابتسامة مرحة، ومد يده نحوه قائلاً:

اهلاً بك يا فتاي الهادىء، اهلاً بك يا حبيبي، ها أنت ذا قد جئت أيضاً. لقد كنت موقناً أنك ستأتي.

فاتجه اليوشا إليه وانحنى امامه انحناءة كاملة وجهش باكياً. ثمة شيء ما في فؤاده اهاج اشجانه، وحرك كوامن نفسه، فرغب أن ينفجر بالبكاء.

وقد وضع الأب زوسيما يده اليمنى على رأس اليوشا وقال له مبتسماً: هلم، إن وقت البكاء علي لم يحن بعد فها أنت تراني بينكم اكلمكم؛ وقد اعيش عشرين سنة أخرى، كما تمنت لي بالأمس تلك السيدة الطيبة العزيزة التي جاءت من فيشيغوري، وكانت تحمل ابنتها الصغيرة ليزابيتا بين ذراعيها. ثم رسم شارة الصليب وقال مخاطباً بوفيري: هل اخذت صدقتها إلى حيث قلت لك؟

وكان يعني بذلك الستين قبقاً التي تصدقت بها أمس هذه المرأة الطيبة لتكون من نصيب شخص افقر منها. إن هذه الصدقة، وامثالها إنما هي مقتطعات من جني حلال، تقدم على سبيل إماتة النفس والتكفير عن الخطايا طوعاً. وكان الناسك قد ارسل بورفيري بالمبلغ في الليلة البارحة إلى ارملة احترق منزلها مؤخراً، فصارت بعد ذلك تطوف البلدة مع طفليها لتستجدي أكف المحسنين، وقد اسرع بورفيري بالرد على سؤال الراهب بأنه أعطى الأرملة المبلغ قائلاً لها، كما طلب إليه، أنه من محسن مجهول.

وتابع الناسك كلامه مخاطباً اليوشا: «انهض يا فتاي العزيز، لأشبع نظري إليك. هل ذهبت إلى منزلك ورأيت اخاك»؟ وقد استغرب اليوشا سؤال الناسك عن أحد أخويه دون الآخر، بلهجة الواثق من سؤاله ولكن أي الأخوين يعني؟ فهل ارسله الناسك بالأمس واليوم من أجل ذلك الأخ؟

أجاب اليوشا بأنه رأى أحد اخويه، فقال الناسك: إنني اقصد الأخ الأكبر الذي انحنيت له أمس.

فأجاب اليوشا: رأيته بالأمس فقط ولم استطع العثور عليه اليوم.

ـ فلتبحث عنه بسرعة، عد غداً، اترك كل شيء واسرع في البحث عنه. لعله ما زال أمامك متسع من الوقت لتحول دون وقوع مصيبة. لقد انحنيت بالأمس للعذاب العظيم الذي تخبئه له الاقدار.

وصمت فجأة وبدا كأنه غارق في التأمل. وكانت كلماته غريبة، جعلت الأب يوسف الذي حضر أمس مشهد الانحناءة، يتبادل النظرات مع الأب بيسي. أما اليوشا فلم يتمالك نفسه من سؤال الناسك عن قصده، فقال بصوت منفعل متهدج:

أيها الأب والمعلم، إن كلامك مبهم لا استطيع فهم القصد منه، فما هو ذلك العذاب الذي خبأته له الأقدار؟

ـ لا تسأل لقد بدا لي بالأمس أنني أرى شيئاً مخيفاً.. لقد ادركت مستقبله متمثلاً في عينيه. وقد ارتسمت نظرة في عينيه، فتملكني الرعب لتوي بسبب ما يعد ذلك الرجل لنفسه. حدث في حياتي مرة أو مرتين أن شاهدت مثل هذه النظرة ترتسم في عيني إنسان.. وتعكس مصيره المحتوم، وقد

تحقق هذا المصير، وا أسفاه. لقد ارسلتك إليه يا الكسي، لاعتقادي بأن محياك الذي تتمثل فيه عاطفة الأخوة سيكون عوناً له. ولكن كل شيء ومصائرنا جميعاً هي من عند الرب. إن حبة الحنطة إن لم تقع في الأرض وتمت، فإنها تبقى وحدها، وإن ماتت أتت بثمر كثير[1] تذكر هذه الحكمة. ثم اضاف الناسك وهو يتسم ابتسامة رقيقة: أجل تذكر ذلك، أنت يا الكسي، أنت الذي باركتك في نفسي مرات عديدة من أجل محياك. فهذا هو رأيي فيما ينتظرك: إنك ستترك هذا الدير وستحيا في الدنيا حياة الرهبنة. أعداؤك سيكونون كثيرين، وهم أنفسهم سيحبونك. ستخبىء لك الحياة نوائب كثيرة، ولكنك ستسعد بها، وستبارك الحياة وتجعل الغير يباركونها. وهذا أمر أساسي. تلك هي سجيتك.

ثم طفق يخاطب اصدقاءه وهو يبتسم ابتسامة رقيقة فقال: أيها الآباء والمعلمون، إنني لم أوضح لأحد قبل اليوم حتى لهذا الفتى، السبب الذي يجعل محياه حبيباً إلى نفسي، وسأوضح الأمر لكم الآن. إن محياه كان بالنسبة لي ذكرى الماضي ونبؤة المستقبل. ففي فجر حياتي عندما كنت طفلاً كان لي أخ أكبر توفي أمامي عن سبعة عشر عاماً وبعد ذلك اثناء حياتي تكونت لي قناعة بأن ذلك الأخ كان علامة ارسلت من السماء لهدايتي فلولا تأثيره في حياتي ربما لم يقدر لي أن ادخل سلك الرهبنة وأن اسلك هذا السبيل القويم، أو هكذا يخيل إلي على أقل تقدير. ذلك ما حدث لأول مرة في طفولتي، ويبدو أنه يتكرر الآن ثانية هنا في نهاية رحلتي. إنه لمما يبعث على العجب أيها الآباء والمعلمون، إن الكسي الذي يشبه شقيقي في ملامحه بعض الشبه، وإن لم يكن شبهاً عظيماً، فإنه يبدو لي شبيهه بالصفات الروحية حتى أنني كثيراً ما حسبته ذلك الشاب، شقيقي، وقد عاد إلي بطريقة غامضة في نهاية رحلتي، كذكرى ومصدر الهام، وطالما عجبت في نفسي لغرابة هذا الحلم. ثم التفت إلى الراهب المبتدىء الذي كان يقوم على خدمته وقال: هل تسمع ما أقول، يا بورفيري؟ كثيراً ما رأيت امارات الأسى والحزن على وجهك لأنني أحب الكسي أكثر مما أحبك. إنك تعلم الآن سبب ذلك، ألا

(١) إشارة إلى ما قاله المسيح بعد قيام عازر (انجيل يوحنا، الإصحاح الثاني عشر).

فاعلم أنني أحبك أنت أيضاً، وكثيراً ما حزنت لحزنك. أود أن احدثكم يا احبائي عن ذلك الشاب، شقيقي، لأنني لم اعرف في حياتي شخصاً أحب منه إلى قلبي ولا أعظم شأناً أو أشد تأثيراً في نفسي. إن قلبي مفعم بمحبته، وحياتي تتراءى أمامي في هذه اللحظة وكأني احياها من جديد.

ولا بد لي هنا من تنبيه القارىء إلى أن هذا الحديث الأخير الذي دار بين الأب زوسيما واصدقائه الذين رافقوه في آخر يوم من أيام حياته، قد تم كتابة بعضه. كتبه الكسي فيودورفيتش كرامازوف من الذاكرة، بعد انقضاء فترة من الزمن على وفاة الناسك إلا أنني لا استطيع الجزم بأن ما رواه الكسي هو فقط الحديث الذي دار في ذلك اليوم، أم إنه أضاف إليه ملاحظاته عن بعض احاديث سابقة للمعلم، فإن الأب زوسيما، وفق ما ذكره الكسي، واصل حديثه بدون توقف، كأنه يروي قصة حياته على اصدقائه، ولو أن الروايات الأخرى لا تترك مجالاً للشك في أن حديث تلك الأمسية كان عاماً. صحيح أن الضيوف لم يقاطعوا حديث الأب زوسيما كثيراً إلا أنهم تحدثوا أيضاً، ولعلهم قالوا أشياء عن حياتهم الشخصية. إضافة إلى أن الأب زوسيما لم يكن باستطاعته مواصلة كلامه بلا توقف، فهو في بعض الاحيان كان يلهث، وكان صوته يختنق، وقد اضطر أن يستلقي على سريره طلباً للراحة دون أن يستسلم للسبات أو يبارح عواده مقاعدهم. لقد تخلل الحديث مرة أو مرتين تلاوة من الانجيل قرأها الأب بيسي. وجدير بالملاحظة أيضاً، إن أحداً من عواده لم يتبادر إلى ذهنه أن الناسك سيفارق الحياة في تلك الليلة، إذ كان يبدو في تلك الأمسية الأخيرة أنه استعاد كثيراً من قواه، بعد أن نام نوماً هادئاً في النهار، مما اعانه على الصمود طيلة ذلك الحديث الطويل. لقد كان ما حدث اشبه بجهد أخير من المحبة منحه قوة عجيبة؛ ولكن لبرهة وجيزة من الزمن، فقد وافاه الأجل فجأة بعد ذلك الحديث. والكلام عن هذا سيأتي فيما بعد. وحسبي الآن أن أضيف أنني آثرت اعتماد رواية ألكسي فيودوروفيتش كرامازوف فهي أقصر ولا تبعث كغيرها على الملل، مع أن اليوشا بطبيعة الحال، واكرر هنا الإشارة إلى هذا أضاف إلى روايته مواد كثيرة استقاها من احاديث سابقة له مع الناسك.

مذكرات عن حياة الكاهن والراهب المتوفى، الناسك زوسيما، جمعها ووثقها من احاديثه الكسي فيودوروفيتش كرامازوف

أ ــ شقيق الأب زوسيما

ولدت أيها الآباء والمعلمون الاحباء، بمدينة ف.في مقاطعة نائية من مقاطعات الشمال، وكان والدي رجلاً كريماً من النبلاء ولكن من صغارهم. وقد توفي عندما كنت في الثانية من عمري، فأنا لا أذكر شيئاً عنه البتة. وقد ترك لوالدتي منزلاً خشبياً صغيراً، وثروة متواضعة كانت كافية لكي تمنع عنها وعن ولديها العوز والحاجة وكان أخي الأكبر ماركل يكبرني بثماني سنوات، ذا طبع حاد، ولكنه كان رقيق القلب ولا يحب أن يسخر من أحد. وكان محباً للصمت إلى حد غريب، ولا سيما في المنزل معي، ومع أمه والخدم. أما في المدرسة فقد كان مجتهداً ناجحاً غير أن علاقاته بزملائه التلاميذ لم تكن على ما يرام، مع أنه لم يكن يخاصم أحداً منهم، أو هذا على الأقل ما انبأتني به والدتي. وقبل وفاته بستة أشهر، وكان آنذاك يبلغ السابعة عشر من عمره، توثقت عرى الصداقة بينه وبين سياسي يعيش معتزلاً في بلدتنا كان نفي من موسكو بسبب آرائه الحرة. وكان هذا السياسي استاذاً جامعياً، ضليعاً في الفلسفة. ولسبب ما، أحس بميل إلى ماركل، وكثيراً ما كان يدعوه إلى منزله. وكان ماركل الشاب يقضي معه سهرات طويلة في شتاء ذلك العام، إلى أن استدعي السياسي إلى بطرسبورغ بناء على طلبه ليتسلم منصباً رسمياً إذ كان له اصدقاء ذوو نفوذ.

ترافق ذلك مع الصيام الكبير الذي يسبق عيد الفصح، ولكن ماركل أبى أن يصوم، بل كان فظاً، وقال هازئاً: «إن الصيام ليس إلا سخافة وحماقة، ولا وجود لله». لقد ملأت كلماته قلبي رعباً، مع إني لم أكن تجاوزت يومها التاسعة من عمري. وكان عندنا اربعة من الخدم، جميعهم من الرقيق اشتريناهم من أحد مالكي الأرض. وأذكر أن أمي باعت الطاهية أفيميا، إحدى الخدام الأربعة، وكانت عرجاء مسنة، بستين روبلاً من الأوراق النقدية، واستخدمت

مكانها خادماً من غير العبيد.

ولم يكن أخي قوي البنية يوماً واحداً في حياته، بل كان طويل القامة ناحل الجسم يبدو عليه الهزال، لكنه حلو الملامح. وكان معرضاً للسل. وقد انتابه المرض في الاسبوع السادس من الصيام واعتقد أنه اصيب بالزكام. المهم أن الطبيب الذي عالجه أسرّ لوالدتي أن أخي مصاب بالسل في اسوأ درجاته، وإنه لن يحيا حتى نهاية فصل الربيع وأخذت والدتي تبكي ثم توسلت إلى أخي ـ محاذرة حتى لا يفزع ـ أن يذهب إلى الكنيسة ويعترف بخطاياه ويتناول القربان المقدس، وكان بعد قادراً على السير. ولكن توسلاتها اغضبته، واجابها ببعض عبارات التجديف على الكنيسة. غير أنه على أي حال أخذ يكثر من التأمل، وادرك لتوه خطورة مرضه وصلة ذلك بتوسل والدته إليه أن يعترف ويتناول القربان. وفي الحقيقة كان مدركاً منذ زمن بعيد سوء حالته الصحية، حتى أنه قبل وفاته بعام واحد، بينما كنا نجلس إلى مائدة العشاء، ألمح أمام والدته وأمامي بشيء من عدم الاكتراث، إلى أنه لن يبقى بيننا طويلاً، وقد لا يعيش عاماً آخر، وهو ما يبدو الآن اشبه بالنبوءة.

وبعد ثلاثة أيام حل اسبوع الآلام. وفي صباح يوم خميس الأسرار، إذا بشقيقي يذهب إلى الكنيسة. وقد قال عندئذ: «أماه، إنني أفعل هذا اكراماً لك، ولكي يطمئن بالك وتهدأ نفسك».وقد بكت أمي فرحاً في البدء وحزناً بعد ذلك وقالت في نفسها: لا بد أن منيته دنت، ما دام هذا التبدل قد طرأ عليه. ولم يستطع أن يواصل الذهاب إلى الكنيسة مدة طويلة، فقد اضطر إلى ملازمة سريره ومارس الاعتراف وتناول القربان في المنزل.

جاء الفصح في وقت متأخر من فصل الربيع، في ذلك العام، وكانت الأيام مشرقة جميلة أرجة. وأذكر أن أخي كان ينتابه السعال طوال الليل، فيجعل نومه متقطعاً، حتى إذا ما انبلج الصبح ارتدى ثيابه وحاول الجلوس في مقعد مريح. إنني اذكر الآن في تلك الجلسة، وهو يفيض رقة وعذوبة، دائم الابتسامة مشرق الوجه فرحاً، على الرغم من مرضه. لقد طرأ عليه تبدل عجيب، وكأن روحه قد انتقلت من حال إلى حال، كانت الممرضة العجوز تدخل عليه وتقول: «دعني يا عزيزي أضيء المصباح الموضوع أمام الصورة

المقدسة». ولم يكن يسمح لها بذلك، بل كان يطفىء المصباح إذا أضيء. أما اليوم فقال لها: أضيئيه، يا عزيزتي، أضيئيه، تباً لي إذ كنت امنعك من ذلك. أنت تصلين أمام الصورة عندما تضيئين المصباح، وأنا أصلي عندما انظر إليك فاكون مغتبطاً فكلانا نصلي لآله واحد.

وكانت هذه الكلمات تبدو لنا غريبة، فكانت أمي تذهب إلى غرفتها وتستسلم للبكاء، وتجفف دموعها وتتظاهر بالمرح قبل أن تعود إليه، فكان يقول لها: «أماه، لا تنتحبي، يا عزيزتي، فلا تزال أمامي فسحة كبيرة من الحياة وسنفرح معاً، لأن الحياة مسرة وبهجة».

فتجيبه أمي قائلة: يا ولدي الحبيب، أي فرح هذا؟ وأنت تستلقي على فراشك محموماً كل ليلة، والسعال يكاد يفجر صدرك.

فيجيبها قائلاً: «لا تبكي يا أماه، إن الحياة جنة نعيش فيها جميعاً، ولكننا لا نريد أن نراها، ولو أردنا لجعلنا الجنة على الأرض منذ الساعة».

وكان الجميع يعجبون لكلماته، لأنه كان يتكلم بقناعة تامة فكنا جميعاً نبكي لشدة التأثر. وقد اخذ اصدقاؤنا يأتون لزيارتنا، فكان يقول لهم: «يا أحبائي، ما الذي فعلته حتى استحق محبتكم، وكيف تستطيعون أن تحبوا إنساناً مثلي، ولست أدري كيف لم ادرك هذه المحبة واقدرها من قبل؟».

وكان لا يفتأ يقول للخدم كلما جاءوا إليه: أيها الأحباء، أيها اللطفاء، لماذا تجهدون أنفسكم في خدمتي إلى هذا الحد، فهل استحق أن تخدموني؟ إنني سأتعهدكم بالخدمة إذا قضت مشيئة الله بأن أعيش، لأن جميع الناس يجب أن يخدموا بعضهم بعضاً.

وكانت أمي تهز رأسها وهي تصغي إليه، ثم تقول: إن مرضك يا حبيبي هو الذي يدفعك إلى هذا الكلام.

فكان يقول: أمي العزيزة، يجب أن يكون في الدنيا خدم وسادة، ولكن إذا سارت الأمور جيداً فسأكون خادم خدامي، شأني في ذلك شأنهم معي. واجب أن تعلمي يا أماه، إن كل واحد منا قد أخطأ بحق الآخرين وخطأي أنا أفدح من سواه.

وقد ابتسمت أمي ابتسامة طبيعية لهذا الكلام، رافقتها الدموع، وقالت:

«لماذا، كيف يمكن أن تكون قد اخطأت بحق جميع الناس، وفقت الجميع في ذلك؟ إن اللصوص والقتلة كثيرون، أما أنت فأية خطيئة اقترفت، حتى تعتبر نفسك اعظم الناس ذنباً؟

فقال: «أماه، يا فؤادي الصغير» (وكان قد بدأ عندئذ يستعمل عبارات تودّد غريبة كهذه) يا فؤادي الصغير، يا بهجتي، صدقيني أن كل واحد مسؤول أمام جميع الناس، وعن كل شيء. ولا أدري كيف افسر لك ذلك ولكني أشعر به هكذا إلى حدّ الألم فكيف إذاً نستمر غاضبين دون أن ندرك سر الحياة؟

وهكذا كان ينهض كل يوم وقد ازداد فرحاً ورقة، وامتلأت نفسه بالمحبة. وكان إذا ما جاء الطبيب، وهو الماني عجوز يدعى ايزنشميدت، يسأله مازحاً: «والآن، أيها الطبيب، سأعيش إلى الغد»؟ فيجيبه الطبيب: «إنك ستعيش عدة أيام، بل عدة أشهر وسنين».

فيقول متعجباً: «اشهر وسنين! وما الحاجة إليها كلها؟ إن يوماً واحداً يكفي لكي يعرف الإنسان السعادة كلها. يا اعزائي، لماذا نتخاصم ونتباهى، ونحمل الضغائن على بعضنا بعضاً؟ هلموا نذهب إلى الحديقة فنسير ونلعب فيها، ونتبادل الحب والتقدير بعضنا بعضاً، ونمجد الحياة».

وقد قال الطبيب لأمي عندما شيعته إلى الباب: «إن ابنك لن يعيش طويلاً، فقد بدأ المرض يؤثر على دماغه».

وكانت نوافذ غرفته تطل على حديقة منزلنا بظلالها الوارفة واشجارها الكبيرة التي اخذت براعمها بالنمو وكانت بواكير عصافير الربيع قد بدأت ترفرف على الأغصان، وتزقزق وتغرد أمام نوافذ الغرفة. وكان يتأملها باعجاب كبير، ثم شرع يطلب الصفح منها أيضاً: «يا طيور السماء، أيتها العصافير السعيدة، اغفري لي لأنني اخطأت بحقك أنت أيضاً». ولم يفقه أحد منا عندئذ شيئاً مما كان يقول، أما هو فكان يذرف دموع الفرح ويقول: «أجل، إن عظمة الله تتجسد فيما حولي، فها هي الطيور والاشجار والمروج والسماء، تسبح بمجد الله، إلا أنا فقد عشت متمرغاً في العار، وحقرتها كلها من غير أن يسترعي انتباهي الجمال والمجد.

وكانت أمي تقول له منتحبة: إنك تبالغ في اتهام نفسك بالخطايا.

ـ اماه، يا حبيبتي، إنني لا أبكي من الحزن، بل من الفرح، إنه أمر لا استطيع تفسيره، أود أن اكون مذنباً بحق تلك الأشياء، فأنا لا اعرف سبيلاً لاحبها المحبة الكافية، وإذا كنت قد اخطأت بحق الجميع، فالجميع يصفحون عني، وهذه هي الجنة بعينها، ألست الآن في الجنة؟

وهنالك أشياء أخرى كثيرة كان يقولها، لا اذكرها الآن، ولكنني اذكر أنني دخلت عليه في غرفته ذات مرة وكان يجلس فيها وحيداً. وقد حدث ذلك في أمسية يوم مشرق، وكانت الشمس تميل إلى المغيب، والنور يغمر الغرفة. لقد اومأ إلي فاقتربت منه، فوضع يديه على كتفي يتأملني بنظرة مفعمة بالرقة والمحبة؛ واستمر هكذا دقيقة لم يقل كلمة واحدة.

ثم قال: والآن، عليك بالعدو واللعب، وتمتع بالحياة عني.

فخرجت من الغرفة وعدوت ولعبت وقد تذكرت فيما بعد مرات عديدة، والعبرات تسيل من مقلتي، كيف أنه طلب إلي أن اتمتع بالحياة عنه وهنالك أقوال أخرى كثيرة رفيعة ورائعة تفوه بها، لم نكن نفهمها في ذلك الحين. وقد توفي شقيقي في الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح، واعياً تماماً إلا أنه كان عاجزاً عن الكلام قبيل وفاته. وكان امارات السعادة تبدو عليه، وعيناه تتألقان وتتفقدنا جميعاً، وكان لا يفتأ يبتسم لنا ويومىء إلينا أن نقترب منه. وقد ردد الناس في مدينتنا احاديث كثيرة عن وفاته، وكان لجميع هذه الأمور اثرها علي في ذلك الحين، ولكن ليس إلى حد بعيد، ولو أنني افرطت في البكاء يوم تشييعه. لقد كنت عندئذ صبياً حديث السن، إلا أن تلك الأمور أحدثت في نفسي ذكرى وشعوراً خفياً هما على أهبة الاستعداد لكي ينطلقا ويستجيبا للنداء عندما يحين الأوان، لقد رويت هذه الحوادث كما جرت تماماً.

ب ـ الكتب المقدسة في حياة الأب زوسيما

هكذا صرت وحيداً مع والدتي. ولم يلبث اصدقاؤها أن أشاروا عليها أن ترسلني إلى بطرسبورغ كما يفعل غيرها من الأسر النبيلة. كانوا يقولون لها: «إن لك الآن ابناً وحيداً، ولديك دخل لا بأس به، ولعلك تحرمينه من مستقبل

لامع إذا ابقيته هنا. واقترحوا علينا أن ترسلني إلى بطرسبورغ لالتحق بالكلية العسكرية، فاكون فيما بعد ضابطاً في الحرس الامبراطوري. وترددت أمي طويلاً فقد شق عليها فراق ابنها الوحيد، ولكنها قررت إرسالي أخيراً وهي تذرف دموعاً غزيرة، لاعتقادها بأنها إنما تنشد في ذلك سعادتي. اخذتني إلى بطرسبورغ وادخلتني الكلية العسكرية، ولم أرها منذ ذلك الحين، لأنها توفيت بعد ثلاث سنوات كانت امضتها منتحبة حزينة على ولدين لها أحدهما فقد والآخر بعيد عنها يقلقها مصيره.

حملت معي من البيت الذي عشت فيه طفولتي فقط الذكريات الغالية لأنه مامن ذكريات اعز واغلى لدى الإنسان من تلك التي تتصل بالبيت الذي تفتحت فيه عيناه على نور الحياة. هكذا الأمر دائماً إذا كان بين افراد الأسرة الواحدة نوع من المحبة والانسجام. بل إن ذكريات الطفولة حتى في البيت الفاسد قد تكون في الحقيقة ذكريات غالية إذا عرف القلب كيف يميز بين الغالي الثمين وغيره. وعندما اتحدث عن ذكريات طفولتي فإنني أعني بها أيضاً ذكرياتي عن الكتاب المقدس، الذي كنت، على حداثة سني، عظيم الشوق إلى قراءته في البيت. وكان لدي كتاب عن تاريخ الكتاب المقدس مزين برسوم رائعة، عنوانه «مائة قصة وأربع قصص من العهد القديم والعهد الجديد» وقد تعلمت القراءة في ذلك الكتاب وما زلت احتفظ به، وهو موضوع الآن على رف الكتب عندي، إنني احافظ عليه كأثر نفيس من آثار الماضي. ولكنني اذكر أن العاطفة الدينية أول ما شعرت بها كنت في الثامنة من عمري، قبل أن اتعلم القراءة. فقد اخذتني أمي معها وحدي إلى القداس في يوم الاثنين الذي يسبق عيد الفصح (ولا أذكر أين كان شقيقي عندئذ). وكان يوماً صحواً، وإني لأرى الآن كما لو كان المشهد أمامي، دخان البخور يتصاعد من المقطر وتتعاقد حلقاته في قبة الكنيسة فوق رؤوسنا مندفعة نحو أشعة الشمس التي تخترق النافذة في ضوئها. كنت أتأمل ذلك والإعجاب يغمر مشاعري، ولأول مرة في حياتي تقبلت كلمة الله عن وعي وادراك وغرست بذرتها في قلبي. وجاء شاب إلى وسط الكنيسة يحمل بين يديه كتاباً ضخماً فأدركت ثقله لأنه كان ينوء بحمله. وضعه على منضدة القراءة

وفتحه وشرع يقرأ. كانت المرة الأولى في حياتي التي فهمت فيها شيئاً مما يتلى من الكتب في الكنيسة.

كان يعيش في أرض عوص رجل صالح تقي يخاف الله، ويملك ثروة عظيمة والعديد من الإبل والغنم والأتن. وكان ابناؤه يولمون الولائم، وكان يحبهم حباً عظيماً ويصلي لاجلهم، وكان يقول في نفسه: «لعل بنيّ اقترفوا الخطايا في ولائمهم» واتفق يوماً أن دخل بنو الله ليمثلوا أمام الرب ودخل الشيطان معهم، فقال للرب أنه طاف فوق الأرض وعليها وتحتها. فسأله الله تعالى: «وهل رأيت عبدي أيوب»؟ وطفق الله تعالى يباهي الشيطان بعبده القديس العظيم. وقد ضحك الشيطان من كلمات الله وقال له: دعه لي وسترى أنه سيعصيك وسيجدف عليك في وجهك». واسلم الله الرجل المستقيم الذي احبه حباً عظيماً إلى الشيطان. وقد أهلك الشيطان ابناء هذا الرجل ومواشيه وبدد ثروته في لحظة واحدة كما تنقض الصاعقة من السماء على الأرض. فقام أيوب وشق رداءه وخرّ على الأرض ساجداً وصاح باعلى صوته: «عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى الأرض. الرب اعطى والرب أخذ. فليتبارك اسم الرب إلى أبد الآبدين».

أيها الآباء والمعلمون، سامحوني إذا كنت اذرف الآن هذه الدموع. إن كل أيام طفولتي تتراءى أمامي الآن، حتى إنني اتنفس أمامكم كما كنت اتنفس آنذاك بصدر صبي في الثامنة من عمره، كما واني أشعر الآن شعوري في ذلك الحين، بالرهبة والتعجب والحبور. إن الإبل استهوت خيالي في ذلك الحين، وكذلك الشيطان بحديثه ذاك إلى الله تعالى وذهلت كيف أسلم الله عبده إلى الهلاك، وكذلك صرخة عبده قائلاً: «تبارك اسمك مع أنك تنزل بي العقاب»، ثم تلك الترنيمة العذبة الرقيقة التي بدأت تتعالى في الكنيسة: «فلتصعد صلاتي إليك يا رب»، ثم رائحة البخور تتصاعد مرة أخرى من مجمر الكاهن، وما يتلو ذلك من ركوع وصلاة. ومنذ ذلك الحين كنت كلما قرأت تلك القصة المقدسة ـ وقد كنت اقرأها يوم أمس ـ تنهمر الدموع لا محالة من عيني. وما اكثر ما في هذه القصة من مغازي عظيمة واسرار خارقة لا يستطيع الإنسان أن ينفذ إلى اغوارها.

لقد سمعت فيما بعد كلمات الهزء واللوم، أملاها على اصحابها غرورهم وكبرياؤهم: كيف يمكن أن يسلم الله أحب القديسين إلى نفسه للشيطان لكي يلهو به، وأن يسلبه أولاده، وأن يصيبه بالقروح الخبيثة، حتى أنه كان ينظف القيح بخرقة لا لغاية سوى أن يباهي الشيطان: «هلا رأيت ما قاساه قديسي من أجلي». ولكن غاب عنهم أن عظمة هذه القصة تكمن في غموضها. إنها تؤلف بين المظاهر الزائلة في الحياة الدنيا وبين الحقيقة الأبدية التي لا ندركها. إن الحقيقة الابدية تتحقق في وجه الحقيقة الدنيوية. وإن الخالق، الذي كان يختتم كل يوم من أيام الخليقة الأول بعبارة الاستحسان: «إن ما خلقته حسن»، ينظر إلى أيوب ويعاود استحسان خلقه له. وكذلك فإن أيوب في ثنائه على الرب، لا يخدم الرب تعالى وحده بل يخدم كل خليقته لأجيال واجيال وإلى أبد الآبدين، لأنه لهذا كرس. يا إلهي، ما أعظمه من كتاب، وما اعظمها من تعاليم وعبر. إنها هي التي تمد الإنسان بقوته. إنه اشبه بقالب يحدد شكل الدنيا والإنسان والطبيعة البشرية، فهو يحوي كل شيء، وفيه قانون لكل شيء ولجميع العصور. وأية اسرار يجلو غوامضها ويكشفها لنا. إن الله رفع أيوب ثانية، واعاد إليه ثراءه. ووهب له بعد سنوات عديدة أولاداً آخرين واحبهم. ولكن كيف يستطيع أن يحب هؤلاء الأولاد الجدد بعد أن فقد أولاده السابقين إلى الأبد؟ وكيف يستطيع عندما يتذكر أولاده السابقين أن يشعر بالسعادة التامة مع أولاده الجدد مهما عظمت محبته لهم؟ لقد تمكن من ذلك. إنه لسر عظيم في الحياة البشرية أن تذهب الأحزان القديمة مع مرور الزمن ليحل محلها فرح هادىء. إن هدوء الشيخوخة وسكونها يأخذ مكان غليان دم الشباب وفورانه إنني أبارك الشمس المشرقة كل يوم، وقلبي يترنم للقياها كما كان يفعل في السابق، سوى أنني الآن ازددت محبة لها عند الغروب، ولأشعتها الطويلة المنحدرة التي تحيي في النفس العذب من الذكريات. فهذه هي الصور الغالية التي احتفظ بها من كل حياتي الطويلة السعيدة وتتوج كل ذلك، الحقيقة الآلهية بما فيها من صفات التهذيب والتعزية والصفح! إن نهايتي قد دنت، وأنا أعرف ذلك وأفهمه، إلا أنني أشعر في كل يوم بقي لي في الحياة، أن حياتي الدنيوية، تتصل بحياة جديدة ابدية مجهولة

ولكنها مقبلة، واقتراب هذه الحياة تهتز له روحي انتشاء، ويتألق له عقلي ويبكي قلبي طرباً.

أيها الأصدقاء والمعلمون، لقد سمعت أكثر من مرة، وهو ما يتردد في الآونة الأخيرة، من أن الكهنة، ولا سيما الكهنة القرويين، يكثرون التذمر من تدني رواتبهم وحياة الذل التي يحيونها. وهم يعلنون صراحة، بل وعلى صفحات الجرائد - وقد قرأت ذلك بنفسي - أنهم لا يستطيعون أن يعلموا الناس الكتاب المقدس بسبب ضآلة مواردهم، فإذا ما جاء اللوثريون والهراطقة وضللوا القطيع فإنهم لن يتصدوا لهم لتفاهة ما لديهم من مقومات الحياة. ادعو الله أن يضاعف لهم رزقهم الغالي عليهم، لأن شكواهم حقة. ولكني اقول صادقاً أننا نحن نتقاسم المسؤولية عن ذلك، أنا اعترف أن الكاهن قد لا يجد متسعاً من وقت، وقد يقول صادقاً أنه مثقل بالأعمال والخدمات الدينية المطلوبة منه دائماً، ومع ذلك فليس صحيحاً أن انشغاله الدائم يمنعه عن ايجاد حتى ولو ساعة واحدة في الأسبوع يذكر فيه ربه. ثم أنه لا يعمل طوال السنة بدون توقف. فليبدأ أولاً بجمع الاطفال حوله مرة في الاسبوع، وليكن ذلك في المساء، وسيعلم آباؤهم بهذه الاجتماعات فيقبلون عليها. وليس ضرورياً أن تخصص قاعات لهذه الغاية، فباستطاعته أن يأخذ الأولاد إلى الكوخ الذي يعيش فيه، وهم لن يعبثوا بكوخه لأنهم لن يمكثوا فيه أكثر من ساعة، فليفتح ذلك الكتاب ويشرع في قراءته متحاشياً الكلمات الضخمة ومظاهر الترفع، ومتجنباً التكبر على الجمع، ومبديا اللطف ودماثة الخلق، وليكن مسروراً لانهم منتبهون إلى قراءته مشبعاً بحب النص المقدس الذي يقرأه. ويمكن التوقف عن القراءة بين الفينة والفينة ليشرح الكلمات التي يعجز الفلاحون عن فهمها. لا تقلقوا، فإنهم سيفهمون كل شيء، لان الروح الارثوذكسية لا تعجز عن تقبل الحقيقة سريعاً. فليقرأ لهم عن إبراهيم وسارة، وعن إسحاق ورفقة، وقصة يعقوب الذي ذهب إلى لابان، وكيف أنه صارع الرب في حلمه وقال: إن هذا المكان مقدس. إن هذه القصص تؤثر على عقول الفلاحين الاتقياء.

ليقرأ، وخاصة للاطفال، قصة الفتى الجميل يوسف صاحب الأحلام

والنبؤات، الذي باعه اخوته كما يباع العبيد، وانبأوا أباهم أن وحشاً ضارياً افترسه، وأروه قميصه الملطخ بالدم دليلاً على صدقهم. وليقرأ لهم أيضاً كيف سافر اخوة يوسف فيما بعد إلى مصر لشراء الحنطة، وكان يوسف قد صار هناك حاكماً عظيماً، ولم يعرفه اخوته، فعذبهم ووجه إليهم التهم، وأبقى عنده اخاه الصغير بنيامين، وأن كل ما فعله انما هو بدافع المحبة: «إنني احبكم، ولذلك فإني اعذبكم»، لأنه ظل طوال حياته يذكر كيف باعه اخوته إلى التجار في الصحراء المقفرة قرب البئر، وكيف أنه ضم راحتيه باكياً متوسلاً إليهم ألا يبيعوه كعبد في بلاد غريبة. فلما رآهم بعد انقضاء عدة سنين عاوده حبه لهم وبلا حدود، ولكنه ضايقهم وعذبهم بدافع من الحب. ثم تركهم في النهاية بعد أن اعياه عذاب قلبه، فانطرح عى فراشه وطفق يبكي. وبعدئذ مسح دموعه وخرج إليهم فرحاً وقال لهم: يا اخوتي، أنا اخوكم يوسف!

وليقرأ لهم بعد ذلك عن يعقوب الشيخ وكم كانت سعادته عندما بلغه أن ابنه المحبوب كان بعد حياً وكيف رحل هو أيضاً إلى مصر تاركاً بلاده، فمات في بلاد غريبة، مخلفاً نبوءته العظيمة التي كتمها طوال عمره في قلبه الوديع الرقيق بأنه سيكون من نسله أمل العالم العظيم، مخلص الإنسانية وفاديها، المسيح.

أيها الآباء والمعلمون اغفروا لي ولا تغضبوا لأنني أهذي كالطفل بأمور تعرفونها منذ أمد بعيد، وتفوقونني مهارة في تعليمها. ولكنني اندفعت تحت تأثير نشوتي. واغفروا لي دموعي لأني اهيم بالكتاب المقدس. وليبك الكاهن أيضاً أثناء القراءة فسوف يرى كيف ستخفق قلوب مستمعيه استجابة لبكائه. إن ما نحتاجه هو بذرة ولو كانت صغيرة، نلقيها في قلب الفلاح فلا تموت بل تعيش في روحه طوال حياته، وتظل تثمر وسط ظلمته وخطيئته، نوراً مشعاً دائماً وذكرى أبدية ولا حاجة بنا إلى الكثير من الشرح والتفسير، لأن الفلاحين سيفهمون كل شيء ببساطة. وهل يتبادر إلى اذهانكم أنهم لا يفهمون؟ جربوا واقرأوا لهم تلك القصة المؤثرة، قصة استير الجميلة ووشتي المتعجرفة؛ أو قصة يونس في بطن الحوت، هذه القصة العجيبة، وإياكم أيضاً أن تنسوا أمثلة ربنا، واختاروا منها خاصة ما جاء في انجيل لوقا (ذلك ما كنت أفعله)، ثم ما

جاء في اعمال الرسل، وقصة اعتناق القديس بولس الديانة المسيحية (وهذه القصة يجب أن لا تغفل اطلاقاً) ثم اختاروا لهم من سير القديسين، على سبيل المثال، حياة الكسي رجل الله، وكذلك سيرة الشهيدة الكبرى مريم المصرية. وعندئذ تنفذون إلى قلوبهم بهذه القصص البسيطة. خصصوا ساعة واحدة في الاسبوع لقراءة هذه القصص على الرغم من قلة الرواتب، ساعة واحدة فقط. لسوف تدركون أن فلاحينا كرماء وسيردون إليكم مائة ضعف اتعابكم. سيتذكر الفلاح لطف كاهنه والقراءة المؤثرة التي سمعها منه، فيقبل من ذاته على مساعدته في حقوله وفي منزله، ويعامله باحترام يزيد على الاحترام السابق له، وهذا مما يزيد أيضاً في رفاهيته الدنيوية، إن الأمر من البساطة حتى ليخشى المرء في بعض الاحيان أن يحدده في كلمات تجنباً لتعرضه للسخرية ومع ذلك فهذه هي الحقيقة! إن الذي لا يؤمن بالله، لن يؤمن أيضاًبشعبه أما الذي يؤمن بشعب الله فإنه سيرى قداسة الله أيضاً، حتى لو لم يكن قد آمن بها حتى ذلك الحين. إن شعبنا بقوته الروحية المستقبلية هو وحده الذي سينقذ مثقفينا الملحدين ويردهم الى حظيرة الدين، أولئك الملحدين الذين انفصلوا عن الارض التي أنبتتهم.

ما فائدة اقوال المسيح إذا لم نجعل من انفسنا مثالاً يقتدى؟ إن الشعب صائر إلى الهلاك بدون كلمة الله، لأن روحه متعطشة لكلمة الله ولكل قيمة من القيم. منذ زمن بعيد، قبل أربعين عاماً تقريباً، عندما كنت في شبابي، طفت انحاء روسيا برفقة الاب انفيم، اجمع الصدقات لديرنا، وذات ليلة، التقينا بعض صيادي السمك، على ضفة نهر كبير تمخره السفن. وقد انضم إلينا فتى فلاح حسن الشكل يناهز الثامنة عشرة من عمره. وكان عليه أن يعود مسرعاً في صباح اليوم التالي ليقوم بعمل مأجور في جرّ سفينة تجارية وكان ينظر أمامه بعينين صافيتين وديعتين، كانت ليلة صافية دافئة هادئة من ليالي شهر تموز، وقد ارتفعت من النهر العريض أبخرة باردة منعشة، وكنا نسمع صوت انطلاق السمك في الماء، وقد هدأت الطيور وكان كل شيء ساكناً جميلاً يسبح الله. بقينا نحن وحدنا الفتى وأنا، لم ننم. وطفقنا نتحدث عن جمال ابداع الله وعن سر خلقه العظيم. إن كل عشبة وكل حشرة ونملة

ونحلة تعرف سبيلها بطريقة عجيبة، وهي بدون ذكاء، وهي تشهد على سر الخالق وتؤكده باستمرار. وتبين لي أن الفتى العزيز تأثر تأثراً عميقاً. وقد انبأني أنه يحب الغابة وطيورها. لقد كان يربي طيوراً ويعرف صوت كل منها، ويستطيع أن يقلده فيستدرجه وقال لي: إنني لا اعرف شيئاً أفضل من الغابة، مع أن كل الاشياء حسنة.

فأجبته: صدقت إن كل الاشياء حسنة وجميلة، لأن كل شيء فيها حق. انظر إلى الحصان، ذلك الحيوان الكبير الأليف أو الثور الحزين الخاضع، الذي يطعم الإنسان ويعمل من أجله انظر إلى وجهيهما تر فيهما الوداعة والإخلاص لأصحابها وهم كثيراً ما يضربونهما بلا رأفة أو شفقة. فيا للرأفة، ويا للشفقة ويا للجمال! إنه لأمر مؤثر أن نستدرك أن هذه الحيوانات خالية من الخطيئة، لأن كل موجودات الكون بريئة من الخطيئة ما عدا الإنسان، وقد كان المسيح مع الحيوانات قبل أن يكون معنا.

فسألني الصبي: «كيف ذلك، وهل المسيح مع الحيوانات أيضاً؟

قلت: «لا يمكن إلا أن يكون الأمر هكذا، ما دامت «الكلمة» للجميع. إن البرية كلها وجميع المخلوقات، كل عشبة تنشد الكلمة، وترنم ترانيم المجد لله، وتبكي للمسيح، وهي تنجز ذلك بدون ادراك، بواسطة هذه الفضيلة أي كونها بلا خطيئة. فهناك في الغابة يتجول الدب المخيف، إنه ليس المسؤول عن ضراوته وخطره». ثم قصصت على الفتى قصة دب دخل ذات مرة على قديس عظيم كان معتزلاً في كهف صغير في غابة. وقد اشفق القديس العظيم على الدب واتجه نحوه غير وجل وألقى إليه بقطعة من الخبز، وقال له: امض في سبيلك، ليكن المسيح معك. وقد مضى الوحش المفترس طائعاً وديعاً، دون أن يمسه بأذى. وقد ابتهج الفتى من أن الدب انصرف وقال: آه ما أحسن ذلك، إن جميع أعمال الله حسنة جميلة!» وقد جلس يتأمل بهدوء وعذوبة. وبدا لي أنه يفهمني اللهم اسبغ بركتك على الشباب! وقد صليت لأجله عندما اضطجعت لأنام. رب امنح الأمن والنور إلى جميع خلقك.

المبارزة

ج ـ ذكريات من شباب الأب زوسيما قبل أن يترهّب

أمضيت في الكلية العسكرية ببطرسبورغ زمناً طويلاً قارب ثماني سنوات وفي تلك الحياة الجديدة التي فرضتها انظمة المدرسة، حجبت الغشاوة ذكريات طفولتي، ولكنني لم أنس منها شيئاً. وفي المقابل، اكتسبت عادات وافكار جديدة، جعلت مني إنساناً قاسي القلب، أحمق، أقرب إلى أن يكون متوحشاً. وتلقنت اللغة الفرنسية، فكنت أتأنق في ظاهري بما تمليه آداب المجتمع وعاداته.

وكنا جميعاً، بما فيهم أنا، ننظر إلى الجنود، نظرتنا إلى المواشي. ولربما كنت من هذه الناحية اسوأ من غيري، فقد كنت أفوق الجميع تأثراً بالبيئة وتقلباً في الأهواء. وعندما تخرجنا في الكلية برتبة ضباط، كنا لا نحجم عن بذل ارواحنا دفاعاً عن شرف الكتيبة، ولكن ما من واحد منا كان يفقه شيئاً عن المعنى الحقيقي للشرف. ولو أن احداً سألنا عن هذا المعنى لأجبناه باحتقار واستخفاف. وكان السكر والرذيلة والفسق هي الاشياء التي كنا نفاخر بها. ولست أقول أننا كنا أوغاداً بالفطرة بل أن الخير الفطري كان في هؤلاء الفتيان جميعاً، إنما كانوا يسيئون التصرف، وكنت شراً منهم جميعاً، ومما زاد الأمر سوءاً أنني كنت استلمت ثروتي فاندفعت في حياة الملذات، وانغمست انغماساً تاماً في جميع ألوان النزوات والشهوات مندفعاً بكل ما في الشباب من تهور وطيش.

لقد كنت مغرماً بالقراءة، ولكن الغريب هو أن الكتاب المقدس كان الكتاب الاوحد الذي لم أفتحه في ذلك الوقت، مع أنه لم يكن يفارقني أبداً،

بل كنت احمله أينما كنت؛ وفي الحقيقة كنت احتفظ بهذا الكتاب مع أنني كنت أجهله، في كل يوم وساعة، وكل شهر وسنة.

خدمت أربع سنوات وأنا على هذه الحال، وبعدها وجدت نفسي في مدينة (ك) التي كانت تعسكر كتيبتي فيها آنذاك وكان الناس في هذه المدينة كرماء، اثرياء محبين للتسلية. وقد قوبلت بالترحيب الصادق في كل مكان لأنني كنت امتاز بالحيوية الدافقة، وقد ذاع عني أنني ميسور الحال، ومثل هذا الأمر سريع الإنتشار في المجتمع، ثم وقع لي حادث كان حاسماً في تقرير مصيري.

لقد تقربت إلى شابة جميلة ذكية ذات خلال نبيلة رفيعة، من اسرة تحظى بالإحترام العظيم. وكانت اسرة موسرة ذات نفوذ ومقام مرموق. وقد كان افرادها يحسنون وفادتي ويستقبلوني استقبال الاصدقاء. وخيل إلي أن الفتاة كانت تنظر إلي نظرة الود، فاضطرم قلبي لهذا الخاطر، ولكنني ادركت فيما بعد وتحققت من أنني لم أكن احبها فعلاً، إنما كنت مفتتناً برجاحة عقلها وسموّ اخلاقها، وذلك أمر لم أكن قادراً على تجاهله. وقد حالت انانيتي في ذلك الوقت بيني وبين طلب يدها، فقد صعب علي أن أتخلى عن اغراءات العزوبة الحرة المستهترة، في فورة شبابي وذروة ثرائي. لقد اكتفيت بالتلميح إلى مشاعري ولكنني اجلت اتخاذ خطوة حاسمة إلى وقت آخر. وحدث في هذه الفترة أن صدرت إلينا الأوامر بالانتقال إلى مقاطعة أخرى مكثنا فيها شهرين.

ولما عدت بعد شهرين ألفيت الفتاة زوجاً لرجل ثري صاحب أملاك في منطقة مجاورة. كان رجلاً رقيق الحاشية، يكبرني سناً ولكنه ما يزال شاباً. وهو ينتمي لارفع مجتمع في مدينة بطرسبورغ، وذلك ما كنت افتقر إليه، فضلاً عن أنه كان على حظ عظيم من سعة العلم وهو مما كان ينقصني أيضاً. ولقد بلغ اضطرابي لهذا الحدث الذي لم اكن اتوقعه أن أصبحت كمن فقد صوابه. وكان اسوأ ما في الأمر ما علمته، فيما بعد، أن صاحب الأملاك الثري كان خطب الفتاة منذ زمن بعيد. كنت قد قابلته فعلاً في منزلها عدة مرات، ولكن غروري، أعماني فلم أدرك شيئاً. هذا الأمر بالذات كان أكثر ما

اغاظني واشد ما آلمني، فإن جميع الناس تقريباً كانوا يعلمون حقيقة علاقته بها، أما أنا فلم أكن أعلم شيئاً. وفجأة اجتاحتني موجة حقد لا حدّ له. واخذت وأنا محمر الوجه خجلاً، استعيد في ذاكرتي كيف أنني كنت كثيراً ما أهم باعلان حبي لها، وحيث أنها لم تحاول أن توقفني عند حدي أو تحذرني مما أنا فيه، فقد استنتجت أنها كانت تهزأ مني طيلة الوقت. وقد فكرت في الأمر فيما بعد بطبيعة الحال، وتذكرت أنها كانت أبعد ما تكون عن الضحك مني؛ بل كانت، على نقيض ذلك، تقطع عليّ مغازلتي إياها، بطرفة تقولها، تغيرّ موضوع الحديث. غير أنني في تلك اللحظة لم أكن قادراً على التأمل، وتملّكتني رغبة شديدة بالإنتقام، ويدهشني أن أتذكر أن غضبي وشعوري بالدافع إلى الانتقام، كانا بغيضين إلى طبيعة نفسي، فإنني لخفة في طبيعتي كنت أجد مشقة في أن أظل غاضباً على أي إنسان امداً طويلاً، وهكذا ألفيتني اصطنع الحقد اصطناعاً، حتى صرت في النهاية متمرداً سخيفاً.

وترقبت الفرصة للانتقام، حتى إذا ما سنحت، كنت اهين غريمي أمام جمع غفير وتذرعت لذلك بحجة تافهة لم يكن لها مقام، فسفهت رأيه في حادث شعبي هام وقع في عام ١٨٢٦[1] ويقول الناس إن سخريتي منه كانت لاذعة. ثم طلبت منه المبارزة، وتصرفت معه تصرفاً فظاً حتى ارغمته على قبول التحدي رغم ذلك البون الشاسع بيننا، فأنا اصغر منه سناً، ولا شأن لي، وأدنى منه منزلة. وعلمت فيما بعد علم اليقين أنه قبل التحدي بتأثير الغيرة في شعوره. فقد كان يغار على زوجته مني قبل زواجهما؛ وخيل إليه الآن أنه لو احتمل اهانتي له ورفض التحدي، وأن زوجته لو سمعت بذلك، لبدأت تحتقره ولبدأ حبها له يتزعزع. وسرعان ما عثرت على شاهدي في شخص رفيق لي ضابط في كتيبتي. كانت المبارزات في تلك الأيام ممنوعة لكنها كانت متفشية بين الضباط، إن الحقد النامّ عن الوحشية يكون في بعض الأحيان قوياً عميق الجذور.

كان اليوم من أيام حزيران الأخيرة. وحدد الموعد الساعة السابعة من

(١) إشارة إلى التحرك الشعبي ضد القيصر في أواخر عام ١٨٢٥.

صبيحة اليوم التالي في ضواحي المدينة. ثم حدث شيء كان في الحقيقة نقطة التحول في حياتي. فقد عدت في المساء إلى مسكني محتد الطبع هائجاً، وصببت جام غضبي على خادمي «أفناسي» وصفعته على وجهه بكل قوتي صفعتين أسالتا الدم من وجهه. ولم يكن افناسي يخدمني منذ عهد بعيد، لقد سبق أن ضربته، ولكن ليس بوحشية هذه المرة. وصدقوني أنني ما زلت بعد أربعين عاماً على ذلك الحادث، لا أذكره إلا وأشعر بالخجل والألم. مضيت إلى فراشي ونمت زهاء ثلاث ساعات؛ وعندما استيقظت كان الصبح قد أسفر. فنهضت من فراشي ـ وقد احسست أن النوم قد طار من عيني ـ وذهبت إلى النافذة ففتحتها. كانت تطل على الحديقة؛ والشمس بدأت تظهر في الأفق. وكان اليوم دافئاً جميلاً والطيور تملأ الكون بأغاريدها.

وتساءلت: ما معنى هذا الشعور الذي ينتابني بالخجل والعار؟ ألانني سأريق دم إنسان؟ وقلت: كلا، إنني اشعر بأن السبب ليس هذا. فهل مرد الأمر إلى خوفي من الموت والقتل؟ كلا لم يكن ذاك. لم يكن ذاك أبداً... وفجأة ادركت السبب: إن ما شعرت به إنما هو لأنني ضربت افناسيا ليلة أمس وتراءى لي المشهد واضحاً، فتخيلته واقفاً أمامي وأنا الطمه على وجهه وقد شد يديه إلى جانبيه ورفع رأسه وثبت نظره في كأنه في استعراض عسكري، وترنح لكل صفعة ولكنه لم يجرؤ على رفع يديه ليحمي وجهه. إن هذا هو ما توصل إليه الإنسان، كيف تمكن من ضرب أخيه الإنسان! أية جريمة هذه! وشعرت كأن خنجراً حاداً يخترق جسمي، ووقفت في مكاني كالمصعوق، بينما كانت الشمس تتوهج في الخارج، وأوراق الاشجار تتمايل بهجة، وزقزقة العصافير تسبح بحمد الله... غطيت وجهي بكفيّ وانكفأت على فراشي والدموع تنهمر من عينيّ. وعندها تذكرت أخي مارسيل وكلماته للخدم وهو على فراش الموت: أيها الأحباء، أيها اللطفاء، لماذا تجهدون أنفسكم في خدمتي إلى هذا الحد، فهل استحق أن تخدموني؟

وسرعان ما ضغط هذا السؤال على نفسي. نعم، أأستحق ذلك، ثم هل أنا من الجدارة بحيث يقوم إنسان آخر بخدمتي وقد خلقه الله مثلي على صورته؟ كان ذلك السؤال يلح علي لأول مرة في حياتي. وقد سبق لأخي أن

قال: «اماه، يا قلبي الصغير إن كل واحد منا هو في الحقيقة مسؤول أمام الجميع عن كل الناس وعن كل شيء. غير أن الناس لا يعلمون هذا، ولو علموه لصارت الدنيا منذ الآن فردوساً».

كنت اتساءل من خلال دموعي فأقول: «رباه، هل يكون هذا أيضاً كذبا؟ هل أنا حقاً مسؤول أكثر من جميع الناس عن كل شيء، وأكثر أهل الأرض جميعاً اسفافاً في الخطيئة؟ وعلى حين غفلة من أمري تجلت لي الحقيقة كاملة بكل بهائها وضيائها وقلت: علام أنا مقدم؟ أأقتل رجلاً طيباً ذكياً نبيلاً لم يلحق بي أي أذى، وأحرم زوجته من السعادة طول حياتها فأكون معذبها وقاتلها هي الأخرى. وظللت منكفئاً على سريري وقد دفنت وجهي بوسادتي، دون أن اهتم بمرور الوقت. وفجأة دخل علي شاهدي وبيده الغدارتان ودعاني إلى مرافقته، قائلاً: «حسناً إنك قد استيقظت، لقد حان وقت ذهابنا هيا بنا».

ولم أدر ماذا أفعل واخذت اذرع الغرفة جيئة وذهاباً بخطوات سريعة وأنا فريسة الحيرة؛ وخرجنا لنستقل العربة التي كانت بانتظارنا. وقلت لزميلي: انتظرني هنا دقيقة، لقد نسيت محفظة نقودي. سأعود حالاً.

ثم عدت راكضاً إلى غرفة أفناسي الصغيرة، وقلت له: أفناسي، لقد لطمتك على وجهك مرتين بالأمس فاصفح عني.

وأجفل كالخائف. وادركت أن هذه الكلمات ليست كافية مقابل ما فعلته به، فألقيت بنفسي على قدميه ببزتي العسكرية التامة واحنيت رأسي إلى الأرض وقلت له: «اصفح عني».

بدا لي أن الرجل قد صعق وسمعته يقول: يا صاحب السعادة، سيدي، ما هذا الذي فعلته؟ أنا لست أهلاً لهذا.

ثم بدأ ينتحب، كما انتحبت أنا من قبله، وأخفى وجهه بيديه ومضى نحو النافذة، وأخذ جسمه يهتز وهو يجهش بالبكاء. وأسرعت بالخروج حيث كان ينتظرني زميلي وقفزت إلى داخل العربة وقلت لرفيقي: إنني مستعد، هل شاهدت في حياتك إنساناً منتصراً؟ ها أنت تراه ماثلاً أمامك.

كنت أشعر بنشوة طاغية. وظللت طول الطريق دائم الضحك والحديث، لا أدري ما اتفوه به.

ونظر إلي زميلي وقال: حسناً يا أخي، إنك رجل شجاع، ستحافظ على شرفنا العسكري.

وصلنا إلى المكان المعين وكانوا هناك في انتظارنا. تقابلنا على مسافة بيننا قدرها اثنتا عشرة خطوة. وكان هو الذي سيطلق النار أولاً ووقفت منشرحاً وأنا انظر إلى وجهه دون أن اطرف هدباً. ونظرت إليه بعين المحب لأنني كنت مدركاً لما سأفعله. واطلق النار من غدارته وأحسست بالرصاصة تمرّ ملامسة صفحة خدي واذني.

وصحت قائلاً: «حمداً لله إنك لم تقتل إنساناً، ثم قبضت على غدارتي وأدرت ظهري وقذفت بها إلى الغابة، وأنا اصيح قائلاً: «إن هذا هو مكانك».

ثم التفتّ إلى خصمي وقلت له: «صفحك عني يا سيدي لأنني اهنتك لا لسبب غير حماقتي وأرغمتك على اطلاق النار علي. إنك تفضلني بعشرة اضعاف وربما اكثر. انقل هذا القول إلى أحب الناس إلى قلبك في الدنيا».

وما أن أنهيت كلامي حتى سمعت خصمي يصيح بي قائلاً: كيف ترهقني بكل هذا إن لم تكن تريد مقاتلتي؟

فاجبته منشرحاً:

لقد كنت احمق بالأمس، أما اليوم فقد عقلت وعلمت أكثر.

فقال: أما عن حمقك بالأمس فأنا مصدق له مؤمن به، وأما عن أنك أصبحت اليوم عاقلاً فهو أمر لا يبدو صحيحاً.

فصحت مصفقاً: مرحى، إنني اوافق معك على هذا أيضاً، فإنني استحق ما تقول!

ـ أتريد أن تطلق النار يا سيدي أم لا تريد؟

ـ كلا، إنني لن اطلق النار، فأطلق ثانية إن شئت، ولكن من الخير لك ألا تفعل.

وكان الشاهدان وخاصة شاهدي يصيحان بي قائلين: أتجرؤ على أن

تلوث شرف الكتيبة بهذا الشكل، تواجه خصمك وتطلب المغفرة منه! ليتني كنت اعرف هذا!

فوقفت عندئذ تجاه الجميع وقد امسكت عن الضحك ثم توجهت إليهم بالقول: أيها السادة هل من العجيب حقاً في هذه الأيام أن نجد إنساناً يعلن ندمه على حماقته ويعترف بخطيئته جهاراً؟

فصاح بي شاهدي: لا، ولكن ليس اثناء المبارزة.

فعدت أقول: «إن هذا هو العجب العجاب، لقد كان علي أن اعترف بخطأي منذ وصولي قبل أن يطلق طلقته، فأجنّبه خطيئة هائلة مميتة؛ لكن حياتنا للأسف تستند إلى اعتبارات قبيحة يستحيل معها أن أفعل ذلك، لأن كلماتي لم تكن لتبدو مفهومة قبل أن اعرض نفسي لطلقته من مدى اثنتي عشرة خطوة. ولو أنني قلت ما قلته قبل أن يطلق النار لقال إنه جبان ارهبته رؤية المسدسات، فلا نفع في الاصغاء إليه. وفجأة هتفت أقول مندفعاً بكل نفسي: أيها السادة انظروا فيما حولكم إلى نعم الله، السماء الصافية، والهواء العليل، والأعشاب الندية والطيور، إن الطبيعة جميلة طاهرة من الذنوب، ونحن وحدنا الخاطئون الحمقى، لا تدرك أن الحياة هي الجنة، إنه يكفي أن نفهم هذا، حتى نرى الجنة ماثلة أمامنا بكل سنائها وعندها سنعانق بعضنا بعضاً وننتحب».

لم يكن باستطاعتي أن أقول أكثر من هذا، فقد تهدج صوتي تأثراً بتلك الحلاوة والسعادة، وشعرت بالحبور يملأ قلبي بشكل لم اعهده من قبل في حياتي.

فقال خصمي: إن هذا قول منطقي شريف، ومهما يكن من أمر فإنك مخلص أصيل في قولك.

فاجبته ضاحكاً: إنك قد تضحك مني، ولكنك ستقرني على قولي فيما بعد.

فقال: بل إني أقرك عليه منذ الساعة فهل لك أن تصافحني. إنني اعتقد بأنك رجل مخلص صادق.

فهتفت قائلاً: كلا، لن اصافحك الآن، بل عندما أغدو اهلا لذلك

وأصبح مستحقاً لتقديرك، وعندها صافحني، وكن خيراً.

وعدنا إلى منازلنا، وكان شاهدي لا ينفك يقرعني طول الطريق، وأنا دائب على تقبيله، وإذ علم رفقائي بالحدث حتى تجمعوا ليصدروا عليَّ حكمهم الفوري.

قال بعضهم: لقد اهان شرفه العسكري، فليقدم استقالته.

ووقف بعضهم إلى جانبي قائلين: لقد واجه الطلقة صامداً.

ـ نعم، ولكنه كان خائفاً من أن يلقى حتفه رمياً بالرصاص، فاعتذر لخصمه وطلب صفحه على أرض المعركة.

ـ لو كان خائفاً من ذلك، لأطلق النار من مسدسه قبل أن يعتذر ويطلب الصفح، ولكنه القى به بعيداً وهو محشو. فهذا يثبت أن للأمر وجهاً آخر. لا بد أنه أصيل.

ونعمت بالاصغاء إلى اقوالهم وأنا انظر إليهم ثم خاطبتهم قائلاً: يا اصدقائي ويا رفاقي الأعزاء، إنني لا أبالي بالاستقالة من منصبي، لأنني قدمتها فعلا هذا الصباح، وسألتحق بالدير فور قبولها.

فلما قلت هذا اغرقوا جميعاً في الضحك، وقالوا لي: لقد كان يجب عليك أن تنبئنا بهذا سلفاً، لقد وضح كل شيء، إننا لا نستطيع مقاضاة راهب.

وراحوا يضحكون ولا يستطيعون التوقف، على أن ضحكهم لم يكن احتقاراً بل عطفاً وبهجة. وشعروا جميعاً بالانعطاف نحوي منذ تلك اللحظة حتى اكثرهم قساوة في تأنيبي. وظلوا طول الشهر الذي سبق تسريحي من الجيش يتندرون في ويقولون لي عابثين:

يا لك من راهب. واخذ كل واحد منهم يقول لي قولاً رحيماً واخذوا يحاولون اقناعي بالعدول عن خطتي وهم يشفقون علي بقولهم ما أنت صانع بنفسك؟

ومنهم من كان يقول: لا شك أنه رجل شجاع. لقد واجه اطلاق النار، وكان في استطاعته أن يطلق النار من مسدسه، ولكنه رأى في نومه في الليلة السابقة على المبارزة ما جعله يقرر أن يصير راهباً.

وكان ما لقيته في المجتمعات بالمدينة عين ما لقيته من اخواني في الجيش. فقد كان الناس قبل هذا الحادث يحسنون لقائي وحسب، أما الآن فقد اصبحوا جميعهم يبغون التعرف علي ودعوتي إلى ولائمهم إنهم يحبونني وإن كانوا يضحكون مني، وقد يجوز لي أن أقول أنه بالرغم مِن أن حديث المبارزة انتشر بين الناس، فإن السلطات لم تول الأمر أي اهتمام، لأن خصمي كان من اقرباء قائدنا. ثم إن الأمر قد انتهى بدون اراقة دماء، ولم يؤد إلى عواقب خطيرة، إضافة إلى أنني كنت قد استقلت من منصبي، لذلك كله اعتبرته السلطات مجرد مزحة. واخذت آنذاك اجهر باقوالي دونما خوف، غاضاً بصري عن ضحكاتهم، لأنها كانت ضحكات بريئة تعكس العطف. وكانت احاديثي مع الناس تدور في الامسيات بحضور السيدات، وقد كانت النسوة يطربن للاستماع إلي ويحملن رجالهن على مشاركتهن الإصغاء.

وكانوا يضحكون مني جهاراً ويسألني كل واحد منهم: وكيف تزعم أنني مسؤول عن كل شيء؟ فهل يمكن أن اكون مسؤولاً عنك مثلاً؟

فكنت اجيبهم قائلاً: انكم معذورون في عدم إدراككم الحقيقة، فإن الدنيا كلها ما زالت منذ زمن بعيد تسير على نهج خاطىء لأننا نعتبر الكذبة الكبرى هي الحقيقة ونطلب من غيرنا أن يأتونا بأكاذيب مثلها. فها أنا عملت مرة في حياتي بطوية صادقة، وقلب مخلص، فكنتم جميعاً تنظرون إلي نظرتكم إلى رجل مجنون. ومع إنكم جميعاً تلقونني بروح الصداقة إلا أنكم جميعاً تضحكون مني.

وقالت مضيفتي ضاحكة: وكيف نملك إلا أن نحبك؟ وكانت الغرفة تغصّ على رحبها بالناس، وفوجئت بوجود الفتاة التي كانت المبارزة من أجلها، والتي كنت إلى امد قريب أريد أن اتخذها زوجة لي، ولم أكن قد شعرت بدخولها إلى الغرفة، إنها تنهض من مكانها وتقبل نحوي باسطة يدها وتقول:

دعني انبئك بأنني سأكون في مقدمة الذين لا يضحكون منك، بل إنني بالعكس اشكرك بتأثر بالغ وأعلن لك احترامي لتصرفك ذاك.

ونهض زوجها من مكانه، ودنا مني الحضور جميعاً وكادوا أن يقبلوني

ولقد أفعم فؤادي بالسرور والبهجة، ولفتني أحد القادمين بشكل خاص، وهو رجل في أواسط عمره وكنت اعرف اسمه من غيرأن نتعارف، ولم أكن قد تبادلت معه كلمة واحدة حتى تلك الأمسية.

د ــ الزائر الغامض

كان ذلك الرجل موظفاً حكومياً في المدينة منذ زمن بعيد، وكان شخصاً مرموقاً، ثرياً، يحترمه جميع الناس، ذاع صيته لإحسانه وبرّه، فقد تبرع بمبالغ ضخمة لبيت الفقراء وملجأ الايتام. وكان يتصدق في السر ولم يعرف عنه ذلك إلا بعد وفاته. كان رجلاً يناهز الأربعين من عمره تكاد ملامحه أن تكون صارمة. ولا يحب المحادثة كثيراً. وقد تزوج منذ عشر سنوات وله من زوجته التي كانت لا تزال شابة ثلاثة اطفال.

وفي أمسية الغد، كنت جالساً لوحدي في غرفتي وإذا ببابي يفتح فجأة وفي الباب ذلك الرجل عينه. الحديث عن هذه الواقعة يفرض علي أن أذكر أنني كنت غيّرت مقري فإنني فور استقالتي من وظيفتي، استأجرت غرفة في منزل سيدة عجوز، وهي أرملة كاتب حكومي، وكانت خادم هذه السيدة تقوم بخدمتي، ذلك أنني بعد عودتي من المبارزة كنت أعدت أفناسي إلى الكتيبة، لأنني شعرت بالخجل من النظر إلى وجهه بعد مقابلتي الأخيرة معه.

ابتدرني زائري قائلاً: لقد اصغيت باهتمام عظيم إلى ما كنت تقوله في عدد من البيوت في الأيام القليلة الماضية، ارغب في التعرف إليك والتحدث معك حديثاً ودياً، فهل لك يا سيدي العزيز أن تمنّ علي بهذه المكرمة؟

- إنه أمر يسرني سروراً عظيماً واعتبره شرفا لي. قلت هذا وأنا اكاد اشعر بالاضطراب، فلقد كان لظهور هذا الرجل تأثير عظيم عليّ منذ اللحظة الأولى. كان الناس حقاً يصغون إلي بشوق واهتمام، لكن واحداً منهم لم يأتني من قبل وقد ارتسم في وجهه ذلك التعبير الجدي الصارم النفاذ، اضف أن ذلك الرجل قصدني في غرفتي، واتخذ مجلسه عندي.

ثم قال: إنني أرى فيك رجلاً ذا صفات خلقية خارقة لأنك تجرأت على خدمة الحقيقة في ظروف تعرضك لازدراء الجميع.

فأجبته قائلاً: لعلك تبالغ في تقديري.

- لا، صدقني إن سلوك هذا السبيل في العمل أصعب مما تظن بكثير هو مبعث تألمي ولهذا السبب وحده جئت إليك. وأردف الرجل يقول: ابني مشكوراً إذا لم أكن متطفلاً، ماذا كانت مشاعرك الحقة، إذا كنت ما تزال تذكرها، في اللحظة التي عقدت فيها عزمك على طلب الصفح من غريمك اثناء المبارزة، حذار أن ترى في سؤالي تفاهة؛ فعلى العكس هناك دافع خفي يكمن وراء سؤالي، ربما اوضحته لك فيما بعد، إذا شاء الله أن يمتّن صداقتنا.

كان الرجل يتكلم، وأنا احدق في وجهه. وقد شعرت لتوي بثقة تامة فيه، وفضول عظيم لسماع قصته أيضاً، إذ توقعت أن سراً غريباً يكمن في داخله.

واجبته قائلاً: إنك تسألني عن مشاعري الحقة لحظة عزمت على طلب الصفح من غريمي، والافضل أن اسرد عليك تسلسل الاحداث من البداية، وهو ما لم اطلع عليه أي إنسان حتى الآن. ثم سردت عليه جميع ما كان بيني وبين أفناسي وكيف أنني جثوت على ركبتي تحت قدميه، وختمت بالقول: من ذلك تستطيع أن تدرك بنفسك، ولما كنت قد صرت على الدرب فإن استمراري في السير لم يكن قط صعباً، بل كان لي مصدر فرح وسعادة. كان يصغي إلى اقوالي وعينه تطفح حباً لي. فلما فرغت قال: إن هذا كله ملذ للغاية، وسآتي لأراك المرة تلو المرة.

وأصبح يزورني في كل ليلة لا يكاد ينقطع عن ذلك. ولو أنه حدثني عن نفسه، لتوطدت أركان صداقتنا. ولكنه لم يكن يقول عن نفسه كلمة واحدة، مكتفياً باسئلته عني، ومع ذلك فقد اولعت به ولعاً عظيماً، واخذت اصارحه بحقيقة مشاعري كلها لا أكتم عنه شيئاً؛ وأقول لنفسي: لا حاجة بي إلى معرفة أسراره، فيكفيني أنه إنسان طيب. وفضلاً عن ذلك، وبرغم جدية الرجل وكبر سنه عني، فإنه لم يستنكف عن أن يزور فتى صغير السن مثلي ويعاملني على قدم المساواة معه، وقد اقتبست منه الكثير من الأمور النافعة لأنه كان رجلاً سامي الفكر.

وذات مرة فاجأني بقوله: إن الحياة نعيم، ذلك ما أعمل فكري فيه منذ

زمن بعيد، واستدرك يقول: إنني بالفعل لا أفكر بأي شيء فيما عدا ذلك. ثم نظر إلي باسما وقال: إنني أكثر منك اقتناعاً بهذا الأمر، وسأنبئك السبب لاحقاً.

اصغيت إليه وقدّرت أنه يود اطلاعي على سرّ ما.

وتابع كلامه قائلاً: إن نعيم السماء مخبوء في ذواتنا إن في ذاتي جنة ولكنها مخبؤة ولو اردت لانكشفت لي منذ الغد وبقيت إلى الأبد.

ألفيته يتحدث بتأثر عظيم، وكان يحدق بي تحديقاً غريباً وكأنه يستجوبني.

ثم اردف يقول: لقد كنت مصيباً في تفكيرك إذ قلت إننا جميعاً مسؤولون عن جميع الذنوب، فضلاً عن ذنوبنا، أمام الجميع، وما يدهشني هو إنك استطعت أن تدرك هذه الحقيقة كاملة مرة واحدة حقاً إن الناس إذا ما فهموا ذلك، تصبح مملكة السماء لهم حقيقة حية لا حلماً من الأحلام.

فهتفت متمنياً: متى، متى يحدث هذا؟ وهل سيتحقق فعلاً؟ أو ليس ذلك حلماً يراودنا؟

فقال: إذاً أنت لا تؤمن بذلك؟ أتبشر به وأنت لا تؤمن فيه؟ صدقني إن هذا الذي تسميه حلماً سيتحقق لا محالة. إنه سيحدث، ولكن ليس الآن، لان لكل تطور قانونه. إن تطور الإنسانية الذي أعنيه هو تطور روحي نفساني ولكي يبدل الناس دنياهم ويخلقوها خلقاً جديداً، يجب عليهم أن يسلكوا نهجاً نفسانياً جديداً. وما لم تصبح حقيقة وحقيقة ثابتة أخا لكل إنسان، فإن الأخوة لا يمكن أن تتحقق. ولا يمكن أن يعاد توزيع الثروات بالعدل بين الناس، إذا هم اعتمدوا فقط العلم وحسابات مصالحهم لان كل واحد سيظن أن حصته صغيرة، وسيظل الناس متحاسدين، معترضين ويفتكون ببعضهم البعض إنك تسألني متى يحدث هذا؛ فاجيبك بأنه لا بد حادث، ولكن ليس قبل أن ننتهي من عصر العزلة التي نعيشه.

فسألته: وماذا تعني بكلمة العزلة؟

-إنني أعني العزلة التي تسيطر على حياتنا في كل مجال، وخاصة في جيلنا هذا. إنه لم يتطور تطوراً تاماً بعد فهو لم يبلغ كماله. إن كل واحد منا

يجاهد لكي ينأى بنفسه عن غيره إلى أبعد حد يستطيعه، ويتوق إلى التنعم بملذات الحياة كاملة وحيداً فريداً. ولكن جميع جهوده لن تؤمن له كل ملذات الحياة، بل تقوده إلى الدمار الذاتي، لأنه بدلاً من أن يصل إلى معرفة ذاته واثبات وجودها يصبح في عزلة تامة. لقد بات الناس في عصرنا شيعاً متفرقة. كلهم ينشد البعد عن غيره، وينفرد بمسلكه، وينأى بذاته عن الناس، ويخفي نفسه، ويخفي ما يملكه عن غيره وينتهي به المطاف إلى أن يكره غيره ويصير مكروها من غيره. إنك ترى الإنسان يكدس الأموال منفرداً ويحدّث نفسه مغتبطاً الآن اصبحت قوياًوآمناً على نفسي ودهري ولا يدرك لحماقته أنه كلما كدس المال، تردى في هوة الضعف، الذي يحطم الإنسان تحطيماً ذاتياً ذلك أن الإنسان يعتاد إذ ذاك الاعتماد على نفسه وحدها فيلغي التعاون من مفاهيمه ومن سلوكه. إنه يكفر بالناس وبالبشرية ويعيش مرتعداً كل ساعة خشية فقدانه الأموال والامتيازات التي كسبها لنفسه. إن الناس في كل مكان في هذه الايام لم يعودوا، بدافع من سخريتهم، يفهمون أن الامن الحقيقي كامن في التماسك الاجتماعي بدلا من الجهد الفردي المتفرق. لكن هذه الفردية الرهيبة لا بد أن تنتهي يوماً ما، وعندها سيدرك جميع الناس فجأة كم باعدت عزلتهم بينهم وبين طبيعتهم الحقيقية وسيكون ذلك الادراك، الروح المهيمن على العصر، وسيعجب الناس كيف استطاعوا العيش طويلاً في الظلام دون أن يبصروا النور، وعندئذ ستظهر في السموات علامة ابن الإنسان. ولكن إلى أن يحين ذلك علينا أن نبقي رايته خفاقة في العلاء، وأن نعمل ولو افراداً متفرقين بسلوكهم المشوه على تخليص ارواح الناس من وحدتها وحضّهم على أن يؤدوا من الأعمال ما يوحيه الحب الاخوي، حتى لا تموت الفكرة العظمى.

كانت امسياتنا تتوالى، واحاديثنا دائماً هكذا مفعمة بالحماسة والإخلاص، وانقطعت عن المجتمع وأقللت من زيارة جيراني. ثم إن الناس كانوا قد استهلكوا بريق شخصي وتحولوا عنه. لست أقول هذا لوماً أو عتباً، فإن الناس ظلوا على حبهم لي، وظرفهم في معاملتي، ولكن يجب أن نعترف أن تغيرات الاهواء ذات قوة كبرى في المجتمع. وأصبحت أنظر إلى زائري الغامض نظرة الاعجاب، لانني فضلاً عن سروري بذكائه، اخذت أشعر أنه

كان يعد في نفسه أمراً ما ويهيىء ذاته لعمل عظيم. وربما حفظ لي عدم فضولي لمعرفة سره ومحاولة اكتشافه إن بالسؤال مباشرة أو بالإستدراج. ولكنني لاحظت في النهاية أنه كان يتحين الفرصة بلهف لاطلاعي على شيء ما. وقد بدت هذه اللهفة واضحة بعد انقضاء حوالي شهر منذ أن بدأ يزورني.

وفاجأني ذات يوم بقوله: أعلمت أن أهل المدينة يتهامسون بشأننا وهم في عجب من كثرة ترددي عليك، فليعجبوا ما طاب لهم العجب فإن كل شيء سينكشف سريعاً.

وكثيراً ما كان ينتابه حزن عظيم فينهض من مجلسه وينصرف. وفي القليل من المرات كان يصوب نحوي نظرة طويلة نفاذة فاظن بأنه لا بد محدثني الآن بشيء ما. ولكنه كان لا يلبث أن ينخرط في حديث عادي مألوف. وكثيراً ما كان يشكو الصداع.

وفي ذات يوم وعلى حين غفلة من أمري، وبعد حديث مسهب صادر عن قلبي، رأيته وقد امتقع لونه وتبدلت ملامح وجهه، وهو يحدق بي بطريقة غريبة.

فقلت له: «ما دهاك؟ أأنت مريض؟» فقد كان لتوه يشكو الصداع.

- إنني... إعلم أنني... أنا قاتل.

قال هذا وابتسم وقد اصطبغ وجهه ببياض شبه كامل. ووجدت نفسي أتسائل: «ما الذي يجعله يبتسم؟». ومر تساؤلي في خاطري بمثل سرعة البرق قبل أن أتحقق من أي شيء آخر. وبدوري أصبحت شاحباً. وصحت به قائلاً: «ماذا تقول؟»

فابتسم ابتسامة خفيفة وقال: لقد رأيت كم عانيت قبل هذا الاعتراف الأول. أما الآن وقد اعترفت فأشعر بأنني قد خطوت الخطوة الأولى وسأمضي في طريقي.

لم استطع تصديق كلامه برهة طويلة، ولم أصدقه آنذاك، إلا بعد أن زارني ثلاثة أيام متتالية وقص علي تفاصيل قصته وظننته في أول الأمر مخبولاً، ثم تيقنت أخيراً من صدق قوله والألم العظيم يحز في نفسي والدهشة البالغة تتملكني. لقد كانت جريمته هائلة قبيحة.

لقد اغتال قبل أربعة عشر عاماً ارملة صاحب اطيان، وكانت شابة ثرية

جميلة تمتلك منزلاً في مدينتنا. فلقد وقع في حبائل غرامها، واعلن حبه لها وحاول أن يقنعها بالزواج منه. ولكنها كانت قد وهبت قلبها لرجل آخر. وكان ضابطاً رفيع النسب عالي الرتبة في الجيش، وقد كان آنذاك يقاتل في مكان قصي، ولو أن الفتاة كانت تنتظر عودته القريبة، لذا، فإنها صدّت صاحبي ورجته أن يكف عن زيارتها. وبعد أن انقطع عن زيارتها، استغل معرفته بمداخل منزلها، فتسلل إليها من الحديقة وتسلق إلى السطح مخاطراً بامكانية اكتشافه. ولكن كما يحدث في كثير من الأحيان، فإن الجريمة التي تدبر بعناية فائقة ورباطة جأش يكون حظها من النجاح أكثر مما سواها.

دخل الغرفة العليا الصغيرة من منور المنزل. ثم هبط السلم وفي علمه أن الباب في أسفله يظل مفتوحاً احياناً كثيرة بسبب اهمال الخدم. لقد وجده فعلاً مفتوحاً كماكان يتوقع وتلمس طريقه في الظلام إلى غرفة نومها وكانت ما تزال مضاءة. وكأن الصدفة الحسنة كانت شريكته فهيأت الظروف المواتية، فإن وصيفتيها غادرتا المنزل دون استئذان سيدتهما إلى حفلة عيد ميلاد. أما بقية الخدم فكانوا ينامون في جناحهم أو في مطبخ الطابق السفلي. فلما وقعت عيناه عليها وهي نائمة اضطرمت مشاعره، ثم استبد به الغضب العارم وحب الانتقام، فاستل خنجره واغمده في قلبها وهو كالثمل، ولهول الطعنة ماتت الفتاة على الفور دون أن تصيح. ثم أنه دبر الأمور بحيلة ومكر شيطانيين، بحيث تقع شبهات الجريمة على الخدم. وبلغ به الانحطاط حداً أن ترك محفظتها، وفتح خزانتها بمفاتيح كانت تحت وسادتها، ولم يأخذ منها سوى أشياء ترجح إن سارقها خادم جاهل. لقد ترك الأوراق والمستندات الثمينة واكتفى بأخذ النقود. وأخذ بعض القطع الذهبية، متجاهلاً المجوهرات الصغيرة التي يبلغ ثمنها عشرة اضعاف ثمن القطع الذهبية. واخذ لنفسه أشياء أراد أن يحتفظ بها للذكرى، أما تفصيل هذه الاشياء فسنذكره فيما بعد. حتى إذا فرغ من اقتراف كل هذه الجرائم غادر الدار سالكاً طريق مجيئه.

ولم تتحول الشبهة إليه، لا في اليوم التالي عندما ذاع النبأ، ولا في أية لحظة أخرى من حياته قط ولم يكن احد يعلم بسر حبه للفتاة، فقد كان منكمشاً على نفسه محباً للصمت، ولم يكن له صديق يفتح له قلبه. وكان

الناس لا يعدّونه أكثر من مجرد أحد معارف الفتاة وهم لم يرونه في منزلها طيلة الاسبوعين اللذين سبقا وقوع الجريمة. وسرعان ما اتجهت الشبهات إلى عبد للفتاة المقتولة يدعى بطرس، وتضافرت الظروف على هذا العبد فاثبتت الشبهة. وكان هذا الخادم يعلم أن سيدته ـ والحقيقة انها لم تخف ذلك فعلاً ـ قررت إرساله إلى الجندية بعد أن طلبت منها السلطات أن تلحق أحد عبيدها بالجيش، فهو عازب ولا اقرباء له أولاً وكان سيء السلوك ثانياً. وقد سمعه الناس في إحدى الخمارات يهدد باغتيال سيدته وهو في حالة سكر وغضب شديدين. وقبل وفاتها بيومين، كان العبد قد فر من المنزل، واختفى في مكان لا يعرفه أحد في المدينة. وفي اليوم التالي لوقوع الجريمة وجد منطرحاً في الطريق الواقعة في ظاهر المدينة وهو فاقد الوعي لفرط سكره. واتفق أن كان في جيبه خنجر، وكانت يده اليمنى ملوثة بالدم. وقد علّل ذلك هو فيما بعد أن الدم كان من أنفه، ولكن احداً لم يصدقه. واعترفت الخادمتان بانهما ذهبتا فعلاً إلى الحفلة وتركتا باب المنزل المطل على الشارع مفتوحاً لحين عودتهما. ثم توالت قرائن أخرى وكلها تضاعف الشكوك التي حامت حول الخادم البريء.

والقي القبض عليه بتهمة قتل سيدته؛ ولكن الخادم اصيب بالحمى بعد اعتقاله باسبوع واحد ثم توفي في المستشفى وهو يعاني من غيبوبة. وهكذا انتهت القضية واقتنع القضاة والسلطات وجميع سكان المدينة بأن الجريمة لم يرتكبها أحد غير هذا الخادم الذي توفي في المستشفى. ومنذ ذلك الوقت، بدأ صاحبنا يشعر بوطأة العقاب.

أوضح لي زائري الغامض، منذ أصبح صديقي، كيف أنه لم يعاني أول الأمر من تبكيت الضمير. لقد شعر بالتعاسة أمداً طويلاً، ولكن ليس بسبب عذاب الضمير؛ بل لأنه قتل المرأة التي أحبها، ففقد أنسه بها إلى الأبد، وقتل حبه فكانت نار عاطفته ما تزال تضطرم في عروقه. أما الدم البريء الذي سفكه، بقتله المخلوقة البريئة، فلم يكن ليهتم له أو ليفكر به. إن ما كان يطغى على تفكيره أمر واحد هو أن ضحيته كان يمكن أن تكون زوجا لرجل سواه، وهكذا فقد ظل أمداً طويلاً، مقتنعاً في أعماق وجدانه بأنه كان

مستحيلاً أن يفعل سوى ما فعل.

لقد اهتزّ لاعتقال الخادم بادىء الأمر، غير أن مرضه ووفاته امتصّا قلقه واضطرابه، لان وفاة الخادم كما يبدو (هذا ما حدّث به نفسه) لم تكن بسبب اعتقاله وخوفه، بل بسبب البرد الذي اصابه في يوم هروبه من منزل سيدته، عندما قضى ليلته بطولها نائماً على الأرض الرطبة فاقد الوعي من السكر. أما سرقته للنقود والاشياء الاخرى، فلم تكن لتزعجه كثيراً، لأنه أقنع ذاته بأنه اقترفها لا ابتغاء للربح بل تحاشياً للشبهة. ثم إن قيمة المبلغ المسروق ضئيلة وقد سارع إلى التبرع بمبلغ يساويها بل ويفوقها كثيراً لأحد بيوت الإحسان في المدينة. وقد فعل ذلك ليريح ضميره من ناحية السرقة. والمدهش أنه ظل مرتاح الضمير فترة طويلة من الزمن كما قال لي. ثم إنه التحق بالجيش وبذل مجهودات عظمى، وتطوع لاداء الواجب في اعمال صعبة مضنية استنفدت عامين من حياته، ولما كان رجلاً قوي الارادة فقد كاد ينسى جريمته بصورة شبه تامة وكان كلما راودته ذكراها يحول تفكيره عنها وقد أبدى نشاطاً كبيراً في أمور البرّ فأسس ودعم عدداً من مؤسسات الاحسان في المدينة، وقام بأعمال مجيدة في العواصم فانتخب عضواً في الجمعيات الخيرية في كل من موسكو وبطرسبورغ.

وأخيراً ارتد بخياله ثم استهوته فتاة جميلة ذكية، وسرعان ما تزوج منها على أمل أن يبدد هذا الزواج كآبته ويطرد وحشته. كان يظن أنه إذا دخل عتبة حياة جديدة، وقام بواجبه خير قيام نحو زوجته وأطفاله، فإنه ينجو من ملاحقة ذكرياته جملة. ولم يتحقق المتوقع بل تحقق نقيضه. فإنه حتى في الشهر الأول من زواجه أخذ الفكر يعذبه كلما قال في نفسه: «إن زوجتي تحبني، ولكن ماذا يكون موقفها إذا علمت الحقيقة؟» وعندما انبأته للمرة الأولى بأنها ستضع له طفلاً بعد أمد وجيز اضطرب وقال في نفسه: لقد وهبت حياة، ولكنني سلبت حياة. وولد له اطفال فكثرت تساؤلاته: «كيف تواتيني الجرأة على أن احبهم وأعلمهم واثقفهم، وكيف أنشئهم على الفضيلة؟ لقد سفكت دماً». وكان أولاده على قدر كبير من الجمال فإذا تاق إلى مداعبتهم وجد نفسه يقول: إنني لا استطيع النظر إلى وجوههم البريئة التي

تتجلى فيها الصراحة. إنني لست أهلاً لذلك.

وأخيراً اخترق طيف ضحيته حجاب ضميره، وظل دائم التفكير في الحياة الفتية التي انتزعها من جسد الفتاة، وفي نداء الدم المسفوك طلباً للانتقام. واخذت الاحلام المزعجة توافيه كل ليلة. ولكنه كان رجلاً جلداً صعب المراس، فاحتمل آلامه زمناً طويلاً وهو يقول في نفسه: لعلّ عذابي الخفي هذا يكون تكفيراً عن خطيئتي»، غير أن هذا الأمل أيضاً كان وهماً؛ فإن شقاءه كان يزداد على مر الأيام.

ولقد كان الرجل يحظى باحترام المجتمع بسبب بره وإحسانه ولكن جميع الناس كانوا يهابونه لعبوسه واكفهراره، وكان يزداد تبرماً كلما شعر أكثر بهذا الاحترم واعترف لي بأنه كان يفكر في الانتحار ولكن فكرة أخرى نمت في نفسه، فكرة اعتبرها في أول الأمر مستحيلة لا يتصورها العقل، ولكنها فيما بعد استهوت قلبه حتى لم تعد تفارق فكره. فقد خطر له أن يخرج من بيته ويعترف على مسمع من جميع الناس بأنه اقترف جريمة قتل. وظل هذا الحلم يثقل عليه فاستمر يلاحقه ثلاثة أعوام باشكال متجددة واخيراً توصل إلى قناعة راسخة بأنه إذا اعترف بجريمته فستشفى روحه ويستعيد شعوره بالأمن إلى الأبد. ولكن هذا الاعتقاد ملأ قلبه بالفزع، إذ كيف يستطيع تنفيذ هذا الخاطر؟ ثم جاءت حادثة مبارزتي.

وقال لي: إنني عندما نظرت إليك، اتخذت قراري.

فصحت أسأله وأنا أضم يديّ: هل من الممكن أن حادثة تافهة كهذه تدفعك إلى مثل هذا القرار؟

فاجابني وقد تجهّم وجهه: إن قراري هذا ما برح ينمو منذ ثلاث سنوات، وجاءت قصتك فأنضجته. إنني عندما نظرت إليك أنبت نفسي وحسدتك.

فقلت: ولكنهم لن يصدقوك فقد انقضت على الجريمة أربع عشرة سنة.

- لدي براهين، براهين عظيمة، سأقدمها لهم.

وعندها لم اتمالك نفسي فبكيت وعانقته.

ثم عاد إلى الكلام قائلاً: انبئني شيئاً واحداً، شيئاً واحداً، (كأن الأمر

كله كان منوطاً بي) زوجتي واطفالي! إن زوجتي قد تموت لفرط حزنها، أما أطفالي فإن لن يفقدوا منزلتهم واملاكهم فإنهم سيظلون إلى الابد أبناء رجل مجرم، وأية ذكرى، أية ذكرى سيحفظونها لي في قلوبهم!

ولم أحر جواباً.

وعاد إلى الكلام: ثم ما بالك بفراقي لهم، فراقي لهم إلى الأبد؟ إنني سأفارقهم إلى الأبد، إلى الأبد!

وظللت جالساً في مكاني وأنا أردد صلاة صامتة. وأخيراً نهضت والخوف ملأ نفسي.

ثم نظر إلي وتساءل قائلاً: «ما رأيك».

فقلت له: امض! اعترف بذنبك. إن كل شيء ينقضي وتبقى الحقيقة وحدها. إن اطفالك سيقدرون ظروفك. وعندما يكبرون سيفهمون نبل قرارك.

وغادرني في ذلك الوقت وكأنه قرر الاعتراف لكنه ظل يزورني كل مساء لأسبوعين لاحقين، وهو يتأهب للحظة الحاسمة، دون أن تواتيه الشجاعة على تنفيذ ما أقدم عليه. لقد تألمت كثيراً لتردده. كان يأتي إلي ويقول: إنني أعلم أنني سألج النعيم في اللحظة التي اعترف فيها. لقد انقضى علي وأنا في الجحيم أربعة عشر عاماً. إنني أريد أن اتعذب، سأقبل جزائي واستأنف حياتي. إن الإنسان باستطاعته أن يعيش حياته ويملأ الدنيا بأعمال الشر، ولكنه لا يستطيع استعادة الماضي. إنني الآن لا اجرؤ على حب أولادي، فكيف بالناس؟ يا إلهي الكريم، قد يدرك أولادي ما قاسيته فلا يلعنوني! إن الله لا يكمن في القوة، بل في الصدق.

فقلت له مواسياً: إن الجميع سيقدرون لك قرارك، فإن لم يكن الآن فغداً حتماً. فأنت بهذا تكون قد خدمت الحقيقة، الحقيقة العليا، التي تجل عن واقعنا الأرضي.

خرج من عندي بمعنويات مرتفعة، لكنه عاد في الغد كاسف البال، شاحب الوجه، وقال لي ساخراً: كلما زرتك نظرت إلي نظرة متفحصة كأنك تسألني قائلاً: إنه لم يعترف بعد! ولكن مهلاً، لا تمعن في احتقاري. إن هذا

الأمر أصعب مما يخيل إليك. وقد أحجم عنه جملة. إنك عندها لن تشي بي، أليس كذلك؟

لم يكن فضولي يدفعني إلى النظر إليه، فقد كنت لا اجرؤ أن أتطلع إليه. ولقد اشرفت على المرض من جراء ما كنت أشعر به من اضطراب وكان قلبي يقطر دماً، وكاد النوم يهجرني.

وتابع الرجل كلامه قائلاً: لقد جئت لتوي من عند زوجتي. هل تفهم معنى هذه الكلمة: زوجتي؟ وعندما خرجت من المنزل صاح بي اطفالي قائلين: رافقتك السلامة يا أبتاه، ولكن عدْ إلينا بسرعة لتقرأ لنا «مجلة الأطفال». كلا، إنك لا تفهم معنى هذا! إن الإنسان لا يتعظ بآلام غيره.

وكانت عيناه تتألقان وشفتاه ترتجفان وفجأة ضرب المنضدة بقبضة يده فاهتزت الاشياء الموضوعة عليها. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يفعل فيها مثل هذا العمل وهو الرجل المعروف بوداعته وهدوئه.

وعاد إلى القول: ولكن هل ضروري أن اعترف؟ هل اعترافي واجب طالما لم يحكم على أي إنسان بسبب جريمتي، ولم يرسل أحد ما إلى السجن بدلاً عني. لقد مات الخادم بالحمى، وكفّرت أنا عن الدم المسفوك بالآلام التي تحملتها. ثم إن الناس لن يصدقوني. إنهم لن يصدقوا براهيني. هل بي حاجة للإعتراف، هل بي؟ إنني مستعد لاحتمال الآلام طوال حياتي بسبب الدم الذي سفكته، إذا كان في ذلك نجاة زوجي واطفالي. هل من العدل أن أشركهم معي في العقاب؟ ألسنا مقدمين على ارتكاب خطأ؟ أين هي الحقيقة؟ هل يقر بها الناس، هل يقدرونها حق قدرها، هل يحترمون دوافعها؟

فقلت في نفسي: «حنانيك يا رب، إنه يفكر في احترام الناس، في لحظة كهذه! وأخذتني الشفقة عليه، حتى أنني لو تمكنت لشاطرته مصيره إذا كان في ذلك عزاء له. وأدركت أنه عظيم الاضطراب، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما ايقنت بقلبي وعقلي معاً كلفة هذا القرار الذي اتخذه.

ثم صاح بي قائلاً: «قرر مصيري!»

لم يسعفني صوتي، فهمست وأنا أظهر الحزم: «امض واعترف». وتناولت الترجمة الروسية لكتاب العهد الجديد عن المنضدة وفتحت له انجيل

يوحنا الإصحاح الثاني عشر الآية الرابعة والعشرين، التي تقول: «الحقَّ، الحقَّ أقول لكم، إن حبة الحنطة التي تقع في الأرض إن لم تمت فإنها تبقى وحدها، وإن ماتت أتت بثمر كثير». كنت اتلوها لدى دخوله الغرفة، فقرأها وقال: هذه هي الحقيقة ثم تصنع الابتسام وقال: إن ما تجدونه في هذه الكتب، شيء رهيب. وسكت برهة من الزمن وأردف يقول: كم هو سهل فرض هذه الآيات على الناس. فمن كتبها؟ أيمكن أن يكون قد كتبها إنسان؟

فقلت: نعم، والروح القدس هي التي أملتها عليه.

فأجاب: «من السهل عليك أن تتشدق بالكلام»، وابتسم تارة أخرى، ولكن هذه المرة بدلالة على الكراهية.

وأخذت الكتاب ثانية وفتحته على مكان آخر وأريته رسالة القديس بولس إلى العبرانيين الاصحاح العاشر الآية الحادية والثلاثين فقرأ ما يلي: «إنه مخيف الوقوع بين يدي الله الحي» قرأ هذه الآية وطرح الكتاب جانباً وجسمه كله يرتعد.

وقال: إن هذا كلام رهيب، لا مناص من الاعتراف بأنك اخترت لي الآيات المناسبة. ثم نهض من مجلسه وقال: والآن وداعاً فالأرجح أنني لن آتي إليك ثانية... سنلتقي في السماء. فقد بقيت إذاً بين يدي الله الحي طيلة هذه السنين الأربع عشرة. وغداً سأتوسل إلى هاتين اليدين أن تطلقا سبيلي.

ورغبت كثيراً في معانقته وتقبيله، ولكنني لم اجرؤ فقد كان منقبض الوجه متقلص الملامح. ومضى الرجل. وقلت في نفسي: رحماك يا رب، ما أقسى ذلك الذي سيواجهه. وجثوت على ركبتي أمام الايقونة وبكيت من أجله للعذراء المقدسة حامتينا ومعينتنا وبقيت نصف ساعة أصلي وأبكي، وكان الليل يوشك أن ينتصف. وفجأة فتح الباب وعاد الرجل فتملكتني الدهشة.

وسألته: «أين كنت»؟

فقال: أظن أنني نسيت عندك شيئاً... منديلي، أظن... حسناً، لم أنس شيئاً، دعنا نتحدث قليلاً.

وجلس وبقيت واقفاً قربه.

ثم قال: إجلس أنت أيضاً.

فجلست، وبقينا على هذه الحالة دقيقتين، كانت نظرته إلي ذات معنى. وفجأة ابتسم ـ لقد تذكرت هذا ـ ثم نهض من مجلسه وعانقني وقبلني بحرارة.

وقال: «اذكر كيف جئت إليك مرة ثانية، هل تسمعني، أذكر ذلك!» ثم خرج، فقلت في نفسي: موعده الغد، سيفعلها.

وصح ما توقعته. ولم أكن أعلم في تلك الليلة أن غداً هو يوم عيد ميلاده. كنت لا أبرح غرفتي منذ أيام عدة، لذا فلم اعرف ذلك من أي إنسان. كانت عادته كل سنة أن يدعو جمعاً غفيراً من الناس للاحتفال بهذه المناسبة. وكان جميع أبناء المجتمع الراقي في المدينة يذهبون إلى منزله. وكان ذلك عين ما حدث في هذه المرة أيضاً. وبعد تناول طعام الغداء تقدم إلى منتصف الغرفة وهو يحمل بيده ورقة ضمنها اعترافاته موجهةً إلى رئيس دائرته الذي كان حاضراً الحفلة. وتلا تصريحه بصوت عال، على الجمع المحتشد. وكان يحتوي على شرح تام للجريمة التي اقترفها ولم ينس شيئاً من تفاصيلها الكاملة.

ولما فرغ من التلاوة قال: لقد فصلت نفسي بعملي عن الناس كالوحش. ولقد أدركني الله، وأريد أن القى جزاء ما اقترفته يدي.

ثم إنه وضع على المنضدة جميع الاشياء التي احتفظ بها مدة أربع عشرة سنة، لتكون أدلّة على تأكيد جرمه، وضع جواهر المرأة المقتولة التي سلبها إياها تمويهاً ودفعاً للشبهات، والصليب، والعقد الذي انتزعه من جيدها وينتهي بعلبة صغيرة فيها صورة خطيبها، ودفتر مذكراتها ورسالتين؛ الأولى من خطيبها يخبرها فيها عن قرب عودته، والثانية جوابها الذي لم تكن قد أتمته بعد وكانت موضوعة على المنضدة لترسلها بالبريد في الغد. لقد حمل معه هاتين الرسالتين. ولكن ماذا كان الدافع له على ذلك؟ ولماذا ابقاهما معه أربعة عشر عاماً ولم يتلفهما وهما دليل على جريمته؟

هاكم ما حدث: عقدت الدهشة ألسنة الجميع، وانتابهم الخوف، ولم يصدقوا اقواله وظنوه مخبولاً، ولو أنهم جميعاً اصغوا إلى اقواله باهتمام عظيم. وبعد أيام قلائل كان جميع الناس على قناعة بان الرجل التعيس صار مجنونا.

ولم تستطع السلطات القضائية أن ترفض إثارة القضية من جديد ولكنها أخيراً اسقطتها من حسابها، مع كون المجوهرات والرسالتين مدعاة لإعمال الفكر لدى هذه السلطات. وقد قررت أنه حتى ولو ثبت أن هذه الآثار تعود للقتيل، فإنها غير كافية لاتهام الرجل، فهي قد تكون اعطته تلك الاشياء بوصفه صديقاً لها، أو سألته أن يحفظها لها، وقد تناهى إلي فيما بعد أن الضحية وأصدقاءها قد تعرفوا على هذه الاشياء واثبتوا نسبتها إليها، بحيث لم يكن هناك مجال للشك في امرها. ومع ذلك فلم يكن مقدراً لكل ذلك أن يكون مفيداً.

ولقد علمت بعد خمسة أيام أن الرجل مريض وإن حياته في خطر. لا استطيع أن أتكهن بعلة مرضه، فقد قيل إنه كان يعاني من اضطرابات في القلب، ولكن علم أن زوجه ألحت على الأطباء بأن يتحروا عن سلامة عقله، ولدى التحري قرروا أن مرضه كان جنوناً في بداياته ولم أفضح اعترافاته لي مع أن الناس تقاطروا علي يسألونني إيضاح الأمر. وقد اردت ان اعوده ولكنني صددت عن بابه مدة طويلة وكانت زوجته أكثر الناس معارضة في ذلك.

لقد قالت لي: إنك أنت السبب فيما اعتراه من مرض. كان دائم التجهم، ولاحظ الناس طيلة العام الماضي أنه كان عظيم الاضطراب بشكل غريب، وكان يأتي أعمالاً شاذة، والآن جئت أنت فأجهزت على عقله. إن مواعظك افضت به إلى هذه النتيجة؛ فقد كان يلازمك طوال الشهر المنصرم.

والحقيقة هي أن سكان المدينة جميعاً لا زوجته وحدها، تألبوا علي وأوسعوني لوماً، وكانوا يلاحقونني بقولهم: إنك سبب كل شيء. وظللت صامتاً وأنا سعيد القلب، لانني أحسست برحمة الله تسع الرجل الذي دان نفسه وعاقبها، ولم استطع تصديق ما أشيع عن جنونه المزعوم.

وأخيراً سمحوا لي بزيارته، فقد ألح على توديعي. فدخلت غرفته وأدركت لتوي أن أيامه بل ساعاته اصبحت معدودة. كان ضعيفاً شاحب اللون مرتجف اليدين، يلهث، ولكن وجهه انطبعت عليه سيماء الرقة والسعادة.

فلما رآني قال: لقد انقضى كل شيء! إنني انتظر مجيئك بشوق، فلماذا لم تأت لزيارتي؟

ولم أعلمه بمنعي عن زيارته.

وقال: إن الله قد تلطف بحالي، وهو يدعوني إليه، وأنا أعلم بأنني مفارق الحياة، ولكنني اشعر بالبهجة والراحة للمرة الأولى منذ سنوات طويلة. لقد شعرت بالنعيم في قلبي منذ اللحظة التي فعلت فيها ما كان ينبغي لي أن افعله. والآن فأنا لا أخشى أن أحب اطفالي وتقبيلهم. إن الناس لم يصدقوني حتى زوجتي والقضاة. وما أظن بأن اطفالي سيصدقونني أيضاً. إنني أرى في ذلك، رحمة الله تتغمدني. إنني سأموت، ولكن اسمي سيظل بالنسبة لهم غير ملطخ بالعار. والآن اشعر أن الله قريب مني، وقلبي مفعم بالبهجة كأنني في الجنة... لقد اديت واجبي.

لم يستطع الرجل أن يستمر في كلامه فأخذ يلهث كالمختنق وشد على يدي بحرارة، وهو ينظر إلي نظرة تنم عن الحب العظيم. ولم نتحدث طويلاً فقد كانت زوجته تديم شق الباب واختلاس النظر إلينا، ولكنه همس في أذني قائلا: هل تذكر كيف جئت إليك في المرة الثانية عند منتصف الليل؟ لقد قلت لك أن تذكر ذلك. هل تعلم لم عدت إليك؟ كنت أريد قتلك!

واجفلت.

ثم عاد الرجل إلى الكلام قائلاً: لقد خرجت من عندك فجبت الشوارع المظلمة على غير هدى وأنا اغالب نفسي. وفجأة كرهتك كرهاً لم أقو على احتماله. وقلت، إنه الإنسان الوحيد في هذه الدنيا، الذي يضطرني إلى الإعتراف، وهو وحده الذي يقاضيني. إنني لا استطيع الانصراف عن مواجهة عقابي في الغد لأنه يعلم كل أسراري. ليس ذلك بسبب خشيتي أن تشي بي (فذلك لم يخطر ببالي أبداً) ولكنني قلت في نفسي: كيف استطيع أن انظر إلى وجهه إذا لم اعترف بجريمتي؟ سيان أكنت هنا أم في آخر الدنيا، ولم استطع أن اتحمل فكرة بقائك حيا وأنت العارف بكل اسراري المنكر لي. فحقدت عليك وكأنك كنت سبب ما حدث لي، وكأنك كنت الملوم على كل شيء. فعدت إليك وقد تذكرت أن خنجراً كان مطروحاً على منضدتك. فجلست وطلبت منك أن تجلس. وظللت برهة طويلة اقلب اوجه الرأي، وقلت إنني لو قتلتك لتحطمت حياتي سواء آعترفت بجريمتي الأولى أم لم اعترف. ولكنني لم افكر بذلك قط ولم اشأ أن افكر فيه في تلك اللحظة. بل

كرهتك وتاقت نفسي إلى الانتقام منك على كل شيء. غير أن الله قضى على الشيطان الذي كان يتواثب في قلبي، ولكن دعني انبئك بأنك لم تكن في حياتك أدنى من الموت، منك في تلك اللحظة.

وبعد أسبوع مات صاحبي. وشيعته المدينة بأسرها إلى مثواه الأخير. وألقى كبير القساوسة كلمة مؤثرة. وأسف الجميع لذلك المرض الذي أهلكه قبل الأوان ولكن المدينة كلها تألبت علي بعد الجنازة بل إن الناس أعرضوا عن لقائي. ولقد أخذ نفر قليل منهم تزايدوا فيما بعد، يعتقدون بصحة روايته، فصاروا يأتون لزيارتي ويستجوبونني باهتمام وشوق عظيمين، لان الإنسان يحب أن يرى سقوط رجل مستقيم صالح وتلطخه بالعار. ولكنني حبست لساني، ثم لم ألبث أن غادرت المدينة، وبعد ذلك بخمسة أشهر، سلكت على بركة الله، الطريق الآمنة المباركة، وأنا ابارك الاصبع التي ارشدتني إليها واوضحت لي مسالكها. ولكنني ما زلت حتى اليوم اذكر في صلواتي صاحبي ميخائيل، خادم الرب، الذي تعثر حظه وعانى الكثير.





تعاليم الأب زوسيما من أحاديثه

هـ ـ الراهب الروسي ودوره في المستقبل

إخوتي ومعلميّ! ما هو الراهب؟ إن كلمة راهب تتردد على ألسنة المثقفين في هذه الأيام، فبعضهم يقولها سخرية، والبعض الآخر ازدراء وإهانة. وهذا الازدراء للرهبان آخذ في الازدياد إن الحقيقة المؤسفة أن بين الرهبان كثيرين ممن استحوذ عليهم الخمول والشره والتهتك، وكثيرون منهم تعودوا إلى التسول الوقح. والمثقفون في المجتمع يشيرون إليهم قائلين: انتم أيها الكسالى، إنكم اعضاء عديمو النفع في المجتمع، وتعيشون عالة على غيركم، إنكم متسولون طفيليون فقدوا الشرف. ومع ذلك فما اكثر الرهبان الودعاء المتواضعين الذين ينشدون العزلة لكي ينصرفوا إلى الصلاة بحرارة وهدوء. غير أن هذه الفئة من الرهبان أقل حظوة بانتباه الناس، أو هم نادراً ما يتكلمون عنهم، ولكن ما اعظم الدهشة التي ستستولي على الناس لو قلت إن خلاص روسيا سيأتي مرة أخرى على أيدي هؤلاء الرهبان الودعاء الذين ينشدون الصلاة في العزلة. إنهم يستعدون بصمت وهدوء «لليوم والساعة والشهر والسنة». وهم في هذه الأثناء بكثير من الزهد والتقى يحافظون على صورة السيد المسيح بريئة من الشوائب نظيفة بعيدة عن الدنس وهم في طهارة حقيقة الله، منذ عهود الآباء القدامى والرسل والشهداء. وعندما يحين الزمن سيكشفون عنها أمام العقائد المتداعية في هذه الدنيا. إن تلك الفكرة هي القاعدة العظيمة في حياتهم. ذلك النجم سيبزغ من الشرق.

ذلكم هو رأيي في الرهبان، فهل هو رأي خاطىء؟ أم أنني مبالغ فيه غروراً وعجباً؟ انظروا إلى ابناء الدنيا وإلى جميع الذين يعتبرون انفسهم أعلى

مرتبة من رجال الدين، ألم يخونوا حقيقة الله ويشوهوا صورته التي خلقهم عليها؟ إن العلم ذخيرتهم؛ ولكن العلم لا يبلغ أكثر مما يدركه الحس. أما العالم الروحي، الجزء الاسمى من كيان الإنسان، فإنهم يرفضونه جملة، وينبذونه شاعرين بالنصر، بل وبالمقت والكراهية أيضاً. لقد اعلن ابناء الدنيا قيام عهد الحرية، ولا سيما في الآونة الأخيرة، ولكن ما هي حقيقة هذه الحرية ومؤداها؟ لا شيء سوى العبودية وهلاك النفس! يقول هؤلاء:

لكم رغائبكم ويجب أن تشبعوها، لأنكم تتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها اعظم الناس ثراء واوسعهم سلطة. فلا تخشوا إشباع رغائبكم بل اعملوا على مضاعفتها. تلك هي نظرية العالم الحديثة، وتلك هي نظرتهم إلى الحرية. فإلى أين يؤدي هذا الحق في مضاعفة الرغائب؟ إلى العزلة والانتحار الروحي بالنسبة للاغنياء، والحسد والقتل بالنسبة للفقراء؛ ذلك أن حقوقاً أعطيت لهم دون تعليمهم وسيلة الحصول على ما يريدون. إنهم يزعمون أن العالم يزداد اتحاداً، ويزداد تماسكاً في اسرة اخوية، نتيجة لتقريب المسافات وسرعة انتشار الافكار.

يا للأسف، لا تدعوا مثل هذا الاتحاد أن يخدعكم فنحن إذا فسرنا الحرية بأنها مضاعفة للرغائب وسرعة في إشباعها، نشوه طبيعة الناس، إذ تثير فيهم الكثير من الرغائب والعادات السخيفة الحمقاء، والخيالات المضحكة. إنهم يعيشون لا لشيء سوى للتحاسد والبذخ، والخيلاء. وهم ينظرون إلى المآدب والحفلات والعربات والمظاهر واقتناء العبيد على أنها ضرورة من الضرورات يضحي الإنسان في سبيلها بالحياة والشرف والمحبة الإنسانية بل إن الانتحار يهون دونها وهذا الواقع يعيشه أيضاً الذين ليسوا اثرياء، أما الفقراء فيغرقون حاجاتهم المستعصية عليهم وتحاسدهم، في السكر. ولكنهم سيكون يوم يشربون فيه الدم بدلاً من الخمر، وهم يساقون إلى ذلك سوقاً. وإني اسألكم هل يمكن اعتبار هؤلاء أحراراً؟ لقد عرفت احد «المنافحين عن الحرية» وأخبرني هو نفسه أنه عندما حرم من التدخين اثناء وجوده في السجن، اشتدت تعاسته بسبب الحرمان حتى كاد يخون القضية التي يتبناها من أجل الحصول على التبغ! ومع ذلك يقول مثل هذا الرجل، «إنني اناضل من أجل

الإنسانية».

انبئوني كيف يستطيع مثل هذا الإنسان أن يناضل، ولأي شيء يصلح؟ قد يستطيع القيام ببعض الأعمال التي لا تتطلب ثباتاً، ولكنه يعجز عن الاستمرار والثبات مدة طويلة. فلا عجب إن هم ترددوا في العبودية، بدلاً من أن يظفروا بالحرية. وبدلاً من خدمة قضية المحبة والوحدة الإنسانية قد سقطوا ضحايا العزلة، كما قال لي زائري الغامض ومعلمي في شبابي، ولذلك فإن فكرة خدمة الإنسانية، والمحبة الأخوية وتضامن البشرية، ستتلاشى شيئاً فشيئاً، وفي الحقيقة إن هذه الفكرة تقابل احياناً بابتسامات الاستخفاف إذ أنى للإنسان أن ينزع عاداته، وإلى أين يؤول أمره إذا استعبدته عادة اشباع الرغائب التي لا تحصى والتي أوجدها بنفسه ولنفسه؟ إن مثل هذا الإنسان يعيش في عزلة، فأي شأن يجمعه ببقية ابناء الإنسانية؟ لقد افلحوا في تكديس الثروات المادية، أما البهجة فقد تراجعت وتناقصت.

أما نمط الحياة في الدير فيختلف اختلافاً عظيماً، وإن الطاعة والصوم والصلاة تقابل بالهزؤ، ومع ذلك فإنها المجال الوحيد لبلوغ الحرية الحقيقية، فأنا اقتطع رغائبي الزائدة والتي لا حاجة بي إليها، واقهر كبريائي واهوائي الجامحة واهذبها بالطاعة، فأحصل بمعونة الله على حرية النفس والبهجة الروحية. انبئوني أي الناس أقدر على اعتناق الافكار العظيمة والنضال من أجلها، الإنسان الثري في عزلته الروحية، أم الإنسان الذي حرر نفسه من طغيان العادات والحاجات المادية؟ إن الناس يلومون الراهب على عزلته ويقولون له: إنك تعيش منعزلاً بين جدران الدير تبغي خلاص نفسك، وقد نسيت الخدمة الاخوية التي يجب أن تؤديها للإنسان! غير أننا سنرى من الذي سيكون أشد حماسة وأكثر خدمة لقضية المحبة الأخوية. إنهم هم الذين يعيشون في العزلة، لا نحن ولكنهم لا يدركون هذه الحقيقة. إنما من بيننا خرج قادة الشعب في غابر الأيام، فلم لا يخرجون من بيننا مرة ثانية؟ إن اولئك المتقشفين الودعاء المتواضعين أنفسهم هم الذين سينهضون وينطلقون للعمل في سبيل القضية الكبرى. إن شعب روسيا هو الذي سينقذها. والراهب الروسي ما فتىء دوماً في صف الشعب. ونحن لا نكون في عزلة، إلا إذا كان الشعب في عزلة إن

الشعب يؤمن بما نؤمن، أما المصلحون الكافرون فلن يتمكنوا من عمل أي شيء في روسيا، حتى ولو كانت قلوبهم مفعمة بالاخلاص وعقولهم متمتعة بالعبقرية تذكروا هذا الأمر! إن الشعب سيجابه الملحد ويقهره، وستكون روسيا أمة واحدة ارثوذكسية. اعتنوا بالفلاح وصونوا قلبه. ثابروا على تطهير روحه والاعتناء بتربيته بكل هدوء. هذه هي رسالتكم كرهبان، لأن الله مع الفلاح وفي نفسه.

و ـ فيما يختص بالسادة والخدام، وهل يمكنهم

أن يكونوا اخوانا بالروح

إنني اعترف طبعاً بأن الخطيئة تكمن في الفلاحين أيضاً. إن عدوى الفساد ينتشر بوضوح واستمرار، آتية من الطبقات العليا. وإن العزلة اخذت تلف ابناء الشعب أيضاً وها هم المرابون ومغتصبو السلطان يثورون. وقد اخذ يستحوذ على التاجر شوق متزايد للظفر بالمراتب، وهو يجهد ليبدو بمظهر المثقف مع أنه لا أثر فيه للثقافة. إنه في سبيل بلوغ هذه الغاية يزدري تقاليده القديمة مع ما في هذا العمل من حقارة، بل إنه يخجل من عقيدة آبائه. إنه يعاشر الأمراء، مع أنه ليس إلا فلاحاً تطرق إليه الفساد. إن السكر يجلب لفلاحينا الفساد ويمنعهم عن التخلص من العادات المتأصلة فيهم. وما أشد قسوتهم على ازواجهم، بل وعلى ابنائهم أيضاً! وكل هذا مرده إلى السكر! لقد رأيت في المصانع اولاداً دون العاشرة من اعمارهم، اصابهم الضعف والسقم، وتقوست ظهورهم وفسدت اخلاقهم. فهم يقضون أيامهم في قاعات المصنع الخانقة وسط هواء فاسد وضجيج الآلات وسقط الكلام وشرب الخمر، هل هو الخمر ما يحتاجه قلب الولد الصغير؟ إنه يحتاج إلى نور الشمس واللعب والقدوة الحسنة، وإلى حد أدنى من المحبة. يجب أن يوضع حد لهذه المخازي، أيها الرهبان، يجب أن يوضع حد لتعذيب الصغار، انهضوا وبشروا بذلك، هلموا واسرعوا!

ولكن الله سيهب روسيا الخلاص، لأن الفلاحين وإن كانوا فاسدين

وعاجزين عن نبذ خطيئتهم الدنسة، يعلمون أن الخطيئة حلت عليها لعنة الله وإن في الخطيئة اساءة. وهكذا فإن ابناء شعبنا ما زالوا يعتقدون بالاستقامة ويؤمنون بالله ويذرفون دموع الورع.

أما أبناء الطبقات العليا، فأمرهم مختلف، إنهم باقتفائهم اثر العلم يريدون أن تكون الحجة وحدها اساس العدل، ولا حاجة بهم للمسيح بعد اليوم وها هم قد اعلنوا أنه لا وجود للجريمة ولا وجود للخطيئة. ولا تناقض البتة في الأمر، إذ ما معنى الجريمة عند من لا إله له؟ لقد بدأت الشعوب في أوروبا تثور على الأغنياء ثورات عنيفة، والقادة في كل مكان يقودونها إلى إراقة الدماء، ويعلمونها إن غضبها حق. ولكن غضبهم قد حلت به اللعنة لأنه غضب يتصف بالقسوة إن الله سيخلص روسيا كما خلصها مرات عديدة فيما مضى، وسيأتي الخلاص من الشعب، من إيمانه بالله وتسليمه بمشيئته.

أيها الآباء والمعلمون، احرسوا إيمان الشعب ولن يكون ما اقوله الآن حلماً من الأحلام. لكَم تأثرت طوال حياتي بسمو شعبنا العظيم، وهو خليق بهذا السمو. لقد لمسته بنفسي، واستطيع أن أورد الدليل على صحته، إنه أحدث في نفسي شعور الأعجاب. أجل، لقد شهدت ذلك على الرغم من الخطايا المتفشية بين فلاحينا والمظهر البائس الذي هم عليه إنهم ليسوا عبيداً، وعلى الرغم من مرور قرنين من الزمن على وجود رقيق الأرض، فإنهم احرار في طباعهم ومظهرهم بدون قحة، ولم يستبد بهم حب الانتقام أو الحسد، ينظرون إلى الغني وكأنهم يقولون له: «إنك غني محترم، وذكي موهوب، فلتكن هكذا وليباركك الله. إنني احترمك ولكني مدرك أني أنا أيضاً إنسان مثلك. وباحترامي لك من غير حسد، اثبت لك كرامتي كإنسان».

والحقيقة هي أنهم إذا لم ينطقوا بهذا الكلام فعلاً، لانهم لا يعرفون بعد ترجمة مشاعرهم إلى عبارات فإن تصرفهم ينم عنه. لقد شاهدت ذلك بعيني، وادركته بنفسي. وهل تصدقون إن فلاحنا الروسي كلما ازداد فقراً بدا فيه عنصر الخير أكثر، لأن من أثرى من فلاحينا أصبح محتكراً فاسداً ويعود جانب كبير من المسؤولية في ذلك إلى ما نبديه من اهمال وعدم مبالاة. ولكن الله سيخلص شعبه، لأن روسيا عظيمة، في استسلامها لله. إنني أحلم

برؤية مستقبل بلادنا، ويخيل إلي أنني اراه. سيحدث في المستقبل أن أكثر اثريائنا فساداً سيخجل من ثرائه الواسع أمام الفقير، وإن الفقير عندما يرى حطة الغني ومذلته، سيدرك الحقيقة ويتخلى عن مقاومته. ويقابل خجله المشرف بلطف وسرور. صدقوني إن هذه هي نهاية الأمور، وهي تتجه هذا الاتجاه. إن المساواة لا وجود لها إلا في كرامة الإنسان الروحية. وهذا لا يفهمه أحد في غير بلدنا. والأخوة لن تكون إلا بكوننا أخوة وما لم يتحقق ذلك فلن يتفقوا على اقتسام الثروة. إننا نصون صورة المسيح التي ستشع كالدرة الثمينة على الدنيا بأسرها. آمين، آمين!

أيها الآباء والمعلمون، لقد تعرضت إلى تجربة عنيفة. فقد التقيت اثناء تجوالي في روسيا بخادمي السابق، افناسي، في مدينة ك. بعد ثمانية أعوام على افتراقنا واتفق أن رآني في سوق المدينة فعرفني واندفع نحوي. وقد سر سروراً عظيماً برؤيتي حتى إنه لفرط سروره ألقى بنفسه علي، وقال: سيدي العزيز، احقاً هذا أنت؟ احقاً أنت الذي ارى؟

واخذني إلى منزله. وكان قد سرّح من الجيش وتزوج ورزق طفلين صغيرين. وكان هو وزوجه يكسبان قوتهما من بيع الفواكه في السوق. كانت غرفته ضيقة لكنها نظيفة تنشرح لها النفس. دعاني إلى الجلوس وأعد الشاي، واستدعى زوجه، كما لو كان حضوري عيداً بالنسبة لهم، وقد أحضر ولديه إلي وقال: باركهما يا ابتاه!

فقلت: ليس لي أن أباركهما، فلست إلاّ راهب وضيع، ولكنني سأصلي لأجلهما، أما أنت يا أفناسي بافلوفيتش، فما زلت اصلي لأجلك يومياً منذ ذلك الحادث، لأنك كنت مصدر كل ما حدث وقد شرحت له قولي ما وسعني الشرح. وماذا تظنون أنه فعل؟ كان يحدق بي مدهوشاً، ولم يستطع أن يصدق أنني، أنا الضابط، سيده السابق، جالس أمامه بمظهر الراهب البسيط ولم يتمالك نفسه من ذرف الدموع.

فقلت له: ما الذي يحملك على البكاء؟ المفروض أن تكون مغتبطاً لأجلي، يا صديقي العزيز الذي لن انساه ما حييت، لأن السبيل الذي اخترته سبيل فرح ونور.

ولم يقل شيئاً كثيراً، ولكنه ظل يتنهد ويهز رأسه بتأثر وعطف.

ثم سألني: وثروتك، ماذا حلّ بها؟

فقلت: وهبتها للدير، فنحن الرهبان نعيش عيشة مشتركة.

وعندما فرغنا من تناول الشاي، أخذت أودعه، فإذا هو يناولني فجأة نصف روبل كتقدمة منه للدير، ثم يدس في يدي نصف روبل آخر قائلاً: هذا لك أنت، فأنت راهب، وقد يفيد في تجوالك.

وأخذت نصف الروبل، وانحنيت له ولزوجه. وخرجت مغتبطاً، وأنا أحدّث نفسي: ها نحن كلانا نتنهد ونهز رأسينا الآن ولا ريب، هو في منزله، وأنا على الطريق، ومع ذلك فإننا نبتسم فرحاً بعد أن افعمت قلوبنا حبوراً ونتساءل كيف دبر الله لقاءنا.

ولم اره قط منذ ذلك الحين. لقد كنت فيما مضى سيده، وكان هو خادمي، ولكننا حين تبادلنا قبلة المحبة بحنان ورقة، فإن الرابطة الإنسانية العظمى قد أعادت جمعنا. لقد استأثر هذا الموضوع بجانب كبير من تفكيري، وإني الآن لأتساءل: أليس ممكناً حقاً أن تعمّم هذه الوحدة العظيمة الساذجة في الوقت المناسب لتشمل جميع الشعب الروسي؟ اعتقد بأن هذا سيحدث، وإن الموعد قريب.

وأود أن اضيف في معرض حديثي عن الخدم، أنني في الأيام الخوالي، عندما كنت في سن الشباب، كنت لا أفتأ اغضب على الخدم (قدمت الطاهية الطعام وهو شديد السخونة، أهمل الخادم تنظيف ملابسي). ولكن فكرة كانت تنير طريقي اقتبستها عن شقيقي الغالي، وكنت قد سمعتها منه في طفولتي، فقد كان يقول: هل أنا جدير بأن يخدمني إنسان آخر، وأن يأتمر بأمري بسبب فقره وجهله؟ وقد تملكني بعدئذ العجب لأن مثل هذه الافكار البسيطة التي لا تحتاج إلى إثبات، قلما تلوح لنا في افكارنا.

يستحيل أن تخلو الدنيا من الخدم، ولكن فليكن سلوكنا يجعل خدمنا أكثر انطلاقاً مما لو لم يكونوا خدماً. وهل غير ممكن أن اكون خادماً لخادمي وأن أجعله يلمس ذلك، بشرط ألا يبدو مني ما ينم عن الكبرياء، فيتحرر هو من المحاذرة والشك؟ ولم لا يكون خادمي كقريبي حتى استطيع

أن أضمه إلى اسرتي وأنا مغتبط بهذا الصنيع؟ إن هذا ممكن منذ الساعة، وسيؤدي إلى وحدة البشر العظيمة في المستقبل، عندما يستغني الإنسان عن الخدم، وتزايله الرغبة في تحويل اقرانه من البشر خدماً له كما يفعل الآن، بل على نقيض هذا، سيتوق بكل جارحة من جوارحه إلى أن يكون خادماً للجميع، وفق تعاليم الإنجيل.

وهل هو مجرد حلم أن يجد الإنسان سعادته في اعمال الهداية والرأفة لا في الملذات البشعة كالجشع والزنى والخيلاء والتباهي والحسد والخصام؟ إنني اعتقد بأنه ليس حلماً، وأن ساعة تحققه اقتربت. إن الناس يسألون ضاحكين: متى تحين تلك الساعة، وهل هناك تباشير على اقترابها؟ اعتقد اننا بمعونة المسيح سننجز هذا الأمر العظيم. وكم من الأفكار كانت تبدو مستحيلة القبول عقلياً قبل ظهورها بعشر سنوات؟ حتى إذا ما حانت ساعتها، انطلقت وانتشرت في جميع انحاء الدنيا، وهذا ما سيحدث لنا، وسيشرق نور شعبنا على الدنيا، وعندها سيقول جميع الناس: إن الحجر الذي رذله البناؤون صار حجر الزاوية في البناء.

أما الساخرون الهازئون فبامكاننا أن نسألهم بدورنا: إذا كان املنا مجرد حلم، فمتى يمكنكم بناء صرحكم واقامة العدل معتمدين على عقولكم فقط بدون معونة المسيح؟ فإذا أجابوا بأنهم هم الذين يتقدمون نحو الوحدة الإنسانية لم يصدق قولهم سوى السذّج منهم بحيث يعجب المرء عجباً شديداً من سذاجتهم. وفي الحقيقة إن الأحلام الخيالية تراود اذهانهم أكثر مما تراود اذهاننا. إن غايتهم العدالة، ولكنهم برفضهم المسيح، سينتهون إلى اغراق الأرض بالدماء، لأن سفك الدم يولّد سفك الدم، والذي يستل سيفه بالسيف يهلك. ولولا ميثاق السيد المسيح لأهلكوا بعضهم بعضاً حتى آخر رجلين على الأرض. وهذان الرجلان الاخيران لن يتمكنا من التفاهم لكبريائهم فيقدم احدهما على قتل الآخر ثم يقتل نفسه. إن هذا ما سيحدث لولا وعد المسيح بوقف المذبحة من أجل الودعاء والمتواضعين.

لقد كان دأبي أن اتحدث عن الخدم في المجتمعات، يوم كنت ما أزال مرتدياً بزة الضباط بعد المبارزة، وإنني أذكر أن الجميع كانوا يدهشون

لأقوالي، ويقولون: «ماذا! أتريدنا أن ندعو خدامنا إلى الجلوس على الارائك ونقدم لهم الشاي»؟ فكنت اجيبهم: «ولم لا، ولو مرة بعد مرة. فكانوا جميعهم يضحكون. لقد كان سؤالهم تافهاً، ولم يكن جوابي واضحاً؛ ولكن المقصود منه ليس خالياً من الصحة.

ز ــ عن الصلاة، والمحبة، ورؤية الحياة الآخرة

أيها الشاب، إياك أن تهمل الصلاة، لأنك كلما صليت، وكانت صلاتك صادقة، فإنها ستولّد فيك شعوراً جديداً ومعنى جديداً، يمنحانك شجاعة جديدة، وستدرك أن الصلاة تهذب الروح. وتذكر أيضاً كل يوم وكلما استطعت، أن تردد بينك وبين نفسك، «ارحم يا رب جميع الذين يمثلون أمامك اليوم». إن آلاف الناس يفارقون الحياة في كل ساعة وكل لحظة، وتصعد ارواحهم لتمثل أمام الله. وما أكثر الذين يقضون منهم في الوحدة، منفردين، بائسين، مكمودين، لأن أحداً من الناس لا يحزن لموتهم ولا يعلم أنهم أحياء أم اموات. واعلم أنك قد تكون في الطرف الآخر من الدنيا، ولكن صلاتك لراحة انفسهم تصعد إلى الله ولو كنت لا تعرفهم ولا هم يعرفونك. إن الروح التي تدعو لها سيكون تأثرها عظيماً عندما تقف الموقف الرهيب أمام الرب وتعلم بأن هنالك من يصلي لأجلها أيضاً، وأنه ما يزال على الأرض مخلوق يحبها ويتشفع لها. وعندئذ تزداد رحمته تعالى عليكما، لأنك إذا كنت اشفقت على تلك الروح، فإن الله سيكون أكثر شفقة لأن محبته ورحمته لا تحدهما حدود. وسيصفح تعالى عن تلك الروح لأجلك.

أيها الأخوان، لا ترهبوا خطيئة الإنسان. أحبوا الإنسان حتى في خطيئته، فبذلك تكون محبتكم كالمحبة الآلهية، وهي أسمى أنواع المحبة على الأرض، احبوا خليقة الله جميعها، اصغرها وأتفهها. أحبوا كل برعم وكل شعاع نور ابدعه الله، احبوا الحيوانات والنباتات وكل شيء على وجه الأرض. لأنكم إذا احببتم كل شيء وقفتم على السر الالهي في اعماقها. وإذا ما حصل هذا مرة، ازددتم ادراكاً له على مر الأيام، وسينتهي بكم الأمر إلى أن تحبوا العالم بأسره محبة شاملة. احبوا الحيوانات لأن الله وهبها عناصر الفكر والفرح

في حالة بدائية بريئة. فلا تعذبوها ولا تضايقوها ولا تحرموها سعادتها، وإياكم ومخالفة مشيئة الله. أيها الإنسان. لا تأخذنك الكبرياء بما وهبت من سمو على الحيوان، فهو بريء من الخطيئة، أما أنت، على الرغم من عظمتك، تدنس الأرض بوجودك عليها، وتخلف وراءك آثار آثامك. وا أسفاه، قد نكون جميعاً كذلك. احبوا الاطفال بوجه خاص، لأنهم بريئون من الخطيئة كالملائكة، إنهم ولدوا فرحة لقلوبنا وتطهيراً لنفوسنا، فكأنهم خلقوا لارشادنا. ويل لمن يسيء إلى طفل من الأطفال! لقد علمني الأب أنفيم محبة الأطفال، فقد كان دأب هذا الإنسان العطوف المتواضع، اثناء تجوالنا، أن ينفق الدراهم الموهوبة لنا، على شراء الحلوى والفطائر لتوزيعها على الاطفال. وما كان في وسعه أن يمر بطفل بدون أن تتأجج عاطفته، تلك كانت طبيعة هذا الإنسان.

إن المرء ليقف حائراً عند بعض الأفكار، ولا سيما عند رؤية خطايا البشر، ويتساءل في نفسه: أنتعامل بالقوة أم بالمحبة الوديعة. اختاروا دوماً المحبة الوديعة. لانكم إذا اخترتم المحبة وتمسكتم بها فقد تستطيعون قهر العالم بأسره. لأن المحبة المقرونة بالتواضع، هي ذات قوة خارقة، بل هي أقوى الأشياء، ولا شيء في العالم يجاريها.

تفقد نفسك وراقبها في كل يوم وكل دقيقة ولحظة، واحرص على أن يكون مظهرك مظهراً يليق بك. فقد تمر بطفل وأنت حاقد شاتم، فيفلت منك كلام سيء؛ وقد لا يسترعي الطفل انتباهك، ولكنه هو يراك، فتنطبع في قلبه الضعيف صورتك البشعة المزرية، فتكون، على غير علم منك، قد بذرت في نفسه بذرة الفساد التي قد تنمو وتترعرع فتشقيه. وما ذلك كله إلا لأنك غفلت عن مراقبة نفسك أمام الطفل، ولأنك لم تتعهد المحبة التي تدفعك إلى الخير.

أيها الأخوان، إن المحبة ترشد الإنسان وتهذبه؛ ولكن ينبغي على المرء أن يعرف كيف يكتسبها فإنها غالية الثمن ولا تكتسب إلا تدريجاً وباستمرار الجهد. المقصود أن تحب دائماً وابداً لا لفترة موقتة ولبرهة من الزمن إذ ما من أحد لا يستطيع أن يحب محبة موقتة، حتى الأشرار.

لقد كان شقيقي يلتمس الصفح من الطيور؛ وقد يبدو للوهلة الأولى أنه

تصرف سخيف إلا أنه لا يخلو من صحة. فالأشياء بمجموعها أشبه ما تكون بالمحيط، وكلها تتدفق ثم تتمازج؛ وإن لمسة في مكان ما من الدنيا تبعث حركة في الطرف الآخر منها. وقد يبدو التماس الصفح من الطيور سخيفاً، ولكنك لو صرت خيراً ممّا أنت الآن، لزادت طمأنينة الطيور إلى جانبك - وهي زيادة طفيفة على أية حال - وهذا هو شأن الأطفال وجميع الحيوانات أيضاً. اعود فأقول لكم إن الاشياء بمجموعها أشبه ما تكون بالمحيط. وإذا ما أدركتم ذلك استغفرتم الطيور انتم أيضاً، وقد غمرتكم موجة محبة عامة شاملة، تدنو من الهيام، وتلتمسون منها أيضاً أن تغفر لكم خطاياكم. اكنزوا هذه النشوة، ولا تخشوا حكم الناس عليكم بالجنون.

أيها الأصدقاء، اسألوا الله الفرح وابتهجوا كالأطفال وكطيور السماء ولا تجعلوا خطايا الناس تربككم في اعمالكم. ولا تخشوا أن تفشلها هذه الخطايا أو أن تعطّل انجازها، لا تقولوا في نفوسكم إن الخطيئة جبارة، والشر قوي والبيئة الشريرة مسيطرة ونحن وحيدون لا حول لنا ولا قوة، وإن البيئة الشريرة تقوى علينا فتمنعنا عن عمل الخير، إياكم واليأس أيها الابناء! إن سبيل الخلاص واحد لا ثاني له ألا وهو أن نتحمّل مسؤولية خطايا جميع الناس، هذه هي الحقيقة، كما تعلمون أيها الاصدقاء، لأنكم بمجرد أن تجعلوا أنفسكم مسؤولين عن كل شيء، وعن جميع الناس، بصدق واخلاص، تدركون أنكم مسؤولون حقاً، وأن الملامة تلحق بكم فعلاً لا وهماً وتصوراً. أماإذا ألقيتم خمولكم وضعفكم على الآخرين فسيفضي بكم الأمر إلى مشاطرة إبليس كبرياءه وتمرده على إرادة الله.

أما تصوري لكبرياء ابليس فهو: أنه من العسير علينا نحن ابناء الدنيا أن نقف على معناه الحقيقي، ولذلك فإنه من اليسير أن نقع في الخطأ ونشاطره إياها، بل إننا نفعل ذلك متخيلين أننا نأتي شيئاً رائعاً جميلاً، والحقيقة هي أننا لا نستطيع أن نلمّ بالكثير من المشاعر والتأثرات في حياتنا الأرضية، ولكن حذار أن تجعلوا من هذا عقبة في سبيلكم، واياكم والاعتقاد بأنه قد يصلح لتبرير أي شيء. لأن الديان الأزلي يحاسبكم على ما تستطيعون ادراكه، لا على ما يفوق إدراككم. وستعرفون هذه الأمور بانفسكم فيما بعد، فلن

تناقشوها من بعد أن تنكشف لكم حقيقتها. والواقع هو أننا كما نبدو على الأرض قد ضللنا سواء السبيل، ولولا أن صورة المسيح الكريمة امامنا، لقضي علينا نهائياً وكان مصيرنا الهلاك، كما حدث للجنس البشري قبل الطوفان. إن الكثير مما على الأرض ما زال خافياً علينا، ولكننا أوتينا مقابل ذلك معرفة جليلة بالصلات التي تربطنا بالعالم الآخر، السماوي الأفضل وإن جذور افكارنا ومشاعرنا إنما تضرب في العالم الآخر لا في هذا العالم، ولهذا السبب يقرّر الفلاسفة أننا لا نستطيع أن ندرك حقيقة الأشياء على الأرض.

لقدأخذ الله تعالى بذوراً من عوالم أخرى وبذرها في هذه الأرض، فازدهرت حديقته ونما فيها كل ما كان قادراً على النمو، إلا أن الموجودات التي نمت لا تبقى حية إلا عن طريق الشعور بالصلة التي تربطها بالعوالم الأخرى الغامضة. وهذا الشعور إذا اعتوره فيكم الضعف أو انطفأت شعلته، فإن النمو السماوي فيكم ستخبو شعلته. وعندئذ لا تبالون بالحياة بل ينمو فيكم شعور الكراهية لها. ذلك هو رأيي.

ح ــ هل يستطيع الإنسان أن يدين غيره من الناس؟ إيمان لا نهاية له

تذكروا بوجه خاص أنكم لا تستطيعون أن تدينوا احداً. لأنه ما من أحد يستطيع أن يدين مجرماً حتى يتبين له أنه لا يقل اجراماً عن الإنسان الماثل أمامه، وإنه ربما كان الملوم أكثر من سائر الناس عن جريمة هذا الجاني. فإذا ادرك ذلك، استطاع عندئذ أن يدينه. ومع أن هذا القول يبدو لغواً فإنه الحقيقة بعينها. فلو كنت أنا نفسي مستقيماً، فقد لا يمثل أمامي أي مجرم. وإذا استطعت أن تلقي على عاتقك جريمة المجرم الذي يدينه قلبك، فألقها حالاً، واقبل أن تتعذب بدلاً عنه، واصرفه بدون تأنيب. وحتى إذا نصّبك القانون قاضياً عليه، فتصرف بهذه الروح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، لأنه سينصرف ويحكم على نفسه حكماً أقسى من إدانتك. أما إذا انصرف وهو يقابل صنيعك بعدم الاكتراث والسخرية، فلا تجعل الأمر يثنيك عن عزمك. فإن هذا

الموقف يظهر أن ساعته لم تحن بعد، ولكنها ستحين في الوقت المناسب. وحتى إذا لم تحن هذه الساعة، فلا تبتئس لذلك؛ لأنه إذا لم يفهم ويتألم، ولم يدن نفسه ويحكم عليها، فإن إنساناً غيره سيحل محله ويفعل ذلك وتتأكد الحقيقة أخيراً. صدقوا ما أقول، صدقوه بدون أية ريبة؛ لأن هذه الحقيقة هي عماد الأمل وإيمان القديسين.

ثابر على العمل بدون كلل أو ملل. وإذا تذكرت وأنت في سريرك تستعد للنوم، أنك لم تفعل ما كان ينبغي عليك أن تفعله، فانهض لتوك وتدارك ما فاتك. وإذا كان الناس من حولك حقودين غلاظ القلوب ويأبون الإصغاء إليك، فاركع أمامهم واستغفرهم، لأنك في الحقيقة أنت الملوم على عزوفهم عنك. وإذا لم تستطع أن تكلمهم بسبب قسوتهم، فاخدمهم بصمت ووداعة، ولا تيأس. وإذا انصرف عنك جميع الناس بل طردوك بالقوة، فاسجد على الأرض وقبلها عندما تخلو إلى نفسك، وبللها بدموعك، فهذه الدموع ستؤتي ثمراً حتى ولو لم يرك أحد أو يسمعك في وحدتك. حافظ على إيمانك حتى النهاية، حتى ولو ضل جميع الناس سواء السبيل، وبقيت أنت وحدك مؤمناً؛ ثابر عل تقديم القربان وسبح بحمد الله ولو وحيداً وإذا التقيت بآخر واجتمعتما في مكان واحد، فإنكما تؤلفان عالماً بأكمله، عالماً من المحبة الحية، فتتعانقان وتسبحان بحمد الله، لان حقيقته تعالى تكون قد تأكدت ولو فيكما وحدكما. وإذا حصل أنك اخطأت أنت فأخذك النوم المرهق والقلق المعذب، بسبب خطاياك أو خطيئتك المفاجئة، فاغتبط عندئذ بإنسان آخر ما زال مستقيماً، اغتبط لأنك وإن كنت قد اخطأت، فإنه ظل مستقيماً ولم يقترف خطيئة من الخطايا.

وإذا اثارت شرور الناس فيك استياءً، وسببّت لك كآبة عظيمة، إلى حد تمني الانتقام من الأشرار، فانبذ هذا الشعور قبل أي شيء آخر. اذهب حالاً والتمس العذاب لنفسك، كأنك أنت المسؤول عن جرائمهم: تقبل العذاب وتحمّله وسيجد قلبك راحة في ذلك، وسوف تدرك أنك آثم أنت أيضاً، لأنك ربما كنت قادراً على هدايتهم بوصفك الإنسان الوحيد الذي لم يخطىء، إلا أنك لم تفعل. فلو أنك كنت نبراساً، لأنرت سبل آخرين أيضاً، وربما استطاع

فاعل الشر أن ينجو من خطيئته بنورك. وقد يحدث فعلاً أن تكون نبراساً وترى الناس لا يقتدون بنورك، فاثبت على إيمانك ولا يراودنّك الشك في قوة النور السماوي، وكن واثقاً بأنهم إذا لم يخلصوا، فسيكتب لهم الخلاص فيما بعد، وإذا لم يكتب لهم ذلك، فإن أولادهم سيخلصون، لأن نورك لا يموت بموتك. إن الإنسان الصالح قد يموت ويبقى نوره حياً. والناس دائماً ينبذون انبياءهم ويقتلونهم، ولكنهم يحبون شهداءهم ويكرمون الذين قتلوهم بأيديهم. اعمل للإنسانية وللمستقبل، ولا تنشد مكافأة، لأن مكافأتك في هذا العالم كبيرة، وهي البهجة الروحية التي لا توهب سوى للصالحين. لا تخشى العظماء والجبابرة، بل تحل بالحكمة والهدوء المستمر. اعرف المقاييس والأزمنة وتعلّمها، وصلّ كلما كنت وحدك. ينبغي عليك أن تحب الجثو على الأرض وتقبيلها، أحب الأرض وقبلها بمحبة متقدة لا انقطاع لها. احب جميع الناس وكل شيء. انشد هذه السعادة والنشوة، بلل الأرض بدموع فرحك وأحب هذه الدموع، لا تخجلنك هذه النشوة، بل اعتز بها، لأنها هبة الله وإنها لهبة عظيمة؛ وهي لا توهب إلاّ للمختارين فقط.

ط ــ عن جهنم ونار الجحيم، تأمل صوفي

أيها الآباء والمعلمون، إنني لا أفتأ أفكر «ما هو الجحيم؟» ورأيي أنه عذاب ناتج عن عدم قدرة الإنسان على أن يحب. فالمخلوق الروحي، عندما كان ذا كيان غير محدود بالمكان والزمان أتيح له إذ أصبح على الأرض، القوة لأن يقول: «إنني موجود وأحب». ولمرة واحدة، مرة واحدة فقط، منح قبساً من المحبة الحية المتقدة، ومن أجل ذلك القبس وهبت له الحياة الأرضية، ووهب معها الازمنة والفصول. ولكن ذلك المخلوق المنعم عليه، رفض الهبة التي لا تقدر بثمن، فلم يقدرها ولم يحبها، بل ازدراها وفضل أن يكون غليظ القلب. ومثل هذا الإنسان، بعد أن يفارق الحياة، يرى حضن إبراهيم ويتحدث إليه كما جاء في رمز الغني والعازر. إنه يرى النعيم ويعلم أنه سيصعد إلى الرب. ولكن هذا مما يضاعف عذابه، لأنه يصعد إلى الرب بدون أن يكون قد مارس المحبة، ويقترب من الذين احبوا وهو الذي كان يحتقر

محبتهم. إنه الآن يرى ويدرك كل شيء ويقول في نفسه: إنني الآن مدرك، ومع أنني ظامىء للمحبة، فإن محبتي لن يكون فيها شيء عظيم أو تضحية، لأن حياتي على الأرض قد انقضت، ولن يأتي إبراهيم ومعه قطرة من ماء الحياة (وهذه هي هبة المحبة الدنيوية المتقدة) لكي يخفف من حرارة ظمأي إلى المحبة الروحية التي تتقد الآن في نفسي مع أنني ازدريتها على الأرض؛ لقد انصرم حبل حياتي ولن يكون أمامي مزيد من وقت! إنني أود أن اهب حياتي إلى الآخرين بكل سرور إلا أنه غدا مستحيلاً علي أن أفعل ذلك، لأن تلك الحياة التي أريد أن اضحي بها من أجل المحبة قد انقضت، وثمة هوة سحيقة بيني وبينها تفصلنا إلى الأبد.

إنهم يتحدثون عن نار الجحيم بالمعنى المادي. إنني لا أود خوض هذا السر الذي أكرهه بقدر ما يرعبني. ولكنني اعتقد بأنه لو كانت هذه النيران محسوسة مادية لسروا بها، لأن عذابهم الجسماني ينسيهم لبرهة من الزمن عذابهم الروحي الأعظم. وفضلاً عن ذلك فإن ذلك العذاب الروحي لا يمكن تجنيبهم إياه، لأنه ليس عذاباً من خارج، بل هو في داخلهم. واعتقادي أنه لو تم هذا التجنب فإن شقاءهم سيكون أشد، لأنه حتى لو صفح عنهم الصديقون في الفردوس، بعدأن يلمسوا عذابهم، ودعوهم للصعود إليهم بدافع من محبتهم التي لا حدود لها، فإنهم بهذا يضاعفون عذابهم، لانهم يبعثون في نفوسهم ظمأ ملتهباً أشد من سابقه للمحبة المتقدة والعرفان بالجميل، وهو الأمر الذي غدا مستحيلاً عليهم. وإنه ليخيل إلي على أية حال أن للإعتراف بهذه الاستحالة أخيراً قدرة على التخفيف عنهم، لأنهم بقبولهم محبة الصديقين مع استحالة وفاء ثمن هذه المحبة، بهذا الخضوع وهذه المذلة، سيحرزون في النهاية مثيلاً ما لتلك المحبة التي ازدروها على الأرض، فهم فقط يحققون شبيهاً لمظهرها الخارجي.. يؤسفني، أيها الاصدقاء والأخوان، أنني لا استطيع أن أعبر عن هذا بوضوح. ولكن ويل للذين يفتكون بأنفسهم على الأرض، وبل للمنتحرين. أحسب أن لا أحد يمكن أن يفوقهم شقاء وتعاسة. ويقال لنا إن الصلاة لأجلهم خطيئة، والكنيسة كما هي الحال الآن، تنفض يدها منهم، ولكنني أميل في قرارة نفسي إلى امكانية الصلاة لأجلهم. إن المحبة لا يمكن

أن تكون اساءة للسيد المسيح. ولا اكتمكم، أيها الآباء والمعلمون، أنني صليت لاولئك المنتحرين طوال حياتي وما زلت حتى الآن أصلي لأجلهم.

وهنالك نفر تظل الكبرياء والقسوة مستبدة بهم حتى في الجحيم، على الرغم من معرفتهم الاكيدة للحقيقة الثابتة وتأملهم فيها، وهنالك بعض الذين استبد بهم الخوف فانقادوا كلياً إلى ابليس وساروا في عصيانه. إنهم يقبلون الجحيم بعذابه الأبدي، وهم يتعذبون بمحض اختيارهم، إذ انهم لعنوا أنفسهم مجدفين على الله والحياة. لقد عاشوا معتمدين على كبريائهم الداعية للانتقام فكانوا أشبه بإنسان جائع في الصحراء يمتص الدم من جسمه. إن غليلهم لن يشفى قط ويأبون الغفران، ويجدفون على الله الذي يناديهم. وهم حين يشاهدون الله الحي لا يستطيعون إلاّ أن يشعروا بالكراهية، ويصرخون قائلين إن إله الحياة يجب أن يفنى، وإن الله يجب أن يهلك نفسه وخليقته. إنهم سيحترقون في نار حقدهم إلى الأبد. وهم يتمنون الموت، ولكنهم لن يعطوه.

تنتهي هنا مذكرات الكسي فيودوروفيتش كرامازوف. واعود فأقول أنها ليست تامة ولا متتابعة فما اتصل بسيرة حياة الأب زوسيما مثلاً، لا يتناول سوى السنوات الأولى من شبابه، أما بصدد تعاليمه وآرائه فإننا نجد اقوالاً، كما يتضح للقارىء، تفوه بها في مناسبات متفرقة، وصهرت في هذه المذكرات. والاقوال التي تفوه بها خلال الساعات القليلة الاخيرة لم تسجل في مكان مستقل عن بقية اقواله، ولكن يمكننا أن نستخلص صفاتها العامة من تعاليمه التي استخلصها الكسي فيودوروفيتش.

وأخيرا وافت المنية الناسك على حين غرة. ومع أن الذين اجتمعوا حوله في تلك الامسية الأخيرة من أيام حياته كانوا يدركون أن وفاته وشيكة، إلا أنه لم يكن ممكناً التنبوء بأنها ستحدث بذلك الشكل المفاجىء وكما سبق أن قلت، فإن الأمر كان على نقيض هذا. لقد بدا لأصدقائه في تلك الليلة أنه منشرح النفس ميال إلى الكلام، فاعتقدوا أن تحسناً طرأ على صحته ولو كان مؤقتاً. ولقد قالوا فيما بعد مستغربين أنه كان من العسير التنبؤ بوفاته حتى قبل وقوعها بخمس دقائق فقط. لكنه بدا عليه فجأة أنه أحس بألم حاد في صدره، فشحب لونه وأخذ يضغط بيديه على قلبه. نهضوا جميعاً من مقاعدهم وهرعوا

إليه. وبرغم ألمه، فقد ظل ينظر إليهم مبتسماً، ثم أخذ ينزلق تدريجياً من مقعده جاثياً على ركبتيه، ثم خر على الأرض وبسط ذراعيه كما لو كان في نشوة عارمة، وفيما هو يصلي ويقبل الأرض لفظ انفاسه الأخيرة بفرح هادىء.

انتشر نبأ وفاته حالاً في الصومعة وبلغ الدير. وبادر أقرب اصدقائه إليه، والمختصون، بحكم مراكزهم، في اعداد الجثة، وشرعوا في تسجيتها بحسب الطقوس القديمة، وتجمع جميع الرهبان في الكنيسة. وقبل أن ينبثق فجر اليوم التالي كان نبأ الوفاة قد بلغ المدينة، ومع ساعات الصباح الأولى كان نبأ وفاته يتردد على السنة الجميع، وأخذت الجماهير تتقاطر من المدينة على الدير. سأعود إلى هذا الموضوع في الباب المقبل؛ وحسبي الآن أن اضيف أنه قبل أن ينقضي ذلك اليوم كان قد حدث شيء مباغت غريب مقلق ومحير كان له من الأثر في نفوس الرهبان وأهل المدينة، أن ذكراه ما تزال عالقة بأذهان أهل المدينة حتى بعد انقضاء تلك الأعوام العديدة.



الباب السابع

اليوشا

الرائحة الـخبـيثة

تمّ تحضير جثمان الأب زوسيما للدفن حسب الطقوس المقررة. ومن الأمور المعروفة لدى العام والخاص أن أجساد المتوفين من الرهبان والنساك لم تكن تغسل. وتقضي طقوس الكنيسة بخصوص ذلك: إذا لبّى راهب نداء ربه، فعلى الراهب المختص (أي الموكول إليه تهيئته) أن يمسح الجثة بالماء الدافىء، بعد أن يرسم شارة الصليب بقطعة من الاسفنج على جبين المتوفى، وعلى صدره، ويديه وقدميه وركبتيه وفي هذا الكفاية. وقد تولى كل هذه الأمور الأب بيسي بنفسه ثم ألبس المتوفى ثوب الدير ولفه بجلبابه الذي شق طولاً كما قضت العادة ليكون على شكل صليب. ووضع على رأسه قناعاً رسم عليه صليب مثمن الزوايا. وقد ترك القناع مفتوحاً لجهة الوجه الذي غطي بنسيج رقيق أسود. ووضعت في يدي الجثة ايقونة رسمت عليها صورة المخلص. وعند الصباح سجي في التابوت الذي كان قد أعد منذ زمن بعيد. وقد توافقوا على ترك التابوت طول اليوم في الغرفة الكبيرة التي اعتاد الناسك أن يستقبل فيها زواره ورفاقه من الرهبان. ولما كان المتوفى كاهناً وراهباً ينتمي إلى الفئة المتزمتة في تنفيذ قوانين الدين، فقد كان على الرهبان أن يتلوا الإنجيل لا المزامير فوق جثمانه وقد شرع الأب يوسيف في القراءة فور انتهاء صلاة الرحمة. ورغب الأب بيسي فيما بعد أن يقرأ الإنجيل ليل نهار فوق جثة صديقه المتوفى، ولكنه في هذا الوقت كان منهمكاً مع الأب رئيس الصومعة انهماكاً عظيماً، فإن أمراً خارقاً وقع، وحدث قلق واضطراب «غير لائق» في صفوف الرهبان وزوار مضافات الدير وجمهرة الناس الذين تقاطروا على الدير من المدينة، وكان ما حصل يتفاقم مع مرور الوقت. وبذل الأب رئيس الصومعة والأب بيسي أقصى جهودهما للجم ذلك الإضطراب والقلق.

وفي ضحوة النهار أخذ بعض الناس يجلبون إلى الصومعة مرضاهم من المدينة ـ أكثرهم من الأطفال ـ وكأنهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة بالذات لكي يفعلوا ذلك. وكان جلياً أنهم يعتقدون بأن في جثمان الناسك، إنما تكمن معجزة الشفاء، وإن هذه المعجزة كما كانوا يؤمنون لا بد وأن تحدث فوراً. ولقد بدا جلياً مقدار إيمان جميع الناس في مدينتنا بأن الأب زوسيما كان في حياته قديساً عظيماً ولم يكن جميع الذين اتوا من الطبقات الشعبية الفقيرة.

ولقد كان هذا الترقب العظيم من قبل المؤمنين الذي اتخذ شكل التسرع والصراحة بل وعدم التصبر والالحاح، من الأمور التي عدها الأب بيسي بعيدة عن الأدب واللياقة. ومع أنه كان منذ زمن بعيد ينتظر حدوث مثل هذا التوقع، فإن الذي حدث الآن كان اعظم بكثير مما كان يتصوره. وعندما كان الأب بيسي يمر بأحد من الرهبان ويلمح في وجهه آيات الاضطراب، كان يؤنبه على ذلك قائلاً: إن ترقب مثل هذه المعجزة يدل على طيش يمكن أن يصدر عن ابناء الدنيا ولا يليق بالرهبان.

لم يكن هؤلاء يولونه إلا القليل من الاهتمام، وكان هذا مدعاة لقلق الأب بيسي. ومع ذلك فقد كان هو نفسه (وهذه حقيقة نعترف بها إذا توخينا الصدق) يكاد من أعماق قلبه يأمل أن يتحقق نفس ما كان يراود ضمائر الناس، ولم يكن بقادر على أن يخفي ذلك عن نفسه، ولو أنه استاء من تصرفات المحيطين به، اضافة إلى شعوره بنفور عظيم من مقابلة أشخاص معينين أثار وجودهم في نفسه الشكوك العظيمة. فقد لاحظ بين الجمع المحتشد في غرفة الرجل المتوفى، وهو يشعر بنفور داخلي، (ما لبث أن لام نفسه عليه) وجود راكيتين والراهب القادم من أويدورسك الذي كان لا يزال مقيما في الدير. لقد أثارا في نفس الأب بيسي الشكوك لسبب ما مع شعوره بنفس هذه الشكوك تجاه المشبوهين من الآخرين.

وقد ظهر للعيان أن الراهب القادم من أويدورسك كان أكثر الجميع حركة واضطراباً. فقد كان يرى دائم التنقل في كل مكان؛ مستطلعاً أو مصغياً لاقوال الناس، وينثر همساته أنى سار بشكل غريب مريب. وكانت ملامح وجهه تنطق باعظم آيات القلق بل وبنفاد الصبر لتأخر حدوث ما يتوقعه.

أما فيما يتعلق براكيتين فقد اتضح فيما بعد أنه قدم إلى الصومعة في تلك الساعة المبكرة بناء على طلب خاص من السيدة خولاكوف إذ أن هذه السيدة الطيبة القلب الضعيفة العقل، التي لم يكن دخولها إلى الصومعة، مقبولاً لم تكد تستيقظ من نومها وتسمع بنبأ وفاة الأب زوسيما حتى تملكها فضول عظيم فبادرت إلى إرسال راكيتين إلى الصومعة لكي يرقب ما يجري فيها مراقبة دقيقة ويبعث إليها برسالة، كل نصف ساعة يشرح لها فيها «كل ما قد يحدث». وكانت ترى في راكيتين فتى عظيم التقى والاخلاص، وكان هو حاذقاً في الحظوة برضى الناس والاتيان بما يوافق أذواقهم، إذا آنس في ذلك أقل نفع له.

كان اليوم مشمساً صافياً، وقد أخذ الكثيرون يتجمعون بين القبور التي كانت متراصة حول الكنيسة ومتناثرة حول الصومعة. وبينما كان الأب بيسي يطوف بالصومعة، تذكر اليوشا، وتذكر أنه لم يبصره منذ الليلة السابقة. وإذا هو يذكره، فإذا به يبصره عند الطرف القصي من حديقة الصومعة، جالساً على ضريح راهب اشتهر منذ زمن بعيد بقدسيته. وكان مديراً ظهره إلى الصومعة ومولياً وجهه شطر الجدار وبدا مختبئاً خلف شاهد القبر. وعندما اقترب الاب بيسي منه الفاه يذرف الدموع الحرى صامتاً، وقد أخفى وجهه بين راحتيه وجسمه يهتز من البكاء. انتظر الأب بيسي واقفاً برهة قصيرة ثم خاطبه قائلاً: كفاك يا ولدي العزيز، كفاك يا عزيزي. لماذا تبكي؟ يحق أن تبتهج لا أن تبكي. ألا تعلم أن هذا اليوم هو أعظم أيامه؟ يكفي أن تفكر أين مكانه الآن في هذه اللحظة!

تطلّعه اليوشا بعد أن أزاح يديه عن وجهه المحتقن لشدة البكاء كوجوه الاطفال، ولكنه سرعان ما أشاح بوجهه عنه دون أن ينطق بكلمة واحدة وعاد إلى اخفاء وجهه بيديه.

فقال الأب بيسي ساهماً: ربما هون البكاء عليك؛ فابك إذا كان لا بد من البكاء، فإن الله هو الذي أرسل إليك هذه الدموع.

ثم تمتم وهو يبتعد عن اليوشا، عطفاً وحنوا عليه: إن دموعك الحرى ما هي إلا راحة لروحك، وستؤدي إلى إشاعة السرور في قلبك الحبيب. واسرع

في سيره لأنه شعر بوشوك انفجار دموعه هو الآخر.

أخذ الوقت يمضي مسرعاً؛ واديت خدمات الدير الدينية، ثم تبعتها تلاوة صلاة الميت في الوقت المعين. وعاد الأب بيسي فاخذ مكان الأب يوسيف عند التابوت وطفق يتلو الإنجيل. ولكن قبل أن تحل الساعة الثالثة من بعد الظهر وقع ذلك الشيء الذي المحت إليه في نهاية الباب السابق، ولم يكن ذلك الشيء متوقعاً بالنسبة لجميع الناس وجاء مخيباً لآمالهم. إن ذلك الحادث التافه ما زال يذكره الناس بجميع دقائقه حتى هذا اليوم في مدينتنا وما جاورها كما سبق أن ذكرت. وأود أن أضيف هنا بصفة شخصية، بأنني أشعر بالامتعاض إذ اشير إلى ذلك الحادث الذي سبب مثل ذلك الاضطراب السخيف، وكان حجر عثرة في طريق الكثيرين، مع أنه في الحقيقة كان شيئاً طبيعياً وأمراً تافهاً. وكان يمكنني حقاً أن اتجنب الاشارة إليه مطلقاً في سياق قصتي لولا أنه أحدث اثراً عظيماً في قلب وروح البطل الرئيس في الفصول التالية من قصتي، عنيت اليوشا. لقد تسبب ذلك بأزمة لأليوشا ونقطة تحول في تطوره الروحي واحدث هزة في قوته الذهنية، مما كان سبباً في زيادتها في نهاية الأمر وجعل هذه القوة تلازمه بقية حياته، وترسم لها هدفاً معيناً.

والآن لنعد إلى قصتنا. عندما سجي جثمان الأب زوسيما في تابوته قبل الفجر ونقل إلى الغرفة الامامية، تساءل أحد الموجودين عن استحسان فتح النوافذ، غير أن اقتراحه العرضي الذي طرحه بما يشبه الخجل لم يلق جواباً وكأنه لم يكن. ولعل الذين سمعوه لاحظوا ذلك في دخيلة أنفسهم، غير أن مجرد التفكير في امكانية تفسخ وفساد جثة قديس كهذا، كان سخيفاً إلى حد يستحق معه الشفقة (أو ابتسامة الاستخفاف) على قلة الإيمان وعلى ما تتضمنه من تفاهة. أليس المتوقع هو شيء مناقض تماماً؟

وبعد الظهر بقليل، ظهرت دلائل شيء ما وقد لوحظت هذه الدلائل في بدء الأمر بصمت من قبل اولئك الذين كانوا يدخلون إلى الغرفة ويخرجون منها. وبدا كأن كل واحد منهم كان خائفاً أن يحدّث بها فكتمها في نفسه. ولكن ما كادت الساعة تبلغ الثالثة حتى بدت هذه الدلائل واضحة لا سبيل إلى الشك في وجودها، وانتقلت انباؤها بسرعة البرق إلى جميع الرهبان وزوار

الصومعة، وتسربت إلى الدير فأصابت الدهشة جميع الرهبان. وفي مثل لمح البصر انتقلت الأنباء إلى المدينة فاحدثت اضطراباً في نفوس الجميع، المؤمنين منهم والملحدين. أما الملحدون فقد ابتهجوا، وأما المؤمنون فمنهم من كان ابتهاجه أكثر من ابتهاج الملحدين لأن «الانسان يحب أن يبصر تردي ذي الصلاح والاستقامة وتلطخه بالعار» كما قال الناسك المتوفى في إحدى نصائحه.

أما حقيقة الأمر فهي أن رائحة التفسخ بدأت تتصاعد من التابوت، وتزداد ساعة بعد ساعة، فلما اشرفت الساعة على الثالثة لم يكن هنالك من سبيل إلى انكارها. إن الناس لا يذكرون حدوث فضيحة كهذه في تاريخ صومعتنا كله، ولم يكن بالإمكان حدوث مثلها في أي ظرف آخر بالشكل المزري الذي حدثت فيه، بعد أن اكتشفها الرهبان أنفسهم، ولم يكن بعض الرهبان العاقلين يتمالكون أنفسهم بعد ذلك لسنوات كثيرة من الدهشة والفزع، عندما كانوا يذكرون ذلك اليوم ويرون كيف أن تلك الفضيحة قد بلغت ذلك الحد من القبح. لقد سبق أن توفي الكثيرون من الرهبان المعروفين بمخافة الله والطهارة، وغيرهم المعترف بقدسيتهم من قبل جميع الناس، ومع ذلك فقد تصاعدت الرائحة الخبيثة من توابيتهم البسيطة، كما يحدث بطبيعة الحال لجميع الأموات، ولكن ذلك لم يحدث فضيحة، ولم يؤد إلى أي اضطراب. والحق أن الناس ما زالوا يتذكرون أنه كان في الدير منذ سنين بعيدة قديسون تواترت الاخبار أنهم لم تظهر على جثثهم بعد موتهم دلائل التفسخ وقد كان الرهبان يرون في هذه الحقيقة أمراً مؤثراً غامضاً، وكانت الروايات المتوارثة عنها تحفظ كأشياء مقدسة تبلغ حد الاعاجيب. وكانوا يؤمنون بأن الله قد وعد بتحقق المزيد من المجد من قبورهم.

من هؤلاء القديسين أيوب الذي كان الرهبان يقدسون ذكراه تقديساً عظيماً، لقد عاش مائة وخمس سنين واشتهر هذا الراهب بالتقشف. وشدة المحافظة على رياضة الصوم والصمت. وقد مات في بداية القرن التاسع عشر وكان يشار إلى قبره لجميع الزوار عند وصولهم، باحترام عظيم مع تلميح مبهم إلى الآمال العظيمة المرجوة منه. (وكان هذا هو نفس القبر الذي وجد

الأب بيسي، اليوشا جالساً فوقه في الصباح). ومن الذكريات المقدسة في الدير أيضاً ذكرى الأب فارسونوفي الشهير، الذي كان قد توفي منذ أمد قريب وخلفه الأب زوسيما في منصبه كناسك للدير، وقد كان جميع زوار الدير يقدسونه طول حياته ويرون فيه قديساً معتوهاً. وتقول الروايات المتوارثة عن كل من هذين الراهبين أنه بدا في تابوته كحي نائم، ودفن دون أن يكون جثمانه قد فسد، بل أن وجهه كان يشع منه نور قدسي، حتى إن بعض الناس كانوا يؤكدون بأن رائحة عطرة كانت تنبعث من رفاته.

ومع ذلك، وبالرغم من هذه الذكريات المقدسة، فقد كان من العسير شرح أسباب السخافة والخفة والحقد التي ظهرت حيال تابوت الأب زوسيما. ورأيي الشخصي هو أن هناك اسباباً عدة مختلفة كانت تتآلف لتصب في موقع واحد. ومن هذه الأسباب العداء المستحكم بين نظام النساك وبين عدد كبير من الرهبان الذين يكنون له الكراهية ويعتبرونه بدعة هدامة. وهناك سبب آخر لعلّه الأهم وهو حسد الرهبان من قدسية الناسك التي توطدت اركانها طيلة حياته حتى اصبحت المجادلة فيها من الأشياء المحظورة. فمع أن الرجل المتوفى كان قد استمال إليه قلوباً كثيرة عن طريق المحبة أكثر منه عن طريق الإتيان بالاعاجيب، وجمع حوله الكثيرين من الاشياع المحبين، فإنه في الحقيقة أوجد حساداً له ما لبثوا أن أصبحوا اعداء ألداء في السر والعلن، ليس في الدير وحده بل وفي العالم الخارجي أيضاً. ولم يكن الناسك قد الحق باحد أي أذى، ولكن خصومه كانوا يتساءلون قائلين: لماذا يتوسمون فيه القدسية إلى هذا الحد؟ وكان التكرار المتواصل لهذا السؤال كفيلاً بايجاد كراهية عظيمة لا حد لها في نفوس اولئك الخصوم. إن هذا في اعتقادي كان سبب البهجة الطاغية التي ملأت قلوب الكثيرين عند انتشار رائحة التفسخ من جثة الأب زوسيما بمثل هذه السرعة، ولما ينقض يوم على وفاته. أما الاشخاص الذين كانوا حتى تلك اللحظة يجلون الناسك أجلالاً عظيماً فاعتبروا الحادث إهانة قاتلة لهم فكانت صدمتهم قوية. وفيما يلي وصف ما حدث من أمور.

ما كادت رائحة التفسخ تأخذ في الانتشار، حتى أصبحت هيئة الرهبان

تدل بسهولة على الدوافع الخفية التي كانت تحفزهم لدخول الغرفة. فكانوا يدخلون إليها ويمكثون برهة من الزمن ثم يسرعون في الخروج ليثبتوا النبأ لجمهرة الرهبان المتجمعين في الخارج. وكان بعض هؤلاء يهزون رؤوسهم حسرة، أما الآخرون فكانوا غير مهتمين باخفاء بهجتهم التي بدت واضحة في نظراتهم الحاقدة. ومن الغريب أنه ما من إنسان أنبهم على ذلك، أو رفع صوته بالاحتجاج، مع أن معظم الرهبان كانوا مخلصين للناسك المتوفى. ولكن ظهر كأن الله هذه المرة أراد أن يعلي رأي الاقلية إلى حين. وسرعان ما أخذ الزوار من خارج الدير، وخاصة من كان منهم ينتمي إلى الطبقة المتعلمة، يدخلون إلى الغرفة، إما بدافع الفضول أو لنقل الخبر إلى غيرهم. أما الفلاحون فقليلون منهم دخلوا إلى الغرفة، وبقيت جموع غفيرة منهم محتشدة عند باب الصومعة. وبعد الساعة الثالثة ازداد تدفق الزوار القادمين من خارج الدير، وكان هذا الازدياد ولا شك عائداً إلى ذيوع النبأ الفاضح. وجاء إلى الصومعة زائرون ما كانوا لولا هذه الانباء ليأتوا إليها بمناسبة وفاة الناسك، أو يودون المجيء، ومنهم اصحاب مراكز كبيرة غير أن هؤلاء لم يتخلوا عن أدبهم الخارجي، وظل الأب بيسي يتلو آيات الانجيل بصوت ثابت مرتفع، وقد تجهم وجهه وكأنه لم يكن يلاحظ ما كان يدور حوله، مع أنه في الحقيقة قد لاحظ منذ بعض الوقت أن امراً غير عادي قد حصل. وأخيراً اخذت أصوات التذمر التي كانت خافتة، ترتفع تدريجياً، حتى بلغت مسامع الأب بيسي وها هو يسمع أحدهم يقول: «إن هذا يدل على أن حكم الله هو غير حكم الإنسان». إن الذي تفوّه بهذه العبارة موظف عجوز في المدينة اشتهر بشدة التقوى. غير أن ما قاله علنا لم يكن جهراً بما كان الرهبان يرددونه همساً منذ مدة طويلة. فقد انهمكوا قبل ذلك بفترة طويلة في البحث للوصول إلى هذا القرار. والأنكى من هذا أنهم كانوا يفصحون عن قرارهم هذا وعلامات الانتصار تتزايد وضوحاً في وجوههم مع مرور كل دقيقة. وسرعان ما اخذوا يطرحون جانباً مظاهر الادب الخارجية وهم يكادون يشعرون بأن من حقهم التخلي عنها.

وقد قال بعض الرهبان في أول الأمر وهم يصطنعون مظهر الحزن: كيف أمكن حدوث مثل هذا الأمر، فقد كان هيكله ضئيلاً ولحمه ملتصقاً

بعظامه، فماذا كان في جسمه من الاشياء القابلة للتلف؟

فيسارع آخرون إلى الجواب: لا بد وأن ما جرى تأكيد على عدم رضى الرب. وقبل رأيهم هذا بدون أي احتجاج. لأنه لو كان التفسخ طبيعياً كما يحدث لجميع الموتى من الخاطئين، فإن ذلك لا بد وأن يحدث بعد انقضاء اربع وعشرين ساعة على الاقل. غير أن هذا التفسخ السابق لأوانه كان، «فوق الطبيعة» ولذلك فإن ذلك هو علامة من السماء. وقد بدا أن هذا الاستنتاج كان مفحماً.

وقد حاول الأب يوسيف قيم المكتبة وهو الرجل الطيب اللطيف، والذي كان حبيب المتوفى وصفيه، أن يجيب على تقولات المتقولين، وكان يحاول أن يدفع حجتهم بقوله: «إن هذه القاعدة لا تثبت على التجربة في كل مكان بنفس الطريقة»، وإن سلامة الأجسام من التفسخ ليست عقيدة في الكنيسة الارثوذكسية، إنما هي مجرد رأي من الآراء. ففي اشد الاماكن محافظة على المذهب الارثوذكسي، كآثوس مثلاً، لا يعيرون أهمية كبيرة لرائحة الجثة، وليس عدم التفسخ هو العلامة الكبرى لمجد الشخص المتمتع بنعمة الخلاص بل لون عظامه بعد أن تدفن الاجساد سنوات طويلة في الارض وتفنى في باطنها. وختم الاب يوسيف قوله: فإذا اصبحت العظام صفراء بلون الشمع، فإنه دليل قاطع على أن الخالق قد مجد القديس المتوفى، أما إذا أصبحت سوداء، فإن الله يكون عندها قد قضى بأنه غير أهل للتمجيد. إن هذا هو الرأي السائد في آثوس، وهي بقعة عظيمة حفظت فيها العقيدة الارثوذكسية منذ القدم دون أن يلحقها الزيف بل ظلت محافظة على اعظم درجات النقاء.

لم تحدث كلمات الاب يوسيف الهادئة أثراً كبيراً، بل إنها قوبلت بملاحظات ساخرة، فقال بعض الرهبان: إنها ادعاء وكلام منمق فلا فائدة من سماعها. وأضاف آخرون أننا سنتمسك بعقيدتنا القديمة والبدع في زماننا أصبحت كثيرة، فهل يتحتم علينا أن نتبعها جميعها؟

واسرف غير هؤلاء في الاقذاع قائلين: إن لدينا من القديسين ما لا يقل عما لدى ابناء آثوس. والفرق بيننا وبينهم هو أنهم هناك في ظل حكم الاتراك

قد نسوا كل شيء عن امور دينهم، وفسدت عقيدتهم منذ زمن بعيد، بل إنه لم يعد لديهم نواقيس.

سار الأب يوسيف في طريقه وقد ازداد ألمه لأنه عبر عن رأيه بتردد وضعف وكأنه لم يكن يؤمن به شخصياً. ورأى بعين المستقبل والالم يحز في نفسه أن العداء قد دبّ في صفوف الرهبان، ورأى أدلة أكيدة على التمرد ضد نظام النساك. ورويداً رويداً أخلد جميع عقلاء الرهبان إلى الصمت بعد انهزام الاب يوسيف. وهكذا فقد حدث أن جميع الذين احبوا الناسك، وانتصروا لنظام النسك شعروا بالانكسار العظيم فكانوا حين يلتقون يتبادلون النظرات النامة عن الذلة والخجل. أما أولئك خصوم هذا النظام الذين يعدونه بدعة فقد رفعوا رؤوسهم عالية. وكانوا يقولون والحقد يقطر من كلماتهم: لم تتفسخ جثة الناسك السابق فارسونوفي، بل انتشرت منها رائحة عطرة، ولم يظفر بهذا المجد لانه كان ناسكاً بل لأنه كان رجلاً صالحاً ظاهراً.

وأعقب ذلك نقد كثير بل ولوم للأب زوسيما. وكان بعض الحمقى يقولون: كانت تعاليمه خاطئة، إذ كان يروّج أن الحياة بهجة عظيمة لا ينبوع دموع. وبمزيد من الغباء والحماقة يقول آخرون: كان يدين بالعقيدة العصرية، ولا يقر بوجود نار حقيقية في الجحيم. وقال بعض حساده: إنه لم يكن يحرص على رياضة الصوم، وكان يبيح لنفسه المآكل الحلوة ويتناول مربى الكرز مع الشاي الذي كانت السيدات يحضرنه إليه. فهل يجوز لراهب ناسك أن يشرب الشاي؟ وكان أشد الرهبان حقداً القائلين: «لقد كان يتعالى في جلسته، فقد كان يعد نفسه قديساً، ويظن أن من حقه أن يركع الناس أمامه». وقال أعدى اعداء نظام النساك بصوت هامس والكراهية تكاد تأكلهم: «لقد انتهك حرمة سر الاعتراف». وبين هؤلاء كان الرهبان الأكبر سناً والأشد اخلاصاً للدين، والاعظم تقيداً باصول التقشف والكفارات، وقد ظلوا صامتين طيلة حياة الناسك المتوفى، ولكنهم الآن اطلقوا لالسنتهم العنان. فإن كلماتهم اثارت قلقاً كبيراً لما لها من أثر عظيم على الرهبان الصغار الذين لم يكونوا ثابتين في عقيدتهم بعد، ولقد أصغى الراهب القادم من أوبدورسك إلى كل هذه الأقوال باهتمام عظيم وهو يصعد الزفرات الحرى ويهز رأسه قائلاً: «بلى،

لقد اتضح لي الآن أن الأب فيرابون كان صادقاً في حكمه بالأمس»، وفي تلك اللحظة ظهر الاب فيرابون بين الجمع كأنما ليضاعف الاضطراب والبلبلة.

لقد أشرت فيما مضى إلى أنه كان من النادر أن يغادر الأب فيرابون كوخه القائم عند عميرة النحل. بل كان نادراً ما يتردد إلى الكنيسة وكانوا يتغاضون عن تفريطه هذا لخرفه، فلا يلزمونه بمراعاة القوانين التي يخضع لها الجميع. والحق أنهم كانوا لا خيار لهم في تخصيصه بهذه المعاملة، لأنه كان من الأمور المشينة أن يلزموا مثل ذلك المتقشف العظيم بالطقوس العادية وهو الذي كان يصلي ليل نهار (بل لقد كان ينام وهو راكع). فإذا ألح البعض في مطالبته بها، قال لهم الرهبان: «إنه أقدس منا جميعاً، وهو يتبع نظاماً أقسى من نظامنا، فإذا فرط في الذهاب إلى الكنيسة فما ذاك إلا لأنه يعرف متى ينبغي له أن يذهب إليها؛ فله قانونه الخاص» لذلك ترك الأب فيرابون وشأنه تحاشياً لمثل هذه التحليلات والأقوال النامة عن التذمر المشبعة بالخطيئة.

وكان الجميع يدركون أن الأب فيرابون كان يكره الأب زوسيما كرهاً شديداً. وهو الآن وصلته الانباء في كوخه بان، «حكم الله يختلف عن حكم الناس»، وإن شيئاً ما، حدث وإنه «خارق للطبيعة» والظن الأرجح أن أول من نقلها إليه، هو الراهب القادم من أويدورسك الذي زاره في مساء اليوم السابق ثم خرج من كوخه مذعوراً.

لقد أشرت من قبل إلى الآب بيسي وقلت إنه بالرغم من أنه استمر هادئاً ثابتاً يقرأ الانجيل فوق التابوت، وبالرغم من أنه لم يكن يستطيع أن يسمع ويرى ما كان يجري خارج الغرفة التي سجي فيها الجثمان، إلا أنه استطاع أن يحزر في قرارة نفسه معظم ما كان يجري حوله، ويدرك حقيقته، لأنه كان على علم تام بنوعية الرجل في بيئته. ولم يزعزعه ذلك، بل ظل في انتظار ما سيجد من امور بلا خوف ولا وجل، وهو يرقب نتيجة الاضطراب العام بنفاذ بصيرة وصدق فراسة.

وفجأة سمع ضجيجاً عظيماً في الممر، وكان هذه المرة منافياً للأدب والذوق. ففتح الباب على مصراعيه وظهر الأب فيرابون واقفاً في المدخل،

وشوهد خلفه عدد من الرهبان وجماعة كبيرة من الناس القادمين من المدينة. ولم يدخل هؤلاء إلى الغرفة، بل ظلوا واقفين على الدرجات السفلى، في انتظار ما سيقوله الاب فيرابون ويفعله. ذلك أنهم شعروا والرهبة مسيطرة عليهم، رغم قحتهم، بأنه لم يأت عبثاً. رفع الأب فيرابون يديه إلى أعلى وهو لا يزال في مكانه عند الباب، فبرزت تحت ذراعه اليمنى عينا راهب اوبدورسك النفاذتان المتسائلتان تسترقان النظر إلى داخل الغرفة. كان هو الوحيد الذي دفعه فضوله العظيم؛ على المجازفة تحقيقاً لرغبته في صعود الدرج غدوا خلف الاب فيرابون. أما الباقون فإنهم ارتدوا إلى الوراء يتدافعون لخوف مفاجيء غشي قلوبهم عندما فتح الباب على مصراعيه محدثا صوتا عالياً. واندفع الاب فيرابون بغتة يقول بصوت قاصف وهو لا يزال رافعاً يديه إلى أعلى:

إنني آمرك امراً بالخروج! ثم اخذ يلتفت حوله إلى جميع الجهات راسماً شارة الصليب باتجاه كل جدار من جدران الغرفة الأربعة وكل زاوية من زواياها بالتتالي. وقد ادرك جميع من رافقوا الأب فيرابون لتوهم معنى بركته هذه، فهم كانوا يعلمون أنه كان يفعل مثل هذا أنى ذهب، وأنه لم يكن يجلس أو يتفوه بكلمة واحدة ما لم يطرد الأرواح الشريرة.

كان يردد مع كل شارة من شارات الصليب هذه العبارة بصوت قوي: أيها الشيطان اذهب من هنا! أيها الشيطان اذهب من هنا! إنني آمرك امراً بالخروج!

وكان يرتدي جلبابه الخشن ويتمنطق بقطعة من الحبل. وكان صدره العاري المكسو بالشعر الشائب يبدو من شق قميصه الكتاني. وكانت قدماه حافيتين. فلما بدأ يلوح بيديه سمع صوت ارتطام القطع الحديدية الثقيلة التي كان يربطها إلى جسمه تحت جلبابه.

توقف الأب بيسي عن القراءة، ثم تقدم نحوه ووقف ينتظر، وأخيراً اندفع مخاطباً الأب فيرابون وهو يرمقه بنظرة صارمة: «لماذا جئت أيها الأب المبجل؟ ولماذا تسيء إلى النظام؟ لماذا تعكر سلام الرعية؟»

فصاح الأب فيرابون وهو يهذي كالمعتوه: «لماذا جئت؟ هل تسألني

عن السبب؟ ما هو إيمانك؟ لقد أتيت إلى هذا المكان لأطرد زواركم من الشياطين الدنسة. لقد جئت لكي أحصي كم شيطاناً منهم جاء إلى هنا في غيابي. أريد أن اكنسهم بمكنسة من فروع الأشجار».

أجابه الاب بيسي بهدوء: «تقول إنك تطرد الشيطان ولكنك ربما كنت تخدمه بنفسك، فمن يستطيع أن يقول عن نفسه أنه قدّيس هل تستطيع أنت أن تقول هذا أيها الأب؟»

فأجاب الأب فيرابون مرعداً: إنتني دنس ولست قديساً، إنني لا أقبل الجلوس على مقعد وثير ولا أسمح للناس أن يركعوا لي كما يركعون لصنم من الاصنام. إن الناس في أيامنا هذه يجحدون الدين ويهدمون الإيمان الصحيح. إن صاحبك الميت، قديسك، ثم التفت إلى الجمع الواقف خلفه واشار إلى التابوت وتابع يقول: كان لا يؤمن بوجود الشياطين، ويصف العلاجات الطبية لطردها. وهكذا فقد تكاثرت الشياطين كما تكاثر العناكب في الزوايا. والآن بدأت رائحة التفسخ تنبعث منه. ونحن في ذلك نرى علامة عظيمة من علامات الله. ومفاد تلك الحادثة التي أشار إليها أن أحد الرهبان كان يرى في نومه، ومن ثمّ أثناء صحوه، أرواحاً شريرة وعندما أسر بذلك، والرعب يعقد لسانه، إلى الأب زوسيما، نصحه بالصلاة الدائمة والصوم الدقيق. وإذ لم ينفعه ذلك، نصحه بتناول علاج خاص مع استمراره في صلاته وصومه. وقد صعق الكثيرون لذلك آنذاك فكانوا يهزون رؤوسهم أسفاً وهم يروون الحادث وبزّهم الأب فيرابون في ذلك حين بادر بعض المتجسسين على أعمال الناسك إلى الأب فيرابون وقصوا عليه قصة تلك النصيحة «الخارقة» التي نصح بها الراهب.

وقد رد عليه الأب بيسي بلهجة الأمر قائلاً: إمض أيها الأب، فليس للإنسان أن يحكم بل الحكم لله. وقد يكون ما نراه هنا آية لا تستطيع أنت ولا أنا ولا أي واحد منا أن يفهم مغزاها. وكرر أمره بلهجة مؤثرة قائلاً: إمض أيها الأب وكفى بالرعية تشويشاً.

غير أن الأب فيرابون المخبول لم يهدأ بل اندفع بحماسة طغت على عقله قائلاً: إنه لم يراع الصوم حسب القانون، ولذلك حدثت الآية. إن ذلك

واضح وكتمانه خطيئة. لقد كان مغرماً بالمآكل الحلوة، وكانت السيدات يحضرنها له في جيوبهن. لقد كان يحتسي الشاي ويعبد معدته ويملأها بالمآكل اللذيذة، أما رأسه فكان ينضح كبرياء... ومن أجل ذلك حل به العار...

أجاب الأب بيسي بصوت عال أيضاً: «إنك تلهو بالكلام أيها الأب. إنني معجب بصيامك وتقشفك ولكن كلامك كلام الفتيان السفهاء، إن حديثك صبياني تافه». وانهى الأب كلامه صاخباً: «امض أيها الأب، إنني آمرك».

وردّ الأب فيرابون بلهجة قاسية، وقد بدا عليه كأنه أخذ على حين غرة: سأمضي، حسناً... يا لكم من أناس متعلمين! إنك تتعالى بذكائك على تواضعي. لقد اتيت إلى هذا الدير شبه أميّ، فنسيت ما كنت اعرفه. لقد حماني الله في ضعفي من دهائك.

ووقف الأب بيسي على مقربة منه ينتظر ما سيدر منه وقد ظهرت عليه علامات التصميم. وأطرق الأب فيرابون هنيهة ثم أمال فجأة رأسه ووضع كفه على خده محزوناً وقال وفي صوته رنة الأسى وهو ينظر إلى التابوت الذي سجي فيه جثمان الناسك:

إنهم غداً سيرتلون فوقه «معيننا وحامينا»(١) وهو لحن رائع. أما إذا مت أنا فسيرتلون فوقي «أية بهجة أرضية»(٢) وهو مقطع صغير. قال ذلك وقد امتلأت عيناه بدموع الأسى. وفجأة أخذ يهبط درجات السلم بسرعة ملوحاً بيده صائحاً كالمخبول: إنك متعجرف مغرور، وهذا مكان كل ما فيه عبث. وارتعد الجمع المحتشد في انتظاره عند أسفل درجات السلم؛ وقد تبعه بعض الناس فوراً، وتلكأ بعضهم، فقد بقي باب الغرفة مفتوحاً. وقد تبع الأب بيسي الأب فيرابون حتى وصل إلى الدرج ثم وقف يرقبه. غير أن المعتوه العجوز المهتاج لم يكن قد سكت بعد، فإنه ما كاد يسير مبتعداً مسافة عشرين خطوة

---

(١) يرتل هذا المقطع عادة لجثمان الراهب.

(٢) ويرتل هذا اللحن إذا كان الراهب كاهناً.

حتى أدار وجهه نحو الشمس الغاربة، ثم رفع ذراعيه وهوى إلى الأرض بغتة وهو يصيح صيحة عظيمة كأنما أصيب بضربة قاتلة.

ثم صاح كالمجنون وهو يمد يديه نحو الشمس ويخفض وجهه إلى الأرض: «لقد انتصر ربي! لقد قهر المسيح الشمس الغاربة!» واخذ ينتحب كالاطفال وجسمه يهتز وهو يبسط ذراعيه كأنه يعانق الأرض. ثم اندفع الجميع نحوه، وأخذ بعضهم ينتحب ويتفوه بعبارات العطف... وبدا أنهم جميعاً تملكتهم الرهبة.

وصاح بعضهم وقد تخلوا عن خوفهم: «إن هذا هو القديس! إن هذا هو الرجل المقدس!» وثنى بعضهم على ذلك قائلين والحقد ظاهر في اعينهم: إن هذا هو الذي يجب أن يكون ناسكاً.

وارتفعت على الفور أصوات أخرى قائلة: «إنه لا يقبل أن يكون ناسكاً... بل سيرفض ذلك... ولن ينحرف إلى هذه البدعة اللعينة... ولن يجاريهم في حماقتهم». لا يمكن التكهن بالحد الذي كان من الممكن أن ينتهوا إليه لولا قرع الناقوس في تلك اللحظة داعياً الرهبان إلى الصلاة فشرعوا لتوهم يرسمون شارة الصليب على صدورهم. ونهض الأب فيرابون أيضاً من ركعته ورسم شارة الصليب ثم مضى إلى كوخه دون أن ينظر إلى ما حوله وهو يردد عبارات غامضة مفككة. وتبعه قليلون. ولكن أكثر الرهبان تفرقوا إلى الصلاة. وطلب الأب بيسي من الأب يوسيف أن ينوب عنه في القراءة وهبط درجات السلم. ولم تكن الصيحات المحمومة التي انطلقت من حناجر أولئك الحمقى قد استطاعت أن تؤثر فيه أو تهزه، ولكن قلبه سرعان ما افعم بحزن خاص فوقف مدهوشاً وتساءل: «لماذا أشعر بالأسى بل وبالغم؟» واستغرب إذ أدرك سريعاً أن أساه المفاجىء كان مرده إلى سبب تافه في ظاهره. فقد تذكر أنه رأى اليوشا بين الجمع المحتشد عند مدخل الغرفة، وتذكر كيف أنه شعر عندما رآه بألم عظيم يعصر قلبه. وتساءل متعجباً: ترى هل من الممكن أن يكون هذا الفتى هو مصدر كل هذا التأثير في نفسي؟

وفي تلك اللحظة مر اليوشا أمامه، وكان مسرعاً في سيره في غير الاتجاه إلى الكنيسة. وتلاقت عيونهما واسرع اليوشا فحول عينيه عنه

وخفضهما إلى الأرض، وأدرك الأب بيسي من هيئة الشاب وحدها، مدى ما طرأ عليه في تلك اللحظة من تبدل.

صاح الأب بيسي يخاطب اليوشا: أأنت أيضاً وقعت في التجربة؟ واردف يقول بلهجة حزينة مؤثرة: هل من الممكن أن تكون في عداد أولئك الذين غزا الشك قلوبهم؟

وقف اليوشا في مكانه وحدق في الأب بيسي تحديقاً غريباً، وسرعان ما اشاح بوجهه عنه وأخذ ينظر إلى الأرض؛ كان يواجه الأب بيسي مواربأ حتى لا يتقابلان وجهاً لوجه. أما الأب بيسي فكان يرقبه متفحصاً.

وعاد الأب بيسي يسأل: «إلى أين أنت ذاهب؟ إن الناقوس يدعونا إلى الصلاة». ولكن اليوشا لم يحر جواباً.

- هل تود أن تغادر الدير؟ ماذا، أتريد مغادرته دون أن تطلب إذنا أو تسأل بركة؟

وفجأة ابتسم اليوشا ابتسامة مغتصبة وشخص ببصره إلى هذا الأب بطريقة غريبة جداً إنه الرجل الذي اوصاه به مرشده الراحل الذي كان مرشداً ومعلماً لقلبه وعقله، ناسكه المحبوب، وهو على فراش الموت. وفجأة لوح بيده دون أن ينطق بكلمة واحدة وكأنه لم يعد مهتماً أن يرعاه أحد. ثم اتجه نحو المخرج بخطوات سريعة.

وتمتم الأب بيسي وهو ينظرإليه بدهشة أليمة: إنك ستعود.

فأجبته قائلاً: لعلك تبالغ في تقديري.

ـ لا، صدقني إن سلوك هذا السبيل في العمل اصعب مما تظن. وذلك هو مبعث تأثري ولهذا السبب وحده جئت إليك. واردف الرجل يقول: ابتني مشكوراً إذا لم أكن متطفلاً، ماذا كانت مشاعرك الحقة، إذا كنت ما تزال تذكرها، في اللحظة التي عقدت فيها عزمك على طلب الصفح من غريمك اثناء المبارزة، حذار أن ترى في سؤالي تفاهة؛ فعلى العكس هناك دافع خفي يكمن وراء سؤالي، ربما اوضحته لك فيما بعد، إذا شاء الله أن يمتّن صداقتنا.

كان الرجل يتكلم، وأنا احدق في وجهه. وقد شعرت لتوي بثقة تامة فيه، وفضول عظيم لسماع قصته أيضاً، إذ توقعت أن سراً غريباً يكمن في داخله.

واجبته قائلاً: إنك تسألني عن مشاعري الحقة لحظة عزمت على طلب الصفح من غريمي، والافضل أن اسرد عليك تسلسل الاحداث من البداية، وهو ما لم اطلع عليه أي إنسان حتى الآن. ثم سردت عليه جميع ما كان بيني وبين أفناسي وكيف أنني جثوت على ركبتي تحت قدميه، وختمت بالقول: من ذلك تستطيع أن تدرك بنفسك، ولما كنت قد صرت على الدرب فإن استمراري في السير لم يكن قط صعباً، بل كان لي مصدر فرح وسعادة. كان يصغي إلى اقوالي وعينه تطفح حباً لي. فلما فرغت قال: إن هذا كله ملذ للغاية، وسآتي لأراك المرة تلو المرة.

وأصبح يزورني في كل ليلة لا يكاد ينقطع عن ذلك. ولو أنه حدثني عن نفسه، لتوطدت أركان صداقتنا. ولكنه لم يكن يقول عن نفسه كلمة واحدة، مكتفياً باسئلته عني، ومع ذلك فقد اولعت به ولعاً عظيماً، واخذت اصارحه بحقيقة مشاعري كلها لا أكتم عنه شيئاً؛ وأقول لنفسي: لا حاجة بي إلى معرفة أسراره، فيكفيني أنه إنسان طيب. وفضلاً عن ذلك، وبرغم جدية الرجل وكبر سنه عني، فإنه لم يستنكف عن أن يزور فتى صغير السن مثلي ويعاملني على قدم المساواة معه، وقد اقتبست منه الكثير من الأمور النافعة لأنه كان رجلاً سامي الفكر.

وذات مرة فاجأني بقوله: إن الحياة نعيم، ذلك ما أعمل فكري فيه منذ

لحظة حرجة

لم يكن الأب بيسي بالطبع مخطئاً حين أكد أن «فتاه العزيز» سيعود. وربما فهم بنفاذ بصيرته جوانب كثيرة من المعنى الحقيقي للحالة الروحية التي كان فيها اليوشا. ومع ذلك فمن واجبي أن أصارح القارىء بصعوبة مهمتي لأقدم شرحاً واضحاً لتلك اللحظة الغريبة الغامضة في حياة هذا البطل الشاب الذي أحبه حباً جماً. أما سؤال الأب بيسي المعبّر عن الأسى: «هل أنت أيضاً في عداد أولئك الناس الذين غزا الشك قلوبهم، فإنني استطيع حتماً أن أجيب عن اليوشا بالنفي وأنا واثق مما أقول. كلا إنه لم يكن في عدادهم، بل إن الأمر كان على نقيض ذلك تماماً. والحقيقة أن إيمانه الراسخ كان هو أساس مشكلته. غير أن المشكلة كانت قائمة وقد عذبته عذاباً عظيماً حتى أن اليوشا كان بعد انقضاء زمن طويل، يعود بالذكرى إلى ذلك اليوم المحزن ويرى أنه كان من أمرّ أيامه عليه وأنكاها على قلبه. ولو سأل سائل: هل يمكن أن يكون سبب كل حزنه واضطرابه هو ذلك التفسخ المبكر الذي تعرضت له جثة ناسكه بدلاً من أن تظهر المعجزات؟ لكان لزاماً علي أن أقول صراحة بلا مواربة: نعم لقد كان هذا هو السبب بدون أدنى شك وإنني لا أطلب من القارىء سوى عدم التسرع فلا يضحك من طيبة قلب بطلي الفتى. ولست بحال من الأحوال أبغي الاعتذار عنه أو التماس الأعذار لإيمانه البريء بسبب حداثة سنه أو التقدم القليل الذي احرزه في دراساته، أو لأي سبب آخر. بل إن واجبي، بالعكس، أن اعلن أنني أكنّ الاحترام الاكيد لمزاياه. ولا شك في أن شاباً كهذا كان حذراً حيال كل ما يسمعه وفاتراً في محبته، ومتمتعاً بعقل راجح بالنسبة لسنه ـ وهو لهذا ضئيل القيمة ـ إن شاباً كهذا يمكنه، وأنا اقر بذلك، أن يتجنب ما تعرض له بطلي. ولكن الحقيقة تفرض علينا القول إن

الإنسان في بعض الحالات إذا انساق وراء عواطفه، مهما كانت طائشة ولكنها منبعثة عن حب عظيم فذلك يكون افضل من أن يظل مفتقراً لمثل هذه المشاعر. وهذا الرأي ينطبق على الشباب أكثر مما ينطبق على غيرهم، لان الشاب الذي يظل دوماً متعلقاً بكل ما هو معقول، لا بد وأن يكون مثار الريبة ولا قيمة له. هذا هو رأيي!

وربما اعترض ذوو الفطنة وقالوا: وماذا بعد، فإن كل الشباب لا يؤمنون بمثل هذا الأمر الخارق للطبيعة، وليس بطل قصتك انموذجاً للآخرين.

ولهؤلاء اكرر القول: نعم! إن بطل قصتي يتمتع بالإيمان، الإيمان المقدس الراسخ، ولكنني مع ذلك لن انتحل له المعاذير.

ومع أنني أعلنت فيما سبق، وربما تسرعت في ذلك، أنه ما كان لينبغي لي أن أوضح سر تصرفات بطلي أو أبررها، فإنني أرى من الضروري تقديم بعض الإيضاح لكي يصبح من الممكن فهم ما تبقى من قصتي. فلأقل إذن إن الأعاجيب لم تكن هي المحك فهو لم يكن يترقب بسذاجة عجولة حدوث الأعاجيب. ولم تكن المعجزات في ذلك الوقت مطلباً ليرسخ في عقل اليوشا انتصار فكرة كان يؤمن بها سلفاً. كلا لم تكن المعجزات مما يشغل باله البتة، وقد كان ينظر قبل كل شيء إلى شخص واحد، شخص ناسكه المحبوب، شخص ذلك الرجل المقدس الذي كان يجله إلى حد العبادة. والحقيقة هي أن كل ما كان ينطوي عليه قلبه الفتي الطاهر من حب لكل إنسان ولكل شيء خلال العام الماضي، كان يتركز - وقد يكون ذلك من قبيل الخطأ - حول إنسان واحد، هو ناسكه المحبوب. وصحيح أيضاً أن اليوشا احتذى منذ زمن طويل ذلك الإنسان مثلاً أعلى له، حتى أن كل ما كان فيه من قوة الشباب، لم تكن لتتوجه إلا نحو ذلك المثل، لدرجة أنه في تلك اللحظة كان ينسى «كل إنسان وكل شيء» ولقد تذكر فيما بعد كيف أنه في ذلك اليوم الهائل، نسي أخاه ديمتري تماماً وهو الذي كان في اليوم السابق يعاني من أجله القلق والاضطراب. لقد نسي أن يحمل المائتي روبل إلى والد ايلوشا، رغم تشوقه البالغ لذلك في أمسية اليوم السابق. ومرة أخرى أقول إنه لم يكن في حاجة إلى حدوث المعجزات بل إلى «العدالة السامية»

التي خوله إيمانه أن يدرك تراجعها أمام تلك الطعنة التي اصابت فؤاده بغتة وأدمته. وما قيمة أن تتخذ فوراً هذه «العدالة» التي كان اليوشا يبحث عنها شكل أعاجيب صادرة عن جثة معلمه المعبود؟ إن هذه الأفكار والآمال إنما كان يشاركه فيها كل رجال الدير، حتى أولئك الذين كان اليوشا يحترم فيهم نضوج العقل، كالأب بيسي نفسه على سبيل المثال. وهكذا فإن اليوشا الذي لم تكن الشكوك تقلقه، قد كسا أحلامه على غرار ما كسيت به أحلام الآخرين من أفكار وآمال. إلاّ أن عادة الترقب هذه نمت في قلبه خلال تلك السنة الكاملة التي قضاها في الدير، غير أن العدالة بالذات هي ما كانت نفسه ظامئة إليها، لا الاعاجيب وكفى.

والآن فإن ذلك الرجل الذي كان ينبغي أن يمجد ويجعل أعلى سكان الارض مرتبة، كما كان يعتقد، ذلك الرجل حقر وامتهنت كرامته فجأة بدلاً من أن ينال حقه من المجد! فلم كان ذلك؟ ومن أدانه؟ ومن كان في مقدوره أن يأمر بذلك؟ تلك كانت الاسئلة التي آلمت قلبه البكر الذي لم تنضجه التجارب. إن ما عجز عن تحمله بدون أن يشعر بالأسى القتال وبدون أن يشعر بالغيظ، هو تعرض أقدس المقدسين من بني البشر إلى سخرية ذلك الجمع التافه الذي كان أدنى منه منزلة إلى حد بعيد، ولقد هان عليه ألا تحدث معجزات، أو تقع امور عجيبة تحقق آماله، ولكنه لم يستطع تجاهل ذلك التحقير، وتلك المهانة، وذلك التفسخ المبكر «الخارق للطبيعة» كما قال الرهبان الحقودون؟ كذلك تلك «العلامة من السماء» التي هتفوا بتمجيدها وهم في صحبة الأب فيرابون وكأنهم في نشوة النصر، واعتقادهم بأنهم اكتسبوا حق تمجيدها؟ أين هي أصبع العناية الالهية؟ ولماذا أخفت العناية الالهية محياها في «احرج اللحظات» (كما ظنها اليوشا)، وكأنها قد خضعت خضوعاً طوعياً لقوانين الطبيعة العمياء، البكماء، التي لا تعرف الرحمة.

أحدث كل ذلك نزفاً في قلب اليوشا وكما قلت فإن أقسى ما أصابه من ألم إنما هو بطبيعة الحال تعرض ذلك الرجل الذي أحبه كما لم يحب إنساناً على ظهر هذه الأرض، للعار والمهانة! وربما كان ذلك التذمر سطحياً لا يدل على قوة الادراك لدى بطل قصتي، ولكنني أكرر الآن للمرة الثالثة ـ وأنا

على استعداد لان أقر بأنه قد يتعذر علي الدفاع عن شعوري ـ بأنني سعيد لأن بطل قصتي لم يظهر نفسه بمظهر المفرط في إبداء دلائل التعقل، لأن أي إنسان مهما قل عقله لا بد وأن يعود أخيراً إلى جادة الصواب. ولكن، إذا لم يطغ الحب في لحظة طارئة كهذه على كل مشاعر قلب هذا الفتى، فمتى يطغى عليها؟ ولن يفوتني على كل حال أن أشير إلى شيء غريب طغى على الافكار التي كانت تتدافع في ذهن اليوشا في تلك اللحظة الحاسمة الغامضة. إنه الأثر المقلق الذي خلفه في نفسه حديثه مع إيفان، والذي عاود فكر اليوشا باصرار والحاح، حتى ملك عليه لبه. وإني أجزم بأن الناحية الجوهرية الاساسية من إيمان روحه، لم تتزعزع. كلا إن إيمانه لم يضعف فهو الآن يحب ربه ويؤمن به إيماناً راسخاً، ولو أنه وجد فجأة يردد عبارات التذمر منه. ومع ذلك فقد كان هناك أثر غامض مرهق معذب خلفه في نفسه حديثه مع إيفان في اليوم السابق، وهو أثر تجدد الآن في روحه، وبدا كأنه يتخذ طريقه عنوة إلى أبرز زوايا ضميره.

كان الليل قد أرخى سدوله على الكون عندما كان راكيتين يجتاز غابة الصنوبر مغادراً الصومعة إلى الدير، فألفى اليوشا بغتة مضطجعاً على الأرض تحت شجرة وقد انكفأ على وجهه، ساكناً لا يتحرك كأنه نائم. فاقترب منه وناداه باسمه:

«أأنت هنا يا الكسي؟ أيمكن أن تكون...» وبدأ يشعر بالدهشة ولكنه أمسك عن الكلام. كان يود القول: «أيمكن أن تكون قد صرت إلى هذه الحال؟»

ولم يجب اليوشا على ندائه، ولكن راكيتين أدرك من حركة خفيفة صدرت عنه أنه سمع سؤاله وفهمه.

واندفع يقول بعد أن زايلت الدهشة وجهه، واخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى ابتسامة ساخرة: ما بك؟ لقد كنت أبحث عنك منذ ساعتين كاملتين. فقد اختفيت فجأة، فما شأنك؟ وأية حماقة هذه؟ فلتنظر إليّ على الأقل.

رفع اليوشا رأسه وجلس وأسند ظهره إلى الشجرة، ولم يكن يبكي، بل كانت آيات الألم والضيق منطبعة على وجهه. ولم يوجه بصره إلى راكيتين

بل أشاح به عنه وأخذ ينظر إليه نظرة جانبية.

ـ هل تعلم أن وجهك قد تبدل تبدلاً كبيراً؟ وفقد كل علامات الوداعة المأثورة عنك. أأنت غاضب من بعض الناس؟ هل أساء أحد معاملتك؟

فأجاب اليوشا بغتة وهو يشير بيديه إشارة تدل على الضجر وبصره منصرف عنه: «دعني وشأني».

ـ مرحى! إذاً هكذا نحن الآن! أصبحت تنتهر الناس كغيرك من أبناء الدنيا. إن تلك زلة من زلات الملائكة. لقد ادهشتني يا اليوشا، هل تسمع ما أقول؟ إنني أعني ذلك. لقد انقضى زمن طويل دون أن أدهش لشيء ما في هذا المكان. لقد كنت دوماً أرى فيك إنساناً مثقفاً..

وأخيراً نظر اليوشا إليه، ولكن نظرته كانت غامضة، كأنه لم يكن يعي أقواله.

وعاد راكيتين إلى القول وقد بدا مندهشاً مرة جديدة: أيمكن أن تكون علة اضطرابك هذا أن شيخك العجوز قد بدأ يتفسخ؟ إنك طبعاً لا تعتقد أنه لا بد آت بالمعجزات!

فهتف اليوشا منزعجاً: لقد اعتقدت، وما زلت اعتقد، وأريد أن اعتقد، وسأعتقد، فماذا تريد أكثر من هذا؟

ـ لا شيء البتة يا فتاي، تباً لهذا كله، إن تلميذاً في الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بذلك الآن ولكن مهلاً... فانت الآن تخاصم ربك، إنك خارج عليه؛ فهو لم يمنح ناسكك ترقية ولم يقلده وسام الاستحقاق! إنك الآن عظيم الإنزعاج!

وأطال اليوشا التحديق في راكيتين وعيناه نصف مغلقتين واضاءت عيناه فجأة ببريق خاطف... ولكنه لم يكن غاضباً على راكيتين.

وبغتة ابتسم اليوشا ابتسامة مغتصبة وقال: إنني لست خارجاً على ربي، وكل ما في الأمر أنني غير مسلم بدنياه.

ففكر راكيتين برهة في جواب اليوشا ثم قال: لا تسلم بدنياه؟ ماذا تعني؟ أية بلاهة هذه؟

ولم يجب اليوشا.

فعاد راكيتين إلى القول: هلم، كفاك هراء، لننصرف إلى المسائل الهامة. هل تناولت اليوم طعاماً؟

ـ لست اذكر... أظن أنني تناولت بعض الطعام.

ـ إن وجهك ينم عن حاجتك إلى ما يقويك فالنظر إليك يثير الأسى. لقد بلغني أنك لم تنم ليلتك بطولها بل كنت تحضر اجتماعاً في هذا المكان. ثم كان كل ذلك الهرج. أغلب الظن أنك لم تتناول من الطعام سوى لقمة من الخبز المقدس. إنني أحمل في جيبي شيئاً من قديد؛ ولقد أحضرته معي من المدينة احتياطاً، غير أنك لا تأكل القديد...

ـ أعطني شيئاً منه.

ـ وا عجباه! هل تود أن تتناول القديد! إن ذلك تمرد بكل معنى الكلمة! حسناً يا أخي، يجب أن نهيىء الأمر على خير ما يرام. رافقني إلى بيتي... إنني متشوق إلى قليل من الفودكا، فأنا مرهق. أظن أنك لا تشرب الفودكا.. أم ترى ترغب في تناول شيء منه؟

ـ سأشرب بعض الفودكا أيضاً.

ـ مرحى! إنك تدهشني يا أخي. ونظر راكيتين إليه مندهشاً وتابع يقول: حسناً، أن تشرب الفودكا، فتلك فرصة سعيدة ينبغي ألا تفوتنا. هلم معي.

نهض اليوشا من مجلسه صامتاً ولحق براكيتين.

ـ لو علم أخوك إيفان، فكم ستكون دهشته وما دمنا في معرض الحديث عن ذلك، فلأقل لك إن اخاك إيفان سافر إلى موسكو صباح اليوم أعلمت بذلك؟

فأجاب اليوشا بلا مبالاة: نعم. وفجأة برزت صورة أخيه ديمتري في ذهنه. ولكنها لم تلبث أكثر من دقيقة واحدة وكأنها ارادت تذكيره بأن شيئاً ما، يجب ألا يؤجل لحظة، واجباً أخلاقياً، شيئاً هائلاً تعهّده، ولكن هذه الذكرى لم تحدث في نفسه أي أثر، ولم تنفذ إلى قرارة قلبه بل سرعان ما بارحت ذهنه غير أن اليوشا ظل يذكر ذلك مدة طويلة فيما بعد.

ثم عاد راكيتين إلى الكلام فقال: لقد نعتني أخوك إيفان ذات مرة أنني أحمق متحرر بدون مواهب. وأنت أيضاً لم تتورع في إحدى المرات عن أن تعلن بأنني خلو من الشرف. ثم قال هامساً كأنه يخاطب نفسه: حسناً! بودي أن أرى ما ستفعله لك مواهبك واحساسك بالشرف الآن. ثم أضاف وقد رفع صوته: أصغ إلي! هلم نذهب إلى المدينة عبر الممر الخلفي فنتحاشى المرور بالدير. وعلي أن ازور السيدة خولاكوف. تصور هذا الأمر، لقد كتبت إليها انبئها بكل ما جرى، وقد لا تصدقني إذا قلت لك، أنها كتبت إلي لتوها جواباً في بطاقة بقلم الرصاص: (هذه السيدة مغرمة بكتابة البطاقات) إنها لم تكن قط تتوقع أن يكون هذا سلوك رجل ذي شخصية مبجلة كالأب زوسيما. لقد كتبت كلمة «سلوك». إنها هي أيضاً غاضبة. أراك متضايقاً، مهلاً. وفجأة توقف راكيتين عن المسير وقبض على كتف اليوشا واوقفه في مكانه، ثم حدق في عينيه كأنه يتساءل، وقد استحوذت عليه فكرة جديدة مفاجئة هبطت عليه بغتة؛ هل تدري يا اليوشا؟ ومع أنه كان يضحك سروراً في قرارة نفسه، فقد بدا أنه كان يتهيب الجهر بالفكرة الجديدة، فهو ما يزال يصعب عليه أن يصدق تلك الحالة الغريبة غير المتوقعة التي كان اليوشا عليها، واندفع يقول مستدرجاً وقد بدا متردداً: «اليوشا، هل تدري إلى أي مكان يجمل بنا أن نذهب إليه؟»

- إن ذلك لا يهمني... فامض بنا إلى حيث تشاء.

- إذن فلنمض إلى غروشينكا، هل توافق؟ وكان راكيتين يرتجف وهو يترقب جواب اليوشا.

وبادر اليوشا إلى الجواب بهدوء: لنمض إلى غروشينكا. وقد كانت هذه الموافقة السريعة الهادئة مفاجئة لراكيتين حتى أنه كاد يجفل.

ثم صاح مندهشاً: «حسناً! فمرحى!» ولكنه ظل قابضاً على اليوشا من ذراعه، فأسرع يقوده عبر الممر مخافة أن يغير رأيه.

وسارا صامتين، وكان راكيتين يخشى أن يقول شيئاً، فتتعكّر طواعية اليوشا. ثم تمتم مبتهجاً: ما أعظم البهجة التي ستشعر بها، ما أعظم بهجتها. ولكنه عاد إلى صمته. والحقيقة فإن السبب في أخذه اليوشا إلى غروشينكا

ليس لتوفير البهجة إليها. فلقد كان إنساناً عملياً، لم يفعل في حياته شيئاً إلا وهو يتوخى منه الربح لنفسه وكان هدفه في هذه الحالة مزدوجاً، فهو من ناحية كان يود أن يشبع رغبته في الانتقام إذ يرى «تدنس ذي الصلاح» وسقوط اليوشا من «سماء القديسين إلى أرض الخاطئين» وهذا حلم من أحلام يقظته وخياله. ومن ناحية ثانية فقد كان يسعى إلى مكسب مادي معين لنفسه وهو ما سنعود إلى توضيحه فيما بعد.

وقال في سره ووجهه يتألق بفرح خبيث: إذاً فقد حلت اللحظة الحرجة ولن نفوّتها لأنها عين ما نهدف إليه.



بصلة

كانت غروشينكا تقيم في قلب المدينة، عند ساحة الكاتدرائية في جناح من خشب قائم في فناء منزل الأرملة موروزوف. وهو منزل حجري كبير يتألف من طابقين، قديم العهد عظيم القبح. وكانت الأرملة قد آثرت حياة العزلة مع ابنتي اختها وهما عانسان طاعنتان بالسن أيضاً. وكانت الأرملة على قدر من الثراء لا يعوزها تأجير الجناح، ولكن الناس جميعاً كانوا يعلمون أنها قبلت غروشينكا منذ أربع سنوات مستأجرة لنزلها، فقط إرضاء لقريبها التاجر سامسونوف الذي اشتهر برعاية الفتاة وحمايتها. ولقد قيل إن غاية ذلك الرجل العجوز المغيار من إسكان أثيرته عند الأرملة موروزوف أن يخضعها لمراقبة تلك المرأة العجوز بعين يقظة. ولكن اتضح فيما بعد أن تلك العين اليقظة لم تكن هناك من حاجة لها، وفي آخر الأمر لم تعد الأرملة موروزوف تلتقي بغروشينكا إلا فيما ندر، ولم تعد تثقل عليها باسئلة الاستفسار الكثيرة. إن أربع سنوات انقضت منذ أن اصطحب الرجل العجوز معه من أكبر مدن المقاطعة تلك الفتاة الناحلة، الرقيقة الحيية، الخجولة، الحالمة، الحزينة، التي كانت تبلغ الثامنة عشرة من عمرها، وخلال هذه الفترة جرت احداث عديدة. ولم يكن الناس يعرفون سوى النزر اليسير عن ماضي الفتاة في المدينة ولكن حتى هذه المعرفة القليلة كانت مبهمة. وخلال السنوات الاربع الماضية لم تزد هذه المعرفة شيئاً يذكر، حتى في الفترة اللاحقة التي اصبحت فيها الفتاة أغرافينا الكسندروفنا موضع اهتمام الكثيرين، وكانت قد نضجت في هذه الاثناء وصارت شابة جميلة. وقد راجت شائعات مفادها أن ضابطاً خانها وهي في السابعة عشرة من عمرها، ثم ما لبث أن هجرها. وبعد حين سافر هذا الضابط إلى مكان قصي، حيث تزوج تاركاً غروشينكا فريسة الفاقة والعار. وقد رافق

القول بانتشال الرجل العجوز سامسونوف لغروشينكا من وهدة التشرد، أن الفتاة من اسرة محترمة من طبقة رجال الدين، وأنها كانت ابنة شماس أو رجل في المستوى ذاته.

والآن وبعد انقضاء أربع سنوات، أصبحت تلك اليتيمة الصغيرة الحساسة، الرقيقة الشعور، المهدرة الكرامة، فتاة رخصة العود متوردة الخدين، ذات جمال روسي اخاذ؛ امرأة تمتاز بشخصية ثابتة وعزيمة ماضية، تنظر إلى الناس نظرة تعالٍ وازدراء. وقد كان بها ميل للأعمال التجارية تحب الكسب والاقتصاد، وكانت حريصة. وقيل إنها وفرت ثروة صغيرة بالوسائل الشريفة أو غير الشريفة. لكن امراً واحداً لم يختلف فيه أحد، هو أن غروشينكا كانت صعبة المراس، يعز التقرب إليها. وإذا استثنينا حاميها العجوز، فما من إنسان امكنه ادعاء الحظوة لديها طيلة السنوات الاربع. وقد كانت تلك الحقيقة ثابتة، إذ أن الكثيرين، وخاصة خلال السنتين الماضيتين، حاولوا التقرب إليها ونيل رضاها إلا أنهم فشلوا جميعاً، واضطر بعضهم أن ينهوا محاولاتهم ويتراجعوا مسربلين بالخزي، بل إن التمنع الحازم المشوب بحب السخرية، الذي كانت تبديه تلك الشابة القوية الارادة، كان يجعل اولئك عرضة للهزؤ. وقد عرف الناس أيضاً أن تلك الشابة، وخاصة في الآونة الأخيرة قد انغمست في ما يسمى «بالمضاربات» وأنها اظهرت مقدرة فائقة في هذا المجال، حتى إن الكثيرين أخذوا يقولون عنها إنها لم تكن خيراً من اليهود. ولم يكن ذلك بسبب تعاملها بالربا، بل لأنه عرف عنها، على سبيل المثال، أنها كانت إلى وقت مضى، بالاشتراك مع كرامازوف الأب، قد استغلت مالها في شراء الديون التي يصعب تحصيلها بدفع اثمان زهيدة فيها تبلغ عشر اثمانها الاسمية، ثم ملاحقتها والحصول على ربح يبلغ عشرة اضعاف الاثمان التي دفعتها فيها.

وكان الأرمل العجوز سامسونوف صاحب الثروة الطائلة، رجلا بخيلاً قاسي القلب لا يرحم. إنه يستبد بابنائه الكبار ويعنف عليهم في القسوة والتحكم، وخلال العام الماضي حيث الزمه المرض الفراش، وافقده ورم ساقيه الفائدة منهما وقع تحت تأثير الفتاة التي منحها رعايته وحمايته، والتي كان قد فرض عليها في أول الأمر عيشة متواضعة لا تتناول فيها سوى «اطعمة الصيام»

كما كان يحلو لاصحاب الدعابة أن يقولوا آنذاك. غير أن غروشينكا افلحت في تحرير نفسها، في حين جعلته يطمئن بلا أدنى شك إلى ولائها واخلاصها. وقد كان ذلك الرجل، وقد انقضت الآن على وفاته فترة طويلة من الزمن، يدير أعمالاً واسعة في أيام عزه، وأصبح يشار إليه بالبنان وقد اشتهر بشحه وصلابته حتى شبه كالصوان في قسوته. وبالرغم مما كان لغروشينكا من نفوذ عظيم عليه حتى إنه لم يكن يستطيع الحياة بدونها (وقد بدا ذلك بشكل خاص خلال العامين الماضيين)، فإنه لم يغدق عليها ثروة كبيرة، وما كان ليفعل ذلك لو أنها هددته بهجره. واكتفى بأن وهبها مبلغاً زهيداً من المال، وحتى تلك الهبة كانت مصدر دهشة الجميع عندما ذاع خبرها.

وقد قال لها وهو يدفع لها بثمانية آلاف روبل: إنك فتاة عابثة ذات عقل راجح، ويجب عليك أن تعني بنفسك، ولكن دعيني أقل لك أنك لن تنالي مني بعد الآن إلى يوم مماتي أكثر من منحتك السنوية المعهودة، كما إنني لن أوصي لك بشيء.

ونفذ الرجل وعيده، فقد توفي وترك كل امواله لأبنائه الذين كان طيلة حياته، يعاملهم مع زوجاتهم واطفالهم معاملة الخدم. ولم يذكر غروشينكا بشيء في وصيته. وقد عرف كل ذلك فيما بعد. ولقد ساعد غروشينكا بنصائحه على زيادة ثروتها وهيأ لها سبل العمل.

وعندما انتهى الأمر بفيودور بافلوفيتش، الذي التقى بغروشينكا أول مرة عبر صفقة من صفقات المضاربة، إلى الوقوع في غرامها إلى حد التدلّه الأمر الذي ادهشه، كان ذلك الغرام مدعاة لتسلية سامسونوف العظيمة رغم مرضه الشديد. ومما تجدر الاشارة إليه أن غروشينكا ظلت طيلة فترة ارتباطها بالرجل العجوز، تعامله بمنتهى الصراحة والاخلاص وكان يبدو كأنه الرجل الوحيد في الدنيا الذي لقي منها مثل هذه المعاملة. وعندما ظهر ديمتري مؤخراً على المسرح معلناً حبه لها، كف الرجل العجوز عن الضحك. بل إنه قدم لها ذات مرة نصيحة كان فيها جاداً مخلصاً.

قال لها: إذا خيرت بين الاثنين، الأب أو الابن، فاختاري الرجل العجوز، بشرط أن تتأكدي من أن ذلك النذل سيقترن بك ويهبك بعض المال سلفاً.

ولكن إياك والاستمرار في علاقتك بابنه الكابتن. فإن ذلك لن يكسبك شيئاً.

عندما قدّم المستهتر نصيحته هذه، كان يشعر بأن منيته لن تمهله طويلاً، وبالفعل لم يعش بعدها سوى خمسة أشهر.

وسأذكر أيضاً بايجاز أن كثيرين من سكان مدينتنا علموا بالتنافس المهين والمخيف بين كرامازوف الأب وابنه، على غروشينكا، لكن أحداً لم يتمكن من فهم حقيقة موقفها منهما. بل أن خادمتيّ غروشينكا شهدتا في المحكمة (بعد وقوع الكارثة التي سنتحدث عنها فيما بعد) بأن سيدتهما لم تكن تستقبل ديمتري فيودوروفيتش إلا بدافع الخوف لأنه «هدد بقتلها». وكانت احدى هاتين الخادمتين طاهية عجوز شبه مقعدة وصماء، جاءت من موطن غروشينكا القديم. أما الخادمة الثانية، وهي حفيدة الطاهية العجوز، فكانت متوقدة الذهن في العشرين من عمرها، تقوم بأعمال الخدمة الأخرى. وكانت غروشينكا تعيش عيشة التقتير، ولم يكن شيء مما حولها يدل على البذخ. وكان منزلها يتألف من ثلاث غرف أثاثها من خشب الماهوغاني وهو من طراز عام ١٨٣٠، وكان جميعه ملكاً لصاحبة المنزل.

دخل راكيتين واليوشا منزلها مع بدء حلول الظلام، ولم يكن المنزل قد اضيء. وكانت غروشينكا مستلقية على الاريكة الكبيرة في غرفة الاستقبال، وهي خشنة ذات مسند مصنوع من خشب الماهوغاني، لها غطاء من جلد مهلهل رث. وقد وضعت غروشينكا تحت رأسها وسادتين من القماش الأبيض اخذتهما عن سريرها. وكانت في وضعها ساكنة لا تأتي حركة وقد شبكت يديها خلف رأسها. وكان لباسها يدل على أنها كانت تتوقع قدوم شخص ما، فقد كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأسود، وتضع على رأسها منديلاً شفافاً رقيقاً زادها فتنة. وقد ألقت على كتفيها شالاً زينت رباطه فوق صدرها بحلية ذهبية كبيرة. إنها بلا شك كانت تنتظر شخصاً ما. وقد بدا عليها الملل ونفاد الصبر، وهي مستلقية على الاريكة، فكانت ممتقعة الوجه محمرة العينين والشفتين. وكانت لا تفتأ تضرب متكأ الاريكة بطرف قدمها اليمنى. وقد احدث وصول راكيتين واليوشا جلبة خفيفة. وقفزت غروشينكا بخفة عن الاريكة وتناهى صوتها إلى سمعهما وهي تنادي مذعورة: «من القادم»؟ كانت

الخادم قد استقبلت الزائرين فمضت إلى سيدتها مباشرة.

ـ إنه ليس هو، لا شيء جديد، إنهما زائران آخران.

وتمتم راكيتين وهو يتقدم اليوشا نحو غرفة الجلوس: ماذا تراه قد حدث؟

كانت غروشينكا واقفة أمام الاريكة كانها ما تزال جزعة. وقد افلتت خصلة من شعرها من تحت المنديل وسقطت على كتفها الأيمن، ولم تلحظ سقوطها ولم تصلحها إلا بعد أن حدقت في الزائرين وعرفتهما.

فهتفت مستغربة: أهذا أنت يا راكيتين؟ لقد افزعتني. من احضرت معك؟ يصحبك؟ يا إلهي، لقد احضرته معك!» كانت العبارة الاخيرة تعبيراً عن معرفتها بأنه اليوشا.

فقال راكيتين بلهجة الصديق الودود المدل الذي يتمتع بحق اصدار الأوامر في المنزل: اطلبي تحضير الشموع.

وهتفت غروشينكا: الشموع... طبعاً، الشموع... فينيا، أحضري شمعة... حسناً، أية لحظة اخترت لإحضاره! قالت ذلك وهي تومىء برأسها إلى اليوشا، ثم اتجهت إلى المرآة وأخذت تضفر شعرها بكلتا يديها وبحركة سريعة وبدا عليها عدم الرضى.

فسألها راكيتين وقد شعر بالمهانة: إذاً فقد عجزت عن ادخال البهجة على نفسك؟

ـ لقد افزعتني، يا راكيتين، إن هذا ما فعلته. ثم التفتت إلى اليوشا مبتسمة وقالت: «لا تفزع مني، يا عزيزي اليوشا، إنك لا تستطيع أن تتصور مدى سروري برؤيتك، يا زائري غير المنتظر. أما أنت يا راكيتين، فقد أفزعتني جعلتني اعتقد أن ميتيا اقتحم المنزل. لقد خدعته قبل برهة وجيزة، وانتزعت منه وعداً بتصديقي، بعد أن كذبت عليه. فقد قلت له أنني سأقضي المساء عند العجوز كوزما كوزميتش، لأعدّ له نقوده، وهذا سيستغرق قسماً كبيراً من الليل. كنت معتادة أن امضي عنده أمسية كاملة في الاسبوع لأساعده في قيد حساباته. إنه يقفل الغرفة علينا وحدنا، ويشرع في عد النقود وقراءة قوائم الحسابات واقوم أنا بمهمة التسجيل في الدفاتر. إنني الشخص الوحيد الذي

يثق به. إن ميتيا يعتقد بأنني ما زلت هناك، وأنا هنا أحبس نفسي، لأنني اتوقع نبأ. كيف سمحت لكما فينيا بالدخول؟ فينيا، فينيا اسرعي إلى الباب الخارجي وافتحيه وراقبي الكابتن! قد يكون مختبئاً في مكان ما، يراقبنا منه. إنني شديدة الخوف.

ـ لا وجود لأحد، يا غرافينا الكسندروفنا، فقد كنت اراقب قبل فترة وجيزة، ولا افتأ استرق النظر من خلال شق الباب، لأنني ارتجف خوفاً.

ـ وهل أقفلت النوافذ يا فينيا؟ لنسدل الستائر أيضاً، فهذا آمن لنا! وقد تولت بنفسها اسدال الستائر السميكة، ثم توجهت إلى اليوشا تقول: إنه سيقتحم المنزل فوراً لو رأى النور ينبعث منه، إنني خائفة اليوم من أخيك ديمتري، يا اليوشا.

وكانت غروشينكا تتكلم بصوت عال، وتبدو عظيمة السعادة لسبب ما برغم خوفها.

وقال راكيتين مستوضحاً: وما الذي يجعلك تخافين ديمتري اليوم إلى هذا الحد؟ يقيني أنك لا تخافينه، وإنه اطوع لك من بنانك.

ـ إن سبب خوفي هو أنني أتوقع وصول نبأ لا يقدر بثمن، فمهما كلف الأمر لا أريد أن التقي بميتيا ابداً. إنه لم يصدق، اعتقد بأنه لم يصدق أنني سأبقى في منزل كوزما كوزميتش، ولا بد أنه الآن يترصد خروجي، من مكمنه في الحديقة الواقعة خلف منزل فيودور بافلوفيتش. وإذا كان هناك فعلاً، فإنه لن يأتي إلى منزلي، وهذا من حسن حظي! ولكنني كنت فعلاً في منزل كوزما كوزميتش، وقد أوصلني ميتيا إليه. لقد انبأته أنني سأبقى هناك حتى منتصف الليل، وطلبت إليه أن يحضر إلى هناك بالتأكيد منتصف الليل لكي يرافقني إلى منزلي. وقد مضى ومكثت أنا عشر دقائق مع كوزما كوزميتش ثم عدت إلى منزلي ثانية. آه، لقد كنت خائفة، وقد هربت لخوفي من الاجتماع به.

ـ ولماذا ترتدين هذه الملابس؟ كم هي غريبة قبعتك؟

ـ كم أنت غريب، يا راكيتين! لقد قلت لك إنني اتوقع رسالة. وإذا وصلت الرسالة فإنني سأبرح هذه المدينة بمثل لمح البصر ولن تروني بعد

ذلك ولهذا السبب ارتديت هذه الملابس، لكي أكون مستعدة.

- وإلى أين سترحلين؟

- إذا عرفت أكثر مما يجب أن تعرف، شبت قبل الأوان.

- قسماً بشرفي، إنك عظيمة السرور... إنني لم اشاهدك بهذه الحالة قبل اليوم. إن لباسك هذا يرجح ذهابك إلى حفلة راقصة. وأخذ راكيتين يصعد نظره فيها.

- ما اوسع اطلاعك على امور الحفلات الراقصة!

- وهل تعرفين أنت الكثير عنها؟

- لقد رأيت حفلة راقصة اقيمت منذ سنتين بمناسبة اقتران ابن كوزما كوزميتش، وكنت ارقبها من الشرفة. ولكن هل تعتقد بأنني راغبة في التحدث معك يا راكيتين بينما يقف هنا أمير كهذا. أي زائر عظيم! اليوشا، يا فتاي العزيز، إنني أحدق فيك فلا اصدق عينيّ. يا الهي، احقاً أنك قد أتيت لتراني! لم يخطر حقاً ببالي قط أن أراك، ولم افكر في أنك ستأتي يوماً ما لتراني. إنني عظيمة السرور برؤيتك وإن كان مجيئك في غير الوقت المناسب الآن، اجلس على الاريكة، هنا، حسناً فعلت، يا قمري المضيء. إنني الآن عاجزة عن كبت عواطفي... آه، يا راكيتين، كم تمنيت أن تحضره يوم أمس أو الذي قبله! ولكنني مسرورة على أية حال! ولعله من الأفضل أن حضوره تم اليوم وفي هذه البرهة، ولم يتم يوم أمس الأول.

وجلست مرحة على الأريكة إلى جانب اليوشا، وأخذت تنظر إليه ودلائل البهجة العظيمة بادية عليها لقد كانت في الحقيقة مسرورة، ولم تكن كاذبة في قولها. تألقت عيناها وضحكت شفتاها ضحكة المرح البريء. ولم يكن اليوشا متوقعاً أن تبدو لطيفة هكذا. فهو لم يكن التقاها حتى اليوم السابق، وقد كان راسخاً في ذهنه فكرة مرعبة عنها، وحصل له ألم شديد في اليوم السابق بسبب خدعتها الدنيئة المعبرة عن الحقد لكاترينا ايفانوفنا. وإذ الفاها الآن مختلفة كلياً عما كان يتوقع، وجد نفسه مدهوشاً للغاية. إن بصره قد توقف عندها، وهو ينظر إليها باهتمام وبصورة غير طوعية. ولاحظ تبدلاً جيداً في طباعها كلها منذ يوم أمس، وغابت عن صوتها تلك العذوبة البغيضة

وتلك الرشاقة المثيرة للحس في حركاتها.

كان كل ما فيها يدل على البساطة والكياسة، وكانت حركاتها سريعة، تنم عن الصراحة والثقة بالنفس، ولكن الاضطراب الشديد كان يتملك غروشينكا.

وعادت إلى الكلام قائلة: رباه، كيف جاءت جميع الأمور معاً اليوم. إنني لا أدري سبب سروري برؤيتك يا اليوشا! فلو سألتني عن السبب لوجدتني عاجزة عن الجواب.

فقال راكيتين وهو يبتسم بخبث: مهلاً، ألا تدرين سبب سرورك؟ كنت تلحين علي باستمرار باحضاره، وكانت لك غاية في ذلك، كما اعتقد.

- أجل، ولكنها غاية تختلف عن غايتي الآن، ولكن كفى حديثاً عن الموضوع فليس هذا أوانه. إنني أريد أن اقدم لكما شيئاً لذيذاً. إنني منشرحة اليوم. إجلس أنت أيضاً، يا راكيتين، لماذا لا تزال واقفاً؟ إذاً فقد جلست ولم تنتظر حتى ادعوك للجلوس؟ إنه لا خوف من أن يهمل راكيتين العناية بنفسه. أنظر يا اليوشا، إنه يجلس هناك في مواجهتنا. وقد شعر بالمهانة لأنني لم أدعه للجلوس قبل أن ادعوك. واردفت تقول ضاحكة: آه، إن راكيتين سريع التأثر بالمهانة! إنني بشوشة اليوم يا راكيتين فلا تغضب مني. ثم قالت وهي تسترق النظر إلى عيني اليوشا بسخرية مرحة: لماذا تبدو منقبض النفس يا اليوشا، هل أنت خائف مني؟

فزمجر راكيتين قائلاً: إنه حزين، لأن العلاوة لم تعط.

- أية علاوة؟

- إن رائحة التفسخ تتصاعد من ناسكه.

- ماذا؟ إنك تقول قولاً سخيفاً، إن غايتك من الحديث الرداءة والإساءة. اصمت أيها الغبي! دعني، يا اليوشا، اجلس على ركبتك، هكذا. قالت ذلك وهي تقفز فجأة إلى الإمام ثم استقرت كالهرة الأليفة جالسة على ركبته وهي تضحك، وطوقت عنقه بذراعها اليمنى. ثم قالت: سأبعث الانشراح في نفسك، يا فتاي التقي. أجل، حقاً سأفعل ذلك أتسمح لي بالجلوس على ركبتك؟ ألن تغضب مني؟ إذا طلبت مني أن ابتعد، لبيت فوراً.

غير أن اليوشا لم ينبس ببنت شفة، بل ثبت جالساً خشية أن يأتي بأية حركة لقد سمع كلماتها الأخيرة ولكنه لم يجب عنها. لم يكن في قلبه شيء مما كان راكيتين مثلاً يتوقع أو يتصور، وهو جالس في زاويته يرقب اليوشا بنظرات شريرة. إن الاسى العظيم الذي ملأ قلب اليوشا كان طاغياً على كل عاطفة أخرى يمكن أن تضطرم في نفسه. ولو كان خالي البال في تلك اللحظة، لتحقق من أنه كان يملك عندئذ اقوى درع يحميه من الشهوات والتجارب. ولكنه رغم الجمود الروحي المبهم الذي استحوذ عليه، والحزن الذي كان يعصر قلبه، شعر بعاطفة جديدة غريبة في قلبه، ووجد نفسه يتساءل عن سرها. إن هذه المرأة، هذه المرأة «الرهيبة»، لا ترعبه الآن، ولا تثير في نفسه شيئاً من الرعب الذي كان يتملكه بمجرد أن تعبر فكرة النساء ذهنه. بل على نقيض ذلك، فإن هذه المرأة الأكثر رهبة من سائر النساء، والتي تجلس الآن على ركبته، وتضمه بين ذراعيها، تثير الآن في نفسه شعوراً فذاً مختلفاً لم يكن يتوقعه، شعوراً بالاهتمام في اوسع واطهر حالاته، ولا يشوبه أثر من آثار الرعب الذي كان يملأ جوانبه فيما مضى. وكان هذا مما أدهشه بالغريزة.

وصاح راكيتين قائلاً: لقد اسمعتنا الكفاية من سخيف الحديث، وحبذا لو قدمت إلينا الآن شيئاً من الشمبانيا. إنك مدينة لي بها، وأنت تعلمين ذلك!

ـ أجل، أنا حقاً مدينة بها، هل تعلم، يا اليوشا، إن الشمبانيا كانت رأس وعودي له إذا احضرك إلي؟ سأتناول شيئاً من الشمبانيا أنا أيضاً. فينيا، فينيا، أحضري الزجاجة التي تركها ميتيا! ألا فاعلم يا راكيتين أنني مع بخلي لا أضن بزجاجة، ولكن ليس لك، يا راكيتين، لأنك قذر، أما هو فإنه يعرف من أين تؤكل الكتف. إنني سأتناول معك شيئاً من الشراب، فإنني أتوق إلى الترفيه، ذلك أن امراً آخر يشغلني كلية.

فقال راكيتين متسائلاً، وهو يبذل جهد طاقته للتظاهر بأنه لم ينتبه إلى العبارات المقذعة التي كانت ترميه بها باستمرار: ولكن ماذا دهاك؟ وهل يمكنني السؤال عن ماهية هذه الرسالة؟ أم أنها أحد اسرارك؟

فأجابت غروشينكا بصوت بدت فيه بغتة رنة القلق، وهي تلتفت نحو راكيتين مبتعدة بجسمها قليلاً عن اليوشا، مع بقائها جالسة على ركبته مطوقة

عنقه بذراعها: إنها ليست سراً، وأنت مطلع عليها أيضاً. إن صاحبي الضابط قادم، يا راكيتين، إنه قادم.

ـ لقد نمي إليّ أنه قادم، ولكن أهو في مكان قريب؟

ـ إنه الآن في موكرو، وقد ابلغني كتابة أنه سيبعث إلي برسول من هناك. الرسالة تلقيتها منه اليوم. وها أنا اتوقع وصول الرسول بين لحظة وأخرى.

ـ لم تطلعيني على هذا! ولم هو موجود في موكرو؟

ـ إن لهذا قصة طويلة، ويكفي ما اخبرتك به.

ـ سيقدم ميتيا على عمل ما، هذا هو رأيي! أعالم هو بذلك؟

ـ هو عالم! إنه لا يعرف بطبيعة الحال، ولو عرف بالأمر لوقعت جريمة قتل، ولكن هذا ليس ما يخيفني الآن، إنني لا أخاف مديته. اصمت، يا راكيتين، ولا تذكرني بديمتري فيودوروفيتش، فقد حطم قلبي، لا أريد أن افكر بهذا الآن. يكفيني الآن أن افكر باليوشا، وأن امتع نظري برؤيته... ابتسم لي يا حبيبي، ولينعم بالك، ابتسم لحماقتي وسروري... آه، إنه يبتسم، إنه يبتسم! ما الطف نظرته إلي! هل تعلم، يا اليوشا، أنني كنت حتى الآن أظن بأنك غاضب علي، بسبب ما حدث أول أمس في منزل تلك السيدة. لقد اسففت في الدناءة، تلك هي الحقيقة بعينها... ولكن حدوث الأمر على تلك الصورة كان شيئاً حسناً. إن ما حدث كان فظيعاً، ولكنه كان حسناً أيضاً. وأضافت غروشينكا مبتسمة: لقد انبأني ميتيا بأنها كانت تنتحب وتقول أني استحق الجلد، لقد بالغت باهانتها. إنها هي التي دعتني إليها، وكانت تبغي أن تقهرني، وأن تستميلني إلى جانبها بالحلوى... إنه لحسن الحظ أن الأمر انتهى على تلك الصورة. وابتسمت مرة أخرى ثم قالت: ولكنني ما زلت أخشى أن تكون غاضباً.

فقال راكيتين فجأة وقد بدت عليه أمارات الدهشة البالغة: أجل، إن هذا صحيح. إنها يا اليوشا تخاف من فتى غر مثلك.

ـ أنت تراه فتى غراً، يا راكيتين... لأنك عديم الضمير، هذه حقيقة. إنني أحبه بكل جارحة من جوارحي، وهذه هي حقيقة أيضاً أتصدق يا اليوشا

أنني أحبك حباً ملك علي نفسي؟

ـ أيتها المرأة الوقحة! إنها تبثك غرامها يا الكسي!

ـ وماذا إن كنت أحبه!

ـ وصاحبك الضابط؟ وأين أصبحت الرسالة النادرة التي جاءتك من موكرو؟

ـ إن هذه مسألة أخرى.

ـ كذلك تنظر النساء إلى الأمور!

فصرخت به غروشينكا محتدة: لا تثر غضبي، يا راكيتين. تلك مسألة اخرى، وأنا أحب اليوشا حباً يختلف عن حبي للضابط. لا أنكر يا اليوشا أنني كنت أخطط فيما مضى لأوقعك في حبائلي. فأنا مخلوقة عنيفة رهيبة. ولكنني كنت أنظر إليك يا اليوشا في أوقات اخرى كمرشدي. وكنت دائمة التفكير: لماذا ينبغي لإنسان مثله أن يحتقر مخلوقة مثلي. وقد فكرت بهذا أول أمس في طريق عودتي من منزل السيدة الشابة إلى منزلي، إنك كثيراً ما شغلت علي تفكيري بهذه الطريقة يا اليوشا، وميتيا يعرف هذا، فقد حدثته عنه، وهو يدرك علة تفكيري. هل تصدقني إذا قلت أنني أشعر بالخجل أحياناً إذا ما نظرت إليك، أشعر بخجل شديد من نفسي. ولكنني لا أذكر كيف ومتى راودني هذا التفكير بك.

ودخلت فينيا تحمل طبقاً عليه زجاجة مفتوحة وثلاث كؤوس مسكوب فيها الشمبانيا فوضعتها على المنضدة.

فصاح راكيتين: ها هي الشمبانيا! إنك مضطربة، يا اغرافينا الكسندروفنا، ولست كما عهدتك. إنك ستجدين في نفسك رغبة للرقص بعد أن تتناولي كوباً من الشمبانيا. وأردف يقول، وهو ينظر إلى الزجاجة: وحتى هذا لا يفعلنه كمايجب. إن المرأة العجوز قد سكبت الشمبانيا في المطبخ، وبعثت إلينا بالزجاجة ساخنة ومنزوعة الغطاء. ولكن لا بأس، سأحتسي شيئاً منها على أية حال.

وقام إلى المنضدة فتناول كأساً وافرغها في جوفه دفعة واحدة، ثم سكب فيها ثانية.

وقال وهو يلعق شفيته: إن المرء قلما يعثر على الشمبانيا. هيا يا اليوشا خذ كأساً وأرنا براعتك! نخب من سنشرب؟ هل نشرب نخب أبواب الفردوس؟ وأنت أيضاً يا غروشينكا خذي كأسك واشربي نخب ابواب الفردوس.

ـ عن أية أبواب تتكلم؟

وتناولت كأساً، وأخذ اليوشا كأسه فذاقها واعادها إلى مكانها. ثم قال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: «خير لي ألا اشرب».

فصاح راكيتين: «وأنت أيضاً أيها الدعي!»

وقالت غروشينكا بصوتها الرخيم: إذاً، فأنا أيضاً لن أشرب إنني في الحقيقة راغبة عن الشمبانيا. باستطاعتك أن تشرب الزجاجة بكاملها وحدك يا راكيتين، أما إذا شرب اليوشا فسأجاريه.

فقال راكيتين ساخراً: يا للعواطف المؤثرة! إنها تجلس على ركبته أيضاً! لكنه محزون، ولكن ماذا دهاك؟ إنه يتمرد على ربه وهو مستعد لأكل القديد...

ـ وكيف ذلك؟

ـ لقد توفي اليوم ناسكه، الأب زوسيما، القديس.

فهتفت غروشينكا: «إذاً فقد توفي الأب زوسيما. يا إلهي، لم أعلم بوفاته! واضافت، وهم ترسم شارة الصليب مظهرة التقوى: رباه، ما هذا الذي كنت افعله، إذ جلست على ركبته في مثل هذا الظرف! ونهضت بسرعة عن ركبته كأنها اصيبت بخيبة أمل، وأخذت مكاناً على الاريكة.

وحدجها اليوشا بنظرة طويلة تنم عن الاستغراب، وبدا كأن نوراً قد اشرق في وجهه. ثم قال بغتة بصوت ثابت مرتفع: راكيتين، لا تعيرني بالتمرد على الله. فأنا لا أريد مخاصمتك، ويجب أن تكون أكثر دماثة خلق. لقد فقدت كنزاً لم تحظ قط بمثله، وليس في مقدورك أن تدينني الآن. وخير لك أن تنظر إليها، ألا ترى كيف رثت لحالي؟ لقد جئت إلى هذا المكان وأنا متوقع لقاء إنسان شرير فقد انجذبت إلى الشر لأنني كنت دنيئاً شريراً، فما لبثت أن وجدت أختاً مخلصة، وجدت كنزاً، وجدت قلباً محباً لقد رأفت بي

الآن.. إنني اتحدث عنك يا اغرافينا الكسندروفنا، لقد انتشلت روحي من الأعماق.

وكانت شفتا اليوشا ترتعشان، ونفسه مبهوراً.

وقال راكيتين ضاحكاً، وهو يضمر الحقد: لقد خلصتك، كما يبدو. في حين تريد أن توقعك في حبائلها، فهل أدركت ذلك؟

فقفزت غروشينكا من مكانها قائلة: صمتاً يا راكيتين. اصمتا كلاكما. الآن، سأكشف لكما عن حقيقة الأمر اصمت يا اليوشا لأن كلماتك تخجلني، فأنا شريرة لا كريمة الخلق، هكذا أنا. أما أنت يا راكيتين فاصمت لأنك تكذب. لقد كانت لدي فكرة دنيئة بأن احاول ايقاعه في حبائلي، أما الآن فإنك تكذب، إذ الأمر يختلف تماماً الآن. ولست أريد أن أسمع شيئاً منك بعد الآن يا راكيتين.

كانت غروشينكا وهي تقول ذلك مندفعة للغاية.

فقال راكيتين وهو ينظر إليهما مندهشاً: إنهما معتوهان، يبدو لي أنني في مستشفى للمجانين. إن قواهما العقلية تنهار حتى ليبدو لي أنهما سيبكيان بعد قليل.

ومضت غروشينكا قائلة: سأبكي، نعم سأبكي. لقد دعاني أخته ولن أنس ذلك. دعني انبئك يا راكيتين أنني وإن كنت شريرة، فقد تصدقت ببصلة.

- بصلة؟ تباً لكل هذا، إنك معتوهة حقاً.

ولقد اثارت حماستهما عجب راكيتين وغدا مبتئساً متضايقاً، مع أنه ربما قد تبادر إلى ذهنه أن كل واحد منهما كان يواجه محنة روحية نادراً ما يمر بها الإنسان في حياته. إن راكيتين كان شديد التأثر بكل ما يتعلق به، أما مشاعر الآخرين فلم تكن تهزه أو يكترث لها. أما السبب فحداثة سنه وقلة تجاربه في الحياة من جهة، واانانيته العظيمة من جهة أخرى.

والتفتت غروشينكا إلى اليوشا وهي تضحك بعصبية وقالت: إني أردت المباهاة عندما قلت لراكيتين أنني تصدقت ببصلة، أما إذا كان قولي موجهاً لك أنت فليست المباهاة ما أريد. إنها قصة فحسب، ولكنها قصة جميلة،

وكنت اسمعها في طفولتي من طاهيتي ماتريونا التي ما زالت ترافقني. وهاك القصة:

كانت تعيش في يوم من الأيام السالفة امرأة من الفلاحين، وكانت شريرة للغاية، وقد توفيت بدون أن تخلف عملاً صالحاً واحداً، وقبضت عليها الابالسة والقت بها في بحيرة النار. وجاء ملاكها الحارس يبحث في ذاكرته عن عمل صالح أتته فيرفعه إلى الله. وأخيراً قال: إنها اقتلعت ذات مرة بصلة من حديقتها واعطتها إلى متسولة. فأجابه الله: إذاً فخذ البصلة والق بها إليها في بحيرة النار. فلتمسك هي بطرفها وتسحبها أنت بها. فإذا استطعت أن تسحبها من البحيرة، فدعها تدخل الفردوس، أما إذا انقطعت البصلة فيجب أن تبقى المرأة حيث هي. واسرع الملاك والقى بالبصلة إلى المرأة وقال لها: هلمي، اقبضي عليها فأسحبك. واخذ ينتشلها بحذر، وإذ اوشك أن يخرجها من البحيرة، رأى الخطاة الآخرون كيف كان الملاك ينتشلها، فتعلقوا باطرافها لكي ينتشلهم معها. ولكنها ما زالت المرأة الشريرة للغاية، فأخذت تركلهم بقدميها وتقول: أنا التي يجب أن انتشل لا انتم. فهذه بصلتي وليست بصلتكم. وما كادت تنطق بهذا حتى انقطعت البصلة، وسقطت المرأة في بحيرة النار، وهي ما زالت تحترق إلى يومنا هذا. وقد بكى الملاك وعاد من حيث أتى.

هذه هي القصة يا اليوشا، وقد حفظتها عن ظهر قلب، وأنا لست سوى تلك المرأة الشريرة. لقد كنت أباهي عندما قلت لراكيتين بأنني تصدقت ببصلة، أما لك فأقول: إنني لم أفعل خيراً سوى اعطاء بصلة واحدة طوال حياتي. إنه الصنيع الحسن الوحيد الذي صنعته في حياتي. ولذلك لا تبالغ في مديحي، يا اليوشا، إنني امرأة سيئة عكس ما تتصور وإنك تخجلني إذ تمدحني، إنني شريرة. يجب أن اعترف بكل شيء، فاسمعني جيداً يا اليوشا. لقد كنت شديدة الرغبة في أن تقع بين يدي حتى أنني وعدت راكيتين بخمسة وعشرين روبلاً إذا احضرك إلي. مكانك، يا راكيتين، انتظر!

وأسرعت إلى المنضدة وفتحت فيها درجاً اخرجت منه حافظة نقود فأخذت منها ورقة نقدية من فئة خمسة وعشرين روبلاً.

فصاح راكيتين مضطرباً: «أية سخافة هذه! أية سخافة!»

- خذها يا راكيتين، فأنا مدينة بها لك، ولا خوف من أن ترفضها، لأنك طلبتها بنفسك. وألقت إليه بالورقة النقدية.

بدا راكيتين مرتبكاً ولكنه حاول تمويه ارتباكه فزمجز قائلاً: من المحتمل أن ارفضها، لقد اتت في الوقت المناسب. إن الاغبياء وجدوا لمنفعة العقلاء.

- والآن احبس لسانك عن الكلام، يا راكيتين، فإنك لن تحتمل ما أقوله. الزم مكانك ولا تأت بأية حركة. إنك لا تحبنا فاحبس لسانك عن الكلام.

فقال راكيتين غير مبال باخفاء لؤمه: وما الذي يحملني على أن احبكما؟ وقد شعر بالخجل وهو يدس الخمسة والعشرين روبلاً في جيبه لقد رآه اليوشا يفعل ذلك. وكان يحسب أنه سينال مكافأته فيما بعد، خفية عن اليوشا، أما الآن وقد شعر بالخجل، فإنه فقد سيطرته على نفسه. وكان حتى تلك اللحظة يرى أن الحكمة تفرض التروي في مشاكسة غروشينكا واهمال عباراتها اللاذعة له، لأنه كان طامعاً في الحصول على شيء منها، ولكن الغضب استبد به الآن فقال:

إن المرء يحب الناس لسبب أو لآخر فما هو سببكما؟

- ينبغي عليك أن تحب الناس لغير سبب، كما يفعل اليوشا.

- وكيف يحبك؟ متى اثبت حبه لك حتى تكثرين من الحديث عن حبه؟

كانت غروشينكا واقفة في وسط الغرفة، وتتكلم باندفاع، بصوت تمازجه نبرات هستيرية:

اصمت يا راكيتين، إنك لا تعرف شيئاً عنا! وحذار من التكلم معي بهذه اللهجة بعد ذلك. كيف تجرؤ على مخاطبتي بمثل هذه الدالة؟ اقبع في هذه الزاوية ولا تأت بحركة، كما لو كنت احد خدمي. والآن يا اليوشا سأطلعك على الحقيقة كاملة لتعرف مدى تعاستي! إنني لا اتحدث إلى راكيتين بل إليك. لقد كنت ابغي تدمير سيرتك يا اليوشا، تلك هي الحقيقة

المقدسة؛ وكنت جادة في ذلك. وكانت رغبتي في ذلك شديدة حتى إني رشوت راكيتين لكي يأتيني بك. وما سبب اقدامي على هذا العمل؟ إنك تجهل كل شيء عن ذلك يا اليوشا، فكنت إذا ما مررت بي تشيح ببصرك عني أو تطرق. ولقد تطلعت إليك مائة مرة قبل اليوم، وشرعت أسأل الجميع عنك. وكانت صورة وجهك تلاحقني. حدثت نفسي: إنه يحتقرني ويأبى حتى أن ينظر إلي. وكان أثر ذلك بالغاً عليّ حتى عجبت من نفسي لأن صبياً يخيفني، فقلت: سأوقعه في حبائلي واسخر منه. وكانت نار الحقد والغضب تتأجج في صدري. وهل تصدق أن لا أحد في هذه المدينة يجرؤ على القول أنه سيقصد اغرافينا الكسندروفنا لغاية سيئة، أو على التفكير في مثل ذلك. إن الرجل الوحيد الذي تربطني به صلة في هذه المدينة، هو كوزما العجوز. لقد ارتبطت به وابتاعني، وجمع الشيطان بيننا، ولكن ليس هناك إنسان سواه. غير أنني بعد أن نظرت إليك قلت في نفسي سأوقعه في حبائلي واسخر منه. هل ادركت الآن كم أنا حقودة دنيئة. ومع ذلك فقد دعوتني أختك! والآن حضر ذلك الرجل الذي خانني؛ وها أنا أجلس هنا اترقب ورود رسالة منه. هل تعلم نوع العلاقة التي كانت تجمعني بذلك الرجل؟ لقد كان دأبي، قبل خمس سنوات حين أتى بي كوزما إلى هذه المدينة، أن أحبس نفسي في المنزل لئلا يراني أحد أو يسمع صوتي. كنت فتاة سخيفة؛ وكان من عادتي أن اجلس هنا منتحبة وأن اقضي الليل ساهرة وأنا افكر أين هو الآن، ذلك الرجل الذي خانني؟ الأرجح أنه الآن يسخر مني مع امرأة أخرى. سأنتقم منه حين آراه. آه لو تجمعني به الأيام مرة أخرى! كنت أمضي الليل مستلقية على فراشي ويدوم بكائي حتى أبلل وسادتي بدموعي في الظلام. وكنت اطيل التفكير في الأمر، وأنكأ قلبي عامدة واتلذذ بغضبي. ثم أودع الظلام وعداً: سأنتقم منه، سأنتقم منه. وإذا ما تبادر إلى ذهني فجأة أنني في الواقع لن أمسه بأذى، وأنه كان يضحك مني عندئذ، أو ربما كان قد نسيني نسياناً تاماً، كنت انطرح على الأرض واستسلم للعبرات، ويظل جسمي يختلج حتى الفجر. وكنت انهض مع تباشير الصباح الأولى وقد استبد بي الحقد والرغبة الجامحة في تمزيق العالم بأسره إرباً إرباً. وما تظن أنه حدث بعد

ذلك؟ لقد بدأت ادخر المال، وصرت قاسية القلب، صعبة المراس وازددت تعقلاً، فهل توافق على هذا؟ كلا، فليس في العالم كله من يرى هذا الرأي، وما من أحد يعلم به، ولكن إذا ما أقبل الليل، فإنني أحياناً استلقي على سريري كما كنت أفعل قبل خمس سنوات، عندما كنت فتاة حمقاء، فأصرف اسناني، وامضي الليل بطوله باكية مرددة في نفسي: سانتقم منه، سأنتقم منه! هل تسمعني؟ حسناً، فأنت الآن تفهمني. وصلتني رسالة منذ شهر يعلمني فيها أنه قادم وأنه ارمل ويريد أن يراني. وقد بهرت انفاسي، وفكرت فجأة: إذا جاء ودعاني إليه فإنني سأزحف نحوه كما يزحف الكلب بعد ضربه. وكذبت نفسي. فهل بلغت بي الحقارة هذا الحد؟ هل أعود إليه أم لا أعود؟ وبقيت في نزاع شديد مع نفسي طيلة هذا الشهر حتى ساءت حالي عما كانت قبل خمس سنوات. فهل ترى الآن، يا اليوشا، أي مخلوقة عنيفة محبة للانتقام أنا؟ إنها الحقيقة، بكاملها، كما رويتها لك. كنت الهو مع ميتيا لكي انصرف عن التفكير بالعودة إلى الرجل الآخر. صمتاً يا راكيتين، فليس من حقك اداني، وحديثي ليس موجهاً إليك. لقد كنت قبل وصولك مضطجعة هنا اترقب، وافكر كيف سيكون مصيري، ولست قادراً على معرفة مكنونات صدري. نعم يا اليوشا، قل للسيدة الشابة ألا تنقم علي بسبب ما حدث يوم أمس الأول... إن ما أعانيه الآن لا يعلمه أحد في العالم كله، ولن يعلمه في أي يوم من الأيام... إذ ربما أخذت معي اليوم مدية. إنني لا استطيع أن أحزم رأيي...

وعندما نطقت غروشينكا بهذه العبارة «المفجعة» اجهشت بالبكاء، واخفت وجهها بيديها والقت بنفسها على وسائد الاريكة وطفقت تنشج كالطفل الصغير.

ونهض اليوشا واتجه نحو راكيتين، وقال له:

لا تغضب يا ميشا، لقد جرحت كبرياءك، ولكن لا تحقد عليها. ألم تسمع ما قالت الآن؟ ينبغي ألا تطالب الإنسان أكثر من طاقته على الجلد وقوة الاحتمال، إذ ينبغي على المرء أن يكون رحيماً.

صدرت هذه الكلمات من قلب اليوشا بدافع غريزي. فقد شعر بأن الموقف يتطلب منه أن يقول شيئاً فاتجه إلى راكيتين. ولو لم يكن راكيتين

موجوداً، لخاطب الهواء. غير أن راكيتين حدجه بنظرة ساخرة فلزم اليوشا الصمت.

قال راكيتين وقد افتعل ابتسامة الكراهية: «إنك تزودت بتعاليم ناسكك في الليلة البارحة لكي تصبها علي الآن دفعة واحدة، يا الكسي البار!»

فصاح به اليوشا والعبرات تكاد تخنق صوته: «لا تسخر، يا راكيتين، ولا تبتسم ولا تتحدث عن الرجل الميت، فقد كان خير البشر. إنني أكلمك لا كديان بل كأحقر المدانين. وما قيمتي إلى جانبها؟ لقد اتيت هنا انشد الدمار لنفسي، وقلت في نفسي بدافع من الجبن: أي بأس في ذلك؟ أما هي التي تعذبت خمس سنوات فإنها بمجرد أن تسمع كلمة صادقة حقاً من أي إنسان، حتى تنسى كل شيء، وتصفح عن كل شيء باكية! إن الرجل الذي خانها قد عاد إليها، وإذ دعاها غفرت له كل شيء، وستسرع إليه مرحة فرحة ولن تأخذ معها مدية. إنها لن تأخذ! كلا، إنني لست من طينتها، وأجهل إذا ما كنت أنت من طينتها يا ميشا، أما أنا فلست كذلك. إن في هذا عبرة لي... إن محبتها اعظم من محبتنا... هل سمعتها مرة في حديث مثل هذا الذي سمعناه الآن؟ كلا، إنك لم تسمعها؛ ولو سمعتها لفهمت خفايا نفسها منذ أمد بعيد... والمرأة التي أهينت أول أمس يجب أن تصفح عنها أيضاً! إنها ستصفح، متى علمت... وستعلم... إن هذه الروح ما زالت في خصام مع نفسها، ويجب على المرء أن يترفق بها... فقد يكون في هذه الروح كنز...»

وتوقف اليوشا عن الكلام مبهور النفس. أما راكيتين فكان ينظر إليه مذهولاً، على الرغم من لؤمه. فلم يكن قط يتوقع من اليوشا الرقيق خطبة كهذه. ثم صاح وهو يضحك ضحكة مجلجلة:

لقد وقعت على شخص يدافع عن قضيتها! ماذا، هل وقعت في غرامها؟ إن راهبنا يا أغرافينا الكسندروفنا متيم بك، لقد انتصرت عليه.

ورفعت غروشينكا رأسها عن الوسادة، ونظرت إلى اليوشا وعلى ثغرها ابتسامة رقيقة اشرق بها وجهها المبلل بالدموع. وقالت:

دعه وشأنه يا اليوشا، يا ملاكي الطاهر، فأنت ترى أي إنسان هو، إن

ميخائيل اسبوفيتش ليس أهلا لأن تتحدث إليه. ثم حولت بصرها إلى راكيتين قائلة: كنت أنوي أن استسمحك بسبب فظاظتي معك، أما الآن فقد غيرت رأيي. اليوشا، اقترب مني، اجلس هنا. وأومأت إليه بابتسامة تنم عن السعادة، ثم تابعت كلامها وهي تسترق النظر إلى وجهه مبتسمة، وقد اخذت يده بيديها: حسناً صنعت، إجلس هنا. والآن قل لي، هل أحب ذلك الرجل أم لا أحبه؟ الرجل الذي أجبرني على الزلل، هل أحبه أم لا أحبه؟ قبل أن تأتي كنت مستلقية على الاريكة في الظلام احقق مع نفسي إذا كنت احبه فبت في أمري، يا اليوشا. لقد آن الأوان. وسأنفذ ما تقول. هل يجب أن اغفر له أم لا؟

فقال اليوشا مبتسماً: ولكنك غفرت له.

فتمتمت غروشينكا ساهمة: نعم، لقد غفرت له فعلاً. يا لشقائي يا لشقائي! وتناولت بعنف كوباً عن المنضدة فأفرغته في جوفها مرة واحدة، ورفعته في الهواء وقذفت به إلى الأرض، فتحطم. وتحولت ابتسامتها إلى شيء من القسوة.

ثم قالت برنة صوت جامد، وقد اطرقت إلى الأرض كما لو كانت تحدث نفسها: لعلي لم اصفح عنه، لعلي ما ازال أتهيأ للصفح عنه. سأغالب قلبي. ها أنت ترى يا اليوشا أنني قد ألفت الدموع في هذه السنوات الخمس.. ولعلي احب غيظي فحسب ولا أحبه...

فهمس راكيتين قائلاً: إنني لا أعبأ بأن أكون في مكانه.

- إنك لن تكون في مكانه يا راكيتين، فأنت لست أهلاً سوى لتنظيف حذائي. إنك لن تحظى قط بامرأة مثلي.. حتى هو أيضاً قد لا يحظى بامرأة مثلي...

فقال راكيتين وهو يودع الخبث في ابتسامته: إذا كان لن يحظى، فلم تريدين إذاً هذه الثياب القشيبة؟

فصاحت به بصوت تجاوب في الغرفة: لا تزجرني يا راكيتين بسبب ارتدائي الثياب القشيبة، فأنت لا تعرف كل شجون قلبي! ولو بدا لي أن امزق هذه الثياب الفاخرة، لمزقتها لتوي، وفي هذه الدقيقة. إنك لا تدري لماذا

أتأنق في لباسي يا راكيتين! فقد اراه وأقول له: هل رأيتني هكذا من قبل؟ لقد خلفني فتاة رقيقة العود، سقيمة البدن باكية أبداً. لا أتجاوز السابعة عشرة من عمري. سأجلس على مقربة منه، وسأسحره واستثيره قائلة: هل ترى كيف صرت الآن؟ حسناً إن هذا يكفيك يا سيدي العزيز، فما أكثر ما تزل قدم الإنسان فيحرم من النعمة بعد أن تكون منه قاب قوسين أو أدنى! وانهت خطابها لراكيتين وهي تضحك بطريقة معبرة عن الحقد. ثم التفتت إلى اليوشا قائلة: إنني عنيفة غضوبة يا اليوشا، سأمزق ثيابي الانيقة، وسأقضي على جمالي، سأحرق وجهي وسأشقه بالسكين ثم اصير متسولة ولو شئت للزمت مكاني وامتنعت عن رؤية أيٍ كان ولو أردت لرددت، منذ الغد، كل الأموال التي اغدقها علي كوزما العجوز، ولعملت خادمة طول حياتي. اتظن بأني عاجزة عن ذلك يا راكيتين، أو لا اجرؤ على تنفيذه؟ إنني استطيع، إنني استطيع، إنني مستعدة لتنفيذه منذ الآن، إياك أن تستثيرني.. سأتركه وشأنه، سأنشب اظافري في وجهه. إنه لن يراني أبداً!

وقد قالت كلماتها الأخيرة وهي تصرخ صراخاً هستيريا، ولكنها ما لبثت أن تداعت واخفت وجهها بين يديها، ثم انطرحت على وسادتها واخذت تنتحب وجسمها يهتز.

نهض راكيتين من مجلسه ثم قال: لقد آن لنا أن ننصرف. لقد تقدم الليل، وسيقفلون أبواب الدير في وجهنا فلا نستطيع الدخول إليه.

فقفزت غروشينكا من مكانها وصاحت بصوت حزين لا يخلو من دهشة: يقيناً إنك لن تذهب يا اليوشا! ماذا عساك فاعل بي؟ لقد اثرت مشاعري وعذبتني، والآن تريد أن تتركني لكي أمضي ليلتي وحيدة!

فقال راكيتين هازئاً: إنه لا يكاد يستطيع أن يقضي الليلة معك! أما إذا أراد فذلك شأنه! سأمضي أنا لوحدي.

فصاحت به غروشينكا غاضبة: اصمت يا ذا اللسان الدنس، إن ما سمعته منه لم يكن ليصدر عنك في حياتك.

وأجاب راكيتين متضايقا: وما هو ذلك الشيء الفذ الذي قاله لك؟

-إنني لا استطيع أن أقول، إنني لا أعرف. لا أعرف الكلام الذي قاله

لي، فقد نفذ به إلى أعماق قلبي، لقد عذب فؤادي... إنه أول إنسان، والوحيد، الذي أشفق علي، إن هذه هي حقيقة الأمر. ثم جثت على ركبتيها كمن أصابه فجأة عارض ما وخاطبت اليوشا قائلة: لماذا لم تأت إلي قبل الآن أيها الملاك؟ لقد ظللت طول حياتي انتظر قدوم إنسان مثلك. وكنت أعلم أن إنساناً مثلك سيأتي ويصفح عني. لقد آمنت بذلك رغم عذابي وادركت أن إنساناً ما سيحبني حباً صادقاً، لا حباً يستحيل عاراً.

فانعطف اليوشا نحوها وهو يتسم ابتسامة رقيقة، ويتناول يديها: ماذا فعلت من أجلك؟ إن جلّ ما فعلته أني اعطيتك بصلة صغيرة تافهة لا غير.

نطق اليوشا بهذه الكلمات وهو يكاد يبكي لفرط التأثر. وفي تلك اللحظة علت ضجة مفاجئة في الممشى، واندفع أحد الرجال إلى داخل القاعة. فوثبت غروشينكا من مكانها فزعاً ودخلت فينيا إلى الغرفة منفعلة وهي تقول مبهورة النفس بادية البهجة: سيدتي، سيدتي العزيزة، لقد جاءك رسول. لقد وصلت عربة من موكرو في طلبك، ويقودها تيموفي بثلاثة جياد، إنهم الآن يبدلون الخيول... كتاب، ها هو الكتاب يا سيدتي.

قالت ذلك، وهي تلوح بالكتاب في يدها فاختطفته غروشينكا من يدها واسرعت إلى الشمعة. ولم يكن مضمونه سوى بضعة اسطر قرأتها في لحظة واحدة.

ثم صاحت وقد امتقع وجهها: لقد ارسل في طلبي؛ إنه يصفر لي! عد إلى الوراء زحفاً أيها الكلب الصغير!

مضت برهة فقط على وقوفها وبدت كأنها مترددة؛ ثم اصطبغ خداها فجأة بلون الدم الذي احتقن وجهها به، ثم صاحت قائلة: سأذهب، أيتها السنوات الخمس من حياتي وداعاً! وداعاً، يا اليوشا، إن مصيري قد تقرر. اذهبوا، اذهبوا جميعاً، ولا تجعلوني أراكم ثانية! إن غروشينكا تطير إلى حياة جديدة.. وأنت يا راكيتين، لا تذكرني بالسوء. قد اكون ساعية إلى حتفي! اشعر كأنني ثملة!

وعلى حين بغتة انطلقت إلى غرفة نومها.

وقال راكيتين متذمراً: حسناً، إنها مشغولة بغيرنا الآن، فلنذهب، قبل أن

نجدد سماع ذلك العويل الانثوي، لقد سئمت كل هذا البكاء والصراخ.

وانقاد له اليوشا بدون وعي إلى خارج المنزل. فلما بلغا الساحة شاهدا عربة مغطاة. وكان الرجال يحملون الفوانيس وهم يجولون في الساحة جيئة وذهاباً بعضهم منهمك في فصل الجياد عن العربة، وبعضهم الآخر يقتاد ثلاثة جياد إلى الساحة من المدخل المفتوح. ولما بلغ اليوشا وراكيتين اسفل السلم، فتحت غروشينكا نافذة غرفة نومها ونادت أليوشا بصوت قاصف:

اليوشا، انقل تحياتي إلى أخيك ميتيا، وقل له أن لا يذكرني بالسوء، إنني سببت له التعاسة. قل له على لساني إن غروشينكا قسمت لرجل نذل، ولم تقسم لك يا حامل القلب النبيل. واضف إلى ذلك أن غروشينكا لم تحبه سوى ساعة واحدة، فليذكر تلك الساعة على قصرها، طيلة حياته وابلغه أن غروشينكا تطلب منك أن تذكر ذلك.

وأنهت كلامها وقد اختنق صوتها بدموعها. واقفلت النافذة بسرعة وعصبية. ضحك راكيتين وقال متمتماً: إنها تقتل أخاك ميتيا ثم تطلب منه أن يذكر ذلك طيلة حياته! ما أقسى هذا!

لم يحر اليوشا جوابا، وكأنه يتجاهل كلامه. وسار بجانب راكيتين مسرعاً، كأنه يريد أن يدرك شيئاً. وكان مستغرقاً في أفكاره يتحرك بلا وعي. أما راكيتين فقد شعر بألم شديد مفاجيء كأن إنساناً نكأ له جرحاً حياً. إنه كان يتوقع شيئاً مختلفاً تماماً من جمعه غروشينكا واليوشا معاً، ولكن ما حصل مختلف تماماً عما كان يتوقعه.

وعاد راكيتين يقول، محاولاً كبح جماح نفسه: إن ضابطها البولندي هذا لم يعد الآن، في الواقع ضابطاً. لقد عمل في الجمارك بسيبريا على حدود الصين. إنه رجل بولندي قميء حقير كما أتوقع أن يكون، قيل إنه طرد من عمله، ولقد بلغه الآن أن غروشينكا جمعت ثروة متواضعة، فعاد إليها. إن هذا هو تفسير السر.

ولم يبد على اليوشا أنه سمع كلامه. ولم يستطع راكيتين أن يتمالك نفسه فضحك ساخراً وقال: حسناً إذاً فقد خلصت الخاطئة؟ هل رددت المجدلية إلى الطريق القويم، وطردت السبعة الشياطين؟ إذاً فقد رأيت تحقيق

المعجزات التي كنت تنشدها الآن!

فأجاب اليوشا بقلب مصدوع: «صه يا راكيتين!»

- إذن فانت تزدريني الآن بسبب الخمسة والعشرين روبلاً؟ لعلك تظن بأنني بعت صديقي. ولكنني لست يهوذا الاسخريوطي وأنت لست المسيح.

فهتف اليوشا قائلاً: مهلاً يا راكيتين، اؤكد لك أنني نسيت هذا الأمر. إنك الآن تعيده إلى ذاكرتي.

وكان هذا آخر ما يحتمله راكيتين، فصاح بغتة: لتنصبّ عليكم اللعنات جميعاً فلا تذر واحداً منكم. بحق الشيطان لم أخذتك إليها؟ إنني لا أريد زمالتك منذ الساعة. فامض وحيداً، فهذه طريقك!

وانحرف إلى شارع آخر تاركاً اليوشا وحده في الظلام. وتابع اليوشا حتى بلغ طرف المدينة ثم اجتاز الحقول قاصداً الدير.



قانا الجليل

بلغ اليوشا الدير في ساعة متأخرة جداً، كما يعتبرها أهل الدير. وقد فتح له البواب باباً خاصاً. وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة، وهي ساعة الراحة والهجوع بعد يوم كان الجميع قد عانوا من ذلك الاضطراب. وقد فتح اليوشا باب غرفة الناسك وجلا ودخلها حيث كان الجثمان مسجى في التابوت. كان الأب بيسي وحده في الغرفة، يتلو فصولاً من الانجيل فوق التابوت وفي الغرفة المجاورة كان الراهب المتبدىء بورفيري مستغرقاً في سبات عميق على الأرض، وقد خارت قواه بسبب حديث الليلة السابقة وحوادث النهار المضنية. ومع أن الأب بيسي شاهد اليوشا وهو يدخل الغرفة، فإنه لم يحول نظره إليه. وسار اليوشا يميناً واتجه من الباب إلى احدى زوايا الغرفة ثم ركع وطفق يصلي.

كانت نفسه تفيض بمزيج من المشاعر؛ ولم تكن واحدة منها لتستقر بارزة وواضحة في ذهنه، بل على نقيض ذلك، كانت لا تلبث أن تدفع بالأخرى وتحل محلها في حركة بطيئة مستمرة. ولكن الانشراح كان يدغدغ روحه. ومن الغريب أن هذا الانشراح لم يثر في نفس اليوشا أية دهشة. إنه الآن مرة أخرى أمام تابوت الإنسان الذي اعزه معزة لا تقدر، ولم يكن يشعر بذلك الأسى الممض الذي كان يعصر قلبه في الصباح وقد دخل الغرفة وجثا لتوه أمام التابوت كأنه يجثو أمام ضريح مقدس، غير أن البهجة كانت تشع في نفسه وفي عقله. وكانت نافذة الغرفة الوحيدة مفتوحة، والهواء العليل النقي يملأ المكان. وقال اليوشا في نفسه: من المؤكد أن النافذة كونها فتحت، فإن الرائحة قد اشتدت. على أن فكرة رائحة الفساد ذاتها، التي بدت له رهيبة مؤلمة قبل ساعات، لم تثر الآن في نفسه أي شعور بالحزن أو النفور. وشرع

يصلي بهدوء. ولكنه ما لبث أن وعى أنه يصلي بشكل آلي، وأن نتفاً من افكار كانت تجول في ذهنه، وتمضي سريعة كوميض النجوم، لتخلفها نتف افكار اخرى. ومع ذلك كان احساسه بكلية الأشياء طاغياً في نفسه، إنه احساس بشيء ثابت يشيع العزاء في النفس، وكان هو نفسه مدركاً له. وكان في بعض الاحيان يصلي بحرارة وخشوع، يرفعه التوق إلى التعبير عما افعمت به نفسه من امتنان ومحبة..

ولكنه كان لا يكاد يبدأ الصلاة حتى ينشغل فكره بشيء آخر، ويغرق فيه، فتغيب عن ذهنه الصلاة ومعها الفكرة التي قطعت عليه صلاته. ثم بدأ يصغي إلى ما يتلوه الأب بيسي من الإنجيل، ولكنه كان شديد الإعياء فأخذ يهوم رويداً رويداً.

وسمع الأب بيسي وهو يقرأ من انجيل يوحنا: «وفي اليوم الثالث، كان عرس في قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك. فدعي يسوع وتلاميذه إلى العرس».

وعصفت الافكار في رأس اليوشا وأخذ يناجي نفسه قائلاً: عرس؟ إن هذا... ليس عرساً! إن السعادة تنتظرها، أيضاً... لقد ذهبت إلى الوليمة.. كلا، إنها لم تأخذ المدية معها... لم تكن تلك سوى عبارة مفجعة... أجل.. إن العبارات المفجعة جديرة أن تغتفر بل يجب أن تغتفر. إنها تدخل العزاء على القلب... وبدونها، لا يقوى الإنسان على احتمال الاسى. لقد مضى راكيتين إلى الزقاق الخلفي... ولكن الطريق العلوية... إن الطريق واسعة مستقيمة وتتألق تألق البلور، والشمس في نهايتها... آه ماذا يتلى الآن؟

واصغى فإذا بالأب بيسي يقرأ: «وفرغت الخمر، فقالت أم يسوع له: ليس عندهم خمر».

وتابع اليوشا مناجاته: بلى، كدت ألا أسمع هذه الآية، وما كان بودي ألا اسمعها، إنني أحب هذا الفصل، فهو يتحدث عن قانا الجليل، المعجزة الأولى آه، المعجزة الأولى! تلك المعجزة الحلوة! إن المسيح لم يزر الناس عندئذ في اتراحهم، بل زارهم في افراحهم، ومن أجل أن يضاعف سرورهم، أتى بأولى معجزاته، وكان يردد دائماً: من احب الناس فقد أحب افراحهم،

أيضاً. وكانت هذه احدى افكاره الرئيسية... إن ميتيا كان يقول أيضاً لا حياة بدون فرح. ميتيا... أجل، ميتيا... وكان لا يفتأ يقول أيضاً؛ كل ما هو حق وصالح يكون دوماً مفعماً بالغفران.

«فقال لها يسوع: ما لي ولك يا امرأة، لم تأت ساعتي بعد. فقالت أمه للخدام: مهما يأمركم به فافعلوه».

افعلوه... إنه سرور، سرور قوم مغرقين في الفقر... لا شك في أنهم كانوا فقراء بدليل عوزهم للخمر حتى في العرس... ويقول المؤرخون إن القوم الذين كانوا يقطنون في جوار بحيرة جِنّاسَر (طبرية) في ذلك العصر، كانوا أفقر مما يتخيله العقل... ولكن كانت هناك نفس عظيمة أخرى، كائن عظيم آخر، أمه، التي عرفت أنه جاء لا ليقدم فقط تضحيته العظيمة الهائلة، بل ليكون قلبه مفتوحاً أيضاً للافراح البسيطة الخالية من مظاهر البذخ، التي اقامها قوم مغمورون اميون، دعوة إلى وليمة الزفاف التي اعدوها. لقد قال «لم تأت ساعتي بعد» وهو يبتسم ابتسامة رقيقة (وما من ريب في أنه ابتسم لها ابتسامة رقيقة)، ولعمري، هل كان مجيئه إلى الأرض لكي يؤمن الخمر لأعراس الفقراء؟ ومع ذلك فقد ذهب وصنع ما سألته أن يصنع... آه إنه يتابع التلاوة...

«فقال لهم يسوع: املأوا الأجاجين ماء، فملأوها حتى حافتها. فقال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ، ففعلوا. فلما ذاق رئيس **المتكأ** الماء المحول خمراً، ولم يكن يعلم من أين جيء به؛ (وأما الخدام الذين استقوا الماء فكانوا يعلمون) دعا رئيس المتكأ العروس، وقال له: كل إنسان إنما يأتي بالخمر الجيدة أولاً فإذا سكر المدعوون أتى بالخمر الدون، أما أنت فأبقيت الخمر الجيدة إلى الآن».

ولكن ماذا أرى، ماذا أرى؟ لم اخذت الغرفة تتسع؟... آه، أجل إنه الزفاف، العرس... أجل، لا ريب في ذلك. ها هم المدعوون، وها هما العروسان جالسان، والجمهور المبتهج و... أين رئيس المتكأ العاقل؟ ولكن من هذا؟ من؟ إن الجدران تتباعد مرة أخرى... من الذي ينهض هناك عن المائدة الكبرى؟ ماذا؟ هو أيضاً موجود هنا؟ ولكنه مسجى داخل التابوت... ومع ذلك فهو هنا أيضاً... لقد نهض، ورآني، إنه مقبل علي... يا إلهي!

أجل، لقد أقبل عليه، ذلك الشيخ الناحل الجسم المتغضن الوجه، وهو يبدو مرحاً ويضحك ضحكة رقيقة. ولم يعد التابوت هناك الآن، وجاء هو في الملابس ذاتها التي استقبل بها أمس عواده الذين التفوا حوله وهو جالس. وكان وجهه مكشوفاً. وعيناه تتألقان. فكيف حدث إذاً أنه هو أيضاً دعي إلى الوليمة. إنه هو أيضاً في عرس قانا الجليل...

وسمع صوتاً ناعماً يخاطبه: نعم، يا عزيزي، فأنا أيضاً دعيت، ثمة دعوة وأمر بالحضور. وأنت لم انزويت بنفسك هنا، بعيداً عن الأبصار؟ هلم وانضم إلينا أيضاً.

إنه صوته، صوت الأب زوسيما. ولا بد أن يكون هو، ما دام قد دعاه.

وأمسك الناسك بيد اليوشا ورفعه فنهض من ركعته.

وتابع الشيخ الناحل الجسم، القصير القامة كلامه قائلاً: إننا نفرح هنا، ونشرب الخمر الجديدة، خمر المسرة الجديدة العظيمة؛ المدعون كثر، أترى؟ ها هما العروسان، وها هو رئيس المتكأ العاقل، إنه يذوق الخمر الجديدة. غريبة نظرتك إليّ، لماذا؟ لقد تصدقت ببصلة على سائل، ولهذا فأنا موجود هنا أيضاً... كذلك تصدق ببصلة غالبية الموجودين هنا، ببصلة صغيرة واحدة... وما هي اعمالنا كلها؟ وأنت يا فتاي الدمث الكريم، لقد عرفت أنت كيف تتصدق اليوم ببصلة على امرأة أمضها الجوع. ابدأ عملك، يا فتاي الحبيب، ابدأه!... هل ترى إبننا، هل تراه؟

فهمس اليوشا قائلاً: إنني وجل... ولا أجرؤ على النظر إليه.

ـ هل تخافه؟ إنه هائل في عظمته، رهيب في سموه، ولكن رحمته لا حد لها. لقد جعل نفسه شبيهاً بنا بدافع من المحبة، وإنه يفرح معنا. إنه حول الماء خمراً ليبقى المدعوون فرحين إنه ينتظر ضيوفاً آخرين. وهو لا ينفك عن دعوة ضيوف جدد. أترى، ها هم يجلبون خمراً جديدة. انظر يحضرون الآنية...

وأحس اليوشا بشيء يتوهج في قلبه ويكاد يعصره ألماً. وفاضت نشوته دموعاً ملأت عينيه... فمد يديه وصرخ صرخة ثم استيقظ.

وجال نظره من جديد على التابوت والنافذة المفتوحة، وسمع الانجيل

يتلى بوضوح وعذوبة وخشوع. ولكن اليوشا لم يكن يستوعب التلاوة. وكان ما حدث له يبعث على الاستغراب، فقد أغفى وهو راكع، ولكنه وقف الآن منتصباً على قدميه، وفجأة، كما لو أنه دفع إلى الأمام، خطا ثلاث خطوات ثابتة سريعة متجهاً إلى التابوت. وقد مس بكتفيه الأب بيسي ولم يشعر. فرفع الأب بيسي بصره لحظة من كتابه، ولكنه أشاح عنه حالاً، إذ لاحظ أن امراً غريباً يجري للفتى. ووقف اليوشا نصف دقيقة مثبتاً بصره على التابوت، والرجل الميت الذي كان مسجى فيه بعد أن انطفأت شعلته. كانت على صدره ايقونة، وعلى رأسه قناع ذو صليب مثمن الزوايا، لقد كان لتوه يسمع صوته، وكان الصوت لا يزال يرن في أذنيه. وكان يقف مصيخاً بسمعه، متوقعاً أن يسمع مزيداً من الكلمات، ولكنه تحول فجأة عن التابوت بحركة سريعة وغادر الغرفة.

وعندما بلغ درجات الغرفة لم يتوقف أيضاً، بل هبطها مسرعاً. لقد كانت نفسه مفعمة هياماً، وكان يبغي الحركة، والانطلاق. وكانت قبة السماء المرصعة بالنجوم المتألقة، تمتد فوقه إلى أبعاد مترامية الاطراف لا يحصرها البصر. وكانت المجرة تمتد في خطين باهتين من سمت السماء إلى الأفق. وكان الكون غارقاً في ظلمة الليل الساكن وبدت أبراج الكاتدرائية البيضاء وقبابها الذهبية متألقة تحت زرقة السماء اللازوردية، وكانت أزهار الخريف الفاتنة تترقب بزوغ الفجر متثاقلة في احضان الخمائل المحيطة بالمنزل. ثمة سكون واحد متصل بين الأرض والسماء، اتصال سر الأرض بسر الكواكب...

توقف اليوشا عن السير، ثم حدق فيما حوله، وفجأة انكب على الأرض يريد معانقتها، ولم يدرك دافعه إلى ذلك وما كان في وسعه أن يوضح سبب الشوق الذي ألح عليه لتقبيلها. لتقبيلها كلها. ولكنه قبلها باكياً، منتحباً، وبللها بدموعه، وأقسم من أعماق قلبه بأن يحبها، حباً دائماً ابدياً. وكان قول الناسك «بلل الأرض بدموع فرحك واحب تلك الدموع» يتردد في جوانب نفسه.

وما الذي يبكيه؟

إنه كان في نشوته يبكي النجوم التي كانت تتألق له في الفضاء

السحيق، لم تكن تلك النشوة تخجله. وبدا له أن هنالك خيوطاً متصلة بالعوالم التي لا حصر لها والتي أبدعها الله، وأن روحه متصلة بتلك العوالم، عبر الخيوط عينها، ولذلك هي ترتعش واحس برغبة في ان يصفح عن الجميع وعن كل شيء، وأن يلتمس الصفح، لا لنفسه، بل لجميع الناس، للجميع ومن أجل كل شيء. وتردد في نفسه كذلك: «إن آخرين يصلون لأجلي أيضاً» ولم يزايله ذلك الشعور الواضح لحظة بأن شيئاً ثابتاً لا يتزعزع في قبة السماء كان يدخل روحه. وخيل إليه أنه يلمس ذلك الشيء. وكان كمن ملكته فكرة ما، وبقي هكذا طوال حياته. لقد جثا على الأرض فتى ضعيفاً، ونهض بطلاً عاقد العزم. شعر بذلك وادركه فجأة، في نفس اللحظة التي تملكته فيها النشوة، ولم يقو اليوشا قط طوال حياته على نسيان تلك اللحظة.

وكان لا يفتأ يقول فيما بعد، بإيمان كامل: إن شخصاً ما قد زار روحي في تلك الساعة.

وامتثالاً لمشيئة ناسكه الذي أمره «بأن يضرب في الأرض» كان اليوشا، خلال أيام ثلاثة، يغادر الدير.

